الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة 1- الحاج لخضر

كلية العلوم الإسلامية

قسم اللغة والحضارة الإسلامية

نيابة العمادة لما بعد التدرج

والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

- دراسة مقارنة-

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الطور الثالث في العلوم الإسلامية

تخصص: اللغة والحضارة الإسلامية

إعداد الباحثة

نبيلة شلابي

إشراف الأستاذ الدكتور

عمر حيدوسي

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
فؤاد بن عبيد	أستاذ	جامعة باتنة -1-	رئيسا
عمر حيدوسي	أستاذ	جامعة باتنة -1-	مقررا
مبارك جعفري	أستاذ	جامعة أدرار	عضوا
جمعة زروال	أستاذ	جامعة باتنة -1-	عضوا
علي عشي	أستاذ	جامعة باتنة -1-	عضوا
مولود عويمر	أستاذ	جامعة الجزائر-2	عضوا

السنة الجامعية: 1441 – 1442 هـ / 2020 – 2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام الشافعي:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرج هـمٍ واكتساب معيـشة وعلـم وآداب وصحـبة ماجد
وإن قيل في الأسفار ذلٌ ومحنـة وقطع الفيافي واكتساب الشدائد
فموت الفتى خـير له من حياته بدار هوان بين واشٍ وحـاسد

ديوان الإمام الشافعي

إهداء

إلى عائلتي الغالية:

أمي نبع الحنان وأبي بر الأمان أطال الله في عمرهما.

إخوتي الأعزاء وأخواتي العزيزات وفقهم الله جميعا لكل خير.

إلى كل أفراد عائلة زوجي كبيرا وصغيرا حفظهم الله جميعا.

إلى أسرتي الصغيرة:

زوجي الغالي الذي كان لي سندا بصبره وتضحياته الكبيرة.

كتكوتي الصغير محمد نور الإسلام حفظه الله وأنبته نباتا حسنا.

إلى روح "طائر الجنان" فلذة كبدي ساجد برهان الدين جعله الله دخرا.

إلى كل الإخوان والأصدقاء والأقارب.

إلى كل من خطّ قلمه من أجل العلم.

إلى كل باحث عن الحقيقة.

إلى وطني العزيز الجزائر.

إلى أمتي الإسلامية أعزها الله.

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي المتواضع.

شكر وعرفان

أحمد الله تعالى حمد المقر بالعجز عن شكر نعمته فالشكر له ابتداء ومآلا وبعد:

فيشرفني تقديم شكري الخالص للأستاذ المشرف الدكتور عمر حيدوسي على توجيهاته السديدة ومجهوداته المبذولة من أجل إتمام هذا العمل.

كما أشكر كل من مدّ لي يد العون و كل من ساهم من قريب أو من بعيد، والشكر موصول إلى كل من كانت لهم أيادي بيضاء، لكل من ساهم بكلمة طيبة أو دعاء... من أجل إخراج هذا العمل في صورته النهائية.

والشكر الخاص لكل أعضاء لجنة المناقشة لقبولهم مناقشة هذه الدراسة

وسآخذ ملاحظاتهم القيمة بعين الاعتبار.

فشكرا جزيلا لكل هؤلاء وجازاهم الله عني كل خير.

مقدمة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه المخلصين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإنّ التاريخ ذاكرة الشعوب، وإنّ شعبا لا يملك تاريخا هو شعب فاقد للذاكرة، يعيش على هامش التاريخ، والجزائر من الشعوب التي مرت عليها تجارب تاريخية زاخرة بالعبر والدروس، لكن رغم امتلاك شعب الجزائر لتاريخ عريق يعتز به، إلا أنّ هذا التاريخ لا زال يراوده الغموض، لقلّة الكتابات الوطنية الجزائرية، أو حتى العربية، نظرا للإشكالية الواضحة لدى الجزائريين والتي تتمثل في قلّة كتابتهم للتاريخ رغم صناعتهم له، وهذه مشكلة شعوب المغرب الإسلامي عموما.

ويعتبر العهد العثماني في الجزائر من أكثر المراحل التاريخية غموضا؛ فهو لايزال مجهولا في بعض نواحيه، ويعاني قلّة المصادر العربية التاريخية التي تتحدث عن جوانبه المختلفة؛ سياسيا عسكريا، اجتماعيا، اقتصاديا، وثقافيا..، وفي المقابل اهتم الأجانب بالكتابة عن الجزائر في العهد العثماني وتحدثوا عن تفاصيل هامة عن مختلف نواحي الحياة العامة فيها، خاصة الأسرى والقناصل والرحالة، إذ عرفت الجزائر في العهد العثماني عددا غير قليل من الرحالة، سواء محليين أو غرباء عنها الذين جاءوا إليها لأغراض مختلفة، وعند عودتهم إلى بلدانهم الأصلية أصدروا كتبا على شكل رحلات تحدثوا فيها عن تجاربهم الشخصية في الجزائر، وعلاقاتهم بأهلها، وعبّروا عن مواقفهم من قضاياها الدينية والاجتماعية والثقافية.. وغيرها، إذ تعتبر هذه الرحلات بمثابة ذلك الشريط السينمائي الذي يصور منظرا ما أو حدثا تاريخيا هاما، وبذلك تعد الرحلة تجربة بشرية مليئة بالمعارف، خاصة عندما أصبحت فنّا قائما بذاته في مجال الأدب والجغرافيا والتاريخ..، وقد قدّم الرحالة العرب على مرّ العصور خدمات جليلة في دراسة أحوال البلاد العربية والإسلامية من مختلف نواحيها، وخاصة الرحالة المغاربة، نظرا لكثرة دوافعهم في القيام بمثل هذه الرحلات والتي من أهمها: الدافع الديني المتعلق بأداء فريضة الحج وزيارة المدينة المنورة، والدافع العلمي المتعلق بطلب العلم من منابعه الأصلية مكة

المكرمة والمدينة المنورة، ومن المراكز الأخرى في الدولة الإسلامية كبغداد ودمشق والقاهرة وغيرها، وبما أن الرحلة كما هو معلوم تجد فيها صورة السياسة والاقتصاد والدين والمجتمع والثقافة، فإن الرحالة على هذا الأساس لابد أن يحوز الزاد الكافي الذي يمكنه من رواية قصة رحلته أو نقلها إلى كتابه كما يجب أن تتعدد مواهبه وتتنوع ثقافته، وهو في كل الأحوال ينطلق من واقع يعيشه ويتأثر به، ومن مرجعية خاصة به تطغى على رحلته، باعتبار أن الرحالة غالبا ما يمثلون الطبقة المثقفة في عصرهم، فهم من الأدباء والفقهاء والقضاة..، فالقائم بالسفر منهم لا يمكنه أن يكون رحالة بالمفهوم الحقيقي للكلمة إلا إذا طبع رحلته بشخصيته من خلال طبيعة تكوينه، ونوع اختصاصه، وبذلك تكون الرحلة مرتبطة بالواقع تنقل صوره وأخباره وقصصه وحكاياته بتعددها وتنوعها.

وتعد القرون الثلاثة للعهد العثماني بالجزائر فترة مهمة في تدوين الرحلات المغاربية لا يمكن لأي باحث في تاريخ الجزائر الحديث تجاوزها أو إغفالها لاحتوائها على مادة علمية لا يستهان بها في دراسة مختلف جوانب الحياة في تلك الفترة، ومن بين تلك الرحلات نجد منها رحلات جزائرية، ورحلات مغربية كثيرة، اخترت منها ثمان عشرة رحلة، قام بها أصحابها ما بين القرن 10هـ/16م، والقرن 13هـ/19م، استطاع من خلالها الرحالة تسجيل مادة تاريخية هامة تخص إيالة الجزائر سياسيا وعسكريا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، وحتى طبيعيا. ومن هذه النقطة تبدأ ملامح إشكالية هذه الدراسة بالظهور، والتي تتمحور حول كيفية وصف هذه الرحلات لمختلف أوضاع الجزائر في تلك الفترة.

إشكالية الدراسة:

ومما سبق يمكن طرح الإشكالية الرئيسة كالتالي: **من خلال رصد الرحلات المغاربية داخليا وخارجيا، وبيان منهجها ومصادرها ومنهجية تدوينها ودوافعها وامتداداتها: كيف وصفت هذه الرحلات الأوضاع العامة للجزائر في العهد العثماني؛ طبيعيا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا، وإلى أي مدى اتفقت أو اختلفت الرحلات المغربية عن نظيرتها الجزائرية؟**

وتنبثق عن هذه الإشكالية عدة أسئلة فرعية يمكن حصرها فيما يلي:

1_ ما هي أهم الرحلات المغاربية من وإلى الجزائر في العهد العثماني؟

2_ ما هي ملامح منهج الرحالة المغاربة في تدوين رحلاتهم؟
3_ ما هي دوافع الرحلات المغاربية من وإلى الجزائر في العهد العثماني وما دواعي التأليف فيها؟
4_ هل كان للرحلات المغاربية امتدادات على المستوى المعرفي؟
5_ ماهي الأوضاع التي تناولتها الرحلات المغاربية عن الجزائر خلال التواجد العثماني بها؟
6_ ما مدى مصداقية وموضوعية هذه الرحلات عند مقابلتها ومقارنتها ببعض؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة وأخرى يمكن وضع فرضيات تساعد على دراسة الإشكالية المطروحة؛ إذ تفترض هذه الدراسة:

_ أن دوافع الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني لا تختلف كثيرا بين المغربية والجزائرية، فالدافع الأساس عندها هو طلب العلم والحج، وتفرد الرحلات المغربية بالدافع السياسي الذي جسدته الرحلات السفارية.

_ تركيز أغلب الرحلات المغاربية على جوانب من أوضاع الجزائر دون أخرى؛ فبعضهاركزت على الأوصاف الطبيعية والأوضاع العلمية، في حين ركزترحلات أخرى على الأوضاع الاجتماعية وبعض الملامح السياسية والاقتصادية، وكلها تكمل بعضها البعض.

_ أن أغلب الرحلات المغاربية جزائرية أو مغربية تكون ذات موضوعية ومصداقية بحكم انطلاقها من رؤية داخلية (لا يصف البلد إلا أهله).

وبعد أن اتضحت ملامح إشكالية هذه الدراسة يمكن صياغة العنوان كالتالي:

الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني – دراسة مقارنة–

أهمية الدراسة:

أهمية هذا الموضوع تثبتها ثلاثة عواملهي:

1_ العوامل الذاتية: تكمن أهمية هذا الموضوع في ذاته؛ إذ أن تاريخ الجزائر الحديث (العهد العثماني) تمثل حقبة مهمة في التاريخ الجزائري، فهي فترة حاسمة لا يمكن فصلها عن باقي الفترات من تاريخ الجزائر العريق.

2_ **العوامل الحاجية:** تكمن أهمية الرحلات في اعتبارها من أهم المصادر التي تنتظر نفض الغبار عنها لدراسة تاريخ الجزائر في العهد العثماني رغم قلتها وندرتها لأن معاصرة للحدث ومؤلفوها هم شاهدوا عيان، وليس الشاهد للحدث كالسامع والناقل له، لذلك نحن في أشد الحاجة إليها.

3_ **العوامل المستدعية:** وهي الخارجة عن ذات الموضوع وتتمثل في حملات التشويه والتحريف التي شنتها الأدبيات الغربية، وخاصة المدرسة الاستعمارية الفرنسية على تاريخ الجزائر الحديث؛ فهي تنظر إلى الوجود العثماني في الجزائر على أنه استعمار همجي كمن سقبه من الاحتلال الفينيقي والروماني..، وبذلك ظل تاريخ الجزائر الحديث يعاني من آثار هجمة التضليل والتحريف، وهذه الدراسة هي محاولة نقد هذه التشويهات، والتحريفات.

أهداف الدراسة:

أطمح في دراستي لهذا الموضوع إلى تحقيق عدة أهداف منها:

_بيان أهمية أدب الرحلة في التاريخ، ومدى مساهمة الرحالة المغاربة في حفظ التراث الجزائري.

_إلقاء الضوء على الحياة العامة، السياسية والاجتماعية والثقافية للجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، حتى أتمكن من تفنيد المقولة الاستعمارية القائلة: أن الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي كانت عبارة عن خراب، وذلك من خلال مؤلفات الأوروبيين، فتكون بذلك حجتهم داحضة بشهادة شاهد من أهلها.

_لفت انتباه الباحثين في تاريخ الجزائر الحديث، أو غيره من العصور الأخرى إلى المصادر النادرة، والأصلية المعاصرة للحدث، على غرار الرحلات، والمذكرات والمراسلات، وغيرها من الوثائق التي مازالت مجهولة تنتظر من يبحث فيها، وينفض عنها الغبار، ويخرجها من ظلمات الأرشيفات، والمتاحف إلى نور البحث والدراسة؛ ليزود ذلك مخزون المكتبة الوطنية الفقيرة لمثل هذه الدراسات.

_المقارنة بين الرحلات الجزائرية والمغربية لمعرفة المرجعية التي انطلقت منها هذه الرحلات.

أسباب اختيار الموضوع:

هناك عدة أسباب دفعتني لاختيار هذا الموضوع منها:

1_ دوافع ذاتية: تمثلت في رغبتي في سبر أغوار تاريخ الجزائر الحديث رغم قلة المصادر المتعلقة به، بالإضافة إلى امتلاك أدب الرحلة لأسلوب التشويق مما زاد في إصراري لدراسة الرحلات، وكذلك ميولي لمنهج المقارنة في الدراسات المختلفة؛ لذلك اخترت المقارنة بين الرحلات الجزائرية والمغربية التي تحدثت عن الجزائر في العهد العثماني.

2_أسباب موضوعية: والتي تتعلق بأهمية الموضوع في حد ذاته؛ إذ أن تاريخ الجزائر الحديث هو من المواضيع الأساسية في تخصصنا "تاريخ إسلامي"، بالإضافة إلى أن أدب الرحلة يدخل ضمن تخصصنا الجديد في الدكتوراه "لغة وحضارة إسلامية"، بالإضافة إلى انتمائنا لوطننا الجزائر، فحري بنا أن ندرس تاريخ بلادنا ولا ننتظر الآخر ليبحث فيه.

المنهج المتبع في الدراسة:

نظرا لطبيعة هذه الدراسة فمن المؤكد أنهاستعتمد على المنهج التاريخي المقارن لرصد الأحداث الماضية، ويتخلله الوصف لأن الرحلات كانت تصف الأوضاع السائدة في الجزائر في العهد العثماني بحكم معاصرتها لها، وتستدعي هذه الدراسة كل من آليات التحليل والمقارنة من خلال تحليل وثائق الرحلة، وتقييمها، ومقارنتها ببعضها البعض؛ لمعرفة مدى مطابقتها للوقائع التاريخية، نظرا لطبيعة البحث بالإضافة إلىآلية الاستقصاء التي تستدعي جمع وتقصي الرحلات المغاربية المتوفرة من أجل الدراسة.

المنهجية المعتمدة في الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة على التقنيات البحثية التالية:

1_ استخدام الآيات القرآنية الكريمة برواية حفص عن عاصم بالرسم العثماني.

2_ تخريج الأحاديث ووضعها بين قوسين (..)، وكتابتها بخطّ غليظ.

3_ وضع النقول الحرفية بين شولتين "..." وإبرازها بخطّ غليظ.

4_ عند نقل النص والتصرف فيه يكتب في شكل فقرة عادية ولا يوضع بين شولتين، ويكتب في التهميش "ينظر:"

5_ توثيق بيانات المصادر والمراجع يكون على النحو التالي:

_ ذكر اسم المؤلِف، اسم المؤلَف (عنوان الكتاب)، دار النشر، مكان النشر، رقم الطبعة، تاريخ النشر، رقم الصفحة، رقم المجلد أو الجزءإن وجد / الصفحة.

_ ذكر اسم المؤلف(اسم الشهرة)، العنوان مختصرا، الصفحة. إذا ذكر المصدر من قبل في صفحات سابقة.

_ اسم المؤلف، المصدر السابق، الصفحة. إذا ذكر المصدر أو المرجع في نفس الصفحة وقبله مصدر أو مرجع آخر.

_ المرجع نفسه، الصفحة، عندما يكون استخدام المصدر أو المرجع متتاليا في نفس الصفحة.

6_ في حال عدم توفر بيانات النشر اكتفيت بذكر ما يلي:

_ د. م: في حال عدم توفر معلومات النشر كاملة

_ د. ط: في حال عدم توفر رقم الطبعة

_ ط خ: طبعة خاصة

_ د. ت: في حال عدم توفر تاريخ النشر

7_ استخدام الرموز كالتالي:

_ تر: ترجمة

_ تق: تقديم

_ تح: تحقيق

8_ اقتصرت على ذكر بيانات المصادر الرئيسية المتمثلة في الرحلات مختصرة كالتالي:

_ العياشي، الرحلة العياشية، ج/ص

_ الورثلاني، الرحلة الورثلانية، ج/ص

_ ابن عمار، نحلة اللبيب، ص

_ التمقروتي، النفحة المسكية، ص

_ ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص

_ الوزان، وصف إفريقيا، ج/ص

_ المكناسي، الإحراز، ص

_ الدرعي، الرحلة الناصرية، ص

_ الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص

_ الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص

_ الزياني، الترجمانة، ص

_ المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص

_ المعسكري، فتح الإله، ص

_ ابن حمادوش، لسان المقال، ص

_ ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص

_ عمر الأكبر التنلاني، الرحلة إلى فاس، ص

_ الأغواطي، الرحلة، ص

_ ابن هطال، رحلة الباي، ص

9_ تجنبت ترجمة الأعلام إلا نادرا، نظرا لكثرتهم وشغلهم حيزا كبيرا من الرسالة يزاحم المادة العلمية الأصلية.

10_ قمت بشرح بعض المصطلحات الغامضة ورمزت لها بالنجمة: *....

صعوبات الدراسة:

من الصعوبات العلمية التي واجهتني في إنجازي لهذا البحث: قلة المصادر والمراجع المتعلقة بالرحلات، فمعظم الرحلات غير متوفرة بنسخها الأصلية كما أن الكثير منها مفقودة الأجزاء أو مبتورة، مما اضطرني للاعتماد على المصادر المحققة، رغم نقائصها، فرحلة ابن حمادوش مفقودة الجزء الأول وجزؤها الثاني فقط هو المعني بالدراسة، ورحلة ابن عمار مفقودة والجزء المتوفر منها هو المقدمة فقط، ورحلات كل من ابن زاكور المغربي، وابن إدريس التنلاني، وأبو حفص عمر الأكبر غير متوفرة إلا في كتاب واحد تحت عنوان: "**ثلاث رحلات مغربية ومجموع رحلات جزائرية**"، كما واجهتني صعوبة تقسيم عناصر الدراسة باعتمادي على الرحلات فقط مع العلم أن لغة الرحلات صعبة نوعا ما باعتبارها لغة قديمة، والكثير من ألفاظها غير متداولة في وقتنا الحالي

فعلى سبيل المثال رحلة ابن عمار المتوفرة مازالت إلى الآن بالخطّ المغربي القديم، كما أن أغلب الرحلات لم تعتمد وضع عناوين لموضوعات الرحلة، لذا وجدت صعوبة كبيرة في صياغة العناوين.

الدراسات السابقة:

عند بحثي في موضوع الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني، استوقفتني ثلاثة أنواع من الدراسات السابقة عن الموضوع هي:

أولا: دراسات في صميم الموضوع

وهي الدراسات التي تدور حول حدود الدراسة الثلاث: الرحلات، الجزائر، والعهد العثماني، ومن أبرزها:

1_ الجزائر في القرن الثامن عشر من خلال بعض الرحالة العرب والأوربيين، دراسة مقارنة: من إعداد الطالب بلعمري فاتح تحت إشراف الأستاذ أحمد صاري، وهي رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة قسنطينة، تمت مناقشتها سنة 2009 م، تناولت هذه الدراسة أهم الرحلات الأوربية والعربية التي جاءت إلى الجزائر أو مرت بها في العهد العثماني،ومن الرحلات المغاربية التي تناولتها رحلتي: ابن حمادوش الجزائري والمعسكري، وقد ركزت هذه الدراسة على ذكر المنشآت العمرانية والمرافق العامة بالإضافة إلى تركيزها على الأوضاع الاجتماعية للجزائر أواخر العهد العثماني، أما دراستي فركزت فيها على الأوضاع العامة للجزائر في العهد العثماني على مدى ثلاثة قرون (16م- بداية19م) سواء الأوضاع السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية، بالإضافة إلى دراسة حول كتب الرحلات من حيث المنهج وطريقة تدوينها، وغيرها مما يتعلق بالرحلة.

2_ النشاط التجاري بين الجزائر وتونس خلال النصف الأول من القرن 18م من خلال رحلات المغاربة: وهي عبارة عن رسالة مقدمة لنيل درجة الماجيستير في التاريخ، من إنجاز الطالب سمير مشوشة تحت إشراف الأستاذ أحمد صاري، والتي نوقشت سنة 2014م بجامعة قسنطينة، وما يهمنا في هذه الدراسة هو تناولها لأهم الرحلات المغاربية التي تؤرخ للعلاقات التجارية بين الجزائر وتونس، فقد ذكر كل من رحلات كل من

الجزائريين: أحمد بن عمار والمعسكري والورثلاني، ومغربيين: المكناسي، والزياني، وكل هذه الرحلات ستكون نماذج في دراستي مع رحلات أخرى، لذلك فدراستي ستكون أوسع بكثير من هذه الدراسة خاصة وأنها اقتصرت على جزئية صغيرة من أوضاع الجزائر تتعلق بالنشاط التجاري بين الجزائر و تونس، في حين دراستي تناوت مختلف الأوضاع المتاحة في جميع الرحلات المدروسة وهي ثمان عشرة رحلة.

3_ مدينة وهران من خلال كتابات الجغرافيين والرحالة والمؤرخين: وهو مقال من إنجاز الأستاذ علي بوتشيشة، أستاذ محاضر بمعهد الآثار بجامعة أبو القاسم سعد الله(الجزائر2)، نشر هذا المقال بمجلة "الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية"، في عددها19، في جانفي 2018م، من بين مواضيع هذا المقال: وهران في رحلتي: الوزان، والتمقروتي، وهو موضوع جزئي بالنسبة لموضوعي، إذ تعتبر وهران إحدى مدن الجزائر الموصوفة من طرف رحلتين مغربيتين، أما دراستي فهي شاملة لمختلف المدن الجزائرية في ثمان عشرة رحلة مغاربية.

4_الأضرحة والمزارات في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات المغربية: وهو مقال من إعداد الأستاذين: بوسليم صالح من جامعة غرداية، وبن قايد عمر من جامعة قاصدي مرباح بورقلة، والذي نشر في مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية في عددها 21، سنة 2015م، أبرزت المداخلة الدور الفاعل الذي اضطلع به الرحالة المغاربة في بلورة تفاعلات الزيارات للأضرحة وقبور الأولياء والصلحاء في الجزائر، في إطار ركبهم الحجازي السنوي، ومن بين الرحلات المغربية المذكورة في الدراسة رحلة كل من: العياشي، والحضيكي، والدرعي والتمقروتي، وآخرون، ونقطة تقاطع هذه الدراسة مع موضوعي في تناولها لجزئية صغيرة من بحثي تمثلت في الأضرحة والمزارات في الجزائر من خلال بعض الرحلات المغربية، وهي جزء من عنصر ظاهرة التصوف التي عالجتها في دراستي.

5_يوم دراسي بعنوان: الرحلة خلال العهد العثماني _الكتابة التاريخية عند مؤرخي العهد العثماني بالجزائر خلال القرنيين 17و 18م دراسة في بعض النماذج، من تنظيم قسم البحث: سوسيوأنتروبولوجيا التاريخ والذاكرة، مع مشاركة مخبر البحوث والدراسات

الإستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، والذي انعقد بتاريخ 11 فيفري عام 2016م، قدم هذا اليوم الدراسي مجموعة كبيرة من البحوث الجادة والقيمة في الرحلة المغاربية التي تخص الجزائر في العهد العثماني، ومن المواضيع المتناولة: التعريف برحلة الورتلاني، أهمية رحلتي الوزان والتمقروتي في كتابة تاريخ الجزائر، صورة المغرب الأوسط في العهد العثماني من خلال الرحلة الحجازية للحضيكي، مقاربة اثنوغرافية في رحلة الأغواطي، التعريف برحلة ابن زاكور الفاسي المسماة "نشر أزهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان"، الرحلات الجزائرية بين جغرافية المكان والتواصل المعرفي"رحلة أبو راس الناصر المعسكري أنموذجا"، حركة التأليف بالجزائر خلال العهد العثماني "كتب الرحلات أنموذجا"، وغيرها من المداخلات التي تصب جميعها في مجال الرحلة المغاربية في العهد العثماني، و التي عرجت على أغلب الرحلات المغاربية التي تناولتها دراستي.

ثانيا: دراسات خادمة للموضوع

تتمثل في الدراسات الأكاديمية التي لها تقاطع مع موضوعي في إحدى حدوده الثلاثة المذكورة، ومن بين هذه الدراسات:

6_فن الرحلة في الأدب المغربي القديم: وهي أطروحة دكتوراه دولة في الأدب القديم، أعدها الباحث إسماعيل زردومي تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد الله العشي بجامعة الحاج لخضر بباتنة، وتمت مناقشتها سنة 2005م، تناول الباحث مجموعة من الرحلات المغاربية جزائرية ومغربية منها رحلات كل من: العياشي والورثلاني في ما يخص العهد العثماني.

7_أدب الرحلة الجزائري الحديث "سياق النص وخطاب الأنساق": وهي أطروحة دكتوراه علوم في الأدب الجزائري الحديث، من إعداد الباحث عيسى بخيتي تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد مرتاض، والتي نوقشت سنة 2015م بجامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان، تناولت الدراسة أغلب الرحلات الجزائرية في العهد العثماني التي تناولها موضوعي، وهي رحلات كل من: ابن عمار والمقري والورثلاني، وابن حمادوش والمعسكري، و ابن هطال والأغواطي.

8_الرحلة الجزائرية في العهد العثماني "بناؤها الفني أنواعها وخصائصها": وهي أطروحة دكتوراه علوم في الأدب العربي، من إعداد الباحث الطاهر حسيني، تحت إشراف الأستاذ الدكتور العيد جلولي جامعة قاصدي مرباح بورقلة، والتي نوقشت سنة 2014م، تناول الباحث أهم الرحلات الجزائرية في العهد العثماني ووزعها حسب أغراضها، فذكر رحلة الورثلاني كنموذج للرحلات الحجية، ورحلتي الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي والقمرية ضمن الرحلات الرسمية والجهادية، ورحلة المعسكري نموذج للرحلات العلمية.

وهذه الدراسات الثلاث عبارة عن دراسات في الأدب تناولت الرحلات كمؤلفات أدبية، أما دراستي فهي عبارة عن دراسة تاريخية.

ثالثا: كتب خادمة للموضوع

ركزت على الكتب التي كانت عبارة عن أطروحة دكتوراه ثم طبعت كتابا وهي:

9_ الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري "دراسة في النشأة والتطور والبنية": وهي دراسة كانت عبارة عن أطروحة دكتوراه في الأدب الجزائري، قامت بإنجازها الأستاذة سميرة أنساعد، ثم طبعت على شكل كتاب سنة 2009م ونشرت بدار الهدى بعين مليلة (الجزائر)، تناولت الدراسة الرحلات الجزائرية إلى المشرق من قديما وحديثا، استفدت منها فيما يخص الرحلات الجزائرية إلى المشرق في العهد العثماني، وعلى رأسها رحلة المقري والورثلاني والمعسكري..وغيرهم.

10_ كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين دراسة تحليلية نقدية مقارنة:وهي دراسة قامت بإنجازها الباحثة عواطف بنت محمد يوسف نواب، من جامعة أم القرى بمكة بالمملكة العربية السعودية، وطبعت على شكل كتاب من طرف دارة الملك عبد العزيز سنة 2008م، وقد شملت الدراسة بعض الرحلات المغربية التي تناولتها دراستي، وهي رحلات كل من: العياشي، والحضيكي، والدرعي.

وقد استفدت من الدراستين في معرفة أهم الرحلات الجزائرية من الأولى، وأهم الرحلات المغربية من الدراسة الثانية.

كما توجد أيضا دراسات أخرى لها علاقة بالموضوع سيتم الحديث عنها لاحقا في عنصر امتدادات الرحلات المغاربية.

ورغم وجود هذه الدراسات المتعلقة بموضوع الرحلات المغاربية إلا أنها لم تكن بالقدر الكافي لسد الفراغ الموجود في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، لاقتصار تلك الدراسات على بعض الرحلات دون الأخرى، ومعالجتها لبعض الجوانب من تاريخ الجزائر وإهمالها لجوانب أخرى، لذلك أردت من خلال دراستي هذه أن أقدم جملة من الرحلات المغاربية التي عرفتها الجزائر في العهد العثماني، ومحاولة الإلمام بمختلف أوضاع الجزائر في تلك الفترة (طبيعيا سياسيا اجتماعيا وثقافيا) من خلال ما جاء في تلك الرحلات، وبذلك يكون مجال دراستي أوسع أكثر وأشمل من الدراسات السابقة.

حدود الدراسة:

تحدد أي دراسة تاريخية بثلاثة حدود: زمانيا ومكانيا ومعرفيا، ومن هذا المنطلق يمكن رسم حدود موضوع هذه الدراسة فيما يلي:

_العهد العثماني(الحدّ الزماني): الذي استمر في الجزائر حوالي ثلاثة قرون (1518-1830م).

_الجزائر (الحدّ المكاني): وهي أحد أقطار المغرب الإسلامي، وكانت تسمى قبل مجيء العثمانيين بالمغرب الأوسط.

_الرحلات (الحدّ المعرفي): وهي عبارة عن مؤلفات دونها أصحابها بعد تجربة من السفر لدوافع مختلفة، سجلوا من خلالها معلومات هامة عن الجزائر أثناء مرورهم بها.

عرض وتبرير الخطة:

قمت بتقسيم هذه الدراسة إلى بابين رئيسيين، إضافة إلى **فصل تمهيدي** عن الموضوع، الذي يحوي **مدخلا للدراسة** في مبحثه الأول،تطرقت من خلاله إلى **التعريف بمصطلح الرحلة وأدب الرحلة وما يتعلق بها من أنواع وأهمية..**، أما المبحث الثاني فيدور حول **التعريف ببلاد المغرب والجزائر في العهد العثماني**، ويبقى المبحث الثالث: الذي يدور **حول الرحلة عند المغاربة قبل العهد العثماني** من خلال الحديث عن مسيرة

الرحلة عند العرب والمغاربة وعن أدب الرحلة عند المغاربة، **وأشهر الرحلات المغاربية إلى الجزائر قبل العهد العثماني** وعلى رأسها رحلة ابن بطوطة ورحلة المقري الجد.

أما **الباب الأول** الذي يحمل عنوان: **دراسة منهجية الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني**؛ فيحوي على أربعة فصول، يعالج **الفصل الأول أهم الرحلات المغاربية**، وهي ثماني عشرة رحلة موزعة على مبحثين: **رحلات مغاربية داخلية، ورحلات مغاربية خارجية، والفصل الثاني** يعالج قضية **المنهج في الرحلات المغاربية** من خلال تقسيمه إلى مبحثين أيضا، فالأول في **منهجي الوصف والسرد**، والثاني في **منهجية التعامل مع المصادر في الرحلات المغاربية**، أما **الفصل الثالث** فيعالج قضية **منهجية تدوين الرحلات المغاربية** من خلال مبحثين هو الآخر، **المبحث الأول** في **منهجية ترتيب الرحلات المغاربية**، و**المبحث الثاني في اللغة وصياغة الأسلوب في الرحلات المغاربية**، ويبقى **الفصل الرابع** الذي يعالج **دوافع وامتدادات الرحلات المغاربية** من خلال مبحثين أيضا، **المبحث الأول** في **دوافع خاصة الرحلات المغاربية ودواعي التأليف فيها، والمبحث الثاني في امتدادات الرحلات المغاربية.**

أما **الباب الثاني** الذي عنوانه: **دراسة مضامينية الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني**، فقد قسم هو الآخر إلى أربعة فصول، تحدث **الفصل الأول** عن**أوصاف ومشاهد جغرافية وأخبار تاريخية للجزائر في الرحلات المغاربية**، من خلال تقسيمه إلى ثلاثة مباحث، يعالج **المبحث الأول أوصافا عامة لمدن وقرى جزائرية في الرحلات المغاربية**، و**المبحث الثاني** في **المشاهد الجغرافية للجزائر في الرحلات المغاربية**، أما **المبحث الثالث** فيتناول **أخبارا تاريخية عن الجزائر من خلال الرحلات المغاربية**، أما **الفصل الثاني** فيعالج **الأوضاع السياسية والعسكرية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية**، وذلك من خلال تقسيمه إلى ثلاثة مباحث أيضا، **المبحث الأول** في **الأوضاع السياسية الداخلية للجزائر**، و**المبحث الثاني** في **الأوضاع السياسية الخارجية للجزائر**، أما **المبحث الثالث** فيتحدث عن **الأوضاع العسكرية للجزائر**، أما **الفصل الثاني** فيعالج **الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للجزائر في العهد العثماني من**

خلال الرحلات المغاربية، وذلك في ثلاثة مباحث، **المبحث الأول** في **خصائص المجتمع الجزائري**، و**المبحث الثاني** في **الحالة الاقتصادية للمجتمع الجزائري**، و**المبحث الثالث** في **أزمات المجتمع الجزائري**، وكلها في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية، وأخيرا **الفصل الرابع** الذي يعالج **الأوضاع الثقافية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية**، وذلك في مبحثين، **المبحث الأول** في**الحالة العلمية للجزائر**، والثاني في **الحالة الدينية والفنية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية.**

وفي الأخير ختمت هذه الدراسة بخاتمة مجملة لأهم النتائج التي توصلت إليها من خلال بحثي في موضوع الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني.

أهم المصادر والمراجع المعتمدة في الدراسة:

اعتمدت في هذه الدراسة على مجموعة من المصادر والمراجع والتي أذكر منها:

أولا: المصادر

وتتمثل في كتب الرحلة بالأساس وهي:

_ابن زاكور الفاسي، نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان.

_أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري.

_رحلة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي الجزائريإلى الجزائر العاصمة.

_ابن الدين الأغواطي، رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين في شمال إفريقيا والسودان والدرعية.

_أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا.

_أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي السوسي، الرحلة الحجازية.

_رحلة أبي حفص عمر الأكبر بن عبد القادر التنلاني التواتي الجزائري إلى فاس.

_محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية".

_أبو العباس أحمد المقري، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق.

_الحسين بن محمد الورثلاني السطيفي الجزائري، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تع: ابن مهنا القسنطيني.

_عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال.

_عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية 1661- 1663م.

_أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية 1709- 1710م.

_محمد الطيب ابن محمد بن موسى الفاسي الشرقي، رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة.

_الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا.

_علي بن محمد التمقروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية.

_ محمد بن عبد الوهاب المكناسي، رحلة المكناسي "إحراز المعلّى والرقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب 1785".

_ أبو العباس أحمد ابن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب.

ثانيا: المراجع

وتتمثل في بعض الكتب الخاصة بتاريخ الجزائر الحديث، وبعض الدراسات الأكاديمية المتعلقة بالرحلة أساسا منها:

_ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي

_ مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث

_ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام

_ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي

_سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري "دراسة في النشأة والتطور والبنية"

_عبد القادر بكاري، منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (1519- 1830م) أطروحة دكتوراه.

_عبد الجليل شقرون، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار أبي العباس سيدي أحمد، دراسة وتحقيق، أطروحة دكتوراه.

وفي الأخير أسأل الله عزّ وجلّ التوفيق والسداد، وأرجو أن ينفعني وكل الباحثين في المجال بهذا العمل المتواضع، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين.

فصل تمهيدي:

مدخل حول الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

المبحث الأول: مدخل حول الرحلات

المبحث الثاني: حول بلاد المغرب والجزائر

المبحث الثالث: الرحلة عند المغاربة قبل العهد العثماني

فصل تمهيدي: مدخل حول الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

الرحلة والترحال والتنقل مترابطات من خصائص الإنسان، التي لازمته في تاريخه الطويل، فقد كدح لحفظ نوعه وبقائه، وصراعه مع الطبيعة ومقارعة مشاق الحياة التي واجهته في سبيل تحصيله متطلبات الحياة، وأسباب البقاء، فكانت رحلته وتنقلاته من مكان لآخر ضمانا منه لحياة آمنة، وقد صاحبت رحلته الحسية في سبيل طلب المعاش رحلة العقل والفكر، والتي سعى من خلالها في تفسير قضايا الوجود من حيث النشأة، وغاية الوجود، ومصير الحياة، والبحث ماهية ما وراء الحياة. وقد وجهت هذه الرحلة العقلية والفكرية أنماطا أربعا من التفكير تتمثل في الأسطورة، والدين، والفلسفة والعلم. ولكل مقدماتها ونتائجها.

والمهم من هذا الوقوف على الأهمية البالغة التي تؤديها الرحلة في حياة الإنسان، ولقد لمسنا ما للمغاربة من بصمة متميزة في فن الرحلة وتاريخه الطويل، وقد كان تراثهم من أهم الدلائل التي صورت لنا عبقرية المغاربي الذي جسّد قدراته العلمية والنفسية في إعطاء تراث رحلي متميز له شخصيته الخاصة التي خلفها للناشئة من بعده.

وعلى هذا فمدار دراستنا حول محور الرحلات المغاربية، والتي تبتدئ بهذا الفصل التمهيدي الذي تناول ثلاثة مباحث؛ الأول كان مدخلا عاما حول الرحلات، أما المبحث الثاني ففي الحديث عن الجزائر وبلاد المغرب، في حين كان المبحث الثالث في الرحلة عند المغاربة قبل العهد العثماني.

المبحث الأول:

مدخل حول الرحلات

المطلب الأول: حول مصطلح الرحلة

المطلب الثاني: أنواع الرحلة

المطلب الثالث: حول "أدب الرحلة"

المبحث الأول: مدخل حول الرحلات

قسّم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب:تناول المطلب الأول مصطلح الرحلة، أما المطلب الثاني ففي أنواع الرحلة، والمطلب الثالث فعن أدب الرحلة.

المطلب الأول: مفهوم الرحلة

تناول هذا المطلب مصطلح الرحلة في المعنى اللغوي، ثم تواره في الاستعمال القرآني لفظا ومضمونا، وفي محله من السنة على اختلاف أغراضه، وبعدها في اصطلاح العلماء والأدباء، وكل هذا جاء في ثلاثة فروع.

الفرع الأول: الرحلة في المعنى اللغوي

جاء في لسان العرب لابن منظور أنّ: "**الرحل: مركب البعير والناقة، وجمعه أرحل ورحال، ويقال: رحل الرجل إذا سار، وقوم رحل أي يرتحلون كثيرا، ورجل رحال عالم بذلك مجيد له، والترحيل والارتحال الانتقال، وهو الرحلة والرُحلة، والرِحلة: اسم للارتحال للمسير، يقال: دنت رحلتنا، والرُحلة بالضم: القوة والجود...، والرحلة بالضم الوجه الذي تأخذ فيه وتريده..**"[1]، ارتبط لفظ الرحلة عند ابن منظور بمعنى وسيلة النقل (البعير)، والسير والانتقال، الوجهة والمقصد.

في مقاييس اللغة لابن فارس ترد "**رحل"، للدلالة على المضي في سفر، ويقال: رحل يرحل رحلة، وجمل رحيل ذو رحلة إذا كان قويا على الرحلة**"[2]، كما ارتبط لفظ الرحلة عند ابن فارس بفعل السفر والقوة والقدرة على السفر.

كما جاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي في مادة "رحل": الرحل مركب البعير كالرواحل، جمع أرحل، وبعير ذو رحلة بالكسر والضم: قوي، وجمل رحيل قوي على السير، وارتحل البعير: سار ومضى[3]، وارتكز لفظ الرحلة عند الفيروز آبادي على الإبل القوي القادر على المضي والسير في السفر.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت، م3، 1609/18.

(2) أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، م2/497.

(3) ينظر: بحر الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1979م، 371/3.

من خلال هذه المعطيات اللغوية نستخلص أن الرحلة تحمل معاني أربعا تعد العناصر الرئيسة التي ترسم لنا صورة متكاملة للرحلة وتعطي بعدا مفاهيميا لها، وتتجلى هذه العناصر في: الرحّالة وهو صاحب الرحلة، والراحلة وهي وسيلة النقل والترحال، والوجهة وهي المكان المقصود من الرحلة، وأخيرا القصد والوجهة وهو الغاية والهدف التي دافع الرحلة.

الفرع الثاني: الرحلة في القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة

كان للرحلة حظا في الاستعمال القرآني والسيرة النبوية الشريفة، وما ذلك إلا للأهمية التي في حياة الإنسان، وقد جمعت هذه الفوائد الجمّة في قول الشاعر:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرج همّ واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد[1]

أولا: الرحلة في القرآن الكريم

لقد وردت الرحلة في القرآن الكريم عدة مرات سواء لفظا أو مضمونا:

أ_ لفظ الرحلة في القرآن الكريم

وردت كلمة "**رحلة**" في موضع واد من القرآن، في قوله تعالى:﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾[2]، وهنا ارتبطت الرحلة بعادة أهل مكة في القيام برحلة الشتاء والصيف إلى الشام واليمن لغرض اقتصادي الذي تمثله التجارة[3].

كما وردت لفظة "**رحل**" في القرآن الكريم بمعنى "**البعير**" وهي مرادفة **للراحلة** في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴾[4].

---

(1) أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ديوان الشافعي، بيت الحكمة، العلمة_ الجزائر، ط4، 2015م، ص31. نسبت الأبيات للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(2) سورة قريش، الآية (2).

(3) سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري "دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، عين مليلة_ الجزائر، د.ط، 2009م ص16.

(4) سورة يوسف، الآية (70).

ب_ مصطلحات ذات الصلة

وردت عدة المفردات تشترك مع الرحلة في الدلالة على التنقل والحركة، وللدلالة أيضا على الرحلة من دون تصريح، فكان منها: السفر، والحج، والهجرة، والسير، وغيرها، وقد وردت هذه المفردات في مواضع عديدة من الآي الكريم منها:

1_السفر: وقد وردت اثنتي عشر مرة، منها قوله تعالى:﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ ﴾[2].

2_الحج: وردت خمس وعشرين مرة في القرآن الكريمعلى اختلاف اشتقاقاتها، كقوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴾[3].

3_الهجرة: وردت باشتقاقاتها سبعا وعشرين مرة، منها قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[4].

4_السير: وردت عدة مرات، منها قوله تعالى:﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[5].

ومن هنا يتضح لنا أن الرحلة وردت في القرآن بلفظ صريح مرة واحدة، وبدلالات غير صريحة عن طريق استعمال الألفاظ التي تقتضي معناها.

ج_ دعوة القرآن الكريم إلى الرحلة:

وردت الرحلة في القرآن الكريم لمقاصد كثيرة، وبأساليب منها الأمر ومنها الترغيب، فكان من مقاصد دعوة القرآن في ذلك، والكسب، والنفر في سبيل العلم، والتدبر في أحوال الأمم الماضية وسنن الله الفاعلة، والهجرة للجهاد.

---

(1) سورة سبأ، الآية (19).

(2) سورة البقرة، الآية (184).

(3) سورة الحج، الآية (27).

(4) سورة البقرة، الآية (218).

(5) سورة الأنعام، الآية (11).

1-﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[1].

2_﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ ﴾[2]

3_﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولًا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[3].

4_﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴾[4].

5-﴿ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٍ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴾[5].

د_ رحلة الأنبياء في القرآن الكريم

تمثيلا للرحلة وتجسيدا لها، نجد أن القرآن الكريم قد أعطى في ذلك صورا من حياة الأنبياء عليهم السلام الذين اعتنوا بالرحلة، والتي نجدها قد ارتبطت بقضايا الدعوة إلى الله والتربية، كما أخبر عن أغراضهم ودوافعهم الجليلة في أسفارهم والنتائج المثمرة التي عمّ نفعها الإنسانية، وفي جملتهم: إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وموسى وهارون وسليمان عليهم السلام، ورحلة إخوة يوسف، وذي القرنيين.وإضافة إلى أهم رحلة التي تمثلت في حادثة الإسراء والمعراج في قوله تعالى:﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾[6].

---

[1] سورة التوبة، الآية(48).

[2] سورة يوسف، الآية (109).

[3] سورة الملك، الآية (15).

[4] سورة إبراهيم، الآية (32).

[5] سورة التوبة، الآية (122).

[6] سورة الإسراء، الآية (1).

ثانيا: الرحلة في السيرة النبوية الشريفة

ارتبط لفظ "**الرحلة**" في السيرة النبوية بأمرين أساسيين هما: السعي في طلب العلم والهجرة، وقد جاء ذلك على وجه الترغيب في الكثير من الأحاديث على اختلاف ألفاظها، والأمر الثاني فكان في الهجرة بالدين خوفا من بطش المشركين.

أ_ الرحلة في طلب العلم

دعا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الناس إلى طلب العلم ولو في أبعد الأماكن ولو كان في الصين، فكانت دعوته صلى الله عليه في طلب العلم امتداد لدعوة القرآن الكريم الذي أوجد الرباط المقدس بيم العلم والدين، وأمر بالعلم انطلاقا من قاعدة "اقرأ بسم ربك"، وذكر وسيلة العلم تشريفا للعلم وحركته، ومن ذلك نشأت مكتبات ضخمة في شتى العلوم والمعارف، زخرت بها التاريخ. فأقبلت الأمة على شتى أطيافها في تحصيل العلوم والتفقه في الدين، إحرازا للخيرية والفضيلة.

ومن جملة ما ورد في التراث الحديثي ما يلي:

1_«**من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة**»[1]، فالرسول الأكرم في هذا الحديث يبين مكانة العلم وفضيلة طلبه عند الله فهو الطريق الموصل إلى الجنة.

2_«من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات والأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[2]، وفي هذا الحديث بيانا أكثرا في طلب العلم ومنزلة طالبه في المنزلة.

---

[1] رواه الترمذي، باب العلم، باب إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين رقم(2646)، ينظر أبو عيسى الترمذي، الجامع الكبير – سنن الترمذي–، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ط، 1998م، 325/4.

[2] رواه أحمد في مسنده، تتمة مسند الأنصار، رقم (21715) ينظر: أحمد بن حنبل، المسند، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م، 48/36.

ب_ الهجرة

تحمل الهجرة في أبسط معانيها الانتقال من مكان إلى آخر.وهي التي جسدتها هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم،في كل من الهجرة إلى الطائف وهجرته إلى المدينة التي كانت بداية لتاريخ جديد للمسلمين، كما جسدت هذا المعنى هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة، إضافة إلى الرحلات الاستطلاعية المتعلقة بفن الحرب ومتطلباته.

1_ الهجرة إلى الطائف

وهي أول رحلة للرسول صلى الله عليه وسلم خرج إليها يلتمس النصرة من ثقيف التي كانت من أكبر القبائل ثروة وقوة وقد انفردت بالسيادة، وكانت كذلك منافسة لقريش في مجال الدين وكان وثنها اللات منافسا لوثن قريش هبل. وأما الأسباب التي دعت رسول الله إلى قصدها دون غيرها فإما لأنها المركز الثاني للقوة والسيادة في الحجاز بعد مكة، أو لأن أخواله من بني ثقيف، ولكن النتائج كانت كواقع قريش أو أشد[1].

2_ هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة

وهي الرحلة الثانية في السيرة النبوية، حيث كانت هجرته صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة المنورة.

3_ الهجرة إلى الحبشة

وفيها أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالفرار إلى الحبشة خوفا على دينهم من البلاء التي تلقوه من قريش، فالهجرة إلى الحبشة كانت اضطرارية فرارا بالدين. وكذا أنها حملت في مضمونها بعدا دعويا لأن فيها أسلم ملك الحبشة.

4_ الرحلات الاستطلاعية

تندرج ضمن السيرة النبوية وجملة غزواته صلى الله عليه وسلم، كما حدث في غزوة بدر حين طلب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم من علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة من صحابته الرحلة لغرض استطلاع أمر الماء[2].

---

[1] ينظر: أبو الحسن علي الحسني الندوي، السيرة النبوية، دار ابن كثير، دمشق، د.ط،1989م، ص213، 214.

[2] ينظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة، ص32. وأنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص19.

تشير بعض المصادر أن أهم الرحلات التي تمت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم اثنتان: رحلة تميم الداري الصحابي الذي ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم أرضا بالقرب من الخليل (فلسطين)، والرحلة الثانية قام بها عبادة بن الصامت[1].

فالرحلة في السيرة النبوية الشريفة كان الحث عليها من أجل طلب العلم أساسا، والرحلات التي جسدت على أرض الواقع كان دافعها اضطراري بالدرجة الأولى، ومن أجل الحفاظ على الدين.

نخلص مما سبق إلى أن الرحلة حركة وانتقال الإنسان من مكان لآخر لأسباب ودوافع مختلفة، وهذا ما هي المعاني التي أضفاها الواقع اللغوي للكلمة الذي لا ينفكعن المعنى الاصطلاحي، أما عن الأهمية فقد لاحظنا اهتمام القرآن الكريم بالرحلة من حيث الاستعمال اللفظي الصريح أو المضموني، فحملت: السير، والحج، والهجرة، وغيرها من المعاني، ولم تنحصر الأهمية في ورودها قرآنيا، بل الأبعد من ذلك في الأهمية دعوة القرآن الكريم لها كوسيلة للتدبر في سنن الله في الأمم والتاريخ، وقد جسدها عمليا الأنبياء عليهم السلام والصالحون في مواضع كثيرة منه، وبالإضافة إلى القرآن الكريم احتلت الرحلة أيضا نصيبا من السيرة النبوية وتاريخ الصحابة، ابتداء من هجرته صلى الله عليه وسلم، وترغيبه لها سعيا لتحصيل فريضة العلم وفضيلته.

الفرع الثالث: الرحلة في اصطلاح العلماء

لا ينفك مفهوم الرحلة اصطلاحا عن المعنى اللغوي، إذ كلاهما يشتركان في فعل الارتحال، والحركة والتنقل، وهذا ما اتضح عند بحثنا عن المعنى للرحلى في مصطلح العلماء والأدباء.

أولا: الرحلة في المعاجم الاصطلاحية

جاء مصطلح الرحلة كما عرفه شوقي ضيف في معجمه الوسيط بقوله أن: "الرحلة هي انتقال واحد أو جماعة (عائلة أو قبيلة أو أمة) من مكان إلى آخر لمقاصد مختلفة، وأسباب متعددة؛ فإن كان انتقال قبيلة أو أمة من بلاد إلى أخرى لسبب كجدب بلاده وضيقها دونهم، أو لاضطهاد وقع عليهم، أو على أثر حروب أتلفت أرزاقهم وأسباب

---

[1] ينظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة، ص32.

معيشتهم ونحو ذلك من الأسباب سميت رحلتهم مهاجرة، وهذا شأن الأمم القديمة، فالهجرة هي الخروج من أرض إلى أخرى، وهي انتقال الأفراد من مكان إلى آخر سعيا وراء الرزق، ويقال هاجر أي ترك وطنه، وهاجر من مكان كذا أو عنه أي تركه وخرج منه إلى غيره)"[1].

ومن هذا المفهوم ينبهنا شوقي ضيف لنعتبر أن الرحلة والهجرة معنيان مطابقان، عندما يتحقق القيدان، وتكون غاية الرحلة طلب الرزق، أو الخوف والاضطهاد.

أما في دائرة المعارف للبستاني جاء معنى الرحلة أكثر تفصيلا وتفريقا بين المسميات المشتركة فإن " **كان انتقال أمة من بلاد إلى أخرى لقصد الكسب بالحروب وشن الغارات ونحو ذلك سميت "غزوة" وهذا شأن عرب الجاهلية وغيرهم، وإن كان انتقال رجل أو جماعة لكشف أمور علمية أو تاريخية أو جغرافية أو لمجرد التفرج والنزهة وما يتعلق بذلك سميت "سياحة"، وإن كانت لمجرد اكتساب الرزق والانتجاع في بلاد بقصد الرجوع إلى الوطن سميت "سفرا" أو تغربا**"[2]، فالفصل بين المسميات وإن اشتركت في المعنى الواحد يعود لمقصد الرحلة والهدف والدافع من الرحالة.

ثانيا: الرحلة في مصطلح الأدباء

تعرف الرحلة عند الأدباء بأنها: مصطلح أدبي جغرافي يقصد به غالبا ذلك الصنف التأليفي الذي يختص بتتبع الراحل للحظات تنقله بذكرياته أثناء الرحلة في وصف الطرق والمجتمعات التي تواصل معها، وما لحِظه من وقائع وأحداث مع عرض أنشطته المختلفة الخاصة في حال تدوين وتسجيل الرحلة[3]، فهو يسجل ما رآه أثناء رحلته ويثبت فيها أسماء الشيوخ الذين لقيَهم، وما استفاده في مجالسهم من علوم ومرويات مع الوصف

(1) شوقي ضيف، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشرق الدولية، مصر، ط4، 2004م، ص973.

(2) بطرس البستاني، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت_ لبنان، د.ط، د.ت، 564/8، 565.

(3) البشير عمارة، التفاعل الثقافي بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال القرن(11هـ، 17م)، رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة_ الجزائر، 2014م، ص65.

الجغرافي والتاريخي للمناطق التي يمر بها[1]، وسنتعرف على هذه الأمور بالتفصيل عند حديثنا عن أدب الرحلة فيما بعد.

من خلال التعريفات الاصطلاحية للرحلة يتبين أنّها **حركة وانتقال الإنسان من مكان لآخر لأسباب ودوافع مختلفة.**

المطلب الثاني: أنواع الرحلات

تتنوع الرحلة عند الإنسان بتنوع أغراضها فمنها: الرحلة الدينية، والعلمية، والسياسية، والاقتصادية والسياحية، وغيرها، وسيتناول هذا المطلب بعض أنواع الرحلة، وذلك بالحديث عن الرحلات الدينية والعلمية في الفرع الأول، وعن الرحلات السياسية والاستطلاعية في الفرع الثاني، وعن الرحلات الاقتصادية والسياحية في الفرع الثالث.

الفرع الأول: الرحلات الدينية والعلمية

من أبرز الرحلات التي عرفها الإنسان على مرّ العصور، خاصة عند المسلمين؛ الرحلات الدينية والعلمية.

أولا: الرحلة الدينية

تحمل الرحلة الدينية في الأساس بعدا روحيا،وهذا طابع الأماكن المقدسة، ومن أبرز هذه الأماكن التي تقصد: رحلة الحج والعمرة، وزيارة الأضرحة وقبور الأنبياء والأولياء عند المسلمين، بالإضافة إلى زيارة بيت المقدس بالنسبة للمسيحيين، وغيرها من الزيارات لأماكن العبادة في مختلف الأديان والثقافات.

أ_ الرحلة الحجازية

تعتبر الرحلة إلى الحجاز بقصد أداء فريضة الحج أهم رحلة دينية عند المسلمين، امتثالا لأمر الله تعالى:﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴾[2]، ففريضة الحج والشوق لقبر

---

[1] ينظر: ابن زاكور الفاسي، نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، مطبعة فونتانة، الجزائر، د.ط، 1902م، ص28. من مقدمة المحقق.

[2] سورة الحج، الآية (27، 28).

الرسول صلى الله عليه وسلم، أهمدوافع الرحلة الحجازية، وقد حضيت الرحلة إلى الحج قيمة مقدسة في نفوس الرحالة وهو ما أبانت عنه جملة الأوصاف في رحلاتهم، وبذلك فإن الرحلة بمعناها الديني عند المسلمين تختزل اختزالا مكثفا في رحلة الحجّ خير ارتحال يشفي غليل المسلم لجلال المكان وقداسته[1].

ب_ الرحلة الزيارية

لم تقتصر رحلة المسلمين الدينية إلى الحجاز على موسم الحج فحسب، بل كان من أغراضها قصد قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم، وبقية قبور الأنبياء والأولياء أيضا، وهو ما يطلق عليها بالرحلة الزيارية، "**وهي التي يقصد أصحابها زيارة أضرحة الأولياء ومشاهدهم، فقد كان هذا هدف الرحالة الصوفيين**"[2].

إذ أن الأسفار المتسمة بالمخاطر وطول المسافة عبر عدّة بلدان لمن شأنها أن تجعل الرحالة يشعر باختلاف الأحوال الاجتماعية التي عاشها وعرفها في بلاده، ويحس بفراغ نفسي وحنين إلى الأحبة والأهل والوطن لا يسدّه إلا زيارة الأضرحة، تلك المزارات التي تعبر عن مظاهر التعلق بالماضي، ونظرا لما يحظى به السلف الصالح من تقدير، فقد رأى الرحالة فيهم ضالتهم المنشودة، خاصة في الأولياء، فخصوهم بالزيارة وتبركوا بهم مشيدين بكراماتهم وأعمالهم وسلوكاتهم، وبذلك شاعت زيارة الأضرحة في سائر الرحلات وعبر مختلف الأقطار، استجابة لرغبات نفسية لا يحس بها إلا صاحبها، فأصبحت زيارة الأولياء عادة سارية عند المسلمين، وكثيرا ما اقترنت مراحل سفرهم بذكر أسماء العديد من المزارات[3].

وبالإضافة إلى الرحلتين السابقتين (الحج، والزيارة) توجد أيضا الرحلة لنشر الدين والدعوة الإسلامية.

---

(1) ينظر: أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص26. وصادوق الحاج، "أسباب الرحلات المغاربية إلى الحجاز إبان القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي_ الجزائر، ع 10، جانفي 2017م، ص436.

(2) خضر موسى محمد حمود، أدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم، دار الكتب العلمية، بيروت_ لبنان، ط1، 2011م، ص20.

(3) ينظر: سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص26. و محمد ماكامان، الرحلات المغربية في القرنين 11 و12هـ/ 17 و18م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2014م، ص162، 166.

ثانيا: الرحلة العلمية

وهي الرحلة التي يصبو فيها الدارس إلى المزيد من تحصيل العلوم المختلفة بعد أن يستنفذ جميع سبل طلب العلم في بلده فيتجه إلى مراكز أكثر إشعاعا في عصره والتي ذاع صيت أهلها في مجالات العلوم المختلفة[1]، وهي من أشهر أنواع الرحلات وأكثرها شيوعا عند المسلمين.

وتتعدد الرحلات العلمية بتعدد أغراضها ومقاصدها، فهناك الرحلات الاستكشافية والرحلات الدراسية، ولقاء العلماء والأخذ عنهم، ورحلات التنقيب والقراءة والبحث، وأول من حقق هذا النوع من الرحلة العلمية هو: قصة النبي موسى عليه السلام مع سيدنا الخضر عليه السلام[2].

تحمل الرحلة في القديم رمزا للعالم والمتعلم، إذ يبدأ الطالب حياته العلمية بالأخذ عن علماء وطنه أو مدينته ثم يرحل لاستكمال أمر تعليمه خارج وطنه، وظلت الرحلة على الأهمية ذاتها مع توسع في الآفاق، إذ أصبحت تعتمد من قبل المؤسسات العلمية بمختلف أطوارها وتخصصاتها كوسيلة من وسائل العلمية الناجعة في تثقيف المرء وتكوينه وتنمية شخصيته، ويدخل في إطار الرحلة العلمية ما كان دافع الرحلة فيها حضور الندوات والملتقيات العلمية والأدبية ومختلف المناسبات الرسمية[3]، وهذا النوع الأخير ذا صبغة حديثة ظهر بتطور المؤسسات التعليمية الأكاديمية.

الفرع الثاني: الرحلات السياسية والاقتصادية

من الرحلات المهمة أيضا في حياة الشعوب والتي كانت منذ القدم هي الرحلات السياسية، والرحلات الاقتصادية.

أولا: الرحلات السياسية

تتعدد الرحلات السياسية تباعا لدوافعها فمنها؛ السفارية، والاستطلاعية، والرحلات الجهادية، ويطلق على هذه الرحلات بالرسمية.

---

(1) زكرياء العابد، الجزائر في العهد العثماني من خلال رحلات أوربية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة_ الجزائر، 2007م، ص17.

(2) أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص24.

(3) المرجع نفسه، ص26.

فالرحلة السفارية هي "**تلك التي يتم فيها إرسال السفراء العارفين بشؤون السياسة والحكم من قبل الملوك والحكام إلى نظائرهم في الدول الأخرى بغرض إقامة أو تحسين العلاقات أو عقد المعاهدات والاتفاقات**"[1]، وقد كانت السفارة في بداية الأمر تعني الصلح بين القوم، ثم تطورت لتصبح من المهام الدائمة للسياسة الخارجية للدول، فالغاية الأساسية من السفارة هي أن يسعى المبعوث في الصلح والوساطة وتحسين العلاقات بين البلدين وتبليغ المراسلات، بالإضافة إلى طرح المشكلات التي بإمكانها التأثير في مستوى العلاقات[2].

أما عن الرحلات الاستطلاعية، وهي التي يبتغي من ورائها الرحالة استطلاع ما خفي عليه من أحوال الأمم المختلفة، وتتعلق غالبا بالجوسسة على استحكامات البلد الدفاعية تمهيدا لغزوه[3].

وأما الرحلات الجهادية، فهي تلك الرحلة ذات الطابع الرسمي باعتبار أن اتخاذ القرار بشأنها لا يكون إلا من سلطة عليا وتحركها لن يكون إلا وفق خطّة مدروسة، وتحت إشراف سلطة رسمية، وتتخذ هذه الرحلة صفة الجهادية من كونها تتجه نحو عدو كافر محارب للمعتقد والدين معتد على ثغر من ثغور المسلمين، وهذه التسمية الإسلامية لهذا النوع من الرحلة جاء مقابل الرحلة الحربية، وصفة الجهادية تضفي على هذه الرحلة نوعا من القدسية عند المسلمين، وتتميز هذه الرحلة بطابعها العسكري[4]، وغالبا ما يكون راوي أحداث الرحلات أحد مرافقي الملوك والحكام في أسفارهم الرسمية.

ثانيا: الرحلات الاقتصادية

ترتبط الرحلة الاقتصادية هي الأخرى بأغراض مختلفة، وخاصة غرض التجارة، وأغراض أخرى كالرحلة للبحث عن عمل أو طلب إعانات، وغيرها.

---

(1) ينظر: العابد، الجزائر من خلال رحلات أوروبية، ص16.

(2) ينظر: ماكامان، الرحلات المغربية، ص343. والعابد، المرجع السابق، ص16.

(3) المرجع نفسه، ص16.

(4) ينظر: الطاهر حسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني "بناؤها الفني أنواعها وخصائصها"، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة_ الجزائر، 2014م، ص277.

فرحلة التجارة غالبا ما توظف في خدمة العمل التجاري والانفتاح الاقتصادي، والغرض منها عموما الربح وجمع الأموال بجميع الطرق وكيفما كان الحال، وقد كانت التجارة عند العرب منذ القديم دافعا لإنجاز الرحلة لكنها وصلت درجة بالغة الأهمية في العصر العباسي بعدما تطورت الحياة الاقتصادية في العالم الإسلامي واتسع نطاق التجارة فيه وتعداه إلى دول أخرى غير إسلامية، فأصبح التجار يسافرون إلى أراض جديدة عن طريق القوافل والسفن، فبلغوا بمغامراتهم الصين والهند وإفريقية وساهموا في نشر الإسلام بهذه الدول، كما قد يرحل الإنسان لغرض العمل وممارسة بعض المهن، أو لغرض طلب إعانات من دول شقيقة وتسديدالديون العالقة، وغيرها من الأسباب المرتبطة بطرق الكسب والاقتصاد[1]، وعموما فالتجارة هي محور الرحلات الاقتصادية في الغالب.

الفرع الثالث: الرحلات الاستكشافية والسياحية

من الرحلات البارزة أيضا نجد الرحلات الاستكشافية والرحلات السياحية.

أولا: الرحلات الاستكشافية

وهي الرحلات التي يقوم بها أصحابها من أجل اكتشاف بلاد جديدة، ومناطق جغرافية غامضة، والاطلاع على أحوالها، كما يمكن إدراج الرحلات الأثرية تحت الرحلات الاستكشافية، فهي التي يكون الهدف منها اكتشاف الآثار والتنقيب عنها[2]، وقد تدرج هذه الأخيرة في الرحلات العلمية أيضا.

ثانيا: الرحلات السياحية

وهي الرحلات التي تكون السياحة غايتها المطلقة، يقوم فيها أشخاص بالسفر من أجل السفر وشغفه، ورغبتهم في التمتع بالحياة والجمال في كل مكان، فيقومون بالسفر بمحض إرادتهم من دون دافع خارجي عن أنفسهم[3].

---

(1) ينظر: صلاح الدين الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1999م، ص88، وأنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص29، وحسيني، الرحلة الجزائرية، ص35.

(2) ينظر: خضر موسى، أدب الرحلات، ص20.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص20.

وقد تجتمع عدّة أنواع من الرحلات في رحلة واحدة نستطيع أن نطلق عليها "الرحلة العامة"، التي تجمع عدّة أهداف كالرحلة التي تجمع بين الحج والزيارة والتجارة وطلب العلم.

ونظرا لأهمية الرحلة بأنواعها، فقد أصبحت على مرّ الزمن تدوّن أحداثها في مؤلفات سميت بأدب الرحلة، وهو ما سنتعرف عليه في المطلب الموالي.

المطلب الثالث: حول "أدب الرحلة"

قسّم هذا المطلب إلى ثلاثة فروع؛ الفرع الأول حول ماهية الرحلة، والفرع الثاني في أهمية أدب الرحلة أما الفرع الثالث فيخص علاقة أدب الرحلة بالعلوم الأخرى.

الفرع الأول: ماهية أدب الرحلة

يحتل أدب الرحلة مكانة هامة في الدراسات الحديثة العربية منها أو غير العربية، وهذا لتعدد فوائده وتنوع مقاصده، وكثرة نتائجه[1]، لذلك لابد من معرفة الحقل الذي تنتمي إليه الرحلة وأهم التعريفات لهذا الفن.

أولا: انتماء أدب الرحلة

يعتبر فن الرحلات من الفنون الأدبية الراقية التي اهتم بها العرب قديما وحديثا لما فيها من أخبار وغرائب ومشاهدات ومساجلات ومناظرات عاشها مؤلفوها، فكانت تستجلب القراء بفضول إلى معرفة الآخر والبلدان البعيدة وأخبار سكانها، فقد عرفت الرحلة في الأدب العربي منذ فجر النهضة كفن أدبي بعدما كانت ممارسة في الجاهلية تجارة أو بحثا عن كلأ أو ماء[2].

وأصبحت الرحلة في الدراسات الأدبية الحديثة والمعاصرة تعتبر فنا قائما بذاته تفرض النظر إليها من زوايا مختلفة ومتعددة، نظرا لتعددها وتنوع مضامينها وصورها الواقعية مما يجعل الرحلة نصا مفتوحا على كافة الحقول بأشكال مكتملة أو جزئية، والرحالة على هذا الأساس لابد أن يحوز على الزاد الكافي الذي يمكنه من رواية قصة رحلته أو نقلها إلى كتابة، وهو في كل الأحوال ينطلق دائما من واقع يعيشه ويتأثر به، ومن مرجعية

---

(1) ينظر: عميراوي احميدة، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، د. ط، 2005م، ص45.

(2) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص9.

خاصة به تطغى على رحلته باعتبار أن الرحالين عادة ما يكونون من الفقهاء والعلماء والقضاة والأدباء، أي أنهم يمثلون الطبقة المثقفة في عصرهم[1]، ولاشك أن الرحلة الواقعية التي يقوم بها الشخص فعلا هي الأصل في أدب الرحلة التي ينبغي أن يتوفر فيها شرطان: أن يكون من يكتب عن الرحلات رحّالا بطبعه محبا للرحلات، وأن يكتب بالأسلوب الذي يجعل وصفه للرحلة يعكس روح الرحلة والرغبة التي تتملكه للقيام بها[2].

ثانيا: تعريف "أدب الرحلة"

عرّف أدب الرحلة عدّة تعريفات منها أنه: "**مجموعة الآثار التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد**"[3]، كما عرف أيضا بأنه: "**ذلك التأليف النثري المطول الذي يتحدث الأديب فيه عن رحلة تجشّم مشاقها، ومن خلالها بمدن وقرى، وعبر جبالا وأودية وصحاري، وواجه أحداثا، ولقي مفاجآت وغرائب لا يعرفها في بيئته**"[4].

فالرحلة لها خاصية التقاطع مع أشكال الكتابة المتعددة، ورغم ما تحويه من أجناس أدبية في كنفها، فهي سردية واصفة انطباعية، ذاتية في أجزاء، وموضوعية في أخرى، وبذلك فهي تنتسب إلى التراث النثري بشكل عام باعتباره سردا ووصفا يعمدان إلى صياغة مشاهد رؤيوية أو مروية أو حلمية، إذ أن الموروث النثري السردي القصصي يتكون من مقامات وسير وحكايات شعبية ورحلات[5].

إذا فالرحلة تنتمي إلى حقل الأدب، لكنها تتعدّى ذلك لتتجاذبها حقول أخرى، وعلى رأسها التاريخ والجغرافيا.

---

[1] ينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص61.

[2] ينظر: إسماعيل زردومي، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، أطروحة دكتوراه دولة في الأدب القديم، جامعة الحاج لخضر، باتنة_ الجزائر، 2005م، ص7.

[3] ينظر: مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص16. وأنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص31.

[4] مجدي وهبة، المرجع السابق، ص17.

[5] ينظر: زدرومي، المرجع السابق، ص8، 9.

الفرع الثاني: أهمية أدب الرحلة وعلاقته بالعلوم الأخرى

لأدب الرحلة أهمية إذ يتشارك مع علوم أخرى، ولذا نجد في مضامين الرحلة أطيافا وتجسدات من علوم شتى.

أولا: أهمية أدب الرحلة

للرحلة أهمية كبيرة بالنسبة لعدّة حقول معرفية كثيرة، ويمكن تلخيصها في عدّة نقاط:

أ_ تكتسي كتب الرحلات أهمية كبيرة في رصد الحياة الثقافية والاجتماعية للشعوب، وتصوير حضارتهم وطرق عيشهم، لذا كان للرحلات قيمة تعليمية من حيث إنها أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، وقد أكدت على ذلك الكتابات الفرنسية في القرن الثامن عشر[1]. **"فالاختلاط والحياة مع الشعوب المختلفة إضافة إلى الاجتهاد في دراسة أخلاقهم وطباعهم والتحقيق في دياناتهم ونظم حكمهم غالبا ما تضع أمام الفرد مجالا طيبا للمقارنة، كما تساعده على تقييم نظم وتقاليد بلده وموطنه، وبذلك يكون للرحلات دورا كبيرا وإسهاما فعالا في إسقاط العصابة عن تلك الأعين التي لا ترى إلا صالحا فيما يفكر فيه ويفعله أصحابها"**[2].

ب_ إن الرحالة بمثابة سفينة تقطع الفيافي والبحار وتتنسم قمم الجبال لتجمع كل ما هو مرتخص وغال، وتروي ما هو تالد وطريف ليشد به صرح الحضارة ويسجل تراثها وبصماتها في كل مكان[3].

ج_ الرحالة ينقل للقارئ صورة مرئية وقصة صوتية لكل ما شاهده وسمعه، كما تعود الفائدة على الرحالة المؤلف ذاته، من اكتساب للتجربة والدربة في مجال التأليف والتنويع الأسلوبي، وفي مجال التعبير الأدبي، وكذلك تنويع للثقافة الشخصية وعدم التركيز على مجال واحد أواختصاص، إذ تجرّه الكثير من المناسبات خلال تأليف الرحلة إلى الخوض

---

(1) ينظر: حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، 1989م، ص18.

(2) المرجع نفسه، ص18.

(3) أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدّة، د.ط، د. ت، ص5.

في مسائل مختلفة علمية وأدبية شتى تدفعه إلى البحث والتحقيق والتأكد من صحة أقواله وسلامة أفكاره ومناهجه[1].

د_ هيأت الرحلة الفرص في كل اتجاه ولأي هدف لكي يتعرف الرحالة على الأقطار والأمصار ولكي يحيطون علما بالمسالك والسبل والدروب منها وإليها، وقد عايشت الرحلة الحياة في هذه الأقطار وهي تجوب ربوعها وخبت ثمرة التجربة في أنحائها[2].

هـ_ موضوع أدب الرحلة هام جدا، فأغلب المخزون الفكري الإنساني هو نتاج أدب الرحلة لأن كثيرا من الشعراء من المفكرين والأدباء والحكماء أنتجوا فكرا من رحلاتهم وبذلك يكونون قد أسسوا علاقات تواصل بين الشعوب قديما ووسيطا وحديثا[3].

ونظرا للأهمية الكبيرة لأدب الرحلة صارت لا غنى عنها في الكثير من العلوم التي لها علاقة وطيدة بها كالتاريخ والجغرافيا والأدب والاجتماع وغيرها، كما سيأتي توضيحه.

ثانيا: علاقة أدب الرحلة بالعلوم الأخرى

إن نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد، إذ يحوي مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير [4].

فالرحلات منابع ثروة لمختلف العلوم _ كما يقول محمود حسني_ وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور، فهي تحوي على كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية، وغيرها مما يدوّنه الرحالة تدوين المعاين في غالب الأحيان من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة خلال رحلته، ومن خلال تسجيلها للظواهر وتفسيرها، فإن الرحالة يمثل دور النقل لهذه الظواهر ليضعها بين أيدي الجغرافيين أو المؤرخين أو علماء الاجتماع كل على حسب اختصاصه[5]، ومن أهم العلوم المتقاطعة مع الرحلة نذكر:

---

[1] أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص38.

[2] صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1999م، ص254.

[3] عميراوي، قضايا مختصرة، ص46.

[4] محمود حسني، أدب الرحلة، ص6.

[5] المرجع نفسه، ص 6، 7.

أ_ المسالك

ترتبط الرحلة بأدب المسالك ارتباطا عضويا كما ترتبط بالجغرافيا الوصفية، بحكم معرفة الطرق وطبيعة الأرض وسكانها، وهي مواضيع مشتركة بينهما[1].

ب_ الجغرافيا

لقد أولت مختلف الحضارات المتقدمة العناية بإدخال الرحلة في الاجتهاد الجغرافي والبحث الاجتماعي وهيأت لها الوسائل اللازمة، وهنا تسير الرحلة في رفقة الاجتهاد الجغرافي وتفرض عليه العلاقة بين التابع والمتبوع، فأصبح الاكتشاف الجغرافي شريكا مع الرحلة تحت شعارين: التوضيح الذي أدته الرحلة في خدمة التفتح على الرؤية الجغرافية والتدقيق في معرفتها، وتطوير هذا التفتح تطويرا يوافق مصلحة المستفيد من هذه الرحلة، وتعتبر هذه الصحبة بين الفئتين الرحلة والجغرافيا شكلا من أشكال المصالح المتبادلة بينهما[2]، إذ أن الرحلة في أي شكل وعلى أي نحو، ومن أي هدف أصلي لم تتخذ صفة الرحلة التي تستهدف الكشف الجغرافي صراحة ولكن عندما نستطلع كنه وماهية هذه الرحلات يتبيّن كيف كان من شأنها أن تقدم الزاد والحصاد إلى الفكر الجغرافي، حتى ولو لم تكن قد استهدفته أصلا،[3] فمن غير أن يكون الهدف الحافز الأصلي للرحلة وخروجها في البر أو في البحر هو الهدف الحافز الأصلي للرحلة أو هو الهدف الجغرافي الصريح، قدمت الرحلة أهم الانجازات للمعرفة الجغرافية كما أباحت للاجتهاد الجغرافي المتخصص أن ينتفع بتحركاتها أو بالرواية التي تحكي عن نشاطها وأدائها [4].

فالرحّالة وهو يدوّن مشاهداته الجغرافية على سطح الأرض إنما يعمل في خدمة هذا العلم من هذه الناحية على الأقل إذا لم يتجاوزها إلى الخطوة التالية لها في منهجه فهو عندما يصف الممالك والبلدان والأصقاع والأقاليم والمدن والمسالك ويتحدث عن المناخ

---

[1] ينظر: ماكامان، الرحلات المغربية، ص24.

[2] المرجع نفسه، ص460.

[3] الشامي، الفكر الجغرافي، ص255.

[4] الشامي، الرحلة عين الجغرافيا، ص128.

والطبيعة، وغير ذلك مما يعتبر من صميم الدراسات الجغرافية ومن المعروف أن بعض المؤرخين والجغرافيين العرب يعتبرون رحالة[1].

ج_ التاريخ

علاقة الرحلة بالتاريخ علاقة قديمة متلاحمة يمكن الرجوع إليها عند نشأة تدوين الفنون وتشعبها ومازالت من المواضيع التي تثير انتباه الدارسين سواء في الأدب أو في التاريخ[2] إذ أن أدب الرحلة هو ما يمكن أن يوصف بالواقعية – التي هي من خصائص التاريخ – وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلاد العالم ويدون وصفا لها يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير [3].

ولعل أبرز الجوانب التاريخية في الرحلة: أن الرحلة تكتشف ما لا تكتشفه الوثائق التاريخية، كما أن الرحلة لا ترتقي إلى درجة الوثيقة التاريخية ومع ذلك يبقى الإقرار بأهميتها باعتبار ما يدونه الرحالة من مشاهدات وتراجم الأعلام ووصف الأماكن، كما أن الرحلة تعتبر مصدرا من مصادر التاريخ في جوانبه الحضارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وكذلك اهتمام المؤرخ بالرحلة للجمع بين الرأي والرواية ومحاولة الوقوف على صحة الحديث ووصف المعالم، بالإضافة إلى اطلاع الباحث المؤرخ على أمهات الكتب في فن الرحلة وفي الغث والسمين من كتبها وتحديد مواضيعها، كما توضع معلومات الرحلة موضوع التحليل والوصول إلى النتائج التي يتوخاها المؤرخ[4].

وبذلك يقدم الرحالة عملا مفيدا للباحثين اعتمادا على مشاهداته واتصاله بأناس يدركون هذه الجوانب المعرفية المكونة للحصيلة التاريخية، مع اعتبار العنصر الذاتي لأن الرحالة يسجل ما يرى وفقا لوجهة نظره وعاطفته الدينية والدنيوية، ومكانته العلمية مع اختلاف في درجة التسجيل والبحث مع المؤرخين، ولهذا فالرحالة الذي يجعل من نفسه مؤرخا

---

(1) محمود حسني، أدب الرحلة، ص7.

(2) ينظر: ماكامان، الرحلات المغربية، ص464.

(3) عميراوي، قضايا مختصرة، ص46.

(4) ينظر: ماكامان، المرجع السابق، ص463.

مطالبا بالاطلاع على كتب التاريخ ومناهج المؤرخين ليحصل على تجارب في الموضوع ويقدم معلومات خالية من الخلط والتلفيق[1].

فموضوع أدب الرحلة هام جدا في مجال التاريخ – كما سبق وأن ذكرنا في عنصر أهمية الرحلة – إذ أن أغلب المخزون الفكري الإنساني هو نتاج عن أدب الرحلة لأن كثيرا من المفكرين أنتجوا فكرا من رحلاتهم (فمن المعروف أن بعض المؤرخين العرب يعتبرون رحالين، إذ كانوا يجمعون مواد موضوعاتهم عن طريق الرحلة قبل أي طريق)، وبذلك يكونون قد أسسوا علاقات تواصل بين الشعوب العربية عهد الجاهلية، والمصرية عهد الفراعنة، والفارسية عهد الأكاسرة، والرومانية عهد القياصرة، والأوروبية عهد الملوك والإقطاع، فكان الرحّالة سفراء وعامل تأثير وتأثر في الفكر والأدب والفن[2].

د_ الأدب

تتجلى القيمة الأدبية في الرحلات فيما تعرضه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني، وتنوع أساليب السرد القصصي أو الحوار والوصف وغيرها من الأساليب، وقد أفاد أدب الرحلة بغنى موضوعاته في صرف أصحابه في غالب الأحيان عن اللهو والعبث اللفظي والتكلف في تزويق العبارة إيثارا للتعبير السهل المؤدي للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه[3]، ولقد أثار هذا الأدب اهتماما بالغا بسبب تنوعه وغنى مادته، فهو تارة علمي وتارة شعبي، وهو طورا واقعي وأسطوري على السواء..، لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب..، وبهذه الميزات والخصائص المتعلقة بأدب الرحلة يمكن اعتباره نمطا خاصا من أنماط القول الأدبي بالرغم من أنه لا يرقى إلى مستوى الفن القائم بذاته كفن القصة أو الشعر..، أو المسرحية أو المقالة الأدبية، ففيه تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها من غير أن تضبطه معايير أو يخضع لمقاييسها[4].

---

(1) ينظر: ماكامان، الرحلات المغربية، ص463.

(2) ينظر: عميراوي، قضايا مختصرة، ص46،47.

(3) المرجع نفسه ص9.

(4) المرجع نفسه، ص9.

إن أدب الرحلة فن أدبي قائم بذاته يتميز بطابعه الوصفي والإخباري، إذ يقوم الرحالة بتسجيل ما يلاحظه وما يراه أثناء رحلته من تفاصيل لمختلف المشاهد المألوفة أو الغريبة عن حياة الناس المختلفة وعن الطبيعة بما فيها، كل ذلك يكون بأسلوب أدبي متميز، يجعل من النص الرحلي حقلا تتجاذبه علوم متعددة على رأسها الجغرافيا والتاريخ والأدب.

الفرع الثالث: دواعي التأليف في فن الرحلة

تتباين دواعي تدوين الرحلات من رحالة إلى آخر، وحسب الهدف المراد الوصول إليه، ومن أسباب ودواعي تدوين الرحلات عموما نجد:

أولا: الإفادة العلمية

يدوّن الرحالة رحلته من أجل إفادة قرائه، وذلكبتقديم معلومات عن المعارف والعلوم التي تلقاها، والتعريف بالأعلام وبمؤلفاتهم، وكذلك تعيين مناسك الحج والعمرة _ بالنسبة للرحالة المسلمين_ وترتبط هذه الدوافع أكثر بالرحلات العلمية خاصة، بالإضافة إلتحديد مطاعن المياه والأسواق وتبيين مواقع الخطر والمشقة في الكثير من البلدان، حتى لا يقع فيها الآخرون من منجزي الرحلات، وكذلك يدونها رغبة منه في ذكر أخبار الأمم والأقوام والجماعات البشرية ماضيا وحاضرا، وعرض محاسنها ومساوئها،وعاداتها وقيمها وطقوسها الدينية، وكذلك من أجل التأريخ للأحداث التاريخية المتنوعة وتقديم معلومات موجزة أو مفصلة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلدان المجتازة أو المقصودة بالزيارة[(1)].

ثانيا: تلبية طلب الآخرين

حيث يلبي الرحالة طلب الآخرين من حكام وأصدقاء أو أقرباء بتدوين الرحلة وإمتاعهم بالاطلاع على ما أثار إعجابه ودهشته، وما استقطب اهتمامه للمعاينة والتحقيق كل ذلك يتحقق بالتزام الكاتب المنهج الدقيق في العرض والنسخ الرائق المبدع في السرد[(2)].

---

(1) ينظر: أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص35، 36.

(2) المرجع نفسه، ص35.

ثالثا: الدعوة إلى التغيير

من دواعي تدوين الرحلات أيضا دعوة الرحالة مواطنيه إلى التغيير من أحوالهم وتوعيتهم، ويقترن هذا الدافع مع الرحلات الحديثة والتي عايشت أحداث الاحتلال والقهر والجمود الفكري لدى العامة(1).

وخلاصة القول فإن فن "أدب الرحلة" حقل أدبي من الفنون الأدبية التي لها علاقة بعدّة علوم وفنون أخرى، كأدب المسالك والجغرافيا والتاريخ، وذلك ما أكسبه أهمية كبيرة من الناحية العلمية والأدبية، كما أن التأليف في هذا الفن له دواعي ودوافع مختلفة منها؛ إفادة القراء بمعلومات عن مجريات رحلته وأحداثها، بالإضافة إلى التعريف بالبلدان ووصف الطرق والمسالك، وإلى تغيير الأوضاع، وغيرها.

(1) ينظر: أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص36.

المبحث الثاني:

حول بلاد المغرب والجزائر

المطلب الأول: التعريف ببلاد المغرب

المطلب الثاني: التعريف ببلاد الجزائر

المطلب الثالث: الجزائر في العهد العثماني

المبحث الثاني: حول بلاد المغرب و الجزائر

اقتضت المادة التي تناولها هذا المبحث تقسيمها إلى ثلاثة مطالب؛ الأول في التعريف ببلاد المغرب، والثاني في التعريف بالجزائر، أما المطلب الثالث فاختص بالحديث عن الوجود العثماني بالجزائر.

المطلب الأول: التعريف ببلاد المغرب

تناول هذا المطلب ثلاثة فروع: الفرع الأول في الحديث عن التسمية والسكان، أما الفرع الثاني ففي الحديث عن المراحل التاريخية لبلاد المغرب قبل حكم العثمانيين، وأما الفرع الثالث فتحدث عن المغرب العربي الحديث والمعاصر.

الفرع الأول: التسمية والسكان

حاول هذا الفرع معرفة أهم التسميات التي سميت بها بلاد المغرب عبر الأزمنة، بالإضافة إلى تركيبتها السكانية عبر العصور.

أولا: أصل تسمية بلاد المغرب

بدأ لفظ المغرب بالظهور عندما أخذ لفظ إفريقية يضيق شيئا فشيئا، حيث كان لفظ إفريقية على عهد البيزنطيين يطلق على كل المناطق الداخلة تحت نفوذهم من القارة الإفريقية، من "برقة" إلى "طنجة"، وبهذا المعنى استعمله العرب في أول الأمر، وبظهور لفظ المغرب اقتصر اسم إفريقية على ما يلي:"مصر" غربا إلى "بجاية"، ثم يلي ذلك المغرب حتى المحيط، ويدخل بعضهم في المغرب "بلاد الأندلس"، وقصر آخرون على المغرب العربي الحالي، وهو الإقليم الذي يلي "مصر" غربا حتى المحيط(1).

ويقسم بلاد المغرب إلى ثلاث مغارب: "المغرب الأدنى" و"الأوسط" و"الأقصى".

ثانيا: سكان بلاد المغرب

كان سكان بلاد المغرب على عهد الفتح الإسلامي ثلاث طوائف وهم: "الأمازيغ" و"البيزنطيون" و"الأفارقة"، إذ لا يختلف اثنان على أن **"الأمازيغ"** هم أصل سكان المغرب

(1) ينظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1965م، 160/1.

العربي كله[1]، ويطلق عليهم اسم "**البربر**"*الذي أطلقه اليونانيون في القديم[2].
ويذكر الباحث عثمان الكعاك أن: "**البربر لا يتألفون من عنصر واحد، بل يرجعون إلى عناصر كوّنها سيل بشري آت من الشمال وسيل كان آت من الجنوب، وقد كان تعمير المغرب من نواح أربع بحسب هيأته الجغرافية، فهناك تيار شمالي وثان بحري وثالث صحراوي ورابع آسيوي**"[3]، وبذلك يكون السكان في بلاد المغرب عبارة عن خليط من عدّة أجناس.

ويؤكد المؤرخ مبارك الميلي على أن: البربر وإن اختلف الناس في أصل نشأتهم فهم ساميون من أبناء مازيغ بن كنعان، فهم الأمازيغ، كما جاء في تصريحهم أمام الخليفة عمر بن الخطاب حينما ذهب إليه وفد بعد فتح مصر فانتسبوا إلى مازيغ، وأنهم أصحاب البلاد الواقعة بين خليج الغرب (البحر الأحمر) والبحر المحيط، ولم يقولوا له أنهم بربر، والرأي نفسه ذهب إليه ابن خلدون قبله حين ذكر أن الأمازيغ أوالبربر من أبناء مازيغ بن كنعان بن حام (بن نوح عليه السلام)، وأن أصلهم من جهات ما بين النهرين بآسيا ثم ارتحلوا إلى بلاد المغرب مارّين بالبلاد المصرية [4]، أما العنصر الثاني وهم البيزطيون الذين كانوا يومئذ حكام البلاد وسادتها الذين امتد سلطانهم على إفريقية (تونس)، وبعض أجزاء من شمال المغربين الأوسط (الجزائر) والأقصى، أما الطائفة الثالثة وهم الأفارقة، فهم جماعات من أهل البلاد خالطت البيزنطيين والرومان قبلهم وأخذت حضارتهم ولغتهم وديانتهم، وكانوا قلة لكن كان لهم دور عظيم في تاريخ بلاد المغرب قبل الإسلام[5].
ولما كان الفتح الإسلامي لبلاد المغرب أصبح العنصر العربي عنصرا مهما داخل المجتمع المغاربي، ففي بداية الفتح لم يكن الجند العربي كثير العدد، فبقيت أقسام البلاد

---

(1) مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تق: محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، د.ت، ص81.
* البربر: لفظ وضعي يراد به عند اليونان "صوت الألنغ "، أو هو كل إنسان أجنبي عنهم لا يتكلم لغتهم، ومن ثمة أطلقه اليونان على غيرهم ممن هو ليس يونانيا، وقد نهج الرومان هذا المنهج فأطلقوا اسم البربري على كل من ليس يونانيا أورومانيا. ينظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 48/1.
(2) المرجع نفسه، 48/1.
(3) عثمان الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت_ لبنان، ط1، 2003م، ص23.
(4) الجيلالي، المرجع السابق، 49/1.
(5) ينظر: المرجع نفسه، 185/1، 186.

على أمازيغيتها إلى أن حدثت الهجرة الهلالية الكبرى (هجرة قبائل بني هلال وبني سليم) من صحراء شرق النيل إلى المغرب العربي سنة 444هـ[1]، فتكاثر عددهم وامتزجوا مع السكان الأصليين.

الفرع الثاني: المراحل التاريخية لبلاد المغرب قبل الحكم العثماني

مرت بلاد المغرب بمراحل تاريخية عديدة قبل مجيء العثمانيين وسيطرتهم على زمام العالم الإسلامي، وهذه المراحل التي ذكرتها كانت بدايتها الفتح الإسلامي لهذه البلاد.

أولا: الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

أتم المسلمون فتوحاتهم بشمال إفريقيا بعدما فتحوا مصر والشام وغيرهما من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية، وبلاد المغربفي ذلك الوقت كانت ضمن هذه الإمبراطورية التي غزاها المسلمون في الشرق، فكان لزاما على الدولة الإسلامية الناشئة ومن واجبها السياسي أن تستمر على خطتها في الفتح وتتابع ممالك الدولة المغزوة حيثما انتشرت في الأرض، وذلك توطيدا لهذه الدولة الإسلامية الناشئة في الشرق، وإتماما لسلسة الفتوحات الإسلامية، فقد كتب على المسلمين الفاتحين أن يصطدموا بالروم في المغرب كما اصطدموا بهم في المشرق[2].

مرّ فتح بلاد المغرب بعدة مراحل وهي على وجه الاختصار ثلاث مراحل رئيسية:

أ_ فتح عقبة بن نافع الأول

لقد بدأت محاولات الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا قبل عقبة بن نافع في القرن الخامس للهجرة السابع للميلاد، لكنها لم تحقق شيئا يذكر، إلى أن جاء القائد عقبة بن نافع الذي أرسله معاوية بن أبي سفيان على رأس جيش يتكون من حوالي عشرة ألاف مقاتل، وذلك لإقامة حكم إسلامي دائم في شمال إفريقيا، فنجح في ذلك وعيّن واليا على إفريقيا وقام بإنشاء مدينة القيروان سنة 670م، لكي تكون مقرا لولايته نظرا لابتعادها عن المدن الساحلية التي كان يسيطر عليها الرومان، فأصبحت ولاية ثانية للمسلمين بإفريقيا بعد مصر[3]، وبذلك شمل الفتح الأول مناطق من ليبيا وتونس فقط.

---

[1] ينظر: أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ط، 2001م، ص 29.

[2] ينظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 161/1.

[3] ينظر: عمارة بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م، ص26،27.

ب_ فتوحات أبو المهاجر دينار وعقبة بن نافع

بعد خمس سنوات من تأسيس القيروان، وتعيين مسلمة بن مخلد الأنصاري واليا على مصر وشمال إفريقيا من طرف معاوية بن أبي سفيان، قام هذا الوالي بعزل عقبة بن نافع واستبدله بأبي المهاجر دينار الذي حكم من سنة 55هـ/ 674م إلى غاية 59هـ/ 682م، حيث تمكن من الاستيلاء على قسنطينة، وجعل من مدينة ميلة مركزا لقيادة ولاية شمال إفريقيا، كما تمكن من إلحاق هزيمة ساحقة بالزعيم البربري كسيلة بنواحي تلمسان[1].

ج_ فتوحات زهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان

وهذه الفتوحات كانت زمن عبد الملك بن مروان، وقد قتل زهير بن قيس ببرقة، فخلفه حسان بن النعمان الغساني على إفريقية الذي خاض معارك طاحنة مع الكاهنة بأرض قابس، التي انهزم فيها حسان وأصحابه الذي قتل وأسر من أصحابه عدد كبير، ومنهم يزيد بن خالد القيسي[2]، الذي كان له الفضل بهزيمة الكاهنة فيما بعد والاستيلاء عل إفريقية.

وبعد فتح بلاد المغرب من قبل العرب وتوطد حكمهم بها أطلقوا على شمال إفريقيا اسم المغرب الذي يشمل مابين برقة شرقا، والمحيط الأطلسي غربا والبحر المتوسط شمالا والصحراء الكبرى جنوبا، فكان يطلق المغرب الأدنى على ما بين برقة شرقا وبجاية غربا، والمغرب الأوسط يشمل على مابين بجاية شرقا ووادي ملوية غربا، والمغرب الأقصى ما بين وادي ملوية شرقا والمحيط الأطلسي غربا[3].

ثانيا: بلاد المغرب زمن الدويلات الإسلامية المستقلة

بعد أن استقر المسلمون في بلاد المغرب وتوطد حكمهم بها ظهرت هناك عدّة دويلات محلية مستقلة عن الخلافة الإسلامية في المشرق، فظهرت ثلاث دويلات متزامنة، أولا الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط سنة 169هـ[4]، ودولة بني الأغلب بالمغرب الأدنى،

---

(1) بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، ص27.

(2) ينظر: أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص7، 8.

(3) ينظر: عبد الله شريط و محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، مكتبة البعث، قسنطينة _ الجزائر، ط1، 1996م، ص9.

(4)توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص56

ودولة الأدارسة بالمغرب الأقصى، وكذلك ظهرت دولة المرابطين بالمغرب الأقصى أيضا، كما ظهرت على رأسها دويلات وحدت أقطار المغرب وهي:

أ_ الدولة الفاطمية (296- 361هـ/ 909- 972م)

هذه الدولة قامت في الوقت الذي انقرضت فيه ثلاث دول في المغرب العربي وهي: الأغلبية في تونس، والرستمية في الجزائر، والإدريسية في المغرب الأقصى، لتحل محلها دولة مغربية عربية واحدة هي دولة الفاطميين الشيعية التي تأسست بالمغرب الأقصى، ثم عاصمتها مدينة المهدية على الساحل التونسي ووحدت المغرب العربي في دولة واحدة[1]. وتنتسب هذه الدولة إلى عبيد الله المهدي الشيعي*، جدّ الخلفاء الفاطميين بالمشرق، وهو الذي بنى خطته السياسية على فكرة القول بالإمام المهدي المنتظر، وقد كانت هذه الدولة الناشئة بالمغرب العربي تمتاز بالمحافظة على عاطفة الأهالي سكان البلاد الأصليين فأشركتهم في الإدارة، فكان تأسيس هذه الدولة أمرا مشتركا بين العرب والبربر، وبقيام هذه الدولة بالمغرب صار في العالم الإسلامي يومئذ بالإضافة إليها ثلاث خلافات: خلافة العباسيين ببغداد، وخلافة الأمويين بالأندلس[2].

ب_ الدولة الموحدية

تأسست دولة الموحدين سنة 524هـ على يد عبد المؤمن بن علي الندرومي من القطر الجزائري، الذي قضى على دولة المرابطين في المغرب الأقصى، ولقد استمرت دولة الموحدين قابضة على صولجان الملك ووحدة الشمال الإفريقي طيلة قرن ونصف، ولقد اكتسب المغرب الإسلامي يومئذ بوحدته هذه بأسا وقوة تمكن بها من نشر نفوذه السياسي على بلاد الأندلس وخضع له كل من دول ضفاف البحر الأبيض المتوسط[3]، ولم يزل الموحدون في أوج عزهم إلى أن تصدع شملهم في وقفة العقاب بالأندلس سنة 1212م، فخرج عنها ولاة النواحي، فتفككت حينئذ وحدة الشمال الإفريقي، وأشرقت فيه ثلاث إمارات

---

(1) توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص57.

*وهو عبيد الله ابن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. ينظر: الجلالي، تاريخ الجزائر العام، 281/1.

(2) ينظر: المرجع نفسه، 281/1- 285.

(3) توفيق المدني، المرجع السابق، ص63.

متزاحمة على جذب طرف حبله متنازعة (دولة بني حفص شرقا، ودولة بني مرين غربا، ودولة بني زيان بالأوسط)، فكلها تحاول الاستقلال به وبسط نفوذها وسلطانها عليه، فتحاربت بينها طيلة نحو قرن كامل ولتكافؤ القوات لم يخلص بتمامه إلى أي دولة من هذه الدول الثلاث وأخيرا توزعته فيما بينها[1]، وبقيت تلك الدويلات الثلاث تحكم المغارب الثلاث متصارعة فيما بينها إلى أن جاء العثمانيون.

الفرع الثالث: المغرب العربي في ظل الحكم العثماني والاستعمار الأوروبي

اقتصر هذا الفرع على الحديث عن بلاد المغرب كما قسمها العرب أول مرة، أي من برقة إلى طنجة، وبذلك تكون البلدان المعنية هي: ليبيا، تونس، والجزائر والمغرب الأقصى.

أولا: بلاد المغرب والعثمانيين

إذا كان التوسع العثماني في المشرق العربي نتيجة لمعارك وحملات حربية كبرى متتالية على أغلب مناطقه، فإن توسعه في شمال إفريقيا كان نتيجة لطلب الإغاثة والدعممنهملدفع العدوان الصليبي المتصاعد على الشمال الإفريقي خاصة بعد سقوط "غرناطة"، أين احتدم الصراع في الحوض الغربي للبحر المتوسط بين المسلمين و"إسبانيا"، ما أدى إلى استيلاء هذه الأخيرة على مختلف سواحل شمال إفريقيا، كـ"المرسى الكبير" و"وهران" و"بجاية" و"طرابلس"، وكان طبيعيا أن يتطلع المسلمون في تلك البلاد إلى قائد على مستوى أعلى يستطيع رد الهجمات البحرية المتتالية، فكان الإخوة "بربروس" وعلى رأسهم "عروج" من من أصحاب الأساطيل القوية في البحر المتوسط، من هذا الطراز الذي كان يريده الناس هناك، خاصة وأن شمال إفريقيا كان في حالة من التفكك الشديد، جعل من اليسير على "الإسبان" أن يجدوا لهم أصدقاء وحلفاء بين الزعامات المحلية المتناحرة فيما بينها[2].

---

[1] الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 7/1.

[2] ينظر: عبد العزيز نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية "العصر الحديث"، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م، ص66، 67.

أ_ الجزائر

استجاب"عروج" "بربروس" نداء حاكم "بجاية" كما استولى على جيجل لتصبح قاعدة له بدل جزيرة "جربة" التونسية، وأنجد أهل مدينة الجزائر، لكنه اصطدم بسالم التومي حاكم الجزائر، لينجح في الاستيلاء عليها في الأخير ونصّب نفسه حاكما عليها، وبعدها إلى مدّ سلطته إلى ما وراء الجزائر فاستولى على مدينة "تلمسان" الزيانية، لكن الزيانيين تحالفوا مع الإسبان ضد عروج وحوصر عروج في "تلمسان" حتى قتل سنة 1518م، فخلفه أخوه "خير الدين" الذي طلب المساعدة من السلطان العثماني الذي أمده بقوة من الانكشارية، وعينه قائدا على الجزائر سنة 1525م، فأصبح من كبار قادة الدولة العثمانية في البحر المتوسط، فعزم على الكفاح للدفاع عن الجزائر ومن أجل تحرير "تونس" من سيطرة الإمبراطورية الرومانية، ومن خيانات الأسرة الحفصية، وبعد وفاة "خير الدين" بربروس أسند السلطان العثماني منصب البايلرباي لابنه حسن باشا الذي حاول التصدي للقوى الثلاث التي واجهت أباه من قبل وهي: الاسبان في وهران، والزيانيين في تلمسان والأسرة السعدية في مراكش(1).

ب_ ليبيا

سيطر العثمانيون على ليبيا عام 1551م بقيادة القائد البحري طغروث، ولما تعرضت طرابلس لحملة إسبانية تفوق الأسطول العثماني بقيادة "حسن باشا" من هزيمة الإسبان، لكن الجند تمردوا عليه فقبضوا عليه وأرسلوه مكبلا إلى الأستانة عام 1561م، فأعاده السلطان العثماني إلى الجزائر، وقد توفي عام 1562م، فتولى بـ كلربكية الجزائر "علج باشا" من بعده سنة 1568م، والذي كان يود تحقيق آمال "خير الدين" في السيطرة الكاملة على شمال إفريقيا(2)، وقد خضعت "ليبيا" بأقاليمها الثلاثة "طرابلس" و"برقة" و"فزان"للدولة العثمانية منذ عام 1551م، وواجهت مقاومة شديدة من الليبيين، وقد بدأ بها عهد "الدايات" عام 1711م، حيث ظل السلطان العثماني يعين "الباشوات" على "طرابلس" إلا

(1) ينظر: نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص67، 68.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص69.

أن دورهم كان شكليا، ولما أصبح "أحمد القرمانلي" دايا على طرابلس مابين (1711-1745م) أسس الأسرة "القرمانالية" التي حكمت "طرابلس" و"فزان" أكثر من مائة عام وأجبرت السلطان العثماني على الاعتراف بولايته سنة 1723م، وقد استمر الحكم العثماني في ليبيا حتى عام 1911م، بعد أن أصبحت "ليبيا" من نصيب "إيطاليا"، عندما تخلت الدولة العثمانية على ليبيا بموجب معاهدة لوزان سنة 1912م التي تخلت بموجبها الدولة العثمانية على "ليبيا" وانسحبت من الميدان[1].

ج_ تونس

بعد أن آلت الأمور في تونس إلى الحفصيين، الذين كانت شأنهم في تدهور مستمر بسبب سيطرة العثمانيين على طرابلس والجزائر ،وأصبحت بذلك محصورة بين القوى العثمانية شرقا وغربا، فاستولى العثمانيون عليها سنة 1569م، لكن تونس سقطت مرة أخرى في يد الإسبان عام 1573م، ولكن القائد العثماني "سنان باشا" استطاع الاستيلاء على "تونس" مرة أخرى وقضى نهائيا على حكم الأسرة الحفصية، وبعد أن خضعت تونس لحكم العثمانيين منتصف القرن السادس عشر على يد "سنان باشا"، تسلم الأمور فيها الجيش العثماني الإنكشاري والذي كان تحت سيطرة الدايات، إلى أن تم تعيين باشا للولاية من طرف السلطان العثماني إلى أن أقيم نظام الحكم بتونس بقيادة الداي العسكري والباي الجابي للضرائب، إلا أن سلطة الدايات تضاءلت تدريجيا أمام سلطة الباي، فتحولت سلطة الباي من ولاية إلى ملكية، وساير البايات حركة الإصلاح في الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر، وسياسة "محمد علي" بمصر، فحاولوا تطوير البلاد وتنميتها إلا أنهم سقطوا في الديون على خزينة الدولة[2].

وبذلك طبق نظام الولايات العثماني على بلاد المغرب فأصبحت "طرابلس" و"تونس" و"الجزائر" ولايات عثمانية، عدا "المغرب الأقصى" فلم يتمكن العثمانيون من احتوائها تحت لوائهم كما سيأتي توضيحه.

---

[1] ينظر: مفيد الزيدي، موسوعة التاريخ العربي المعاصر والحديث، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان_ الأردن، ط1، 2004م، ص200.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص227، وينظر: عبد العزيز نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص69.

د_ المغرب الأقصى

سبق الذكر أن العثمانيين استطاعوا السيطرة على بلاد المغرب العربي عدا "المغرب الأقصى"، فبعد نجاحهم في استرداد تونس من يد "الإسبان" تطلعوا إلى المغرب وكانوا جادين في تنفيذ مشروعهم، ولكن ذلك حال دون تحقيق ذلك لعدّة أسباب منها: أن المغاربة قد أحرزوا نصرا كبيرا على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سنة 1578م، جعلتهم محط تقدير السلطات العثمانية فتوقفت الحملة المعدّة ضدهم، كما ظهرت بالمغرب شخصية قوية حاكمة وهو "المنصور السعدي"، وقد رأى العثمانيون زمن "حسن باشا" أنه من الخير التعاون مع الأسرة السعدية ضد الإسبان في وهران إلا أن السعديين استغلوا هذا التحالف في السيطرة على تلمسان عام 1550م، وتوسعوا بشكل يهدد العثمانيين لا الإسبان، فأسرع "حسن باشا" إلى وضع يده على "تلمسان" لكنه لم يقض على الأسرة الزيانية التي قضى عليها من بعده "صالح بن باديس" الذي حل محله في الحكم سنة 1551م، والذي توفي وهو يحاول منع قيام تحالف بين السعديين والإسبان في "وهران"[(1)]، وبعد سقوط الدولة السعدية التي حكمت "المغرب الأقصى" ما بين(1554-1666م)، قامت على إثرها الدولة العلوية التي حكمت منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر حتى عصر محمد الخامس، والتي تميزت سياستها بالتصدي للقوى الأجنبية والإسهام في الجهاد ومقاومة الطرق الصوفية والدعوة إلى الوقوف أمام العثمانيين والحصول على الاستقلال[(2)].

ثانيا: بلاد المغرب والاستعمار الأوروبي

لقد شهدت بلاد المغرب عدة تطورات سياسية في العصر الحديث والمعاصر وكان من أبرزها تعرض مختلف أقطار بلاد المغرب للاستعمار الأوروبي. فبدءا من "ليبيا"التي تعرضت للاستعمار الإيطالي سنة 1912م، كما ظهرت بها الحركة الوطنية من

(1) ينظر: نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص68، 69.

(2) ينظر: الزيدي، موسوعة التاريخ العربي، ص243، 244.

"السنوسية" إلى "حركة عمر المختار" إلى هزيمة إيطاليا سنة 1945م، وبعدها استقلت "ليبيا" وظهر فيها الحكم الداخلي وتحول إلى ملكية سنة 1955م إلى قيام تنظيم الضباط الأحرار بثورة سنة 1969م وإنهاء الملكية ومجيء الحكم الجمهوري(1).

أما "تونس" التي كانت خاضعة للحكم العثماني هي الأخرى حتى الحرب العالمية الأولى، تعرضت لاحتلال فرنسا بعد انهيار الأتراك وظهرت بها أحزاب وطنية إلى حين ظهور "الحبيب بورقيبة" و"الحزب الدستوري الجديد"، والحصول على الاستقلال وقيام الجمهورية التونسية(2).

في حين خضعت "الجزائر" بين 1830- 1962م للاحتلال الفرنسي ولكل الأساليب الاستعمارية التي واجهها "الأمير عبد القادر" ثم الزعماء الآخرين، وظهرت الحركات والأحزاب السياسية والتيارات الوطنية وقامت الثورة التحريرية سنة 1954م إلى حين الحصول على الاستقلال الوطني سنة 1962م، وقيام الجمهورية الجزائرية(3).

أما بالنسبة إلى "المغرب الأقصى" التي حكمها العلويون الأشراف منذ القرن السابع عشر، فقد ضعف في الأخير ودخله الاستعمار الأوروبي، فأصبح المغرب مقسما إلى ثلاثة مناطق: الأولى تحت سيطرة فرنسا التي فرضت عليها نظام الحماية سنة 1912م، وعاصمتها "الرباط"، والثانية كانت من نصيب إسبانيا وعاصمتها "الريف المغربي"، أما المنطقة الثالثة فهي "طنجة" التي كانت محط اهتمام الدول الكبرى وعلى رأسها "بريطانيا"، وقد عرفت المغرب أيضا عدّة تطورات سياسية داخلية منها: "ثورة الريف المراكشي" ضد الإسبان في الشمال والتي كانت ما بين (1919- 1925م)، و"الظهير البربري" عام 1930م، حيث أصدرت فرنسا مرسوما يكرس ويؤصل التقاليد والعادات البربرية القديمة وإحلالها محل الأصولية الإسلامية، بالإضافة إلى ظهور الملك محمد الخامس والذي قاد "المغرب" للحصول على الاستقلال الوطني عام 1956م(4).

(1) ينظر: الزيدي، موسوعة التاريخ العربي، ص7.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص7.

(3) المرجع نفسه، ص7.

(4) المرجع نفسه، ص7، 8، 247- 252.

وعلى العموم فإن بلاد المغرب عرفت عدّة تسميات منذ القديم منها شمال إفريقيا، والمغرب العربي، وغيرها، كما أنها تتميز بالتنوع السكاني من أمازيغ وعرب وأفارقة، وغيرهم، بالإضافة إلى أنها عرفت عدّة مراحل تاريخية مهمة خاصة المرحلة الإسلامية التي تعاقبت عليها عدّة دويلات التي كانت توحد أقطار المغرب وتارة تتشتت دوله متصارعة فيما بينها إلى أن استولى عليها الاستعمار الأوربي حتى القرن العشرين ثم نالت استقلالها منه في القرن العشرين، وأصبحت دولا مستقلة.

المطلب الثاني: التعريف بالجزائر

قسّم هذا المطلب إلى ثلاثة فروع: الفرع الأول في الحديث عن تسمية الجزائر وموقعها وسكانها، والفرع الثاني في الحديث عن المراحل التاريخية للجزائر قبل مجيء العثمانيين، والفرع الثالث في الحديث عن الجزائر وعلاقات الجوار.

الفرع الأول: التسمية والموقع والسكان

للتعريف بالجزائر لابد أولا التعريج على أصل تسميتها بالإضافة إلى تحديد موقعها الجغرافي، وكذلك الحديث عن أصل سكانها.

أولا: أصل تسمية الجزائر

أ_ تسميات بلاد الجزائر عند الغربيين

كان قدماء اليونان يطلقون اسم "**ليبيا**" على إفريقيا الشمالية، ثم أصبح الجغرافيون اليونانيون اللاتينيون يقسمون الوطن – الجزائري – إلى ثلاثة أقسام:

1_ ماصيصيليا: ويشمل سهول "سطيف" و"برج بوعرريج" وتل "الجزائر" و"وهران" سابقا إلى "وادي ملوية" غربا، ثم صارت ماصيليصا تعرف باسم "موريطانيا" الشرقية.

2_ ماصيليا: وهو باقي عمالة "قسنطينة" سابقا وغرب "تونس" إلى "طبرقة"، ثم صارت تسمى بـ"نوميديا".

3_ جيتولية : ويشمل صحراء "موريطانيا"، و"نوميديا"[1].

ب_ تسميات بلاد الجزائر عند الكتاب المسلمين

بعد التسميات السابقة التي وضعها الغربيون أطلق العرب على شمال إفريقيا اسم المغرب الذي جعلوه يشمل مابين برقة شرقا، والمحيط الأطلسي غربا والبحر المتوسط شمالا والصحراء الكبرى جنوبا[2].

يقول عبد الرحمن الجيلالي: "**الجزائر اسم عربي صميم لعاصمة الوطن وأم القطر ولم يسم بها الوطن الجزائري إلا في العهد التركي في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي**"[3].

كان يطلق المغرب الأدنى على ما بين "برقة" شرقا و"بجاية" غربا، والمغرب الأوسط يشمل على مابين "بجاية" شرقا و"وادي ملوية" غربا، والمغرب الأقصى ما بين "وادي ملوية" شرقا و"المحيط الأطلسي" غربا[4].

وكان قطر الجزائر يدعى في التاريخ العربي الوسيط بـ"المغرب الأوسط" إلى بداية القرن 16م حين تدخل الأتراك العثمانيون في أمره – الذي كان- تحت ضربات الاستعمار الاسباني بعد أن انتهى أمر الممالك الإسلامية في الأندلس، إذ جمع الأتراك ورجال المغرب الأوسط سائر البلاد تحت إدارة مركزية تتوسط الساحل تدعى "**جزائر بني مزغنة** " لوجود عدد من الجزر الصغيرة أمامها تستعملها لحماية سفنها والدفاع عن ديارها ضد غارة الأعداء، فأخذ الأتراك وأهل البلاد يعمرونها وينشئون بها الدور والقصور حتى أصبحت من أكبر المدن الإفريقية فصارت تدعى باختصار مدينة **الجزائر**، ثم أطلقوا اسمها على كامل البلاد المترامية الأطراف التي تدين لحكمها، وهكذا نشأت وحدة تدعى **الجزائر** في القرن السادس عشر مع نشأة **العصر التاريخي الحديث** في العالم[5].

---

[1] شريط و الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص9.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص9.

[3] الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 1/ 32.

[4] شريط والميلي، المرجع السابق، ص 9.

[5] توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص9، 10.

ويقول عبد الرحمن الجيلالي أن: "**السبب في تسميتها بالجزائر يعود إلى وضعيتها الطبيعية حيث كان هناك تجاهها أمام المرسى القديم صخور أربعة متجاورة تشبه الجزر ثم كان ردم ما بين تلك الجزر الأربعة وضمها إلى بعضها البعض بإشارة المهندس موسى الأندلسي وإشرافه على ذلك بنفسه، فاتصلت هذه الجزر بالمدينة بواسطة رصيف طوله 220م وعرضه 25م وعلو 4م وفي منتهى الرصيف يوجد مركز إقامة أمير البحر، وبذلك دعيت هذه البلدة بالجزائر**"[1].

وبالرغم من كل التسميات فإن اسم "الجزائر" هو الذي بقي متداولا إلى يومنا هذا.

ثانيا: الموقع الجغرافي للجزائر

الجزائر عبارة عن قطعة من الأرض هي واسطة عقد الشمال الإفريقي[2]، فهي محصنة بالبحر شمالا حيث يمتد ساحلها نحو 1200كلم فيما بين مملكتي "تونس" و"مراكش"، إذ يحدها من الشرق "تونس" من نقطة تبتدئ من شرق "القالة" على البحر إلى نقطة تنتهي على مقربة من مدينة "غدامس" الليبية، وأما الحد الغربي فينحدر عموديا من نقطة غرب "الغزوات" (نمور) إلى واحة الفقيق، ثم ينتهي غربا جنوب المملكة المراكشية[3]، وليست هناك حدود طبيعية تفصل الجزائر عن القطرين الشقيقين (تونس ومراكش)، سوى خطوط اعتبارية وضعتها يد السياسة مراعاة لاختلاف مصالح إدارة الحكومات التي توالت على هذه الأقطار الثلاثة، وأمّا الحد الجنوبي فيتحصّن بالصحراء الكبرى التي تعتبر الحد الفاصل بينه وبين إفريقيا الغربية[4].

ويقع طول القطر الجزائري ما بين درجة6 شرقي إلى درجة 4 غربي من خط الزوال، وعرضه من الشمال إلى الجنوب مابين درجتي37 شمالا 31 جنوبا من خط الاستواء[5].

---

(1) الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 1/ 33.

(2) ينظر: المرجع نفسه، 32/1.

(3) توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص12.

(4) الجيلالي، المرجع السابق، 33/1.

(5) المرجع نفسه، 33/1، 34.

ثالثا: سكان الجزائر (قبل مجيء الأتراك)

يذكر توفيق المدني أنّ: "**المسلمون هم سكان الجزائر الأصليون وأصحابها الشرعيون، فالمسلمون الجزائريون عصبة واحدة هي عصبة الإسلام و أمة واحدة هي أمة القرآن وجماعة واحدة هي جماعة القومية الجزائرية، قد اعتنقوا الإسلام دينا منذ القرن الأول الهجري..، واتخذوا العربية لسانا، والسنة المحمدية مذهبا**"[(1)]، ويضيف قائلا عن أصل سكان الجزائر: "**وإذا نظرنا إلى أصول المسلمين الجزائريين نظرة بحث علمي رأيناهم ينحدرون من أصلين اثنين : الأصل الأمازيغي، والأصل العربي**"[(2)]، فأصل سكان الجزائر هو نفسه أصل سكان بلاد المغرب، وهم "الأمازيغ"، و"العرب".

أ_ الأصل الأمازيغي (البربر)

وكما سبقت الإشارة فإنّ الحديث عن أصل البربر من أكثر الأحاديث اضطرابا وأوسعها خلافا، يقول مبارك الميلي في هذا الشأن: "**وما لا يختلف فيه اثنان على أن البربر هم أصل سكان المغرب العربي كله**"[(3)]، وبذلك فالعنصر البربري هو أقوى عنصر يتألف منه الشعب الجزائري، وقد ذهب العلماء كل مذهب في نسبة البربر إلى جذر من الجذور البشرية، فمنهم من قال أنهم ساميون، ومنهم من قال أنهم حاميون، وقال آخرون أنهم آريون[(4)].

ب_ الأصل العربي

العرب هم العنصر الثاني الذي يتكون منه سكان القطر الجزائري، وقد استقرت أقدامهم في بلاد المغرب العربي منذ أيام الفتح الإسلامي الأولى وتغلغلوا بين السكان الأولين

---

(1) توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص28.

(2) المرجع نفسه، ص32.

(3) الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 48/1.

(4) الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص22.

الأمازيغ يعلمونهم الدين ويجمعونهم حول القرآن وسنة محمد صلى الله عليه وسلم [1]، لكن في بداية الفتح لم يكن الجند العربي كثير العدد، فبقيت أقسام البلاد على أمازيغيتها إلى أن حدثت الهجرة الهلالية الكبرى (هجرة قبائل بني هلال وبني سليم) من صحراء شرق النيل إلى المغرب العربي سنة 444هـ، فتدفق سيلهم وتكاثر عددهم وانتصبوا في سائر السهول والواحات و أغالب الجبال، واختلطوا بالعنصر الأمازيغي المسلم اختلاطا وثيقا فتصاهر العنصران وامتزجا وصهرتهم بوتقة الإسلام والعروبة، فكونت منهم الشعب الجزائري العربي المسلم المجاهد في سبيل دينه وعروبته ووطنه[2].

كانت للجزائر في القديم عدّة تسميات قبل أن تسمى بهذا الاسم، كما أن موقعها الطبيعي يتميز بالإستراتيجية الهامة، أما السكان الأصليون لها فهم الأمازيغ والعرب.

الفرع الثاني: المراحل التاريخية للجزائر قبل مجيء العثمانيين

مرّت الجزائر بمراحل تاريخية هامة، قبل دخولها تحت الحكم العثماني، منها ما كان في الفترة القديمة ومنها ما كان في الفترة الوسيطة إلى الحديثة.

أولا: المرحلة القديمة

وتمتد من عصور ما قبل التاريخ إلى عصر ما قبيل الفتح العربي الإسلامي وتشمل ما يلي:

أ_ العصر الحجري (ما قبل التاريخ)

لقد عثر الباحثون في الوطن الجزائري على آثار لأهل العصر الحجري، ويعرف ذلك العصر الطويل بما قبل التاريخ لأن الإنسان كان لا يزال يجهل الكتابة، فكان لا يستطيع أن يدون أو يؤرخ ما على عهده من الحوادث، ويعرف بالحصر الحجري لأن البشر كانوا إذ ذاك يستعملون الحجارة في كل ما يحتاجون إليه من الأدوات، إذ تدل الاكتشافات على

(1) توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص29.

(2) المرجع نفسه، ص29.

آثار عثر عليها بالجزائر، إذ تعد من أقدم الآثار الدالة على الحياة البشرية مثل التي عُثر عليها في "عين حنش" قرب "العلمة" (بسطيف)، حجارة منحوتة بكيفية خشنة تدل على أن تلك الجهة كانت آهلة في بداية العصر الحجري الأخير الذي يمتد من(6000 إلى 2500 ق.م)، ويقول الأستاذ " يالو " الذي اشتغل بدراسة عصر ما قبل التاريخ في الشمال الإفريقي أن الشواطئ الجزائرية كانت آهلة منذ العصر الحجري الأول[(1)].

وقد كان عصر ما قبل التاريخ الجزائري له صلات بالأدوار المعاصرة في البلاد الأخرى، فكان منه ما يحاكي الصناعة الإسبانية المعاصرة، وهو ما كان قريبا من المغرب، ومنه ما يحاكي الصناعة الصحراوية، ومنه ما كان على مثيل الصناعة المصرية، ولذلك فإنه كان متأثرا من الجهة القريبة ومنقسما إلى شقين شرقي وغربي، وقد قدر للجزائر أن يكون تاريخها من أول عصورها يتجاذبه عامل الشرق وعامل الغرب[(2)].

ب_ العصر الأمازيغي

إن الجنس الأمازيغي كان مند بداية العصور التاريخية هو الجنس الذي ينتمي إليه سكان إفريقيا الشمالية – ومنها الجزائر – ويستشهد بعض الباحثين على كون الجنس البربري متولدا عن تزاوج وتلاقح عدة أجناس بوجود عدة نماذج بربرية [(3)].

إذ أن أول ما عرف التاريخ المسجل من سكان الجزائر إنما عرف البربر وهم مجموع سكان الشمال الإفريقي من حدود واحة "سيوة" المتاخمة للحدود المصرية شرقا إلى ساحل المحيط الأطلسي غربا وإلى ضفة وادي النيجر جنوبا[(4)].

والحديث عن "الأمازيغ" تم الحديث عنه فيما سبق في عنصر سكان الجزائر.

ج_ العصر الفينيقي

وصل الفينيقيون إلى شواطئ المحيط الأطلسي منذ القرون الأخيرة للألف الثانية قبل الميلاد (200 ق.م)، وكانوا أمة بحرية دفعتها الحاجة الاقتصادية لارتياد البحار لتجلب

---

(1) ينظر: مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 65/1. والكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص16.

(2) المرجع نفسه، ص19.

(3) شريط والميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص12.

(4) الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 48/1.

عن طريقها ذهب السودان وفضة الأندلس، لكن المسافة التي تفصل بين فينيقيا وبين هذين البلدين مسافة طويلة عبر البحر ما اضطر الفينيقيين على تأسيس مراكز تموين في الطريق[1]، ولم ينتصب الفينيقيون انتصابا نهائيا بالجزائر إلا بعد تأسيس "قرطاجنة" سنة 480 ق.م في الشمال الشرقي من مملكة "تونس" ثم بسطت نفوذها وسلطانها بصفة سلمية على كامل بلاد المغرب العربي وعلى الأخص الجزائر (فأصبحوا يلقبوا بالبونيقيين)[2]، فتطورت مراكزهم إلى أسواق تجارية أسسوا لها عدة مراكز (مدن) مثل "هبو" (عنابة)، و"روسيكادي" (سكيكدة) و"صلداي" (بجاية)...، وفيما بعد أصبحت هذه المدن أسواقا وطنية تؤمها جموع الأمازيغ من كل جهات البلاد، وهكذا نشأت بقطر الجزائر دولة نومديا القديمة[3].

فالفينيقيون لم يكونوا مستعمرين ولا فاتحين وإنما كانوا رواد مدنيّة ودعاة تبادل ثقافي واقتصادي على بساط السلم والمعاملة الحسنة[4].

د_ العصر النوميدي

لما اشتغلت "قرطاجنة" بالحروب مع الرومان اغتنم البربر الفرصة واقتطعوا لأنفسهم مملكة عظيمة من بلاد الجزائر ماعدا السواحل منها، وأسسوا نوميديا[5]، وحاول ملوكها أن يجمعوا شمل كامل قطر المغرب الأوسط فيما بين" قرطاجنة" (تونس) و"موريطانيا" (مراكش) ونجحوا في ذلك إلى حد بعيد وكانت الجزائر قد انتظمت وتوحدت لأول مرة في التاريخ حوالي سنة (300 ق.م)، وبعدها جاء الاستعمار الروماني حوالي سنة 250 ق.م[6].

---

(1) شريط والميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص15.

(2) الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص37.

(3) ينظر: شريط والميلي، المرجع السابق، ص16. وتوفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص45.

(4) المرجع نفسه، ص45.

(5) الكعاك، المرجع السابق، ص49.

(6) توفيق المدني، المرجع السابق، ص47.

هـ_ العصر الروماني

كان ابتداء علاقة الرومان بالجزائر مند سنة 213 ق.م وامتدت إليها يدهم فتصرفوا فيها منذ سنة 104 ق.م ووضعوا قدمهم بنوميديا سنة 46 ق.م إلى غاية 42 ق.م، ولم يكن للرومان أن يستولوا على البلاد إلا بعد سنة 297م[1].

وقد دام تاريخ الرومان في شمال إفريقيا (الجزائر خاصة) 700عام وقد مر بخمس مراحل حسب تقسيم توفيق المدني وهو كالتالي :

1_ الدور الأول: وهو دور الحماية، حيث اعترفت روما بمملكة "نوميديا" وتركت "ماسينيسا" يديرها إدارة مستقلة.

2_ الدور الثاني: وهو دور النزاع المسلح بين الوطنية "النوميدية" (الجزائرية) وبين الجيوش الرومانية، في زمن الملك "يوغرطة"[2].

3_ الدور الثالث: انتهاء أمر "نوميديا" ورضوخ البلاد لسلطة روما.

4_ الدور الرابع : وهو عصر السلام الروماني، والذي دام 200عام تميز باستبداد الرومان بالحكم على حساب أهل البلاد.

5_ الدور الخامس : وهو الدور النهائي، عهد أنوار الدين المسيحي (ظهر بالمشرق عيسى عليه السلام) وإقبال "الأمازيغ" عليه واتخاذهم الدين (الجديد) مطية للثورة.

وقد خرج الرومان من الجزائر نهائيا عام 429م[3].

و_ العصر الوندالي

الوندال هم شعب جرماني هاجم بلاد اسبانيا واستقر بها فأصبحت تعرف باسمه (وندلوسيا، الأندلس)، فما كاد ذلك الشعب يرى أمر الرومان بالمغرب حتى عزم على مهاجمته والاستقرار فيه، فهاجمهم الزعيم "جنصريق" والتفت حوله جموع الأمازيغ تعينه على تقويض النظام الروماني، فانهار النظام الروماني واستقر "الوندال" بكامل البلاد واكتفوا بحكمها سطحيا، فنشأت الممالك الوطنية من جديد واسترجع الأمازيغ أرض

---

(1) الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 89/1.

(2) توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص49.

(3) المرجع نفسه، ص50 ،51.

أجدادهم، ودام "الوندال" في الجزائر مئة عام فلم يكن لهم غير مراكز عسكرية قليلة، فكانت سلطتهم ضئيلة على سكان الجزائر[1].

ي_ العصر البيزنطي (الروم):

يمثل البيزنطيونالقسم الشرقي من إمبراطورية الرومان، الذين استقلوا في "بيزنطة"، فقد رأوا مدى ما لحق بمستعمري الرومان في بلاد المغرب من أذى فعلموا أن موجة "الوندال" قد نضب معينها فأرسلوا جندا وأسطولا وفتحوا البلاد من جديد، واكتفى البيزنطيون بإبعاد "الوندال" وحكموا البلاد اسما، وكان "الأمازيغ" أصحاب السلطان الحقيقي وأصحاب الأرض، فكان كل همّ الروم أن تحرز على الثروة والرجوع بها إلى بيزنطة، فتدحرجت البلاد في ميادين الفوضى والارتباك والحروب المتوالية وشعر "الأمازيغ" بأن الحالة تستدعي منقذا جديدا، فجاء الإنقاذ من الشرق، وهو الفتح الإسلامي[2].

مرت الجزائر بمراحل تاريخية عديدة تداول على حكمها الكثير من الشعوب سواء سكانها الأصليين أو المحتلين الأجانب.

ثانيا: مرحلة الفتح الإسلامي

كانت 667م سنة إنقاذ لبلاد المغرب العربي حولت مجرى تاريخه إلى الأبد ورمت به في اتجاه جديد اتجاه الحضارة الإسلامية، فبرز في ذلك الميدان قويا عزيزا وساهم بقسط وافر في إقامة دعائم تلك الحضارة الرفيعة[3].

أ_ الجزائر أثناء الفتح الإسلامي

لم يكن المقصود من الفتح الإسلامي الاستيلاء على أمم ضعيفة وإنما كان المقصود توحيد كلمة المعمورة على قول واحد وعقيدة واحدة ولغة واحدة وجنس واحد ونظام واحد[4].

---

[1] توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص53.

[2] المرجع نفسه، ص53.

[3] المرجع نفسه، ص54.

[4] الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص106.

فعند مقدم المسلمين إلى الشمال الإفريقي كان التنظيم الاجتماعي يكتسي أشكالا مختلفة هي نتيجة التحولات وردود الفعل التي نجمت بها بعد الاحتلال الروماني ومحاولة الاحتلال الوندالي والبيزنطي[1].

وقد دخل العرب الشمال الإفريقي في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومر فتح الجزائر بثلاث مراحل حسب عثمان الكعاك وهي كما يلي :

1_ الفتح الأول:

وكان ذلك على يد أبا المهاجر دينار عندما ألحقه الخليفة معاوية المغرب إلى والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري، فأرسل هذا الأخير مولا أبا المهاجر إلى القيروان فلم يكد ينتهي حتى بادر بفتح "نوميديا" و "موريطانيا" إلى أن وصل إلى تلمسان ففتحها والتقى مع قبائل الأوربية (أوربة) والبرانس الذين كانوا تحت قيادة "كسيلة" (قصيلة) رئيسهم فهزمهم أبو المهاجر وانتصر عليهم وأسر زعيمهم[2].

2_ الفتح الثاني:

كان ذلك على يد عقبة بن نافع الفهري الذي رجع إلى إفريقية بعد أن عزل منها، وكان رجوعه سنة 63هـ _ 681م، وبنا القيروان من جديد واهتم بفتح الجزائر ومراكش، فبادر إلى "نوميديا" (منطقة الزاب)، ففتح "باغاي" ولميس، وتوجه إلى "تاهرت" ففتحها وبذلك تم له فتح "نوميديا""وموريطانيا" شمالها وجنوبها، ولم يقف عن فتحه الأول، بل انتهى إلى "موريطانيا""الطنجية" وفتحها حتى وصل إلى المحيط (بحر الظلمات)، فعاد أدراجه إلى القيروان، ففاجأه "كسيلة" وقتل في معركة "تهودة"[3].

3_ الفتح الثالث:

وكان على يد "حسان بن النعمان" الغساني (في عهد عبد الملك بن مروان)، الذي ظهرت أمامه الكاهنة بجبال "الأوراس"، فكانت أشجع امرأة ظهرت في التاريخ القديم، فجمعت "الأمازيغ" من حولها ونفخت فيهم روح الوطنية والحماس واستعدت لمقابلة العرب، فوقعت المعارك الطويلة بين الجيشين وكانت الغلبة في بادئ الأمر للكاهنة، وقد سلكت سياسة

---

[1] شريط والميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص52.

[2] الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص100.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص101،102.

الأرض المحروقة فأمرت بإحراق القرى والمدن والمزارع والغابات كي لا يبقى مطمع في البلاد، لكن "حسان بن النعمان" أعاد الكرة على الكاهنة فدمرها وجموعها، وأفهم "الأمازيغ" الأحرار أن القادمين الجدد ما جاءوا مستعمرين يريدون الأرض، إنما جاءوا دعاة يريدون الهداية، فانظم "الأمازيغ" لهم وآزروهم، ودخلوا في دين الله أفواجا، وما مضت مدة طويلة حتى أصبح الجند الإسلامي يعتمد على الفرق "الأمازيغية" لمواصلة الفتح نحو أوروبا، وهكذا تم فتح الجزائر بعد جهود جهيدة مبذولة من الطرفين، وبعد ذلك بقليل تم فتح الأندلس على يد "طارق بن زياد" الأمازيغي، ثم "موسى بن نصير"، وأصبحت البلاد التي على البحر المتوسط جنوبا وغربا بلاد إسلامية[1].

مرّ الفتح الإسلامي للجزائر بعدة مراحل على يد الكثير من القادة الفاتحين، ورغم الصعوبات التي واجهوها من حكامها "الأمازيع" إلا أنهم في الأخير استطاعوا فتحها وإلحاقها بالخلافة الإسلامية على غرار بقية دول شمال إفريقيا.

ثالثا: مرحلة الحكم اللامركزي الإسلامي (عصر الدويلات)

مما يسجله التاريخ لأمة المغرب الأوسط (الجزائر) أنها كانت أول أمة حققت استقلالها ضمن دائرة الإسلام، فأول مملكة إسلامية مستقلة منظمة نشأت بمدينة تيهرت سنة 169هـ وهي الدولة الرستمية [2]، ثم توالت الدويلات والممالك في الجزائر قبل قيامها كدولة وجمهورية في العهد العثماني، وسنذكر هذه الدويلات حسب ترتيبها الزماني بشيء من التلخيص:

أ_الدولة الرستمية

وكانت أولأمة حققت استقلالها ضمن دائرة الإسلام كما سبقت الاشارة، وتنتسب إلى "عبد الرحمن بن رستم"، وكانت تقع بين إمارة "الأغالبة" شرقا (تونس)، و"الأدارسة" غربا (المغرب)، وتمتد جنوبا إلى "ورقلة" و"وادي ريغ"، وتتسع هناك حتى تشمل الجريد وجبال "دمر" إلى "طرابلس" وجبال "نفوسة"، دامت هذه الدولة 136 سنة تولى أمرها ستة من الأئمة أشهرهم "أفلح" وابنه "يقضان"، وكانت هذه الدولة على المذهب الإباضي[3].

---

(1) ينظر: توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص54، 55.

(2) المرجع نفسه ص56.

(3) شريط والميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص60. وتوفيق المدني، المرجع السابق، ص56.

ب_ الدولة الحمادية

دامت دولة "بني حماد" 171 عاما وتولى أمرها تسعة من الملوك كان لهم السلطان المطلق وفي أيامهم عرفت الجزائر في البلاد الغربية الأوروبية وتعاقدت بمعاهدات تجارية مع أغلب دول البحر المتوسط(1).

ج_ الدولة الموحدية

تأسست دولة الموحدين سنة 524هـ على يد "عبد المؤمن بن علي" الندرومي من القطر الجزائري حيث قضى على دولة المرابطين في المغرب الأقصى، ولقد استمرت دولة الموحدين قابضة على صولجان الملك ووحدة الشمال الإفريقي طيلة قرن ونصف، ولقد اكتسب المغرب الإسلامي يومئذ بوحدته هذه بأسا وقوة تمكن بها من نشر نفوذه السياسي على بلاد الأندلس وخضع له كل من دول ضفاف البحر الأبيض المتوسط(2)، ولم يزل الموحدون في أوج عزهم إلى أن تصدع شملهم في "وقفة العقاب" بالأندلس سنة 1212م فخرج عنها ولاة النواحي، فتفككت حينئذ وحدة الشمال الإفريقي، وأشرقت فيه ثلاث إمارات متزاحمة على جذب طرف حبله متنازعة (دولة "بني حفص" شرقا، ودولة "بني مرين" غربا، ودولة "بني زيان" بالأوسط)، فكلها تحاول الاستقلال به وبسط نفوذها وسلطانها عليه، فتحاربت بينها طيلة نحو قرن كامل ولتكافؤ القوات لم يخلص بتمامه إلى أي دولة من هذه الدول الثلاث وأخيرا توزعته فيما بينها، ووقعت الجزائر مرارا في قبضة "الحفصيين" و"بني مرين" أيضا وامتدّ نفوذهم إليها ونشروا سلطانهم على نواح منها برهة من الدهر(3).

وتجنبا للتكرار سنتحدث عن الجزائر في عهد الدويلات الثلاث المتنازعة في العنصر

الفرع الثالث: الجزائر وعلاقات الجوار قبل مجيء العثمانيين

أولا: العلاقات الجزائرية المغاربية

سبق الذكر إلى أن إقليم المغرب العربي قد فقد وحدته السياسية الكبرى خلال القرن الثالث عشر الميلادي بعد سقوط دولة الموحدين وانقراضها على أيدي الزعامات المحلية،

(1) شريط والميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص60، 61.

(2) المرجع نفسه، ص63.

(3) الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 7/2، 8.

الحفصية والزيانية والمرينية، التي كونت لنفسها دويلات صغيرة دخلت فيما بينها في صراع وتطاحن، وفي حروب مرهقة أنهكتها وأضعفتها ونشرت فيها التفسخ والانحلال، فشجع ذلك الأوروبيين على شن الغارات والحروب المدمرة على كامل المناطق الساحلية للإقليم، وخاصة سواحل الجزائر[1]، فكانت العلاقات بين دول المغرب كما يلي:

أ_ الجزائر الزيانية (633- 962هـ، 1235- 1554م)

تنتمي الدولة الزيانية إلى قبيلة "بني عبد الواد" أحد بطون القبيلة الجزائرية العتيدة (زناتة)، اشتهرت هذه الحكومة الجزائرية في أول نشأتها باسم دولة "بني عبد الواد"، إلى أن كان عصر الاستيلاء المريني على تلمسان سنة 1337م فعرفت بعد ذلك في عصر الانبعاث على عهد السلطان "أبو حمو الثاني" باسم الدولة "الزيانية نسبة إلى "زيان بن ثابت" والد "يغميراسن" أول ملوك هذه الدولة، وقضى موقع دولة بني زيان ووضعيتها الطبيعية بين مملكتي "بني حفص" شرقا و"بني مرين" غربا بأن تكون مسرحا وميدانا فسيحا للمبارزة بين هاتين الدولتين في جميع أقطار المغرب الإسلامي والاستيلاء على طرفيه[2]، وقد كانت الدولة "الزيانية" مستقلة داخليا وخارجيا غير أنها لم تدّع أولا الخلافة فكانت تتامشى حسب الظروف تعلن الخلافة أياما وتدعو للحفصيين أو المرينيين أخرى إلى أن ظهر على مسرح السياسة الجزائرية "الإسبان" و"الأتراك"، فاختلفت أيديهم على هذه الدولة كل يجذبها لحمايته[3].

ب_ العلاقات الزيانية الحفصية

كانت الدولة الحفصية (في تونس) مستقلة استقلالا تاما وحكومتها بيد كبار الموحدين وعظماء الجاليات الأندلسيين، وكان للحفصيين علاقات حسنة مع ملوك مصر والسودان لكن علاقتهم مع "بني زيان" كانت تختلف حربا وسلما، فقد كان المغرب الأوسط أيام نشأة إمارة "بني عبد الواد" ملحقا بالدولة الحفصية، وقد كان أول ما وقع من التراب الجزائري بيد الحفصيين ولاية "قسنطينة" و"بجاية" فاستسلم أهلها إلى السلطان "أبي زكرياء

---

[1] يحيى بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون_ الجزائر، ط1999م، ص305.

[2] ينظر: الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 129/2، 136.

[3] ينظر: الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 447،448/2.

الحفصي" سنة 628هـ 1230م، وكان استيلاؤهم على الجزائر ونواحي "الشلف" سنة 236هـ 1238م، واستمرت سيطرة الحفصيين إلى ما بعد "مليانة" شمالا غربيا وما بعد "ورقلة" جنوبا، كما فتحوا تلمسان سنة 634هـ حتى وصلوا إلى مراكش وفتحوها سنة 668هـ، لكن الحفصيين لم يحافظوا على هذا الإرث (المفتوح) لضعف قوتهم الحربية فانسلخت عنهم أكثر الجهات الجزائرية وعادت لأصحابها الزيانيين[1].

ج_ العلاقات الزيانية المرينية

كانت مملكة "بني مرين" تشتمل على المغرب الأقصى وجهات من الأندلس الإسلامية غير التابعة لـ"بني الأحمر" ملوك غرناطة، وعاصمتها "فاس"، فكان للحكومة المرينية علاقات ودية ومهاداة مع دول "مصر" و"السودان" و"تونس"، ولكن جوارها لدولتي "تلمسان" و"غرناطة" كان يحدث لها معهما مشاكل، فقربها من تلمسان جعل أيام السلم معها قليلة، فلم تكندولة "بني مرين" لترضى بمجاورة قبيل "عبد الواد" المنافس، فكانت بذلك الضغائن بينهما قديمة ناشئة عن هذا الجوار في الموطن ثم في الملك وعن المنافسة في الاستقلال برئاسة "زناتة" فكثرت الحروب بينهما[2].

حاولت الدولة المرينية فتح الجزائر من جهتها الغربية فهاجمت "تلمسان" عدة مرات واستولت عليها ست مرات وملكتها سنة 706هـ، كما دخلت جيوشها مملكة "بجاية"، وملكت "وهران" و"مستغانم" و"مزغران" و"تنس" و"مليانة سنة 699هـ، كما استولت على الجزائر الحفصية مرتين وتداخلت مع أبو "حمو الثاني" في أمر العرش ونصبت حمايتها على المستعينين بها على الملك، ثم ضعفت عن ذلك حتى أنها احتمت بالدولة الحفصية، وبلغ أمر العداوة بين "بني عبد الواد" و"بني مرين" أنه ما سمحت فرصة لأحد الطرفين بالإيقاع بصاحبه إلا وانتهزها أخذا بثأره وإخمادا لغلته، فتعددت الحروب والوقائع بينهما، وكان منها الحصار الذي ضربه السلطان المريني "أبو يعقوب يوسف" على "تلمسان"..، ثم كان الصلح بين الدولتين وأعيد لـ"بني عبد الواد" جميع البلاد التي احتلها المرينيون بالجزائر[3].

---

[1] الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 383/2، 384.

[2] المرجع نفسه، 419/2.

[3] الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 76/2، 139.

فكانت هذه الفترة فترة اضطراب حيث تعرضت فيها الجزائر لسيطرة الأمراء الحفصيين حكام "تونس" تارة والمرينيين حكام "مراكش" تارة أخرى وعودة "بني زيان" أحيانا(1) ، هكذا كانت العلاقات بين هذه الدويلات الثلاث المتجاورات.

ثانيا: الجزائر وأوروبا

كان إقليم شمال إفريقيا الغربي _ خاصة الجزائر_ قد قاوم الغزوات الأوروبية منذ عهد الرومان، وكون سكانه دولا كبيرة قوية وراقية في حقب كثيرة من التاريخ كان لها دور موجه في الأحداث العالمية، كما هو الحال في عهد "ماسينيسا"، وصدر الفتح الإسلامي وفي عهود "الفاطميين" و"المرابطين" و"الموحدين"، غير أنه في القرن الثالث عشر الميلادي عندما ضعفت الدولة "الموحدية" وسقطت فقد الإقليم وحدته السياسية وانقسم على نفسه وتكونت به ثلاث دول (حفصية، زيانية، ومرينية) حاولت كل منها أن تفرض سيطرتها على الإقليم، وكان ذلك من ضمن الأسباب والعوامل التي ساعدت الدول الأوربية (اسبانيا والبرتغال) على التفوق في الصراع ضدها وممارسة الاعتداءات والهجمات المتكررة على مدن وموانئ المغرب العربي الإسلامي الساحلية من "طنجة" غربا إلى "جربة" و"طرابلس" الغرب شرقا(2).

فكان من دوافع الغارات الأوروبية على سواحل الجزائر وبلدان المغرب العربي الإسلامي أيضا ما يلي:

_ ظهور الدولة الوطنية الحديثة بأوروبا ورغبتها في التوسع الاستعماري خارج القارة.

_ الحقد الديني والسياسي الموروثان عن الحروب الصليبية ضد الشعوب الإسلامية عامة والرغبة في الانتقام منها على أرض الشمال الإفريقي الغربي بصفة خاصة.

(1) إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر ، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر 987ه _ 1400ه/ 1492م _ 1980م، دار المريخ، الرياض_ المملكة العربية السعودية، د.ط، 1995م، 2/ 117.

(2) بوعزيز، مع تاريخ الجزائر، ص 202.

_ رغبة الإسبان والبرتغاليين في وضع حد لنشاط مسلمي الأندلس المطرودين ومنع بلدان المغرب العربي من تقديم العون والمساعدة لها.

_ الرغبة في التنصير ونشر المسيحية ومقاومة الإسلام في عقر دياره كلما كان ذلك ممكنا[1].

وبذلك لم تكن العلاقات بين الجزائر ومختلف الدول الأوروبية المسيحية تتميز بالصفاء، فقد كانت مواقف البابوية من الجزائر سلسلة من المؤامرات والمناورات لإنشاء تكتلات أوروبية وحملات صليبية ضد الجزائر وبلدان المغرب عموما، بل ونجد أن البابوية لم تكن تكتفي بالتحريض على شن الحملات وتنظيم الغارات على الجزائر فحسب ، بل كانت تشارك عمليا بالجنود وبالسلاح والعتاد والمال في تلك الحملات[2]، وأهم هذه العلاقات:

أ_ العلاقات مع إسبانيا

كانت العلاقات بين الجزائر وإسبانيا سيئة منذ البدء، فبدأت منذ الحملة الصليبية الأولى التي دعت إليها البابوية ضد الجزائر بالذات والتي قادها الكاردينال " خمينيث دي تيسنيروس" تنفيذا لوصية الملكة الكاثوليكية " إيزابيل" جدة "شارلكان" سنة 1505م إلى حملة "شارلكان" نفسه سنة 1541م مرورا بعدة حملات أخرى منطلقة من إسبانيا، منها الحملة على "وهران" سنة 1509م، فكانت بذلك طبيعة العلاقات بين الجزائر وإسبانيا طيلة ثلاثة قرون متوالية هي الحرب الفعلية المتوالية، وقد احتلت إسبانيا أغلب سواحل الجزائر، وبقي الإسبان في الجزائر مدة من الزمن فلم يخرجوا نهائيا من الجزائر العاصمة إلا يوم 27 مايو 1529م على يد "خير الدين" بربروس، كما لم يخرجوا من "بجاية" إلا سنة 1555م، ومن "مستغانم" سنة 1558م، ومن "وهران" ونهائيا سنة 1792م[3].

ب_ العلاقات مع إيطاليا:

بدأت العلاقات الجزائرية مع روما في عهد "الناصر الحمادي" و"البابا غريغوار السابع" في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي (1076م)، أما الدول الإيطالية فقد

---

(1) بوعزيز، مع تاريخ الجزائر، ص203.

(2) مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، دار البعث، قسنطينة_ الجزائر، ط1، 1985م، 85/1.

(3) المرجع نفسه، 1 /125، 126، 129.

بدأت في القرن الثاني عشر الميلادي حيث كانت دول "الجنيويين" و"القطلونيون" وحكومة "مرسيليا" على إقامة علاقات مع الجزائر، خاصة مع موانئ "بجاية" و"عنابة" و"وهران"، ومع "إيطاليا" بالذات، وكان من ثمرات هذه العلاقات إلى جانب التبادل التجاري انتقال العلوم الرياضية الإسلامية مما كان له أكبر الدور على النهضة فيها ثم في أوروبا[1].

ج_ العلاقات مع فرنسا

بدأت علاقات الجزائر بفرنسا عبارة عن علاقات تجارية خصبة، إذ كانت لـ"مرسيليا" منذ القرن الثالث عشر الميلادي علاقات تجارية بالسواحل الجزائرية متنافسة في ذلك مع "الجنيويين" و"القطلونيون"، فكانت تعقد بين الطرفين معاهدات تجارية، مثل المعاهدة التجارة والملاحة التي عقدها حكام "مرسيليا" في بداية القرن الرابع عشر الميلادي مع ملك "بجاية" "خالد بن زكرياء"، وقد اكتسبت العلاقات الجزائرية الفرنسية فيما بعد طابعها الدولي البارز كحدث عالمي وانطلاقها العملي المباشر بمجيء "خير الدين" بربروس رئيس دولة الجزائريين، وقد حرصت فرنسا على توطيد علاقاتها برؤساء الجزائر في ذاك والاستنجاد بهم من "خير الدين" إلى الدّاي "شعبان"، وحتى فيما بعد، ورغم تلك العلاقات التعاونية إلا أن فرنسا لم تتورع أبدا عن الكيد للجزائر ولم تتحرج إطلاقا من إضمار نوايا عدوانية وحبك مناورات وتدبير مؤامرات بل وقيام بغارات تخريبية ضدها؛ فقد بدأت فرنسا تفكر في غزو الجزائر وشرعت تعمل لتحقيقه منذ الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي، حين كان ملك فرنسا "لويس التاسع" يفكر في غزو واحتلال بلدان المغرب ومنها الجزائر منذ 1270م وقبلها، وتقول كثير من المراجع أنه كان يقصد الجزائر بالذات، ولم يتسن لها ذلك حتى 1830م[2].

ويقول توفيق المدني تلخيصا لعلاقات الجزائر مع فرنسا: "**بدأت علاقات الجزائر مع فرنسا طيبة جدا ومنذ عهود سحيقة...، ثم سرعان ما أخذت تتقلب بين عشية وضحاها...، ما إن تمدّ إحدى يديها لطلب المساعدة والعون منا إلا لتخفي أخرى وراء**

(1) مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية، 87/1.

(2) ينظر: المرجع نفسه، 8/1، 13، 21.

ظهرها وهي ممسكة بخنجر مسموم، هكذا كان الأمر معها منذ القرن الثاني عشر(م) حتى سنة 1830م"[1].

وهكذا كانت علاقات الجزائر مع الدول الأوروبية الأخرى، يتجاذبها السلم تارة والحرب تارة أخرى، فكانت الغارات من الدول الأوربية على الجزائر تسير جنبا إلى جنب مع العلاقات والمعاهدات لكن السمة الغالبة عليها هي علاقات التوتر.

المطلب الثالث: الجزائر في العهد العثماني

قبل الحديث عن حكم العثمانيين بالجزائر لابد من التعريج على بدايات هذا الوجود العثماني وكيف وصل إلى الجزائر وأسس دولته بها.

الفرع الأول: بدايات الوجود العثماني في الجزائر

قبل الحديث عن الجزائر في ذلك العهد لا بد لنا من التعرف على العثمانيين، ودوافع وجودهم بالجزائر، وكيفية تمكنهم من تأسيس إيالة الجزائر العثمانية، وهو ما سنعرفه فيما يلي:

أولا: أصل العثمانيين

العثمانيون من أمة آرية تتارية كانت تعيش عيشة البدو ببلاد "طوران" (تركستان)، وقد اعتنق البعض منهم الإسلام منذ القرن الأول والثاني للهجرة، ولما كان القرن الرابع قامت دولة "بني بويه" ببلاد فارس وقامت الدولة "الغزنوية" بهندستان، فقضى "محمود الغزنوي" على دولة "بني سامان" التركية ونقل بعض القبائل التتارية إلى "خراسان" وعلى رأسها "سلجوق التركي"، وانخرط "أطغرل بك" السلجوقي في خدمة العباسيين ثم أصبح له النفوذ الأعلى فاكتفى "بنو عباس" بالسلطة الإسمية، فحارب الفاطميين بمصر واستولى على أجزاء من آسيا الصغرى وأسس الدولة السلجوقية[2]، هكذا كان مبدأ الأمة التركية بالشرق، وفي القرن السابع شرقت القبيلة التركمانية (أقوز) ودخلت بلاد "أرمينيا" تحت قيادة رئيسها "سليمان"، وعندما أخذت دولة "آل سلجوق" تضعف وظهر "أرطغرل" بعد موت "سليمان" أعان "علاء الدين السلجوقي" على طرد التتار (المغول) فأقطعه أرضا واسعة مترامية

---

(1) مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية، 8/1. وهنا لا أشاطره الرأي عندما يقول أن العلاقات كانت طيبة، إنما كانت متوترة منذ البداية لأن فرنسا كانت تتظاهر بالطيبة مع الجزائر من أجل قضاء مصالحها فقط.

(2) ينظر: الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص267، 268.

الأطراف فاستقر فيها بقبائله وأخذ ملكه يصبح ملكا عظيما لا سيما لما قام بالأمر بعده "عثمان" الذي كوّن الأمة التركية تكوينا حقيقيا فتسمت باسمه، واستمر العثمانيون بالفتوحات، في زمن كانت الدول الإسلامية قد وهنت قواها وأدركها الفتور، واعتراها الاختلال السياسي والاجتماعي، وهجم العدوّ على أطرافها (الحروب الصليبية في الشرق وحروب الاسترداد في الغرب)، فاحتاجت الدولة الإسلامية إلى أمة بكر فظهرت الخلافة العثمانية على مسرح التاريخ وكان مركزها "الأستانة"، واحتاجت الدولة الجديدة إلى إدخال كل البلاد الإسلامية تحت طاعتها فبعد أن وطدت قدمها بالمشرق التفت نظرها إلى المغرب الذي كان في غاية الاضطراب[1].

ثانيا: دوافع الوجود العثماني في الجزائر

لم يكن ليوجد الأتراك في الجزائر لولا غزو الإسبان لها، ولم يتوصل الإسبان إلى احتلال بعض أجزائها إلا باستغلال الضعف والانحطاط الذي عرفته الجزائر في أواخر عهد الدولة الزيانية[2]، وبذلك تكون الدوافع الرئيسية لمجيء العثمانيين إلى الجزائر تتركز على سببين:

أ_ الظروف الصعبة التي كان يعيشها بلاد المغرب العربي

عرفت بلاد المغرب -كما سبق الحديث- بعد الموحدين تفككا سياسيا وجغرافيا فظهرت ثلاث دويلات بالمغارب الثلاث، وأهم ما ميز علاقاتها هو الصراع السياسي والعسكري الذي يهدف إلى توسيع مجالها الجغرافي على حساب بعضها، خاصة الضعف والانحطاط الذي عرفته الجزائر في أواخر عهد الدولة الزيانية، حيث دخل أمراؤها في صراع على العرش ولم تعد تملك هذه الدولة من النفوذ إلا تلمسان وبعض أجزاء المناطق الغربية فعجزت عن مقاومة الغزاة وأجبرت على عقد الصلح مع الإسبان سنة 1512م اعترفت فيه باستيلاء الإسبان على عدة موانئ في غرب الجزائر، واستقلت كل مقاطعة من تراب المغرب الأوسط بالسلطة، فبلاد القبائل الكبرى كانت تحت حكم زاوية بالقاضي، ومدينة الجزائر تحت سلطة "الثعالبة"، والقبائل الصغرى تحت نفوذ "بني عباس"، و"بجاية"

[1] الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص267-271.

[2] عمار عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2002م، ص88.

تابعة للحاكم "الحفصي"، أما "الصحراء" ومناطق "الأوراس" فكانت تكون جمهوريات مستقلة، ونفس الحال ينطبق على مناطق "الشلف" و"تنس" و"مليانة" وغيرها من المدن الجزائرية مما سهل للإسبان وشجعهمعلى احتلال موانئ الجزائر [1].

ب_ الهجمات الإسبانية على السواحل الجزائرية

كانت محاولات وغزوات الإسبان ضد الجزائر من بين الأسباب المباشرة التي مهدت لاستقرار الحكم العثماني بالجزائر [2].

يعتبر سقوط غرناطة في يد الإسبان في بداية 897هـ/ 1492م، بدأ مرحلة جديدة في تاريخ التوسع الاستعماري الإسباني، وهي مرحلة تولدت عنها ردود فعل حاسمة بالنسبة لتاريخ الجزائر، فقد عمل "الكاردينال كاسيمياس" المشهور بتعصبه الديني ضد المسلمين على إثارة مخاوف الملكة "إيليزابيت" من مسلمي الشمال الإفريقي، ودعاها إلى نقل الحرب إلى المغرب العربي ضد المسلمين، واستجابة لهذه الدعوة شرعت الملكة في إعداد حملة واسعة النطاق ضد الجزائر، لكنها توفيت قبل أن تحقق رغبة "الكاردينال"، وعندما فتحت وصيتها وجد بها الإلحاح على وجوب مواصلة الإعداد لتجهيز الحملة، فصمم الملك "فرديناد" على تنفيذ وصيتها، ووصلت البواخر الإسبانية إلى "المرسى الكبير" في العاشر سبتمبر 1505م، وبعد حصار دام خمسين يوما سقط "المرسى الكبير" في يد الإسبان [3]، وهكذا كانت بدايات الاعتداءات الإسبانية على السواحل الجزائرية.

يقول توفيق المدني في هذا الشأن: **"فقد احتل الإسبان مرسى وهران والمرسى الكبير وهددوا مدينة الجزائر بني مزغنة تهديدا مباشرا واستولوا على أكبر الجزيرات الواقعة تجاهها وجعلوا فيها حصنا يضع البلدة تحت رحمته ثم أخذوا يوالون غاراتهم البرية قاصدين مدينة تلمسان، ولم تكن دولة بني زيان في آخر عهدها مستطيعة أن تجمع الأمة لقتال هؤلاء المستعمرين... فكانت الحملة الإسبانية حرب نهب ولصوصية وانتقام من الإسلام وانتهاك فظيع لحرمات المسلمين، وكانت أخبار غارات الإسبان على سواحل المغرب العربي حديث الناس أجمعين في ذلك العهد، وكاد المغرب العربي كافة يسقط**

---

(1) ينظر: عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، ص88.

(2) ينظر: الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 19/3.

(3) ينظر: شريط والميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص117.

تحت تلك الضربات الفتاكة لولا أن تدخل القدر وحدثت المعجزة، وكانت المعجزة تدخل بطلين من أبطال الإسلام الخالدين بابا عروج التركي وشقيقه خير الدين"[1]، فكان تدخل الإخوة بربروس بمثابة إنقاذ لبلاد المغرب من احتلال محتم.

ج_ استنجاد أهالي الجزائر بالإخوة بربروس

وبالمقابل لكل هذه الظروف التي عرفتها بلاد المغرب وخاصة الجزائر برز الأخوان عروج وخير الدين بربروس المشهوران بالجهاد البحري ضد القراصنة الأوروبيين انطلاقا من قاعدتهما العسكرية بجزيرة جربة التونسية[2]، وأمام هذا الوضع المزري لم يجد سكان الجزائر وسيلة إلا الاستنجاد بالإخوة الأتراك المسلمين عروج وخير الدين نظرا للروابط الدينية المشتركة، فلما استقر عروج بتونس تعرف على المأساة التي لحقت بالأندلسيين الفارين من اضطهاد المسيحيين، ممّا دفعه لإنقاذ من بقي من المسلمين بالأندلس، وفعلا استطاع عروج وخير الدين، إنقاذ الكثير من الأندلسيين فاكتسبوا خبرة وشهرة وسمعة كبيرة من هذا العمل النبيل، ولهذا استنجد بهم الحاكم "الحفصي" لـ"بجاية" لطرد الجيش الإسباني المحتل[3].

نتيجة للمقدرة الفائقة التي أظهرها "عروج" و"خير الدين" في مقاومة الغزو المسيحي وحماية المسلمين الفارين من الأندلس، لما استنجدوا بهما سكان مدينة "بجاية" في عام 1512م وطلبوا منهما مساعدتهم على طرد الجيش الإسباني من "بجاية"، كما استنجد بهما سكان مدينة "تلمسان" وطلبوا من "خير الدين" و"عروج" باسم الإسلام القضاء على السلطان "أبي حمو الثالث" الذي تحالف مع الإسبان، وقد طلب هؤلاء السكان المساعدة من هؤلاء الأخوان مساعدتهم للتخلص من الخطر الإسباني المحدق بهم لأنهم أدركوا أنهم غير قادرين على مواجهة الجيوش المسيحية، وذلك بسبب ضعفها وصراعها الداخلي[4].

ونظرا لهذه الأسباب كان تدخل الإخوة الأتراك ضرورة حتمية لإنقاذ الجزائر المسلمة من الخطر الإسباني المسيحي.

---

(1) توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص68، 69.

(2) المرجع نفسه، ص16.

(3) ينظر: عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، ص88، 89.

(4) بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، ص53.

ثالثا: تأسيس إيالة الجزائر

فتح الاستنجاد بالأخوان"عروج" و"خير الدين" باب الأمل في الاستيلاء على الجزائر، إلا أنّ سكان الجزائر سرعان ما ضجروا من تصرفات الأتراك وظهرت بوادر تمرد ضد "عروج" وجنده، لكن هذا الأخير بادر بخنق هذا التمردّ في المهد وقتل بنفسه شيخ مدينة الجزائر "سالم التومي" وأعلن نفسه سلطانا على الجزائر[1]، وبعد مقتل "عروج" في معركة حامية الوطيس بـ"تلمسان" في شهر ماي من سنة 1518م، قرر "خير الدين" أن يسلك سياسة جديدة تتمثل في الحصول على تأييد السكان الجزائريين، وذلك بالتودّد إلى علمائهم وكسب ودّهم وإقناعهم بأهمية انضمام بلدهم إلى السلطة العثمانية التي تزود جيشه بالسلاح والمؤونة والدعم السياسي لمواجهة الهجمات الإسبانية، وبهذا الأسلوب تمكن "خير الدين" من تقوية جيشه وبسط نفوذه وضمن سيطرته على الدوام بعد أن أصبح ممثلا للسلطان العثماني في أرض الجزائر[2]، وذلك ما تمّ بالفعل، فقد استجاب السلطان العثماني "سليم الأول" مطلبه، وأذن له أن يضرب السكة باسمه وأعطاه لقب" **باشا**" وسماه "**بايلرباي**" إفريقيا، أي "**أمير الأمراء**"، وأرسل له نحو ستة آلاف جندي وزوده بالمدفعية، هذا بالإضافة إلى انتصار "خير الدين" على "الإسبان" خلال هجومهم على مدينة الجزائر في صيف 1519م ممّا عزز مكانته لدى الجزائريين[3]، وبذلك تمّ له أن يكون ملك الجزائر المطلق ويطرد منها الإسبان والحفصيين وينظم حكومتها أحسن نظام، وأصبحت بلاد الجزائر تابعة للسلطنة العثمانية، وارتاح أهلها من عناء الدخول والخروج من حكم الإسلام إلى حكم النصرانية طورا فطورا، ووجب عليها أن تعد "خير الدين" من أعظم رجالها السياسيين والحربيين والإداريين الذين نجو بها إلى الإسلام وسط الاضطراب الشامل والأعداء الحافة بها من كل جانب، فانتقل مركز الحكومة من مدينة "تلمسان" إلى جزائر "بني مزغنة" وأصبحت إيالة المغرب الأوسط إيالة واحدة بحدودها المعروفة اليوم وأطلق عليها اسم القطر الجزائري[4].

---

[1] شريط والميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص118.

[2] بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، ص54.

[3] شريط والميلي، المرجع السابق، ص 120.

[4] الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص 278.

وقد فند خير الدين المقولة التي ما فتئ الباحثون الغربيون يشيعونها والمتمثلة في أنه فرض نفسه حاكما وسلطانا على الجزائر، بينما واقع الأحداث حسبما ورد في المذكرات يبين أن "خير الدين" إنما قبل ولاية "الجزائر" بناء على توسلات ملحة وعديدة من أعيان وعلماء مدينة "الجزائر" وغيرها ممن كانوا يرسلون إليه الوفود يرجونه أن يقدم عليهم ويتولى إدارتها بنفسه[1].

وبذلك كان الهدف من التدخل العثماني ببلاد المغرب هو دحر الأطماع الصليبية خاصة الإسبانية منها وكذلك تحصين نفوذها في هذه المنطقة فجعلوا من الجزائر منطلقا لبدايات تواجدهم في هذا المجال الجغرافي[2].

الفرع الثاني: مراحل الوجود العثماني في الجزائر

خضعت الجزائر منذ العقد الثاني من القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) إلى الحكم العثماني واستمر ذلك إلى سنة 1830م تاريخ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر حيث يوجد شبه إجماع بين المهتمين بتاريخ الجزائر العثماني على أن مراحل التواجد العثماني بالجزائر أربعة مراحل (البايلربايات، الباشوات،الآغاوات، والدايات)، إلّا أنّ كلّا من الباحثين "أبو القاسم سعد الله" و"خليفة حماش"، يقسمان هذه المراحل إلى ثلاثة: "المرحلة الأولى" تنحصر بين (1519- 1659م)، و"المرحلة الثانية" بين (1659- 1711م)، و"المرحلة الثالثة" بين (1711- 1830م)[3]، واعتمادا على التقسيم الأول فإن المراحل الأربعة هي:

---

(1) خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، تر: محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2010م، ص15.

(2) سمير مشوشة، النشاط التجاري بين الجزائر وتونس في القرن 12ه/18م من خلال رحلات المغاربة، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة _ الجزائر، 2014، ص21.

(3) الصالح بن سالم، التواصل الثقافي بين الجزائر والمغرب خلال (1549- 1664م)، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة _ الجزائر، 2014م، ص9.

أولا: مرحلة البايلربايات (1519- 1587م)

عهد "البايلرباي" يبدأ في 1546م وينتهي في 1587م، إذ يعتبر هذا العهد ألمع العصور التركية بالجزائر[1]،ازدهرت البلاد في هذه الفترة من النواحي التعليمية والاقتصادية والعمرانية، وذلك بفضل التعاون بين فئة الرياس في القيادة وأبناء الجزائر، وقد ساهم ازدهار البلاد مهاجري الأندلس الذين وظفوا خبرتهم ومهارتهم في ترقية المهن والبناء العمراني وتقوية الاقتصاد الجزائري[2].

وقد تميزت هذه الفترة بعدّة تطورات منها: ازدياد التدخل الإسباني وتكثيف الغارات البحرية على مدينة الجزائر، التي باءت بالفشل، والوقوف في وجه تدخل ملوك المغرب "السعديين" في الجزائر والانتصار عليهم في كثير من المواقع، والعمل على بسط السيادة العثمانية داخل الأراضي الجزائرية من طرف البايلربايات الذين يعود الفضل إليهم في تنظيم القوة البحرية والتفوق البحري في المنطقة الغربية للبحر المتوسط[3].

ثانيا: مرحلة الباشوات (1588- 1659م)

تعتبر هذه الفترة مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر لأن السلطان العثماني أراد أن يخفف حدة النزاع بين فئة "الرياس" وفئة "اليولداش"، وخاصة أن الفئة الأخيرة كانت مستاءة من تمتع فئة "الرياس" بلقب "البايلرباي"، ولذلك قرر السلطان إلغاء هذه الرتبة وتعويضها برتبة "الباشا"، ونتيجة لهذا التغيير أصبح السلطان يقوم بتعيين باشا لمدة ثلاث سنوات، يقوم بإرساله من تركيا ويستدعيه بعد انتهاء فترة تعيينه، على أن يقوم بإرسال باشا آخر من هناك[4].

وقد تميزت هذه المرحلة بعدّة تطورات داخلية وخارجية منها: تعيين باشا تركي في كل من "الجزائر" و"تونس" و"طرابلس" بعد أن كان هناك حاكم واحد للمنطقة مقره في الجزائر، وظهور الخلافات والتناقضات بين جنود البحرية الجزائرية وبين جنود البحرية العثمانية،

(1) شريط والميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص121.

(2) بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، ص57.

(3) ينظر: حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة_ الجزائر، ط1، 2008م، ص130.

(4) بوحوش، المرجع السابق، ص58.

وخاصة حينما حاول الأتراك أن يخضعوا المصالح الجزائرية لمصالح الإمبراطورية العثمانية، وظهور تصادم وتنافر بين جنود البحرية وجنود القوات البرية، وخاصة أن جنود البحرية كانوا يحصلون على غنائم كبيرة من جراء غاراتهم البحرية الناجحة على أساطيل القوات الأوربية وهذا الصراع هو الذي تسبب في إضعاف الدولة الجزائرية(1).

ونظرا لقصر مدة الحكم في هذه الفترة أصبح الشغل الشاغل للباشا السلب والنهب لجمع الثروة قبل عودته إلى اسطنبول، مما أدى إلى ثورة "الرياس" ضدهم وتقليص نفوذهم(2).

ثالثا: مرحلة الآغوات (1659- 1671م)

تعتبر هذه المرحلة من أقصر العهود، وذلك نظرا لإقدام قادة الجيش البري على خلع الباشا وتعويض هذا القائد بقائد آخر من فئتهم أطلق عليه اسم "الأغا"، هذا الانقلاب قد جاء بمثابة انقلاب على الباشا المعين من طرف الإمبراطورية العثمانية والمدعوم من طرف فئة "الرياس" ولكي لا يستأثر "الأغا" بالسلطة، فقد تقرر أن يكون الحكم ديمقراطيا، أي يستعين الحاكم بالديوان العالي الذي كان يضع في البداية أعضاء الفرق العسكرية البرية، ثم توسعت العضوية فيه بحيث أصبح يضم ممثلين من فئة الرياس وبعض كبار الموظفين ومفتي الجزائر، وتماشيا مع هذه الخطة فإن الجيش البري هو الذي أصبح يعين"الأغا" حاكما للجزائر لمدة سنتين يترقى بعدها إلى رتبة "آغا شرف" ويحل محله "آغا" آخر، وهكذا استفحل الصراع بين "الآغوات" من جهة و"رياس" البحر من جهة أخرى وكانت النتيجة انتشار الفوضى وانعدام الأمن واستياء تركيا من انفصال حكام الجزائر عنها وقطع كل المساعدات عنهم، وفي عام 1671م انهار نظام "الآغوات" وحلّ محله نظام الدايات(3).

وأهم ما ميّز هذه الفترة اضمحلال نفوذ السلطان العثماني وغياب السيادة العثمانية في الجزائر، واستفحال الصراعات المحلية بين ضباط الجيشين البري والبحري، وتذمر أبناء الشعب من الفساد السياسي وانتشار الفوضى في البلاد، ونجاح "اليولداش" في قلب نظام

---

(1) ينظر: بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، ص59.

(2) ينظر: فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة_ الجزائر، 2015م، ص9.

(3) ينظر: بوحوش، المرجع السابق، ص59.

الحكم والانفصال عن العثمانيين والحد من سلطة "الرياس" لكنهم فشلوا في إنشاء نظام سياسي ديمقراطي ناجح [1].

رابعا: مرحلة الدايات(1671- 1830م)

وعلى خلاف نظام "الآغوات" كان حكم "الدايات" ينتخب فيه "الداي" مدى الحياة وهو من طائفة "الرياس" الذين يتمتعون بسلطة مطلقة، وقد سلك "الدايات" سياسة مستقلة فيما يخص الجزائر، فهم الذين يعينون الوزراء الذين تتشكل منهم الحكومة، ويبرمون الاتفاقيات الدولية ويعلنون الحرب ويعقدون معاهدات السلام، وأول "داي" حكم الجزائر هو "الحاج محمد باشا"[2].

وقد تميزت هذه المرحلة بالصبغة العسكرية وشبه الجمهورية على المستوى الداخلي، إذ استحوذ "الدايات" على دواليب الحكم واحتكروا كل السلطات وحرم الجزائريون من المناصب الإدارية، وقد اعتمدوا على قبائل المخزن وشيوخ القبائل والمرابطين في إدارة شؤون البلاد الداخلية، أما من الناحية الخارجية وخاصة العلاقة مع الباب العالي فقد تبلورت شخصية السياسية للدولة الجزائرية التي تحولت إلى كيان مستقل إلى حدّ بعيد عن الباب العالي، وتربطهما علاقات سطحية معنوية تتمثل في اعتراف "الدايات" بأحقية السلطان العثماني في رعاية مصالح المسلمين في العالم الإسلامي ككل[3].

الفرع الثالث: آثار الوجود العثماني في الجزائر

لقد ترك الوجود العثماني في الجزائر آثارا هامة وتغييرات ملحوظة في مختلف مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

أولا: الحياة السياسية والإدارية

مرّ حكم الأتراك في الجزائر على أربعة أنواع من الأنظمة بدأت بحكم "البايلربايات" ثم الباشوات" ثم الأغوات وانتهت بنظام "الدايات" وكل نظام من هذه الأنظمة عرف عدّة ميزات خاصة به كما سبق الذكر.

---

[1] ينظر: بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، ص 59 ،60.

[2] ينظر: عمورة، موجز تاريخ الجزائر، ص100.

[3] ينظر: بكاري، منهج الكتابة التاريخية، ص84.

إذ وضع الأتراك في الجزائر ديوانين: "الديوان الخاص"، وهو مجلس الدولة و"الديوان العام" وهو المجلس العمومي، فالديوان الخاص يترأسه "الداي" ويساعده في مهامه خمس موظفين سامين من الأتراك (بمثابة وزراء)، وهم: "الخزناجي" (مكلف بالخزينة)، "آغا الصبايحية" (القائد العام للجيش)، "وكيل الخرج" (مسئول عن ورشات بناء السفن)، "خوجة الخيل" (الجباية)، و"بيت المالجي" (تسيير بيت المال)، ثم تأتي فئة الكتاب وهم أربعة يترأسهم: "الباشكاتب" (تحرير الرسائل)، "شيخ الإسلام" (مكلف بالعدل والمسائل الدينية)، "وكيل الخرج" (مكلف بالمئونة الغذائية للسكان)، و"رجال الأمن" و"قائد الفحص" (مكلفون بجمع الضرائب)، أما "الديوان العام" فكان يتكون من الموظفين "السامين" وكلهم أتراك(1).

أما التقسيم الإداري فقد قسم الأتراك الجزائر إلى أربعة أقاليم أو "بايلكات" رئيسة وهي: "دار السلطان" بمدينة الجزائر، وتمتد من "دلس" شرقا إلى "شرشال" غربا، والتي تخضع مباشرة لرؤساء السلطة العثمانية، و"بايلك" الشرق، وعاصمته "قسنطينة" وهي أكبرهم وأهمهم، والثاني"بايلك" الغرب الذي يأتي في الدرجة الثانية أهمية وعاصمته "مزونة" ثم معسكر، ثم "وهران" بعد جلاء القوات الإسبانية سنة 1792م أصبحت، والثالث"بايلك التيطري" وعاصمته "المدية" وهو أصغرهم وأضعفهم لقربه من الإدارة المركزية من جهة وقلة موارده الاقتصادية من جهة أخرى(2).

ويأتي على رأس كل واحدة من هذه "البايلكات" حاكم برتبة "باي"، وينقسم "البايلك" إلى أوطان يشرف عليها قواد ويتكون الوطن من قبائل يحكم كل واحد منها شيخ من الأهالي ويخضعون كلهم لسلطة "الداي".

ثانيا: الحياة الاقتصادية والاجتماعية

تميزت الحياة الاقتصادية أساسا باعتمادها على مداخيل الجهاد البحري (القرصنة)، الذي تحول إلى مؤسسة قائمة بذاتها وذلك راجع لعدّة أسباب، على رأسها مهارة البحارة الجزائريين وكفاءتهم الحربية ومقدرتهم القتالية العالية التي مكنتهم من تحقيق انتصارات

(1) ينظر: عمورة، موجز تاريخ الجزائر، ص104.

(2) ينظر: أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث- بداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1982م، ص52. وعمورة، المرجع السابق، ص104. وهلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر، ص146.

حاسمة، لكن الحكام الأتراك لم يكن لهم دور في تطور البنية الاقتصادية الداخلية للجزائر، فهم لم يهتموا بإنشاء الموانئ التجارية بل إن اهتمامهم بأحد المراسي كان بقصد إيجاد مرسى أمن لسفن القرصنة البحرية، التي تدر عليهم أموالا ضخمة وجهت لخدمة مجموعة من الأفراد انحصرت على فئة الحكام والموظفين ولم تصرف في مجالات الاقتصاد المحلي المختلفة لتحسين وضعية "الإيالة"(1).

أما الفئات المحلية فاهتمت بنفسها مع المهاجرين الأندلسيين في تلبية حاجاتها الاقتصادية بقيامها بمختلف الأنشطة كالصناعة والفلاحة والتجارة وغيرها.

إذ كانت الصناعة المحلية منظمة تنظيما دقيقا بحيث كان الحرفيون منخرطون في نقابات حسب التخصص، فيوجد شارع "الدباغين" و"النجارين" و"الحدادين"، وقد لعبت هجرة الأندلسيين بالجزائر دورا إيجابيا في تحريك النمو الاقتصادي بما جلبوه معهم من العديد من الحرف المتطورة في ذلك الوقت، وكان سكان الريف وهم الأغلبية يشتغلون بالفلاحة وتربية المواشي وبعض الأعمال اليدوية، وكانت الأراضي الفلاحية شديدة الخصوبة تدر منتوجات كثيرة ومتنوعة من خضر وفواكه، بالإضافة إلى المنتوجات الزراعية الصناعية من قطن وتين وزيت، وقد كانت المبادلات التجارية المحلية بين سكان الأرياف والمدن تنظم داخل أسواق أسبوعية يتم فيها تبادل السلع بالنقود أو المقايضة، ولتسهيل المواصلات الداخلية والخارجية ربطت المدن بالطرق المعبدة، واعتنوا بالموانئ لتصدير منتوجاتهم الصناعية والفلاحية، ومن الصادرات الجزائرية نحو الدول الأوروبية "القمح" و"الشعير" و"الزيت" و"العسل" و"التمور" وغيرها، وتتم هذه التبادلات التجارية تحت رقابة الدولة مقابل دفع حقوق جمركية(2).

أما عن الحياة الاجتماعية، فقد كانت غالبية سكان الجزائر في هذه الفترة يعيشون في الأرياف، بينما يؤلف سكان المدن أقلية ضئيلة لا تتعدى 5% من مجموع السكان، وقد تعرضت الجزائر هذه الفترة لمجاعات مهلكة في سنوات متلاحقة، وعدّة أوبئة، كان لها

(1) ينظر: ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية "دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني"، دار الغرب الإسلامي، بيروت_ لبنان، د.ط، 2000م، ص190، 191. وهلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر، ص151، 152.

(2) ينظر: عمورة، موجز تاريخ الجزائر، ص106، 107.

أثر بالغ على السكان، منها المجاعة التي كانت سنة 1800م، ومن الأوبئة التي حدثت الوباء الذي كان عام1817م، والذي دام ثلاث سنوات[1].

وقد اتخذ التنظيم الاجتماعي بالجزائر شكلا هرميا تتصدره الطبقة "التركية"، ثم طبقة "الكراغلة" وهي طبقة أبناء الأتراك من أمهات جزائرية، أما باقي السكان فهم عبارة عن ثلاث طبقات حسب أوضاعهم الاجتماعية وهم: "الحضر"، و"البرانية"، و"الدخلاء"، فالطبقة الأولى هم من الأسر والعائلات المستقرة بالبلاد ومهاجري الأندلس، والبرانيون من بين سكان مدينة الجزائر المهيمنين على العديد من المهن غير المرغوب فيها من طرف الحضريين، وقد ظلوا يعتبرون أجانب لعدم اندماجهم في حياة المجتمع الحضري، بالزواج أو امتلاك العقارات، وهم عدّة مجموعات منهم: "المزابيون" و"البسكريون" و"الجيجليون"، وغيرهم [2].

ثالثا: الحياة الثقافية

وتشمل الحياة الثقافية الحالة الدينية والعلمية والفنية وغيرها من مظاهر الثقافة.

فبالنسبة للحالة الدينية كان أغلب الشعب الجزائري على المذهب المالكي، أما "الأتراك" و"الكراغلة" فكانوا على المذهب الحنفي، إلى جانب هؤلاء توجد أقلية يهودية لا تتعدى واحدا بالمائة(1%) من مجموع السكان، لها معابدها الخاصة وتمارس شعائرها الدينية بكل حرية وتمتلك مدارس تعلم فيها اللغة العبرية والتوراة وتحتكم إلى قضاة خاصين وهم الأحبار، أما المسيحيون فكان عددهم قليل، ورغم ذلك كانت توجد كنائس بالجزائر وكانوا يتحاكمون إلى القنصليات المسيحية الموجودة بالجزائر، أما عن المساجد فقد كان في مدينة الجزائر لوحدها عند مدخل الفرنسيين 106 مسجدا، منه 92 مالكية، و14 حنفية، إلى جانب المدارس الدينية يعلم فيها القرآن والعلوم الإسلامية وكانت كلها تعيش من موارد الأوقاف[3].

أما بالنسبة للحالة الفكرية والعلمية، فقد ساد الركود الثقافي في الجزائر في عهد العثمانيين، إذ لم تعرف الجزائر تجديدا فكريا ولا نهضة علمية بارزة، بالرغم من أن اللغة

---

[1] ينظر: هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر، ص163، 165.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص165- 168.

[3] عمورة، موجز تاريخ الجزائر، ص110.

العربية بقيت لغة التعليم ولغة الشعب، أما الدولة فاتخذت التركية لغتها الرسمية، ولم ينحصر إنتاج اللغة العربية على الموضوعات الدينية والتعليمية والشعر وإنما كان تأليف الكتب بها أيضا، أما التعليم فكان منتشرا جدا، فكل جزائري كان يعرف الكتابة والقراءة، سواء في المدن و حتى الأرياف، وقد كان سكان القرى ينظمون بطرقهم ووسائلهم الخاصة تعليم القرآن والحديث والعلوم العربية والدينية(1).

أما عن الآثار الفنية فقد ترك الأتراك آثارا عمرانية كبيرة لازالت شاهدة اليوم على وجودهم من بينها مدينة "القصبة" و"جامع كتشاوة".., بالإضافة إلى قصور "الدايات" الواقعة في "القصبة" و"حسين داي"، ولم يشيد الأتراك العمران في العاصمة فقط بل في جميع المدن الكبرى: "قسنطينة"، "عنابة"،"وهران"...، ولازالت هذه البنايات متينة ومنها ما هدمه الاستعمار الفرنسي، ومنها ما خربه الإهمال والنسيان(2).

وعموما فإن الوجود العثماني في الجزائر كان له آثار واضحة على الحياة العامة للسكان، خاصة على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية.

(1) ينظر: سعد الله، محاضرات وأبحاث، ص159. وينظر: دخية، الحركة الأدبية في الجزائر، ص20.

(2) عمورة، موجز تاريخ الجزائر، ص110.

وخلاصة القول، فبالنسبة لبلاد المغرب كما سماه العرب قديما، يشمل مابين "برقة" شرقا، و"المحيط الأطلسي" غربا و"البحر المتوسط "شمالا و"الصحراء الكبرى" جنوبا، وسكانه في الغالب ثلاث فئات رئيسية، الفئة الأولى هم "الأمازيغ" وهم السكان الأصليون للمنطقة، والفئة الثانية "العرب" وهم الذين جاءوا بعد فتح المنطقة من طرف العرب المسلمين، وعن طريق الهجرات الهلالية من بلاد اليمن، والفئة الثالثة هم "الأفارقة" الذين نزحوا إلى شمال القارة وخالطوا السكان وصاروا منهم.

أما بالنسبة للجزائر في العهد العثماني، فقد دخل العثمانيون إليها نتيجة استنجاد سكان الجزائر بالإخوة الأتراك "بربروس" لتخليصهم من الخطر المسيحي الإسباني في ظل حروب الاسترداد، الذي تكالب على شواطئ المغرب العربي بعد تفككه إلى ثلاث دويلات متصارعة فيما بينها ("الحفصية" في المغرب الأدنى، و"الزيانية" في المغرب الأوسط، و"المرينية" بالمغرب الأقصى)، وبعد تلبية الأتراك لنداء سكان الجزائر دخلوا المنطقة وعينوا أنفسهم حكاما عليها، وأدخلوها تحت حكم الخلافة العثمانية التي مركزها "الأستانة" باسطنبول، ودامت مدّة حكمهم بها ثلاثة قرون (1519– 1830م)، ومرت بأربع مراحل أساسية، عرفت الجزائر خلالها عدّة تطورات وأحداث في مختلف المجالات، سياسيا واجتماعيا وثقافيا.

المبحث الثالث:

الرحلة عند المغاربة قبل العهد العثماني

المطلب الأول: مسيرة الرحلة عند العرب والمغاربة

المطلب الثاني: أدب الرحلة عند المغاربة

المطلب الثالث: أشهر الرحلات المغاربية إلى الجزائر قبل العهد العثماني

المبحث الثالث: الرحلة عند المغاربة قبل العهد العثماني

قسّم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب: المطلب الأول تحدث عن مسيرة الرحلة عند العرب والمغاربة، والمطلب الثاني عن أدب الرحلة عند المغاربة، وأخيرا المطلب الثالث تحدث عن أشهر الرحلات المغاربية إلى الجزائر قبل العهد العثماني.

المطلب الأول: مسيرة الرحلة عند العرب والمغاربة

قسم هذا المطلب بدوره إلى فرعين: الفرع الأول في الحديث عن مسيرة الرحلة عند العرب عموما، أما الفرع الثاني ففي الحديث عن الرحلة عند المغاربة.

الفرع الأول: مسيرة الرحلة عند العرب

لقد اشتهر العرب بالرحلة منذ القدم لأسباب مختلفة سواء قبل الإسلام أو بعده، وهذا ما حاولت معرفته فيما يلي:

أولا: الرحلة عند العرب قبيل الإسلام

إذا كان التنقل ديدن الإنسان في أغلب بقاع الأرض منذبداية الخلق، فإن العربي ساكن البادية في شبه الجزيرة العربية وما جاورها كان دائم التنقل مند آلاف السنين، بحكم طبيعة الحياة التي ترتبط بالماء والكلأ، فضلا عن حركته الدائبة للرعي والتجارة، ناهيك عن هوايته الأثيرة وهي الصيد[1].

وقد جاء في القرآن الكريم أن قبيلة قريش كان لها رحلتان: رحلة الشتاء ورحلة الصيف، والباحثون مجمعون على أن هاتين الرحلتين كانتا للتجارة، ذلك أن أهل مكة كانوا تجارا من الدرجة الأولى[2].

فقد كانت للعرب رحلات تجارية مزدهرة خاصة مع العراق والشام واليمن، وكان السبئيون أقدم الأقوام العربية التي تخطت عتبة المدنية، فامتلكوا تجارة البحر الجنوبي (الهندي) خلال القرون الثلاث عشرة الأخيرة قبل ميلاد المسيح، فكانت الممالك التي شادوها ممالك تجارية واقتصادية، حدث هذا كله قبل مجيء الإسلام، وبذلك يكون العرب قبيل الإسلام

---

(1) فؤاد قنديل، أدب الرحلة، ص18.

(2) نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، 1987م، ص147.

قد شاركوا بدور بارز في التجارة البحرية (في المحيط الهندي)، وارتحلوا بمنتجاتهم إلى شواطئ السند والهند وجزيرة سيلان [1].

ثانيا: الرحلة عند العرب بعد مجيء الإسلام

عندما ظهر الإسلام وأطلّ نوره على الجزيرة العربية، وسّع بدوره آفاق الرحلة العربية وعدّد دوافعها، فقد كان القرآن داعيا البشر إلى السفر والترحال والضرب في الأرض في مواضع كثيرة[2].

ففي القرآن الكريم آيات بيّنات فيها خطاب صريح لأولي الألباب ملحة لإعمال العقل وشحذه وتحريض حافز على التدّبر وحسن التفكير، فقد أطلق الإسلام سراح الفكر وأعطاه الأمان لكي يتحرر من عقدة الخوف لكي ينطلق ويستجيب لإرادة الحياة[3]، والآيات في ذلك كثيرة سبق ذكر أمثلة منها.

فقد توجه الله عزّ وجلّ بدعوات صريحة إلى المسلمين للسعي في الأرض في البر وركوب الفلك وخوض البحار، فكانت تلك الدعوات تشجيعا لهم على تحمل مشاقّ السفر انتفاعا بالخيرات أولا، ثم تدريبا على حمل الرسالة ونشر الدعوة، ولن تبلغ الرسالة إلى كافة الخلق إلا بالسفر وقطع المسافات والطواف بالأمصار شرقا وغربا[4].

إضافة إلى ما تم ذكره من قبل عند حديثنا عن الرحلات في السيرة النبوية، كانت رحلة رحلات الفتوح الإسلامية وما بعدها من أهم الأعمال التي كانت امتدادا لتاريخ الرحلة.

أ_ رحلة الفتوح

أضفت الفتوح الإسلامية في تاريخ المسلمين تجارب ومعارفا وتحولا جديدا نقل العرب من مستوى التقوقع إلى الانفتاح، فكان كلما توسعوا في هذه الفتوح خلقت ظروفا أخرى جديدة اقتضت الرحلة والبحث، فقد وحد العرب البلدان التي فتحوها دينيا وثقافيا إلى حد بعيد وتطلبت مسألة إدارتها التعرف التام عليها لضبط شؤونها المالية والإدارية بتنظيم الإدارة

(1) فؤاد قنديل، أدب الرحلة، ص29.

(2) المرجع نفسه، ص29.

(3) الشامي، الفكر الجغرافي، ص199، 200.

(4) ينظر: فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص30.

والبريد، ومن ثم تحمل المؤرخون من أصحاب السير والمغازي مهمة وصف هذه المدن وسكانها وأحوالها[1]، فظهر بعد ذلك التأليف في فن الرحلة.

ب_ رحلات ما بعد الفتوح

كانت الرحلات العربية _ فيما بعد الفتوحات_ إمّا للحج، أو للعلم، وقليل منها كان للتجارة، فكان معظم رحّالة القرن (3هـ -9مـ) من اللغويين، فبرز منهم النابغة العلامة"الجاحظ" الذي ألف "الأمصار وعجائب البلدان"، وشهد القرن (4هـ-10م) رحالة كبار كـ"المسعودي" صاحب "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، وظهر في (5هـ-11م) ظهور بعض رحالة المغرب الإسلامي من أشهرهم: "البكري" من أكبر رحالة الأندلس ومن كتبه " المسالك والممالك"[2]، واعتبارا من القرن السادس الهجري العاشر الميلادي انطلقت الرحلة على أوسع مدى، وتجاوزت ديار المسلمين على أمل أن تحقق أهدافا متنوعة، اقتصادية وهي تعمل لحساب التجارة، ودينية وهي تعمل لحساب فريضة الحج، وإدارية وهي تعمل لحساب العلاقات بين الدول الإسلامية ومجتمع الدول الخارجي، وعلمية وهي تعمل لحساب العلم وطلب المعرفة[3] ، فقد تميز القرن (6هـ - 12م) بقوة الرحالة وأهمية الآثار التي خلفوها، ومن أشهر الرحالة "أبو حامد الغرناطي الأندلسي" في كتابه "المغرب عن بعض عجائب المغرب"، وأشهر رحالة القرن (7هـ - 13م) "ياقوت الحموي" بكتابه "معجم البلدان"، ومن رحالة القرن (8هـ - 14م) "أبو الفداء" الذي اشتهر بعدة مؤلفات منها "تقويم البلدان"، آخر الرحلات المهمة في هذا القرن هي رحلات العالم والسياسي "عبد الرحمن بن خلدون" التي أوردها ضمن كتابه "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا" [4].

وتقلصت الرحلة نسبيا خلال القرنيين (9 ،10هـ/ 15، 16م)، وتوقفت تقريبا خلال القرنيين (11، 12هـ/ 17، 18م)، ولكن سرعان ما عادت إلى البزوغ والازدهار من جديد

---

(1) ينظر : فهيم، أدب الرحلات، ص81.

(2) ينظر : فؤاد قنديل، أدب الرحلة، ص71_74.

(3) فهيم، المرجع السابق، ص81.

(4) ينظر : فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص76-80.

في ثوب مختلف مع السنوات الأولى من القرن (13هـ - 19م) بعد الحملة الفرنسية على مصر، وكانت الرحلات الحديثة في الأغلب صوب جهة واحدة هي جهة الغرب[1].

وبخلاف تقلص الرحلة عند العرب فإنها عند المغاربة لا تتوقف، فهي رحلة دائمة، وسنوضح ذلك فيما يأتي.

الفرع الثاني: الرحلة عند المغاربة

اشتهر المغاربة بحب الرحلة والمغامرة والبحث عن المجهول ووصف ما شاهدوه أو ما سمعوا عنه أو عثروا عليه في بطون الكتب والآثار، ولذلك تجد المغاربة قد ولعوا بالرحلات حتى تفوقوا فيها عن غيرهم، ويشمل ذلك مختلف أنواع الرحلات: الحجازية والعلمية والسفارية والسياحية، وغيرها، ويرجع اهتمامهم هذا إلى أسباب جغرافية ونفسية ودينية، وبذلك شاعت الرحلات المغاربية حتى أصبحت لا غنى عنها في العصر الحاضر لفهم التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إفريقيا وآسيا[2]، ومن تم نجد عدّة اتجاهات للمغاربة في رحلاتهم، وعلى رأسها: رحلات داخلية، ورحلات نحو أوروبا، ورحلات نحو المشرق، ورحلات نحو جنوب الصحراء، وهذا ما سنوضحه فيما يلي:

أولا: رحلات داخل بلاد المغرب

وهذا الصنف من الرحلات، يمثل تلك الرحلات التي كان بلاد المغرب ميدانها، فلم يتجاوز أصحابها المدن والقرى والمناطق الداخلية لبلدان المغرب، فكانت رحلاتهم تهدف زيارة مناطق معينة للوقوف على ما بها من مشاهد وآثار، أو الاتصال بأعلامها، أو القيام فيها بمهمات مختلفة، فكان المغاربة الذين يفدون على أهم المراكز العلمية بالمغرب لا يعدون مدينة "فاس" التي كان التردد على مدارسها وزواياها ومساجدها يعتبر من الأماني الغالية التي كانوا يهدفون لتحقيقها، فلقد بات من السنن المعتادة أن تكون رحلة المغاربة إلى هذه المدينة تتويجا لتكوينهم العلمي، بل إن كثيرا منهم كانوا يقتصرون في طلبهم العلمي على الرحلة إلى "فاس" والتلمذة عل رجالها وملازمة مدارسها ومجالسهم

---

(1) فؤاد قنديل، أدب الرحلة، ص 80، 81.

(2) ينظر: سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص148، 149.

العلمية، فكان الراحلون من "تلمسان" من الكثرة والوفرة حتى لا تكاد تجد تلمسانيا لم يتردد على المراكز العلمية بالمغرب للتلمذة والأخذ عن الشيوخ أو للانشغال بالتدريس، ومن هؤلاء "ابن مرزوق الخطيب"، وقد حذا حذوهم التونسيون والليبيون، ومنهم "ابن خلدون" من تونس، وعلي بن "داود الهواري المصراتي" من ليبيا، وغيرهم[1].

كما ظهرت هناك اتجاهات أخرى للرحلات المغاربية سواء نحو الشمال أو الشرق أوالجنوب.

ثانيا: رحلات نحو أوروبا (الأندلس)

إن مجاورة المغاربة للفرنجة في الأندلس وتقسيم العالم يومئذ إلى دار الإسلام، ودار كفر جعل الكثير من المغاربة يتجهون صوب الأندلس إما بصفته سفيرا مكلفا بإبلاغ الرسائل أو القيام بمهمات، أو بصفة طالب علم وراغبا في لقاء الشيوخ والأعلام، أو بصفته مجاهدا في سبيل الله ابتغاء الثواب والأجر، ومن الرحلات المدونة في هذا الشأن: مادوّنه ابن بطوطة في رحلته إلى العدوة الأندلسية، ورحلة الملزوزي "طرفة الظريف"[2].

ثالثا: رحلات نحو المشرق

من المعروف أن المشرق العربي كان محل اهتمام ورعاية وتقديس عند أهل المغرب العربي وإفريقية منذ دخول الإسلام إلى هذه البلاد فبادر الكثير منهم إلى السفر نحو المشرق لدواع اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادي[3]، وعلى رأس هذه الأسباب أداء فريضة الحج، فكان المغاربة ينظمون قوافل الحج التي كانت الوسيلة الأساسية لوصولهم إلى البقاع المقدسة، حيث كانت تنطلق من المغرب العربي عدّة قوافل، ويتوجّه في كل سنة أو سنتين على الأقل ركبان من المغرب الأقصى، كما ينطلق ركب من الجزائر، وآخر من تونس، واثنان من ليبيا، إلى جانب الركب المصري، فتلتقي هذه القوافل مع القوافل الشامية والعراقية في مكة والمدينة وما حولهما، وأما عن طريق سيرهم، فتبدأ من

---

(1) ينظر: الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، الرباط، د.ط، 1990م، 2/ 315، 316.

(2) ينظر: المرجع نفسه، 1/ 137.

(3) ينظر: محمد الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1983م، ص82.

جنوب "المغرب الأقصى" إلى "دلتا" النيل ثم "الحجاز" ولا يمكن لأي قافلة أن تحيد عنها، وعلى هذه الطريق الرئيسية محطات مشهورة تلتقي فيها هذه القوافل، كـ"بسكرة" بالجزائر و"قابس" بتونس و"طرابلس" بليبيا، و"القاهرة" بمصر [1].

فكان حجاج المغرب الأقصى يعبرون المغرب الأوسط برّا عن طريق "تلمسان" فـ"مليانة" فمدينة "الجزائر" فـ"بجاية"، ومنها إلى "بني ورار" ثم "ميلة" و"قسنطينة" و"بونة" وقرية "الخولان" و"باجة" و"تونس" و"القيروان" و"قابس" و"زنزور" و"طرابلس" و"مصراتة" و"سرت" و"برقة" و"أجدابية" فالإسكندرية، ثم يتوقفون بالإسكندرية باعتبارها المحطة الرئيسية الأولى لرحلتهم المشرقية سواء كانوا مسافرين برّا أو بحرا، ومن الإسكندرية كانوا يتوجهون إلى القاهرة حيث يجتمع الحجاج المغاربة والمصريون، وحيث يجهّز ركب الحجيج والمحمل المصري الشهير ثم يخرجون متوجهين إلى الحجاز، وكان الركب ينطلق من "بركة الحاج" القريبة من القاهرة متوجها إلى "درب السويس عجرود"، ثم إلى شبه جزيرة "سيناء" ثم إلى بلدة "العقدة"، وهي أول محطة لهم في الجزيرة العربية ثم يأخذ الركب طريق الساحل إلى "المدينة المنورة"، وقد ظل العمل بهذا الطريق إلى سنة 1301هـ، وهو تاريخ مرور آخر قافلة رسمية للحج بالطريق البري [2].

رابعا: رحلات نحو الجنوب(الصحراء)

حفظ التاريخ في سجله نماذج من الرحلات نحو الجنوب، حيث كان من الرحالين المغاربة من اتجه نحو أعماق إفريقيا نحو السودان، ورغم أن العلاقة بين السودان وبلاد المغرب كانت منذ العهود الأولى إلا أن الرحلة إلى هذه المناطق كانت تعتبر مغامرة لا يقدم عليها إلا التجار وأصحاب المآرب الدينية والدنيوية، ومن أهم تلك الرحلات نجد رحلة "ابن بطوطة" في منتصف القرن الثامن، وأبو "إسحاق الفجيجي"و"أبو زيد عبد الرحمن بن علي العاصمي" المعروف بـ"سقين" في القرن التاسع وبداية العاشر، و"الحسن الوزان الفاسي" [3].

---

[1] مختار بن الطاهر فيلالي، رحلة الورثلاني عرض ودراسة، دار الشهاب، باتنة_ الجزائر، د.ط، د.ت.، ص81، 82.

[2] سعد الله، بحوث في التاريخ الإسلامي، ص154.

[3] ينظر: الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب، 138/1.

وبذلك لم تكن الرحلة عند المغاربة خاصة بالحج فقط، ولم يكن الحج هو المقصود رغم أنه كان هو الهدف في النهاية، ذلك أنهم كانوا يجعلون من برنامجهم التوقف في المدن الرئيسية في المشرق كـ"القاهرة" و"دمشق" و"القدس" وفيهم من كان يعرج على بغداد أيام كانت عاصمة الخلافة، أو عندما أصبحت عند بعضهم عاصمة للطريقة القادرية، وكانت "مكة" و"المدينة" مركزين علميين هامين إضافة إلى مركزيتهما الدينية، ومن الرحالة المغاربة من أضاف عواصم إسلامية وغير إسلامية أخرى كـ"إسطنبول" و"دلهي" و"أصفهان"، ومدنا صينية وأوروبية وإفريقية[1].

عرفت الرحلة عند العرب منذ القدم، فكانت في بدايتها تعتبر بحثا عن أسباب الحياة كالتجارة، وذلك قبل الإسلام، أما مع مجيء الإسلام وبعد مجيئه فقد توسعت دائرة الرحلة فشملت عدّة أغراض منها الرحلة للفرار بالدين من أرض الشرك، والرحلة في طلب العلم، والرحلة للحج، كما كانت الفتوحات عبارة عن رحلات واسعة ومتتالية واستمرت الرحلة عند العرب والمسلمين حتى اشتهر منهم الكثير في مختلف القرون، ومنهم المغاربة الذين كانوا محبين للرحلة شغوفين بها، فكانت عندهم منذ القدم ولا تزال متعددة الاتجاهات والأغراض خاصة تلك التي تشدّ رحالها نحو المشرق وبالضبط أرض الحجاز لأداء فريضة الحجّ وطلب العلم من منابعه، ولأن أغلب الرحالة المغاربة كانوا من العلماء فقد اهتموا بتدوين حيثيات تلك الرحلات، في مؤلفات كان يطلق عليها "أدب الرحلة".

المطلب الثاني: أدب الرحلة عند المغاربة

في هذا المطلب نتعرف أكثر عن أدب الرحلة في بلاد المغرب العربي، من خلال الحديث عن مسيرة أدب الرحلة عند المغاربة في الفرع الأول، ومضامين الرحلات المغاربية في الفرع الثاني، أما الفرع الثالث فنتعرف فيه على أنواع الرحلات عند المغاربة وطرق التأليف فيها.

الفرع الأول: مسيرة أدب الرحلة عند المغاربة

يعتبر أدب الرحلة عند المغاربة امتدادا لأدب الرحلة عند المسلمين عموما، فلابد لنا أولا من التعريج عن جذوره الأولى عند العرب.

---

(1) سعد الله، بحوث في التاريخ الإسلامي، ص152.

أولا: بدايات فن الرحلة عند العرب

يعتبر فن الرحلات من الفنون الأدبية الراقية التي اهتم بها العرب قديما وحديثا لما فيها من أخبار وغرائب وشهادات ومساجلات ومناظرات عاشها مؤلفوها، فكانت تستجلب القراء بدافع فضول لمعرفة الآخر والبلدان البعيدة وأخبار سكانها، وقد عرفت الرحلة في الأدب العربي منذ فجر النهضة كفن أدبي بعدما كانت مجرد ممارسة في الجاهلية تجارة أو بحثا عن الكلأ والماء، فلم تلبث الرحلة حتى صارت فنا عربيا أصيلا في النثر العربي بسماته التاريخية والجغرافية واهتمامه بحياة الناس وتقاليدهم وأنماط عيشهم وبمضمونه الفكري والاجتماعي وأسلوبه الأدبي المتميز، وقد كان فن الرحلة في بداياته ذو صلة بالجغرافية، إذ كانت الكتب الأولى المؤلفة في هذا العلم كانت تتخذ صبغة الرحلة، وذلك أن الجغرافي كان أولا يطوف البلاد التي يود التكلم عليها، ويخترق مسالكها، ويقف بنفسه على أحوالها، ثم يضع بعد ذلك كتابه، لذلك سميت جلّ التآليف الجغرافية التي كتبت في القرون الأولى: "المسالك والممالك"، والفرق بين هذه الكتب وكتب الرحلات أن مؤلف الرحلة يذكر فيها ما يتعلق بنفسه، أما مؤلف المسالك فلا يتعرض لنفسه إلا قليلا[1].

ثانيا: مكانة فن الرحلة المغاربية في الأدب العربي

الملاحظ عن المغاربة أنهم برزوا في فن الرحلة الذي أصبح مظهرا من حضارة البلاد المزدهرة وسعى بعض الرحالين للسير به ليكون ديوان علم بدل الوقوف على المشاهدات وتسجيل الظواهر الإنسانية، وحظيت هذه الكتابة باهتمام بالغ في مختلف الأوساط على مرّ العصور، فبعدما قطع فن الرحلة في الأدب العربي مسيرة طويلة منذ انطلاقاته الأولى على يد "أبي العباس أحمد بن يعقوب" المعروف بـ"اليعقوبي" بكتابه: "البلدان"، ثم يأتي "البيروني" في فترة زخرت فيها الرحلة بإبداع وتطور كحركة باتت ذات استقلالية كنوع أدبي، وسرعان ما يعم هذا اللون منطقة الغرب الإسلامي، ففي الوقت الذي تعطّلت فيه الرحلات في المشرق نهضت بالغرب الإسلامي، حيث جاب أبناؤه الأقطار الإسلامية حاملين رسالتهم الحضارية والفكرية دون أن يصطدموا بقيود سياسيةأو جنسية[2].

(1) ينظر: ابن زاكور: نشر أزاهير البستان، ص9، 10.

(2) المصدر نفسه، ص10. وينظر: ماكامان، الرحلات المغربية، ص27، 30.

ابتدأت كتابة الرحلة بالمغرب في أواخر القرن الخامس الهجري حيث تتجه أنظار الباحثين إلى "أبي بكر ابن العربي" وأبيه "عبد الله" اللذين رحلا إلى المشرق بعد انتصار المرابطين في وقعة "الزلاقة"، فطال غيابهما ولم يعد الابن إلا بعد وفاة والده بالإسكندرية، أي بعد رحلة دامت ثماني سنوات من 485هـ إلى 493هـ، وخلف الرحلة المعروفة بـ "قانون التأويل"[1]، ثم جاء العهد"الموحدي"ليستلم المشعل "الإدريسي" في الأدب الجغرافي الذي قام بعدة أسفار للمشرق وبعض البلدان الأوروبية، فعرف بكتابه: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الذي ألفه في "صقلية"[2]، ثم جاءت بعده شخصية "ابن جبير" بعمله المعروف: "رحلة ابن جبير" وهو كما عرف عنه أول من كتب في الرحلة الحجازية، وقد خطت الرحلة بعده خطوات متقدمة خصوصا في العصر "المريني"، أي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، حيث احتل الأدب الجغرافي والتاريخي مكانة ملحوظة بين الفنون، فكان من أعلام الرحلة في تلك الفترة "ابن بطوطة" الذي عبر أوطانا وقارات فاحتلت رحلته أهمية كبيرة باتساع رقعتها أولا وبمستواها الأدبي ثانيا، وبما حظيت به من اهتمام عالمي في النهاية[3].

وقد جاء بعد "ابن بطوطة""الحسن بن محمد الوزان" المعروف باسم: "ليون الإفريقي"، برحلته "وصف إفريقيا" التي أخذت أهميتها من شخصية صاحبها وحياته التي عرفت اضطرابات كثيرة خاصة بعد أسره، لذلك تعتبر رحلته ذات أهمية بموضوعاتها وبالظروف التي كتبت فيها لأنه جاء في فترة وظرف يكاد يعدّ بوجه عام آخر المؤلفين الكبار في محيط الجغرافيا العربية ببلاد المغرب وهو بذلك خاتمة فترة أدب الرحلة قبل عصر النهضة، وبعد ركود خصوصا في القرن العاشر الهجري (16م) عادت الرحلة للانتعاش في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الهجرة (17 و18م)، فاستأنفت منطقة المغرب العربي الإسلامي دورها في فن الرحلة، بأعلام بارزين أمثال: "أبي سالم العياشي" برحلته: "ماء الموائد"، بحيث يعتبر نموذجا لجميع مؤلفي تلك الفترة الذي لم يطرأ فيها أي تقدم في الميدان، وينتهي القرن الثاني عشر والثالث عشر الهجري (18 و19م) برحلات

---

(1) ينظر: ماكامان، الرحلات المغربية ، ص30.

(2) ينظر: ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص10. وماكامان، المرجع السابق، ص30.

(3) ينظر: ابن زاكور، المصدر السابق، ص10. وماكمان، المرجع السابق، ص30 ،31.

"الورثلاني" و"ابن حمادوش" و"المعسكري"، و"ابن عمار"، وغيرهم[1]، كما سيأتي الحديث عن رحلاتهم فيما بعد باعتبارها نماذج الدراسة.

الفرع الثاني: مضامين الرحلة عند المغاربة

تحوي الرحلات المغاربية عدّة مواضيع في مختلف المجالات الأدبية والعلمية والتاريخية وغيرها.

أولا: أهم موضوعات أدب الرحلة المغاربية

تناول الرحالة المغاربة في رحلاتهم موضوعات كثيرة، ولم يكن الحج ومناسكه إلا واحدا منها، وذلك فيما يخص الرحلات الحجازية، فبالإضافة لأداء الفريضة تجدهم يتحدثون عن العلوم والآداب في المدن التي مرّوا بها، وفي المراكز العلمية التي ترددوا عليها، فهم يصفون المعالم والمؤسسات والإجازات والأسانيد والكتب، ولا تكاد تخلو رحلة من الحديث عن شيوخ العلم والطرق الصوفية وطرق التدريس، كما اهتموا بنقل الأشعار والإنتاج الأدبي والمحاورات والمناظرات والآراء الفكرية والمذهبية والسياسية، وكان الرحالة الحجاج حريصين على تسجيل ما شاهدوه من آثار ومعالم، ومن طرق ومسالك، ومن حكام ووزراء وقواد ونظم الحكم، كما كانوا حريصين على وصف العامة وأصحاب الحرف والقوى الفاعلة في المجتمع، وعادات الأفراح والأقراح، بالإضافة إلى النكت الأدبية وتراجم العلماء وكرامات المتصوفة والأماكن الأثرية وأبواب المدن وتحصيناتها، ونظمها في الضرائب والمكوس والرشوة ومستوى المعيشة، ووصف الأسواق وأساليب التجارة والثورات والاحتجاجات[2].

أما الرحلات المغاربية وخاصة الحجازية منها كان الرحالة مهتمين بنقل الأخبار والمشاهدات إلى قرائهم وأهلهم، وكان بعضهم يسجل يوميات الرحلة قبل رجوعه، وبعضهم كان يكتب الرحلة بعد وقت طويل أو بعد أن يحج عدّة مرات، وقد كانت دوافعهم للكتابة متعددة ولئن معظمهم كان يريد أن يقرأ الناس ولو بعد أجيال ليعرفوا تجربته في الحياة، ولذلك كانوا يرغبون في تسجيل كل التفاصيل، وإذا لم يستطيعوا أن يعيشوا التجربة

(1) ينظر: ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص10، 11.

(2) ينظر: سعد الله، بحوث في التاريخ الإسلامي، ص150.

بأنفسهم نقلوها ممن سبقهم في الرحلة[1]، ولذلك تميزت رحلات المغاربة عن غيرها من الرحلات "بدقة ما دونوه من النقل والإسهاب في التفاصيل والحرص على رؤية ما يصفونه"[2].

ثانيا: نماذج عن مضامين الرحلات المغاربية

ومن بين أهم الجوانب المتناولة في الرحلات المغاربية نجد:

أ_ الجانب التاريخي

نلاحظ أن تاريخ العلوم الإنسانية بالمغرب الإسلامي توأمة البحث التاريخي والأدبي عند بعض الأعلام مثل "ابن القاضي" و"ابن زاكور"، وأن بعض الرحالين أبانوا في مؤلفاتهم عن اهتمامهم بالكتابة التاريخية، وتسجيل بعض الأحداث التي عرفها المشرق والمغرب، ولعل هذه المشاركة في مختلف المعارف تعد من محاسن المدرسة المغربية القديمة، وأهمية الكتابة التاريخية في الرحلة تسترعي المزيد من الدراسة وتوفير كثير من المعلومات ذات الطابع التاريخي والإخباري، وتنوير جوانب من الأبحاث التاريخية والاجتماعية والإنسانية بصفة عامة[3].

وإذا رجعنا إلى رحلات المغاربة نجدها ضمّت من كل فن طرفا فحتى القصائد التي ضمنوها رحلاتهم لا تخلوا من ارتباطها بحدث تاريخي أو نازلة أو وصف لمراحل السفر، حيث كان جلّ الرحالين المغاربة يتميزون بمشاركتهم في العلوم الإنسانية والدينية، فرأوا في التاريخ توثيقا للمعارف والمعلومات ومرجعا في البحث عن التراث وتقويما للثقافة الإسلامية، وصورة ناطقة عن البلاد في ماضيها وحاضرها، فوجدوا في فروعه موردا خصبا لرحلاتهم، فتناولوا منها عدة مواضيع أهما: "تاريخ الدول الإسلامية"، "الحركة العلمية"، "فتوح البلدان والمسالك" إليها، "تراجم الأعلام" من فقهاء ومحدثين وصوفية وأدباء وأمراء، "الكوارث الطبيعية" ومنها الأوبئة والجفاف والمجاعة والزلازل، "نظام الحكم" و"التراتيب الإدارية" و"الثورات"، و"الجهاد" البحري و"القراصنة المسيحيين"، و"الوضع

[1] ينظر: سعد الله، بحوث في التاريخ الإسلامي، ص150، 151.

[2] ينظر: محمد الكحلاوي، آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1994م، ص10.

[3] ينظر: ماكمان، الرحلات المغربية، ص462.

الاجتماعي" و"الاقتصادي" وما يتعلق به من "صرف العملة" و"الجبايات"، "العمران" ويتجلى في القصور والمساجد وقبب الأضرحة وخطط المدينة[1]، وأما الأحداث التي عايشوها أو عاصروها وأدرجوها في كتاباتهم فهم شهود عليها ومرجعها الصادق، وتميزت كتابتهم عن الماضي بالنقول والإحالة على المصادر والعمل على ربط النقول أو الاستطرادات بالمناسبة التي أثارها الموضوع أو اقتضتها المشاهدة أو الاتصال، فهذه الدراسات التاريخية كانت تعتبر ضمن التكوين الذاتي للرحالين[2].

ب_ الظواهر العلمية

تمثل الظاهرة العلمية مجالا خصبا للدراسة والبحث،وتتفاوت أهميتها من رحلة إلى أخرى وهذا ما جعل الحركة العلمية بالمشرق تفتح شهوة الرحالين المغاربة بالخصوص في الاستفادة والتتبع، ومن الأمور العلمية التي أثارت انتباه الرحالين المغاربة في الشرق خاصة، تعدد المذاهب الفقهية، وما ينتج عنها من خلافات وموالاة السلطة لمذهب معين، فشاع الانتقال من مذهب إلى مذهب، وإذا كان هذا التغيير المذهبي مقبولا في صفوف المجتهدين فإن هناك بعض المتفقهة يفضلون المصلحة الدنيوية على الاجتهاد وينتقل إلى مذهب آخر[3]، هذا ما نقلته بعض الرحلات المغاربية وأثار اهتمامها.

ج_ الظواهر الاجتماعية والاقتصادية

ومن أبرز المظاهر الاجتماعية التي اهتم الرحالة المغاربة بالحديث عنها في رحلاتهم موضوع المرأة، حيث نظر الرحالون إلى المرأة نظرة تدعو إلى الحشمة والوقار وعدم التبرج والاختلاط بالرجال، وقد تعددت مبررات انتقادات الرحالين للمرأة ولم يسلم منها حتى نساء المدينة المنورة بسبب تعاطيهن التجارة واعتنائهن بتطييب أنفسهن خلال موسم الحج[4].

أما عن المظاهر المادية الاقتصادية التي اهتم بها الرحالة المغاربة نجد على رأسها التجارة التي كانت أغلبها عبارة عن تجارة الحجاج البسيطة التي لا تعدو تبديل "الإبل" أو التجارة في "الزعفران" و"الغاسول" و"السواك" و"الشب" و"الألواح" و"الأمشاط"، بالإضافة

---

[1] ماكامان، الرحلات المغربية، ص465، 466.

[2] المرجع نفسه، ص466.

[3] المرجع نفسه، 202، 265.

[4] المرجع نفسه، ص310، 312.

إلى "الثياب البالية" و"الجلد" و"النسيج"، حيث كان الحجاج المغاربة يعرفون متطلبات مختلف الجهات التي يمرون بها وأين تصلح المقايضة وأين تتم المعاملات التجارية نقدا، ومن المظاهر الاقتصادية أيضا التي ورد ذكرها بكثرة في الرحلات المغاربية نجد السكة(العملة)، حيث حظيت الأخيرة باهتمام الحجاج فتتبعوا قيمتها الذهبية والفضية وأوزانها وارتباطها بالأنظمة السياسية، فكانت عاملا أساسيا في القيام بالرحلات وتوفير الجوّ المناسب لها، فبحثوا عن كيفية صرفها واستعرضوا أقوال الفقهاء المتقدمين في نظام الصرف والمبادلات النقدية حسب الشريعة[1].

تتميز الرحلة عند المغاربة باشتمالها على أغلب الجوانب العلمية وتنوع مضامينها بمختلف الظواهر التاريخية والجغرافية والاجتماعية والدينية وغيرها.

الفرع الثالث: أنواع وطرق تدوين الرحلة عند المغاربة

تتنوع الرحلة عند المغاربة من حيث التأليف وطرق التدوين كما سيأتي توضيحه.

أولا: أنواع أدب الرحلة عند المغاربة

تتنوع الرحلة عند المغاربة بين ثلاثة أشكال هي: الرحلة مجموع عجائب،الرحلة قصة سفر حقيقية، والرحلة الفهرسة.

أ_ الرحلة مجموع عجائب

فهذا النوع من الرحلة يرى فيه الرحالة أن لاشيء جدير بالاهتمام والإدراك غير العجيب، لذلك تجد الرحلات من هذا النوع تدور موضوعاتها الأساسية حول المعالم الغريبة، والنبات الذي يختص به بلد ما والحيوانات والتقاليد الأسطورية، وغيرها من الأمور التي تثير العجب، لذلك تجد الرحالة يهدف من وراء مؤلفه الرحلة إلى إثارة عجب القراء[2]، حيث تزخر الرحلات بملاحظات يستغربها الرحال أو يتعجب منها، في حين يراها المنتمي

---

(1) ماكامان، الرحلات المغربية، ص315، 318.

(2) ينظر: صالح المغيربي، أدب الرحلة في الغرب الإسلامي من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، تر: محمود طرشونة، دار سيناترا، تونس، ط1، 2013م، ص61، 65.

للمكان عادية، ذلك أن الألفة قد تحجب مظاهر الغرابة كما تحجب مظاهر الجمال، وهذا ما يفسر عدم اهتمام الرحالين بما يحدث في موطنهم الأصلي[1].

ب_ الرحلة قصة سفر حقيقية

في هذا النوع من الرحلة تجد الرحالة يروي مراحل سفره يوما بيوم، وينكب على تدوين ملاحظاته وانطباعاته، حيث تتحول قصة سفره في مؤلفه إلى عمل أدبي منفصل، حيث توجد بها روح الملاحظة الظاهرة في تنوع المعلومات عن الأقطار التي عبرها، وعن سكانها، ووصفه المناظر الطبيعية، والمدن، والطقوس الدينية، ولحركة المواكب الرسمية والقوافل[2].

ج_ الرحلة الفهرسة

هذا النوع من الرحلة يكون عبارة عن يوميات طالب علم، حيث ينصب اهتمام الرحالة فيه على جوّ العلماء والأدباء، حيث يأتي نص الرحلة في شكل تراجم متتابعة للعلماء والأدباء، مع ذكر مروياتهم ومؤلفاتهم والمقاطع الشعرية التي نظموها، بالإضافة إلى تقديم الرحالة في هذا النوع من الرحلة لبعض المعطيات التي تتعلق بالعالم المحيط بهم، كما أنهم يزخرفون نصوصهم ببعض العجائب آخذين بعين الاعتبار ميل القارئ إلى العجيب[3].

ثانيا: طرق تدوين الرحلات عند المغاربة

كما يغلب على تدوين الرحلة عند المغاربة ثلاثة طرق هي:

أ_ رحلات كتبت أثناء الرحلة

يخضع فيها التسلسل لنظام الرحلة ومفاجآتها، وما قد يطرأ عليها من قضايا، وما سيلقاه الرحالة من أشخاص، وما سيشاهده من بلدان[4]، فكان بعض الرحالة المغاربة يكتبون

---

[1] ينظر: زردومي، فن الرحلة، ص15. وعبد القادر شرشار، "كتاب رحلة المقري إلى المشرق والمغرب لأبي العباس المقري"، مجلة الفضاء المغاربي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، ع1، ماي 2016، م69/1.

[2] ينظر: المغيربي، أدب الرحلة في الغرب الإسلامي، ص65، 66.

[3] المرجع نفسه، ص71، 72.

[4] ينظر: الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب، 65/1.

رحلاتهم أثناء سفرهم، كما فعل "العبدري" المغربي الذي صرح بأنه بدأ تقييد رحلته في "تلمسان"[1].

ب_ رحلات كتبت من المذكرات

وهي عبارة عن المذكرات التي دونها أصحابها أثناء الرحلة والتجوال، وهي عبارة عن رؤوس القضايا التي واجهها الرحالة في طريقه، أوالعلوم التي استفادها في وجهته، وسلسلة الإسناد التي حصل عليها، والغالب أن الرحالة كان يحرص على تدوين المذكرات وهو في رحلته حتى لا تفوته أهم المعارف والفوائد لكنه لا يخرج رحلته للناس إلا بعد التنقيح والروية، ومن هنا قد يتأخر إخراج الرحلة عن زمن القيام بها، كما فعل "التيجيني" الذي يشير إلى أحداث وقعت سنة 704هـ، مع أن رحلته كانت سنة 696هـ، وهذا النوع من الرحلات هو الشكل الأكثر انتشارا، إذ يعمد فيه الرحالة إلى تسجيل ما يمكن أن يفوته على أن يتم التدوين النهائي بعد اكتمال الصورة الذهنية للرحلة، وقد تكون الرحلة كلها عبارة عن مذكرات، أوذكريات قريبة من السيرة الذاتية، وفي هذه الحال قد تعرض الأحداث من منظور ذاتي[2].

ج_ رحلات كتبت من الذاكرة

تكتب هذه الرحلات من ذاكرة الرحالة؛ إما بصفة كلية أو جزئية، فأصحابها لم يدونوا الرحلات، أو أن ما دونوه قد تعرض للضياع، ومن أمثلة هذا الصنف "رحلة ابن بطوطة"، وإما أن يكون الرحال قد اعتمد على ذاكرته في التحرير كما فعل "ابن قنفذ" في رحلته: "أنس الفقير وعز الحقير"، فكل ما ذكره من أخبار "الشيخ أبي مدين" وإخوانه وأصحابه وشيوخه وتلاميذه كان معظمه من رحلاته المختلفة داخل المغرب[3].

د_ رحلات كتبها غير أصحابها

كان ظهور بعض الرحلات في معرض تاريخ الرحلة وأدبها من وجه غير مباشر أي من طريق مدونين غير أصحابها، ولما عرفت طريقها إلى الشهرة والانتشار، وذلك لعدم جرأة

---

[1] ينظر: أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري، رحلة العبدري، تح : علي إبراهيم كردي، تق: شاكر الفحام، دار سعد الدين، دمشق، ط2، 2005م، ص139، 140. وزدرومي، فن الرحلة، ص24. .

[2] ينظر: الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب، 57/1. وزدرومي، المرجع السابق، ص24.

[3] ينظر: الشاهدي، المرجع السابق، 57/1. وزدرومي، المرجع السابق، ص24.

الرحالة على إظهار رحلته والبوح بما جاء فيها لغيره، فمثلا؛ لولا عناية "أبي عنان"لـ"رحلة ابن بطوطة" وإعجابه بما ورد فيها من أخبار وغرائب وعجائب، وتكليفه لابن جزي بتدوينها وتسجيل ما يمليه عليه صاحبها، لضاعت ولكان مصيرها النسيان والإهمال(1).

ومهما تكن طريقة تدوين الرحلة فالمؤكد أن معظم الرحالين يجمعون شتات ما يسجلونه ثم يهذبون مذكراتهم وقت الاستراحة والطمأنينة أثناء السفر أو بعده، وقد يرخون العنان للذكريات، فيوظفون ما يرونه مناسبا، خاصة لدى الرحالة الذين قاموا برحلات عديدة، إذ يتفاعل الماضي مع الحاضر وتتشابه المواقف وتتداعى مع بعضها، وقد يستشير الرحالون المصادر والمراجع أو يتقصون الأخبار مما يجعل الرحلة أحيانا أشبه ما تكون ببحث جاد في التأليف(2).

وخلاصة القول فإن المغاربة قد تفوقوا في الرحلة أداء وتأليفا، فبرزوا في فن الرحلة، وأنجزوا فيها أعمالا ضخمة تعدّ مخزونا حضاريا، ومصادر ثرية لمختلف المعارف والمعلومات المهمة للدارسين والباحثين في مجال التاريخ والفنون الأخرى.

المطلب الثالث: أشهر الرحلات المغاربية قبل العهد العثماني

توّج هذا الفصلبذكر جملة الرحلات المغاربية التي سبقت العهد العثماني، والمقصود بفترة ما قبل العهد العثماني فترة الدويلات المغربية الثلاث (الزيانية والحفصية والمرينية)، وارتأيتاختيار رحلات من المغارب الثلاث، وهذه الرحلات هي: رحلة كل من "ابن بطوطة" المغربي، و"المقري الجدّ" الجزائري، بالإضافة إلى "التيجاني التونسي"، وكل ذلك سيكون في فروع ثلاث على التوالي.

الفرع الأول: رحلة ابن بطوطة "تحفة النظار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار"

يعد الرحالة المغربي الكبير "ابن بطوطة" من أشهر رحالة المغرب والعرب وحتى العالم، حيث نال شهرته تلك من رحلته الضخمة التي جاب فيها مختلف الأقطار وألف على إثرها ما شاهده في رحلته تلك في مؤلف سماه "تحفة النظار" ، ولهذا الأمر البالغ الأهمية نتطرقإلى التعريفبه وبرحلته.

---

(1) ينظر: الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب، 58/1.

(2) زردومي، فن الرحلة، ص24.

أولا: التعريف بالرحالة المغربي "ابن بطوطة" (703_ 776هـ/ 1304_ 1370م)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن يوسف اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطوطة، و"لواتة" التي ينسب إليها قبيلة مغربية منازلها الأصلية بـ"برقة" من أرض "طرابلس"، توطن منها بجهات المغرب المختلفة أقوام نبغوا في العلوم، وأسرة "ابن بطوطة" نفسها كانت أسرة علمية ظهر فيها القضاة ومشايخ العلم، ولد "ابن بطوطة" يوم الإثنين 17 رجب عام 703هـ بمدينة "طنجة"، زمن الدولة المرينية، وبها زاول دراسته، حيث كانت "طنجة" آنذاك غنية بعلمائها، وهم من الصنف الذي يستغني به الطالب في دراسته الكاملة فلا يحتاج إلى الهجرة في طلب العلم[1].

وقد خرج منها سنة 725 هـ فطاف بلاد "المغرب" و"مصر" و"الشام" و"الحجاز" و"العراق" و"فارس"و"اليمن" و"البحرين" و"تركستان" وما وراء النهر وبعض "الهند" و"الصين" و"الجاوة" وبلاد "التتر" و"أواسط إفريقية"، واتصل بكثير من الملوك والأمراء، ومدحهم، واستعان بهباتهم على أسفاره، وعاد إلى المغرب الأقصى، فانقطع إلى السلطان "أبي عنان" (من ملوك بني مرين) فأقام في بلاده وأملى أخبار رحلته على (محمد ابن جُزَيّ) الكَلْبي بمدينة "فاس" سنة 756 وسماها "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، ترجمت إلى اللغات "البرتغالية" و"الفرنسية" و"الإنجليزية"، ونشرت بها، وترجمت فصول منها إلى "الألمانية" نشرت أيضا، وكان يحسن "التركية"و"الفارسية"، وقد واستغرقت رحلته 27 سنة (1325 – 1352م) مات في "مراكش" عام 776هـ/ 1370م[2].

ثانيا: وصف رحلة ابن بطوطة

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات، فكانت الأولى مابين 1325_ 1349م، والتيكانت بدايتها عام 725هـ وكان عمره آنذاك 22 سنة[3]، حيث انطلق من "طنجة" إلى "إفريقية الشمالية" فزار "مراكش" و"الجزائر" و"تونس" و"طرابلس" ثم "مصر" و"فلسطين"، فـ"سورية" فـ"الحجاز"، وبعد أن أتم فريضة الحج للمرة الأولى تابع الرحلة إلى "فارس" و"العراق" و"الأناضول" وعاد إلى مكة ثانية مرورا بالـ"موصل" و"ديار بكر"، وبعدها ارتحل إلى

(1) عبد الله كنون، مشاهير رجال المغرب، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني بيروت، م6/3، 8.
(2) ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002 م، 236/6.
(3) ينظر: خضر موسى، أدب الرحلات، ص124، 138.

"اليمن" في جنوبي الجزيرة العربية وإلى "عمان" و"البحرين" و"الأحساء" من الخليج الفارسي، ثم عاد للمرة الثالثة إلى مكة مرورا بالـ"خليج الفارسي" من جديد، ومن ثم قصد مصر فلم يلبث أن غادرها متجها نحو "فلسطين" فـ"الأناضول" فشبه ، و"جزيرة القرم" ومن هناك أبحر إلى "القسطنطنية" برفقة إحدى الملكات، ومنها انطلق إلى "الهند" عابرا "بخارى" و"خوارزم" و"خراسان" و"كردستان"و"أفغانستان"، وفي "دلهي" شغل أحد مناصب القضاء، حتى إذا بعث به السلطان مع أحد الوفود لحمل بعض الهدايا إلى ملك الصين، هبت عاصفة في أحد الثغور الهندية على المركب فأغرقته، فلم يعد "ابن بطوطة" إلى السلطان، بل قضى حوالي سنة ونصف في إحدى الجزر المجاورة، وشعر بعد ذلك برغبة في زيارة "الصين"، فقصدها بعد أن مر بـ"سيلان" و"البنغال" و"شبه جزيرة الملايو"، ومن هناك عبر إلى "جزيرة سومطرة" ثم اتجه نحو بلاد العجم فـ"فارس" فـ"العراق" فـ"سوريا" فـ"مكة" للمرة الرابعة[1].

وبعدها تذكر "ابن بطوطة" الأوطان وحنّ إلى الأهل والخلان وتاق إلى بلاده، فعاد إلى "فاس" مارا بـ"مصر" فـ"تونس" فـ"الجزائر"، فوصل إلى بلده "المغرب" بعد الغياب الطويل سنة 750هـ/ 1349م، وما كاد يستقر به المقام في "فاس" حتى نهض إلى الرحلة الثانية، التي كانت إلى بلاد "الأندلس" ما بين 1350- 1351م، حيث تعرف أثناء ترحاله إلى "سبتة" و"جبل طارق" و"مارقة" و"غرناطة"، ثم عاد إلى "فاس"، ليهيئ نفسه للرحلة الثالثة وكانت هذه المرة إلى "إفريقية"، والتي زار فيها بلاد "السودان" مابين 1352- 1354م، حيث قضى سنتين زار خلالها بعض المناطق الإفريقية، وأفل بعدهما إلى "فاس" من جديد حيث أمضى بقية حياته[2].

وبالإضافة إلى "ابن بطوطة"، فقد المغرب الأقصى أكثر البلدان المغاربية إنجابا للرحالة الكبار الذين ساهموا في تنشيط حركة الرحلات والتأليف في أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني وغيره، من أمثال: "العبدري" و"السبتي"، "التيجيني" وغيرهم.

---

(1) جورج غريب، أدب الرحلة تاريخه وأعلامه، دار الثقافة، بيروت_ لبنان، ط2، 1972م، ص59، 60.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص59، 60. وخضر موسى، أدب الرحلات، 139، 140.

ثالثا: التعريف برحلة ابن بطوطة "تحفة النظّار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار"

تعتبر رحلة ابن بطوطة مصدرا مهما من مصادر التاريخ والجغرافيا في القرون الوسطى لاسيما من الناحيتين السياسية والاجتماعية، فهو أول من أجلى أسرار الأمم وأحوالها، وكشف عن الكثير من مخبآتها[1].

ولما انتهى ابن بطوطة من رحلاته واستقر به المقام في بلده المغرب، واتصل بسلطان مراكش "أبي عنان المريني"، وبعد أن سمع هذا الأخير سرد "ابن بطوطة" لعجائب أخباره ومستغرب مشاهداته يرويها عنده لمن تجمع حوله دعاه إلى إثبات ذلك، فخصه بكاتبه "ابن جزيّ"، الذي صاغ ما أملاه عليه "ابن بطوطة" في تصنيف سماه: **"تحفة النظّار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار"**[2].

وقد اشتهر ابن بطوطة بفضل رحلته هته التي تميزت بطولها مسافة وزمنا وتعداداللأقطار التي زارها وتنوعالمضامينها[3]، فهو يعتبر أشهر الرحالة العرب على الإطلاق، إذ لم يبلغ غيره ما بلغ من ذيوع الصيت في الشرق والغرب[4]، كما امتدت شهرته إلى العالم الغربي، فلقيت رواياته اهتمام المستشرقين فسعى بعضهم للبحث عن النسخ الأصلية للرحلات، واستطاع المستشرق الإنجليزي "يوركهاردت" العثور على مختصر لهذه الرحلات، فترجمه إلى اللغة الإنجليزية، ثم جاء بعده الكثيرون ممن ترجموا هذه الرحلات إلى لغات عديدة انتشرت وذاع صيتها ونالت إعجاب العالم الغربي كما نالت إعجاب العالم العربي[5].

إذا فابن بطوطة المغربي نال الشهرة بفضل رحلته التي مازالت إلى اليوم محل اهتمام الباحثين والدارسين.

الفرع الثاني: رحلة المقري الجد الجزائري

أمّا القطر الجزائري، فلم يخل هو الآخر من الرحالة الكبار، مثله مثل القطرين"تونس" و"المغرب"، حيث اشتهر بعدّة رحالة في الفترة المعنية، خاصة وأن الجزائر

---

(1) غريب، أدب الرحلة، ص65.

(2) المرجع نفسه، ص60، 61.

(3) ماكامان، الرحلات المغربية، ص33.

(4) فؤاد قنديل، أدب الرحلة، ص488.

(5) خضر موسى، أدب الرحلات، ص140.

كانت محل نزاع بين تلك الدويلات الثلاث (المرينية بالمغرب، والحفصية بتونس، والزيانية بالجزائر)، ومن أشهر هؤلاء الرحالة "المقري الجدّ".

أولا: التعريف بالرحالة المقري

محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن القرشي التلمساني، شهر بالمقري بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحةباحث أديب قاض من أكابر علماء المذهب المالكي في وقته، وشيخ "لسان الدين ابن الخطيب" و"عبد الرحمن ابن خلدون"[1]، ولد ونشأ بـ"تلمسان" التي كانت تعرف في أوائل القرن الثامن الهجري ازدهارا علميا على غرار باقي حواضر المغرب الأخرى، حيث أضحت في ذلك الوقت حضرة "بني مرين" في عهد كثير من ملوكهم مما جعلها تحظى باهتمام كبير ثقافيا وعلميا، فكان لذلك أثره في تكوين "المقري" الثقافي، فبالرغم مما لحق "تلمسان" من تخريب وتقلبات جرّاء الحروب والصراعات بين "المرينيين" و"بني عبد الواد"، فإن مراكزها الثقافية لم ينلها التخريب ولم تتأثر بتلك الظروف[2].

وقد أخذ العلم عن عدّة شيوخ بـ"تلمسان" ومن بينهم: "عمران المشدالي"، و"إبراهيم ابن حكم السلوي"، و"أبو محمد المجاصي"، و"أبو علي حسين السبتي"، و"أبو عبد الله بن هدية"، و"محمد بن حسن الزهري التونسي"، و"عبد المهيمن الحضرمي"، و"أبو عبد الله محمد" و"أبو العباس أحمد ابني محمد بن محمد بن مرزوق العجيسي"، وغيرهم[3].

وقد رحل "المقري" من "تلمسان" عام 737هـ، ليتردد على أهم الحواضر العلمية في المشرق والمغرب، حيث أخذ بالمغرب العربي عن شيوخ "بجاية" و"تونس" و"فاس" و"تازا"، وبالمشرق عن شيوخ "مصر" و"مكة" و"المدينة" و"دمشق" و"بيت المقدس"، فكانت رحلاته المختلفة واتصالاته العديدة وتكوينه المتنوع سببا لشهرته وتفوقه في الميدان العلمي تدريسا وتأليفا، مما جعل السلطان المريني "أبي عنان" يقربه إليه وأحله منزلة رفيعة في القضاء والتدريس بقي بها إلى وفاته سنة 759هـ/ 1359م، وقد ترك "المقري" الجدّ تآليف كثيرة في علوم وفنون مختلفة كـ"الفقه" و"التصوف" و"الحديث" و"الشعـ"ر، أشهرها: "القواعد"،

---

(1) محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، د. ط، 1906م، 493/2.

(2) الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب، 496/1.

(3) الحفناوي، المرجع السابق، 496/2.

"رحلة المتبتل"، "الطرف والتحف"، و"عمل من طب لمن حب"، و"إقامة المريد"، و"الحقائق والرقائق"، و"شرح التسهيل"، و"نظم اللآلي في سلوك الأمالي"[1].

ثانيا: وصف رحلة المقري (السفر)

سبق الذكر أنّ المقري رحل إلى المشرق بقصد الحج، ثم عاد إلى بلده، ثم دخل "المغرب" وعبر إلى "الأندلس"، وانتهت به الرحلة إلى "غرناطة"، وعاد إلى بلده فانقطع للإقراء وخدمة العلم، ولما ولي "أبو عنان المريني" سنة 749هـ، ولّاه قضاء الجماعة بـ"فاس"، وبنى له "المدرسة المتوكلية"، ثم اعتزل القضاء ورحل إلى "الأندلس" في مهمّة كلف بها سنة 756هـ، ثم عاد إلى "فاس" وتوفي بها في نفس السنة، وبعد سنة نقل رفاته إلى "تلمسان" أرض أجداده ليدفن هناك[2].

ثالثا: التعريف برحلة المقري "رحلة المتبتل"

وهي عبارة عن رحلة علمية ودينية قصد منها المقري طلب العلم والقيام بالحج، حيث زار خلالها حواضر العلم المشهورة، كـ"القاهرة" و"دمشق"، و"مكة"[3]، وغيرها.

وتعتبر رحلة المقري من الرحلات المفقودة، وإنما جاءت المعلومات عنها في كتابه "نظم اللآلي في سلوك الأمالي"، فمما سجّل فيها أن رحلاته إلى المغرب كانت رحلة علمية من أجل لقاء الأعلام والشيوخ، كم أن الحديث عن رحلته يوجد ملخصا عند "حفيده أبي العباس أحمد المقري" في كتابيه: "نفح الطيب"، و"أزهار الرياض"، الذي ذكر أن لجدّه رحلة، وذكر بعض أخبار رحلته إلى المغرب والمشرق والأندلس، كما اكتفى بالإشارة إلى أسماء الأعلام الذين التقى بهم جدّه وهو يتنقل بين المناطق المغربية المختلفة[4].

كما توجد رحلات جزائرية أخرى في هذا العصر رغم قلتها مقارنة بشقيقتها المغربية، وعلى رأسها رحلة "ابن قنفذ القسنطيني"، و"المليكشي البجائي"، "التوجيني التلمساني"، وغيرهم.

---

(1) ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافي للتأليف والترجمة والنشر، بيروت_ لبنان، ط2، 1970م، ص312، 313.

(2) المرجع نفسه، ص312.

(3) ينظر: أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص59.

(4) ينظر: أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح يوسف محمد البقاعي، دار الفكر، لبنان، ط1، 1998م، م207/6، 208. والشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب، ص500، 501.

الفرع الثالث: رحلة التجاني التونسي

إن كـان "ابـن بطوطـة" أشـهر رحالـة المغـرب الأقصـى علـى الإطـلاق فـي الفتـرة المعنيـة، فـإن القطر التونسي أيضا عرف رحالة من مصاف الكبار، كـ"التجاني"، فالبرغم أن شهرته لم تصل إلى شهرة ابن موطنه "ابن خلدون"، ولكن رحلته كانت مهمة لدرجة أنه أجاد فيها وأفاد بها في كتابه العبر، بالإضافة إلى سبقه الزمني لذلك اخترناه نموذج القطر التونسي الحفصي في ذلك الوقت.

أولا: التعريف بالرحالة التجاني (ت 718هـ/1318م)

أبـو محمد عبد الله بـن محمد بـن أحمـد التيجـاني، ينتسـب إلـى أسرة ماجدة تنتسب إلـى قبيلـة "تجـان" مـن قبائـل المغـرب الأقصـى، التـي جـاء أحـد أفرادهـا إلـى "تـونس" مـع جـيش "الموحـدين" الفـاتح بقيـادة "عبـد المـؤمن بـن علـي"، ولـد "عبـد الله التجـاني" مـا بـين 670 _675هـ/ 1272_1276م بمدينة "تونس" التي كانت آنذاك عاصمة للحفصيين، وقد نشأ "التيجاني" في بيت علم وأدب، فكان والده أحد شيوخه بالإضافة إلى الشيخ "أبو بكر بن عبد الكريم العوقي المغربـي" الوافد علـى "تـونس"، والشـيخ "أبـو القاسم بـن أبـي محمد عبد الوهاب بن قائد بن علي الكلاعـي" أحد علماء "الأندلس" اللاجئين إلـى "تونس"، وغيرهما من الشيوخ[1]، وقد كانت لأسرته مكتبة حافلة بأنواع العلوم، من فقه وأدب وشعر، وغيرها من علوم العصر، فضـلا عن أن "تونس" كانت موئلا للعلم والأدب، فقد توافرت للتجاني الفرص وتهيأت لـه الظـروف بالإضـافة إلـى جهده ورغبتـه فـي العلـم، مـا جعلـه يتبـوأ مركزا علميا لائقا.

وقد أدرك "التجاني""أبا عصيدة" أحد سلاطين "بني حفص"، وكان في إدارته رجل يقال لـه "أبو يحيى اللحياني"، وهو شيخ "الموحدين" الذي اختصّ "التجاني" برعايته وعنايته واختاره كاتبا خاصا وجعله المشرف على رسائله[2].

(1) ينظر: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، رحلة التجاني، تق: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا_ تونس، د. ط، 1981م، ص كو، كز.

(2) ينظر: خضر موسى، أدب الرحلات، ص123، 124.

لم يعمّر "التجاني" طويلا إذ وافته المنية عام 718هـ/ 1318م، وقد ترك عدّة مؤلفات في "الفقه" و"الأدب" و"التراجم" و"الحديث" و"المراسلات"، لكن أكثرها مفقود، من أشهرها مراسلاته مع "ابن شيرين"[1]، ورحلته المعنية.

ثانيا: رحلة التجاني السفرية

قام "التجاني برحلة رفقة "ابن اللحياني"، حيث خرج من "تونس" في حاشية كبيرة في أواسط شهر جمادى الأولى سنة 716هـ/ 1316م، سالكا طريق الساحل مرورا بـ"سوسة"، ثم انحرفت القافلة باتجاه الداخل، وسلكوا طريقا قادتهم إلى الجم ثم إلى "صفاقس" ف"قابس"، ثم اتجهوا غربا إلى منخفض "الجري"د، فزاروا "واحة توزر"، وعادوا إلى "قابس"، وعرجوا على "جزيرة جربة"، ومنها إلى "عمراسن" في سهل "الجفارة"ليعودوا إلى الساحل، ومروا بـ"زوارة" وطرابلس" و"مصراتة" (بالأراضي الليبية)، كي يتابعوا مسيرهم شرقا لأداء فريضة الحج، لكن "التجاني" عاد إلى "تونس" فوصلها في صفر سنة 718هـ، بعد غياب عن موطنه استغرق اثنين وثلاثين شهرا تقريبا[2].

ثالثا: التعريف برحلة التجاني

رحلة "التجاني" عبارة عن كتاب في الأدب والتاريخ والجغرافية، حيث سجل أخبار رحلته وسجل مشاهداته وعبر عن انطباعاته، ووصف فيه المجتمع الذي عايشه بأسلوب واضح وعبارة أنيقة، وصف بها المدن التي زارها كـ"صفاقس" و"قابس" و"توزر" و"طرابلس"، حيث أنك تحس كأن الأشياء التي يتحدث عنها تتقولب أمام القارئ، وبالرغم من أن سير الرحلة كان بطيئا ومجالها محدودا إلا أنها زودتنا بمعلومات وافية عن سائر المناطق التي زارها "التجاني"، فهي تتعرض لمسائل الجغرافية مثلما تتناول قضايا التاريخ الطبيعي ولاسيما التاريخ البشري[3].

ونظرا لأهمية رحلة "التجاني" وقيمتها العلمية الكبيرة وبعد قرن من الزمن، نجد "ابن خلدون" قد قدرها تقديرا كبيرا، حيث أفاد منها في الأجزاء التي خصها للمغرب العربي،

---

(1) ينظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة، ص 483.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص482، 483.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 483، 484. وخضر موسى، أدب الرحلات، ص124.

كما استفاد منها الغربيون أيضا أمثال المستشرق الإيطالي "آماري" الذي تعرض في أبحاثه لقسم من الرحلة[1]، كما استفاد منها الكثير من الباحثين عربا وأجانبا فيما بعد.
وبالإضافة إلى "التجاني" فقد كان للرحالة التونسيين مساهمة أيضا في تنشيط حركة الرحلة والتأليف فيها على المستوى المغاربي، وأشهر هؤلاء الرحالة من أبناء هذا القطر نجد الرحالة والمؤرخ الكبير "عبد الرحمن ابن خلدون"، وآخرون.
وخلاصة القول فيما يخص أشهر الرحلات المغاربية قبل العهد العثماني، ومن خلال النماذج المختارة التي اطلعنا عليها، أن الرحلات الثلاث، ورغم اختلاف الشخصيات والوجهة إلا أنها تتشابه من حيث البيئة المعيشة لهؤلاء الرحالة خاصة وأنهم جميعا كانوا من الطبقة المثقفة سليلة العلماء والأدباء، بالإضافة إلى أن كل منهم كان مقربا إلى السلاطين، ومن رجال بلاطه.

والخلاصة فإن الرحلة لم تقتصر على كونها حركة الإنسان من مكان إلى آخر لأهداف ودوافع معينة، وإنما تعدّت ذلك لتكون تجربة بشرية مليئة بالمعارف، حين أصبحت فنا قائما بذاته خاصة في مجال الأدب والجغرافيا والتاريخ، وقد كان للقطر المغاربي إسهاما كبيرا في مجال الرحلة والتأليف فيها كفن أدبي، حيث أنجب هذا القطر رحالة كبارا جابوا الأقطار والبلدان، فسجلوا ما عرفوه وشاهدوه من عجائب وغرائب البلدان في مؤلفات ضخمة تندرج تحت أدب الرحلات بأنواعها المختلفة، وأصبحت مؤلفاتهم لا غنى عنها للباحثين في مختلف المجالات خاصة الأدب والتاريخ والجغرافيا وغيرها، ومن عمالقة الرحالة المغاربة نجد على رأسهم ابن بطوطة، وهو الأشهر بلا منازع، بالإضافة إلى ابن خلدون، والمقري، والعبدري والسبتي والتجاني..، والقائمة طويلة.

---

(1) فؤاد قنديل، أدب الرحلة، ص484.

الباب الأول:

دراسة منهجية للرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

الفصل الأول: أهم الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

الفصل الثاني: منهج الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

الفصل الثالث: منهجية تدوين الرحلات المغاربية

الفصل الرابع: دوافع وامتدادات الرحلات المغاربية

الباب الأول: دراسة منهجية للرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

لقد تفوق المغاربة في أدب الرحلة ووضعوا فيه الكثير من المؤلفات التي طبع بعضها ولا يزال أكثرها مخطوطا ومنها ما هو ضائع، ولا يعرف إلا بالنقل عنه في كتب التاريخ والأدب والتراجم، ونظرا لقلة المصادر العربية التي يعول عليها لإلقاء الضوء على الفترة العثمانية بالجزائر، التي تعتبر من أكثر الفترات غموضا إذ لاتزال مجهولة بعض الجوانب، تظهر المكانة الهامة للرحلات المغاربية،خاصة الجزائرية منها والمغربية، فقد أضاف الجزائريون إلى أدب الرحلة عدة مؤلفات وكان لهم فيها حضور واسع خصوصا في العهد العثماني، إلا أنها تبقى قليلة أمامالرحلات المغربية التي مرتبـ"الجزائر" في العهد العثماني،والتي تزداد أهميتها لما تحويه من أخبار وإشارات عن"الجزائر".

ولما كانت هذه الرحلات الجزائرية والمغربية كثيرة فقد اخترت منها ثمانية عشر رحلة كان أغلب أصحابها من أهل العلم والمعرفة،أنجزوا رحلات في تلك الفترة لأغراض مختلفة (دينية، علمية، سياسية...) ، وسأركز على الرحالات التي تحدثت عن "الجزائر" وأحوالها في تلك الفترة، وبذلك قسمت هذا البابإلى أربعة فصول:تناول الأول الحديث عن أهم الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني، في حين تكفل الفصل الثاني بإبراز منهج الرحلات المغاربية، أما الفصل الثالث فتناول منهجية تدوين الرحلات المغاربية، أما الحديث عن دوافع الرحلات المغاربية وامتداداتها فحوى مضمونها الفصل الرابع.

الفصل الأول:

أهم الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

المبحث الأول: رحلات مغاربية داخلية

المبحث الثاني: رحلات مغاربية خارجية

الفصل الأول: أهم الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

اقتصرت هذه الدراسة على مجموعة من الرحلات المتوفرة، والتي بلغ عددها ثمانية عشر رحلة، منها ما كان نطاقها داخل حدود المغرب الإسلامي، ومنها التي تجاوزته إلى خارجه، متخذة الجزائر ممرا، وهذا الذي يخص الدراسة بالتحديد.

وعلى هذين المعطيين ينشطر هذا الفصل ليتناول التعريف بالرحلة وصاحبها، والمعلومات التي تحيط بالرحلة فكرة، ومضمونا، ووصفا، في مبحثين.

المبحث الأول: رحلات مغاربية داخلية

هذا المبحث يتحدث عن جملة الرحلات المغاربية الداخلية، سواء كانت داخل "الجزائر" ذاتها، أورحلات متبادلة بين "المغرب" و"الجزائر"، والتي لم تتجاوز الحيز المغاربيبالأساس، وذلك في ثلاثة مطالب: الأول في الرحلات الجزائرية المحلية، والثاني في الرحلات المغربية إلى "الجزائر"، أما الثالث ففي الرحلات الجزائرية إلى "المغرب".

المطلب الأول: رحلات جزائرية محلية (في ربوع الجزائر)

حوى هذا المطلب ثلاث نماذج من الرحلات المحلية التي كانت في ربوع "الجزائر"، والتي توفرت لديّ وهي رحلات كل من: ابن إدريس التنلاني إلى "الجزائر العاصمة"، ورحلة الباي محمد الكبير نحو الجنوب الصحراوي الجزائري لمؤلفها ابن هطال، ورحلة ابن الدين الأغواطي التي كانت في الصحراء الجزائرية أيضا، وذلك في ثلاثة فروع على التوالي، وقد اقتصرت في مختلف الفروع على التعريف بالرحالة، ورحلته ومؤلف الرحلة إن لم تكتب من الرحالة نفسه.

الفرع الأول: رحلة ابن إدريس التنلاني التواتي إلى الجزائر العاصمة

وهذه الرحلة جزائرية محلية بامتياز، سواء بالنسبة للرحالة نفسه أو فضاء التنقل الذي كان داخل "الجزائر".

أولا: التعريف بالرحالة ابن إدريس التنلاني

هو عبد الرحمن بن إدريس بن عمر الأكبر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التنلاني، ولد بـ"توات" سنة 1181هـ، تلقى العلم على عدة شيوخ في بلده منهم: "محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنلاني"، ولما سافر إلى "فاس" أخذ عن علمائها منهم:"عبد القادر بن

شقرون"، توفي في مدينة "سوى" (بمصر) ودفن بها في جمادى الثانية سنة (1233هـ/ 1817م) أثناء عودته من الحج[1].

من مؤلفاته: "الرحلة" التي ذكر فيها بعض الأحداث التي شاهدها في طريقه إلى الجزائر، حين خرج من "تنلان" في شعبان 1230هـ/ 1816م، وقصيدة رثائية عدد أبياتها 32 بيتا، رثى فيها عالمين من "تنلان" وهما: الشيخ "عمر بن عبد الرحمن التنلاني"، والشيخ "عبد الله بن عبد الرحمن بن بعمر التنلاني"[2].

ثانيا: التعريف برحلة ابن إدريس التنلاني

تعتبر رحلة ابن إدريس التنلاني إلى "الجزائر العاصمة" وثيقة محلية هامة أرّخت لحملة اللورد الإنجليزي "إكسموت" على العاصمة سنة 1816م، يورد فيها التنلاني أخبارا ومعلومات دقيقة جدا لا تختلف عما أورده المؤرخون الغربيون لهذه الحملة، كما يصف في هذه الرحلة أيضا المدن التي مر بها من "توات" إلى "الجزائر العاصمة"، ويذكر من لقيه هناك من علماء وأعيان المناطق التي مر بها[3].

ثالثا: وصف رحلة ابن إدريس التنلاني

أ_ وصف الرحلة المخطوطة

ذكر محقق الرحلة أنّه اعتمد في تحقيقه لهذه الرحلة التي سماها: "**رحلة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي إلى الجزائر العاصمة ووصفه لحرب الإنجليز**"، على مخطوطة واحدة وجدها عند الشيخ باي بلعالم، وهي مصورة على المخطوط، وهي مكتوبة بخط مغربي دقيق، قام بنسخها عن خط المؤلف "الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عالي بن محمد التنلاني"، وتم الفراغ من نسخها في: ذي القعدة سنة (1244هـ/ 1828م) كما هو موجود في آخر النسخة، والمخطوطة كاملة، عدد أوراقها ستة ورقات، اختلف عدد الأسطر في كل صفحة من 20 إلى 26 سطرا في بعض الصفحات، وبها تعليقات على الهامش،

---

[1] ثلاث رحلات مغاربية ومجموع رحلات جزائرية، تح: مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط خ، 2011م، رحلة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي الجزائري(ت: 1233هـ/ 1817م)، ص 223، 224، 226. نقلا عن: الرحلة المخطوطة، 2/ 184، 185.

[2] المصدر نفسه، ص224، 226، نقلا عن: الرحلة المخطوطة، 2/ 144.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص230، 231.

عبارة عن تصويبات لبعض الكلمات غير الواضحة أو التي كتبت خطأ، وبعض ما يصلح أن يكون عنوانا، وهي بالمداد[1].

ب_ وصف رحلة السفر

بدأت رحلة ابن إدريس التنلاني من "تنلان" إلى "الجزائر العاصمة"، في أوائل الشهر المنير (دخول السنة الهجرية) من سنة 1231هـ/ 3 ديسمبر 1815م، فخرج من بلدته بـ"زاوية تنلان" ثالث الشهر المذكور، وفي الثامن من نفس الشهر دخل "تيميمون" قاعدة قرى "قرارة"، وأقام بها تسعة أيام، ثم توجه إلى "مزاب"، فمرّ بـ "متليلي" وصولا إلى "مزاب"، في التاسع من رمضان، ثم أقام بها متنقلا بين مدنها، وغادرها نحو مدينة التيطري "المدية" التي دخلها في يوم الأحد عيد الفطر، ومنها توجه إلى "البليدة"، ومنها إلى "المتيجة"، ثم توجه إلى مدينة "الجزائر"، فدخلها يوم الأربعاء (4 شوال من السنة المذكورة) [2]. ولم تكتمل تفاصيل الرحلة، وهل عاد إلى بلدته أم بقي في "الجزائر العاصمة".

الفرع الثاني: رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري

وهذه الرحلة في حقيقة الأمر عبارة عن حملة عسكرية _ إن صحّ التعبير_ لأنّ هدفها إخضاع السكان لحكم العثمانيين بالقوة وإلزامهم بدفع الضرائب على ممتلكاتهم.

أولا: التعريف بمؤلف الرحلة "ابن هطّال"

هو أبو العباس الحاج أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال التلمساني، كان كاتبا ومستشارا لـ"محمد الكبير" باي "وهران" ومبعوثا له في المهمات الخارجية، فكان مرافقه الدائم في جميع تنقلاته، خاصة في رحلته نحو الجنوب الجزائري التي سجل أحداثها بأمر من الباي نفسه، فكان حاضرا ومشاركا فيها، وشاهدا على ما جرى فيها من أحداث عبر مختلف مراحل سيرها[3].

---

[1] ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص226- 228.

[2] المصدر نفسه، ص237243.

[3] أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح: محمد بن عبد الكريم، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوضبي_ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت_ دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2004م، ص 15.

ولما توفي الباي "محمد الكبير" أصبح ابن هطال كاتبا لابنه "عثمان باي"، الذي بقي يشغل المنصب نفسه (باي الغرب)، ولما توفي الباي الأخير أصبح ابن هطال كاتبا للباي الذي بعده، وهو الباي "مصطفى بن عبدالله العجمي" رابع بايات "وهران".

استشهد ابن هطال في معركة وقعت بين الأتراك و"ابن الشريف الدرقاوي" وأنصاره في مكان يقال له: "فرطاسة"، وذلك في أوائل ربيع الأول من سنة 1219هـ[1].

ثانيا: التعريف بالباي محمد الكبير

هو محمد بن "عثمان الكردي"، الملقب بالكبير ينتمي إلى عائلة كردية، أمه جارية اسمها "زائدة" أهداها سلطان المغرب الأقصى (مولاي إسماعيل) لأبيه "أبي إسحاق عثمان بن إبراهيم الكردي"، الذي كان خليفة على "مليانة"، ثم عين بايا على "التيطري" إلى أن توفي سنة 1170هـ، وقد كان محمد الكبير يحظى بمكانة راقية واحترام كبير عند الأتراك، فكانت له مواقف مشرفة وقدرة عالية في القيادة وسياسة الناس، وهو ما سهل عليه الارتقاء في المناصب الحكومية السياسية والعسكرية، حتى وصل إلى رتبة باي الإيالة الغربية في عام 1192هـ، وبمجرد جلوسه على كرسي الحكم وتعيينه بايا، شرع في إصلاح شؤون الرعية، والسهر على مصالح العباد وتنظيم البلاد[2].

ومن بين أهم الأعمال التي قام بها: فتحه لمدينة "وهران" واسترجاعها من "الاسبان" عام 1206هـ، كما اهتم بالتشييد والتعمير، فبنى المساجد والمدارس والقصور..، وكان شديد الحرص على الثقافة والمثقفين، كما كان يعتني بالفقراء والمساكين[3]، وأعماله كثيرة جدا، ولا يسعنا المجال لذكرها الآن.

توفي الباي محمد الكبير ببلدة "صبيح" سنة 1213هـ، وهو في طريقه من "وهران" إلى "الجزائر"، بعد أن دام حكمه عشرين سنة بايا مستقلا، وسبعة أعوام خليفة مفوضا، ودفن بمدرسة "خنق النطاح" في "وهران"، التي تعرف الآن بـ "جامع الباي"، ولا يعرف الآن

---

(1) ابن هطال، رحلة الباي، ص15.

(2) المصدر نفسه، ص 16، 17. وينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص 243.

(3) ينظر: ابن هطال، المصدر السابق، ص24– 27.

بالضبط مضجعه، لأن جنود "فرنسا" اتخذوا مكان المدرسة حماما وعلى إثر هذا العمل تم طمس قبره[1].

ثالثا: التعريف برحلة الباي محمد الكبير

رحلة محمد الكبير باي وهران إلى الجنوب الصحراوي الجزائري تتضمن أخبارا جغرافية واجتماعية وسياسية وعسكرية وأدبية، بالإضافة إلى شخصية محمد الكبير، الذي كان سببا في تأليف الكتاب، فقد كان شخصية جديرة بتسليط الأضواء لأنه تقلب في مناصب مختلفة وشهد تطورات كثيرة وساهم بقسط وفير في خلق تلك المناصب وتوجيه تلك التطورات، فقد قاد بنفسه حملة ضد الصحراء لإخضاع أهلها إلى سلطة الداي بالجزائر[2]، وهذه الحملة هي قضية هذه الرحلة.

رابعا: وصف رحلة الباي محمد الكبير

أ_ وصف الرحلة المخطوطة

ذكر المحقق "محمد بن عبد الكريم"أنّه اعتمد في تحقيقه لهذه الرحلة على ثلاثة نسخ: النسخة الأولى وهي الخاصة به وكانت توجد بخزانته والتي وصف لنا حالتها، فهي ذات حجم صغير مربع، خطها مغربي صمغي واضح لونه أسود، وأوراقها بيضاء، في كل صفحة منها 21 سطرا، وهذه النسخة مجهولة الكاتب. والنسخة الثانية: مخطوطة بالمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة، تحت رقم 1643، وهي ذات حجم مربع صغير أيضا، خطها مغربي صمغي واضح جيد، لونه أسود، وأحمر، وأزرق، أوراقها بيضاء مشوبة بخضرة، في كل صفحة منها 17 سطرا، نقلها "محمد بن البشير آقراي التلمساني"، فرغ من نقلها في 22 ذي القعدة سنة 1202هـ. أمّا النسخة الثالثة، فهي مخطوطة في المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة كذلك، تحت رقم 1644، وهي ذات حجم مستطيل صغير، خطها مغربي صمغي رديء، في كل صفحة منها 21 سطرا، وهي مجهولة الكاتب[3].

---

(1) ابن هطال، رحلة الباي، ص24.

(2) ينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص358.

(3) ينظر: ابن هطال، المصدر السابق، ص 31.

ب_ وصف رحلة السفر

تعتبر رحلة محمد الكبير "نحو الجنوب" من أشهر رحلاته الرسمية الداخلية، التي قادته نحو الجنوب الصحراوي الجزائري بغرض إخضاع هذه المنطقة للسلطة المركزية..، حيث بادر بإخضاع القبائل المتمردة على الحكم التركي، مثل قبيلة "أولاد علي بنطلحة"، وقبيلة "الحشم"، وقبائل "فليتة" و"حميان" وقبائل "بني راشد"..، والقبائل الحدودية مع "المغرب" التي كانت تحترف اللصوصية وقطع الطريق على المسافرين، ومن أهم غزواته التي قام بها هي غزوته نحو الجنوب الصحراوي الجزائري، التي جهز لها جيشا عظيما ونزح به من "معسكر" مرورا بجبل "عمور" و"البيضاء" و"آفلو" و"الطويلة" إلى أن وصل "الأغواط"، ودخلها بقوة هائلة ونشاط متزايد، فانقادت له جميع القبائل المجاورة، بما فيها "مزاب" واعترفوا كلهم بدولة الأتراك في القطر الجزائري، ورضوا أن يؤدوا لها الضرائب السنوية، وقد كانت هذه الغزوة أو الرحلة عام 1199هـ[1].

ولمحمد الكبير رحلة أخربقيّدها "مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن الدحاوي بن محمد" المشهور بـ"ابن زرفة" وتسمى:**"الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"**،وهي في سيرة الباي محمد الكبير وجهاده[2]، فقد كان "ابن زرفة" مقربا من الباي محمد الكبير، فرافقه في رحلته لتحرير "وهران" مما جعله شاهدا على العصر عموما والفتح على وجه الخصوص، فألف هذه الرحلة رغبة منه في تخليد مآثر هذا الباي[3]. فالواضح أن الباي محمد الكبير كان يحب التفاخر بنفسه لذلك كان يطلب من كتابه التأليف عنه لتخليد اسمه.

الفرع الثالث: رحلة ابن الدين الأغواطي إلى الصحراء

لم تقتصر هذه الرحلة على الصحراء الجزائرية فحسب بل تعدت ذلك إلى "ليبيا" و"الدرعية"، لكن أغلب الحديث كان عن مدن الصحراء الجزائرية لذلك اخترتها لتكون ضمن الرحلات المحلية.

---

[1] ابن هطال، رحلة الباي، ص19، وينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص 243.

[2] سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 2/ 341.

[3] ينظر: حسيني، المرجع السابق، ص279.

أولا: التعريف بالرحالة ابن الدين الأغواطي

هو الحاج ابن الدين الأغواطي، وحسب سعد الله لم يكن ابن الدين معروفا على مستوى "الجزائر" في وقته، وهذا الاسم "ابن الدين" كان موجودا في المناطق التلية، وعائلة"ابن الدين" مازالت موجودة ، وقد كان الحاج ابن الدين معروفا في وقته عند أهل بلدته أنه كتب عملا استحوذ عليه الفرنسيون، فقد كان قليل التعلم كثير الاطلاع، ومن المستمعين الذين يعرفون ولا يدققون، يلمّون ولا يتخصصون، أما كثرة اطلاعه فتدل عليها خبرته بالمناطق التي وصفها[1].

ثانيا: التعريف بالمترجم "هودسون"

جاء "هودسون" إلى "الجزائر" سنة 1825م لكي يساعد "شيلر" في مهمته كقنصل عام لبلاده في "الجزائر" التي بقي بها إلى سنة 1829م، وأثناء هذه الفترة تعرف على الحاج ابن الدين، وكان "هودسون" من أوائل المستشرقين الذين اهتموا بجمع المعلومات عن البربرية(إذ كانت له خبرة باللغات الشرقية)، فطلب من الأغواطي كتابة هذه الرحلة وعن ذلك يقول: **"لقد أعددت ترجمة لرحلة قصيرة في شمال إفريقيا، قام بها الحاج ابن الدين الأغواطي، وهذه الرحلة كتبها صاحبها بطلب مني وقد دفعت له الثمن..."**[2].

ثالثا: التعريف برحلة ابن الدين الأغواطي إلى الصحراء

هذه الرحلة هامة جدا كنص تاريخي، فهي تحتوي على معلومات اجتماعية واقتصادية وجغرافية أنثروبولوجية ولغوية عن المناطق التي تحدث عنها، وقد ذكر هودسون أن هذه الرحلة تحتوي على معلومات لم يسبق للأوربيين أن عرفوها[3].

رابعا: وصف رحلة ابن الدين الأغواطي

أ_ وصف الرحلة المخطوطة:

هي رحلة مكتوبة سنة 1242هـ، وقد كتبها الحاج ابن الدين الأغواطي بطلب من مساعد قنصل "أمريكا" بـ"الجزائر" عندئذ "وليام هودسون"، وهي تقع في كراسة تحتوي على أربع

---

(1) ابن الدين الأغواطي، رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين في شمال إفريقيا والسودان والدرعية، تر وتح: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط خ، 2011م، ص80.

(2) المصدر نفسه، ص85.

(3) المصدر نفسه، ص87.

عشرة صفحة، وكان القنصل قد طلب منه المزيد والتفصيل ولكن ابن الدين اكتفى بذلك القدر، وقد ترجم القنصل هذه الصفحات إلى الإنجليزية ونشرها..، وأهم المناطق التي ذكرها ابن الدين في رحلته: "الأغواط"، و"تاقدامت"، و"عين ماضي" وغيرها، وقد استفاد الأوربيون والأمريكيون أثناء اهتمامهم بالصحراء ومحاولة اكتشافها من هذه المعلومات التي كتبها الحاج ابن الدين عن قراها وعادات أهلها ومسالكها، ولكن الرحلة الموجودة الآن غير كاملة[1].

ب_ وصف رحلة السفر

بالرغم من أن رحلة سفر ابن الدين الأغواطي هذه كانت نحو المشرق من أجل أداء فريضة الحج، لكن لبّ كلامه كان عن الصحراء الجزائرية، فقد زار مختلف المدن الصحراوية، كـ"الأغواط"، و"عين ماضي"، و"جبل عمور"، و"ميتليلي"، و"وادي ميزاب"، و"القليع"ة، و"تقرت" و"ورقلة" و"توات" و"تيميمون"، و"عين صالح"..، ونقل أخبارا هامّة عن قراها ومدنها وعادات أهلها[2].

وبالإضافة إلى هذه الرحلات التي كانت في ربوع "الجزائر" توجد عدة رحلات أخرى تعتبر مفقودة، كرحلة عبد القادر بن عبد الله المشرفي **"بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر"**. ورحلة عبد الرحمن بن خروب المجاجي وغيرهما.

المطلب الثاني: رحلات مغربية إلى الجزائر

لم تكن الرحلات المغربية المختارة في هذا المطلب قصدها التوجه إلى "الجزائر" بالأساس عدا رحلة ابن زاكور، بقدر ما كان غرضها الغالب طلب العلم، ولذلك أدخلناها تحت هذا المطلب لمرور أصحابها بـ"الجزائر"، وإطالة الإقامة بها من أجل طلب العلم أو غرض آخر، وهذه الرحلات بالإضافة إلى رحلة ابن زاكور، رحلة كل من: الزياني والحضيكي، وستكون موزعة على ثلاثة فروع متوالية.

---

[1] الأغواطي، الرحلة، ص86، 87.

[2] ينظر: عبد الجليل شقرون، نحلة البيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار أبي العباس سيدي أحمد، دراسة وتحقيق، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في تحقيق المخطوطات، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تخصص تحقيق المخطوطات، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان_ الجزائر، 2017م، ص32.

الفرع الأول: رحلة ابن زاكور "نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان"

ورحلة ابن زاكور هاته عبارة عن رحلة علمية بامتياز ويظهر ذلك جليا من عنوانها.

أولا: التعريف بالرحالة ابن زاكور

هو أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور الفاسي[1]، نسبة إلى مدينة "فاس" من عائلة ابن زاكور الشهيرة بـ"فاس"[2]، وبيت أولاد ابن زاكور الفاسيين بيتهم معروف بفاس تقدم فيهم العلماء والعدول وأهل الثروة وغيرهم وهم فرق كثيرة[3]، ولد ابن زاكور بفاس في سنة غير معلومة من بداية الربع الأخير من القرن الحادي عشر الهجري (11هـ)، وقد رجح الأستاذ عبد الله كنون أن ميلاد ابن زاكور تقريبا سنة 1076هـ/ 1665م[4]، وقد اهتمت أسرته بتربيته وتعليمه مند نعومة أظافره، ويبدو أن قدراته العقلية الممتازة وذكاءه المفرط قد ساعداه على حفظ القرآن وبعض المتون العلمية الضرورية: كـ"ألفية ابن مالك"، و"الآجرومية"، و"منظومة ابن عاشور"، و"رسالة القيرواني" وغيرها في سن مبكرة، الشيء الذي أهّله لحضور مجالس بعض الشيوخ الكبار بمدينة "فاس"[5] منهم: الشيخ "عبد القادر الفاسي"، العلامة "أحمد بن الحاج الكبير"، و"عبد السلام القادري"، و"أبو علي الحسن اليوسي" (الأيوسي)، وغيرهم [6]، كما أخذبـ"تطوان" عن علّامتها الكبير ورجلها الفذالشيخ "علي بركة" (بركات)[7]، كمازارالجزائر وأخذ عن علمائها أمثال: المفتي الشيخ "محمد بن سعيد قدورة"، والشيخ "عمر المانجلاتي"، و"محمد بن

---

(1) عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط2، د.م، 313/1.

(2) ينظر: كنون، ذكريات، م6/2.

(3) عبد الكبير بن هاشم الكتاني، زهر الآس في بيوتات أهل فاس، تح: علي بن المنتصر الكتاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2002م ، 459/1.

(4) ينظر: عبد الله كنون، ذكريات، م2/ 6.

(5) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص17.

(6) المصدر نفسه، ص 14. وينظر: كنون، النبوغ المغربي، 313/1.

(7) كنون، ذكريات، م6/2.

عبد المؤمن الشريف" وغيرهم[1]، فكانت رحلاته من العوامل القويّة في تكوين شخصيته وتكميل نفسه[2].

توفي ابن زاكور بفاس في 20 محرم سنة 1120هـ/1708م [3]، وترك وراءه آثارا علمية قيّمة في شتّى الميادين، وخاصة الأدبية منها، فقد كان أديبا وكاتبا وشاعرا ولغويا من أشهر مؤلفي الآداب العربية من المغاربة، ومن مؤلفاته في الأدب واللغة: "الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض"، و"الحسام المسلول في قصر المفعول على الفاعل والفاعل على المفعول"، و"أنفع المسائل في أبلغ الخطب وأبدع الوسائل"،و"النفحات الأرجيةوالسماتالبنفسجية بنشر ماراق من مقاصد الخزرجية"[4]، وله مؤلفات كثيرة أخرى ضمنها التاريخ والتراجم منها: "الاستشفاء من الألم في التلذذ بذكر صاحب العلم"، و"المعرب المبين عمّا تضمنه الأنيس المطرب وروضة النسرين"، و"نشرأزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان"[5]، وهي الرحلة المعنية بالدراسة.

ثانيا: التعريف برحلة ابن زاكور

رحلة ابن زاكور الفاسي تحمل عنوان " **نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان**"، تحتوى هذه الرحلة على ما يجعلها تنتمي أدبيا إلى ما يسمى بـ"فهرسة الرحلة"، سجّل المؤلف ما رآه أثناء الرحلة وثبّت فيها أسماء الشيوخ الذين لقيهم وما استفاده في مجالسهم من علوم ومرويات ونصوص وإجازات مع وصف جغرافي وتاريخي للمناطق التي مرّ بها[6]، وبذلك يمكن تقسيمها من حيث المحتوى إلى قسمين: القسم الأول خاص بـ"الجزائر" والقسم الثاني خاص بالحديث عن "تطوان"[7].

---

[1] ينظر: كنون، ذكريات، م6/2. وبلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص19.

[2] كنون، المرجع السابق، م8/2، 9.

[3] ينظر: كنون، النبوغ المغربي، 313/1. وبلحميسي، المرجع السابق، ص19.

[4] ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص 25، 26.

[5] المصدر نفسه، ص25.

[6] ينظر: المصدر نفسه، ص28، 29.

[7] ينظر: بلحميسي، المرجع السابق، ص20.

ثالثا: وصف رحلة ابن زاكور

أ_ وصف الرحلة المخطوطة

رحلة ابن زاكور "نشر أزاهير البستان" رحلة قصيرة، بقيت مجهولة مدة طويلة إلى أن طبعت على الحروف بـ"الجزائر" سنة1319هـ/ 1902م لأول مرة بمطبعة "بيير فونتانة"، وتقع في نحو ستة ملازم[1]، في تسعة وستين (69) صفحة مع مقدمة في ثلاث صفحات خصصت لترجمة المؤلف ابن زاكور، كما طبعت بـ"الرباط" سنة 1967م على يد "عبد الوهاب بن منصور"، وهذه الطبعة مطابقة لطبعة "الجزائر" دون تحليل أو تعليق أو فهرسة مع تقديم جد مختصر.

وقد قام الأستاذ بلحميسي سنة 1981م بطبع نصف الكتاب، أي الجزء الخاص بـ"الجزائر" فقط[2].

ب_ وصف رحلة السفر:

كانت رحلات ابن زاكور بين "تطوان" و"الجزائر" و"مراكش"، إذ تكررت رحلاته إلى "تطوان"، فكانت الأولى عام 1092هـ، ثم رحل إليها سنة 1093هـ، ومنه رحل إلى "الجزائر" في السنة نفسها 1093هـ، وبقي بها إلى رجب من عام 1094هـ، ثم عاد إلى "تطوان" وكان بها في شعبان من العام نفسه، وقد حبب إليه الارتحال بعد ذلك وسهل عليه الانتقال فصار جوّابة أقطار وحلف أسفار، وأكثر ما كان يشهد الرحلة لزيارة أضرحة الصالحين ومشاهد العارفين[3]، فلم يكتف بالرحلة إلى "تطوان" و"الجزائر"، فزار "مراكش" و"سلا" و"العرائشّ و"زرهون" و"مكناس" وغيرها من المدن المغربية[4]، فكانت هذه الرحلات من العوامل القوية في تكوين شخصيته، وتكميل نفسه بما لم يكن له لو اقتصر على الأخذ ببلده ولزم كسر بيته كما كان يفعل كثير من طلبة العلم في زمنه[5].

---

[1] عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت_ لبنان، ط1، 1997م، ص193. وينظر: بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص19.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص29.

[3] كنون، ذكريات، 7/1، 8.

[4] ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص 19.

[5] ينظر: كنون، المرجع السابق، م8/2.

ورحلة ابن زاكور هي الرحلة المغربية الوحيدة من ضمن النماذج المختارة التي كانت وجهتها "الجزائر" ثم الرجوع إلى "المغرب".

الفرع الثاني: رحلة الزياني "الترجمانة الكبرى"

أدرجت رحلة الزياني ضمن الرحلات المغربية إلى "الجزائر" على اعتبار أن الزياني مرّ بالجزائر وأطال الإقامة بها ذهابا وإيابا، وإلا فإن وجهته كانت نحو المشرق.

أولا: التعريف بالرحالة "أبو القاسم الزياني"

هو أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني الفاسي[1]، ينتمي إلى قبيلة "زيّان" البربرية الشهيرة بجبال "فازاز" (الأطلس المتوسط)[2]، كان مقرّ جدّه بقرية "آركو" قرب "آدخسان"، ثمّ نقله السلطان "مولاي إسماعيل" إلى حاضرة "مكناس"، ولما توفي (جده) انتقل والده "أحمد" إلى "فاس" سنة 1139م عند وفاة السلطان مولاي إسماعيل فاستوطن بها[3]، ولد أبو القاسم الزياني بمدينة "فاس" عام 1147هـ/ 1734م، ونشأ في حجر والده وقرأ القرآن، واشتغل بطلب العلم على كبار مشايخها، فأخذ عنهم الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق منهم: "أحمد بن الطاهر الشرقي"، و"محمد بن الطيب القادري"، و"عبد القادر بوخريص"، و"عمر الفاسي"، و"محمد البناني"، وغيرهم[4]، وأما علم الجدول وغيره من العلوم السريّة*فأخذها عن والده، وأمّا عن علم التاريخ والنسب والجغرافية فقد ورثها عن جده "علي بن إبراهيم" الذي كان نسابة إخباريا[5].

تاقت نفس الزياني إلى الجولان في الأرض للاستزادة من المعرفة وتلقي العلم عن غير شيوخ بلده، فسافر مع أسرته إلى "الحجاز" عام 1163هـ، ثم عاد إلى "مصر" بقصد التجارة..، فأخذ فيها علم الرمل والسيمياء عن "ابن الصاحب"[6]، ثم عاد إلى المغرب

---

(1) كنون، النبوغ المغربي، 297/1.

(2) عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط، د.ط، 1979م، 2/ 157.

(3) كنون، ذكريات، م1/ 624.

(4) المرجع نفسه، م624/1.

* العلوم السريّة: كالسحر والشعوذة.

(5) كنون، المرجع السابق، م624/1.

(6) أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا..، تح: عبد الكريم الفيلالي، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، ط 1991م، ص59.

والتحق بخدمة السلطان، كما زار "الجزائر" وأخذ عن علمائها، ثم توجه إلى الحجاز بقصد الحج، ثم دخل مصر مرة أخرى وأخيرا عاد إلى "المغرب" فألحقه السلطان بالخدمة، ثم عزله من جميع الوظائف التي كان يتقلدها مدة من السنين، وبعد وفاة ابنه عام 1233هـ عزم على الرحيل وعكف على العبادة والتأليف يملأ بهما أوقاته إلى أن وافاه أجله[1].

توفي الزياني في رجب 1249هـ/ نوفمبر 1833م[2] وترك عدة مؤلفات من أشهرها: "الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب"، و"البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف"، و"رسالة السلوك فيما يجب على الملوك"، ورحلته "الترجمانة الكبرى"[3]التي بن أيدينا.

ثانيا: التعريف برحلة أبي القاسم الزياني

تقع رحلة الزياني تحت اسم: "**الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم برا وبحرا وما تخللها من الأمصار والمدن والقرى والقفار والبحر والجبال والأنهار والعيون والمعادن والآبار وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات والأحجار وما يريد ذاك في تفسير الآثار ونوازل الفقه ولغة العرب وشواهد الأشعار**"، وهي رحلة إلى مختلف البلدان الإسلامية، وفهرسة ومختصر جغرافيا، وموسوعة صغيرة ضمت أخبارا عديدة في مختلف الفنون والمواضيع[4]، وقد كتبها الزياني بطلب من السلطان العلوي "المولى سليمان"، فأهداها إليه عند الفراغ من كتابتها[5]، وقد تضمنت الرحلة في ثناياها أخبارا هامّة عن "الجزائر"، التي زارها في فترة تخلصت فيها البلاد من الوجود الإسباني واكتملت أجزاءها، وأصبحت "وهران" بايلك الغرب، وقد نزل الرحالة "وهران"، ثم "تلمسان" ومكث بها مدة خالط أهلها، ثم انتقل إلى "الجزائر العاصمة" وبقي بها إلى أن رحل إلى "قسنطينة"، ثم

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص159، 160.

(2) بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص21.

(3)ابن منصور، أعلام المغرب، 161/2، 162 .

(4) بلحميسي، المرجع السابق، ص22.

(5) ينظر: الزياني، المصدر السابق، ص1، 2.

إلى"تونس"، وفي طريق العودة مر بنفس المدن وأقام بها، فكانت لرحلته فوائد إخبارية متنوعة ومتعددة عن "الجزائر"[1]. ولهذا السبب أدخلتها ضمن الرحلات إلى "الجزائر".

ثالثا: وصف رحلة الزياني

أ_ وصف الرحلة المخطوطة

هذه الرحلة قام بتحقيقها "عبد الكريم الفلالي"،الذي ذكر أن" النسخة التي طبعت عنها هذه الطبعة هي أصح وأسلم نسخة إطلاقا، وهي التي كتبت بخط العالم الأديب الوزير الصدر "محمد بن إدريس العمراوي" الذي بدأ حياته العلمية ناسخ كتب مع أبي القاسم الزياني، فهي من النسخ التي راجعها المؤلف، والتي كان الفراغ من كتابتها، في متمم ذي الحجة 1233هـ، والمؤلف توفي سنة 1249هـ، أما النسخ التي نسخت بعد وفاة المؤلف فحصلت فيها بعض الزيادات[2].

ب_ وصف رحلة السفر

لمّا أتم أبو القاسم الزياني دراسته ببلده، تاقت نفسه إلى الجولان في الأرض للاستزادة من المعرفة وتلقي العلم عن غير شيوخ بلده، وقد أتيحت له الفرصة عندما قرر والده الهجرة من "المغرب"[3]، لما توالت الفتن عليه منذ وفاة السلطان "إسماعيل"، واضطراب حبل الأمن وعدم استقرار الأحوال على ما عهد من قبل، ما جعل والد الزياني يفكر في الرحلة إلى "المدينة المنورة" والاستقرار بها نهائيا[4]، فسافر مع أسرته إلى "الحجاز" عام 1163هـ، ثم عاد إلى "مصر" بقصد التجارة، ولما كانوا بها بلغهم خبر وفاة السلطان السابق عام 1171هـ، وخلفه ابنه " محمد بن عبد الله" الذي كان مشهورا بالحزم، ومحببا إلى الرعية والجند، فعادوا إلى "المغرب" عن طريق "إيطاليا" و"فرنسا" و"البرتغال"، ولم يستفد الزياني في هذه الرحلة علما إلا توسيع آفاق معرفته من علم الرمل والسيمياء ومسائل الشعوذة والسحر، ولما استقر بـ"فاس" التحق بخدمة السلطان، فعين كاتبا بالقصر وأصبح بذلك معدودا من رجال الدولة..، وفي سنة 1200هـ أرسله السلطان "محمد" سفيرا

---

(1) ينظر: بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص35.

(2) ينظر: الزياني، الترجمانة، ص8.

(3) ابن منصور، أعلام المغرب، 158/2.

(4) ينظر: كنون، ذكريات، 627/1.

إلى السلطان العثماني "عبد الحميد الأول" بـ"الأستانة"[1]، وبعد وفاة سلطانه"محمد" عام 1204هـ رحل إلى "وهران" بعد أن تخلّى عن خدمة السلطان، ثم منها إلى "تلمسان" فاعتكف بقرية "العباد" سنة ونصفا على العبادة والمطالعة والتأليف، ثم تجدّد عنده باعث السفر والرحلة فذهب إلى "وهران" و"الجزائر" و"قسنطينة" و"تونس"، وفي جمادى الأولى عام 1208هـ ركب البحر متوجها إلى "الأستانة"، ثم منها توجه إلى "الحجاز" بقصد الحج، ثم دخل "مصر" مرة أخرى واجتمع فيها بعدّة علماء أمثال: "سليمان الفيومي" و"عبد الرحمن الجبرتي" و"إسماعيل العباسي"، وأخيرا عاد إلى المغرب فألحقه السلطان بالخدمة، ثمّ عزله من جميع الوظائف التي كان يتقلدها مدة من السنين، وبعد وفاة ابنه عام 1233هـ ازداد حزنه وأسفه فعزم على الرحيل إلى المشرق، لكنه تراجع، وعكف على العبادة والتأليف يملأ بهما أوقاته إلى أن وافاه أجله[2].

ورحلة الزياني هذه كانت رحلة ذات أغراض متعددة، فهي سياسية دينية وعلمية أيضا.

الفرع الثالث: رحلة الحضيكي "الرحلة الحجازية"

وهذه الرحلة مثل سابقتها لم تكن "الجزائر" وجهتها المقصودة وإنّما كانت من محطاتها العلمية والزيارية، فوجهتها الأساسية كانت أرض "الحجاز"، وهدفها الحج.

أولا: التعريف بالرحالة الحضيكي

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الجزولي الحضيكي شهرة، ولد عام 1118هـ، في مدشر "ترسواطّ في قبيلة "أمانوز" بـ"سوس" جنوب "المغرب"، ونشأ في أحضان أسرته، فتلقى مبادئ التربية الدينية على والده، وحفظ القرآن ببلدته[3]، ولمّا اشتدّ عوده تجول في المغرب للأخذ والتلقي عن فطاحل علماء زمانه في الأقطار السوسية، وطاف على علماء "ولتيتة،" و"درعة" وغيرهما[4]، فأخذ عن عدة شيوخ منهم: "أبو العباس أحمد بن عبد الله

---

(1) ينظر: ابن منصور، أعلام المغرب، 158/2.

(2) ينظر: المرجع نفسه، 159/2، 160.

(3) أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي السوسي، الرحلة الحجازية، تع: عبد العالي المدبر، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث – الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، ط1، 2011م، ص 13، 14.

(4) ينظر: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982م، 351/1، والجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، المغرب، معلمة المغرب، د.ط، د.ت، 10/ 222.

الصوابي"، و"عبد الله بن إبراهيم الرسموكي"، و"أبو عبد الله محمد بن عبد الله الدرعي" وغيرهم، ولمّا تضلّع في العلوم ارتحل إلى المشرق، فأخذ عن علماء "الحرمين" و"اليمن" و"الهند" و"الشام" و"مصر"[1]، وخلال هذه الرحلة جمع العديد من الكتب النفيسة، ورجع إلى بلده، وبنى المدرسة الفلالية بـ"وادي إسي"، واشتغل بنشر العلم[2].

توفي أبو عبد الله الحضيكي يوم السبت 19 رجب عام 1189هـ/ 15 سبتمبر عام 1775م[3].

ترك الحضيكي عدّة مؤلفات في علوم مختلفة منها: "شرح الرسالة القيروانية"، و"مصابيح الإصابة في تعريف الصحابة"، و"حاشية في صحيح البخاري"، و"شرح الطرفة في اصطلاح الحديث"، و"الرحلة الحجازية" التي تعتبر من أجمل مؤلفاته[4]، وهي المعنية بالدراسة.

ثانيا: التعريف برحلة الحضيكي

تعدّ رحلة الحضيكي من أهم الرحلات الحجازية العلمية التي جمع فيها صاحبها بين طلب العلم وأداء فريضة الحج، فرسم بذلك ملامح من حياته العلمية، معرفا بشيوخه الذين مرّ على مجالسهم في طريقه إلى "الحجاز"، وما تلقّاه عنهم من فوائد وإجازات، كما قدّم جملة من الأخبار في جوانب معرفية مختلفة جغرافية وتاريخية وقضايا فقهية وبعض الظواهر الاقتصادية والاجتماعية، فتحدث عن التركيبة السكانية لعدد من البلدان، وذكر قبائلها وعاداتها الاجتماعية، ووصف الكثير من المواضع والبقاع والمزارات التي شاهدها وصفا دقيقا[5].

---

(1) ينظر: الحضيكي، الرحلة الحجازية، نقلا عن: محمد المختار السوسي، المعسول، د.م، 3/ 321.

(2) الحضيكي، المصر السابق، ص14. من مقدمة المحقق.

(3) المصدر نفسه ، ص37.

(4) المصدر نفسه، ص31- 35.

(5) ينظر: المصدر نفسه، ص6، 7، 38.

ثالثا: وصف رحلة الحضيكي

أ_ وصف الرحلة المخطوطة

توجد رحلة الحضيكي مخطوطة في عدة نسخ بكل من: الخزانة الملكية والخزانة الوطنية بـ"الرباط"، وفي مكتبات الخواص من علماء "سوس"، وهناك نسخة من هذه الرحلة في الخزانة العامة تحت رقم 986د ضمن مجموع، ونسختان بالخزانة الملكية بـ"الرباط" تحت رقم 405 و3822ز، ونسخة عند "حسن البونعماني" أحد شعراء "سوس"، ونسخة عند أولاد "المكي اليزيدي الأيسي"، وهي مبتورة[1]...

وقد اعتمد محقق الرحلة على نسختين مخطوطتين في الخزانة الحسنية بالقصر الملكي بـ"الرباط":

_**النسخة الأولى:** تحت رقم 405، وهي نسخة تامة مكتوبة على ورق عتيق بخط مغربي مبسوط دقيق واضح ومقروء، بعضه مشكول وملون بالأحمر(عند كتابة أسماء الأعلام والأماكن)..، تسفيرها أصلي بجلد أحمر، وهي تضم: 27 ورقة، بمقياس: 22× 17 سم، مسطرة: 27 سطر، وقد فرغ من نسخها يوم الأحد 13 جمادى الأولى عام 1278هـ، دون ذكر اسم الناسخ[2].

_ **النسخة الثانية:** تحمل رقم 12373، ضمن مجموع، وهي كاملة وجيدة ومصححة، كتبت بخط مغربي لا بأس به بمداد أسود بين المبسوط والمجوهر، بعضه مشكول، وتضم: 32 ورقة، من 65 إلى 127، بمقياس: 23× 18 سم، مسطرة 26 سطرا، وتتشابه مع النسخة الأولى في بدايتها ونهايتها، تم الفراغ من نسخها يوم 15 شوال عام 1352هـ/ 26 يناير 1934م، دون ذكر اسم الناسخ أيضا[3].

ب_ وصف رحلة السفر

امتزجت رحلة الحضيكي بين طلب العلم وأداء فريضة الحج، فقد بدأت رحلته في بلده "المغرب"، حيث تجول في مختلف مدنها طالبا للعلم من فطاحل علمائها، فتجول في "سوس"، و"ولتيتة" و"درعة"، وغيرها، ثم ارتحل إلى المشرق فحج سنة وزار مختلف البلدان

---

[1] ينظر: ماكامان، الرحلات المغربية، ص235.

[2] الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص45.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص45، 46.

العربية والإسلامية منها: الحرمين "مك"ة و"المدينة"، كما زار "اليمن" و"الهند"، و"الشام"، و"مصر" ثم رجع إلى بلاده بعد أن أخذ عن علماء هذه البلدان، فعاد محملا بنفائس الكتب التي أسّس بها مكتبته العلمية التي أصبحت من أشهر مكتبات المنطقة، والتي احتوت على رصيد مهم من المخطوطات يقدر بالمئات[1].

كانت الرحلات المغربية التي تمر بـ"الجزائر"، سواء حجازية أو علمية وحتى السفارية تتخذ من مدن "الجزائر" محطات رئيسية للعبور والإقامة بها لأوقات متفاوتة لقضاء المآرب.

المطلب الثالث: رحلات جزائرية إلى المغرب

تناول هذا المطلب أهم الرحلات الجزائرية في الفترة العثمانية التي كان اتجاهها نحو المغرب الأقصى من أجل طلب العلم أساسا، أو لغرض آخر كالتجارة، وقد اخترت ثلاث رحلات كنماذج وهي رحلات كل من: عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، وأبو حفص عمر الأكبر التنلاني التواتي، ومحمد أبوراس المعسكري، وكل ذلك تضمنته الفروع الثلاثة على التوالي.

الفرع الأول: رحلة ابن حمادوش "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"

تعتبر رحلة ابن حمادوش هذه عن رحلة مبتورة مفقودة الجزء الأول، والجزء الثاني هو الموجود وهو الخاص بالرحلته إلى المغرب، التي كانت غرضها التجارة.

أولا: التعريف بالرحالة ابن حمادوش الجزائري

هو عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش أبو محمد الجزائري[2]، ولد سنة(1107هـ/ 1695م) في مدينة الجزائر، ومن ثمة نسبه إليها "الجزائري"، نشأ في مدينة "الجزائر" وتعلم بها العلوم الشائعة عندئذ، وكان من أسرة متوسطة الحال تلقب بأسرة الدبّاغ، وقد عاش حياة مليئة بالفقر والضيق ولم يستطع أن يشق طريقه إلى النزوة والجاه كما كان يفعل المتصلون

(1) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص14، 15.

(2) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت_ لبنان، ط2، 1980م، ص366.

بالولاة وأرباب السلطة من العلماء، وقد حاول الجمع بين العلم والتجارة فلم يحالفه النجاح لأنه كان لا يفارق الكتب[1].

تثقف ابن حمادوش على شيوخ بلاده أمثال: المفتي "أحمد بن نيكرو"، والقاضي "مصطفى بن رمضان العنابي"، والقاضي الأديب "محمد بن ميمون" وغيرهم، بالإضافة إلى علماء "المغرب" و"تونس" والمشرق خلال رحلاته، كما قرأ عددا كبيرا من الكتب في مختلف العلوم والفنون، وبذلك يكون قد تعلم عن طريق الدرس والإجازة والرحلة، وقد صرح أن كل العلوم تلقاها بالدرس إلا الكيمياء والسيمياء والموسيقى فقد أخذها بالإجازة، وقد تنقل ابن حمادوش بين "المغرب" و"تونس" و"مصر" و"الحجاز"، ولا يعرف ما إذا كان قد عاد إلى بلاده أو ظل خارجها إلى وفاته[2].

وتاريخ وفاته يبقى مجهولا، وحسب بعض الباحثين أنه تجاوز التسعين، كما أن الغالب على الظن أن الوفاة قد أدركته بالمشرق بين 1197 و1200هـ، ولا يعرف إلى الآن متى وأين توفي ابن حمادوش.

ترك ابن حمادوش الكثير من المؤلفات، فرغم أنّه تثقف ثقافة معاصريه من: لغة وفقه وأدب وتصوف وتوحيد، لكنه كان ميالا إلى الكتب العلمية (كالطب والفلك...)، ومن مؤلفاته العلمية: "الجوهر المكنون من بحر القانون" في الطب، ورسالة سماها "تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج" وهي في أمراض وعلاج الأعضاء التناسلية ونحوها، كما ألف في "علم الفلك" عدة رسائل وكتب لكنه لم يذكر لها عناوين منها: تأليف جمع فيه التواريخ السبعة التي يعرفها، تأليف في الإسطرلاب والربع المقنطر..، كما ألف في الأدب والرحلة والمنطق والنحو والشعر لكن معظمها غير معروفة وهي في حكم الضائعة[3].

---

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت_ لبنان، ط1، 1998م، 425/2. وأبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر، الجزائر، ط خ، 2007م، 223/1.

[2] المرجع نفسه، 431/1.

[3] المرجع نفسه، 425/2.

ثانيا: التعريف برحلة ابن حمادوش

عاش ابن حمادوش في القرن الثاني عشر الهجري (18م)، هذا القرن الذي عرف تحولات كثيرة داخل "الجزائر" وخارجها فكان شاهدا عليها وسجل آثارها في رحلته[1] التي احتوت على مادة علمية تخص "المغرب"، إذ وصف الحياة العلمية وجوانب من الحياة السياسية والاقتصادية في "المغرب"، والكتاب الذي يحمل عبارة الجزء الثاني ليس كله خاص بـ"المغرب"، إذ فيه أخبار عن "تونس" و"الجزائر" وغيرهما ولكن جانب الرحلة منه يتعلق بـ"المغرب"[2]، بالإضافة إلى وجود أخبار متفرقة عن "الجزائر"، ضمن قصص واستطرادات، وهو عبارة عن مذكرات وحوادث يومية عن قراءاته وملاحظاته ونشاطه، وهو المعني بالدراسة.

بالإضافة إلى أن الرحلة تتضمن نقولا كثيرة من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين، منها: "صحيح البخاري"، و"الاكتفاء لابن الكردبوس"، و"تاريخ الدول للملطي"، و"أنس الجليل للعليمي"، وعقود النكاح التي كتبها شخصيا أو علماء "الجزائر"[2].

ثالثا: وصف رحلة ابن حمادوش

أ_ وصف الرحلة المخطوطة

يذكر "سعد الله" أنّه تحصل على نسخة مصورة من رحلة ابن حمادوش من طرف صديق مغربي، كما أنّه اطّلع على النسخة الأصلية في الخزانة العامة بـ"الرباط" خلال رحلته إلى "المغرب" في صيف 1973م، وقد وصفها كما يلي:

_ تقع مخطوطة الرحلة في (387) صفحة من حجم المتوسط ومسطرتها (16 × 12)، وتحتوي كل صفحة على حوالي (22) سطرا، وتنتهي عبارة ابن حمادوش عند الصفحة (226)، وهي مبتورة الآخر، كما تدل افتتاحية الصفحة الأولى على أن المخطوطة تمثل بداية الجزء الثاني، فهي تبدأ بعد الحمدلة والبسملة والتصلية، ثم يذكر المؤلف الجزء الثاني من رحلته، وأما العنوان فلم يرد في المتن وإنما أضيف في الحاشية "لسان المقال

---

(1) ينظر: أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري حياته وآثاره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2005م، ص13.

(2) سعد الله، أبحاث وآراء، 1/ 232.

في النبأ عن النسب والحسب والآل"، وبداية تاريخ هذا الجزء هو غرة عام 1156هـ الموافق لـ 14 فبراير 1743م، وهو تاريخ بداية رحلته إلى "المغرب"[1].

_ الرحلة مكتوبة بخطّ واضح وحبر أسود باستثناء بعض العناوين والأسماء فإنها كتبت بالحبر الأحمر، وهي مكتوبة بأسلوب بسيط غير مسجوع ماعدا المقامات، وقد رتّبها المؤلف على السنوات والشهور والأيام إلا بعض الأيام والشهور التي هي في شكل مذكرات، كان المؤلف يسجل فيها الأحداث والمشاهدات بصيغة الماضي.

_ والرحلة ما تزال بخط مؤلفها وما تزال على شكل مسودة، وتوجد عليها عدة تعاليق تدل أن المخطوطة كانت في "الجزائر" قبل انتقالها إلى "المغرب"، إذ يوجد على صفحتها الأولى اسم مالكها الأول، وهو السيد "الحاج علي بن الحاج السعيد"، وهو غير معروف[2].

ب_ وصف رحلة السفر

تجوّل ابن حمادوش في العالم الإسلامي من "تطوان" إلى "الحجاز"، فقد بدأ الرحلة في سنّ مبكرة، إذ حجّ سنة 1130هبرا عبر "تونس"، ولا تعرف مدّة بقائهبالمشرق في تلك المرة، ولا من لاقى من العلماء، في "تونس" و"طرابلس" و"مصر" و"الحرمين" نظرا لفقدان الجزء الأول من الرحلة، أما في الجزء الثاني فجاء أنّه كان في "المغرب الأقصى" سنة 1145هـ، كما يبدو أنه كان يتردد على "المغرب" للتجارة والعلم؛ فقد كان متواجدا هناك أيضا سنة 1156هـ، حيث أطال فيه الإقامة ووصف نشاطه هناك[3]، وبعد أكثر من عام عاد إلى وطنه وقد اكتسب علما غزيرا ولكن تجارته كسدت وأوشك على الهلاك[4]، أما تجواله في الأقطار الإسلامية الأخرى فلا يعرف عنها إلا إشارات طفيفة في رحلته، فقد جاء في رحلته أنه كان بـ"تونس" حاجا عام 1130هـ/ 1718م، كما وجد بعض الباحثين

---

[1] سعد الله، أبحاث وآراء، 1/ 229.

[2] المرجع نفسه، 230/1.

[3] سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 426/2.

[4] المرجع نفسه، 427/2.

أنه كان في مدينة "رشيد" بـ"مصر" سنة 1161هـ/ 1748م، كما أخبر في رحلته أنه زار بلاد العرب والعجم والترك دون تحديد الزمان[1].

وتبقى المعلومات الخاصة برحلاته الأخرى نحو المشرق مجهولة لفقدان الجزء الأول من الرحلة.

الفرع الثاني: رحلة عمر الأكبر التنلاني التواتي الجزائري إلى فاس

إذا كان ابن حمادوش زار المشرق قبل "المغرب" والجزء الخاص بالمشرق مفقود فإن هناك رحالة جزائري آخر كانت وجهة رحلته المغرب فحسب ألا وهو عمر الأكبر التنلاني.

أولا: التعريف بالرحالة عمر الأكبر التنلاني

هو أبو حفص عمر الأكبر بن عبد القادر بن يوسف التنيلاني الأموي، ينتهي نسبه إلى "عثمان بن عفان" رضوان الله تعالى عنه، ولد بـ"تنلان" بـ"توات" عام 1098هـ، سافر إلى مدينة "فاس" سنة 1117هـ، وأقام بها مشتغلا بالقراءة والإقراء، وكانت جل قراءاته بها[2]، فأخذ هناك عن عدّة شيوخ منهم: الشيخ "أبو عبد الله سيدي محمد السالم بن محمد البرباعي" الذي قرأ عليه القرآن بالمدرسة المصباحية بـ"فاس"، والشيخ "العربي بن أبي عبد الله محمد الفاسي"، والشيخ "أبي عبد الله سيدي المهدي بن عبد السلام الفاسي" وغيرهم[3]، انتقل من "فاس" سنة 1129هـ واستقربزاوية "تنلان" من بلد "تيمي"، وكان من أشهر أساتذة القرويين،عاد إلى "تنلان" وتصدر للتدريس والقضاء، حيث تولى القضاء في آخر عمره سنة (1033هـ)، كما مال في آخر عمره إلى التصوف[4]، توفي عشية الأربعاء(3 ربيع الأول عام 1052هـ)، وعمره 54 سنة، ودفن بمجلسه الذي كان يدرس فيه بـ "تنلان"[5].

---

(1) سعد الله، أبحاث وآراء، 223/1.

(2) ثلاث رحلات مغاربية، رحلة أبي حفص عمر الأكبر التنلاني بن عبد القادر التنلاني التواتي الجزائري (ت: 1152هـ/ 1739م) إلى فاس، ص147، 148، نقلا عن: عبد العزيز سيدي عمر، قطف الزهرات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1985م، ص83.

(3) عمر الأكبر التنلاني، المصدر السابق، ص149، 150.

(4) المصدر نفسه، ص148، 149. نقلا عن الرحلة المخطوطة، ص52، 53.

(5) المصدر نفسه، ص151، نقلا عن: سيدي عمر، المصدر السابق، ص87.

ترك عمر الأكبر عدة مؤلفات منها: "تقييدات على مختصر خليل"، و"الفهرست"[1] وهي الرحلة المعنية بالدراسة.

ثانيا: التعريف برحلة عمر الأكبر التنلاني الجزائري إلى فاس

تعتبر رحلة عمر الأكبر من فئة الرحلة الفهرسية، لما لها من قيمة علمية وتاريخية كبيرة، حيث يذكر المؤلف تعلمه قبل سفره، ثم ذكره مشايخه الذين قرأ عليهم في "فاس"، فكانت رحلته هته رحلة علمية بامتياز حيث ذكر أن البلد ("الجزائر" عموما، و"توات" خصوصا) كانت شاغرة من العلماء، لذلك قرّر السفر إلى "فاس" من أجل طلب العلم[2].

ثالثا: وصف رحلة عمر الأكبر التنلاني

أ_ وصف الرحلة المخطوطة

قدّم المحقق وصفا للمخطوطة التي عمل عليها، فذكر اسم المخطوط الذي ورد مرة باسم: "الرحلة"، وهو الموجود على الصفحة الأولى من المخطوط، كما ورد في كتب الشيخ "باي بلعالم" بـ"الرحلة العلية"، و"الغصن الداني"، وقد اعتمد المحقق نسخة مخطوطة وحيدة، وجدها بحوزة الشيخ "باي بلعالم"، وهي نسخة مصورة عن الأصل المخطوط، كما تحدث المحقق أيضا، عن تاريخ نسخ المخطوطة، فذكر أن التاريخ لم يصرح به في المخطوطة، لكنه جزم بأن النسخة كتبت في حياة المؤلف، ولعلها بخطّه، أو بخط تلميذه: العلامة "عبد الرحمن بن عمر" المتوفي سنة 1189هـ، كما ذكر أنّ على المخطوطة بعض الحواشي والتعليقات بخطّ ابن المؤلف: الشيخ "الشاذلي بن عمر" المتوفي بـ"فاس" سنة 1173هـ، بالإضافة إلى ذكره: الأوراق، والسطور، والخط، حيث نسخ المخطوط في 24 ورقة، في كل ورقة 24 سطرا، وكتب بخط مغربي دقيق، وبه تعليقات على الهامش، يشبه خطها خط الناسخ، وبها تعليقات أخرى بغير الخط والقلم التي كتبت به النسخة[3].

ب_ وصف رحلة السفر

ارتحل أبو حفص عمر الأكبر من بلدته متجها نحو "المغرب الأقصى" وبالضبط إلى مدينة "فاس"، من أجل طلب العلم، بعد أن رأى شغور بلده من العلماء، فسافر من بلدته

(1) عمر الأكبر التنلاني ، الرحلة إلى فاس، ص151، نقلا عن الرحلة المخطوطة، ص53.

(2) المصدر نفسه، ص161.

(3) المصدر نفسه، ص152- 154.

"توات" قاصدا مدينة "فاس" سنة 1117هـ/1705م، وأقام بها مشتغلا بالقراءة والإقراء إلى آخر سنة 1129هـ/ 1716م، وقد لقي بها علماء أجلاء أمثال: "محمد بن عبد الله السجلماسي"، و"محمد بن محمد ميارة الفاسي" وغيرهما، أخذ عنهم مختلف علوم العصر كعلم الكلام والفقه، والحساب والتوقيت، كما تحصل على الكثير من الإجازات من علماء "فاس" و"سجلماسة" وغيرها من مراكز الإشعاع في "المغرب الأقصى"، كما تصدّى لتدريس الطلبة في جامع القرويين[1]، ثمّ عاد إلى بلدته التي توفي بها كما سبق الذكر، فكانت رحلته هاته رحلة علمية بامتياز غرضها طلب العلم لا غير.

الفرع الثالث: رحلة أبو راس المعسكري "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"

رحلة أبو راس المعسكري، رحلة مزدوجة إلى المشرق والمغرب، واخترت وضعها ضمن الرحلات إلى "المغرب"، لغلبة الطابع العلمي عليها أكثر من الطابع الديني الذي كان غرضه حجّ بيت الله الحرام.

أولا: التعريف بالرحالة أبو راس المعسكري

هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد الراشدي الجليلي المعسكري المعروف بأبي راس[2]، ولد حوالي منتصف القرن الثاني عشر للهجرة (1150هـ/1757م) قرب جبل "كرسوط" بالغرب الجزائري (قرب مدينة "معسكر")، ونشأ في بيئة فقيرة، وظلّ الفقر يطارده حتى قضى نحبه، فعاش فقيرا ويتيما، إذ توفيت أمّه ثمّ أبوه فكفله أخوه الأكبر[3].

تنقل أبو راس في صغره بين مسقط رأسه و"متيجة" و"تنس" و"المغرب الأقصى"، حفظ القرآن الكريم واستوعب العلوم العربية والإسلامية من علماء وفقهاء عصره[4]، فدرس في "الجزائر" على عدّة شيوخ منهم: "عبد القادر المشرفي" الذي كان المربّي والموجه والمشجع لأبي راس على شقّ حياته[5]، و"محمد بن جدعون"، و"أحمد بن عمار" المفتي صاحب

---

(1) ينظر: عمر الأكبر التنلاني ، الرحلة إلى فاس، ص161- 200.

(2) نويهض، أعلام الجزائر، ص 306.

(3) ينظر: سعد الله، أبحاث وآراء، 86/1. و أنساعد، الرحلة إلى المشرق، 69، 70.

(4) يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995م، 234/2.

(5) ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 378/2.

الرحلة، و"محمد بن الفقون"(الفكون) وغيرهم، وقد ألف أبو راس كتابا يذكر فيه شيوخه ومن أجازه منهم والألقاب التي حصل عليها منهم والمناظرات التي جرت مع بعضهم في مختلف بلدان العالم الإسلامي التي زارها، سماه: "لب أفياخي في عدة أشياخي[1].

وبعد عودة أبو راس من رحلته الأخيرة من الحج إلى "الجزائر"، اشتغل بالتأليف إلى وفاته[2]، إذ توفي يوم الأربعاء 15 شعبان سنة من 1238هـ /27 أفريل 1823م، ودفن بـ"عقبة بابا علي" بـ"معسكر"[3].

وقد كتب أبو راس وألف في مختلف الأغراض والفنون شعرا ونثرا، فخلّف وراءه مائة وستة وثلاثون مخطوطة، بين قصيرة وطويلة، بعضها موجود والبعض مفقود، ولم يطبع إلا واحدة أو اثنين منها، وهناك مخطوطة ذكرها سجل فيها قائمة إنتاجه الفكري تحمل عنوان: **"شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التآليف"**، والتي يتّضح من خلالها تأليفه في ثمانية عشر علما وفنا ومادة، فمثلا في علم التاريخ ألف أربع وثلاثين مخطوطة منها: "زهرة الشماريخ في علم التاريخ"، و"الوسائل إلى معرفة القبائل"، و"الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية" (قصيدة تاريخية)، و"حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي"، و"عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"و"فتح الإله ونعمته في التحدث بفضل ربي ونعمته" وهي الرحلة موضوع الدراسة[4]، وغيرها من المؤلفات الكثيرة.

ثانيا: التعريف برحلة أبي راس المعسكري

لأبي راس تأليف تحت عنوان **"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"**، وهي عبارة عن ترجمة ذاتية له صنفها في خمسة أبواب، وزع بينها الحديث بتوسع عن ابتداء أمره وشيوخه ورحلاته بالمشرق وغيره ثم أجوبته ومؤلفاته[5]، إذعنها: **"وإني قد عزمت**

---

[1] سعد الله، أبحاث وآراء، 1/ 88.

[2] أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص71.

[3] الآغا عودة المرازي، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التسع عشر، تح: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت_ لبنان، ط1، 1990م،349/1.

[4] سعد الله، المرجع السابق، 91/1، 92.

[5] عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1426هـ، 2005م، ص455.

على تأليف عظيم الجدوى بليغ الفحوى يحتوي على أبواب وأسئلة وفتوى"[1]، وقد قسّمها إلى خمسة أبواب؛ **الباب الأول:** "**في ابتداء أمري**" ركزّ فيه الحديث عن مولده ونسبه وطفولته وبعض أفراد أسرته، **والباب الثاني:**"**في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة**"، و**الباب الثالث:** "**في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما ولقاء العلماء الأعلام وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام**"، وهذا العنوان هو الذي يصوغ هذا التأليف "فتح الإله.." ضمن فن الرحلة، و**الباب الرابع:** "**في الأسئلة وما يتعلق بها**"، وهو في معارضة العلماء وأجوبة عن أشياء مختلفة، و أخيرا **الباب الخامس:** في تأليفيه في كل فن، والذي جاء تحت عنوان "**العجسد والإبريز في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز**"[2].

ثالثا: وصف رحلة المعسكري

أ_ وصف الرحلة المخطوطة:

رحلة أبو راس "فتح الإله" مخطوطة قام بتحقيقها محمد بن عبد الكريم الجزائري والذي اعتمد في تحقيقه على ثلاثة نسخ هي:

_ مخطوطة المرحوم المحدث الشيخ "الكتاني المغربي"، وتوجد هذه المخطوطة بالخزانة العامة بالرباط.

_ مخطوطة الفقيه المؤرخ الشيخ "عبد الرحمن الجيلالي" الجزائري.

_ مخطوطة الشاعر الأديب الشيخ "أحمد جلول البدوي" الجزائري.

يقول المحقق أن هذه المخطوطات واضحة الخط سالمة من الأخطاء[3].

ب_ وصف رحلة السفر

عرف أبو راس الرحلة منذ الصغر، فقد تنقل في أنحاء القطر "الجزائري" من غربه إلى شرقه وتجول في "المغرب الأقصى" و"تونس" و"مصر" و"الحجاز" وبلاد "الشام"، كما كرر

---

(1) محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، تح وتع: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1982م، ص15.

(2) المصدر نفسه، ص15.

(3) المصدر نفسه، ص12.

الحج بفارق زمني بلغ عشرين سنة لذلك كانت حياته مليئة بالتجارب[1]، وأنجز مدة حياته رحلتين إلى "الحجاز" لأداء فريضة الحج، كما زار خلال الرحلتين "الشام" و"فلسطين"، وكان بدء سفره إلى المشرق سنة (1204هـ)، وقد ذاع صيته في هذه البلدان بعلمه الواسع وكثرة حفظه حتى لقب بالحافظ، كما لقب في "مصر" بشيخ الإسلام، ولما رجع إلى "الجزائر" تقلد عدة مناصب، الفتوى والقضاء والخطابة في جامع بلده "معسكر" لكنه عزل عن الوظيفة سنة 1211هـ ثم اتصل بعد ذلك بسلطان "المغرب""مولاي سليمان"، وتنقل إلى "فاس" واشتهر أمره بها ومكث مدة ثم عاد إلى "الحجاز" لأداء فريضة الحج مرة أخرى سنة 1226هـ/ 1813م، وبعد عودته إلى "الجزائر" اشتغل بالتأليف إلى وفاته[2].

بناء على ماسبق نلاحظ اختلاف أغراض الرحلة الجزائرية إلى "المغرب"، ولكن يغلب عليها الطابع العلمي، فكانت كلا من رحلتي: أبو راس المعسكري وعمر الأكبر التتلاني علمية بحتة، في حين كان غرض رحلة ابن حماودوش للتجارة وطلب العلم.

---

(1) سعد الله، أبحاث وآراء، 2/ 337.

(2) أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص70، 71.

المبحث الثاني: رحلات مغاربية خارجية

تحدّث هذا المبحث عن الرحلات المغاربية التي كانت وجهتها خارج القطر المغاربي نحو وجهتين رئيستين: المشرق الإسلامي، والأستانة عاصمة الخلافة العثمانية، وقد وزعت هذه الرحلات على مطلبين: الأول تحدث عن الرحلات المغاربية نحو المشرق، والثاني عن الرحلات المغاربية نحو الأستانة.

المطلب الأول: رحلات مغاربية نحو المشرق

أغلب الرحلات المغاربية التي كانت وجهتها المشرق عبارة عن رحلات حجازية هدفها الرئيس أداء فريضة الحج، وهي أكثر الرحلات، لذلك قمت بتوزيعها على فريعين، الأول في الرحلات الجزائرية، والثاني في الرحلات المغربية.

الفرع الأول: الرحلات الجزائرية

كانت أغلب الرحلات الجزائرية إلى المشرق في العهد العثماني عبارة عن رحلات حجازية كتبها أصحابها بعد أدائهم لفريضة الحج، فالرحلة الحجية أوالحجازية كما تسمى هي: تلك الرحلة التي يتجه من خلالها صاحبها إلى البقاع المقدسة بنية أداء فريضة الحج، وهي ليست كغيرها من الرحلات باعتبارها ذات علاقة بعقيدة الإنسان ودينه، "**ذلك أن الجزائريين الذين توجهوا إلى الجزيرة العربية خلال العهد العثماني لم يذهبوا إليها كجغرافيين أو مؤرخين أو سواح، وإنما توجهوا إليها حجاجا يؤدّون الفريضة ويزورون الحرم الآمن لذلك كنت قلوبهم إلى البقاع المقدسة تسبق أرجلهم وخيالهم يتجاوز مرمى أبصارهم، وأشواقهم تنسيهم آلام الطريق ووعثاء السفر**"[(1)].

ويعتبر هذا النوع من الرحلات الأكثر هيمنة على الرحلات الجزائرية في مختلف العصور عموما، وفي العهد العثماني بالخصوص[(2)]، وقد اخترت لهذا النوع من الرحلات ثلاث نماذج هي: رحلة المقري، ورحلة الورثلاني، ورحلة ابن عمار المبتورة.

أولا: رحلة المقري إلى المغرب والمشرق

كانت انطلاقة المقري في هذه الرحلة الحجية من المغرب الأقصى نحو الحجاز، لذلك اخترت وضعها ضمن الرحلات المشرقية.

---

(1) سعد الله، أبحاث وآراء، 117/2.

(2) ينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص160.

أ_ التعريف بالرحالة أحمد المقري

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقري الملقب بشهاب الدين، ولد بـ"تلمسان" عام (986هـ/ 1577_1578م)(1)، بعد أن انتقال عائلته وأجداده الأولين من "مقرة" بشرق مدينة "المسيلة" منذ القرن السادس الهجري(2)، تلقى تعليمه الأول على يد شيوخه الأوائل منهم: عمه "أبو عثمان سعيد المقري"، وعلماء آخرين ذوي شهرة ومكانة، كـ"أبي عبد الله بن مرزوق التلمساني"(3)، رحل المقري إلى "فاس" و"مراكش" سنة (1009هـ/1600_1601م)، ثم عاد إلى "تلمسان" سنة(1011هـ/ 1602م)، وسرعان ما عاد إلى "فاس" سنة (1013هـ/ 1604_1605م)، وأقام بها حوالي خمسة عشر سنة، فتولى بها الإمامة والفتوى والخطابة(4) في جامع القرويين، واشتهر بين العامة والخاصة، وعقد صداقات مع علمائها وأدبائها أمثال: "محمد بن يوسف التاملي المراكشي"، و"علي بن أحمد الفاسي" الشهير بالشامي(5)، وفي عام 1027هـ/ 1618م غادر "فاس" في طريقه إلى المشرق _متخذا طريق البحر_ فنزل بـ"الإسكندرية" ومنها انتقل إلى "القاهرة"، وبعدها سافر إلى "الحجاز" لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان في "مكة" سنة 1028هـ/1619م، وفي "المدينة" سنة (1029هـ/1619م)، ثمّ سافر إلى "فلسطين" وتجول في معالمها، ثم عاد إلى "القاهرة" (1029هـ/1620م)، واتخذها مستقرا له، ثم حجّ واعتمر خمس مرات وزار "المدينة المنورة" سبع مرات إلى غاية 1039هـ/ 1629_ 1630م(6).

ساءت حالة المقري في السنوات الأخيرة من عمره، فتوفي في 1041هـ/ 1631م، ودفن في مقبرة المجاورين قرب "الجامع الأزهر" بـ"مصر"(7).

خلّف المقري عدّة مؤلفات منها التي ألّفها في "المغرب الأقصى"، ومنها ما ألّفها بالمشرق، وأهمها: "روض الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحاضرتين مراكش

---

(1) المقري، نفح الطيب، 3/1، وينظر: بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، 166/2، 167.

(2) الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 385/2.

(3) ينظر: أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص63.

(4) بوعزيز، المرجع السابق، 166/2.

(5) أنساعد، المرجع السابق، ص63.

(6) بوعزيز، المرجع السابق، 166/2- 172.

(7) ينظر: عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الجديدة، فاس، ط1936م، ص109. وأنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص66.

وفاس"، و"أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض"، و"أنواء نيسان في أنباء تلمسان"، و"نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"[1]، وهذا الأخير هو أشهر وأضخم مؤلفاته، بالإضافة إلى "الرحلة إلى المغرب والمشرق"، وهي المعنية بالدراسة.

ب_ التعريف برحلة المقري

رحلة أحمد المقري عبارة عن سفر ذهاب إلى الحجاز دون إياب، فقد عايش المقري أثناء إقامته بفاس أحوال المغرب، حيث شهدت "فاس" اضطرابات سياسية إثر وفاة السلطان "أحمد المنصور"، وتنافس أبنائه على الحكم من بعده، وكذلك الحروب التي كانت قائمة بين "المغرب" و"إسبانيا"، وقد كان المقري دائم الشوق لرؤية "الحجاز"، فتحققت له زيارته في رمضان من عام 1027هـ، بعد استئذانه ملك "المغرب" في ذلك الوقت "أبو محمد الغالب بالله بن محمد المأمون"الذي أذن له بالذهاب، فغادر المقري مدينة "فاس" نحو "الحجاز" لتأدية الحج والعمرة، وبذلك كانت رحلته التي تحمل عنوان: **"الرحلة إلى المعرب والمشرق"**، تفصيل لحالة المؤلف النفسية، وحال "فاس" السياسية[2]، كما تكشف هذه الرحلة أيضا التكامل الفكري والحضاري في مؤلفات الرحالة من خلال التواصل بين العلماء وطلاب العلم سواء عبر الرحلات أم عبر المراسلات والقراءات المختلفة، فكتابه "الرحلة" ليس مجرد وصف مشاهدات سياحية أومظاهر العمران والمدن التي زارها، وإنما أعمق من ذلك فهو عبارة عن وصف للمظاهر العلمية، فهي تؤرخ لنزول المقري في مدينة "الجزائر" و"تونس" و"سوسة" واتصاله بعلماء هذه المدن وهو في طريق الرحلة من المغرب صوب المشرق[3].

---

[1] بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، 177/2، 179.

[2] ينظر: أنساعد، المرجع السابق، ص64، 65، 111.

[3] أبو العباس أحمد المقري، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمّر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 2004م، ص191، 193.

ج_ وصف رحلة المقري

1_ وصف الرحلة المخطوطة

توجد النسخة الأصلية من المخطوط في المكتبة الوطنية بالجزائر، وهي تحت رقم 3191، بعنوان: "**الرحلة إلىالمغرب والمشرق** "، وهي عبارة عن مسودة أهدتها حفيدة المستشرق الفرنسي جورج دالفان للمكتبة الوطنية[1].

2_ وصف رحلة السفر

كانت بداية رحلة المقري من مدينة "فاس"، ثم توجه إلى ميناء "تيطوان"، فكانت أول رحلته برية، ثم تلتها الرحلة البحرية من ميناء "تيطوان" (في شوال من عام 1027هـ)، إلى مدينة "الجزائر" التي وصلها (في ذي الحجة من نفس السنة)، ثم اختار طريق البر مرة أخرى[2]، عبر "طريق الهضاب الشمالي"*، من مدينة "الجزائر" إلى مدينة "قسنطينة"، ومنها إلى مدينة "تونس"، ثم تواصل مسيره عبر الطريق البرية من مدينة "تونس" إلى "سوسة" الساحلية التي وصلها في (صفر من سنة 1028هـ)، ومن "سوسة" عاود الرحلة بحرا نحو "الإسكندرية"، فوصلها في (جمادى الأولى من نفس السنة)، وواصلالسير من "الإسكندرية" إلى "القاهرة"، وكان قد عانى من متاعب الرحلة في البر والبحر، فذكر أخطار كل منهما، إذ سجل وجود القرصنة البحرية، كما أظهر مدى خطورة الرياح القوية التي تدعى رياح النكباء*في البحر، أما متاعب البر فذكر صعوبة اجتياز المرتفعات، والانحدارات والمنعرجات، وخطورة الصحاري[3]، وغيرها من المتاعب.

ومن "مصر" سافر المقري إلى بلاد "الحجاز"، فاجتاز "البحر الأحمر" إلى "جدّة"، القريبة من "مكة"[4]، فقضى فترات مختلفة مقيما بين "مكة" و"المدينة" (فزار "مكة" خمس مرات للج والعمرة، وزار "المدينة" سبع مرات)، كما تجول في بلاد "الشام"، فزار "بيت المقدس"

---

(1) ينظر: أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص 64.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 112، 113.

*طريق الهضاب الشمالي، هو الرابط بين فاس وتونس مرورا بوجدة وتلمسان ووهران والجزائر، وقسنطينة..، باتجاه الواحات الأوسط، ويسمى أيضا: الطريق الغرناطي الأوسط، ينظر: سعيدوني، ورقات جزائرية، ص69.

*الرياح النكباء: هي المخالفة لخط السير.

(3) ينظر: أنساعد، المرجع السابق، ص113، 114.

(4) ينظر: المقري، نفح الطيب، 39/1. وأنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص127، 128.

و"الخليل" و"دمشق"، و"الصالحية"، و"غزّة"[1]، قبل أن يعود إلى "مصر" ويتوفى بها كما سبق الذكر.

ثانيا: رحلة الورثلاني "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار"

ورحلة الورثلاني هاته هي أضخم وأشهر الرحلات الجزائرية الموجودة بين أيدينا.

أ_ التعريف بالرحالة الحسين الورثلاني

هو الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف بن علي البكاي البجائي الحسني الورثلاني، نسبة إلى "بني ورثلان"(قرية قرب "بجاية")[2]، ولد عام 1125هـ/ 1713م بقرية "أنو" بجوار قريته، حفظ القرآن الكريم في زاوية جده ووالده بنفس القرية، ثمّ تفرغ لدراسة علوم الفقه والحديث والنحو والصرف والعروض على والده وشيوخ القرية والزاوية[3]ومنهم: الشيخ "يحيى اليعلاوي" و"الشيخ أحمد زروق" وغيرهما[4]، ثمّ رحل إلى المشرق فحج مرتين أو ثلاثة؛ الأولى كانت سنة 1153هـ، والثانية سنة1166هـ، والثالثة سنة 1179هـ، وأخذ عن علماء "مصر" و"الحجاز"[5]، فأخذ في "مصر" عن "علي الصعيدي" و"محمد الحفناوي" و"أحمد الجوهري" و"علي الفيومي" و"عبد الوهاب العفيفي"[6] وغيرهم.

كان الورثلاني يرغب في الإقامة في "المدينة المنورة" غير أنّ أهله لم يتركوه فاضطر للعودة معهم إلى "الجزائر"[7]، ولمّا رجع إلى وطنه أقام فيه مشتغلا بالتعليم والتأليف والدعوة إلى التزام أحكام الشريعة إلى أن توفي في رمضان من عام 1193هـ/1779م، عن عمر ناهز 68 سنة، ودفن بقرية "بني ورثلان"[8].

---

(1) ينظر: أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص128، 133.

(2) ينظر: الحفناوي، تعريف الخلف، 133/2. وبوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، 44/1.

(3) المرجع نفسه، 45/1،44.

(4) المرجع نفسه، 45/1.

(5) نويهض، أعلام الجزائر ص340، وينظر:سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 395/2.

(6) الحفناوي، تعريف الخلف 134/2، والحسين بن محمد الورثلاني السطيفي الجزائري، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تع: ابن مهنا القسنطيني، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط خ، 2011م، 16/1.

(7) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 396/2.

(8) الورثلاني، الرحلة الوثلانية، 17/1.

ترك الورثلاني عدة مصنفات منها: "شرح على منظومة القدسية للأخضري" في التصوف، و"حاشية على كتاب المرادي"، و"شرح لغز السنوسي" في التصوف[1]، بالإضافة إلى رحلته: "**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**"، التي تعرف بالرحلة الورثلانية، وهي المعنية بالدراسة.

ب_ التعريف برحلة الورثلاني

"**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**"، هي العنوان الأصلي لما يعرف عند الدارسين بـ:"**الرحلة الورثلانية**"، وهي عبارة عن وصف لرحلته إلى الديار المقدسة سنة 1179م، وما شاهده من الأمكنة والآثار ومن لقيهم من العلماء والأعيان وغيرها[2]، وعنوان الرحلة يوحي أنّ المؤلف كان واعيا بمشكلة نقص التأليف في بلده "الجزائر" والاهتمام بالتاريخ، فأراد أن يؤلف في هذا العلم الذي رآه شريفا وضروريا، في حين كان الجزائريون يحسبون التاريخ أمرا مضحكا لا يدرسه أهل الجدّ والدين، وهو عند البعض ضد الأخلاق، لأجل ذلك ألف الورثلاني رحلته هاته التي تولي التاريخ عناية كبيرة[3].

ج_ وصف الرحلة الورثلانية

1_ وصف الرحلة المخطوطة

رحلة الورثلاني هي الرحلة الجزائرية الوحيدة المطبوعة في شكلها الكامل– حسب أبو القاسم سعد الله– وهو لم يكتبها بخط يده ولكنه أملاها إملاء على تلاميذه كما جرت عادة المشايخ في ذلك الوقت، هذه الرحلة قام بتحقيقها ونشرها الأستاذ "محمد بن العربي بن أبي شنب"، وقد اعتمد في تصحيحها على أربع نسخ هي:

–نسخة مخطوطة بخطوط مغربية مختلفة مقابلة على نسخة منقولة من مسودة المؤلف، مجموع صفحاتها (643) في كل صفحة من (21) إلى (32) سطرا وكل (33) كراسة غير مخيطة متخللة بأوراق مورقة طولها (271) ميليمترا في عرض (210) ميليمترا[4].

(1)الورثلاني، الرحلة الوثلانية، 17/1.
(2) نويهض، أعلام الجزائر، ص340.
(3) سعد الله، المرجع السابق، 321/2، 322.
(4) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 3/1.

–نسخة مخطوطة بخطوط غالبها جميل مقابلة على مسودة المؤلف، مجموع أوراقها (253) في كل صفحة (21) سطرا و(31) كراسة غير مخيطة متخللة أيضا بأوراق مورقة طولها (207) ميليمترا في عرض (190) ميليمترا، وهي أصحّ النسخ وأقل بياضا[1].

– نسخة مخطوطة بخطوط مغربية غالبها غير جيد مؤرخة بيوم الجمعة الفاتح لشهر شعبان عام (1313ه)، مجموع صفحاتها (640) في (37) كراسة غير مخيطة متخللة بأوراق مورقة في كل (20) سطرا وطولها (265) ميليمترا في (195) ميليمترا.

– نسخة مطبوعة على الحجر في حاضرة "تونس" سنة (1321ه) بتصحيح الشيخ الأمين الجريدي، وهذه النسخة مشتملة على ثلاثة أجزاء في الأول (250) صفحة وفي الثاني (214) صفحة وفي الثالث (260) صفحة، غير أنها يمكن أن تعتبر نسخة مخطوطة بخط مغربي يكاد لا يقرأ في بعض المواضع لانطماس الحروف وتعثر القلم والتمجمج أو تفشي المداد، وزيادة على ذلك لم ينبه في غير موضع عن البياض الموجود في الأصل[2].

2_ وصف رحلة السفر

كانت رحلة الورثلاني هذه إلى الديار المقدسة سنة 1179م، والتي قادت صاحبها لأداء فريضة الحج سالكا المسار الذي ألف الجزائريون سلوكه، والذي يبدأ من "الجزائر" مرورا بـ"الجريد" و"قابس" بـ"تونس"، فـ"طرابلس" بـ"ليبيا"، ثم "وادي الرهبان" و"الإسكندرية" و"سيناء" بـ"مصر"، فـ"العقبة" بـ"الأردن"، وصولا إلى "مكة المكرمة"، وقد سبقت هذه الرحلة الكبرى رحلة صغرى أخرى وهي الرحلة الداخلية التي كانت تمهيدا لرحلة الحج[3].

كان الورثلاني لا يحبذوجود الحكام العثمانيين، من خلال استنكاره طريقة الحكم العثماني وقلّة العلم في عهده وشيوع الرشوة والاستيلاء على الأوقاف وانتشار الظلم[4]، وغيرها من الأوضاع المتردية في الجزائر والبلدان العربية والإسلامية.

[1] الورثلاني، الرحلة الوثلانية، 3/1.

[2] المصدر نفسه، 4/1.

[3] ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 396/2. وحسيني، الرحلة الجزائرية، ص162.

[4] ينظر: سعد الله، المرجع السابق، 394/2، 398.

ثالثا: رحلة ابن عمار"نحلة اللبيب بالرحلة إلى الحبيب"

وللتنبيه فإن رحلة ابن عمار مفقودة، عدا المقدمة التي هي محل الدراسة.

أ_ التعريف بالرحالة ابن عمار

هو أبو العباس أحمد بن عمار بن عبد الرحمن بن عمار الجزائري[1]، عاش بمدينة "الجزائر" في القرن الثاني عشر الهجري (18م) وما يؤكد ذلك أن ابن حمادوش ذكره في رحلته عندما كان بالجزائر في حديثه عن تقريظه لكتابه الدرر على المختصر وكان ذلك عام 1159هـ[2]، وتاريخ ميلاد ابن عمار ووفاته مجهولة إلى الآن، وكذلك نسبه لا يعرف إلا على سبيل الظن، والذي يبدو أنه ينتمي لأسرة عريقة في العلم والشرف، ومن الأسر التي كان لها شأن في الجزائر، حيث نقشت على خاتمه عبارة: "سليل الأشراف الصالحين وخلاصة مجد التقى والدين"، وأما عن أفراد أسرته فلا يعرف أكثر من أن والده كان عالما وعلى قدر من التدين[3]..، وأما طلبه للعلم، فقد تلقى ابن عمار على يد الشيوخ داخل "الجزائر" قبل سفره، ولا شك أن دراسته تركزت أكثر على الفقه والأدب، وذلك لأنه كان من عادة المتعلمين في ذلك العهد بعد حفظ القرآن أن يحفظوا المتون الفقهية ويهتمون بشروحها وحواشيها، وأما الأدب فإنه كان يميل إليه من خلال حفظه للشعر القديم، إضافة إلى اهتمامه بالمنثور، دون أن يهمل التاريخ والسير وغيرها، وكل ذلك يظهر من خلال شعره[4].

وعلى ظن "أبي القاسم سعد الله" فإنّ وفاته كانت في العقد الأول من القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي (القرن 12هـ/ 18م)، كما يذكر أنّه حج البيت الحرام سنة 1166هـ، وأنه قد جاور بـ"مكة" مدّة طويلة وصلت به إلى سنة 1172هـ[5].

---

(1) نويهض، أعلام الجزائر، ص241.

(2) عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تح: أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ط، د. ت، ص259، 262.

(3) شقرون، نحلة اللبيب، ص60، 61.

(4) ينظر: شقرون، نحلة اللبيب، ص62.

(5) سعد الله، أبحاث وآراء، 1/ 183.

وقد كان ابن عمار شاعرا فحلا وناثرا مجيدا، فاشتهر بين معاصريه بأنه محيي طريقة "خاقان" و"لسان الدين بن الخطيب"، وكان مفتيا صاحب رأي واجتهاد في الدين والاجتماع، وله عدة مؤلفات لكنها غير معروفة كلها على وجه الدقة، ماعدا رحلته التي وجدت منها المقدمة فقط، وأغلب مؤلفاته عبارة عن شروح وحواش وتقاريظ والتي منها: "لواء النصر في فضلاء العصر"، وهو كتاب ترجمة لعلماء القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر، ورحلته المسماة "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"، و"حاشية على الخفاجي في الأدب"، و"شرح على صحيح البخاري"، و"رسالة على الطريقة الخلواتية" وغيرها(1)، وقد تحدث عنه المعسكري الذي لقيه بـ"الجزائر" فكان من أحد شيوخه فمما قال عنه: **"شيخ الإسلام السيد أحمد بن عمار عالم الجزائر، كان غاية في الحديث والأدب، ينسل إليه من كل حدب، تولى بها زمنا الخطابة والفتوى والإمامة، ثم عزفت له بها الإقامة فرحل للحرمين الشريفين...، بعدما أخرج بالجزائر الأساتيذ من التلاميذ والفقهاء النحارير، والعلماء الجماهير...، وقد بقي في الحرمين حتى توفي فيهما"**(2).

ب_ التعريف برحلة ابن عمار

اشتهر ابن عمار برحلته التي سماها "**نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب**"، التي قسمها إلى ثلاثة أقسام:

1_ القسم الأول: ووضعه تحت عنوان "مقدمة"، أظهر في هذه المقدمة محفوظه ومختاراته من الشعر والنثر، وقد بلغت هذه المقدمة وحدها 254 صفحة من الحجم المتوسط، وهذا القسم هو الوحيد الموجود منها، وقد تحدث فيه عن سبب تأليفه للرحلة وسبب تسميتها، وبين ضرورة الحج..، كما عمد إلى الاستطراد في هذه المقدمة فملأها بأخبار الاحتفال بالمولد النبوي في "الجزائر" قديما وحديثا، كما ترجم لعدد من الأدباء والشعراء من أهل بلاده وغيرهم.. (3)

---

(1) ينظر: سعد الله، أبحاث وآراء، 1/ 183، وينظر: شقرون، المرجع السابق، ص68، 69.

(2) ينظر: المعسكري، فتح الإله، ص48، 49.

(3) أحمد ابن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، د.ط، 1903م، ص183.

2_ القسم الثاني: وهذا القسم سماه الغرض المقصود، ولا شك أن هذا الجزء هو أساس الرحلة وهدفها[1]، وقد تناول ابن عمار في هذا القسم ما يحدثه السفر إلى الإياب وحط الرحال، ومعنى هذا أنه تحدث في هذا القسم عن رحلته من "الجزائر" عبر "تونس" و"طرابلس" و"مصر" إلى "الحجاز" والعودة[2].

3_ القسم الثالث: وسماه الخاتمة، وقد خصصه للحديث عما نشأ عن السفر بعد السكون وما انضم إليه[3].

وبما أن القسمين الأخيرين مفقودين فلا يمكن الحديث عن محتواهما أو قيمتهما التاريخية، ومن المرجح حسب "سعد الله" أن ابن عمار قد أكمل رحلته وذلك لسببين، الأول أن تلميذه أبو راس وصفه بما يدل على أنه قد أكملها، والثاني أن ابن عمار قد عاش حوالي أربعين سنة بعد حجته سنة 1166، فلا يمكن نظريا ألا يكمل رحلته خلال هذه المدة كلها، ولعل رحلته توجد في "الحرمين" أو "القاهرة" أو "تونس"، لأنه عاش في هذه الديار وأطال بها[4].

ج_ وصف رحلة ابن عمار:

1_ وصف الرحلة المخطوطة:

قام الباحث عبد الجليل شقرون بتحقيق رحلة ابن عمار في رسالته المقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في تحقيق المخطوطات بجامعة "تلمسان"، باعتماده على ما وجد من نسختين مخطوطتين من الرحلة "نحلة البيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"، فرمز للنسخة الأولى بالرمز (أ)، وللثانية بالرمز (ب)، ولا يوجد من الرحلة إلا القسم الخاص بالمقدمة فقط، وهذا المخطوط يحتوي على عدة مواضيع منها:

_ وجوب الحج وفضله والحذر من تأخيره

_ في ذكر بعض العلماء القائلين بمشروعية المولد النبوي

_ في المديح النبوي وشعر المولديات

_ احتفالات المولد النبوي الشريف في القصر الزياني

---

(1) ابن عمار، نحلة اللبيب، ص184.

(2) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 392/2.

(3) سعد الله، أبحاث وآراء، 184/1.

(4) سعد الله، المرجع السابق، 392/2.

_ أبي حمو موسى الثاني السلطان الأديب

_ مدح السلطان أبو تاشفين

_ المساجلات الأدبية

_ وصف الطبيعة

_ ترجمة الشيخ أبو عبد الله محمد ابن محمد الشهير بابن علي.. [1]

وقد كان تدوين الرحلة المخطوطة سنة 1166هـ عندما عزم ابن عمار على أداء مناسك الحج كما هو مبين في النسختين من الرحلة حيث يقول: "**إني عزمت على الرحلة إلى الحجاز عزما نسخت حقيقته المجاز أوائل سنة 1166 ست وستين ومائة وألف..**"[2]

2_ وصف رحلة السفر:

قام ابن عمار برحلتين، فكانت رحلته الأولى إلى الديار المقدسة بغرض الحج، كما ورد في رحلته سنة 1166هـ، وكان في هذه الرحلة رفقة الرحالة الحسين الورثلاني، وبعد قضائهما مناسك الحج لم ترق لابن عمار العودة إلى وطنه فجاور بـ"الحرمين" حوالي اثني عشرة سنة، وفي هذه المجاورة كتب رحلته هاته المشهورة بـ"نحلة اللبيب" وكانت عودته إلى "الجزائر" سنة 1178هـ، وتولى بعدها الافتاء المالكي بمدينة "الجزائر" مابين 1180_1185هـ، وقد كانت له رحلة قبل ذلك إلى "تونس" سنة 1159هـ، حيث رحل إليها بقصد الاستيطان بها، إذ كانت تربطه مودة مع باي "تونس" (علي باي)، وبعد وفاة هذا الأخير رحل ابن عمار إلى المشرق[3].

كانت هذه أهم الرحلات الجزائرية المختارة كنماذج عن الرحلات المشرقية التي لم تقتصر على "الحجاز" فقط بل تعدتها إلى "الشام" و"مصر".

الفرع الثاني: رحلات مغربية إلى المشرق

تناول هذا المطلب الرحلات المغربية إلى المشرق، وهي الرحلات الحجية أيضا، التي كان مقصدها الأول حج بيت الله الحرام وزيارة "المدينة المنورة"، واخترت منها ثلاثة

---

[1] ينظر: شقرون، نحلة اللبيب، ص71- 112.

[2] المرجع نفسه، ص72.

[3] المرجع نفسه، ص64.

نماذج أيضا هي: رحلة العياشي،ورحلة الدرعي، ورحلة ابن الطيب الفاسي، موزعة على التوالي:

أولا: رحلة أبو سالم العياشي

تعرف هذه الرحلة بين الدارسين بـ"الرحلة العياشية"، وقبل الحديث عنها لابد من التعرف عن صاحبها.

أ_ التعريف بالرحالة أبو سالم العياشي

هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، من قبيلة "آيت عياش" التي كانت تقيم بـ"سجلماسة" مركز "تفليلت" بـ"أطلس الوسطى"(1)، ولد في شعبان 1037هـ/ ماي 1628م، كان أبوه شيخ زاوية، وهو الذي أشرف على دراساته الأولى، وقد ملا بأطوار النشأة والتكون التي ميزها حرصه على الأخذ من علماء بلده وفقهاء قطره وخاصة شيوخ الزاوية العياشية، قبل أن يشتد عوده فيؤثر الرحلة إلى المشرق(2)، فقد أخذ العياشي دروسه على عدة شيوخ ذكرهم في كتابيه: "إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء"، و"اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر"، من بينهم: "محمد بن الناصر"، و"عبد الرحمن بن الفاسي"(3) وغيرهما.

وكجميع معاصريه ممن دفعتهم الرغبة في طلب العلم إلى الرحلة، ارتحل العياشي وهو في سن الشباب إلى مدينة "فاس"، بالإضافة إلى رحلاته الحجية فإن أهم ما ميز حياته هو رحلاته الثلاث نحو الديار المقدسة، ففي عام (1059هـ/1649م) أدى فريضة الحج لأول مرة، ورحل للمرة الثانية سنة (1064هـ/ 1653م) أما رحلته الثالثة فقد انطلقت سنة (1072هـ/ 1661م)، وهذه الأخيرة هي التي سجل فيها رحلته، وقد دون مذكراته

---

(1) أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، د.ط، 1957م، م731/2.

(2) ينظر: بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص19. وحسيني، الرحلة الجزائرية، ص30.

(3) عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية 1661- 1663م، تح وتق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدّة، ط1، 2006م، 30/1.

المتقطعة أثناء الحج غير أن رحلته الأخيرة دفعته إلى تبييض المسودة النهائية لوصف رحلته "**ماء الموائد**" أو الرحلة العياشية[1].

توفي العياشي بـ"المغرب الأقصى" سنة 1090هـ/ 1679م بالطاعون، وقد كان محدثا وصوفيا وعالما وشاعرا، ولم يشع بين الناس من كتبه ومؤلفاته التي تناولت كل جوانب الأدب بمفهومه الواسع بالإضافة إلى الفقه والتصوف سوى ثلاثة كتب: "اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر"، و"إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء"، و"ماء الموائد"، أو الرحلة العياشية، وهي المقصودة بدراستنا، أمّا مؤلفاته المخطوطة فهي عديدة منها: "إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب"، و"الحكم بالعدل والإنصاف الرافع للخلاف فيما وقع بين فقهاء سجلماسة من الاختلاف"، و"معارج الوصول"، كما له عدة منظومات شعرية[2].

ب_ التعريف بالرحلة العياشية

للعياشي رحلة ضخمة سماها "ماء الوائد" ضمنها أخبارا وحوادث مختلفة شاهدها أثناء أسفاره، ومحتوى هذه الرحلة غني دسم؛ إذ جعل المؤلف صدرها يتسع لاحتضان عدد كبير من النصوص والأشعار والتراجم والأخبار، الشيء الذي أضفى عليها طابع الموسوعية، وذلك ما أعطاها قيمة علمية كبيرة لفتت أنظار المستشرقين الذين نقلوها كاملا أو جزئيا وأثنوا عليها[3]، فهذا كراتشكوفسكي يقول عنها: "**يمثل كتابه إلى حد ما دائرة معارف فريدة من نوعها في العلوم والتصوف..**"[4].

ج_ وصف رحلة العياشي

1_ وصف الرحلة المخطوطة

تعد" **ماء الموائد**" أعظم رحلات أهل "المغرب العلمية" في العصر الحديث، طبعت على الحجر بـ"فاس" سنة (1316هـ/1898م) في جزأين متوسطين، اختصرها الشيخ "أبو عبد

---

[1] ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 30/1، و كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب العربي، 2/ 732.

[2] العياشي، المصدر السابق، 30/1، 31. وبلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص18.

[3] المرجع نفسه، ص18.

[4] كراتشكوفسكي، المرجع السابق، 731/2.

الله محمد بن الحسن بناني"، وتوجد بالخزانة الفاسية الكراسة الأولى منها[1]، والكتاب موجود في طبعة حجرية ظهرت في جزأين بـ"فاس" عام 1310هـ/ 1898م[2].

ويذكر المحقق أنّه اعتمد على النسخة الخطية المحفوظة بالخزانة العامة للوثائق والمخطوطات تحت رقم (406 ق)، وهذه النسخة الأصلية بخط "أحمد بن عبد الرحمن العياشي"، وقد نسخها لأبي العباس بن ناصر الدرعي سنة 1102هـ، وتقع مخطوطة الرحلة العياشية في 720 صفحة، كل صفحة تحوي ما يقارب (28) سطرا، ولا تخلو هذه النسخة من بعض الرسوم والبيانات كما تتخللها بعض الهوامش والإضافات..، كما اعتمد المحقق على الطبعة الحجرية المذكورة سابقا[3].

2_ وصف رحلة السفر

رحلة العياشي الثالثة والأخيرة إلى الحج، كان مبدؤها عام 1072هـ/ 1661م، ومنتهاها عام 1074هـ/ 1664م، حيث مكث العياشي فيها 30 شهرا و17 يوما، حيث كان ذهابه فيها خروجا من بلدته "آيت عياش" بشمال "سجلماسة" بالجنوب الشرقي المغربي بتاريخ صبيحة يوم الخميس 01 ربيع الثاني من العام المذكور، وقد سلك في طريق ذهابه بعد خروجه من "سجلماسة"، طريق "وادي جير"، و"وادي الساورة" مرورا بـ"بني عباس"، ثم "توات"، ثم "ورارة" من الصحراء الجزائرية الغربية، أما في عودته فقد سلك طريقا آخر المار من قصور شمال "بشار" بالجنوب الغربي الجزائري، ثم رجع إلى بلده وزاويته المذكورة[4].

ورحلة العياشي من أشهر الرحلات المغاربية في تلك الفترة، والتي كانت مصدرا لما بعدها من الرحلات.

---

(1) ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب، ص 248.

(2) ينظر: كراتشكوفسكي، تاريخالأدب العربي، 731/2.

(3) العياشي، الرحلة العياشية، 33/1.

(4) ينظر: أبو سالم العياشي، تعداد المنازل الحجازية (رحلة العياشي الحجية الصغرى)، تح: عبد الله حمادي الإدريسي، دار الكتب العلمية، بيروت_ لبنان، ط1، 2013م، ص 10، 11.

ثانيا: رحلة الدرعي "الرحلة الناصرية"

أ_ التعريف بالرحالة الدرعي

هو أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن حسين بن ناصر الدرعي، أبو العباس المدعو بالخليفة، ولد بقرية بوادي "درعة" جنوبي "مراكش" تسمى "تمكروت"(أو تمقروت، أو تمجروت) بـ"المغرب الأقصى" سنة (1057هـ/ 1646م)، وقد تربى في أحضان أسرة اشتهرت بالعلم والتصوف، فأمه "حفصة الأنصارية" بنت "عبد الله بن محمد بن علي" من زاوية "سيدي الناس"[(1)]، وأبوه أيضا كان شيخا للزاوية الناصرية، وقد خلفه الدرعي في مشيخة الزاوية، حيث سلك نهج أبيه في الحرص على المثابرة على التعليم واستقطاب العلماء[(2)]، وبالإضافة إلى تعلمه وسط أسرته، أخذ العلم بالإجازة عن عدة شيوخ خارج بلده منهم: الشيخ "محمد البقري" بـ"مصر"، والشيخ "أبي عبد الله البصري" بـ"مكة"، والشيخ "إسماعيل" بـ"المدينة المنورة"...[(3)]

عُرف الدرعي بحبّه للسفر والارتحال خاصة لأداء فريضة الحج[(4)]، فحجّ أربع مرات، الأولى صحبة والده سنة 1076هـ، وعمره 19 سنة، والثانية سنة 1096هـ، والثالثة سنة 1109هـ، أما الرابعة فكانت سنة 1121هـ[(5)].

توفي الدرعي سنة(1129هـ/1717م)، ودفن مع والده بروضة الأشياخ بزاوية "تمقروت"[(6)].

---

(1) أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية 1709– 1710م، تح: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي_ الإمارات العربية المتحدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2011م، ص19.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص29.

(3) المصدر نفسه، ص 25.

(4)عبد السلام بن عبد القادر بن سودة، موسوعة أعلام المغرب، تح: محمد حجي وتوفيق المدني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م، 4/ 1583.

(5) ينظر: الدرعي، المصدر السابق، ص27.

(6) العباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1993، 2/ 360. وينظر: الدرعي، المصدر السابق، ص35.

وقد ترك الدرعي عدة مؤلفات أهمها: "الأجوبة الناصرية"[1]، وهي أجوبة فقهية بعنوان: "تنبيه السائل ببعض ما هو عنه سائل"، و"الرحلة الشامية" وتتعلق برحلة أخيه "محمد"، و"تجديد المراسم البالية في السيرة الحسنة العالية" في السيرة، و"الرحلة الناصرية" وهي أشهر مؤلفاته[2] وهي المعنية بالدراسة.

ب_ التعريف بالرحلة الناصرية

ارتحل أحمد بن ناصر الدرعي لأداء فريضة الحج أربع مرات كما سبق الذكر، عرف من خلالها أمورا كثيرة، ولكي يستفاد من رحلاته المختلفة قام بتدوين رحلته الأخيرة التي كانت سنة1121ه/ 1709م وأخرجها بعنوان **"الرحلة الناصرية"**[3]، والتي اعتبرت بمثابة أهم مؤلفاته، وقد طبعت بالمطبعة الحجرية بـ"فاس" المغربية سنة1320ه/1902م، تطرق فيها الدرعي إلى رحلاته السابقة، ووصف أغلب الأماكن والمسالك والقبائل انطلاقا من مسقط رأسه بـ"تمكروت" مرورا بـ"الجزائر" و"تونس" و"طرابلس" و"مصر" وصولا إلى "الحجاز"[4].

ج_ وصف الرحلة الناصرية

1_ وصف الرحلة المخطوطة

ذكر المحقق أنّه تعذر الحصول على نسخ المخطوط من طرف الباحثين من قبله، وبعد جهد جهيد تحصل هو على تصوير 11 نسخة من الرحلة، فوصفها بأنها ذات حجم كبير، إذ تصل إلى 541 صفحة[5]، والنسخ المعتمدة في التحقيق هي:

_ **النسخة الأصل (الأم):** وهي نسخة الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1093 د، وهي نسخة تامة، نسخها "مسعود بن عبد الكريم الحاجي" عام 1138ه، وهي أقدم نسخة وأقربها إلى تاريخ وفاة المؤلف، خطها مغربي مسند رصين تغلب عليه الصحة، في كل صفحة 32 سطرا، بمعدل 16 كلمة تقريبا في كل سطر، مقاييسها: 18.5/29.5 سم،

---

(1) الزركلي، الأعلام، 241/1.

(2) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص33، 34.

(3) التازي، رحلة الرحلات، 253/1، 254.

(4) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب العربي، 766/2.

(5) الدرعي، المصدر السابق، ص39.

وهي سالمة في الجملة، عدا الصفحتين الأخيرتين ففيهما بتر طولي، وإضافة إلى النسخة الأصلية هناك نسخ مساعدة، وأخرى ثانوية:

_ **نسخ مساعدة:** وهي أربع نسخ: نسخة الخزانة الحسنية، تحت رقم 7648، ونسخة الخزانة الحسنية أيضا تحت رقم 12960، ونسخة المطبعة الفاسية، ونسخة خزانة "تمكروت" تحت رقم 1032.

_ **نسخ ثانوية:** وهي ستة نسخ:نسخةالخزانة الحسنية، تحت رقم 2473، وقطعة من الرحلة في الخزانة العامة بـ"الرباط"، تحت رقم 2651، ونسخة الخزانة الحسنية تحت رقم 1787، ونسخة الخزانة الحسنية رقم 2473، ونسخة الخزانة العامة رقم 1291د، بالإضافة إلى نسخة دار الكتب الناصرية بـ"تمكروت" تحت رقم 1952، وهذه النسخ لم تعتمد في التحقيق لقصورها في القيمة العلمية كما صرح المحقق[1].

2_ وصف رحلة السفر

كانت بداية الرحلة الناصرية يوم الخميس 24 جمادى الأولى سنة 1121هـ/21 يولية 1709م، ودامت رحلة الذهاب وصولا إلى "مكة المكرمة" ستة أشهر وسبعة أيام، حيث قطع الركب في رحلته إلى "مكة"، حوالي أحد عشر ألف كلم، تتخللها بعض الاستراحات والإقامات في بعض المراكز الرئيسية لعدة أسباب منها: الحاجة إلى الراحة خصوصا قبل وبعد المراحل الصعبة، بالإضافة إلى فسح الفرصة للحجاج لقضاء الحاجيات من بيع وشراء واستبدال للرواحل، وكذلك لتلقي العلوم، وعند الوصول إلى "مكة" دامت مدة مناسك الحج ثمانية أيام، بالإضافة إلى جواره بـ"مكة" مدة تسعة أيام، وقد كان تاريخ القفول، أي العودة يوم الخميس 6 رمضان سنة 1122هـ/ 19 أكتوبر 1710م[2].

وقد حاول الدرعي نسج رحلته هاته على منوال رحلة شيخه العياشي واتخذها نموذجا احتذى به، فنقل منها الكثير من النصوص كما سنرى لاحقا.

ثالثا: رحلة ابن الطيب الفاسي

وهذه الرحلة ثالث رحلة مغربية كان هدفها الرئيس هو حج بيت الله الحرام.

---

[1] ينظر: الدرعي، الرحلة الناصرية، ص42-51.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص16، 17.

أ_ التعريف بالرحالة ابن الطيب الفاسي الشرقي

هو فخر الدين محمد الطيب، وبه عرف ابن محمد بن موسى الفاسي المدني المعروف بالشرقي، والشرقي نسبة إلى "شراقة"، وينطق بها أهل المغرب بالكاف، وهي على مرحلة من "فاس"، ولد بـ"فاس" سنة 1110هـ ونشأ بها، وأخذ عن جملة من العلماء منهم والده، و"محمد بن محمد المسناوي" و"محمد بن عبد القادر الفاسي"، و"محمد بن عبد السلام البناني"، وكان واسع الاطلاع، قويّ المعارضة، أقام بمكة سنين وختم بالمسجد الحرام الصحاح الستة وغيرها من الأصول الحديثية، رحل إلى الروم من الطريق الشامي، ورجع منها من الطريق المصري، توفي سنة 1171هـ بالمدينة المنورة، له عدّة مؤلفات منها:"حاشية على القاموس"، و"شرح على كفاية المحتفظ"، و"حاشية على الاقتراح"، و"شرح كافية ابن مالك"، و"الرحلة من فاس إلى مكة"[(1)]، وهي المعنية بالدراسة.

ب_ التعريف برحلة ابن الطيب

تحتوي رحلة ابن الطيب الفاسي إلى مكة على معلومات هامة عن منازل الطريق إلى الحج، كما تشير إلى جميع الشخصيات الهامة التي جاذبها المؤلف أطراف الحديث حول مختلف المواضيع، وتحوي على عدّة شواهد شعرية تتعلق بالرحلة[(2)].

قام ابن الطيب الفاسي بتقسيم محتوى رحلته إلى ثلاثة أقسام رئيسة وهي:

1_ مقدمة: يتحدث فيها عن أهمية الحج وزيارة البيت الحرام، وأهمية زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الأسفار وفوائدها وعما يقع على المسافر من التزامات وأعباء.

2_ صلب الموضوع: وفيه معلومات هامة عن رحلة السفر من بلاده إلى "الحجاز"، معتمدا في ذلك على ملاحظاته الشخصية عن جميع المواضع التي تتصل بطريق رحلته ومقتطفا من الرحالة المغاربة الذين سبقوه كالعبدري والعياشي، مدعما نصوص رحلته بمجموعة من الأشعار مما يدل على دراسته الدقيقة للأدب.

3_ خاتمة: والتي يقدم فيها بعض القواعد الصحيّة التي يجب أن يتبعها المسافر ويشير إلى بعض الأشياء الضرورية اللازمة له في أسفاره[(3)].

---

(1) ينظر: الكتاني، فهرس الفهارس، 2/ 396- 399. وابن سودة، دليل مؤرخ المغرب، ص286.

(2) ينظر: كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب العربي، 767/2.

(3) ينظر: المرجع نفسه، 767/2.

ج_ وصف رحلة ابن الطيب

1_ وصف الرحلة المخطوطة

تقع رحلة ابن الطيب المخطوطة كما وصفها محققها "عارف عبد الغني" في 265 صفحة وعدد أسطر كل صفحة 27 سطرا، وفي كل سطر حوالي تسع كلمات، ومسطرة المخطوطة 21 × 29 سم، وهي من مقتنيات جامعة الملك سعود الإسلامية في الرياض وخطّها واضح ليس فيها أيّ خرم أو طمس، وخطّها نسخي معتاد[1].

2_ وصف رحلة السفر

كان ابن الطيب من كبار أنصار التسفار، وفي رحلته هذه وصف حجّته التي كانت عام 1139هـ- 1140هـ/ 1727م- 1728م من "فاس" إلى "مكة" ذهابا وإيابا، وقد خرج بتاريخ 25 فبراير من العام السابق الذكر، وأخذت منه هذه الرحلة خمسة عشر شهرا وواحد وعشرين يوما[2]،وكانت بداية رحلته من مدينة "فاس" عبر الأراضي الصحراوية الجزائرية، وصولا إلى "طرابلس" ومنها إلى "برقة" ف"مصر"، ومنها إلى "الحجاز"، وصولا إلى "مكة" ف"المدينة المنور"ة، وقد سلك نفس الطريق في العودة، من "المدينة المنورة" إلى "مصر" ، ومنها إلى "طرابلس" ومنها إلى بلاده "المغرب"[3]، مرورا بالصحراء الجزائرية.

والملاحظ على الرحلات الحجية المغربية الثلاث أنها سلكت طريق الصحراء الجزائرية.

الفرع الثاني: رحلات مغاربية إلى الأستانة

هذا النوع من الرحلات تمثله الرحلات السفارية، والتي لم تنل "الجزائر" حظا منها مثلما حضيت "المغرب" بذلك، فجميع هذه الرحلات تمثلها رحلات مغربية، والسبب الرئيس في ذلك أنّ "المغرب" لم تخضع لحكم العثمانيين، لذلك كان سلاطينها شديدي

---

(1) ينظر: محمد الطيب ابن محمد بن موسى الفاسي الشرقي، رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة، تح: عارف أحمد عبد الغني، دار العراب- دار نور حوران، دمشق _ سوريا، د. ط، 2014م، ص11.

(2) ينظر: كراتشكوفسكي، المرجع السابق، 766/2، 767.

(3) الفاسي، المصدر السابق، ص425، 426.

الحرص على توطيد العلاقات مع الأستانة العثمانية، بخلاف "الجزائر" التي كانت إيالة عثمانية فلم يكن من داعي لمثل هذه الرحلات، والرحلات المغربية السفارية التي اخترتها كنماذج لهذه الرحلات هي رحلات كل من: الوزان، والتمقروتي، والمكناسي.

أولا: رحلة الحسن الوزان

أ_ التعريف بالرحالة الحسن الوزان "الأسد الإفريقي"

هو الحسن بن محمد الوزان الفاسي، ينتسب إلى قبيلة "بني زيات" الزناتية الواقعة في أقصى غرب بلاد "غمارة" من سلسلة "الريف" المغربية، ولد حوالي 1483م على الأرجح في غرناطة، ثم انتقل مع أسرته إلى "فاس"، حيث درس على أعلام القرويين، وكان يجالس الفقهاء والقضاة في المدن والقرى التي يزورها خلال رحلاته، كما أنّه كان شاعرا محطّ إعجاب الرؤساء وينال من عطاياهم، ونظرا لنبوغه المبكر ما جعل سلطان "فاس""محمد الوطاسي" يقربه إلى بلاطه ويسند إليه مهام سياسية خطيرة، بالإضافة إلى نشاط أسرته التجاري والدبلوماسي ما دفع بالحسن الوزان بالقيام برحلات عديدة داخل "المغرب" وخارجه وتسجيل مشاهداته في مذكرات غدت أساس كتابه الجغرافي "وصف إفريقيا" ومادته[(1)]، وفي إحدى رحلاته إلى "تونس" وحين عودته وقع أسيرا في أيدي القراصنة الإيطاليين الذين قدّموه هديّة إلى "البابااليون العاشر"، في "روما" فتظاهر بالتمسح وصار يلقب بـ"يوحنا الأسد الغرناطي" أو "الإفريقي"، وبعد وفاة "البابا" السابق سنة 1521م انتقل ليعيش في كنف "الكردينال جيل دي" يعلمه العربية وينشرها في "إيطاليا" زمن النهضة، لكنّه هرب حوالي 1550م والتحق بـ"تونس"، وقد ترك عدة مؤلفات تدل على أنه بقي مسلما منها: "مختصر تاريخ الإسلام"، و"أشعار الأضرحة"، و"وصف إفريقيا"، ولا أحد يدري أين ومتى توفي وهل عاد بلاده المغرب أم لا، إلا أنّ الأكيد عند الدارسين أن وفاته كانت بعد 1550م[(2)].

---

(1) ينظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت_ لبنان، ط2، 1983م، 1/6- 8.

(2) الوزان، وصف افريقيا، 1/ 12- 14.

ب_ التعريف برحلة الحسن الوزان

لمّا كانت الرحلات التي قام بها الوزان هي مادة كتابه "وصف إفريقيا" فيمكن اعتباره من الرحلات، فمن أهم رحلاته المسجلة في كتابه: رحلة دبلوماسية إلى بلاد السودان عام 1511م، ورحلة إلى البلاد الليبية والتونسية في طريق الرجوع إلى المغرب سنة1520م والتي وقع فيها أسيرا [1]، وهذا الكتاب هو القسم الثالث من كتابه: الجغرافية العامة الذي ألفه الوزان باللغة العربية، ثم ترجم هذا القسم إلى اللغة الإيطالية[2].

وكتاب الوزان "وصف إفريقيا" يعرّف فيه بالقارة "الإفريقية" من "النيل" شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا فيوزع التفاصيل بين تسعة أبواب يسميها كتبا: فالأول دراسة عامة للقارة "الإفريقية" تتناول الطبيعة المناخية والاقتصاد والاجتماع والسكان، والثاني يصف أقاليم "المغرب" منها "مراكش" وبعض مدن الجنوب، والثالث يتناول مملكة "فاس" وبعض مدن الشمال، والرابع يصف مملكة "المغرب الأوسط" (وهي تلمسان)، والخامس مملكة "بجاية" و"تونس"، والسادس منطقة "ليبيا" (طرابلس)، والسابع ممالك "السودان"، والثامن خاص بوصف "مصر" المملوكية، والتاسع يتناول الأنهار الكبرى والنباتات والحيوانات والمعادن في "إفريقية"[3].

ج_ وصف رحلة الوزان

1_ وصف الكتاب

يمثل كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان، القسم الثالث من كتابه الجغرافيا العامة الذي كتبه مؤلفه باللغة العربية، ولكن ضاع النص العربي، وإنما عرف بواسطة النسخة المكتوبة بالإيطالية والتي نشرت في حياة المؤلف سنة 1550م في ثلاث مجلدات[4]، نشرها لأول العالم الإيطالي "راميزيو" بمدينة "البندقية" اعتمادا على المخطوط المؤلف باللغة الإيطالية، وقد تصرف في نصه زيادة ونقصا وتغييرا ، ومن الإيطالية ترجم الكتاب

---

(1) ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، 9/1، 10.

(2) المصدر نفسه، 1/ 14، 15.

(3) محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، منشورات مجلة كلية الآداب، الرباط، 1989م، 126/1. وينظر: خضر موسى، أدب الرحلات، ص160.

(4) المنوني، المرجع السابق، 125/1.

ونشر بعدة لغات: الفرنسية واللاتينية والإنجليزية، والألمانية والإسبانية، وقد اقتبس من الترجمة الفرنسية المستشرق الفرنسي "لويس ماسينيوس" وصف "المغرب الأقصى" أوائل القرن 10هـ/ 16م، ونشر ذلك بعنوان: "جغرافية المغرب في السنوات الأولى من القرن 16 نقلا عن كتاب وصف إفريقيا لليون الإفريقي"، ونشر بـ"الجزائر" سنة 1906م[1]، ثم طبعت وترجمت بعدها لعدة لغات، منها ترجمة الطبيب الفرنسي "إيبولار" سنة 1949م، ونشر ترجمته معهد الدراسات العليا بـ"الرباط" سنة 1956م، ومن الفرنسية ترجمه إلى العربية الدكتور "عبد الرحمن عبيدة" بمراجعة الدكتور "علي عبد الواحد وافي"، وقامت بإصداره كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام "محمد بن سعود" الإسلامية عام 1399هـ، وعن هذه الترجمة الفرنسية أيضا اعتمده مترجمي الكتاب "محمد حجي" و"محمد الأخضر" المغربيين إلى العربية[2]، وهو الذي بين أيدينا.

2_ وصف رحلة السفر

قام الوزان برحلات عديدة نظرا إلى مهامه السياسية والنشاط الدبلوماسي والتجاري لأسرته، هذه الرحلات كانت مادة كتابه "وصف إفريقيا"، وهي تسع رحلات: الأولى كانت إلى الشواطئ الغربية القريبة من "فاس" عام 914هـ/ 1508م، والثانية كانت إلى وسط "المغرب" عام 915هـ/ 1509م، والثالثة رحلة إلى بلاد "السودان" مع عمه المكلف بسفارة بين ملك "فاس""محمد الوطاسي" وملك "سنغاي""محمد أسيكا الكبير"، وكانت عام 917هـ/ 1511م، والرحلة الرابعة إلى الأطلس الكبير مكلفا بمهمة سياسية لدى القبائل الساكنة في جبال "دادس" وكانت عام 918هـ/ 1512، 1513م، والرحلة الخامسة إلى بلاد "حاحا" عام 919هـ/ 1514م، والرحلة السادسة من "مراكش" إلى "سوس" عام 920هـ/ 1515م، أما الرحلة السابعة فكانت إلى "الحجاز" عام 921هـ/ 1516م، أما الرحلة الثامنة فكانت إلى "الأستانة" عام 923هـ/1517م، وأما الرحلة التاسعة والأخيرة فكانت إلى البلاد "الليبية" و"التونسية" في طريق الرجوع إلى "المغرب" من "الأستانة"، فكان في "تونس" عام 926هـ/ 1520م، لكن سوء الحظ أوقعه في أيدي القراصنة الإيطاليين فأخذوه أسيرا قرب

---

[1] الوزان، وصف إفريقيا، 20/1. و ينظر: المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، 125/1.

[2] الوزان، المصدر السابق، 21/1، والمنوني، المرجع السابق، 125/1، 126.

جزيرة "جربة التونسية" إلى "نابولي" وقدموه هدية إلى "البابا" في "روما" الإيطالية[1]، وقد ألف كتابه "وصف إفريفيا" هناك.

ثانيا: رحلة التمقروتي*

وهي رحلة سفارية بامتياز ويظهر ذلك جليا من خلال عنوانها كما سنرى لاحقا.

أ_ التعريف بالرحالة التمقروتي

هو أبو الحسن علي بن أبي عبد الله محمد أبي الحسن علي بن محمد الجزولي البكري الدرعي التمجروتي[2](نسبة إلى قرية تمجروت بوادي درعة بالمغرب الأقصى)، ولد حوالي 1560م، "**وهو سليل أسرة لها الباع الطويل في الفقه والتدريس في المنطقة**"[3]، تعلم بزاوية بلدته ثم بدأ التجول في البلاد، وتقلّد عدّة مناصب هامة ورسمية ببلاط "مراكش"، كلّفه السلطان السعدي "أحمد المنصور" بسفارة إلى "اسطنبول" وهي محور رحلته المعنية بالدراسة، توفي التمجروتي بـ"مراكش" سنة 1003هـ/1594م، ودفن بجانب القاضي عياض[4].

ب_ التعريف برحلة التمقروتي

"**النفحة المسكية في السفارة التركية**" لمؤلفها أبو الحسن التمقروتي، رحلة سجل فيها ارتساماته وانطباعاته عن رحلته إلى الأستانة سفيرا للمنصور الذهبي السعدي[5]،ذكر التمقروتي في رحلته هذه ما شاهده في سفرته التي توجه فيها إلى بلاد الترك[6]، مشيرا

---

[1] ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، 8/1- 10.

*جاء لقب التمقروتي في المصادر بعدّة صور: التمجروتي، التمغروطي، والتمكروتي، والتمقروتي اقتصرت على الأخيرة.

[2] ينظر: علي بن محمد التمقروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية (1585)، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي_ الإمارات العربية المتحدة- المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2007م، ص27.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص23.

[4] بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص16.

[5] المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، 138/1.

[6] التمقروتي، النفحة المسكية، ص28.

إلى جوانب متعددة من تاريخ العالم الإسلامي[1]، ومنها ما يخص الجزائر في ذهابه وإيابه.

ج_ وصف رحلة التمقروتي

1_ وصف الرحلة المخطوطة

نشرت رحلة التمقروتي "النفحة المسكية" بـ"الأوفسيط"، عن نسخة مغربية الخط، الموجودة بعناية المستشرق "دوكاستري"، الذي أضاف للنص العربي ترجمته للفرنسية، وصدر ذلك في باريس 1929م، حيث جاء القسم العربي في189 صفحة، وكان نشرها عن مخطوطة خ.ع.ك2829[2].

2_ وصف رحلة السفر

لما كلّف التمقروتي بمهمة السفر إلى بلاد "الترك" من طرف السلطان السعدي "المنصور الذهبي" سنة 1589م، انطلق من "تمقروت" في 18 مارس سنة 1589م، إلى "سجلماسة" التي وصلها في 22 من نفس الشهر، ومنها إلى "فاس" التي وصلها في 6 ماي من نفس السنة، ومنها توجه إلى ميناء "تيطوان"، فكان بها في 10 أوت من نفس السنة،ثم أبحر مارا ببعض السواحل الجزائرية فنزل ببعضها، فمر بـ"وهران" فـ"مستغانم" و"تنس" و"شرشال"، ثمّ"الجزائر" فـ"دلس" و"بجاية" و"جيجل"، ثم أكمل سيره إلى "تونس" فـ"طرابلس" التي كان بها في 6 أكتوبر من السنة المذكورة، ومنها اتجه نحو "القسطنطينية" مرورا ببعض الجزر كجزيرة "مرمرة"، فوصل "القسطنطينية" في 25 نوفمبر من نفس السنة، وأقام بها حوالي ثمانية أشهر أدّى في بدايتها مهمته السفارية، استقبله السلطان "مراد" ومرافقيه، وسلّموه رسائل سلطانه "أحمد المنصور" وهديته، وغادر "القسطنطينية" يوم 7 شعبان 998هـ/ 11يونية 1590م، متجها إلى "طرابلس" مارا بـ"جربة" فـ"صفاقس" فـ"منستير" فـ"سوسة" فـ"بنزرت" فـ"طبرقة" فـ"بلد العناب"، فـ"بجاية"ثمّ "الجزائر" التي وصل إليها يوم السبت 8 ذي القعدة 998هـ/ 8شتمبر 1590م وقضى بها أربعة أشهر ليغادرها

[1] ماكامان، الرحلات المغربية، ص466.

[2] المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، 138/1.

عائدا إلى "المغرب" في 7 محرم 999هـ/5 نوفمبر 1590م، وصل "تيطوان" في 11 محرم 999هـ/ 9 نوفمبر 1590م، ثم غادرها إلى "مراكش" التي وصلها في 10 ربيع الثاني 999هـ/ 15 فبراير 1591م، ثم غادرها إلى مسقط رأسه "تمقروت" التي وصل إليها يوم 1 جمادى الثانية 999هـ/ 27 مارس 1591م[1].

ثالثا: رحلة المكناسي

أ_ التعريف بالرحالة المكناسي

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي المسطاسي[2]، ولد بـ"مكناس" المغربية ولهذا يسمى بالمكناسي، لم يحدد في كتب السير والأعلام تاريخ ميلاده، لكن المرجح أنه ولد في أواخر الثلث الأول من القرن(12هـ/ 18م)[3]، كان أبوه من الواعظين والمدرسين بأحد مساجد "مكناس"، مما أهله أن ينهل من المعارف العلمية وهو في ريعان شبابه، وبعد ذلك عاش في وسط بلاط السلطان المغربي "محمد بن عبد الله العلوي"[4]، وعين كاتبا له، قام بعدة رحلات أهمها التي قادته كسفير إلى "إسبانيا" سنة (1139هـ/ 1779م) وأخرج مؤلفا حول رحلته هذه سماها "الإكسير في فكاك الأسير"، كما أرسل إلى "إيطاليا بنفس الصفة"[5]، وفي الرحلة الثالثة إلى "إسطنبول" ألف أهم مؤلفاته وهي كتاب "الإحراز" ، توفي جراء الطاعون الذي جاء على "المغرب الأقصى" سنة (1213هـ/ 1798م)[6].

---

(1) ينظر: التمقروتي، النفحة المسكية، ص15- 25. وبلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص 16، 17.

(2) المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، 2/ 52.

(3) محمد المنوني، "رحلة ابن عثمان المكناسي إلى القدس الشريف ومناطق من فلسطين"، مجلة المناهل،الرباط_ المملكة المغربية، ع 39، 1990م، ص20.

(4) محمد بن عبد الوهاب المكناسي، رحلة المكناسي "إحراز المعلّى والرقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب 1785"، تح وتق: محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي_ الإمارات العربية المتحدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003م، ص17.

(5) شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات الجزائر_المغرب الأقصى_موريطانيا_السودان، دار المعارف، القاهرة، 1995م، ص518.

(6) المرجع نفسه، ص518.

ب_ التعريف برحلة المكناسي

بعد رحلة حج المكناسي والتي حملت صبغة دبلوماسية دينية من خلال إرساله في مهمتين كسفير للسلطان المغربي إلى "الأستانة"، والتي مكث بها أكثر من سنة، زار العديد من المكتبات والمراكز العلمية الشهيرة، وبعد ذلك توجه لـ"لحجاز" في المهمة الثانية لتبليغ ما تم إرساله من طرف محمد بن عبد الله العلوي[1]، وأثناء رحلته هذه ألف كتاب رحلته "**إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب**" سنة (1200هـ/ 1785م)[2].

ج_ وصف رحلة المكناسي

1_ وصف الرحلة المخطوطة

والنسخة الأصلية والفريدة توجد في خزانة المؤرخ "عبد الرحمن بن زيدان" وهي بخط يد المؤلف، قام بتحقيقها "محمد الفاسي"[3].

2_ وصف رحلة السفر

في سنة 1200هـ/ 1785م، بعث السلطان "محمد بن عبد الله" كاتبه أبا عبد الله بن عثمان المكناسي سفيرا إلى "الأستانة"، وأمره بالتوجه بعد ذلك إلى "الحجاز" لتبليغ الهدايا التي كان يوجهها سنويا السلطان للحرمين الشريفين، فقام المكناسي بهاتين المأمورتين، وألف رحلته المذكورة[4].

وبالإضافة إلى هذه الرحلات هناك عدة رحلات أخرى مهمة تحوي أخبارا هامة عن الجزائر، كرحلة القيسي والرافعي، واليوسي والغنامي وغيرهم كثير.

والملاحظ على هذه الرحلات أنها ذات أغراض متعددة، فمنها الحجية ومنها العلمية ومنها السفارية، وقد تجتمع عدّة أغراض في رحلة واحدة فتصبح رحلة عامة شاملة، كما تتعدد دواعي تدوينها كما سنرى لاحقا.

---

(1) ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب، ص227.

(2) ينظر: المكناسي، الإحراز، ص48، 51، ومشوشة، النشاط التجاري بين الجزائر وتونس، ص108.

(3) ينظر: ابن سودة، المرجع السابق، ص227.

(4) المرجع نفسه، ص227.

الفصل الثاني:
منهج الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

المبحث الأول: الوصف والسرد في الرحلات المغاربية

المبحث الثاني: منهجية التعامل مع المصادرفي الرحلات المغاربية

الفصل الثاني: منهج الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

إنّ المتطلع للرحلات المغاربية عموما قديما وحديثا يلاحظ أن منهجها يقوم أساسا على الوصف الجغرافي الدقيق، والسرد التاريخي، بالإضافة إلى النقل من المصادر الأخرى، مع ما يتخلل ذلك من مقارنة ونقد، وأسلوب أدبي رفيع، ومن هذا المنطلق، قمت بتقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث: الأول يخص منهجي الوصف والسرد في الرحلات المغاربية، والمبحث الثاني يخص منهجية التعامل مع المصادر في الرحلات المغاربية، أما المبحث الثالث فيختص بالحديث عن منهجية تدوين الرحلات المغاربية.

المبحث الأول:الوصف والسرد في الرحلات المغاربية

بما أن هذا المبحث يتحدث عن منهجين رئيسين في المنهج التاريخي، وهما الوصف والسرد، فمن الطبيعي أن نقوم بتقسيمه إلى مطلبين: الأول في الحديث عن منهج الوصف، والثاني في الحديث عن منهج السرد.

المطلب الأول: منهج الوصف

إنّ الوصف في أبسط معانيه هو: **"ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات"**[(1)]، وللتفصيل أكثر فهو: لون من النثر الأدبي الذي يهتم بوصف مظاهر الطبيعة بشتى أشكالها، وكذا وصف المنشآت البشرية من قصور ومدارس، ومساجد، ومدن وقوافل ونحو ذلك، بالإضافة إلى وصف الأشخاص والحيوانات، وقد يكون الوصف معنويا أيضا كوصف المشاعر الإنسانية عند الحج، ووصف أثر نكبة من النكبات على الإنسان، أو الحديث عن معركة طغى فيها الوصف الحسي والمعنوي، كما قد يكون الوصف بطريق الشعر، وبذلك يكون الوصف هو جوهر الرحلات[(2)]، لذلك نجد عناية الرحالة المغاربة بوصف تفاصيل رحلاتهم بدءا باستعدادهم للرحيل ثم وصف مراحل سفرهم، ووصف حالة الراحلين أثناء السفر بالإضافة إلى وصف الحوادث الجارية أثناء الرحلة، كما أنهم يصفون المجتمعات التي يمرون بها، سواء مدنها وقراها، وآثارها ومختلف المشاهد بها،

---

(1) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي،القاهرة، د. ط، 1963م، ص134.

(2) ينظر: حسين نصار، أدب الرحلة، مكتبة لبنان- الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط1، 1991م، ص132. وشقرون، نحلة اللبيب، ص108.

كما اهتموا بوصف مختلف الأوضاع بها، اجتماعية سياسية اقتصادية ثقافية...[1]، ومن هذا المنطلق قمت بتقسيم هذا المطلب إلى ثلاثة فروع أوزع من خلالها أهم الأمور التي خصتها الرحلات المغاربية بالوصف، يتناول الفرع الأول وصف الطبيعة، والفرع الثاني وصف المنشآت البشرية، والفرع الثالث: وصف الأشخاص.

الفرع الأول: وصف الطبيعة

من أوصاف الطبيعة المختلفة التي جاءت في الرحلات المغاربية نجد: وصف مختلف التضاريس كالصحاري والقفار، والجبال والسهول والمياه، بالإضافة إلى وصف النبات والحيوان وغيرها.

أولا: وصف التضاريس

اهتم الرحالة المغاربة بالوصف الدقيق لمختلف عناصر الطبيعة التي شاهدوها أثناء رحلاتهم، سواء الأراضي الخضراء من بساتين ومزارع أو مياه، ومختلف النباتات والحيوانات التي تمثل العناصر الأساسية للطبيعة.

ومن أهم مظاهر الطبيعة الموصوفة ف الرحلات المغاربية نجد التضاريس، إذ اهتمت الرحلات الجزائرية مختلف المظاهر التضاريسة خاصة الغطاء النباتي والمياه، وفي ذلك تميز ابن هطال بوصفه الدقيق والمفصل لمختلف المظاهر الطبيعية في الأمكنة التي مر بها، ومنها وصفه لمدينتي "الخضراء" و"تاويلة"، اللتانذكرهما مركزا على وصف الطبيعة فيهما بقوله: **"وهما مدينتان كل واحدة لها بساتين كثيرة، وماء غزير، ومزارع.."**[2]، كما وصف مدينة "الخير" وصفا دقيقا بما فيها من مياه في قوله: **"منزل فيه ثلاث عيون، كل عين منها في غاية ما يكون في صفاء الماء وقوته، واتساع الأرض التي تسقى به، ثم تلك العيون مفترقة في أماكن ينابيعها، وحيث انفصلت عن أماكنها وانحدرت من بلادها واجتمعت فوق المضيق الذي يقال له: رأس واد الشلف"**[3].

---

[1] ينظر: عواطف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنيين السابع والثامن الهجريين– دراسة تحليلية نقدية مقارنة، دراسة مقدمة لنيل درجة الماجيستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1991م، ص96 .

[2] ابن هطال، رحلة الباي، ص41.

[3] المصدر نفسه، ص42.

كما وصف ابن عمار جمال الطبيعة وخاصة المناظر الخلابة في فصل الربيع، وما تتركه من أثر إيجابي على نفس الإنسان وذلك في أبيات شعر يقول فيها:

أنسيم روض رقّ في سريانه وثنى القضيب فراق في ميلانه
بعثت أرائجه السلو لخاطري فتخلص المحزون من أحزانه
أم روضة غناء راق رواؤها خلع الربيع بها حلى ألوانه
وتبرجت كالخود في موشية من ورده المطلول مع سوسانه
وبدا لذق الطير فوق غصونها شدو يثار الوجد من ألحانه
وجرى بهاتيك الجداول ماؤها فبدا انسياب الرقط من جريانه[1]

ففي هذه الأبيات عبر ابن عمار عن مدى سعادته وراحته وهو يعبر عن صدى الربيع في نفسه ووجدانه، إذ تنجذب الجوارح إلى الظواهر الخلابة، فكل مشهد من مشاهد الطبيعة يستدعي حاسة من حواس الإنسان وكل مظهر منها يمنح الإنسان الراحة والسعادة التي يرجو تحقيقها[2].

ويتجلى وصف التضاريس في الرحلات المغربية بوضوح في رحلة الوزان، وذلك ظاهر من خلال عنوان رحلته "وصف إفريقيا"، وخاصة وصف مظاهر مختلفة من التضارس منها السهول والجبال والصحاري، إذ نجد جلّ أوصافه لأغلب المناطق الإفريقية كان وصفا للطبيعة، ومن بين هذه الأوصاف، وصفه لإقليم "أزغار" من نواحي فاس المغربية الذي يقول فه: "**هذا الإقليم عبارة عن سهل أرضه جيدة...، يمتد سهل أزغار على طول ثمانين ميلا، وعرض ستين ميلا تقريبا، ويخترقه نهر سبو في وسطه..**"[3]، كما وصف صحراء صنهاجة بقوله: "**إنّ هذه الصحراء شديدة الجفاف وعرة، تبتدئ عند المحيط غربا وتمتد شرقا إلى ملاحات تغزة، وتنتهي شمالا في تخوم نوميديا...، وتسير جنوبا حتى أرض السودان عند مملكتي ولاتة وتمبكتو، لا يوجد فيها ماء إلا على مسافة كل**

(1) ابن عمار، نحلة اللبيب، ص45، 46.
(2) ينظر: فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة_ الجزائر، 2015م، ص129.
(3) الوزان، وصف إفريقيا، 301/1.

مائة أو مائتي ميل، بالإضافة إلى أنه مالح مر في آبار عميقة جدّا، خصوصا في الطريق المؤدية إلى تمبكتو، وفي هذا الصحراء عدد كبير من الوحوش والحيات..، وفي هذه المنطقة فلاة خاصة وعرة جدّا لا تسلك إلا بمشقة عظمى تسمى أزواد، لام ماء فيها ولا منزل طوال مسافة مائتي ميل.."[1]. ووصف التضاريس موجود أيضا في الرحلات المغاربية الأخرى. كما سيأتي الحديث عنه لاحقا (في الباب الثاني).

ثانيا: وصف الحيوانات

ومن مظاهر الطبيعة التي جاء وصفها أيضا في الرحلات المغاربية نجد وصف الحيوانات.

وهذا النوع من الوصف لا تخلو منه بعض الرحلات الجزائرية، حيث اهتم ابن حمادوش بالوصف الدقيق والمفصل لبعض الحيوانات منها طيور "الغرّ" التي شاهدها في المغرب فوصفها قائلا: "**والغر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء..**" كما أن وصف بيضه بدقة أيضا فقال: "**عظمه كبيض الدجاج ولونه كلون بيض الحجل إلا أنه أشد بياضا من بيض الحجل وفيه نقط سوداء**"[2].

كما يصف الأغواطي أغنام تيميمون بقوله: "**وأغنامهم مثل غنم السودان، مغطاة بشعر أسود يشبه شعر الماعز، ولها أذناب طويلة**"[3]، وهذا يعني أن بعض الرحالة الجزائريين يمتلكون دقة الملاحظة لذلك قدّموا لنا وصفا دقيقا لبعض الحيوانات التي شاهدوها.

وبالإضافة إلى وصفهم للحيوانات فإن بعضهم اهتم بوصف تأثير الحيوانات في النفوس، ونجد ذلك عند ابن هطال، حينما تحدث عن تربية الباي محمد الكبير لبعض الطيور للاستمتاع بها، فهي تشعره بالسعادة، خاصة الطيور، ومنها العوارم (الطيور المفترسة)، فهو يفضلها لأنها تبرد الغليل، وتبري العليل كما وصفها[4].

كما لا تخلو الرحلات المغربية هي الأخرى من وصف الحيوانات، فقد جعل الوزان لهذا الوصف مساحة كبيرة في كتابه "وصف إفريقيا"، حيث ذكر في القسم التاسع والأخير من

---

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 148/2.

(2) ابن حمادوش، لسان المقال، ص73.

(3) الأغواطي، الرحلة، ص93.

(4) ينظر: ابن هطال، رحلة الباي، ص67.

كتابه حيوانات إفريقيا سواء الكبيرة منها أو الصغيرة، واهتم أيضا بذكر حيوانات البحر، بالإضافة إلى أنواع الطيور، ومن بين أوصافه للحيوانات الإفريقية نذكر على سبيل المثال وصفه للتمساح الذي قال عنه: "**هو حيوان خبيث يؤذي كثيرا، ويبلغ طوله اثني عشر ذراعا، وطول ذنبه بقدر طول سائر جسده..، له أربعة أرجل وشكله تماما شكل الوزغ، ولا يتعدّى علوه ذراعا ونصفا، يبدو ذنبه وكأنه مؤلف من سلسلة حلقات، وجلده صلب لدرجة أنه لا يمكن أن تخترقه قذيفة قوية، ولا تأكل بعض التماسيح غير السملك، ويأكل بعضها الحيوانات البرية والإنسان..**"[1].

وإذا كان الرحالة الجزائريين في وصفهم لبعض الحيوانات ينم عن دقة الملاحظة لديهم فإنّ دقة وصف الرحلات المغربية للحيوانات كالوزان كان أبلغ وأوضح خاصة وأنه يقدم معلومات غاية في الدقة والتفصيل عن الطول والسمك وعدد الأرجل والجلد ونوعية الغذاء وغيرها من المعلومات التي تصدر عن رحالة ذا حس جغرافي رفيع.

الفرع الثاني: وصف المنشآت البشرية

تمتلء الرحلات المغاربية بوصف المنشآت البشرية سواء في بلدانهم المغاربية (الجزائر، والمغرب) أو في البلدان الإسلامية الأخرى التي مروا بها كمصر، وبلاد الحجاز والشام، والقسطنطنية وغيرها، ومن بين المنشآت الموصوفة بكثرة نجد: المدن والمساجد.

أولا: وصف المدن

بالنسبة لوصف مختلف المنشآت البشرية والمدن في الرحلات الجزائرية، نجد هذا النوع من الوصف بكثرة في رحلة الأغواطي الذي اهتم بوصف المدن الصحراوية، من ذلك وصفه لمدينة الأغواط بقوله: "**الأغواط بلدة كبيرة، وهي محاطة بسور وحولها تحصينات، ولها أربة أبواب، وأربعة مساجد..**"[2]، وكذلك الورثلاني نجده يصف عدّة مدن جزائرية مرّ بها كقسنطينة التي وصفها بأنها: "**مدينة في وطننا وقاعدة من قواعد بلادنا..، وهي مدينة قوية ليست كبيرة جدا ولا صغيرة أيضا، وعليها سور كبير وفيها أبواب ثلاث..،**

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 271/3.

(2) الأغواطي، الرحلة، ص87.

وفيها أسواق كثيرة، ودكاكين طيبة، ومساجد للجمعة..، وهذه المدينة مبنية على كهف وجرف عظيم يكاد من سقط منه أن يهلك..، وفيها قصبة عظيمة وعسكر من الترك..، ومددها قوي وظلمها كثير..، كثير فيها اللحم والسمن والقمح والتين..، قليلة الفواكه كثيرة المزارع، محصنة تحتها واد كبير وماؤه عذب.."[1]، فالوصف عند الأغواطي والورثلاني للمدينتين كان دقيقا وواضحا، ركزّا على مختلف النواحي سواء الجغرافية الطبيعية للمدينة أو من ناحية المرافق العامة الموجودة بها أو تحصيناتها العسكرية.

أما الرحلات المغربية فوصف المدنفيها تفوق دقته في الرحلات الجزائرية، فالتمقروتي الذي خاض رحلته عبر البحر كان لا يمر على مدينة إلا وصفها وصفا دقيقا، ومنها وصفه لمدينة أسطنبول حين قال أنها: "**مدينة عظيمة قاهرة من أعظم مدن الدنيا وأشهرها..، وهذه المدينة واسعة جدّا مسورة كثيرة الأبواب والعمارة والمساجد والجوامع والأسواق والحمامات والفنادق..، وعمارتها دائرة بمرساها، ومرساها واسع جدّا داخل في البر كثيرا، وقد أرسى فيه من أنواع السفن والمراكب من الأغربة والغلاين والبطشات والمعونات والبراكش والغلايط والفراقط والزوارق والصنادل في المرسى كالنمل..، والمدينة العظمى على يمين المرسى يسمونها اسطنبول والأخرى على شمالها يسمونها الغلطة، وهي أيضا مدينة صغيرة مسورة، وبخارج سوريهما أرباض وديار وبناء متصل، يبنون في وسط ماء البحر يردمونه بالحجارة ويبنون عليها، أو يغرزون فيه خشبا ويرفعون البناء على رؤوسها ويسكنون فيه.."**[2]، فالتمقروتي هنا وصف المدينة بدقة متناهية، ولم يغفل صغيرة ولا كبيرة إلا وذكرها، وتجاوز وصفها السبع صفحات، وكذلك فعل في وصفه لأغلب المدن التي تحدث عنها في رحلته.

وقد فعل الكثير من الرحالة المغاربة مثل صنيع التمقروتي في وصفهم للمدن في رحلاتهم مع تفاوتهم في الوصف من حيث الدقة والطول أو القصر، على حسب قدرات الرحالة الأدبية والعلمية والنفسية.

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 253/3.

(2) علي بن محمد التمقروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تق وتح: عبد اللطيف الشادلي، المطبعة الملكية، الرباط، د.ط، 2002م، ص89، 90.

ثانيا: وصف المساجد والقصور

أما عن وصف المنشآت العمرانية بأنواعها من مساجدوقصورومنازل ومدارسوفنادق وحمامات وأضرحة وغيرها، فحدث ولا حرج، فلا تخلو أي رحلة مغاربية من وصف مختلف المنشآت، فكان الرحالة المغاربي لا يمر على قرية أو مدينة إلا وأغرق رحلته بوصف مبانيها ومساجدها وأسواقها، وغيرها من المنشآت العمرانية الأخرى، سواء من حيث مادة البناء إلى الكيفية والزخرفة، وغيرها من التفاصيل التي نجدها في أغلب هذه الرحلات، ومن أبرز المنشآت التي جاء وصفها في الرحلات المغاربية بكثرة نجد المساجد.

ففي الرحلات الجزائرية أورد ابن هطال وصف أحد علماء الجزائر لمسجد الباي محمد الكبير بمعسكر، وذلك في قصيدة طويلة قال فيها:

ألق العصا وفك رحـل ركائبي بالمسجد المنشى بأم العسكر
المحكم التشييد في شرفـاته فتراه يحسن كالرياض الممطر
خلعت عليه الشمس حسن ردائها فلذلك يخطب أعين النظر
لما رأت قمر السما خـالعا على جبل ويعرف بالمكان المقصر
فكأنما الـبن المشيد سناءه حجر من البهت الجذيب الصور
قامت زوايا خطوطه في وضـعها فبحسنه شكل المربع مخبر
فتراه أصفر فاقعا في أحـمر قان وأبيض ناصع في أخضر
تحيا النفـوس تنزها في شكـله من حسن بهجته وذاك المنبر
فكأنما سوداء زنجية غـدت عليها حلي من النجوم الزهر
وسط المساحة قبـة مربوعة من فوق أبهى قوائم من مرمر
عجبا لـه من مسجد في الأرض قـد حاكى السماء تطاولا في المفخر
تحويه مدرسة غـدت آثاره تحييه بالعلم الشريف الأشعري
بناه الأمير محمد في الغـرب قد لاحت آثاره كالصباح المسفر (1)

(1) ابن هطال، رحلة الباي، ص85، 87.

فهذا الوصف يتميز بالدقة المتناهية، من وصف الشكل والألوان المستعملة وأنواع الزخارف المختلفة.

وكذلك في الرحلات المغربية يوجد وصف المساجد بكثرة، ومن بين المساجد التي يكثر وصفها المسجد الحرام، والمسجد النبوي، حيث أولى هؤلاء الرحالة عنايتهم بوصف الحرمين، وذلك لشدّة تشوقهم لمشاهدته ونقل ما رأوه لغيرهم عبر كتب رحلاتهم[1]، ومنهم العياشي الذي وصف داخل الكعبة من حيث شكلها المربع، وأرضيتها المفروشة بالمرمر، وكسوة الجدران الداخلية والسقف المماثلة للكسوة الخارجية في شكلها وكتابتها لكنها تختلف عنها في لونها الأبيض المشرب بالحمرة، كما وصف الأعمدة التي يرتكز عليها سقف الكعبة، وكيفية صفها في الوسط، وغيرها من الأوصاف الدقيقة لكل ركن من أركان الكعبة[2]، وقد زاد العياشي في دقة وصفه للبيت العتيق بأن رسم له مخططا في رحلته[3].

وإلى جانب وصف الكعبة الشريفة، فقد وردت عدّة أوصاف للمسجد النبوي بما فيه من أبواب، ومحاريب، ومنابر، بالإضافة إلى وصفهم للروضة الشريفة مرقد النبي الأكرم صلوات الله وسلامه عليه، كما وصفوا مساجد أخرى في مواضع كثيرة لا تكاد تحصى سواء في الحجاز أو في الشام أو في القسطنطينية، وغيرها من البلدان التي زاروها.

ومن بين المنشآت العمرانية الوصوفة أيضا في الرحلات المغربية نجد القصور، حيث يقدم لنا التمقروتي وصفا مفصلا لقصر السلطان العثماني بالقسطنطينية، ومن ذلك الوصف يقول: **"وهو واسع جدا كثير الأشجار وفيه أنواع من الوحش، وفيه قباب وبلاطات.."**[4].

وبالإضافة إلى وصف الرحالة المغاربة عموما لمختلف المشاهد التي مروا بها، فإنهم تركوا في رحلاتهم وصفا لآثار الطريق التي كانت تسلكها هذه القوافل في الذهاب

---

(1) ينظر: عواطف بنت محمد يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين دراسة تحليلية نقدية مقارنة، دارة الملك عبد العزيز، 2008م، ص574.

(2) ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 322/1.

(3) المصدر نفسه، 1/ 323.

(4) التمقروتي، النفحة المسكية، ص99.

والإياب، ابتداء من جنوب المغرب الأقصى إلى دلتا النيل، ثم الحجاز، ولا يمكن لأية قافلة أن تحيد عنها، وعلى هذه الطريق الرئيسية محطات مشهورة تلتقي فيها الأركاب، كبسكرة بالجزائر، وقابس بتونس، وطرابلس بليبيا والقاهرة بمصر، وبدر ثم مكة والمدينة بالحجاز، وقد جاء وصف هذه الطرق والمحطات مفصلا في مختلف الرحلات المغاربية الحجازية والعلمية وحتى السفارية.

الفرع الثالث: وصف الأشخاص

تعدّد وصف الأشخاص في الرحلات المغاربية من وصف حسي وآخر معنوي، بالإضافة إلى وصف حالة الشخص النفسية سواء شخص الرحالة أو غيره.

وكما سبقت الإشارة فإن وصف الأشخاص تعدد في الرحلات الجزائرية فكان إما وصفا حسيا، وإما وصفا معنويا غالبا ما تعلق بوصف الحالة النفسية للشخص سواء الرحالة نفسه أو حالة الأشخاص الذين صادفه أثناء الرحلة أو وصف الأشخاص من خلال مدحهم في أبيات شعرية أو نثر مسجوع.

أولا: الوصف الحسي للأشخاص

وهذا النوع من الوصف موجود في بعض الرحلات المغاربية في بعض الأحيان.

ففي الرحلات الجزائرية نجده عند ابن حمادوش الذي يصف زوجته في بيت من الشعر في قوله:

أسيلات أبدان رقاق خصورها وثيرات ما التأثت عليه المآزر[1].

كما وصف الورثلاني المرأة في الكثير من المواضع، مثل وصفه لجمال النساء البدويات في "عين القصب" بالقرب من "مغار شعيب"، حيث قال فيهن: **"ورأينا مجاورا لتلك العيون نسوة من العرب يوصفن بحسن العيون ويتعاجبن بظفائر الشعور...، كأنهن الأقماروكأنما نبتت في وجناتهن الأزهار.."**[2]. ففي وصف ابن حمادوش والورثلاني للمرأة شيء من الغزل والافتتان بجمالها.

---

[1] ابن حمادوش، لسان المقال، ص165.

[2] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 187/2.

وكما في الرحلات الجزائرية فإن وصف الأشخاص في الرحلات المغربية كان يرتكز أساسا على وصف المرأة، ويظهر ذلك على سبيل المثال عند ابن الطيب الفاسي الذي يورد أبياتا في وصف نساء عين ماضي في الأبيات التالية:

عين ماض بها عيون مــواض فاعلات فعل السيوف المواضي

والتفات الغزال لمـا غـــزالي صائلا صولة الأسود المواضي

وقدود تزهو إذا قدت القلـــب ازدهاء الأغصان بين الرياض(1)

والملاحظ على هذا النوع من الوصف أنه غالبا ما يرتكز على المرأة في أغلب هذه الرحلات.

ثانيا: الوصف المعنوي للأشخاص

أما النوع الثاني من الوصف وهو المتعلق بالحالة النفسية للرحالة أو غيره، فكان يتعلق في الرحلات المغاربية بوصف حالة الشوق والحنين والأسى والحزن، وكذلك الفرح والسرور بالإضافة إلى وصف الأشخاص بالمدح بعبارات منمقة أو في أبيات شعرية.

فمن أوصاف الشوق والحنين التي جاءت في الرحلات الجزائرية نجد وصف الشوق والحنين لزيارة بيت الله الحرام وقبر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، عند ابن عمار الذي امتلأت رحلته بأشعار الشوق والحنين لزيارة سيد المرسلين، فهو يقول في بداية كلامه بعد الاستهلال: "**لمّا دعتني الأشواق، النافقة الأسواق، إلى مشاهد الآثار، والأخذ من الراحة بالثار، وأن أجهر الأهل والوطن..، لبيت داعيها، وأعطيت كريمة النفس ساعيها..، ولما انبرى هذا العزم والنبرم، والتظى لاعج الشوق وانضرم، وباح والوجد بالسر المكتوم، وصاح حيّى على الوصل الفضاء المحتوم..**"(2)، ويقول أيضا: "**إني عزمت على الرحلة إلى الحجاز..، وأنا لا آوي من القلق إلى منزل ولا أسكن إلى ألف، قد شبّ عمر وشوقي على الطوق، وحملني الحنين إلى الحبيب فوق الطوق**"(3)، ثم أنشد بعض الأبيات في وصف ذلك الشوق قائلا:

---

(1) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص90.

(2) ابن عمار، نحلة اللبيب، ص3.

(3) المصدر نفسه، ص11.

والشوق أعظم أن يحيط بوصفه قلم وأن يطوي عليه كتاب
والله ما أنا منصف إن كان لي عيش يطيب وجيرتي غياب
أردد زفرة المضني كأني جريح أن من ألم الجراح
يقلبني الأسى جنبا لجنب كأني فوق أطراف الرماح
دعاني الحب نحوك أم عمرو فطرت إليك خفاق الجناح
ولو أستطيع من طرب وشوق ركبت إليك أجنحة الرياح[1].

كما يصف ابن حمادوش حالة الحزن جراء شوقه وحنينه إلى أهله (زوجته زهراء)، وعدم صبره على الفراق، وهو بالمغرب الأقصى، فأنشد قصيدة رائعة من أبياتها:

لقد كنت قبل اليوم أصبر صابر وها أنا في هذا الأوان ذليل
أنوح على بعد الديار صبابة نواحي الثكالى تحسبوني جميل
بثينة عندي وأنا جارها وفارقتها كرها فإني عليل
فلو كان طير يطير ببغيتي إلى دار زهرا بالكتاب يديل
ولكن لم تدر الطيور بأنني بكيت الدما قهرا ولي عويل
أتابع قلبي في الضلالة سائما ولي في مذاهيب المحبة قيل
عدمت الوفا والصبر مني والهدا وها أنا في بحر الهواء ضليل[2].

أما الوصف المعنوي للأشخاص فما أكثره في أغلب الرحلات الجزائرية خاصة المتعلق بالمدح، وخاصة في رحلات: المقري، والورثلاني، والمعسكري.

فالمقري يقدم على وصف الأشخاص بالمدح، خاصة الأمراء والعلماء وغيرهم، وغالبا ما يكون وصفه لهذه الشخصيات في أبيات من الشعر من نظمه، ومن بين القصائد التي يصف فيها الأشخاص، قصيدة له يمدح فيها "ابن مرشد" مفتي "الحرم المكي"، من أبياتها:

شيخ الشيوخ واحد الزمان مفتي الأنام عـابد الرحمـــان

[1] ابن عمار، نحلة اللبيب، ص11.
[2] ابن حمادوش، لسان المقال، ص108.

بحر العلوم جامع الأنحاء من خص بالإفتاء في البطحاء[1].

ويمتد الوصف عند المقري ليصل إلى وصف كتب الرجال بالمدح، كوصفه كتاب وزير مصري بعنوان: "بدائع البداية" في أبيات شعرية منها:

ما روضة باسمة الثغور ناعمة الأغصان والزهور

صافية الأنهار كالبلور حالية بالنور أو بالنور

وعرفها كالمسك والكافور إذا زارها النسيم في البكور[2]

وأما الورثلاني، ومثله المعسكري وأبو حفص، فيكثرون من وصف الشيوخ والعلماء لذا تجد رحلاتهم مليئة بوصف العلماء والشيوخ والمتصوفة بأوصاف معنوية منمقة بالعبارات الأدبية السجعية، ومن ذلك وصف المعسكري لأحد شيوخه من المغرب بقوله: "**شيخنا العالم الأجل الفقيه الأكمل الأمثل الأحفل..، التقي النقي، الزكي..، الولي الصالح الصوفي العارف..، بحر العرفان..، منبع الحديث والقرآن: الشيخ عبد الرحمن التادلي..**"[3]، ووصف أبو حفص لشيخه أحمد مبارك السجلماسي بقوله: "**كان علامة حافظا نظارا..، متفننا جامعا بين المعقول والمنقول..، متواضعا صاحب طريقة، واسع الصدر..**"[4]، ويحذو حذوهم ابن هطال في مدحه لسيده الباي محمد الكبير سواء شعرا أو نثرا، وكذلك ابن إدريس التنلاني في مدح "عمر باشا" داي الجزائر،والأمثلة على هذا الوصف كثيرة لا مجال لذكرها جميعا.

وكذلك الأمر بالنسبة للرحلات المغربية تعلق الوصف فيها بالحالة النفسية للرحالة وغيره كما تعلق بمدح الأشخاص أيضا.

إذ نجد العياشي في الكثير من المواضع يصف حالته النفسية، سواء حالة الحزن والأسى، أو حالة الفرح والسرور، ومن بين تلك الأوصاف ما ينقله لنا عن حالته المضطربة حيال شدّة شوقه وحنينه إلى زيارة البقاع المقدسة، مهبط الوحي والرسالة، وإلى مرقد خير الأنام صلى الله عليه وسلم، وهو في هذا يتشابه مع الكثير من الرحالة المغاربة، وأهل المغرب

---

[1] المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص68.

[2] المصدر نفسه، ص132.

[3] المعسكري، فتح الإله، ص63.

[4] عمر الأكبر التنلاني، الرحلة إلى فاس، ص190.

عموما، حيث يزيد شوقهم كلما كرروا زيارة تلك البقاع وحجوا إليها كلما سمحت لهم الظروف بذلك، فالعياشي كان يلزم نفسه بالحج كل خمس سنوات، لذلك كان ينتظر موسم الحج بكل شوق وحنين، فهو ينقل لنا في بداية رحلته ذلك الشوق والحنين إلى زيارة تلك البقعة المباركة في وصف رائع تمتزج فيه الأحاسيس الجياشة بمشاعر الأسى والحزن والاكتواء بنار الشوق والحنين والحسرة على ارتكاب الذنوب، والتوق إلى رؤية الحرمين فيقول: " **إنّي كنت منذ عقدت يداي إزاري، وتلوث مبيض صحيفتي بسواد أوزاري، متتابع الزفرات والأنين كثير الاشتياق والحنين، إلى تكحيل إنسان العينين بمشاهدة مشاهد الحرمين، ويتضاعف الوجد والتوقان، ويتزايد الشوق واليرقان..**"[1].

ثم يصف حالة الحزن والأسى وهو يكابد آلام الفراق، ويروض نفسه بتقبل فراق الأحبة والوطن من أجل نيل المراد، وذلك من بعد أن تيسر له أمر الرحلة، فيقول في بيتين:

ذريني أرد ماء المفاوز آجنا إلى حيث ماء للكرام معين
دعيني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيها الرسول دفين[2]

ثم يتبع ذلك كله بوصف حالة الفرح والسعادة بتوفيق الله له للرحلة ومصاحبة ركب الحجاج بما يحويه من الفضلاء والعلماء والأدباء، وبعد قضائه لرحلة الحج وتحقق زيارته لقبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، يصف حالة الأسى والحزن وألام الفراق للرسول وآله صلى الله عليه وعلى آله وبكاء العين أثناء الرحيل حيث يقول: "**فعندما انقضى أمد الغيبة وحصلت إلى الأوطان الأوبة، ظننت أن مشاهدة تلك الأماكن المشرفة بشرف الساكن تشفي من أليم الشوق عليلا، أو تبرد من أليم البعد غليلا، فبدا الأمر على خلاف المظنون وافتضح المكنون فلا يأتي أوان ارتحال الركب إلا أطاعت الجفون داعي السكب، وحنت حنين الثكلى الواله إلى معاهد الرسول وآله**"[3].

كما نجد التمقروتي يصف مشاعر الحزن والأسى في نفسه جراء فراق الأهل والخلان عند توجهه للحج في هذه الأبيات:

---

(1) العياشي، الرحلة العياشية، 1/ 51.
(2) المصدر نفسه، 52/1.
(3) العياشي، الرحلة العياشية، 53/1.

ودّعت قلبي يوم ودّعتهم وقلت ياقلبي عليك السلام
وقلت للنوم انصرف راشدا فإنّ عيني بعدهم لا تنام
محرّم يا عين أن ترقدي وليس في العالم نوم حرام[1].

أما وصف حالة الفرح والسعادة فنجدها عند أغلب الرحالة عند وصولهم إلى بيت الله الحرام، حيث يصف لنا الدرعي قمة فرحه حين وصوله مكة في قوله: " **فدخلنا مكة بفرحة لم تغادر في النفس ترحة، وجلت على العيون كل قرحة**"[2].

وهذه الأوصاف كثيرة جدّا في الرحلات المغربية سواء الحجازية أو غيرها من الرحلات الأخرى، إذ نجد الرحلات السفارية مثلا لا تخلو من الأوصاف المعنوية للحالات النفسية التي يتعرض لها الرحالة كحالة الخوف والهلع خاصة عند الرحالة الذين ركبوا البحر في رحلتهم نحو المشرق، ومن ذلك ماجاء في رحلة التمقروتي الذي خاض أهوال البحر حيث نجده يصف لنا حالة الفزع والخوف الذي حصل لنفوس ركاب السفينة عند هيجان البحر، ومما ذكر في ذلك: "**هال البحر وعظم الموج واشتدت الرياح وعظم الكرب واشتد الخطب وماد الناس وانقلبت أجوافهم بالقيئ، وما زالت الحال في زيادة شدّة إلى أن جئنا إلى مخرج ضيق هناك... فهناك أيقن الناس بالهلاك من شدّة اضطراب البحر...، ونحن في هذا الأمر الفظيع رأيت سفينة صدمتها أخرى فمالت وغاصت في الماء وأيقن أهلها بالغرق...، فرمى كل من عرف العوم منهم نفسه في البحر...، فقلت من شدّة الفزع: ما لأصحاب تلك السفينة يصرخون ويرمون أنفسهم في البحر؟ فقال لي رجل من البحرية بكلام نشط خائف فزع: اقرأ وادع الله وارغبه في السلامة فنحن غرقى..**"[3]، ثم يكمل وصفه لشدّة فرح الناس وسعادتهم بعد النجاة من الغرق فيقول: "**فضجّ الناس سرورا بالدعاء وأعلنوا بالحمد والشكر لله والثناء، ويا لها من بشارة ما أحلاها في النفوس وأوقعها في القلوب**"[4].

---

[1] التمقروتي، النفحة المسكية، ص24.

[2] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص364.

[3] التمقروتي، المصدر السابق، ص105، 106.

[4] التمقروتي، النفحة المسكية، ص106.

أما عن وصف الأشخاص غير شخص الرحالة في الرحلات المغربية فغالبا ما كان مرتبطا بمدح السلاطين أو الشيوخ والعلماء، وفي بعض الأحيان نجده في وصف المرأة.

وفي ذلك نجد الزياني يصف السلطان المولى سليمان بقوله: "**السلطان العادل الأفخم الذي هو في أنواع العلوم المقدم، وعند ملوك الإسلام مسموع الكلمة محترم، عالم الملوك وملك العلماء، الإمام المكرم**"[1].

كما نجد الحضيكي يصف أحد شيوخه بقوله: "**الياقوتة البيضاء والذهب الإبريز ذو الفنون والقصائد والنظام السيد الإمام عبد الله بن إبراهيم الرسموكي**"[2].

والملاحظ على الوصف عند الرحالة المغاربة عموما، أنه يمتاز بالدقة، إذ يصل عند بعض الرحالة بإعطاء الكثير من الأمور الدقيقة عن الأمر الموصوف، وبالإضافة إلى دقة الوصف عند الرحالة المغاربة، فإنّ منهج الوصف عندهم يعتمد على مشاهدة الرحالة ومعاينته للموصوف بالدرجة الأولى، باعتبار الرحالة شاهد عيان على الحدث أو الأمر الذي يصفه، وإذا شعر الرحالة بعجزه عن الوصف، جاء بوصف سابقيه لمختلف الأمور التي يشاهدها ويتعرض لها.

وللإشارة فقد ركزت في ما سبق على ذكر بعض النماذج من الوصف فقط تجنبا للإطالة، على سبيل المثال والتوضيح، وإلا فإن الرحلات المغاربية مليئة بالوصف لمختلف المظاهر الطبيعية والبشرية.

وخلاصة القولفإن الرحلات المغاربية جزائرية ومغربية لا تخلو من الوصف لمختلف الأمور التي شاهدها الرحالة، من مشاهد طبيعية وجغرافية، ومدن ومنشآت، وطرق ومسالك، وكذلك وصف الأشخاص والحيوانات وغيرها من الأمور التي مروا عليها، وتختلف دقة الوصف من رحالة إلى آخر، حسب المستوى العلمي والمعرفي والثقافي، لكل رحالة، بالإضافة إلى وجهة كل رحالة، إذ تجد الرحلات الحجازية يبرع أصحابها في وصف الطرق والمسالك إلى الحجاز، بالإضافة إلى وصفهم الدقيق للحرمين ومختلف المساجد، وعلى رأسهم العياشي الذي كانت رحلته نموذجا لمن بعده من الرحالة كالدرعي

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص55.

(2) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص63.

والورثلاني وغيرهم، في حين تجد الوصف الدقيق للطبيعة والحيوانات عند الرحالة ذوي الحس الجغرافي الرفيع كالوزان.

المطلب الثاني: منهج السرد

إنّ السرد في أبسط معانيه يعني الكلام بسلاسة ودون اضطراب ولا تلعثم، فهو الكيفية التي تروى بها الحادثة، أو تقص بها القصّة[1]، وبمعنى أدّق وأوضح: "**هو عملية ترتيبية لمجموعة من الأحداث ينتظمها إطار معين، وتخضع لخاصيات شكلية تميزها عن أنواع الخطاب الأخرى كالشعر والنقد والمسرح..**"[2].

يشكل السرد جزءا أساسيا في الخطاب الرحلي، إذ لا تخلو مختلف الرحلات المغاربية من الأسلوب السردي، وذلك فيما أورده الرحالة من أخبار عن أحوال الناس وأوضاعهم المختلفة، وعن وقائع وأحداث عاصروها أو سمعوا عنها في زمنهم أو في أزمنة سابقة، بالإضافة إلى سردهم لقوائم طويلة من التراجم للأعلام سواء علماء أو أولياء وصلحاء، وكذلك حكام وأمراء، سواء أحياء أو أموات، وهذا ما تحدث عنه هذا المطلب الذي قسم إلى ثلاثةفروع، تناول الفرع الأول: سرد الأحوال العامة للناس، والفرع الثاني تحدث عن سرد الأحداث والوقائع، أما الفرع الثالث فتناول سرد تراجم وسير الأعلام.

ونظرا لكثرة الأخبار والمرويات والأحداث والوقائع الواردة في مختلف الرحلات المغاربية أكتفيت بذكر بعض النماذج من بعض الرحلات فقط من أجل توضيح منهج الرحلات لا من أجل عرض محتواها.

الفرع الأول: سرد أحوال الناس

اعتمد الرحالة المغاربة في سردهم لأحوال الناس على تجربتهم الشخصية بالأساس، فخلال رحلاتهم وتنقلاتهم بين البلدان، كانوا يلاحظون ويعايشون أوضاع الناس، كما أنهم يتفاعلون معهم، وتجربتهم تلك ساعدتهم على سرد تلك الأحوال التي عايشوها بكل دقة ووضوح. لذلك تجد أغلب الرحلات المغاربية لا تخلو من سرد الأحوال

---

[1] ينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص289، 290.

[2] حسين خمري، فضاء المتخيل، منشورات دار الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002م، ص83.

العامة للناس في مختلف البلدان التي زاروها، سواء من الناحية السياسية أو العسكرية أوالاجتماعية والاقتصادية، أوالدينية، والعلمية، والفنية كما سيأتي توضيحه فيما يلي:

أولا: سرد الأحوال السياسية

من الأخبار الهامة التي قام بسردها الرحالة المغاربة، نجد على رأسها الأوضاع السياسية للبلد موضوع الزيارة، فقد اهتموا بذكر الحالة السياسية الخاصة بالبلدان العربية والتي كانت مختلفة من بلد إلى آخر، فمنها من كانت تحت حكم العثمانيين كـ"الجزائر" و"تونس" وغيرها، ومنها من كانت مستقلة استقلالا جزئيا كبلاد "الحجاز"، ومنها من لم تخضع لحكم العثمانيين أصلا كـ"المغرب الأقصى"، وهو ما جعل أنظمة الحكم في هذه البلدان تختلف عن بعضها وقد تتشابه أحيانا أخرى، بالإضافة إلى أمور أخرى تتعلق بالجانب السياسي، جاء سردها في الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية سجل الورثلاني مثلا في رحلته الضخمة ملاحظات ومعلومات هامة عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية للوطن العربي عموما، باعتباره كان شاهد عيان على تلك الأوضاع، خاصة الأوضاع السياسية المتدهورة في الأقطار العربية آنذاك، بدءا من بلده "الجزائر" إلى "تونس" و"ليبيا" و"مصر" و"الحجاز"، ومن أمثلة ذلك: سرده للأحوال السياسية للقطر "الليبي"أين أشار إلى الحدود السياسية بين "ليبيا" وجارتيها "تونس" و"مصر"، كما بيّن الحالة السياسية في شرق هذه البلاد وغربها ووسطها، وقد ساعده اتصاله بالأسرة الحاكمة في عهده، أن يقدم صورة حيّة عن أسلوب الحكم وعيوبه، وعن ضعف السلطة الحاكمة في البلاد "الليبية"، مما أدّى إلى الحروب المستمرة بين القبائل التي ظلّت تهدد المدن الكبرى في هذا القطر[1]، ومن نصوصه في ذلك قوله: **"ثمّ مررنا بالزاوية الغربية، وهي بلدة عظيمة قد جمعت ووعت أجناس الخلق وأصنافه من العرب وأولاد الترك وقبائل شتى، فلما فسد رأيهم وتقوّى فيهم الإهمال، وضعف فيهم حكم السلطان اضطرمت فيهم الفتنة وعظم فيهم الهرج، وصاروا إلى القتال، انقسمت عليهم الأعراب، أو أنّ السلطان رأى لهم ذلك لأن فيهم العمال والقواد**

[1] ينظر: فيلالي، رحلة الورثلاني، ص110.

وأرباب الدولة"[1]، والأخبار الهامة عن الأحوال السياسية في البلدان التي زارها الورثلاني وغيره من الرحالة الجزائريين، كثيرة جدا، اقتصرت على ما ذكر.

وعلى غرار باقي الرحلات الجزائرية نجد الرحلات المغربية قد اهتمت بسرد أخبار هامة عن الأوضاع السياسية في البلدان المزارة خاصة العربية منها، نجد الكثير منها يسرد أحوال بلاد "الحجاز" السياسية، بما فيها ذكر بعض الأنظمة السياسية، وبعض الأمراء، بالإضافة ذكر الأحوال الأمنية في المنطقة، مثل انتشار ظاهرة اللصوصية التي يمارسها أعراب الصحاري الحجازية على المارة خاصة الحجاج، وقد ورد الحديث عن هذه الظاهرة السياسية كثيرا في الرحلات الحجازيةالتي شقت طريقها وسط الصحراي جُحر اللصوص ومخبؤهممنها: رحلة الدرعي والعياشي والفاسي وغيرهم، كما اهتمت جل هذه الرحلات بذكر أنظمة الحكم السائدة في مختلف البلدان العربية والإسلامية أيضا والتي كانت أغلبها تحت حكم العثمانيين، فالعياشي على سبيل المثال أشار إلى تمتع الأمراء الأشراف بـ"مكة" بالاستقلال الداخلي في تسيير شؤونهم، لكنهم في نفس الوقت كانوا تابعين للدولة العثمانية[2]، كما أشار إلى قضية عزل المسؤولين وذوي المناصب وتعيين آخرين من طرف العثمانيين في الإيالات التابعة لها، مثل أمير المدينة الذي عين جديدا عليها أثناء دخول ركب الحج المغربي لها، حيث قال العياشي: **"وكان معنا في القافلة شيخ حرم المدينة تجدد في تلك السنة، وقدم من اصطنبول، وعزل الذي كان قبله"**[3]. ومثل هذه الإشارات للأحوال السياسية كثيرة في أغلب الرحلات المغربية.

ثانيا: سرد الأحوال الاجتماعية

وتحضى الأحوال الاجتماعية هي الأخرى بمكانة هامة في الرحلات المغاربية، من حيث سرد مختلف تفاصيلها.

ففي الرحلات الجزائرية على سبيل المثال نجد ابن حمادوش يسرد الأحوال العامة "للجزائر" و"المغرب الأقصى"، خاصة الاجتماعية منها، ومن بين ما سرد لنا في رحلته عن الأحوال الاجتماعية للمغرب الأقصى، كيفية الاحتفال بعيد الأضحى عنهم حيث

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 287/3، 288.

(2) ينظر: نواب، كتب الرحلات في المغرب، ص191.

(3) العياشي، الرحلة العياشية، 385/2.

يخرج الفرسان بعد الصلاة للرمي بالمكاحل، ونصه في ذلك قوله: "**وفي يوم السبت صنع عيد الأضحى بغتة..، إلى الضحاء أتت بينة من طنجة فصنع العيد وذهبنا إلى المصلّى، فخرج قائدهم في جماعته وبين يده حربة عالية طويلة جدّا وأمامه نحو المائتي مسخر حاملة المكاحل كلها، وهم يرمون، ومعه نحو الخمسة فرسان أو نحوها...**"[(1)]، كما ذكر عدّة مظاهر اجتماعية أخرى بـ"المغرب الأقصى" كان شاهدها وعايشها مدّة إقامته هناك، كما لا تخلو الرحلات الجزائرية الأخرى من سرد الأحوال الاجتماعية للناس في مختلف البلدان التي زاروها، فابن عمار يسرد لنا كيفية احتفال الناس بالمولد النبوي في "الجزائر"، كما يسرد لنا أيضا الاحتفال بذات المناسبة في العهد الزياني داخل قصر السلطان، بالإضافة إلى سرد ابن هطال والأغواطي لأحوال سكان الصحراء الاجتماعية من حيث كيفية العيش من السكن والغداء والأنشطة الاقتصادية وغيرها من الأمور التي سنتعرف عليها لاحقا (في الباب الثاني).

وكذلك الرحلات المغربية تطرقت إلى سرد الأخبار والأحوال العامة لمختلف البلدان التي زارها الرحالة، ومن تلك الأوضاع والأحوال العامة نجد سرد الأحوال الاجتماعية للمجتمعات بما فيهاالأنشطة التي يمارسونها، والمستوى المعيشي لديهم، والألبسة والأطعمة والأشربة، وكذلك عاداتهم وتقاليدهم وممارساتهم واعتقاداتهم وغيرها من الأمور، منها ماورد في رحلة الوزان الذي اهتم بسرد تفاصيل حياة الناس في رحلته، ومن بين ما ذكر أحوال أهل مدينة "فاس" الذين يتصفون بالغلاظة ولا يحبون الغرباء وتصعب معاشرتهم، كما أن علماءها متكبرون، ونصه في ذلك قوله: " **أكثرهم بغيضون لا يحبون الغرباء..، وأضيف إلى ذلك أن الأعيان متكبرون جدّا لدرجة أنّ عددا قليلا من الناس يستطيعون معاشرتهم، ويصدق نفس الشيئ على العلماء والقضاة الذين يأبون حفاظا على سمعتهم أن يتعاملوا إلا مع بعض الأشخاص فقط** "[(2)]، كما أنه يسرد أحوال سكان مختلف مناطق "إفريقيا" الأخرى خاصة جهة الشمال، فكثيرا ما يتحدث عن أصل السكان

[(1)] ابن حمادوش، لسان المقال، ص107.

[(2)] الوزان، وصف إفريقيا، 276/1.

أخلاقهم وأعمالهم، ومأكلهم ومشربهم، وما إلى ذلك من أحوال الناس الاجتماعية، كسكان مملكة "تلمسان" و"بجاية"، وسكان "مصر" وغيرها كثير.

ثالثا: سرد الأحوال الثقافية

أما عن الأحوال الثقافية بما فيها العلمية والدينة والفنية، فنجدها بكثرة في مختلف الرحلات المغاربية.

فأغلب الرحلات الجزائرية اهتمت بسرد الأحوال الثقافية للمجتمعات، خاصة المعسكري الذي ركز على ذكر أشياخه في بلده "الجزائر" و"المغرب الأقصى"، ومختلف البلدان الإسلامية الأخرى التي زارها أثناء رحلاته، فقد اهتم المعسكري بسرد مختلف المظاهر العلمية كالمناقشات والمناظرات، والإجازات وإلقاء الدروس، والتي من خلالها تتضح لنا صورة الأحوال العلمية في مختلف البلدان التي زارها، ونذكر على سبيل المثال، سرده لأحوال "الحجاز" العلمية خاصة ذكره للمذاهب وعلماء الحركة الوهابية بـ"الحجاز"، أين التقى بهم في حجّه وتناظر معهم في عدّة أمور منها التسبيح بالسبحة وهدم قبور الأولياء وغيرها، فوجدهم خارجين عن المذاهب الأربعة في الفروع، وفي ذلك يقول: **"لقيت علماء الوهابية، وهم تسعة علماء أكابر جماهير، وأفضلهم الشيخ علي تاسعهم، فوقع لي معهم مناظرة ومباحثة واعتراضات وسؤالات، وأجوبة فائقات، ودلائل قاطعات، وأحاديث مروية عن أكابر الأئمة من الأمهات، ثم تناظرنا بعد صلاة العصر قبالة الحجر في صلاة العصر، وقراءة دليل الخيرات، والتسبيح بالسبحة، ومشاهد السادات، وهدم مباني الأولياء ذوي الكرامات، فرجعوا عن البعض بعد الاستدلال بالنصوص العظيمة العميمة، وكان ظنّي فيهم أنهم حنابلة المذهب...، فعلمت أنهم خارجون عن المذاهب الأربعة في الفروع، أمّا في العقائد فهم على ما عليه الإمام أحمد"**[(1)]، وكذلك يسرد لنا ابو حفص عمر الأكبر الحالة العلمية في "الجزائر" و"المغرب الأقصى" خاصة "فاس" التي رحل إليها من أجل طلب العلم بعد شغور بلده "الجزائر" من العلماء على حدّ قوله.

وكذلك الرحلات المغربية اهتمت بسرد الأحوال الثقافية للبلدان المزارة، ومنها سردهم للحياة الدينية لمختلف البلدان، بما في ذلك الحديث عن المذاهب الفقهية، ومن الرحالة الذين

(1) المعسكري، فتح الإله، ص119.

اهتموا بذلك نجد على رأسهم التمقروتي، الذي قام بسرد تفاصيل الحياة بعاصمة العثمانيين باعتباره سفير بلده "المغرب" إلى "اسطنبول" في عهده، فمما سرد ملاحظاتخاصة بالمذاهب الفقهية هناك مشيرا إلى المذهب الرسمي لأهل المدينة وهو "مذهب أبي حنيفة"، ووجود "المذهب الشافعي" الخاص بالواردين من "مصر"، بالإضافة إلى جهلهم تماما بـ"مذهب مالك"، كما أشار إلى تبديل الواردين من مختلف البلدان لمذهبهم طلبا للمعاش والجاه، ونص ذلك في قوله: "**ولقينا في هذه المدينة من فيها من الفقهاء والعلماء وأكثرهم حنفيون، وبعض من وردها من مصر شافعيون، وأما مذهب مالك فلا يذكر هناك ولا يعرفونه، وكتبه هناك تباع بأرخص ثمن، وأهل تلك البلاد كلها على مذهب أبي حنيفة، وقد يرجع بعض من يرد ممن هو على غير مذهبهم من الفقهاء إلى مذهبهم، ويترك مذهبه طالبا للجاه والمعاش معهم**"[1]. وبالإضافة إلى سرد الرحالة لبعض الأحوال الدينية نجدهم كثيري الاهتمام بسرد الأحوال العلمية والفنية وغيرها سواء في البلدان المغاربية أو في مختلف البلدان الإسلامية التي زاروها.

الفرع الثاني: سرد الوقائع والأحداث

إضافة إلى التجربة الشخصية للرحالة المغاربة الذي ساعدهم على سرد الأخبار، هناك أمر مهم آخر ساعدهم كثيرا على سرد الأحداث والوقائع سواء المعاصرة لزمنهم أو التي حدثت في أزمنة وأمكنة أخرى، ففي سردهم للأحداث المعاصرة لهم ساعدهم على ذلك حضورهم الشخصي ومشاهدتهم ومعاينتهم المباشرة أو سماعهم بالأخبار المنقولة إليهم، لذلك كان منهجم السردي يعتمد على المشاهدة والمعاينة بالإضافة إلى السماع.

أولا: سرد وقائع وأحداث سياسية

تسرد لنا الرحلات المغاربية العديد من الحوادث والوقائع المهمة التي جرت في تاريخ البلدان الإسلامية، والتي عاصرت زمن الرحالة، وبالضبط في العهد العثماني، ومن بين تلك الأحداث نذكر على سبيل المثال والتوضيح: ثورة الريفي بالمغرب، وثورة صعيد مصر، وتنصيب خير دين بربروس حاكما على الجزائر، وغيرها من الأحداث السياسية.

---

[1] التمقروتي، النفحة المسكية، ص101.

ففي الرحلات الجزائرية تسرد لنا رحلة ابن حمادوش أخبارا هامة عن الكثير من الوقائع والأحداث التي عاصرها وكان شاهدا عليها، خاصة في "المغرب الأقصى" باعتباره عاش فيها مدّة من الزمن، ومن تلك الأخبار التي سردها عن بعض الأحداث المهمة في تاريخ المغرب، هي ذكره لثورة الريفي، إذ يقول عن ذلك: "**الحمد لله، ثمّ إنّ من القضاء المقدور للباشا الريفي، باشا تطوان، وسوء القضاء والاتفاق، أنه لمّا آن من الله عليه بالعزّ والجاه والمال أراد أن يدّعي الملك ويخطب لنفسه، فقيل له أنّ أهل المغرب لا ينظرون إلا آل البيت وأنت لست منهم، فاستظهر بعقد زوره أنّه شريف، فلم يقبلوم منه لأنهم يعلمون أنّ أباه من أهل الريف الشلح يخدم الأبغال، ثمّ ترقى لخدمة أبغال مولاي إسماعيل حتى ترقىّ إلى الولاية، فنشأت له هذه النطفة الفاجرة المفسدة في الأرض**"(1)، فابن حمادوش في هذا النص يسرد لنا واقعة كان شاهد عيان عليها في "المغرب الأقصى"، وهي ثورة "االباشا أحمد الريفي" على السلطان "مولاي اسماعيل" والتي كانت سنة 1156هـ.

كما سرد لنا الوثلاني في رحلته هو الآخر العديد من الوقائع والأحداث التي عاصر حدوثها، في بعض البلدان الإسلامية كـ"ليبيا" و"مصر" و"الحجاز"، ومن بين تلك الأحداث التي ذكرها: إحدى الثورات في "مصر" ، وهي ثورة الباي" صالح بك" الذي أبعد عن السلطة، فيقول الورثلاني في إطار إجابته عن أسئلة نصارى قصر الرهبان: "**وسألونا عن مصر وكيف هي؟ وعن حالهم فأجبناهم عما وقع بينهم وبين صالح باي الذي كان في الصعيد، وقلنا له: انتشب بينهم القتال وانهزمت طائفة مصر..**"(2)، فالورثلاني في هذه النقطة لم يذكر تاريخ الواقعة وإنما اكتفى بذكرها فقط.

وفي الرحلات المغربية فباعتبار أنّ الوزان كان معاصرا لبدايات دخول الأتراك إلى "الجزائر"، فقد سجلت رحلته بعض الأحداث المهمة الخاصة بذلك، ومن تلك الأحداث المهمة التي سردها، تنصيب "خير الدين بربروس" حاكما "للجزائر" بعد مقتل أخيه "عروج"،فقد سرد لنا الوزان هذا الحدث اعتمادا على سماعه وتدل على ذلك عبارة

(1) ابن حمادوش، لسان المقال، ص91.

(2) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 231/3.

"قيل لي"، وجاء ذلك في نصّ قوله: "**وقيل لي أن بربروس (عروج) قتل في ذلك الوقت بتلمسان، وبويع أحد أخويه المسمى خير الدين أميرا على الجزائر وما زال يحكمها إلى الآن" (924هـ/ 1518م)**[1]، إذ لم يكن الوزان حاضرا زمن التنصيب لأنه كان مسافرا إلى "تونس" عبر "قسنطينة"، وقد عايش الأحداث قبلها عندما كان بـ"بجاية" و"الجزائر"، فشهد حصار "عروج" لـ"بجاية"، وفرارهذا الأخير إلى "جيجل" وغيرها من الأحداث، حتى أنه صرح بذلك فقال: "**حضرت جل هذه الأحداث، إذ كنت على سفر من فاس إلى تونس**"[2]، وسيأتي الحديث عن هذه الأحداث في الباب الثاني الخاص بأوضاع الجزائر.

كما سرد لنا الدرعي في رحلته قضية زيارة السلطان العثماني لـ"مصر"، وبالذات مدينة "الإسكندرية"، وما جرى بينه وبين أهلها من حوار وطلبهم منه إعمار المدينة بعد خرابها ورفضه لذلك، لكن الدرعي لم يحضر شخصيا وإنما سمع الخبر وحكي له، فقال: "**حكي أن السلطان العثماني لما دخل مصر وجاء إلى الإسكندرية، طلع ذات يوم إلى كوم مشرف على البلد وجاء أهل الإسكندرية وقالوا: ياسلطان إن بلدنا هذا قد استولى عليه الخراب كما ترى فنريد من كمال جودك أن ترحمنا وتصرف نظرك إلى عمران هذا البلد، فإن مكانته من مدائن العالم معروف، فعسى أن يرجع إلى بعض حاله الأول على يدك وسكت عنهم ساعة وهو مطرق، ثم رفع رأسه إليهم وقال لهم: إنّ هذه البلدة قد نظر إليها الحقّ وقال لها كوني دقّا، وأنا لا أقدر أن أعمر ما أذن الله في خرابه، فانصرفوا عنه**"[3].

كما توجد أخبار عن وقائع سياسية أخرى في مختلف الرحلات المغاربية نكتفي بما ذكر على سبيل التوضيح.

ثانيا: سردأحداث ووقائع عسكرية

اهتمت الرحلات المغاربية بسرد أغلب الأحداث والوقائع العسكرية التي جرت أحداثها أمام ناظري الرحالة أو طرقت أسماعه من غيره، ومن أهم تلك الوقائع العسكرية مثلا:الحملة

---

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 39/2.

(2) المصدر نفسه، 38/2.

(3) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص626.

الفرنسية على "مصر"عام 1203هـ/ 1789م، والتي ورد ذكرها في رحلة المعسكري، وهي التي كانت بقيادة نابليون بونابرت، فقد أشار إليها بسرده بعض تفاصيلها فيما يتعلق بفرض الضرائب على أهلها ونهايتها بعد ثلاثة أعوام من مجيئ الفرنسيين إلى "مصر"، وذلك في سياق حديثه عن شيخه "عبد الله الشرقاوي"، ومن قوله في ذلك: "**ولما دخل الكفرة مصر، وألزموا المسلمين المحبوب، وبطاقة، كان يدافع عنهم على قدر الجهد والطاقة..، إلى أن فرّج الله بعد الثلاثة من الأعوام..**"[1]

كما لم يفت الرحلات المغربية سرد مختلف الوقائع والأحداث المعاصرة لهم، وكان من تلك الحوادث والوقائع المهمة المعاصرة التي ورد ذكرها في تلك الرحلات: قصف لمدينة "طرابلس" الليبة من طرف النصارى، وهو الحدث الذي عاصره الدرعي في حجته سنة 1096هـ، فذكره في سياق حديثه عن مدينة طرابلس عند وصول ركب الحجيج إليها، إذ وصف هذه الحملة وصفا دقيقا، مع سرد مختلف تفاصيلها، لكنه في ذات الوقت لم يذكر اسم الدولة النصرانية التي شنت هذه الحملة، وإنما اكتفى بقوله: "الكفار"، ومن بين ما سرد: "**وفي رحلتنا للحرمين الشريفين سنة ست وتسعين وألف، وحاصرها الكفار، دمّرهم الله تدميرا، وذلك أنّا يوم نزولنا بها بمنزل الركب بسبب البحر، إذا بسفن ثلاث ظهرت على متن البحر، ثمّ تتباعت الفلك في اليوم نفسه إلى أن أكملت اثنتين وعشرين سفينة، فأقاموا عليها دمّرهم الله بقية الثلثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وأهل المدينة في تلك المدّة في هول عظيم، ونكد جسيم، وعناء شديد...، ولما كان بعد صلة العشاء ليلة السبت ضرب الكفرة دمّرهم الله بمدافعهم، فرأينا من ذلك ما لم نره قطّ ولا سمعنا به، ترى البارود حين يخرج من بخش المدفع، فإذا بكورة محماة تحكي الشهب خرجت منه فصعدت، ثم يرمون بأخرى وترتفع أكثر من الأولى، ثمّ تتدلى هابطة، فإذا وقعت بالأرض سمع لها صوت هائل تصمّ منه الآذان فتتصدّع في الموضع الذي وقعت فيه وتتفرق، ولا تقع على بناء إلا وهدته، ولا على بسيط مستو إلا وجرفته وحفرته...، ولا على شجرة إلا وأحرقتها أو قلعتها...، وضربوا فيما أخبرني بعض فقهاء البلد بأزيد من تسعمائة كورة...، فكثر اللغط والعويل بالبر، فجاء أهل الإسلام من كل وجهة مشاة**

[1] المعسكري، فتح الإله، ص61.

وركبانا بعَدد وعُدد..، وشمروا للنزال وتهيؤوا للدفاع والقتال..، واجتمعت آلاف مؤلفة من أهل الإسلام من أجل الدفاع والقتال، وما ردّ الكفرة من الخروج إلا ما رأوا من شدّة الحزم وقوة العزم وأبلغ الغيظ على أهل الكفر والظلم، ثم جرى بينهم صلح على أن يدفع لهم المسمون جميع من عندهم من أسراهم، وشرط عيهم المسلمون مثل ذلك، والكفار على المسلمين أن يردوا لهم ما أخذوا منهم قبل ذلك الزمان في البحر في هدنة بينهم، وقبل المسلمون لهم ذلك.."[1].

كما سجلت لنا مختلف الرحلات المغاربية العديد من الوقائع والأحداث المهمة التي كان الرحالة شهود عيان عليها، فسردوا مجرياتها كل بأسلوبه، أو أحداث عاصروها ولم يشهدوها فنقلوها بالسماع كما رويت لهم وقائعها، فالرحلات الجزائرية اهتمت بسرد تفاصيل الأحداث الواقعة بـ"الجزائر"، فسرد الورثلاني تفاصيل الفتن الداخلية خاصة في المناطق الجبلية الوعرة التي يصعب على السلطان التدخل فيها، كما سرد الأغواطي الفتن والصراعات الداخلية بين الإمارات المحلية في المناطق الصحراوية، وكذلك سرد ابن إدريس التنلاني تفاصيل الحملة الإنجليزية على الجزائر العاصمة سنة 1816م، بالإضافة إلى سرد المعسكري لفتح وهران التي كانتبيد الإسبان، كما اهتمت الرحلات المغربية أيضا بسرد تفاصيل الأحداث والوقائع التي كانت في زمن الرحالة، وبالخصوص التي حدثت في بلدهم "المغرب".

وبالإضافة إلى سرد الرحلات المغاربة لأحداث ووقائع سياسة أو عسكرية كانت في زمنهم، فإنهم اهتموا أيضا بسرد الوقائع والأحداث التارخية السابقة لعهدهم من خلال نقلها عن مصادر مختلفة، فرحلاتهم مليئة بالنصوص الساردة لتلك الأحاث والوقائع التاريخية لا يسع المجال لذكرها، وإنما كان تركيزي على ذكر نماذج من الوقائع والأحداث المعاصرة لزمن الرحالة.

والخلاصة فالرحالة المغاربة لم يفتهم سرد مختلف الأخبار الخاصة بأغلب نواحي الحياة العامة للشعوب والبلدان التي زاروها خلال رحلاتهم، كما لم تُفتهم فرصة سرد تفاصيل الوقائع التي كانوا شهود عيان على وقوعها، أو التي تناقلتها أسماعهم من غيرهم. فكان

---

[1] ينظر: الدرعي، الرحلة الناصرية، ص178- 180.

السرد عندهم يتميز بالدقة والوضوح وشيئ من التفصيل عند مختلف الرحالة المغاربة، كما يختلف من رحالة إلى آخر، فهناك رحالة يهتم بسرد أدّق تفاصيل الحادثة أو الواقعة، أو الأحوال العامة للمجتمع موضوع الزيارة، فيما يكتفي بعض الرحالة بالإشارة إلى الحوادث والأحوال دون ذكر التفاصيل الدقيقة، ولا يكادون يختلفون في أسلوب الوصف عموما.

الفرع الثالث: سرد تراجم الأعلام

لعل من أهم الأخبار والمرويات التي سردتها الرحلات المغاربية سرد تراجم وسير الأعلام، إذ حفلت أغلب هذه الرحلات بأخبار العلماء والأولياء والمتصوفة والأدباء وحتى الحكام.

أولا: سرد تراجم الأولياء

كان حرص أغلب الرحالة المغاربة شديدا على ذكر تراجم الأعلام بمختلف أطيافهم من: الأولياءوالعلماء والحكام، سواء الأحياء منهم والأموات، فنجدهم قد خصصوا أجزاء كبيرة من رحلاتهم لذكر هؤلاء الأعلام، فلا تكد أي رحلة جزائرية أو مغربية تخل من ذكر العلماء والأولياء أصحاب الكرامات وكذلك الحكام والأمراء والسلاطين، سواء في بلدانهم أو في البلدان الأخرى التي زاروها، وهذا ما سنراه من خلال عرضنا لبعض هذه التراجم التي جاء سردها في النصوص الرحلية.

فمن الرحلات الجزائرية نجد الورثلاني يسرد قائمة طويلة من التراجم للأولياء والعلماء والفقهاء الأحياء منهم والأموات، سواء بوطنه أو بالمناطق والمدن التي زارها خلال رحلته، فقد حصر اهتمامه أكثر على هذه التراجم، وذكر الأحوال والأخبار على مدى فترات، بحيث لم يقتصر على فترة معينة، أو طائفة من الناس، كما لم يختص بمذهب من المذاهب، أو فن من الفنون[1]، وبما أن الورثلاني أحد رجال المتصوفة في الجزائر، فإنه يقدس التصوف ويوليه أهمية كبيرة، إذ شغل حديثه عن الأولياء والصوفية حيزا كبيرا في رحلته، فهو يتحدث عن أولياء وطنه ومزاراتهم في كل مكان، كما أنه كلما حل بمنطقة أو ببلد إلا وتحدث عن الأولياء فيها، وعن زيارته لهم والتبرك بهم والدعاء عندهم، ومن بين

[1] عبد القادر بكاري، منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (1519– 1830م) أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران_ الجزائر، 2016م، ص209.

ما سرد لنا في رحلته عن الأولياء أحد أولياء الله في "ليبيا" الذي لقيه في إحدى حجّاته فقال عنه: " **وفي تلك الحجّة زرنا سيدي أحمد الزريبي وهو ولي صالح يخبر بالمغيبات كثيرا، وقد غلب عليه الغيب عن حسه بمحبة ربّه بل أظنه قد زال عنه عقل التكليف وبقي فيه عقل التعريف، وذلك أن من ذاق شيئا من كنه الذات أو الصفات قلّ أن يبقى معه عقله..، وفي هذه الحجة وجدته ميتا مقبورا عند منزل الركب، وعليه روضة عظيمة، وقبره يزار وقد اجتمعت أهل توزر على تعظيمه ومحبته والاعتقاد فيه، وأنه ولي من أولياء الله من غير شك..**"[1]

وسرد تراجم الأولياء وأخبارهم لا تقتصر على رحلة الورثلاني فحسب، إنما حذت بعض الرحلات الجزائرية حذوه في ذلك كالمعسكري وأبو حفص عمر الأكبر، وغيرهم.

كما تمتلئ الرحلات المغربية بأخبار الرجال الأحياء منهم والأموات، ومن بينهم الأولياء أصحاب الكرامات، فأغلب الرحالة خصصوا جزءا كبيرا من رحلاتهم لسرد أخبارهم وسيرهم، وترجمة حياتهم، ومن هؤلاء المهتمين كثيرا بسرد أخبار الأولياء، نجد الحضيكي، الذي جعل ذلك نصب عينيه، بل كان ذكرهم سبب تأليفه للرحلة، لذلك تجده لا يمر على قرية أو مدينة أو بلد إلا وتوقف عند قبور وأضرحة أوليائها للتبرك والدعاء عندهم، ومن الأخبار التي سردها في ذكر هؤلاء نذكر على سبيل المثال قوله:"**شيخنا السيد حسين الشرحبيلي، من أئمة الطريقة..، وزرناه في قبره..، وهو رضي الله عنه شيخنا في الطريقة الشادلية التي هي أفضل وأعظم الطرق كما نص عليه علماء ذلك الشأن، وقالوا: أصح الطرق إلى الله وأقومها الطريقة الشاذلية والطريقة القادرية، وليس لهما ثالثة، أخذها رحمه الله تعالى عن شيخه أبي العباس سيدي أحمد بن محمد الدرعي، والسيد أحمد عن أبيه، عن أحمد بن علي الدرعي، عن أبي القاسم الغازي الدرعي، عن أبي الحسن علي بن عبد الله السجلماسي، عن أبي العباس أحمد بن يوسف الملياني، عن شيخه أبي العباس أحمد زروق، عن أبي العباس أحمد بن عقبة الحضرمي، عن أبي الحسن علي القرفي، عن تاج الدين ابن عطاء الله الإسكندري، عن شيخه أبي العباس المرسي، عن شيخه أبي الحسن الشاذلي..، عن القطب إبراهيم البصري..، عن**

---

[1] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 264/1، 265.

أول الأقطاب الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم"[1]، وكما نلاحظ فإن الحضيكي سرد لنا قائمة طويلة من الأعلام الأولياء أصحاب الطريقة الشاذلية، كل ذلك عندما ذكر قبر شيخه الشرحبيلي، فتوالت القائمة إلى أن وصلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: سرد تراجم العلماء

ومثلما اهتم الرحالة المغاربة بسرد قوائم طويلة للأولياء في رحلاتهم، حظي العلماء أيضا بحيز كبير في هذه الرحلات، من خلال ترجمة أغلب الرحالة لعدد كبير من العلماء، ابتداء من علماء بلدهم المشهورين سواء الأحياء منهم أو الأموات، أو حتى علماء البلدانالإسلامية الأخرى، وحتى علماء آخرين من القدامى ليسوا بعرب ولا مسلمين، كذكر بعض الفلاسفة اليونانيين، وغيرهم

ومن بين أهم وأبرز الرحلات الجزائرية التي اهتمت بهذا الجانب نجد رحلة المعسكري، على غرار المقري وابن عمار، وكذلك أبو حفص عمر الأكبر، ذون أن ننسى الورثلاني، وتبقى رحلات كل من ابن إدريس والأغواطي بالإضافة إلى رحلة الباي محمد الكبير، فتوجد بها بعض الإشارات القليلة للعلماء.

حيث كان السياق العام لرحلة المعسكري عبارة عن ترجمة لعلماء عصره، حتى أنه خصص بابا من كتابه سماه: "**في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي**"، فسرد لنا قائمة طويلة من العلماء سواء في الجزائر، أو في غيرها من البلدان التي زارها، فبالإضافة إلى شيوخه الذين أخذ عنهم، ذكر العلماء الذين التقى معهم خلال رحلته في المغرب والمشرق، وجرت له معهم مناقشات ومناظرات علمية، لذلك تجده في ذكر شيوخه يكثر من قوله: "ومنهم شيخنا فلان"، "ومنهم فلان"..، كما أنه يكذر "ولما رحلت إلى كذا التقيت بالعالم فلان"، وهكذا في كل الرحلة، ومن أمثلة ذلك نجد قوله في ذكر شيوخه: "**ومنهم شيخنا الشيخ عبد الملك الشامي ثم القلعي، ذو الجانب المرعي، الذي ليس فضله يخفى، الإمام الحنفي، مفتي مكة المشرفة**"[2]، ومن أمثلة ما يقول في لقائه العلماء: "**ثمّ**

(1) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص78، 79.

(2) المعسكري، فتح الإله، ص64.

رحلت إلى ينبوع البحر، مأوى الغريب والإيلاف، إلى الشيخ عمارة العلاف، من أعظم من لقيت به قدرا وأرفعهم خطرا وأشرفهم ذكرا، أحد الأئمة الكبائر، فارس المنابر إمام الأئمة وقدوة الأمة.."[1].

وكذلكالرحلات المغربية حافلةبقوائم طويلة للعلماء في مختلف البلدان التي زارها الرحالة، فهناك رحلات ألفت لذلك الغرض بالأساس، منها رحلة ابن زاكور، وما يدل على ذلك بوضوح عنوانها الموسوم بـ: "**تشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان**"، فابن زاكور من خلال رحلته هته يسرد قائمة طويلة لمختلف العلماء الذين لقيهم ببلده أو بـ"الجزائر" الذين أخذ عنهم وأجازوه في مختلف العلوم الشرعية، وقد رحل من أجل لقائهم، ومن بين هؤلاء العلماء الذين ذكرهم: الشيخ "علي بن عبد الواحد السجلماسي الأنصاري" في قوله: "**أبو الحسن سيدي علي بن عبد الواحدالسجلماسي الأنصاري، قدّس الله روحه في دار النعيم، مع جماعة من الطلبة الأخيار، والنجباء الأبرار، أخذت عنه فنّ الأصول والبيان والمنطق، ومصطلح الحديث والفقه والحديث والسير والتصوف.."**[2]، ومن بين ما ذكر أيضا من علماء الجزائر "عبد المؤمن الحسني"الذي قال عنه: "**ومنهم الفاضل العلامة الذي جعل للمحاسن علامة، فاعترف بفضله كل موقن، أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري، أتمّ الله نوره، وأدام سروره بمنّه وفضله، غرّة مجد في جبين الجزائر ساطعة، ودرة فضل في جيد المكارم لا معة، وبحر من السماحة زاخر، أعي الأوائل والأواخر، رحل إلى المشرق مرارا، وانتجع للمعارف قطارا، وحظي بصحبته شيوخ جلّة..، وتوغله في الأدب هو الذي أولاه عالي الرتب..، إذا سجع كلاما أو رصّع نظاما، سحر ببيانه عيانا، وأسكر بسلافة إبداعه أذهانا، وإن تكلم في سائر العلوم نفس عن المكظوم، وأحيا قتيل الهموم"**[3]،كما ورد سرد تراجم العلماء في الرحلات المغربية الأخرى كرحلة التمقروتي والزياني، وغيرهما.

---

(1) المعسكري، فتح الإله، ص118.

(2) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص47.

(3) المصدر نفسه، ص49، 50.

ثالثا: سرد تراجم الحكام

وبالإضافة إلى سرد تراجم الأولياء والعلماء نجد اهتمام الرحلات المغاربية بسرد تراجم الحكام والأمراء والسلاطين، حيث ورد ذكر حكام الجزائر من البايات والباشوات، وكذلك حكام ليبيا وتونس ومصر والحجاز، بالإضافة إلى سلاطين المغرب الأقصى والدولة العثمانية، وليس هذا فقط بل قدمت لنا هذه الرحلات تراجم للفاتحين الأوائل لبلاد المغرب.

وإذا كانت بعض الرحلات الجزائرية قد أشارت إلى بعض الحكام بتقديم ترجمة بسيطة لهم ممزوجة بعبارات المدح والرثاء تارة، فإن ابن حمادوش قد سرد لنا قائمة طويلة لسلاطين آل عثمان، بالإضافة إلى قائمة لباشوات الجزائر وأغواتها بالترتيب من البداية إلى عصره فذكر قرابة السبعين باشا، وعن قائمة السلاطين العثمانيين ذكر خمسة وعشرون سلطانا مرتبين حسب الفترة الزمنية، فقال: "**أولهم السلطان عثمان خان، تولى عام 641 أحد وأربعين وستمائة، ثانيهم ابنه السلطان أورخان عام 701 واحد وسبعمائة، وثالثهم ابنه السلطان مراد خان عام 730 ثلاثين وسبعمائة**"[1]، ثم يكمل ابن حمادوش عرض قائمة السلاطين العثمانيين إلى أن يصل إلى آخرهم الذي زمنه فيقول:"**خامس وعشرين من ملوكهم السلطان محمود تولى عام 1143هـ ثلاثة وأربعين ومائة وألف، وهو باق إلى الآن**"[2].

ثم يردف موضحا أصلهم بقوله: "**فهذه ملوك بني عثمان، وليسو هم من ذرية سيدن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وإنما من ذرية هذا التركي الذي توصل إلى الملك**"[3]، ويقصد بذلك أتراك الجزائر.

و يوجد في الرحلات المغربية أيضا سرد قوائم لبعض الحكام، ومثله ما فعله الزياني الذي سرد قائمة بأسماء ملوك بلده المغرب العلويين من "المولى الحسن الداخل" إلى "المولى سليمان"، وقد جاء ذلك نظما في قصيدة يقول فيها:

---

[1] ابن حمادوش، لسان المقال، ص233.

[2] المصدر نفسه، ص235.

[3] المصدر نفسه، ص235.

الشمس من مشرق تسعى لمغربنا والبدر يتبعها بالغرب يكتمل
وأهل بيت رسول الله منشأهم بطيبة فأتوا للغرب في حلل
من ينبغ النخل حل النخل قادمهم حسنهم بسجلماس انقضى وعل
ثم الشريف أبو الأملاك زاهدهم في الملك ليس بضعف منه أو فشل
وابن الشريف محمد الذي سعدت بسعيه دولة الأشراف آل عل
ثم الرشيد أقام الملك واصدّعت بعزمه دول الثوار من وجل
ثم المسمى بإسماعيل قام به حدّث عن البحر لا تخشى من الزلل
ثم ابنه أحمد الذهبي يليه كذا عبد أضيف إلى الملك أخاه يل
ثم أخاهم عبيد الله أكرمهم وبعد خلعه جاء الأخ المسمى عل
ثم أخاهم محمد الكبير أتى للملك يسعى بلا مهر ولا جمل(1)

ثم يكمل قصيدته في سرد قائمة الأمراء إلى أن يصل مولاه سليمان قائلا:

ثم الإمـــام سليمـان الــذي افتخرت به المغارب ذو العلم وذو العمل
خليفة الوقت أبقى الله دولته حصنــا حصينا لأهل السهـــــل والجبل

وفي ختام القائمة يقول:

ومن يليهم أبناء الإمام ومـــن يزداد بعدهم لمنتهى الأجـل
ثم الصلاة على المختار سيدنا محمد أشرف الأملاك والرسل
والآل والصــحب من لهم تــبع ومن تلاهم بنشرالعلم والعمل(2)

كما لا تخلو مختلف الرحلات المغربية الأخرى من ذكر سير وتراجم بعض الملوك والحكام للعديد من البلدان التي زاروها، أو تحدثوا عنها في رحلاتهم.

إنّ الملاحظ على السرد في مختلف الرحلات المغاربية، أنه جاء مقرونا بالوصف، حيث يوجد نوع من التداخل بينهما في النص الرحليلذلك نجد أغلب الأخبار التي سردها الرحالة في ما سبق، سواء في سرد الأحوال أو سرد الأحداث والوقائع، أو حتى سرد تراجم

(1) الزياني، الترجمانة، ص420.

(2) المصدر نفسه، ص420.

الأعلام وسيرهم دائما تكون مقرونة بالوصف، لأن المعنى لا يكتمل ولا يتضح غالبا إلى بوصف الأمر الذي تم سرد خبره.

وخلاصة القول فإن الرحلات المغاربية لم تستغن عن منهجي الوصف والسرد في نصوصها باعتبار المنهجين من مقومات الكتابة التاريخية، فكانت لغة السرد ممتزجة بالوصف في أغلب الأحيان، فكان الوصف خاصا بمظاهر الطبيعة وكذلك المدن والعمران، ويتعدى ذلك إلى وصف الحالات النفسية والأشخاص، كما أن السرد يستخدم أساسا في نقل الأخبار المختلفة عن الأوضاع السائدة والتي كان الرحالة شاهد عيان عليها أو سمعها.

المبحث الثاني: منهجية التعامل مع المصادر في الرحلات المغاربية

قبل الحديث عن منهجية التعامل مع المصادر في الرحلات المغاربية التي اعتمدت بالأساس على النقل ثم المقارنة والنقد، لابد أولا من الحديث عن مصادر هذه الرحلاتولذلك قسم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب، الأول يعنى بذكر مصادر الرحلات المغاربية، والثاني اختص بالحديث عن منهج النقل من المصادر في هذه الرحلات، أما المطلب الثالث فتحدث عن منهجي المقارنة والنقد بين المصادر في الرحلات المغاربية المعنية بالدراسة.

المطلب الأول: مصادر الرحلات المغاربية

كان اعتماد الرحالة المغاربة على النقل من كتب سابقيهم كبيرا، وذلك كان ديدن كبار المؤرخين المسلمين بصفة عامة، فكانوا غالبا ما يصرحون في بداية رحلاتهم بأهم المصادر التي اعتمدوها، وتتعدد هذه المصادر على حسب كل رحالة، لذلك قمت بتقسيم تلك المصادر إلى عامة وخاصة، فالخاصة قصدت بها كتب الرحلة والتاريخ بالإضافة إلى التجربة الشخصية لكل رحالة وما ارتبط بها، أما العامة فهي بقية المصادر في مختلف المجالات العلمية والأدبية بالإضافة إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف باعتبارهما مصدرين لجميع العلماء المسلمين وليس الرحالة فقط، وعلى هذا الأساس تم تقسيم هذا المطلب إلى فرعين: الفرع الأول يتحدث عن المصادر العامة للرحلات المغاربية، أما الفرع الثاني فيتحدث عن المصادر الخاصة لتلك الرحلات المغاربية.

الفرع الأول: المصادر العامة

بدأت الحديث عن المصادر العامة قبل الخاصة نظرا لأهمية القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فهما الأجدر بالسبق على غيرهما من المصادر، إذ توجد العديد من المصادر العامة التي اعتمد عليها الرحالة المغاربة في إنجاز رحلاتهم، بالإضافة إلى القرآن الكريم وكتب الحديث، وهي كتب عامة تشمل الكتب الأدبية والجغرافية، والصوفية والفقهية والعلمية، وغيرها.

أولا: القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

اعتمد أغلب الرحالة المغاربة على القرآن الكريم كمصدر مهم في كتابة رحلاتهم سواء ذكروا الآيات القرآنية الكريمة، أو اقتبسوا منها ألفاظا وظفوها في نصوصهم، بالإضافة إلى اعتمادهم الكبير على السنة النبوية الشريفة بإيرادهم للأحاديث النبوية من مختلف الكتب الحديثية المعتمدة عند جمهور المسلمين.

إذ اعتمد أغلب الرحالة الجزائريين على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كمصدرين لرحلاتهم سواء ذكرا صريحا للآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، أو اقتباسا وتوظيفا في ما يناسب المواضيع المتناولة في الرحلة.

فابن عمار كان مصدره الأول والأساس هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، خاصة في مقدمته التي عنونها بـ "وجوب الحج وفضله والحذر من تأخيره"، أين أورد مختلف الآيات القرآنية التي وردت في الحج، بالإضافة إلى ذكره للأحاديث النبوية الشريفة الواردة في الحث عن حج بيت الله الحرام من مختلف كتب الحديث المعتمدة عند المسلمين خاصة الصحيحين والموطأ، والسنن وغيرها.

والورثلاني أيضا كان كثير الاستشهاد بالآيات القرآنية في الكثير من المواقف في رحلته، خاصة في مواقفه الربانية تجاه استنكاره لبعض البدع والأخلاق في بعض المجتمعات، أو في رده على بعض الادعاءات الكاذبة، أو في إصداره لبعض الفتاوى والأحكام الصادرة عنه، بالإضافة إلى اعتماده الكبير أيضا على الحديث النبوي الشريف من كتب الحديث المختلفة، في مختلف القضايا والمستجدات التي تطرقت إليها الرحلة، كقضية قيام الساعة وغيرها.

وكذا المقري اعتمد القرآن الكريم والحديث الشريف كمصدرين في رحلته، فاستعمل بعض الآيات القرآنية خاصة في بعض الأمور كالدعاء، والرسائل الأخوية وغيرها، كما استخدم بعض الأحاديث النبوية في إصداره لبعض الأحكام الشرعية إجابة على الأسئلة التي تطرح عليه وغيرها من المواقف.

وكذلك المعسكري كان يكثر من ذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مستشهدا بها في مناظراته ومناقشاته العلمية وغير ذلك من الاقتباسات في مختلف المواضع والمناسبات،

خاصة أنه كان يكثر من السجع والتعابير الأدبية الرنانة التي كثيرا ما يزينها باقتباساته من آيات قرآنية في الكثير من المواضع.

وابن حمادوش أيضا اعتمد على القرآن الكريم في بعض المواقف رغم قلتها، أما اعتماده على الحديث الشريف فكان كثيرا جدا، إذ كان يذكر تفاصيل سرد صحيح البخاري في الجزائر، بالإضافة إلى ذكره لأحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في بعض المواقف، وكان ذكره لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في خطبه وعقود النكاح الواردة في رحلته.

وكذلك أبو حفص عمر الأكبر كان يعتمد على القرآن الكريم استشهادا به في النقاشات العلمية خاصة في الأمور الكلامية، كما أنه اعتمد على الأحاديث النبوية الشريفة، خاصة الأحاديث الواردة في في فضل طلب العلم من الصحيحين وغيرها من كتب الحديث.

أما ابن هطال فكان هو الآخر يقوم بتطريز فقرات رحلة الباي بآي الذكر الحكيم في كثير من المواضع[1]خاصة اقتباسا لا ذكرا للآيات الصريحة.

أما الرحلتين الجزائريتين المتبقيتين فلا تكاد تجد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من بين مصادرهما، وهما رحلتي ابن إدريس التنلاني، وابن الدين الأغواطي.

وعلى غرار الرحلات الجزائرية، فقد اعتمدت الرحلات المغربية على القرآن الكريم والحديث النبوي كمصدرين مهمين في كتابة الرحلة، فقد وردت الآيات القرآنية صريحة واقتباسات، بالإضافة إلى ورود الأحاديث النبوية من مختلف الكتب الحديثية المعتمدة عند المسلمين عموما، وبلاد المغرب على الخصوص.

فكان القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من المصادر الأساسية لرحلة ابن الطيب الفاسي ، حيث خص مقدمته الأولى في رحلته بعنوان: "**فيما ورد في الآيات الصريحة والآثار الصحيحة في فضل الحج والعمرة**"، فأورد الكثير من الآيات القرآنية التي تخص الحج والعمرة، كما أورد بعض الأحاديث أيضا من كتب الحديث من الصحيحين، ومسند أحمد، وسنن ابن ماجه، والبيهقي والنسائي[2]... وغيرها.

---

(1) ينظر: ابن هطال، رحلة الباي، ص14.

(2) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص22- 27.

وكذلك رحلة العياشي مليئة بالاستشهاد بالآيات القرآنية في الكثير من المواضع والمناسبات كالمواضع التي ذكر فيها شيوخه الذين قرأ عليهم القرآن الكريم كقوله مثلا: قرأت عليه من أول الفاتحة إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[1]، والآيات في رحلته كثيرة جدا، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة موجودة بكثرة، استشهد بها العياشي في الكثير من الأمور والقضايا التي تطرق إليها في رحلته، من مختلف كتب الحديث المشهورة عند المسلمين، كحديث قيام الساعة، وأسماء الله، والصوم وغيرها.

أما المكناسي فكان اعتماده على القرآن الكريم في ذكر الآيات القرآنية التي رسمت على بلاطات المساجد التي رآها في مدن بلاد اسطنبول على وجه الخصوص.

بالإضافة إلى الآيات القرآنية الواردة في المناقشات والمناظرات العلمية حول بعض القضايا كقضية وجود العالم وآداب الضيافة، والأوزار والعذاب وغيرها، أما اعتماده على الأحاديث النبوية الشريفة فكان كثيرا أيضا في عدّة مواضع وفي عدّة قضايا كقضية المهدي المنتظر، وما جاء فيها من الأحاديث في سنن أبي داوود، ومستدرك ابن الحاكم، وغيرها.

وكذلك الحضيكي كان ينقل الأحاديث عن البخاري، والموطأ، والترمذي، وغيرهم[2]، كما اعتمد على كتب التفسير في نقل المرويات منها: الدر المنثور في التفسير المأثور[3]، وكثيرا ما يستعمل لفظة: روي، أو يذكر اسم الراوي دون ذكر الكتاب.

أما الدرعي فكان اعتماده على الحديث الشريف أكثر خاصة عند حديثه عن فضائل الحج والعمرة في بداية نص الرحلة، أين ذكر عدّة أحاديث نبوية شريفة، من صحيح الأثر على حدّ تعبيره، ومن صحيح مسلم، وسنن ابن ماجه، وغيرها من الكتب الحديثية[4].

وابن زاكور أيضا كان اعتماده على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة كثيرا في رحلته، حيث وظف الآيات القرآنية في بعض المواضع، والتي تتحدث عن فضل العلم

---

(1) سورة البقرة، الآية (17).

(2) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص107.

(3) المصدر نفسه، ص110.

(4) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص81.

على وجه الخصوص مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(1)، وكذلك وظف الأحاديث النبوية الخاصة بطلب العلم والأحكام الفقهية المتعلقة بأركان الإسلام كالصلاة والصوم وغيرها.

أما رحلتي الوزان والزياني فقليل ما نجد آية أو حديثا في رحلتيهما إلا بعض الاقتباسات.

وللإشارة فإن أغلب الرحلات المغاربية اعتمدت على كتب التفسير كمصدر ملازم للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في شرح بعض الآيات والأحاديث للاستدلال على بعض القضايا، أو ذكرا لتلك المؤلفات، فبالنسبة للرحلات الجزائرية نجد على سبيل المثال ذكر ابن حمادوش لبعض التفاسير عند حديثه عن أخذه لعلم التفسير عن شيوخه منها: "الكشاف للزمخشري"، و"تفسير الإمام الرازي"، و"تفسير أبو حيان" وغيرها(2).

واستخدام التفاسير لم يكن في رحلة ابن حمادوش فقط بل اعتمدت عليها بعض الرحلات الأخرى أيضا، لا يسع المجال لذكرها.

ثانيا: كتب عامة

بالإضافة إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فإن اعتماد الرحلات المغاربية كان على عدّة مصادر عامة أخرى سواء فقهية أو صوفية أو أدبية...إلخ

إذ كان الرحالة الجزائريين على غرار مختلف الرحالة المغاربة يصرحون بمصادر رحلاتهم في بداية الرحلة، فالورثلاني اعتمد على عدة كتب عامة صرح بها، كـ"الوغليسية بشرح عبد الكريم الزواوي"، و"الأدلة النفيسة لابن الشمّاع"، ومؤلفات كل من: "المقريزي"، و"البكري"، و"العبدري"، و"السمهودي"، و"ابن فرحون"، و"الشطيبي"، وغيرهم(3).

والمعسكري اعتمد هو الآخر على عدّة مصادر في علوم مختلفة منها: "نسيم الرياض في شرح القاضي عياض"، وهو مؤلف في الصفات والأخلاق والسنن النبوية، و"المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على كثير من البدع المحدثة والعوائد المنتحلة" لـ"ابن الحاج" (العبدري المغربي)، وهو كتاب في الرد على بدع الصوفية، و"إحياء علوم

(1) سورة الزمر، الآية (11).

(2) ابن حمادوش، لسان المقال، ص276، 277.

(3) ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 396/2.

الدين" لـ"أبي حامد محمد الغزالي الطوسي، وهو كتاب جامع لعلوم الشريعة وأعمال القلوب ولطائف التصوف، وكتاب "اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر" للشيخ "أبي العمران" في العقائد، و"الفتوحات المكية" لـ"محي الدين الأندلسي" في التصوف، وغيرها من الكتب التي يصعب عدّها.

أمّا ابن حمادوش فكان اعتماده الكبير على المصادر العلمية أكثر نظرا لتخصّصه العلمي على خلاف الرحالة الآخرين، فكان اعتماده على الكتب الفلكية والطبية والرياضية وغيرها كـ: "كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في أوصاف بني آدم وشيات الحيوانللأجدابي"(ت 470هـ/ 1078م)، وكتاب "المجسطي" في الرياضيات لـ"أبي الوفاء البوزجاني" (388هـ/ 998م)، و"المناظر في مجموع الرسائل" لـ"نصير الدين الطّوسي"(ت 672هـ/ 1274م) في علم الفلك وغيرها، إلى جانب المصادر المتنوعة الأخرى من مختلف علوم العصر: الأدبية والفقهية والصوفية كـ: "مقامات الحريري" و"النجاة في المنطق والإلهيات لابن سينا" (ت 427هـ/ 1027م) وغيرها.

وابن عمار أيضا اعتمد على الكثير من الكتب المختلفة منها: "المدخل" لـ"أبي عمران الفاسي" في الفقه، و"تهذيب الطالب لعبد الحق"، و"الشفا بتعريف حقوق المصطفى" لـ"القاضي عياض" في الحديث... إلخ ، وكلها ذكرت في رحلته[1].

وكذلك الرحلات المغربية من بين المصادر التي اعتمدها الرحالة في كتابة رحلاتهم. كانت الكتب العامة منها الأدبية والصوفية والفقهية وغيرها.

فابنالطيب استخدم المصادر الأدبية بكثرة خاصة الأبيات الشعرية، وقد صرح أن رحلته مدعمة بأبيات وقصائد كان يقتضيها الحال، وهي تغطي جميع الرحلة.

والزياني اعتمد عدّة مصادر ذكرها في قوله: "**محاضرات اليوسي وأدبيات الولالي وابن سعيد السوسي، وما يناسب ذلك من البراهين القاطعة من التفسير والفقه والحديث، ومن شواهد العرب قديمهم والحديث في الرد على المجوس واليهود وأهل التثليث وأهل البدعة والاعتقاد الخبيث، وكلت لهم بالمكيال الأوفى، حسبما سطره من تصدى لهم من**

---

[1] ابن عمار، نحلة اللبيب، ص7.

الأئمة ووفّى صحبة في جناب المصطفى"[1]، فالظاهر من كلامه أنها كتب من مختلف العلوم الشرعية (علوم العصر)، كالأدب، والفقه والتفسير، والحديث والتوحيد وغيرها.

كما اعتمد المكناسي على عدّة مصادر عامة منهااللّغوية والصوفية ك: "تهذيب الأسماء واللغات للنووي"، و"الاستيعاب لابن عبد البر"، و"القاموس للفيروزبادي"، و"المشترك لياقوت الحموي"، وغيرها[2].

وكذلك الدرعي اعتمد عدّة مصادر في مختلف العلوم وعلى رأسها"شرح الشقراطسية للشيخ محمد بن علي في وصف برقة"[3].

كما تتعدّد مصادر الرحلات المغاربية الأخرى سواء صرحوا بها أم لم يصرحوا.

الفرع الثاني: المصادر الخاصة

وقد أدرجت تحت المصادر الخاصة كل من: الرحلات السابقة باعتبارها في نفس الحقل، وكتب التاريخ للتداخل بين الرحلات وكتب التاريخ في نقل أخبار وأوصاف المجتمعات والبلدان، وغيرها من المعلومات المشتركة، بالإضافة إلى التجارب الشخصية للرحالة واعتمادهم على الذاكرة والسماع والأقوال المأثورة، فالمصدرين الأولين يتعلقان بالمصادر المكتوبة، أما الثلاثة الأخيرة فمصادر غير مكتوبة وهي خاصة بشخصية الرحالة نفسه بالدرجة الأولى لذلك أدرجناها تحت المصادر الخاصة.

أولا: رحلات السابقين

تحتل رحلات السابقين مكانة هامة بين المصادر التي اعتمدها الرحالة المغاربة في كتابة رحلاتهم في العهد العثماني، فقد امتلأت رحلاتهم بنقول كبيرة من رحلات سابقة لعهدهم، كرحلة "البكري"، و"البلوي"، و"ابن الخطيب" و"العبدري" و"ابن رشيد السبتي" وغيرهم.

إذ اعتمد بعض الرحالة الجزائريين على رحلات سابقة لعهدهم كمصدر أساسي في كتابة رحلاتهم، وهؤلاء الرحالة هم الورثلاني والمعسكري، وابن عمار.

فالورثلاني يصرح بأنّه نقل من عدّة مصادر ومنها الرحلات، فقال: **"سيما وأن اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا وقدوتنا... أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفري"**[4]،

---

[1] الزياني، الترجمانة، ص2.

[2] ينظر، المكناسي، الإحراز، ص36.

[3] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص241.

[4] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 36/1.

فالرحلة الناصرية للشيخ أحمد بن ناصر الدرعي الجعفري المغربي هي المصدر الأساسي الذي اعتمد عليه الورثلاني في اقتباساته مع بعض المصادر الأخرى.

كما اعتمد المعسكري على رحلات سابقيه أيضا، وقد صرّح أنّه اقتدى في كتابة الرحلة بالسابقين له من الرحالة المغاربة وغيرهم فقال: "**وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير والأسانيد الجماهير**"[(1)]، ومن هؤلاء الرحالة الذين اعتمد على رحلاتهم وذكرهم: "ابن رشيد السبتي" في رحلته: "ملء العيبة في طول الغيبة إلى مكة وطيبة"، ورحلة "الخطيب ابن مرزوق"، ورحلة أبا سالم العياشي "ماء الموائد"، ورحلة أحمد بن الناصر الدرعي "الرحلة الناصرية[(2)]"،لكن اعتماد المعسكري على هذه الرحلات كان اقتداء لا نقلا حرفيا كما فعل الورثلاني.

وكذلك ابن عمار اعتمد على رحلات سابقيه، كرحلة ابن جبير التي يصرح بنقله منها.

أما بقية الرحالة فلم يصرحوا بأنهم اعتمدوا على رحلات السابقين كمصادر لرحلاتهم، لكن ذلك لا يعني عدم اعتمادهم على مصادر أخرى، ككتب التاريخ والتجارب الشخصية والاعتماد على الذاكرة وغيرها من المصادر كما سنرى لاحقا.

أما بالنسبة لرحالة المغرب فكان اعتمادهم كبير على رحلات سابقيهم، إذ أن أغلبهم نقلوا منها بشكل كبير وملفت للانتباه، ومن أبرز الرحالة الذين استخدموا رحلات سابقيهم كمصادر نجد: الزياني والدرعي، والتمقروتي، وابن الطيب الفاسي، وكذلك العياشي، فمنهم من صرح سواء في بداية الرحلة أو في نهايتها، ومنهم لم يصرح بذلك.

فالزياني أشار في ختام رحلته إلى أهم المصادر التي اعتمدها في رحلته وكان على رأسها مجموعة من الرحلات السابقة وهي رحلات كل من: "العياشي"، و"البكري" و"البلوي" و"ابن نباتة" و"السرخسي" و"الكردي"، وذلك في قوله: "**إنما رسمت ما شاهدته في الأقاليم التي بلغتها وغيره نقلته من رحلة العياشي، ومحاضرة اليوسي، ورحلة البلوي، ورحلة ابن نباتة، ورحلة السرخسي للأندلس والمغرب، ورحلة الكردي ورحلة البكري**"[(3)].

(1) المعسكري، فتح الإله، ص91.

(2) المصدر نفسه، ص91.

(3) الزياني، الترجمانة، ص581.

كما اعتمد التمقروتي في رحلته على عدة رحلات سابقة له جعل منها مصادر رحلته، وهي: رحلة البلوي: "تاج المفرق"، و"العقد الفريد" لابن عبد ربه، و"رحلة ابن بطوطة"، و"رحلة البكري"[1]، وقد صرّح في رحلته باعتماده على هذه الرحلات.

أمّا الدرعي فقد اعتمد على رحلات كل من: "ابن بطوطة"، و"التجاني"، و"البلوي"، وكذلك "العبدري"، بالإضافة إلى رحلة العياشي التي كان اعتماده عليها شبه كامل، وكان يصرح بذلك فيقول في الكثير من النقول: "**ذكره الإمام أبو سالم في رحلته**"[2]، فقد نقل نصوصا مطولة عنها – كما سنرى لاحقا–، كما أنه صرح بنقله من رحلة "ابن بطوطة" فقال في بعض المواضع: "**فقد ذكر ابن بطوطة في رحلته..**"[3].

وكذلك العياشي، اعتمد على رحلات كل من: "البكري"، و"العبدري"، و"ابن رشيد السبتي"، و"البلوي"، وقد صرح بذلك أيضا[4].

وكذلك الحضيكي أفاد من رحلات سابقيه أمثال: "ابن رشيد السبتي"، و"التيجيني"..، لكنه لم يصرح بذلك[5].

ثانيا: كتب التاريخ

تحتل كتب التاريخ المرتبة الثانية بعد الرحلات من حيث كثرة الاعتماد عليها في كتابة الرحلات المغاربية، خاصة كتب التاريخ للمؤرخين المسلمين الكبار ك: "المسعودي" و"ابن خلدون" و"الطبري" وغيرهم، وتشمل الكتب التاريخية كتب التراجم والسير وغيرها.

ففي الرحلات الجزائرية نجد الورثلاني قد صرح أنّه نقل من عدّة كتب في التاريخ لكنه لم يذكر أسماء المؤلفين، ورد ذلك في قوله: "**هذا وإني أنقل أيضا من بعض كتب التاريخ كالنبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة، ومختصر الجمان في أخبار أهل الزمان، وكذا حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وغيرها مما يناسب المحل..**"[6]، فـ"النبذة

---

[1] ينظر: التمقروتي، النفحة المسكية، ص9.

[2] ينظر: نواب، كتب الرحلات في المغرب، ص144، 145.

[3] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص178.

[4] ينظر: نواب، المرجع السابق، ص، 142.

[5] المرجع نفسه ص146.

[6] الورثلاني، الرحلة الوثلانية، 37/1.

المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة" اعتمد عليها الورثلاني ولم يذكر اسم مؤلفهاوهي في تاريخ إفريقية (تونس) عامة وبجاية خاصة، بالإضافة إلى كتاب: "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"[1]، وغيرها من المصادر التي أسندها لأصحابها، أو التي لم يذكر سوى عنوانها دون ذكر أصحابها.

كما أن ابن حمادوش قد أكثر من النقل عن عدة كتب تاريخية لمؤلفين غير مسلمين منها: "تاريخ مختصر الدول" للمؤرخ النصراني "غريغوريوس ابن أهرون بن توما الملطي"(ت 685هـ/ 1286م)، وقد عرف ابن حمادوش بهذا الكتاب وصاحبه، وصرح بنقله منه قائلا: "**وفي هذه الأيام رأيت واطلعت على كتاب الملطي في تاريخ الدول وهو نصراني...، ذكر فيه تواريخ العلماء والأطباء، فما نقلت منه تاريخ سابور بن سهل صاحب بيمارستان جنديسابور**"[2]، وغيره من كتب التاريخ.

أما المعسكري فمن بين اعتماداته نجد كتب تاريخية منها: "نفح الطيب للمقري"، و"مقدمة ابن خلدون"، و"حسن المحاضرة للسيوطي" وغيرها.

وكذلك المقري كان مصدره التاريخي الأساسي في رحلته كتابه "نفح الطيب".

أما ابن عمار فكان اعتماده على المصادر التاريخية قليل بالمقارنة مع سابقيه، ومن أهم مصادره التاريخية: "تاريخ ابن خلدون"، ومما نقل عنه أخبار أبو حمو موسى الزياني[3].

وكذلك الرحلات المغربية اعتمدت على عدّة مصادر تارخية، فالزياني صرح في بداية رحلته عن اعتماده على مؤلفات بعض المؤرخين الكبار الذي أخذ عنهم في رحلته، لكنه لم يحدد أسماء كتبهم وهؤلاء، وذلك في قوله: "**وحليتها بحوادث ونوادر وحكايات جلبها المؤرخون الكبار، كالإمام ابن قتيبة والمسعودي والطبري، وابن عساكر والذهبي والبكري والبلاذري وابن كثير وابن خلدون وابن أبي زرع، وابن زيدون، وابن حزم، وابن مرزوق، وابن الخطيب، وقيدت من غرر كلامهم أوفر نصيب**"[4]، كما أشار إلى في نهاية الرحلة

---

[1] الأول للشيخ أبو عبد الله محمد بن علي بن حمادة بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي المتوفي حوالي عام 628هـ/ 1231م، والثاني للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت عام 911هـ/ 1505م).

[2] ابن حمادوش، لسان المقال، ص138، 139.

[3] ابن عمار، نحلة اللبيب، 182.

[4] الزياني، الترجمانة، ص2.

أيضا أنه أخذ: "**أخبار الهند والسند والصين من تاريخ الإسلام للذهبي، ومن تواريخ بعض علماء الهند اجتمعت بهم بالحرم الشريف وبمكة**"[1].

كمااعتمد المكناسي في رحلته على مجموعة من المصادر في استقاء مادة الرحلة، مصرحا بعناوينها وأحيانا بالفصول المحددة التي نقل عنها، فقد اقتبس من مصادر تاريخية منها: "وفيات الصحابة للصاغاني"، و"الإصابة لابن حجر"، و"العرف الوردي في أخبار المهدي للسيوطي"، وغيرها[2] وكذلك تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر[3] وغيرها من المصادر الأخرى.

أما الحضيكي فقد اعتمد على كتب المؤرخين التي وجدها في المدينة المنورة كـ: "ابن فرحون"، و"المطري"، و"ابن النجار"، و"الفاكهي" كـ"أخبار مكة"[4] وغيرها.

وأغلب الرحالة المغاربة يصرحون باعتمادهم على تلك المصادر التاريخية وغير التاريخية، وكثرة اعتمادهم على المصادر المتنوعة يدلّ على سعة اطّلاعهم واهتمامهم بالذّخائر.

الفرع الثالث: التجربة الشخصية والمصادر الشفوية

هناك مصادر أخرى غير مكتوبة كانت أساسية في كتابة الرحلات المغاربية ألحقناها بالمصادر الخاصة، والتي كانت مرتبطة أساسا بشخص الرحالة سواء تجربته الشخصية أو المرويات التي تلقاها عن طريق السماع.

أولا: التجربة الشخصية

لم تكن مصادر الرحلات المغاربية كلها كتب خاصة بغيرهم من السابقين أوالمعاصرين، بل كانت هناك مصادر أخرى خاصة بهم ولم تكن كتبا وإنما كانت تجارب شخصية بالمعاينة والمشاهدة، ومعلومات علقت بالذهن، كانت حاضرة بقوة في رحلاتهم شكلت مادتها الأساسية.

---

[1] الزياني، الترجمانة، ص581.

[2] ينظر، المكناسي، الإحراز، ص36.

[3] المصدر نفسه، ص114.

[4] ينظر: نواب، كتب الرحلات في المغرب، ص147.

ففي الرحلات الجزائرية نجد أن ابن حمادوش اعتمد على العديد من المصادر في رحلته، فكان المصدر الأول لرحلته تجربته الشخصية، فهي الغالبة على رحلته، ولذلك نجد أكثر ما روى من أحداث قد شاهده عيانا وعايشه شخصيا[1]، فرحلته كانت أساسا من أجل المعرفة، مما أضفى على كتابته وأحكامه أصالة وحيوية واستفاد منها في منهجه التاريخي، إذ اكتسب دقة الملاحظة لأنه انطلق في كثير من أحكامه وملاحظاته من مبدأ المشاهدة والمعاينة المباشرة، ومن لقائه بالعلماء الذين قابلهم أثناء تنقلاته ورحلاته بين المدن والبلدان المتعددة ومن الكتب المختلفة التي عاد إليها، كما كانت رحلته هي الميدان التجريبي الطبيعي الذي استمده من رحلاته وأسفاره وما وقع له فيها وما تحصل له من تجارب وملاحظات، لأن ذلك العصر كانت فيه الرحلة لطلب العلم من المكونات الحقيقية لطالب العلم، فابن حمادوش لم يكتف بالاطلاع الواسع على ما كتب وألف، بل كان يحب الوقوف على الحقائق بنفسه، ويريد أن يقرن ما قرأه بالمعاينة المباشرة والمشاهدة الحية، فساق قدمه في كل أفق، لذلك اصطبغت رحلته بصبغة المؤرخ المتحرك الحي الذي يرى الأشياء الجامدة المهملة التي لا يؤبه بها فيكتب عنها ليبعث فيها الحياة والحركة ويجليها للعيان، ومما هيأ له ذلك استعداده النفسي والعقلي وحب المطالعة، ودقة الملاحظة وعدم التواني في السؤال والجدل في كل تنقلاته وتقلباته[2].

وكذلك المقري كان يعتمد في رحلته على تجاربه الشخصية خاصة فيما يتعلق بالعلاقات مع العلماء والحكام والأمراء، وكذلك الإخوان والأصدقاء، لذلك كانت المناقشات والمحاورات والمخاطبات والمساجلات بينه وبين أولئك تملأ رحلته، فتارة يتحف نبذة بكلام إمام، وتارة يكتب نص رسائل تعزية من أصدقاء وإليهم، وتارة يورد المخاطبات والرسائل بينه وبين أصدقائه وأحبائه فيقول مثلا: "**وكتب لي بعض علماء كذا**"، و"**كتب لي فلان كذا**"، و"**خاطبني بعضهم بما صورته**"، و"**ممّا خاطبني به فلان ما نصه..**"، و"**كتبت إليه بقولي**" و"**كتبت إلى صاحبنا فلان**"، وأحيانا يورد مساجلات بينه وبين بعض الأمراء فيقول: "**وكتبت إلى أمير كذا**"، ويذكر نصوص الأسئلة التي ترد عليه وإجابته عليها، فيما

(1) ينظر: سعد الله، أبحاث وآراء، 1/ 232.

(2) ينظر: بكاري، منهج الكتابة التاريخية، ص248، 250.

يذكر نصوص بعض الإجازات، والتقاريظ والألغاز، وغيرها من النصوص، وهي كثيرة جدا كانت مادة كتابه الرحلة بالدرجة الأولى.

وكذلك الرحلات الجزائرية الأخرى خاصة تلك التي كان يغلب على طابع الرسمية، كانت مصادرها تقوم أساسا على التجربة الشخصية للرحالة، حيث يكون شاهدا على الحدث ناقلا للخبر كما عاينه بنفسه، مثلما فعل ابن هطال في رحلة الباي محمد الكبير، والأغواطي في تنقلاته بين المناطق الصحراوية، وابن إدريس التتلاني لمّا سرد تفاصيل الحملة الإنجليزية على الجزائر العاصمة، فقد كان حاضرا حضورا شخصيا فكان شاهدا ومعاينا للحدث. وبذلك تكون معلومات هؤلاء الرحالة على قدر كبير من الصحة والدقة لأنها صادرة من شاهد للحدث لا ناقلا للخبر، وليس العيان كالخبر.

وعن الرحلات المغربية،فقد كانت التجربة الشخصية حاضرة بقوة فيها هي الأخرى، لتكون مصدرا مهما في تلك الرحلات إلى جانب بقية المصادر.

فمصادر ابن زاكور على سبيل المثال لم تكن كتبا أو رحلات للسابقين كغيره من الرحالة المغاربة، وإنما تجربته الشخصية وأدبه الرفيع ومشايخه والعلماء الذين لقيهم، فرحلته تنتمي أدبيا إلى ما يسمى بفهرسة الرحلة والتي هي لون من الألوان الأدبية، وبما أن ابن زاكور أدبي من أكبر أدباء عصره، فمن المؤكد أن مصادر رحلته بالدرجة الأولى هو أدبه، وتفوقه في المجال الأدبي يرجع في الغالب إلى اجتهاده الخاص وانكبابه على مطالعة المؤلفات الأدبية المختلفة ودواوين الشعراء..، وذلك ما يفسر نبوغه المبكر في نظم الشعر الجيد وكتابة النثر الفني الرفيع، كما قد ساعده على ذلك وشجعه ثلة من الأدباء والشعراء الذين التقى بهم أثناء رحلته إلى تطوان والجزائر ومراكش وسلا من مختلف العلماء الأجلاء[1]، فكانت تلك اللقاءات والمجالسات والإجازات بينه وبين العلماء الذين اجتمع معهم هي مصدر رحلته بالأساس.

أما الوزان فكان اعتماده على الذاكرة بالإضافة إلى تجربته الشخصية أهم مصدرين في كتابه "وصف إفريقيا"، حيث اعتذر عمّا يمكن أن يقع في كتابه من أخطاء عند النقل، لأنه قد مر عليه عندما ألف "وصف إفريقيا" عشرة سنين لم يطّلع أثناءها على أي كتاب

[1] ينظر: ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص21.

من كتب تاريخ إفريقيا أو جغرافيتها، وإنما اعتمد على ما علق بذهنه مما رآه قبل هذه المدّة الطويلة، وذلك ما يفسر خلو هذا الكتاب من النقول الحرفية، فهو يذكرها في كتابه لكنه لم يعتمد عليها كثيرا ولم ينقل منها إلا ماعلق بذهنه منها، لذلك نجد معظم مادة كتابه من مشاهداته وخبراته الشخصية[1]، والمتمثلة أساسا في رحلاته السفارية العديدة التي قادته إلى مختلف المناطق الإفريقية ابتداء من بلده "المغرب" مرورا بشمال "إفريقيا" ("الجزائر"، و"تونس"، و"ليبيا"، و"مصر")، وتوغله في "إفريقيا" جنوب الصحراء إلى "السودان"، إضافة إلى زيارته لبلدان عربية وإسلامية أخرى كـ: "الحجاز" و"الأستانة" عاصمة العثمانيين؛ فكانت رحلاته هذه مادّة كتابه ومصدره بالدرجة الأولى.

والتجارب الشخصية لم تقتصر على الرحلات التي ذكرناها فقط، وإنما تشمل مختلف الرحلات المغاربية، وما ذكركان الغالب في الرحلات المذكورة التي يقل فيها النقل من المصادر الأخرى خاصة.

ثانيا: المصادر الشفوية

إلى جانب اعتماد الرحالة المغاربة على المصادر المختلفة السابقة سواء المكتوبة أوالتجارب الشخصية، نجدهم اعتمدوا أيضا على الروايات الشفوية التي سمعوها أورويت لهم، ولما كانت أغلب الرحلات المغاربية يهدف أصحابها إلى لقاء العلماء، فإنهم قد أخذوا عنهم بالسماع والمشافهة، لذلك فمن المؤكد أن جزءا من مادة رحلاتهم تكون مأخوذة عن طريق مصادر شفوية أي (ما سمعه الرحالة، سواء روايات أو أقوال مأثورة، وغيرها).

إذكان الرحالة الجزائريون شديدي الحرص على تدوين الروايات الشفهية التي كانت تروى لهم من الثقات، وذكر المناظرات والمناقشات التي دارت بينهم وبين غيرهم من العلماء[2].

فالمعسكري نجده يعتمد المصادر الشفوية بكثرة، والمتمثلة في المناظرات، والمجالسات والإجازات العلمية، مع العلماء الذين التقى بهم في رحلته، فهو كثيرا ما يشير إلى هذه

(1) ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، 15/1.

(2) ينظر: بكاري، منهج الكتابة التاريخية، ص282.

المصادر الشفوية بقوله تارة: "**حضرت مجلس الشيخ فلان**"، وتارة: "**أخبرني به ثقة**"، و"**أخبرني فلان**"، وتارة أخرى يقول: "**حدثني**"، و"**قال فلان**" وغيرها.

وكذلك المقري يعتمد على السماع في بعض الأحيان من خلال إيراده لبعض المذاكرات العلمية التي كان يسمعها من العلماء الذين كان يتذاكر معهم، كما يتحدث عن المناظرات والمناقشات العلمية المختلفة، لذلك تجده يستخدم: "قال فلان" بكثرة.

وكذلك ابن حمادوش بالإضافة إلى تجربته الشخصية واعتماده على وثائق مكتوبة للمتقدمين، نجدهكثيرا ما يأخذ بالمشافهة والسماع خاصة من المعاصرين له، وذلك ما نلمسه في رحلته، وقد كان كثيرا ما يخبر بأن أخباره قد بلغته أو سمعها.

كما فعل ذلك أبو حفص عمر الأكبر الذي كانت مصادر رحلته شفوية بحتة، فمادة رحلته جميعها عبارة عن سماعه لدروس مجموعة من علماء المغرب وإجازاتهم له، لذلك نجده يستخدم عدّة ألفاظ دالة على السماع من بداية الرحلة إلى نهايتها، فيقول مثلا: "**قرأت كذا على الشيخ فلان**"، و"**أخذت علم كذا عن جماعة من الأئمة**"، و"**سمعت بعضا من كذا عن فلان**"، كما أنه يورد بعض الأسئلة والأجوبة بينه وبين العلماء، ويذكر العلماء وما يقرئونه في مجالسهم العلمية.

كما تحتل المصادر الشفوية حيزا كبيرا في الرحلات المغربية سواء في الرحلات ذات الطابع العلمي أو غيرها.

فالحضيكي امتلأت رحلته بأخبار الشيوخ والعلماء والأولياء، فكان كثيرا ما يستعمل في رحلته: "**قال فلان**"، و"**قال قائل**"، وفي حديثه عن شيوخه يذكر قراءته عليهم، فيقول: "**ومنهم شيخنا فلان**"،و"**قرأنا على فلان كذا**"، كما يتحدث عن التذاكر في المجالس العلمية، فيقول مثلا: "**فبينما نحن كذلك جلوس نتذاكر**".

وكذلك الدرعي يعتمد على السماع في ذكر بعض الأحداث، فيقول في بعض المواضع: "**حكي**"، و"**قيل**"، وغيرها من الألفاظ الدّالة.

وكذلك ابن زاكور، بالإضافة إلى أن جل رحلته عبارة عن نصوص إجازاته من شيوخه إلا أنه يستخدم عبارات دالة على وجود مصادر شفوية في رحلته تعتمد على السماع بالدرجة الأولى كقوله: "**وقد أخبرني غير واحد**"، و"**قرأ علي فلان**"، و"**قرأت على فلان**"، و"**بما قرأه**

وسمعه مني"، و"**وأما روايتي لكذا فإني أرويه سماعا للكثير**"، و"**سمعت من إملائه في مجلسه**"، وغيرها من الألفاظ الدالة على السماع والمشافهة.

وهذه المصادر الشفوية كثيرة في أغلب الرحلات المغاربية، وذلك لأن القراءة في ذلك العهد كانت تؤخذ بالسماع على الشيوخ.

إذن تتعدد المصادر المعتمدة في الرحلات المغاربية عموما، من المصادر الشرعية من قرآن كريم وأحاديث نبوية شريفة إذ لا تكاد رحلة من الرحلات تخلو من آية أوحديث نقلا أو اقتباسا، بالإضافة إلى المصادر الأخرى سواء المكتوبة أو الشفوية، فالمكتوبة تتمثل في رحلات السابقين، وكتب التاريخ والتراجم والتصوف والأدب وغيرها، أما الشفوية فتتمثل في الروايات والأخبار وكل ما سمعه الرحالة من قريب أومن بعيد، كما تبقى التجربة الشخصية للرحالة من أهم مصادره المعتمد عليها في كتابة رحلته، بالإضافة إلى ماعلق بذهنه من معلومات في بعض الحالات.

المطلب الثاني: النقل والمقارنة والنقد

بعد التعرف على أهم المصادر المعتمدة في الرحلات المغاربية، أعرج على الحديث عن أهم المناهج التي اتبعها الرحالة المغاربة في تعاملهم مع هذه المصادر، والتي اخترتها حسب أهميتها وكانت ثلاثة مناهج أساسية، على رأسها منهج النقل ثم المقارنة والنقد، وهو ما تحدث عنه هذا المطلب في فرعين، الأول يخص منهج النقل من المصادر، والفرع الثاني يخص منهجي المقارنة والنقد.

الفرع الأول: منهج النقل من المصادر

بما أنّ أغلب الرحالة المغاربة اعتمدوا على عدّة مصادر في رحلاتهم، فأغلب هذه الرحلات مليئة بالاقتباسات، وتختلف هذه الاقتباسات حسب عدّة اعتبارات تعود إلى الرحالة نفسه، إذ يوجد نوعين من الاقتباسات في الرحلات المغاربية: اقتباس كامل ومباشر، واقتباس غير مباشر.

أولا: النقل المباشر (الكامل)

إذ أنّ أغلب الرحلات المغاربية اعتمدت على الكثير من المصادر المكتوبة المختلفة السابقة الذكر، وأكثرت النقل المباشر منها.

فبعض الرحلات الجزائرية التي كان أصحابها يكثرون النقل المباشر من المصادر نجد على رأسها: رحلة الوريلاني الذي استعمل الكثير من المصادر في رحلته، فاقتبس منها ما يعادل نصف كتابه الرحلة تقريبا، خاصة "الرحلة الناصرية" التي اقتبس منها نصوصا مطولة، إذ نقل جميع النصوص المتعلقة بمختلف البلدان العربية، مع احتفاظه بالنص كما جاء في رحلة الدرعي الذي بدوره اقتبسها من رحلة العياشي، ويبلغ اقتباس الورثلاني من الرحلة الناصرية لدرجة احتفاظه بالعناوين دون تغيير، ففي حديثه عن الجزائر التي خصّها بمائة وستة وستون (166) صفحة من رحلته منها ثلاثون (30) صفحة مقتبسة خاصة في وصفه لمدينة بسكرة وذكر أحوالها العامة، أما تونس التي أفرد لها خمسة وأربعين صفحة من رحلته، فقد اقتبس من رحلة الدرعي عشرة (10) صفحات، أما القطر الليبي الذي خصّ له الوثلاني مائة وسبعة وخمسون (157) صفحة، منهتسعة وخمسون (59) صفحة كلها مقتبسة من رحلة الدرعي، وأما مصر التي خصها بمائة واثنان وخمسون (52) صفحة، من بينها ستة وتسعون (96) صفحة مقتبسة من رحلة الدرعي، وعقود الجمان، وحسن المحاضرة، وأما بلاد الحجاز التي استحوذت على ثلث الرحلة الورثلانية تقريبا بما يعادل مائة وخمسة وتسعون (195) صفحة، فقد اقتبس فيها الورثلاني مائة وخمسة وأربعون (145) صفحة كلها من رحلة الدرعي، حيث كان ينقل فيها فصولا كاملة دون أدنى تغيير , تعليق محافظا على عناوينها[1].

كما يظهر نقل ابن عمار المباشر والصريح من المصادر في مختلف نصوص الرحلة في تصريحه بذلك النقل وإيراده للنص المنقول، مثل نقله أبيات شعرية من "رحلة ابن جبير"الخاصّة بالحج وزيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم، حيث يقول: "**ويرحم الله العلامة أبا الحسين محمد بن جبير الكناني الأندلسي في قوله عند تحركه للرحلة الحجازية:**

هنيئا لمن حجّ بيت الهدى وحطّ عن النفس أوزارها
وإنّ السعادة مضمونة لمن حجّ طيبة أو زارها

---

(1) ينظر: فيلالي، رحلة الورثلاني، ص59- 66.

وقوله أيضا:

إذا أبلغ العبد أرض الحجاز فقد نال أفضل ما أمله

وإن زار قبر نبي الـــهدى فقد أكمل الله ما أم له"[(1)]

كما أنه ينقل نقلا كاملا ومباشرا من عدّة مصادر أخرى،إذ يأتي بقول المؤلف مع ذكره لاسم الكتاب، وبعد نهاية النص المنقول يختم كلامه بقوله: "انتهى"، ثم يعلّق على كلام المؤلف الذي نقل عنه، ومثال ذلك النص الذي نقله عن "القسطلاني" في سياق الحديث عن الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، حيث أورد ما نصه: **"قال الشيخ الإمام الحافظ المحدث الرباني سيدي أبو العباس شهاب الدين القسطلاني رحمه الله تعالى في كتاب المواهب اللدنّية له، فإن قلت إذا قلنا بأنه عليه الصلاة والسلام ولد ليلا، فأيّما أفضل ليلة القدر أو ليلة مولده، وأجيب بأن ليلة مولده أفضل من ليلة القدر من وجوه ثلاثة، أحده أن ليلة المولد ليلة ظهوره صلى الله عليه وسلم، وليلة القدر معطاة له، وما شرف بظهور ذات المشرف من أجله أفضل مما شرف بسبب ما أعطيه، ولا نزاع في ذلك، فكانت ليلة المولد بهذا الاعتبار أفضل، الثاني أن ليلة القدر شرفت بنزول ملائكة فيها، وليلة المولد شرفت بظهور صلى الله عليه وسلم، ومن شرفت به ليلة المولد أفضل ممن شرفت به ليلة القدر على الأصح المرتضى، فتكون ليلة المولد أفضل، الثالث أن ليلة القدر وقع التفضل فيها على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وليلة المولد الشريف وقع التفضل فيها على سائر الموجودات، فهو الذي بعثه الله عزّ وجل رحمة للعالمين، فعمت به النعمة جميع الخلائق، فكانت ليلة المولد أعم نفعا، فكانت أفضل، فيا شهرا ما أشرفه، وأوفر حرمة لياليه كأنها لئالئ في العقود، ويا وجها ما أشرفه من مولود فسبحان من جعل مولده للقلوب ربيعا وحسنه بديعا.**

يقول لنا لسـان الحـــــال منه وقـول الحق يعـــذّب للسميع

فوجهي والزمان وشهر وضعي ربيع في ربيع في ربيع انتهى.."[(2)]

وكذلك المعسكري الذي نجده ينقل من بعض المصادر نقلا مباشرا وكاملا، حيث ينقل النصوص من مصادرها نقلا شاملا فيذكر اسم المؤلف واسم الكتاب، ويعقب النص

---

(1) ابن عمار، نحلة اللبيب، ص08.

(2) المصدر نفسه، ص101.

المنقول بلفظة "انتهى" أو "قلت" ومثال ذلك قوله: **"وفي الخفاجي: يحسن من الإنسان الثناء على نفسه وذكر فضائله مواضع استثنوها من هضم النفس"**[1]، وقوله أيضا في سياق التحدث بنعم الله عن السيوطي: **"قال في كتابه "حسن المحاضرة" ما نصه: نقلت من خطّ شيخنا الإمام تقي الدين أحمد الشمني، قال: نقلت من خطّ الشيخ كمال الدين محمد الدميري، قال نقلت من خطّ جمال الدين عبد الله ابن هشام النحوي، قال: من أغرب ما رأيت على كراريس من "تسهيل الفوائد" بخط الشيخ جما الدين محمد ابن مالك في أواخرها صورة قطعة رفعها الفقير محمد بن مالك يقبل الأرض وينهي إلى السلطان أنه أعرف أهل زمانه بعلوم القرآن، والنحو، واللغة، وفنون الآداب وعلم الأصول والبيان، وأمله أن يعينه..، من سيد السلاطين ومبيد الشياطين خلّد الله ملكه، وجعل المشارق والمغارب سلكه على ما هو بصدده من إفادة المستفيدين وإرشاد المسترشدين بصدقة تكفيه همّ عياله وتغنيه..، فقد كان له في الدولة الناصرية عناية تتيسر بها الكفاية، مع أن الدولة الناصرية من الدولة الظاهرية كجدول من البحر في المحيط، والخلاصة من الوسيط والبسيط، وقد نفع بهذه الدولة عموما، وكشف بها عن الناس هموما، ولمّ بها من شعب الدين ما لم يكن ملموما، ومن العجائب كوني منها محروما.."**[2]، ثم ينهي الكلام المنقول بلفظة: "قلت"، ويكمل كلامه ونقوله من مصادر أخرى.

وكذلك ابن حمادوش ينقل نقولا مباشرة وكاملة من عدّة مصادر، خاصة من الكتب التاريخية التي نقل منها نصوصا مطولة نقلا حرفيا كحديثه عن تاريخ الملوك، وتاريخ الأنبياء، وغيرها من الأخبار، وكذلك نصوص الأحاديث التي نقلها من صحيح البخاري التي كان يسردها طوال الرحلة، وهو يصرح بكل وضوح بالنقل من المصادر، بذكره للفظة "نقول من كتاب كذا"، مثل النصوص المطولة التي نقلها من كتاب "أنس الجليل للعليمي"، حيث عنونها بـ: **"نقول من كتاب أنس الجليل"** ، ثم ذكر نصوصا مطولة منها تخص التاريخ الإسلامي،فقال في بداية النقل مصرحا بالمصدر: **"ثم بدا لي أن أضم إليه ما كنت أختصر عام سبع وأربعين من أنس الجليل تاريخ القدس والخليل، ذكر الهجرة**

(1) المعسكري، فتح الإله، ص17.

(2) المصدر نفسه، ص17.

الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وهي ابتداء التاريخ الإسلامي"[1]، كما أنه يورد نقولا لنصوص أخرى مثل نقله من كتاب تاريخ الخلفاء للإسحاقي فيما يخص مولده صلى الله عليه وسلم، حيث يقول: " **من تاريخ الإسحاقي: وفي تاريح الخلفاء واسمه لطائف أخبار الأول، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم، ولد يوم الإثنين في ربيع الأول في العشرين نيسان في عهد كسرى أنو شروان، وقد مضى في ملكه اثنان وأربعون سنة. انتهى منه**"[2].

أما المقري فهو الآخر كانت له نقول مباشرة من الإجازات العلمية والرسائل الإخوانية بينه وبين علماء عصره وأعيانه والخطب وغيرها، التي أخذ منها نصوصا طويلة، وكذلك أبو حفص عمر الأكبر نقوله الكاملة كانت عبارة عن نصوص الإجازات العلمية التي وردت في رحلته وهي كثيرة.

كما نجد أغلب رحالة المغربيقتبسون من مصادر سابقيهم نصوصا مطولة وحرفية، وبذلك يكون اقتباسهم كاملا ومباشرا.

و من أبرزهم التمقروتي الذي لا يكاد يضاهييه أحد من رحالة المغرب في الاقتباس الكامل والمباشر من نصوص سابقيه من الرحالة المغاربة، فقد استلهم في رحلته نماذج الرحالة الذين تأثر بهم، فكان تحريره للرحلة بعد عودته من مهمته اعتمادا على تقاييد ضبط فيها توالي المحطات وتواريخها معتمدا على "رحلة البلوي" حتى كان يصل اقتباسه في بعض الأحيان إلى عشرين صفحة على التوالي أو يفوقها[3]، كما أنه اعتمد في وصفه لمختلف المراسي التي مرّ بها على وصف سابقيه أيضا خاصة وصف "ابن عبد ربه" ووصف "البكري"، ومنهاما نقله عن بلدة ترغا ببلده المغرب على سبيل المثال: "**وترغا قال ابن عبد ربه في عقد هي بلد كبير ذو سور..**"[4]، ثم يكمل حديثه عن مجرى الرحلة في السفينة، ومن بين اقتباساته المباشرة المصرح بها أيضا ما يذكره عن أغلب السواحل الجزائرية، فيذكر في أغلب الأحيان قول صاحب المصدر المنقول منه، وعلى سبيل

(1) ابن حمادوش، لسان المقال، ص202.

(2) المصدر نفسه، ص212.

(3) ينظر: التمقروتي، النفحة المسكية، ص09.

(4) المصدر نفسه، ص28.

المثال وصفه لمدينة بونة(عنابة): **"قال أبو البقاء خالد بن أبي خالد في رحلته: بونة مدينة مكينة.."**[1]، وعند نهاية النص المقتبس يقول: "انتهى"، ويكمل حديثه عن مجريات سفره في المدينة، وهكذا فعل في حديثه عن مختلف المدن والمراسي التي زارها.

كما أنّ النقل عند الزياني بدا واضحا وصريحا في قوله: **"إنما رسمت ما شاهدته في الأقاليم التي بلغتها وغيره نقلته من رحلة العياشي، ومحاضرة اليوسي، ورحلة البلوي، ورحلة ابن نباتة، ورحلة السرخسي للأندلس والمغرب، ورحلة الكردي ورحلة البكري، وأخبار الهند والسند والصين من تاريخ الإسلام للذهبي، ومن تواريخ بعض علماء الهند اجتمعت بهم بالحرم الشريف وبمكة"**[2]، وقد شرح أكثر في البداية عن اعتماده لهذه المصادر حين قال: **"وحليتها بحوادث ونوادر وحكايات جلبها المؤرخون الكبار، كالإمام ابن قتيبة والمسعودي والطبيري، وابن عساكر والذهبي والبكري والبلاذري وابن كثير وابن خلدون وابن أبي زرع، وابن زيدون، وابن حزم، وابن مرزوق، وابن الخطيب، وقيدت من غرر كلامهم أوفر نصيب، وضمنتها ما في رحلة البكري من النكت والأشعار، وما في رحلة البلوي من نفائس الأخبار، وما في السرخسي للأندلس والمغرب من كل ما يعجب ويطرب، وما في رحلة العياشي ومحاضرات اليوسي وأدبيات الولالي وابن سعيد السوسي، وما يناسب ذلك من البراهين القاطعة من التفسير والفقه والحديث، ومن شواهد العرب قديمهم والحديث في الرد على المجوس واليهود وأهل التثليث وأهل البدعة والاعتقاد الخبيث، وكلت لهم بالمكيال الأوفى، حسبما سطره من تصدى لهم من الأئمة ووفّى صحبة في جناب المصطفى"**[3].

ومثال الاقتباس الكامل عند الزياني أنه يقول: و"قد ذكر فلان"، مثل قوله:**"وقد ذكر ابن خلكان وغيره أن النبي.."**[4].

أمّا عن مصادر الدرعي فقد صرّح محقق رحلته أنه كان دقيقا في نقله ذا أمانته علمية كبيرة، حيث تعلو قيمته من حيث منهجه في ذكر الموارد، فكان من الرحالين المغاربة

---

(1) التمقروتي، النفحة المسكية، ص39.

(2) الزياني، الترجمانة، ص581.

(3) المصدر نفسه، ص2.

(4) المصدر نفسه، ص208.

الذين ذكروا أغلب المظان بصفة جيدة، فحفظ لنا نقولا كثيرة عن مصادر عدة منها ما هو مفقود أو لا يزال مخطوطا[1]، وأكثر نقوله كانت من "رحلة العياشي" وعدّة كتب تاريخية أخرى ك: "الاستبصار في أخبار الأمصار" الذي نقل عنه عدّة نصوص كاملة بلا تحريف ولا نقصان، منها نقله لنص كامل في وصف بسكرة يقول فيه: **"وفي الاستبصار في أخبار الأمصار، وبسكرة كورة فيها مدن كثيرة، وقاعدتها بسكرة، وهي مدينة كبيرة كثيرة النخل والزيتون.."**[2]ثم يكمل النص المنقول ويختم بقوله: "انتهى كلامه"، كما ينقل نصوصا من "تاريخ اليعقوبي" خاصة أخبار فتوح إفريقية على يد "عقبة بن نافع الفهري"[3]، ومن "رحلة التجاني" نقل الحديث عن فئة الخوارج بطرابلس فذكر: **"قال التجاني: وقد شاهدت منهم من كان على طهر إذا أحبّ غسل ثوبه الذي أجنب فيه يرفعه بعصا أو محجن ثم يلقيه في البحر فيخضخضه بعصاه ساعة ثم بعد ذلك يتناوله بيده، ويوجبون على أنفسهم الغسل صباح كل يوم أجنبوا أم لم يجنبوا رجالا ونساء، ويتوضؤون ثم يتيممون، وقد شاهدت هذا منهم كثيرا ويشترطون في وضوئهم غسل الأيادي من الأكتاف إلى غير ذلك من آرائهم الواهية.."**[4].

وكذلك العياشي يظهر عنده النقل الكامل والمباشر من عدّة مصادر، كنقله من رحلة "ابن رشيد" نصوصا تخص الحديث عن خروج النبي صلى الله عليه وسلم من الثنية السفلى، فيقول: **"قال ابن رشيد في رحلته: وذكر بعض أئمتنا أن الخروج إلى عرفات من الثنية السفلى أيضا..، قال ابن رشيد: وإنما سلك النبي صلى الله عليه وسلم هذا الطريق ملحقا شبه دائرة لأنه لا يحصل التيامن في النزول والدخول إلى مكة والخروج منها إلا كذلك.."**[5].

وابن الطيب الفاسي أيضا ينقل من رحلة العياشي نصوصا كاملة كنقله قصة النبي خالد ابن سنان فيقول: **"وقد ذكر شيخ شوخنا الإمام العلامة الرحالة الأديب البارع أبو سالم**

---

(1) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص37.

(2) المصدر نفسه، ص144، 145.

(3) المصدر نفسه، ص148.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص672. نقلا عن الرحلة التيجانية، ص209، 210.

(5) ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 362/1 . نقلا عن ملء العيبة لابن رشيد السبتي، ص82، 83.

عبد الله العياشي رحمه الله في رحلته خالد بن سنان، وقال إن قبره من المزارات الشهيرة ببلاد الزاب..، قال: وقد أشكل علي أمره وسألت عنه من يظن به علم فلم أجد عند أحد..ن وغاية ما سمعت من بعضهم أن سيدي عبد الرحمن الأخضر أخبرهم أنه شاهد النور صاعدا في تلك البقعة إلى السماء ثلاثة ليال، وأخبر أنه قبر نبي الله خالد.."[1].

والنقول المباشرة في الرحلات المغاربية كثيرة أوردت البعض منها على سبيل المثال والتوضيح.

ثانيا: الاقتباس غير المباشر

بالإضافة إلى النقل الكامل والحرفي للنصوص من المصادر، نجد هناك نوعا آخر من النقل في الرحلات المغاربية وهو النقل غير المباشر، فيكون الرحالة قد تصرف في النص إما لم ينقله كاملا فيتصرف فيه من حيث المعنى أو يغيّر بعض الألفاظ، ويظهر هذا الاقتباس بوضوح في اقتباس الآيات القرآنية، بالإضافة إلى التصرف في معنى بعض النصوص بتصريح من الرحالة نفسه.

ففي الرحلات الجزائرية يظهر نقل ابن هطّال غير المباشر في اقتباسه من الآيات القرآنية، مثل المقدمة التي افتتح بها كلامه حيث قال: "**الحمد لله فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا**"، وهو اقتباس من الآية (96) من سورة الأنعام[2]، كما وظّف الاقتباس من الآيات القرآنية في نهاية رحلته، فذكر الحمد بقوله: "**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين**"، وهو اقتباس من الآية (10) من سورة يونس، وكذلك ختم بـ: "**سبحان ربك رب العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين**"، وهو اقتباس من الآيتين (180- 182) من سورة الصافات[3].

وكذلك نجدابن عمار يقتبس من الآيات القرآنية مثل قوله في الاستهلال: "**الحمد لله هادي السبيل..، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه**

---

(1) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص95، 96.

(2) ينظر: ابن هطال، رحلة الباي، ص33.

(3) المصدر نفسه، ص93.

المصير"، وهو اقتباس من الآية(03) من سورة غافر[1]، وغيرها من الاقتباسات في مواضع أخرى من رحلته.

أما ابن حمادوش فمن بين اقتباساته غير المباشرة، نقله للعديد من النصوص من مصادرها، ثم تصرفه في بعضها في المعنى مع تصريحه بذلك، مثل نقله من كتاب "أنس الجليل تاريخ القدس والخليل للعليمي" السابق الذكر، فبعد نقله لعدة نصوص ذكر قوله: "**انتهى من أنس الجليل بلفظه وبعضه بمعناه**"[2]، وهلم جرا.

وإذا كان أغلب رحالة المغرب في الكثير من الأحيان يوردون في رحلاتهم نصوصا مطولة من مصادر سابقيهم وتكون نقلا حرفيا بلا زيادة ولا نقصان، فهي بذلك اقتباس مباشر وصريح، إلا أنهم أحيانا لا ينقلون من مصادر رحلاتهم نقلا مباشرا، ولا يصرحون بذلك ولا يحيلون عليه، لكنهم ينقلون بطريقة غير مباشرة سواء النص أوالأسلوب مع تغييرهم الطفيف لبعض الأسماء أو الأماكن الخاصة بهم، في حين يحتفظون بالنص المقتبس من مصدر سابقيهم.

ومن ذلك ما نجده عند التمقروتي، فشدّة تأثره بـ"خالد البلوي" جعله يحاول النسج على منواله، فهو ينقل أسلوبه بالحرف في بعض مقاطع النفحة دون أن يحيل عليه، ويظهر ذلك جليا فيما أورده عند وصفه لعلاقة الأخوة التي ربطت بينه وبين "محمد بن علي القشتالي" خلال سفرهما، فنقل نفس كلام "البلوي" في حديثه عن "أبي العباس أحمد النقاوسي"[3]، واقتباسه غير المباشر وغير المصرح به موجود في مواضع أخرى من النفحة.

وكذلك الدرعي كان ينقل نصوصا مطولة من عدّة مصادر، ولكنه أحيانا يتصرف فيها بالتلخيص والتقديم والتأخير، ومثال ذلك ذكره لنصوص مطولة من "تاريخ اليعقوبي" فيما يخص فتح بلاد المغرب على يد عقبة بن نافع، وفي نهاية النقل ذكر: "**انتهى ملخصا من شرح الشقراطسية للشيخ "محمد بن علي" وبعضها بالمعنى والتقديم والتأخير**"[4]، كما

---

[1] ينظر: ابن عمار، نحلة اللبيب، ص2.

[2] ابن حمادوش، لسان المقال، ص212.

[3] ينظر: التمقروتي، النفحة المسكية، ص10.

[4] ينظر: الدرعي، الرحلة الناصرية، ص157.

أنّه عند نقله لنصوص من رحلة العياشي يقطع نص العياشي بقوله: "قلت" وبعد الانتهاء من كلامه يكمل كلام العياشي فيقول: "ثم قال"، وأحيانا يستخدم كلمة "قال" ويأتي بنقول من مصادر أخرى، ثم يكمل كلام العياشي مرة أخرى.

وبما أنّ الوزان قد اعتمد كتابة مؤلفه "وصف إفريقيا" على ما علق بذهنه فإنّه كثيرا ما يحدّث عن موضوع اعتمادا على ماسبق الاطّلاع عليه، لكنه لم يحل إليه، مثل ما فعل على سبيل المثال عندما تحدث عن تقسيم صحراء صنهاجة، الذي أخذه عن تقسيم "ابن خلدون" لكنه لم يحل إلى ذلك، كما أشار إلى ذلك محقق كتابه: "محمد حجّي"[1]،فقد ذكر الكثير من المؤلفين الذين قد اطّلع على مؤلفاتهم التاريخية والتي اعتمدها دون أن ينقل منها نقلا مباشرا منهم: "ابن الرقيق القيرواني"، و"ابن خلدون"، و"البكري"، و"الشريف الإدريسي"، و"ابن فضل الله العمري" وغيرهم[2] إلّا في بعض الأحيان فإنه يصرح بنقله.

كما نجد نفس الصنيع عند الزياني حسب ما أورده محقق رحلة المكناسي "محمد بو كبوط"، الذي أخبر بأن الزياني كان معاصرا للمكناسي لكن لم يذكر أحدهما الآخر في رحلته، وخاصة الزياني الذي أخذ نصوصا حرفية عن رحلة المكناسي "الإحراز"، وبالرغم من أنه ذكر مصادر رحلته، والتي كانت أغلبها رحلات سابقيه، إلا أنّه لم يشر إلى رحلة المكناسي، وقد أخذ عنها نصوصا حرفية في بعض المواضع من رحلته _حسب المحقق دائما_، وذلك باعتبار الزياني من رجال المخزن عند السلطان المولى سليمان، فمن المؤكد أنّه اطّلع على مخطوط الإحراز للمكناسي، واقتبس منه بعض النصوص[3]، وللإشارة فإنّ رحلة المكناسي كانت عام 1785م، أما رحلة الزياني فكانت سنة 1833م، وبذلك تكون رحلة المكناسي سابقة لرحلة الزياني فمن المؤكد أنه أخذ عنه ولم يصرح بذلك بناء على قول محقق رحلة المكناسي كما ذكرنا سابقا.

وكما في الرحلات الجزائرية نجد الاقتباس من القرآن كذلك في الرحلات المغربية، كتوظيف الزياني لبعض الآيات القرآنية في سياق أحاديثه، منها حديثه عن هدم

---

(1) ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، 148/3، 149.

(2) ينظر: المصدر نفسه، 15/1.

(3) ينظر: المكناسي، الإحراز، ص18. من كلام المحقق.

الإسكندرية على يد العبيديين حيث وظف: **"تركوها أرضا دكا"**[1]، وهو اقتباس من الآية (98) من سورة الكهف، وغيرها من الاقتباسات المحدودة من القرآن الكريم في بعض المواضع من رحلته.

من الملاحظ على أغلب الرحلات المغاربية أن النقل من المصادر يعتبر منهجا مهما اعتمده الرحالة المغاربة في تدوين رحلاتهم على غرار باقي الرحالة والمؤرخين المسلمين في تلك العصور.

الفرع الثاني: منهجي المقارنة والنقد

لمّا كانت المصادر الأساسية في الرحلات المغاربية تتمثل في تجاربهم الشخصية واعتمادهم على السماع والمشافهة بالإضافة إلى نقلهم من كتب غيرهم من رحلات وغيرها، فإنهم اعتمدوا على منهج المقارنة بين تلك المصادر بالإضافة إلى نقدهم لها في بعض الأحيان، وهو ما سنتعرف عليه في ما يأتي:

أولا: منهج المقارنة بين المصادر

بما أنّ مصادر الرحلات المغاربية لم تقتصر على الكتب فقط بل تعدّت ذلك لتشمل التجارب والمعاينات والمشاهدات وغيرها، فإنّ بعض الرحالة تطرقوا للمقارنة بين تلك المصادر.

فمن الرحلات الجزائرية التي اعتمدت على منهج المقارنة نجد على سبيل المثال لا الحصر ابن حمادوش، الذي كان يعتمد المقارنة العلمية المبنيّة على الأدلّة، فكان مهتما بإظهار أوجه التشابه والاختلاف حول ما يلاحظه من ظواهر سواء كانت طبيعية أم من صنع الإنسان، فعن المقارنة بين المظاهر الطبيعية نجده يقارن بين طيور الماء التي شاهدها في "المغرب" ومثيلتها في "الجزائر"، كما أنّه قارن بين قوارب الصيد الموجودة بالمغرب وقوارب الصيد الموجودة بنهر النيل بـ"مصر" وبيّن الفرق بين النبات المصنوع منه كل واحد من تلك القوارب[2].

---

[1] المكناسي، الإحراز، ص211.

[2] ينظر: فاطمة مقدم، الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش الجزائري، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في اللغة العربية وآدابها ضمن مشروع: الأدب الرحلي المغاربي، كلية الآداب واللغات والفنون اللسانية، جامعة وهران_ الجزائر، 2011م، ص31، 32.

ولم يقتصر منهج المقارنة على بعض الرحلات الجزائرية فحسب، بل ظهر في بعض الرحلات المغربية أيضا، فقداستخدمه التمقروتي عندما حاول استكمال الصورة التي رسمها لبعض المراسي والمدن بجلب ما يتمكن من جلبه من أوصاف سابقة لعهده ليقارن بين وضعية المدينة عند واصفيها ممن سبقوه من الرحالة، وبين ما آل إليه أمرها عندما مر بها، فمثلا عندما وصل إلى "وهران" وصفها ثم جاءبوصف "ابن عبد ربّه" لها، وما قال عنها "البكري"، وتكرّر نفس النمط عند وصفه"مستغانم" و"الجزائر" و"بجاية" ويذكر ضمن ما يذكر مزاراتها ورجالها المرموقين علما أو صلاحا موتى أوأحياء مضمنا ذلك كلام من سبقه عنهم أيضا[1]، ومثال ذلك أيضا مقارنته بين وضع "سوسة" التونسية كما أخبر عنها "البكري" ووضعها زمنه هو بقوله: " **قال البكري: والحياكة بسوسة كثيرة، ويغزل بها غزل يباع وزن مثقال منه بمثقالين من الذهب..**"[2]، ثم يقول: "**وسوسة لم تبق اليوم على ما ذكرها به هذا الإمام بل ضعفت كثيرا وقلت عمارتها، وما زال اليوم ينسج فيها مقاطيع كتان جيّد رفيع..**"[3].

كما يظهر هذا المنهج عند المكناسي في اقتباسه منهج المقارنة والمقارعة بين الروايات الواردة في المصادر التي يأخذ عنها، ومن تمّ يضبط الكثير من الأخطاء المتعلقة بأسماء الأعلام ومكان وفاتهم ودفنهم[4].

ومنهج المقارنة في الرحلات المغاربية لم يقتصر على المصادر فقط بل يتعدّى ذلك إلى المقارنة بين بعض الأمور التي لاحظها الرحالة في بعض المواضع والأماكن، ومن أمثلة ذلك: مقارنة الزياني بين أهل المشرق والمغرب في الاعتناء بالمساجد فممّا ذكر: "**ولم يزل أهل المشرق إلى الآن لهم فضل اعتناء ببناء المساجد والخانقات، ويبالغون في تعظيمها، ويتأنقون في ذلك، ويبادرون إلى إصلاح ما وهي منها، وأما أهل مغربنا فلا تكاد ترى في مدائنه مسجدا عظيما قد أحدث، بل ولا مهدوما قد جدد، أو واهيا قد أصلح، بل لو سقط شيئ من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه إن كان مبنيا برخام**

---

[1] ينظر: التمقروتي، النفحة المسكية، ص9، 10.

[2] المصدر نفسه، ص11.

[3] المصدر نفسه، ص11.

[4] المكناسي، الإحراز، ص37.

أن يعاد بجص وآجر، وإن كان مجصصا أن يعاد بطين، حيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير هندي من كل لون رقعة، وإلى الله المشتكى، وما أرى بمغربنا من الوهن إلا سببه أمثال هذا من عدم تعظيم شعائر الله.."[1]، كما أنّه وظّف منهج المقارنة في مواضع أخرى كمقارنته بين الأغنياء والفقراء في ركب الحج المغربي والمصري[2]، وغيرها من المواضع.

ثانيا: منهج النقد

ومنهج النقد في الرحلات المغاربية كان موجها لعدّة مصادر، سواء المكتوبة أوالمسموعة أو المرئية.

ففي الرحلات الجزائرية كان النقد موجها للأوضاع المشاهدة والمعاينة من طرف الرحالة، أو للأشخاص خاصة العلماء منهم، أو للكتب وغيرها، فعن نقد الأوضاع السائدة على سبيل المثال لا الحصر نجد نقد المعسكري والورثلاني لبعض الصفات والعادات الذميمة التي لم تعجبهما أثناء تواجدهما بـ"مصر" و"تونس"، كالغيرة والحسد والغش وغيرها من الصفات الذميمة، فالمعسكري تعرض إلى سوء معاملة علماء "مصر" له حينما شكّوا في إجابته[3] والورثلاني انتقد ازدراء المصريين بالمغاربة، حيث قال عن ذلك: **"فصارت في النفوس أقبح الأوطان وأذلها للغريب مصر ومكة، فلا تجد أحدا من مصر إلا يحتقر المغاربة حتى كادوا أن يخرجوهم من دائرة الإسلام، وطبائهم منافية لطبائع أهل المغرب..، فترى المغربي إذ تكلم تعصبوا عليه بالباطل ولو بالزور..، وما تخفي صدورهم لنا أكبر وأعظم، ودأبهم وديدانهم التحيل لأخذ أموالنا وسلب ما عندنا بمجرد الأباطيل والتظلم.."**[4].

أما عن نقد العلماء فنجده عند ابن حمادوش حين علّق على رأي "الشافعي التونسي" حول لغز السبعة الذين خلقوا معا، فأظهر خطأه وصوّبه بقوله: **"فأنت ترى كيف إن الشافعي**

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص212.

(2) المصدر نفسه، ص213.

(3) المعسكري، فتح الإله، ص115.

(4) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 156/3، 157.

التونسي اضطرب في المعنى..، وأقرب للصواب ما قلت والله أعلم"[1]، كما يظهر النقد عنده في مواطن أخرى من رحلته.

أمّا نقد الكتب فنجده أيضا عند ابن حمادوش الذيكان يقرأ الكتب المعرّبة، أو ما يسميها بـ"كتب النصارى" ويعجب بما فيها وينقل منها، لكنه في ذات الوقت يحذر منها خاصة فيما يتعلق بالدين والعقائد، ويتوجه إليها بالنقد والتعليق، كما فعل مع "تايخ الدول للملطي"، حيث نقل منه تراجم العديد من العلماء المسلمين، كابن سينا والفرابي، والبيروني واقليدس، وغيرهم[2]، في حين يعلّق عليه ويوجّه له النقد فيقول: **"هو كتاب عجيب التأليف حسن الصنيع لولا أنه محشو كفرا تزل فيه الأقدام، فيجب التحذير منه"**[3].

كما لا يخلو النقد في رحلة كل من ابن إدريس التتلاني عندما انتقد عقائد الإباضية، وكذلك في رحلة أبو حفص عندما انتقد وضع بلاده العلمية، التي ذكر أنها خالية من العلم والعلماء ما اضطره للسفر منها إلى المغرب وبالضبط إلى فاس.

وكذلك في الرحلات المغربية نجد النقد بكثرة، سواء نقد المصادر الشفوية أو المكتوبة وحتى المشاهدة والمعاينة الحية للأوضاع والأحداث المختلفة.

فالعياشي نجده يعتمد منهج النقد في الكثير من المواضع خاصة نقده للمرويات الشفوية التي سمعها، منها نقده لزعم بعض الناس في منطقة "عشّ الغراب" أن" الإبل تنفر من ذلك المكان لأنها تسمع صوت سقب ناقة "النبي صالح عليه السلام" لما عقرها قومه، حيث أبدى العياشي تعجبه من هذا الخبر ونقده له مع تقديمه لتوضيح شاف بأن" ذلك المكان ليس بديار ثمود، كما أنّه يدعم نقده لمختلف الأخبار التي يسمعها ولم يصدقها، باختباره لإثباث عدم صحتها ومن أمثلة ذلك: نقده لصحة الخبر الذي وصل إلى مسمعه أن الجالس بغار حراء يرى الكعبة المشرفة، وذلك بعد أن تحقق من ذلك بنفسه بأن صعد إلى الغار فنفى ذلك الأمر وذكر أنّ البيت قبل أن يكتنفه البنيان العظيم قد يظهر من خارج، وأما من الغار نفسه فلا يمكن ذلك[4]، كما نقد زعم الناس بالعمود المتحرك بمسجد

---

(1) ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص136. وبكاري، منهج الكتابة التاريخية، ص251.

(2) ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 450/1. ومقدم، الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش، ص9.

(3) ابن حمادوش، المصدر السابق، ص134.

(4) ينظر: نواب، كتب الرحلات في المغرب، ص163

"سيدي عقبة" بعد معاينته لذلك واختباره له، حيث ذكر ذلك في سياق حديثه عن ذلك المسجد فقال: "**وفي مسجده مأذنة كبيرة متقنة البناء وفي أعلاها عمود، والحجاج يزعمون أن من تمسك بذلك العمود وحركه وقال: أقسمت عليك أيتها المأذنة بحق سيدي عقبة إلا ما تحركت، فتهتز، وقد طلعت إليها ورأيت ذلك، وليس كما زعموا، وإنما هو من إتقان البناء وفرط طوله، فإذا صودم بقوة ظهر فيه شبه اهتزاز، وذلك بقع في كل اهتزاز**"[1].

والزياني أيضا استخدم منهج النقد في الكثير من المواضع خاصة نقد الأوضاع السائدة كانتقاده لعدم الاهتمام ببناء المساجد في بلده المغرب بعد مقارنته بين الوضعين (في المشرق والمغرب كما سبق ذكرها) أظهر انتقاده للوضع المهين للمساجد ببلده "المغرب"، وأرجع سبب ذلك الوهن إلى عدم الاهتمام بالشعائر الدينية[2]، بالإضافة إلى نقده للمصادر المكتوبة ومنها "رحلة ابن بطوطة" التي أنكر ما فيها من الأخبار بشهادة أهل البلاد التي تحدث عنها "ابن بطوطة" ومما قال في ذلك الشأن: "**إنما رسمت فيها ما شاهدته في الأقاليم التي بلغتها وغيره نقلتها من رحلة العياشي، ومحاضرة اليوسي..، ومن تواريخ لبعض علماء الهند اجتمعت بهم بالحرم الشريف وبمكة وكنت أسرد عليهم رحلة ابن بطوطة فأنكروا كثيرا مما فيها من أخبار ملوكهم، وأما قضاؤه بالهند ومصاهرته لسلطانه فقد أبطلوه بالكلية، وقالوا هذا غير ممكن، فبسبب ذلك لم أنقل من خبرها شيئا**"[3]

كما انتقد كل من الدرعي والحضيكي بعض المظاهر الاجتماعية، كخروج نساء "عين ماضي" بالصحراء الجزائرية متبرجات للتسوق مع الحجّاج[4].

ونقد المصادر من المظاهر والأوضاع والأشخاص والكتب وغيرها موجود بكثرة في الرحلات المغاربية عموما نكتفي بهذا القدر على سبيل الذكر والتوضيح فقط.

---

(1) العياشي، الرحلة العياشية، 2/ 539.

(2) الزياني، الترجمانة، ص212.

(3) المصدر نفسه، ص581.

(4) ينظر: الدرعي، الرحلة الناصرية، ص131. والحضيكي، الرحلة الحجازية، ص81.

والخلاصة فإن الرحلات المغاربية اتبعت منهجا خاصا في تعاملها مع المصادر المختلفة تميز بكثرة النقول من المصادر المكتوبة السابقة وكثرة الاقتباسات، كما تميزت بالاعتماد على المشاهدة والمعاينة من خلال التجارب الشخصية لأغلب الرحالة، إضافة إلى لجوء الرحالة إلى منهجي المقارنة والنقد بين المصادر في بعض الأحيان.

الفصل الثالث:

منهجية تدوين الرحلات المغاربية

المبحث الأول: ترتيب الرحلات المغاربية

المبحث الثاني: اللغة والأسلوب في الرحلات المغاربية

الفصل الثالث: منهجية تدوين الرحلات المغاربية

تحدّث هذا الفصل عن طريقة تدوين الرحلات المغاربية، وذلك في مبحثين، الأول عن منهجية ترتيب الرحلات المغاربية، والثاني عن اللغة وصياغة الأسلوب في تلك الرحلات.

المبحث الأول: منهجية ترتيب الرحلات المغاربية

رغم تشابه الرحلات المغاربية في بعض المناهج والأسلوب واللغة، إلا أنّه من الطبيعي أن تختلف عن بعضها وتتفرد بخصائص تميز كل رحلة عن غيرها خاصة بالتحديد الزمكاني لمجريات الرحلة، بالإضافة إلى الموضوعات المتطرق إليها وهو ما حاولت معرفته في هذا المبحث الذي قسّم إلى ثلاثة مطالب: الأول في الحديث عن الترتيب الزمني في الرحلات المغاربية، و الثاني في الحديث عن الترتيب المكاني في الرحلات المغاربية، أما المطلب الثالث ففي الترتيب الموضوعي في الرحلات المغاربية.

المطلب الأول: الترتيب الزمني

يعتبر الزمن من أهم العناصر المكونة للنص الأدبي السردي خاصة المرتبط بالقصّ والحكي على شاكلة الرحلة؛ فهو أحد أهم العناصر المؤطرة لأحداث الرحلة، والناظمة لفعل الارتحال والضابط له، وهو أحد المحددات الكبرى التي تمكننا من التأكد من مدى فعلية الرحلة أو عدمها، والزمن في الرحلة هو المحدد لعصرها، ولبدايتها ونهايتها، لذلك تجد جميع الرحالة أو من ينوب عنهم في كتابة رحلاتهم يعمدون منذ البداية إلى التحديد الزمني الدقيق باليوم والشهر والسنة، وفي بعض الأحيان بالوقت والساعة(1)، ومن هذا المنطلق أردت التعرف على مدى اعتماد الرحلات المغاربية على الترتيب الزمني.

إنّ الرحالة الذي يعتمد على الترتيب الزمني في رحلته يحدّد زمن بداية رحلته ونهايتها، وقد يقسم رحلته إلى وحدات زمنية معتمدا على اليوم أو الأسبوع أو الشهر أو السنة، وفي هذا الإطار إمّا أن يعنون فصول رحلته بالزمن، أو يذيّله به، كما قد يقدم ويؤخر(2)، ومن

(1) ينظر: سيزا القاسم، بناء الرواية "دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مكتبة الأسرة، القاهرة، د.ط، 2004م، ص37. وحسيني، الرحلة الجزائرية، ص272.

(2) ينظر: زردومي، فن الرحلة، ص28.

هذا المنطلق قسم هذا المطلب إلى فرعين: الأول في الترتيب الزماني في الرحلات الجزائرية، والثاني في الترتيب الزماني في الرحلات المغربية.

الفرع الأول: الترتيب الزمني في الرحلات الجزائرية

من الرحلات الجزائرية التي اعتمدت على الترتيب الزمني نجد على رأسها رحلتي ابن حمادوش وابن هطال.

فابن حمادوش كان يربط بين أجزاء الرحلة بالترتيب الزمني متبعا طريقة السنوات، فرحلته لا تكاد تتجاوز خمس أو ست سنوات من عمر المؤلف، فالملاحظ عليه أنه كان يحشو كل سنة بأخبار ووقائع تتعلق بشخصه في الغالب، فهو اعتاد أن يؤرخ بالتاريخين الهجري ويسميه العربي، والميلادي (الشرقي) أو الفلاحي كما أنه كان نادرا ما يؤرخ بالتاريخ الإسكندري، وقد رتبها على السنوات والشهور والأيام[1]، ذلك أنّه يسير على طريقة الحوليات أو السنوات التي يرتب من خلالها الأحداث المنتهية ليبدأ في ذكر أحداث سنة جديدة، فيقول مثلا: "دخول شهر كذا"، "عام كذا"، "سنة كذا مسيحية"، وهو نفسه يؤكد على تعلمه لمختلف التأريخات واستعماله لها في رحلته كالتأريخ الهجري الإسلامي، والميلادي المسيحي، والإسكندري، فيقول في ذلك: "**وفي يوم الجمعة..، ابتدأت تأليفا في علم الفلك جمعت فيه غريب ما أتعلم، فمنها سبعة تواريخ فيه كلها تعلمتها: العربي والمسيحي والسكندري..، وزدت فيه الفارسي والملكي والقبطي والعبري**"[2]، وقد جسد ما تعلمه في رحلته التي أرخ لبدايتها بقوله: "**مبدؤه من أول ليلة الاثنين فاتح عام 1156 عربية الموافق رابع عشر فبراير ثاني شهور سنة 1743 مسيحية، وخامس شهور سنة 2045 أسكندرية**"[3].

وكذلك ابن هطال اعتمد على الترتيب الزمني بدقة أثناء سرده لأحداث الرحلة ومراحلها المختلفة، فحدد زمن بدايتها بقوله: "**فخرج يوم الخميس التاسع من ربيع الأول**"[4]، كما حدّد تاريخ نهايتها أيضا بدقة متناهية فيذكر اليوم والشهر والساعة، حيث يقول: "**وكان**

(1) ينظر: سعد الله، أبحاث وآراء، 2/ 230، 231.

(2) ابن حمادوش، لسان المقال، ص264.

(3) المصدر نفسه، ص29. وينظر: بكاري، منهج الكتابة التاريخية، ص241.

(4) ابن هطال، رحلة الباي، ص36.

دخوله يوم الأربعاء من ربيع الثاني قبل وقت العصر في أول الساعة الثامنة"[1]، والملاحظ أيضا على الزمن عنده أنه يستعمل التقويم الهجري في ذكر السنوات كما أنه قدّر المراحل بالساعات، فقال في بداية رحلته عن خروج سيده الباي للحملة: "**مقتصرا على ذكر خروجه إلى جهة القبلة عام تسعة وتسعين ومائة وألف، مقدرا بالسوائع مراحله..**" [2].

أما ابن إدريس التنلاني فكان ترتيبه يعتمد على إزدواجية الزمان والمكان، فكان تارة يبدأ بذكر المكان ويليه الزمان، كقوله عند خروجه من ميتليلي: "**وخرجت منها في السادس، وهو تاسع رمضان بعد الظهر..**"[3]، وتارة أخرى يبدأ بذكر الزمان ويليه المكان كقوله: "**وعند العصر دخلنا أرض متيجة..**"[4]، كما أنه قد حدّد بداية رحلته ونهايتها، وقد ربط بين أجزاء الرحلة بالشهور والأيام، فعن بداية رحلته قال: "**فلما قدّر الله سفري لمحروسة الجزائر وكان سفري لها في أوائل الشهر المنير، أحد شهور إحدى وثلاثين ومائتين وألف، خرجت من بلدتنا..، ثالث الشهر المذكور..**"[5]، ويبلغ التحديد الزماني عند ابن إدريس التنلاني دقة متناهية عندما يستعمل الساعات، مثل: "خرجت منها في السادس"، و"بعد الظهر"، و"بعد صلاة العشاء"، و"طلوع الفجر"، و"وسط الضحى"... إلخ

وبذكر هذه الرحلات الجزائرية الثلاث السابقة التي اعتمدت الترتيب الزمني في تدوينها بالدرجة الأولى، لا يعني أن بقية الرحلات ألغت الزمن تماما، وإنما كان اعتمادها على االزمن نادرا، أو أنها اتبعت منهج الترتيب المكاني أو الترتيب الموضوعي يتخلله ذكر الزمان بنسب متفاوتة، إذ لا يمكن الاستغناء عن الزمن باعتبارهأحد أهم العناصر المؤطرة لأحداث الرحلة.

فالورثلاني مثلا لم يستغن عن الزمن وإنما كان حاضرا عنده من خلال ذكره لبعض السنوات، كسنة بداية رحلته في قوله: "**لما أراد المشي منا إلى الحج وقد سبق في علم**

---

[1] ابن هطال، رحلة الباي، ص92.

[2] المصدر نفسه، ص35.

[3] ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص239.

[4] المصدر نفسه، ص243.

[5] المصدر نفسه، ص237.

الله أن يكون حجنا في عام تسعة وسبعين وألف"[1]، كما أشار إلى سنوات حجّاته السابقة، بالإضافة إلى توظيفه للشهور والأيام، كذكره ليوم انطلاق الرحلة الذي كان "يوم الخميس"، إضافة إلى ذكره لبعض الأوقات، كوقت العصر وغيرها، ورغم اعتماد الورثلاني على الزمن في بعض الأوقات إلا أنّه لم يرتب رحلته ترتيبا زمنيا، وإنما كان ترتيبه مكانيا بالدرجة الأولى كما سنرى في العنصر اللاحق، لكن رغم ذلك فقد حاول الورثلاني أن يقدم أحداث رحلته مرتبة على نفس ترتيبها كما حدثت في الواقع مراعيا فيها الترتيب الزمني، كما قد فرض زمن الحج في رحلته نفسه على الرحالة في بناء رحلته وترتيب أحداثه في هذه الرحلة، وحتم عليه أن يبقى محافظا على سيروته وترتيبه الطولي مثلما هو حاله في الواقع مخضعا إياه لترتيب المناسك، بداية من الإحرام وانتهاء بطواف الوداع والزيارات، كما فرض عليه توظيف الأوقات الشرعية، فظهرت الإشارات الزمنية عنده بصورة مكثفة لكنها في أغلب الأحيان مرتبطة بالنفحات الدينية، إذ طغى عليها التعبير بأوقات الصلاة وطلوع الفجر وغروب الشمس [2].

وكذلك المقري يستعمل الزمن بكثرة حيث كان كلما حل بمدينة من المدن يذكر تاريخ وصوله إليها، وتاريخ تنقلاته ونشاطاته بها، ومثال ذلك أنه يخبرنا أنه لما حلّ بـ"محروسة الجزائر" خرج يوم الخميس في الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة 1027هـ إلى رأس تافورة صحبة مجموعة من الأعيان[3].

أما المعسكري فعنصر الزمن عنده كاد أن يكون مغيبا تماما لولا وجود بعض الإشارات الطفيفة والعامة الدالة على الزمن، فهو عند حديثه عن رحلته تركها مبهمة ولم يشر لزمن بدايتها ولا لنهايتها، وعند دخوله لمختلف المدن التي زارها لم يذكر زمن الدخول إليها ولا زمن الخروج منها، فهو قد غيب الزمن شبه كليا، وركز فقط على ذكر كل ماله صلة بالعلم والعلماء[4]، ومن أمثلة ما ذكر" دخوله "تونس" حيث قال: "**ثم ذهبت إلى**

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 13/1.

(2) ينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص202، 205.

(3) ينظر: المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص13.

(4) ينظر: حسيني، المرجع السابق، ص336، 340.

تونس أم البلاد..، واجتمعت بعلمائها.."[1]، ومن الإشارات الطفيفة الدالة على بعض الأوقات، كوقت الفجر والعصر، واليوم والليلة، ومن أمثلة ذلك قوله: **"ثم تناظرنا بعد صلاة العصر.."**[2].

وكذلك أبو حفص التنلاني لم يهمل الزمن في رحلته العلمية، فقد أشار إلى عدة سنوات، فحدد بداية رحلته ونهايتها في بقوله: **"فسافرت لطلب العلم من توات لمدينة فاس سنة سبع عشرة ومائة وألف، وأقمت فيها مشتغلا بالقراءة والإقراء إلى آخر سنة تسع وعشرين ومائة وألف، نحو ثلاث عشرة سنة"**[3]، كما ذكر سنوات وفاة بعض شيوخه، منها: **"وتوفي شيخنا المذكور أبو علي رحمه الله سنة أربعين ومائة وألف"**[4]، بالإضافة إلى ذكره لبعض الأوقات، كالضحى والعصر وغيرها.

أما الأغواطي فالزمن عنده قليل جدا يتمثل في بعض الإشارت إلى بعض السنوات والأوقات، ومن ذلك في إشارته لحملة شقيق التيجيني حاكم عين ماضي على وهران سنة (1243هـ) فقال: **"ومنذ سنتين فقط جمع أخوه جيشا.."**[5]، لكنه لم يذكر السنة بالضبط، كما أشار إلى بعض الأوقات في تقدير المسافات بين المدن والأماكن، مستعملا عبارة: "والمسافة بين كذا وكذا مسيرة يوم"، كما أنه استعمل الزمن بالساعات في حديثه عن كيفية صنع البارود فقال عن عناصرها: **"وهذه العناصر المختلفة تخلط جميعا في غضون أربع ساعات"**[6]، ورغم استعماله الطفيف للزمن إلا أنه لم يكن معتمدا عليه كاعتماده على المكان كما سنرى لاحقا.

الفرع الثاني: الترتيب الزمني في الرحلات المغربية

بخلاف الرحلات الجزائرية التي كان بعضها يعتمد الترتيب الزماني، فإن الرحلات المغربية لم تكن أي من تلك الرحلات اعتمدت على الترتيب الزماني، ولكن

---

(1) المعسكري، فتح الإله، ص108.

(2) المصدر نفسه، ص119.

(3) عمر الأكبر التنلاني، الرحلة إلى فاس، ص162.

(4) المصدر نفسه، ص108.

(5) الأغواطي، الرحلة، ص88.

(6) المصدر نفسه، ص91.

رغم ذلك فإن معظمها إن لم نقل جميعها لم تستغن عن الزمن باعتباره عنصرا فاعلا في الرحلة، إذ هو المحرك الأساسي لها.

فالوزان بالرغم من أنّ ترتيبه كان موضوعيا بالأساس، ويعتمد كثيرا على التحديد المكاني إلا أنه لم يستغن عن الزمن رغم استعماله بصورة قليلة، وذلك من خلال ذكره لبعض التواريخ، والتي غالبا ما تكون هجرية إلا مرات قليلة ورد فيها التاريخ الميلادي(1).

والدرعي أيضا بالرغم من أنه لم يرتب رحلته على أساس الزمن إلا أنه لم يغفله تماما فهو يتحدث عنه في الكثير من المواضع سواء محددا بالسنوات أو يذكر زمن حجّاته فيقول عن أحدها: "**وفي رحلتنا للحرمين الشريفين سنة ست وتسعين وألف..**"(2)، كما أنه يحدد الأيام والشهور الهجرية وما يقابلها من الميلادية، ويذكر أيضا أوقات الصلاة كقوله: "**ونزلنا سواني بن قردان قبل العصر..، يوم الخميس الخامس والعشرين من جمادى الثانية عاشر غشت، وبهت وادعنا**"(3).

وكذلك العياشي كثيرا ما يذكرالأيام والشهور والسنوات مع بعضها البعض في بعض الأحيان، كتحديده لبداية رحيل المغاربة من مكة بعد الانتهاء من أداء المناسك باليوم والشهر: "**ولما كان يوم الأحد الموفى عشرين من ذي الحجة أخذ المغاربة في الرحيل..**"(4)، وتحديده ليوم وصوله إلى بلده بعد نهاية الرحلة بدقة، فذكر وقت الصلاة واليوم والشهر والسنة، وذلك بقوله: "**ووصلنا بلدن أمنه الله من كل سوء يوم الأربعاء ظهرا سابع عشر شوال من سنة أربع وسبعين وألف**"(5)، كما أنّه يحدد الأوقات بدقة أحيانا أخرى كالضحى وأوقات الصلاة كالظهر العصر، وأحيانا يبلغ به الأمر إلى تحديد الأوقات بالصباح والمساء وباللحظات أيضا كطلوع الشمس وغروبها كقوله: "**وخرج المبشرون صبيحة يوم العيد قبل طلوع الشمس..**"(6)، وغيرها من الأوقات.

---

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 12/1.

(2) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص178.

(3) المصدر نفسه، ص675.

(4) العياشي، الرحلة العياشية، 361/1.

(5) المصدر نفسه، 551/2 .

(6) المصدر نفسه، 549/2.

وكذلك التمقروتي لم تخل رحلته من ذكر الزمان، سواء بالتاريخ المضبوط والمحدد باليوم والشهر والسنة أحيانا كقوله مثلا: " **ثم دخلنا الجزائر يوم السبت ثامن ذي القعدة لليلة بقيت من غشت..**"[(1)]، أو بالأوقات الدقيقة كاليوم والليل وآخر اليوم..، أوبالألفاظ العامة الدالة على الوقت: كالزمان الغابر، والحاضر، والدهر، والأمد، وغيرها.

والمكناسي أيضا لم يستغن عن استعمال الزمن في رحلته، فكان يذكر اليوم والشهر والسنة هو الآخر، كقوله عن مقامه بـ"تونس": "**وكان مقامنا في هذه المدينة اثنين وعشرين يوما، وسافرنا منها ثالث رجب من سنة اثنين ومائتين وألف..**"[(2)]، بل كان دقيقا في استخدامه للزمن، حين استعمل تحديد المسافات بالساعات في معظم الرحلة، كقوله: "**ومن الغد..، نزلنا بلدة يقال لها تستر على أربع ساعات..**" [(3)]، كما أنه استعمل عدّة ألفاظ أخرى دالة على الزمن كـ"اليوم" و"الليل"، و"النهار" وغيرها.

وكذلك رحلةالزياني لم تخل من استخدام عنصر الزمن بالرغم من أنه رتبها على أساس المواضيع بالدرجة الأولى، فهو يذكر السنوات خاصة في حديثه عن تواريخ المدن التي زارها كقوله: "**وأما المعسكر فأسسها أمير توجين من زناتة عام اثنين وستين وأربعمائة**"[(4)]، وهو في أغلب الأحيان يستخدم التاريخ الهجري.

والحضيكي أيضا لم تخل رحلته الحجازية من توظيف عنصر الزمن، سواء تعلق الأمر بذكر السنوات خاصة في حديثه عن بعض الأخبار التاريخية الخاصة بمكة والمدينة، ومن بينها ذكره لسنة حرق المسجد الحرام الذي كان سنة أربع وخمسين وستمائة[(5)]، كما أنه كان يذكر الأوقات الأخرى كـ"الأيّام" و"الصباح" و"المساء" و"الليل" وأوقات الصلاة كـ"الجمعة" و"الظهر" و"العصر" وغيرها من الأوقات والألفاظ الأخرى الدالة عن الزمن التي لا يمكن لأي رحلة أن تخلو منها.

---

(1) التمقروتي، النفحة المسكية، ص128.

(2) المكناسي، الإحراز، ص326.

(3) المصدر نفسه، ص327.

(4) الزياني، الترجمانة، ص148.

(5) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص157.

وابن الطيب الفاسي أيضا لم يستغن هو الآخر عن الزمن، فيذكر السنوات والشهور والأيام، فقد حدّد بداية رحلته من فاس التي كانت كما قال: **"يوم الأربعاء الرابع من رجب الفرد الحرام سنة تسع وثلاثين ومائة وألف لهجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الكرام"**[(1)]، كما أنّه يحدّد زمن وصوله إلى مختلف المناطق باليوم والشهر أيضا كقوله:**"وارتحلنا من بسكرة التي هي قاعدة بلاد الزاب يوم السبت السادس من الشهر"**[(2)]، كما أنه يقتصر على ذكر الأيام فقط أحيانا كقوله: **"وارتحلنا يوم الخميس فأصبحنا على قابس.."**[(3)].

وكذلك ابن زاكور لم يستغن عن الزمن فقد ورد في رحلته بصورة قليلة، فكان اعتماده على ذكر بعض السنوات كذكره لسنة ميلاده من طرف أحد شيوخه الجزائريين في إجازته، والذي كان "سنة أربع وتسعين وألف للهجرة"، كما كان يحدّد الأوقات بالسنوات والأيام والشهور وغيرها، مثل تحديده لمدّة ملازمته لأحد شيوخه المغاربة الذي كان"أربع عشرة سنة ليلا ونهارا"[(4)]، وغيرها من التحديدات الزمنية الأخرى.

وعموما فإن الرحلات المغربية جميعا لم تستغن على عنصر الزمن رغم عدم اعتمادها عليه في ترتيب مواد الرحلات بالدرجة الأولى باعتباره المحرك الأساسي لأحداث الرحلة جميعا.

المطلب الثاني: الترتيب المكاني

إنّ أيّ رحلة تبدأ من نقطة على سطح الأرض وتنتهي إلى أخرى، وبين النقطتين تنتشر الأماكن بأسمائها المعروفة بها على الخريطة كما هي معروفة بها على أرض الواقع بمدنها وقراها، وبجبالها وسهولها، وأوديتها وأنهارها..، وبذلك فمن الطبيعي أن يصبح المكان دعّامة من الدعّامات التي لا يستغنى عنها في الرحلة، لكن علاقة المكان بغيره من مكونات الرحلة يختلف من رحلة إلى أخرى حسب طبيعة الرحلة والهدف منها وحسب طبيعة الراوي وحالته النفسية، أو وضعه بالنسبة للأحداث بعدا وقربا، حضورا

(1) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص72.

(2) المصدر نفسه، ص100.

(3) المصدر نفسه، ص112.

(4) ينظر: ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص46.

ومشاركة، أوعلاقته بالشخصية المركزية في الرحلة[1]، والترتيب المكاني يتبع فيه الرحالة التسلسل المكاني الذي يقطعه من خطّة سير الرحلة أولا بأول، وهو ما يسمى عند القدامى بـ"مراحل الطريق"[2]، ولمعرفة هذا الترتيب في الرحلات المغاربية قسّم هذا المطلب إلى فرعين: الفرع الأول في الحديث عن الترتيب المكاني في الرحلات الجزائرية، والفرع الثاني في الترتيب المكاني في الرحلات المغربية.

الفرع الأول: الترتيب المكاني في الرحلات الجزائرية

من الرحلات الجزائرية التي اعتمد الرحالة فيها على الترتيب المكاني نجد الورثلاني، والأغواطي.

فرحلة الورثلاني اعتمدت على الترتيب المكاني بالدرجة الأولى، ذلك أن الورثلاني انصبّ اهتمامه على المكان والشخصيات التي تتحرك فيه، وكاد يغيّب المؤشرات الزمنية الدالة على الأزمنة التي تتحرك فيها الشخصيات، وتجري فيها الأحداثبنسبة كبيرة، وذلك ليتّخذ الترتيب المكاني وسيلة فنّية تضفي على النص الرحلي ديناميكية تبعث فيه الروح وتخلصه من سلطان التاريخ وصرامة التحديدات الزمنية، حتى يكون أقرب إلى الأدبية التي توفر المتعة وتخلق اللذة للمتلقي[3].

وقد تتفرّد رحلة الورثلاني عن الرحلات الجزائرية الأخرى في ذكر الترتيب المكاني وتركيزها عليه، وذلك باعتبار الرحلة الحجّية الواضحة التي اتبعت الطريقة التقليدية التي ألفها الرحالة المغاربة عموما في وصف مراحل طريق قوافل الحجاج المغاربة.

وكذلك الأغواطي اعتمد الترتيب المكاني في رحلته التي عرف بها المناطق الصحراوية الجزائرية بالإضافة إلى بعض المناطق الصحراوية المجاورة وجزء من بلاد "الحجاز"، فقد اهتم بذكر المكان أكثر من ذكره للزمان، حيث وصف عدّة أماكن في صحراء الجزائرمن أهمها: "الأغواط" و"تاقدامت" و"عين ماضي"، و"جبل عمّور"، و"ميتليلي" و"وادي ميزاب" و"المنيعة" و"ورقلة" و"تقرت" و"توات" و"تيميمون" و"عين صالح"

(1) حسيني، الرحلة الجزائرية، ص256.

(2) زردومي، فن الرحلة، ص38.

(3) حسيني، المرجع السابق، ص196.

وغيرها[1]، لكن الملاحظ على ذكره للمكان أنّه لم يذكر شيئا غير الوصف ولم ينوه إلى أي معلومة تفيد بأنّه قام برحلة إلى هذه المناطق أو زارها، فهو لم يستخدم الزمن للدلالة على دخوله أو خروجه من هذه المناطق، كما أنّه لم يستعمل الأفعال الدالة على الزيارة أو الحركة في هذه الأمكنة، كالأفعال المستخدمة في مختلف الرحلات الجزائرية الأخرى مثل: "دخلت"، "نزلت"، زرت" وغيرها من الأفعال الدّالة على السفر والحركة، وإنّما اكتفى بوصف هذه الأمكنة فقط، مع ذكر تفاصيل الطريق وتقدير المسافات بالزمن وخاصة اليوم، كقوله مثلا: **"ومن بئر بدمام إلى تيميمون مسافة يوم"**[2]، بالإضافة إلى استخدامه للجهات كالشرق والغرب..، وغيرها، كقوله: **"وتقع هضاب وادي ميزاب شرقي متليلي"**[3].

أما بقية الرحلات فلم تستغن على ذكر المكان باعتباره محور الرحلة بالرغم من اعتمادها على الترتيب الزمني أو الموضوعي.

فرغم اعتماد رحلة ابن إدريس التنلاني على إزدواجية الترتيب الزماني والمكاني كما سبق الذكر إلا أننا ندرجها تحت هذا العنصر على اعتبار ترتيب المحقق الذي جعل لها عناوين اعتمادا على المكان، مثل: "خروجه من تنلان إلى الجزائر"، "ذكر دخوله مدينة البليدة"، "ذكر دخوله مدينة الجزائر"، فكانت عناوين الرحلة جميعا مرتبة على أساس دخوله وخروجه من المدن والأماكن، ماعدا في الأخير فكانت العناوين على حسب الموضوع الرئيسي للرحلة، وهو الحملة الإنجليزية على الجزائر كما سنوضح في العنصر اللاحق.

وكذلك رحلة الباي محمد الكبير، كان المكان فيها محددا ومدروسا وفق خطّة عسكرية على خريطة تكون المسارات والمحطات فيها محددة تحديدا دقيقا، ومعروفة بجميع تفاصيلها الجغرافية والانثربولوجية، فاختيار المسار لن يكون اعتباطيا، بل لابد أن يكون قائما على دراسة معمّقة تأخذ في الحسبان طبيعة الأماكن وجغرافيتها، وطبيعة سكانها وأهلها، وأماكن تواجد الماء فيها، إضافة إلى تحديد توقيت السير والتوقف تبعا

---

(1) ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 386/2، 387.

(2) الأغواطي، الرحلة، ص93.

(3) المصدر نفسه، ص90.

للمستجدات ليلا ونهارا[1]، وطريقة تأليف ابن هطال لرحلة الباي محمد الكبير طريقة تقليدية بحتة، فهي تعتمد على سرد الوقائع وذكر الحوادث دون تحليل، بالإضافة إلى عدم ترتيبه للكتاب أبوابا وفصولا كما جرت عادة القدامى، وذلك نظرا لضيق وقته لأنه ألف الرحلة أثناء سفره، ولم يجلب معه أية مصادر يستعين بها[2].

وكذلك كل من ابن عمار والمقري والمعسكري وابن حمادوش وأبو حفص التنلاني لم تخل رحلاتهم من ذكر المكان، باعتباره محور حركة الرحالة جميعا، فابن عمار يتحدث عن عدّة أماكن عند وصفه لها كمدينة الجزائر، والمعسكري يدخل مختلف المدن الجزائرية التي زارها، والمدن العربية التي رحل إليها لطلب العلم، وهي كثيرة جدا منها: "الجزائر" و"قسنطينة" و"معسكر"، و"مصر" و"تونس" و"فاس" وغيرها، وكذلك المقري يذكر زياراته لبعض المدن الجزائرية كـ"تلمسان" و"الجزائر"، بالإضافة إلى بعض المدن العربية كـ"دمشق" و"مكة" وغيرها، وكذلك رحلة ابن حمادوش حافلة بذكر الأمكنة المختلفة التي زارها سواء في "المغرب" أو في "الجزائر"، وقد اختلفت كيفية استخدام هذه الرحلات للمكان، فهناك من استخدم المكان مراعيا للترتيب الزمني لدخوله وخروجه منها كالمقري وابن حمادوش، وهناك من استخدمه للحديث عن علماء تلك الأماكن كالمعسكري أبو حفص التنلاني، وهناك من استخدم المكان من وصفه كابن عمار.

الفرع الثاني: الترتيب المكاني في الرحلات المغربية

ومن الرحلات المغربية التي اعتمدت على الترتيب المكاني، نجد رحلة كل من: العياشي، والتمقروتي، والدرعي.

فالتمقروتي كان اعتماده على الترتيب المكاني واضحا وجليا، مع ما يتخلل ذلك من ذكر للمواضيع بطبيعة الحال، وإشارات طفيفة للزمن، وقد كان اجتهاذ المحقق أن قسم الرحلة حسب طبيعتها لعدة فصول حسب الترتيب المكاني، فكان الفصل الأول:"من درعة إلى تطوان"، والفصل الثاني:"من تطوان إلى تونس"، ثم الفصل الثالث:"من تونس إلى طرابلس"، ثم الفصل الرابع:"من طرابلس إلى القسطنطنية"، ثم الفصل الخامس

---

[1] ينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص256.

[2] ينظر: ابن هطال، رحلة الباي، ص14.

والأخير:"من القسطنطنية إلى تطوان"، وإذا كان المحقق قد رتب الرحلة ترتيبا مكانيا مختصرا جدا، فإن التمقروتي كان كثيرا ما يفصل عند ذكره لهذه الأمكنة، حيث يكثر من وصف كل مكان يمر به أو يزوره ويمكث فيه، ولا يكتفي بوصف ما شاهده والإخبار عما سمعه، بل تجده يأتي بنصوص رحلات غيره من الرحالة السابقين خاصة خالد البلوي وابن عبد ربه وابن بطوطة.

وكذلك العياشي كان هو الآخر اعتماده الأول على الترتيب المكاني في رحلته، مع الترتيب الموضوعي في بعض الأحيان كما أنّه لم يغيب عنصر الزمن أيضا، فرغم أنّه لم يقسم رحلته تقسيما ممنهجا بالفصول أو الأبواب إلا أنّه اعتمد على ترتيب مواضيع رحلته حسب توالي محطات الرحلة، فكانت عناوينه كلها على نمط واحد تقريبا، إذ كانت على النحو التالي: "ذكر خروجنا من البلد ووداع الأهل والوالد والولد"، "ذكر خروجنا من سجلماسة"، "ذكر خروجنا من بلاد أوكرت"، "ذكر دخولنا لمدينة طرابلس"، "ذكر الرحيل من مدينة طرابلس"، "ذكر دخولنا إلى القاهرة"، "ذكر خروجنا من مصر إلى درب الحجاز"، "ذكر دخولنا مكة المشرفة"، "ذكر الخروج من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة"، "ذكر دخولنا المدينة المنورة"، "ذكر مواضع نزولنا بالمدينة وإقامتنا بها"، "ذكر الخروج من المدينة المشرفة إلى مكة المعظمة"، "ذكر الأماكن التي ينبغي أن تزار بمكة المعظمة"، "خروجنا من القدس الشريف"، "ذكر ارتحالنا من الإسكندرية"...إلخ، فكانت عناوين رحلته جلها على هذا النحو من ذكر المكان أساسا، إلا في بعض الأحيان كان يتخلل ذلك الترتيب عناوين تتحدث عن بعض المواضيع الأخرى كلقاء العلماء والأصحاب بتلك الأماكن كقوله: "ذكر من لقيته بالمدينة من المشايخ الأعلام والأصحاب"، "ذكر من لقيته بمكة من الأفاضل أيام المجاورة" وغيرها.

والدرعي أيضا اعتمد على الترتيب المكاني بالدرجة الأولى خاصة أن قدوته في ذلك شيخه العياشي، لذلك كانت رحلته مرتبة على منوالها تقريبا، خاصة في ذكر المحطات المتوالية في السفر، فمن بعض عناوين رحلته: "ذكر خروجنا من البلد ومفارقة الأهل والإخوان"، "ذكر خروجنا من بسكرة"، "ذكر وصولنا لطرابلس"، "ذكر رحيلنا من بلد طرابلس"، "ذكر دخولنا لمدينة مصر"...، وكان يتخلل هذا الترتيب المكاني ترتيب

موضوعي في الكثير من الأحيان، ومن عناوين المواضيع التي وردت في رحلته متخللة الترتيب المكاني ذكر: "فضائل الحج والعمرة في البداية"، "دواعي الرحلة"، "موقف العلماء من شرب القهوة(بمصر)"، "زيارة مزارات مصر"، "العنب يطعم مرتين في السنة في مدين"، "تعيين نقيب للزاوية الناصرية بمصر"، "ذكر ما يتعلق بقبح الدخان وخبثه"، "كيفية الذكر الوارد"، "الدرياس سم قاتل"، "الإذن في التصوف"، "فضل ليلية النصف من شعبان"..، وغيرها من المواضيع الأخرى.

المطلب الثالث: الترتيب الموضوعي

في هذا النوع من الترتيب يقوم الرحالة باختيار موضوعات بعينها، والانطلاق منها إلى وصف مكان أو شعب، ويراعي في ذلك التسلسل الزمني والمكاني بنسب مختلفة، وقد يهمل ذلك[(1)]، وهناك الكثير من الرحلات المغاربية التي اتّبع فيها الرحالة منهجية الترتيب الموضوعي، وقد قسم هذا المطلب كسابقَيه إلى فرعين، الأول في الترتيب الموضوعي في الرحلات الجزائرية، والفرع الثاني يخص الترتيب الموضوعي في الرحلات المغربية.

الفرع الأول: الترتيب الموضوعي في الرحلات الجزائرية

من الرحلات الجزائرية التي كان اعتمادها الأول على الترتيب الموضوعي نجد المعسكري وابن عمار والمقري بالإضافة إلى عمر الأكبر، وغالبا ما يظهر ذلك المنهج الترتيبي في مقدمة رحلاتهم.

فابن عمار صرّح بما احتوت رحلته من مواضيع والتي قسمها إلى مقدمة وغرض مقصود وخاتمة، وذلك في مقدمته حيث قال: **"ولما شرعت في التقييد والجمع لما يجتليه البصر ويتشنقه السمع عزمت على تسمية ما أسطره وأثبته في هذه الأوراق وأحرره بنحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب ورتبتها على مقدمة حاتمة، وغرض مقصود وخاتمة"**[(2)]، ثم فصّل ما تتناوله كل من المقدمة والغرض والخاتمة فقال: **"فأما المقدمة ففي ذكر ما أنتجه العزم وتقدم على الارتحال، وأما الغرض المقصود ففي ما**

---

(1) ينظر، زدرومي، فن الرحلة، ص27.

(2) ابن عمار، نحلة اللبيب، ص4.

يحدثه السفر إلى الإياب وحطّ الرحال، وأما الخاتمة ففي ما نشأ عن ذلك بعد السكون وانضم إليه"[1]، لكن للأسف ضاعت رحلة ابن عمار ولم يبق منها غير المقدمة، ورغم ذلك فإن مقدمته تحوي نصوصا مطولة، وفوائد علمية كثيرة، ومواضيع متنوعة منها الحديث عن "وجوب الحج وفضله"، والحديث عن "الاحتفال بالمولد النبوي الشريف"، إضافة إلى "ترجمة بعض الأعيان والعلماء"، والكثير من القصائد الشعرية خاصة في "المولديات"* و"المديح النبوي" و"الوصف"، فالملاحظ على ابن عمار أنّه كان دقيقا في تقسيم رحلته تقسيما علميا يبدأ بمقدمة ثم المتن وبعدها ينهي بخاتمة، والجميل أنّه فصّل في ما يحويه كل جزء من هذه الأجزاء كما رأينا، كيف لا وهو عالم الجزائر في عصره"**المشارك في أنواع العلوم الدارك، صاحب الرحلة الجمة الفوائد، حلوة الموائد، عذبة الموارد**"[2] كما أخبرنا عنه المعسكري.

وكذلك المعسكري صرّح بتقسيم رحلته إلى خمسة أبواب رئيسية، وذلك بقوله: "**وإني قد عزمت على على تأليف عظيم الجذوى بليغ الفحوى يحتوي على أبواب وأسئلة وفتوى: الباب الأول في ابتداء أمري، الباب الثاني في عدّة أشياخي، الباب الثالث في رحلتي للمشرق وغيره، الباب الرابع في معارضة العلماء وأجوبة عن أشياء مختلفة، الباب الخامس في تأليفي في كل فن..**"[3]، فالمعسكري في هذا التقسيم كان أكثر دقّة ووضوحا في تبويبه للرحلة، إذ قسّمها إلى خمسة أبواب مهمة، وراعى فيها الالتزام بمحتوى كل باب، ولم يخلط بين مواضيعهاإنّما اتّبع منهجا علميا مميّزا في ترتيبه لمواضيع الكتاب، فكان موضوعه الأول في: الحديث عن "ابتداء أمره" وهي معلومات خاصة بمولده ونسبه ونشأته وتعليمه الأول، والموضوع الثاني خصه لذكر:"شيوخه" الذين أخذ عنهم العلم سواء حال صغره في بلده أو في بلدان زارها كـ"المغرب" و"تونس" و"مصر" وغيرها، أما الموضوع الثالث فتحدث فيه عن:"رحلاته" داخل بلده وخارجه أيضا، وأما الموضوع الرابع فيخص:"مختلف المناظرات والمناقشات العلمية" التي دارت

---

[1] ابن عمار، نحلة اللبيب، ص4.

*المولديات: قصائد شعرية خاصة بالمولد النبوي الشريف.

[2] المعسكري، فتح الإله، ص92.

[3] المصدر نفسه، ص15.

بينه وبين علماء عصره مركّزا فيها عن الأسئلة التي وجهت إليه وإجاباته عليه بكل جدارة واستحقاق نال بها لقب الحافظ في كل البلدان، ويبقى الموضوع الخامس والأخير وهو في ذكر:"مجموعة مؤلفاته الكثيرة" التي يرى أنّه لم يسبقه في كثرتها إلا"السيوطي"، كما أن"ه يؤكد على أنّه قد ألّف في كل فن من فنون عصره.

وكذلك أبو حفص التنلاني رتّب رحلته على أساس المواضيع المتناولة فيها، بداية بعزمه على السفر من بلدته إلى "فاس"، ثم ذكره لمختلف قراءاته وشيوخه وعدّة مسائل علمية، بالإضافة إلى بعض الأسئلة الموجهة إليه، وذكر أسانيد شيوخه في المذاهب والطريقة، ورغم عدموضعه عناوين لهذه المواضيع إلا أنّه رتبها ترتيبا واضحا، وقد عمد المحقق إلى وضع عناوين لهذه المواضيع، ومنها: "قراءته في أصول الفقه"، "قراءته في المنطق"، "ذكر محمد بن الحسن السوسي"، "سؤال وجوابه"، "ذكر سنده في الطريقة"..، فهي مرتبة ترتيبا جيدا وواضحا، عمد المؤلف فيها إلى ترتيبها حسب التحديدات الزمانية والمكانية، حيث يضبط زمن خروجه من بلده متوجها إلى فاس وزمن وصوله إليها، ويضبط مدّة بقائه هناك وزمن عودته، كما أنه يتحدث بدقة عن مختلف العلوم التي درسها والتي تلقاها هناك، ويذكر مختلف الشيوخ الذين أخذ عنهم مع ذكر تاريخ وفاة بعضهم، وتفصيله في بعض العلوم والإجازات وغيرها من الأمور التي قام بتوضيحها وترتيبها ترتيبا علميا واضحا.

وكذلك المقري كان ترتيبه على أساس المواضيع، فكانت رحلته عبارة عن عدّة مواضيع مختلفة، من رسائل وخطب ومكاتبات، ومقطوعات شعرية في مختلف الأغراض، ومختلف الإجازات والتقاريظ، والأسئلة والأجوبة، بالإضافة إلى ذكر حجّه إلى "مكةّ، وزيارته لـ"لمدينة المنورة"، بالإضافة إلى ذكره العديد من العلماء والحكام من مختلف البلدان والإمارات العربية الذين كان للمقري اتّصال، منهم أمراء"الحجاز"، والملاحظ على هذه المواضيع أنّها جاءت مبعثرة ولم يراع فيها المقري الترتيب الزمني أو المكاني، وإنما كان يخوض في موضوع ما ثم ينتقل مباشرة للحديث على موضوع آخر، وبعد الحديث عن عدّة مواضيع يرجع للخوض في الموضوع الأول وهكذا، فعلى سبيل المثال تبدأ رحلته بالحديث عن الألغاز التي كانت بين المقري وبعض علماء عصره(مع العلم أن

رحلته مبتورة الأول والآخر)، ثم يليها الحديث عن مخاطبة أحد العلماء له، وبعدها يتحدث عن بعض الأمور التي جرت بينه وبين علماء وأدباء عصره كالرثاء والتهنئة، ثم يسرد مجموعة من المكاتبات والمخاطبات التي كانت بينه وبين بعض العلماء والأمراء والكتاب، وبعدها يعود إلى ذكر الألغاز ثانية عندما ذكر تلغيز علي الشامي(الفقيه والأديب علي بن أحمد الفاسي الشهير بالشامي) في لفظة "أمس"(1)، وهكذا يفعل في جميع الرحلة منتقلا بين المواضيع المختلفة دون مراعاة أي تقسيم أو تبويب، أو ترتيب للعناوين كما فعل معاصروه كالمعسكري وابن عمار.

كما لا تخلو بقية الرحلات من الترتيب الموضوعي الذي جاء مرتبطا مع الترتيب المكاني كما في رحلة الورثلاني، أو مرتبطا بالترتيب الزماني كما في رحلة ابن حمادوش، وغيرها من الرحلات السابقة الذكر.

كما أن ترتيب الرحلة حسب الموضوع لا يعني إلغاء الزمان والمكان، فمختلف الرحلات التي اعتمدت على هذا الترتيب لا تخلو من ذكر المكان والزمان ولو بنسب قليلة، فتارة يذكر الرحالة أحد المواضيع فينجر كلامه لذكر دخوله لمكان ما في وقت ما وما إلى ذلك، وعلى سبيل المثال: لما تحدث أبو حفص عن أحد شيوخه وهو "محمد بن عبد الله السجلماسي" ذكر مكان ولادته بـ"سجلماسة" ومكان نشأته "فاس"، وتاريخ وفاته سنة أربع أو خمس وأربعين ومائة ألف(1145هـ) (2)، والأمثلة على ذلك كثيرة في الرحلات الجزائرية يصعب الإتيان بها جميعا.

الفرع الثاني: الترتيب الموضوعي في الرحلات المغربية

أمّا الرحلات المغربية التي اعتمدت على الترتيب الموضوعي فنجد رحلات كل من: الوزان وابن زاكور والحضيكي والزياني، والفاسي

فالوزان عمد إلى تقسيم كتابه "وصف إفريقيا" إلى تسعة أقسام، وكان دقيقا في منهجية ترتيبه لمواضيعها الأساسية والفرعية، فتناول القسم الأول موضوع:"جغرافية إفريقيا العامة ومناخها وخصائص شعوبها وأخلاقهم"، وقد جزّأ فيه "إفريقيا" تجزيئا عموديا باعتبار

(1) المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص21، 49.

(2) عمر الأكبر التتلاني، الرحلة إلى فاس، ص190.

مميزاتها النباتية والاقتصادية إلى أربعة أجزاء:"بلاد البربر شمال جبال الأطلس"، و"بلاد الجريد جنوبي جبال الأطلس"، و"الصحراء الكبرى المترامية بعد بلاد الجريد"، و"بلاد السودان الواقعة وارء الصحراء"[1]، أمّا الأقسام السبعة التالية فتناولت بالتفصيل الأقسام الأربعة الأصلية لـ"إفريقيا" وأقاليمها الفرعية المذكورة، ثم فصّلت انطلاقا من الغرب إلى الشرق بالترتيب التالي: "مملكة مراكش"، "مملكة فاس"، "مملكة تلمسان"، "مملكة بجاية وتونس"، "بلاد الجريد والصحراء"، "بلاد السودان"، و"مصر"، أما القسم التاسع فيذكر:"الظواهر الجغرافية العامّة لإفريقيا" فيبيّن أنهارها وحيواناتها ونباتاتها، ولكن رغم ذلك لم يستغن عن ذكر المكان والزمان، إذ تحدّث عن أماكن زارها في أي جهة من جهات "إفريقيا"، وبيّن المسافات الفاصلة بالأميال[2].

وكذلك المكناسي اعتمد في ترتيب رحلته على المواضيع، فكانت رحلته تحوي مجموعة من العناوين الخاصة بالمواضيع المتناولة فيها، بدأها بالحديث عن: فوائد الرحلة والاغتراب، ثم تحدث عن: تعيينه كسفير من طرف السلطان المغربي، ثم تحدث عن تفاصيل رحلته مع البعثة من تاريخ بدايتها من الرباط ومكوثها ستّة أشهر بـ"تطوان" و"طنجة" في انتظار هدوء البحر، إلى ذكر تاريخ المغادرة من ميناء "طنجة" والتوجه نحو "قرطاجنة"، ثمّ ذكر تفاصيل وصوله إلى "اسطنبول" ومراسيم استقبال السلطان العثماني للسفارة المغربية، ثم ذكر موجز تاريخ الدولة العثمانية من فتح القسطنطنية، كما تحدث عن مختلف المرافق الموجودة بها كالمكتبات والمساجد والحمامات، كما ذكر أيضا بعض المظاهر الاجتماعية بها كالاحتفالات بالمولد النبوي الشريف والزفاف وغيرها، بالإضافة إلى ذكره لبداية الرحلة إلى "الحجاز" مع مركب الحج العثماني، ووصفه لبقية المدن التي مر بها في طريقه بعد إكمال مهمته السفارية، كـ"حمص" و"دمشق" و"المدينة المنورة" و"مكة"، و"عكّا"، و"القدس"، وذكر الأحداث والمستجدّات التي جرت بها أثناء تواجده بها كانتشار الوباء بـ"الشام"، كما ذكر رجوعه لـ"المغرب" واصفا المدن الأخرى التي مر بها كـ"تونس" و"قسنطينة" وتلمسان"، وذكر خبر الوباء بها

---

[1] ينظر، الوزان، وصف إفريقيا، 1/ 15.

[2] المصدر نفسه، 18/1.

أيضا، ثم ذكر دخوله الأراضي المغربية ووصف مدنها كـ"فاس" و"مكناس"، وذكر أيضا نهاية الرحلة بهذه المدينة. وبالرغم من هذا الترتيب الموضوعي الذي اعتمده المكناسي في رحلته إلا أنّ رحلته فرضت عليه الترتيب المكاني والزمني لمراحل الرحلة فهو لم يستغن عن ذلك.

وابن زاكور أيضا رتّب رحلته على أساس المواضيع العلمية التي احتوتها رحلته، من خلال ذكره لمختلف الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم وأجازوه سواء في بلده أو في "الجزائر"، فالتزم منهجية موحدة في ذلك، فكان يبدأ بالتعريف بالشيخ وتخصصه العلمي والعلوم التي أخذها عنه، ثم يأتي بقصيدة يمدح فيها ذلك الشيخ، وبعدها يأتي بنص إجازة ذلك الشيخ له في فنّ ما، ويتخلل هذا الترتيب ذكر بعض المكاتبات والأسئلة والأجوبة بين بعض العلماء في عصره عن بعض المسائل، والحديث عن سفره من "الجزائر" إلى بلده، وقد راعى فيها الترتيب المكاني في بعض الأحيان دون ذكر الزمان، فذكر دخوله مدينة "الجزائر" ولم يذكر الزمن، كما ذكر مغادرته لها ودخوله "تطوان" ولم يشر إلى الزمن أيضا، وإنّما اكتفى بوصف تلك الأمكنة وصفا معنويا فقط، فقال لم"ا دخل الجزائر: **"وإنّه لما منّ عليّ المولى الكريم ذو الفضل السابغ العظيم بدخول مدينة الجزائر، ذات الجمال الباهر، وحلول مغانيها النواضر.."**[1]، كما قال حين غادر "الجزائر" ودخل "تطوان": **"فوصلنا إلى محل ابتداء سفرنا، مدينة تطوان، ومغنى الأحباب والإخوان.."**[2].

وكذلك رحلة الحضيكي العلمية اتبع فيها الترتيب الموضوعي بالدرجة الأولى،فصرّح في بداية رحلته أنّه سيركز على إيراد جماعة من العلماء الذين لقيهم في الحضر والسفر، فذكر مجموعة شيوخه المغاربة خاصة منهم أهل "سوس"، ولمّا انتهى من ذكرهم بدأ بذكر الشيوخ الذين لقيهم في سفره، وقد تحدث بخصوص هذا الموضوع في قوله: **"وهنا انتهى ذكر من الأشياخ ولا أطيق حصرهم...، ولنشرع في ذكر من لقيناه في سفرنا للحج وبعض مراحله.."**[3]، كما أنّه تحدث عن مراحل السفر، وبذلك يكون قد اعتمد

(1) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص40.

(2) المصدر نفسه، ص77.

(3) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص35.

على الترتيب المكاني لما تقتضيه الرحلة الحجّية، فذكر المنازل التي مرّ بها في طريقه من بلده إلى "الحجاز" لتأدية مناسك الحج، فوصف مراحل الطريق وذكر انطباعاته عن الديار المقدسة وما شاهده فيها من مواقع وبقاع وآثار، وتحدّث عن المدن التي مر بها أو نزل فيها للراحة [1]، مع غياب شبه كامل للزمن إلا بعض الإشارات الدالة عليه.

وكذلك الزياني اتبع الترتيب الموضوعي في رحلته،فوضع لها تبويبا ممنهجا وعن ذلك قال: **"هذا برنامج هذه الرحلة المسماة "الترجمانة الكبرى" التي جمعت أمصار المعمور كله برا وبحرا، رسمتها على تقسيم الأقاليم السبعة من المغرب إلى أقصى المشرق بالصين، ومن أقصى السودان في الجنوب إلى أقصى بلاد الصقلب في الشمال القاصي"**[2]، كما قسمها إلى عدّة أقسام منها: رحلته الأولى لأداء الفريضة والزيارة عام 1169هـ، والغرق في بحر القلزم وتلف المال والرجوع لـ"المغرب" عام 1171هـ، والرحلة لـ"إسطنبول" لسلطان الترك "عبد الحميد العثماني"، وسبب ذلك وما تخلله من الحوادث وأخبار الدولتين عام 1200هـ، و"إقليم الأندلس لما دخلنا في هذه السفارة وما به من المدن ومن عمره في الجاهلية والإسلام إلى الفتح"، و"من تداوله من الملوك إلى أن استولى عليها العدو الكافر"، و"إقليم الشام وما به من المدن والهياكل ومزارات الأنبياء والأولياء والصحابة والعلماء ومن عمره قبل الإسلام وبعده وما تخلل ذلك من الأخبار"، و"السفر من الشام إلى الحجاز ثم للمدينة ثم مكة"، و"ذكر منازل الحجاز عامرها وغامرها"، و"اليمن وما به من المدن"، و"خبر بلاد الزنج والحبشة"، و"أرض الهند"، و"السند"، و"أرض الصين وممالكها ومدنها ومن عمرها في الجاهلية والإسلام"، و"مدينة الخليل ومن أسسها"، و"مدينة القدس الشريف والمسجد الأقصى ومن عمره من الإسلام"، و"مدينة دمشق ومن عمرها في الجاهلية والإسلام ومسجدها الأموي"، و"ما في هذه الدنيا من البحار والقفار والجزر والجبال، والعيون والآبار والمعادن والأحجار والحيوانات وخواصها"[3]، وغيرها من المواضيع، ويتخلل هذه المواضيع ذكر المكان والزمان.

---

(1) ينظر: الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص10.

(2) الزياني، الترجمانة، ص36.

(3) المصدر نفسه، ص38، 39.

وكذلك ابن الطيب الفاسي رتّب رحلته على أساس المواضيع بالدرجة الأولى دون أن يلغي المكان والزمان اللّذان تدور عجلتهما حول زمن حجّ بيت الله الحرام، فقد صرّح تناوله لوصف مراحل طريق الحج بقوله: "**ورأيت أن أقدم مقدمات جامعة لنجعلها تذكرة لكل حاج ويعيها منه أذن سامعة**"[1]، كما ذكر أيضا محتواها في البداية فقال: "**وكنا جمعنا في طريقنا نبدة تحتوي على ما سلكناه من المراحل ونعد ما نزلنا من المنازل وتشتمل على ذكر من لاقيناه أو تكلمنا معه في نازلة من النوازل، وفي ضمن ذلك أبيات كان يقتضيها الحال وقصائد شرفناها بذلك ملك المحال وفوائد مهمة يعتني بها ذو الهمة**"[2]، فقام بتقسيم رحلته إلى أربعة مقدمات: المقدمة الأولى "فيما ورد من الآيات الصريحة والآثار الصحيحة في فضل الحج والعمرة"، والمقدمة الثانية في "فضل زيارة النبي المصطفى"، والمقدمة الثالثة "في السفر وفوائده وما قيل في موصلات صلاته وعوائده"، والمقدمة الرابعة "فيما ينبغي المسافر ارتكابه إلى أجمعت على النص ركابه"، وبعد هذه المقدمات دخل في موضوع الرحلة الرسمية، بذكر مراحل السفر من "المغرب" إلى "الحجاز"، وجميع المنازل والمشاهد التي مرّوا بها مع ذكر من التقوا بهم فيها بمختلف التفاصيل.

ومن خلال الترتيب المعتمد في مختلف الرحلات المغاربية يمكن أن نستخلص عدّة طرق لتدوين هذه الرحلات، منها طريقة السيرة الذاتية، وطريقة الفهرسة، وكذلك طريقة المذكرات اليومة، وهناك رحلات أخرى اعتمدت على ذكر العجيب والغريب، وأخرى كانت عبارة عن قصة سفر حقيقية، مع تداخل أغلب هذه العناصر في مختلف الرحلات، إذ تجد رحلة واحدة اعتمدت عدّة طرق في التدوين.

فالبنسبة لطريقة السيرة الذاتية فإن الرحالة وهو يقدم المعارف المتعددة النواحي، فإنه يقدّم في الوقت نفسه جانبا من سيرته الذاتية، حين يسرد لنا رحلته من خلال تنقلاته ومشاهداته المختلفة، فهو بذلك يقدم لنا جانبا مهما من حياته، فتكون بذلك ذات الرحالة

(1) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص20.

(2) المصدر نفسه، ص19.

عنصرا حاضرا في الرحلة[1]، ومن أبرز الرحالة الذين اعتمدوا طريقة السيرة الذاتية نجدعلى رأسهم المعسكري.

وأما بالنسبة لطريقة الفهرسة وهي الطريقة التي استخدمها الأندلسيون والمغاربة على السواء للتعبير عن الكتب التي جمعت أسماء العلماء والأسانيد والمرويات والقراءات على الشيوخ والمصنفات المجازة ونحو ذلك، فهي فهرسة تكتب في شكل رحلة يسجل المؤلف ما رآه أثناء الرحلة، ويثبت فيها أسماء الشيوخ الذين لقيهم وما استفاد في مجالسهم من علوم ومرويات، مع وصف جغرافي وتاريخي للمناطق التي يمر بها، ويطلق عليها أيضا اسم البرنامج أو المشيخة، أو المعجم[2]، وتظهر هذه الطريقة في أغلب الرحلات المغاربية وبالأخص رحلات كل من: ابن حمادوش وعمر الأكبر، والحضيكي وابن زاكور، وقد يطلق على هذه الطريقة أيضا طريقة المشيخة أو التراجم والمناقب.

أما الطرق الأخرى التي اعتمدها الرحالة المغاربة في تدوين رحلاتهم فتكون متداخلة في الكثير من الأحيان، حيثيكثر الحديث عن العجائب والغرائب، خاصة في رحلة العياشي والورثلاني والدرعي، وكذلك التمقروتي وابن إدريس التنلاني، أما السمة الغالبة في جميع الرحلات فهي قصة السفر الحقيقية التي قام بها أصحابها وسردوا لنا وقائعها بكل تفاصيلها، ولم تكن أيا من هذه الرحلات من نسيج الخيال.

وعلى العموم فإن الرحلة لا تكتمل إلى بوجود العناصر الثلاثة متلازمة، فإذا كان الزمن هو محرك الرحلة، وإذا كان المكان محور دوران تلك الرحلة فإن الموضوع هو مادة الرحلة الخام، فلا يمكن لأي رحلة أن تستغني عن أحد هذه العناصر، لكن اعتماد الرحالة المغاربة على هذه العناصر في منهجية ترتيب متن رحلاتهم كان مختلفا، فمنهم من اعتمد الترتيب الزمني بالدرجة الأولى دون إغفال المكان والموضوع، ومنهم من اعتمد الترتيب المكاني، دون التخلي عن الزمن والموضوع، ومنهم من اعتمد الترتيب الموضوعي دون استغنائهم عن المكان والزمان.

---

(1) ينظر: زبيدة برادع وفتيحة عيساوي، أدب الرحلة في الجزائر، رحلة ابن حمادوش "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" أنموذجا، كلية الآداب واللغات، جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة_ الجزائر، 2016م، ص62.

(2) ينظر: ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص28، 29، وخالد البكر، الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، المملكة السعودية، 2003م، ص22– 24، وينظر: بكاري، منهج الكتابة التاريخية، ص262.

المبحث الثاني: اللغة وصياغة الأسلوب في الرحلات المغاربية

هذا المبحث قسّم إلى مطلبين رئيسين: تحدث المطلب الأول عن اللغة والأسلوب في الرحلات المغاربية، والمطلب الثاني عن الأسلوب الأدبي والأسلوب العلمي في الرحلات المغاربية.

المطلب الأول: اللغة والأسلوب في الرحلات المغاربية

تمثل اللغة في الرحلات المغاربية صورة من صور السرد عموما، وللغة السرد خصائص تميزها عن غيرها؛ إذ "**هي بنية قولية دالة على بنية أخرى حركية وقولية وفكرية وعاطفية**"[1]، ولأن الرحلة تتفاوت فيها الأماكن والأزمنة سلبا وإيجابا، خطرا وأمنا، وتتعدد فيها المواضيع وتتنوع فيها الأحداث، ويتحكم في روايتها صاحبها فإن سرد أحداثها يأتي متماشيا مع هذه الخاصة التي تعتمد على "**حكي الأحداث والأقوال على لسان راو سارد يصوغ الموضوعات كلها بصوته هو...، وصورته هي الصورة الوحيدة التي يتخيلها القارئ خلال السرد وصوته هو الصوت الذي يسمعه**"[2].

وإذا كانت اللغة قضية مشتركة بين الجميع، فإن الأسلوب أمر خاص بكل كاتب، ولذلك فالحديث عن اللغة في متن الرحلات حتما يقود للحديث عن الأسلوب، للعلاقة الوطيدة بينهما، فالرحالة يستخدم اللغة استخداما يقوم على الانتقاء والاختيار ليؤلف نصه بالطريقة التي يراها مناسبة، لتصبح اللغة هي الوسيلة التي ينقل بها أفكاره إلى غيره، وذلك هو الأسلوب[3]، فالأسلوب الذي يختاره أي مؤلف مرتبط بحالته النفسية، وخاصة بالنسبة لرحالة يكتشف بلاد غيرة ويواجه مواقف متغيرة بعيدا عن أهله وذويه[4]، وهذا المطلب حاول التعرف عن اللغة والأسوب في الرحلات المغاربية المعنية.

---

(1) ينظر: عبد الرحيم الكردي، السرد في الرواية المعاصرة الرجل الذي فقد ظله نموذجا، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1992م، ص179.

(2) المرجع نفسه، ص179. و ينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص345.

(3) ينظر: مقدم، الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش، ص76.

(4) المكناسي، الإحراز، ص32.

الفرع الأول: اللغة والأسلوب في الرحلات الجزائري

اختلفت لغة السرد وأسلوب التقديم في الرحلات الجزائرية من رحالة إلى آخر، على حسب المستوى العلمي والثقافي لكل رحالة، فأحيانا كانت اللغة راقية مع بعض التكلف والتصنع في صياغة الأسلوب، وأحيانا كانتاللغة واضحة بأسلوب سهلبسيط، وأحيانا أخرى استعمل الرحالة اللغة العامية المحلية بأسوب ركيك، بالإضافة إلى كثرة الاطناب والاستطراد في الكثير من الرحلات.

فرحلة المعسكري تميزت باللغة الراقية، وذلك من خلال استخدامه للأفعال الماضية الدالة على الحركة التي فرضتها الرحلة باعتبارها انتقال من مكان إلى مكان مثل: "وصلت"، "دخلت"، "لقيت" وغيرها، وصياغته الأدبية كانت رفيعة أيضا والتي اعتمدها بغرض الإفادة من خلال توظيفة لمختلف الصور البيانية، لكن في نفس الوقت سيطرت على رحلته التمظهرات البلاغية الدالة على التصنع في توظيف الصور والتكلف في الأسلوب، وعليه ظهرت الجناسات والطباقات والمقابلات، إضافة إلى السجع –ويبرز ذلك في كتابه فتح الإله ومنته من ابتدائه إلى انتهائه وكأن السجع سليقة ملازمة لفاهه– فهو كان ظاهرة العصر إذ أن الأدباء فيه عموما والرحالين على وجه الخصوص يعمدون إلى السجع بطابعه التزييني، والذي ينتج عنه في الكثير من الأحيان إطناب واستطراد، فالاستطراد عنده يظهر في ذكره للكثير من المعارف والعلوم والأحداث بغرض إفادة المتلقي أو للتعبير عن الإعجاب بمنظر أو بشخصية في مواطن أخرى، كما أن الإطناب عنده يظهر كثيرا في مدحه للشخصيات، ومثال ذلك مدحه للباي محمد الكبير الذي بالغ في ذلك[(1)].

ورحلة المقري تميزت بالأسلوب الرفيع، فقد حاز قصب السبق في فنّي المنظوم والمنثور، فهو صاحب نثر علمي سلس التركيب، سليم التعقيد قريب المعنى مجرد من أساليب الكناية والتورية وما شابهها، أمّا نثره المسجع فهو متين التركيب، قوي البيان حسن الديباجة جيد السبك، في حين امتاز نثره المرسل ببساطة التركيب، وقصر الجمل، وجزالة

(1) ينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص346، 347.

اللّفظ، وعلى العموم فإن المقري كانت له اليد الطولى في تقدم فن النثر في وقت كان الإنتاج العلمي يقتصر على شروح الفقه ومقامات التصوف[1].

ورحلة ابن عمار يغلب على أسلوبها الإطناب والاستطراد، فكان ابن عمار ولوعا بالاستطراد في كتابة الرحلة، وذلك يظهر في مقدمة رحلته وهي الجزء الموجود منها فقط، إذ تبلغ 254 صفحة من الحجم المتوسط، (تحدث فيها عن دواعي تأليف الرحلة وسبب تسميتها، وبيّن ضرورة الحجّ شرعا مستشهدا على ذلك بالآيات والأحاديث ومأثور القول شعرا ونثرا، وعبّر في مقدمته عن عزمه على الحج أوائل سنة 1166هـ، وعن شوقه الحارق إلى الحجاز وعن تأزمه الروحي عند استحضار الذكريات التاريخية، كما أنّه ملأها بأخبار الاحتفال بالمولد النبوي في الجزائر قديما وحديثا، وعادة الأندلسيين في ذلك أيضا، ثم ترجم لعدد من الأدباء والشعراء من أهل بلاده وغيرهم، كما جاء بقطع شعرية من مختلف شعراء المشرق والمغرب في الورد والنرجس والخمر ونحو ذلك[2].

أما الورثلاني فكان أسلوبه واضحا بعيدا عن التكلف متضمنا لمفردات وعبارات متداولة عند الجميع، كما أنّه لا يخلو من الطلاوة والتنميق عند تحلية أفاضل الأعلام الذين ترجم لهم[3]، كما يغلب على رحلته كثرةالاستطراد وتداخل المعلومات والمناسبات وكثرة الأخطاء والتكرار، ربّما لأنّه كان يمليها على تلاميذه لأنه كان يأخذ أثناء الحج ملاحظات في شكل مذكرات وتقاييد حتى لا تفلت منه المعلومات وعندما عاد إلى "الجزائر" أخذ في إملائها على تلاميذه[4].

وكذلك ابن حمادوش كان أسلوبه اللغوي سهلا وبسيطا وعباراته فصيحة، وكثيرا ما كان يسوق الجملة سوقا عامّيا لا يخضع لقواعد الإعراب، كما أنّ أسلوبه في عرض الحوادث كثيرا ما يتخلله الانتقال والاستطراد ثم العودة إلى الموضوع الرئيسي، ويظهر ذلك كثيرا في الرحلة، خاصة في حديثه عن سرد البخاري بالجامع الكبير بالجزائر، فهو كثيرا ما

---

(1) ينظر: المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص14، 15.

(2) سعد الله، أبحاث وآراء، 183/2، 184.

(3) بكاري، منهج الكتابة التاريخية، ص211.

(4) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 396/2.

يتحدث عن عدّة مواضيع، ثم يفاجئ القارئ بعنوان: "العودة إلى قراءة البخاري"[1]، وهلم جرا، وبذلك يعتبر المنهج الذي اتبعه ضعيفا، وذلك بسبب كثرة الحشو والاستطراد في الرحلة، فقد سار على منهج يجعل عمله غير منسجم وغير متماسك، ذلك أنه لا يكاد يربط بين أجزاء الرحلة سوى الترتيب الزمني، والملاحظ على أسلوبه أيضا أنّه كثير التكلف في الأمانة والدقة فقد كان يجهد نفسه في ذلك، وإذا أعوزه ذلك يكتب: "وجدته مقيدا"، وإذا نقل ونسي العبارات المنقولة يقول: "هذا ما علق بذهني وإن كان عبرت بعبارة غير عبارة المؤلف"، وإذا كان غير متأكد من خبر سمعه عن فلان سجل ذلك بأمانة فيقول: "**ولم أدر كيف كتب ولا ما صنع إنما بلغني**"، وحين يعجز عن الإتيان بجواب لإحدى المسائل يترك بياضا في النص ويضيف: "**ومن يجده فليلحقه هنا في هذا البياض وما تركته بياضا إلا لأجله**"[2]، وعلى العموم فإنّ أسلوبه سهل بسيط، وقلما يلتجأ إلى التصنع في صياغة الأسلوب، فرحلته خالية من الصيغة الأدبية التي لجأ إليها ابن عمار والكرامات التي امتلأت بها رحلة الورثلاني[3].

أما رحلة الباي محمد الكبير، فقد كان أسلوب التعبير فيها مطابقا لعصر المؤلف ابن هطال، الذي كان يكثر من الأسجاع الركيكة مع الإتيان بها بتكلف كبير، أما عن اللغة فكان غالبا ما يسوق ألفاظا عامية المبنى إقليمية النزعة، ككلمة "مدوّخ"، "ويفتحون طاقات"، كما أنّه مال إلى الاختصار مبتعدا عن التعليق والشرح والتفصيل، وقد أكدّ في بداية سرده لأحداث الرحلة أنّه سيكون:"**مقتصرا على ذكر خروجه إلى جهة القبلة**"[4].

أما الرحلات الثلاث المتبقية وهي: رحلة الأغواطي وابن إدريس، وأبو حفص، فكانت اللغة عندهم سهلة وبسيطة بعيدة عن التكلف والتصنع، والأسلوب خال من الاستطراد والإطناب، وما يثبث ذلك قصر متن رحلاتهم مقارنة مع سابقاتها.

---

(1) ينظر: بكاري، منهج الكتابة التاريخية، ص240.

(2) ينظر: سعد الله، أبحاث وآراء، 1/ 232.

(3) المرجع نفسه، 2/ 240.

(4) ابن هطال، رحلة الباي، ص14، 34، 36، 53.

الفرع الثاني: اللغة والأسلوب في الرحلات المغربية

تنوعت اللغة والأسلوب في الرحلات المغربية كنظيرتها الجزائرية من رحالة إلى آخر بين اللغة الراقية والواضحة والأسلوب السهل البسيط، مع التكلف والتصنع في بعض الأحيان، بالإضافة إلى كثرة الإطناب والاستطراد، كما تستعمل بعض الرحلات اللغة العامية.

فالتمقروتي يكتب بأسلوب واضح عندما يكون هدفه الوصف، فكان حديثه عن كل المراسي التي حطّ بها الرحال حديث مركز واضح بعيد عن أي تزويق أو تنميق، لكن تأثره الشديد بخالد البلوي وإعجابه به جعله يقع في الاستطراد، فنجده يغلو في الإكثار من النقل عنه في الكثير من الأحيان[1].

أمّا عن أسلوب المكناسي فلم يأت على وتيرة واحدة، ولم يلتزم منحى محددا في الكتابة، بل يتغير تبعا للموضوع المطروق، فهو أحيانا يختار أسلوبا خال من أي تنميق أو زخرفة، متحرر من السجع وقيود الصنعة المختلفة يحدو فيه توصيل الأفكار وتأدية المعاني، مما جعله يعوّل على الألفاظ الواضحة والتراكيب البسيطة السليمة، وقد اعتمد هذا الأسلوب خلال تناوله لموضوعات معينة مثل القضايا الفقهية واللغوية، والتراجم وسرد يوميات رحلته[2]، وأحيانا يظهر على أسلوبه الاستطراد، وهي ظاهرة عامة في التآليف العربية القديمة التي لا تخلو من الفائدة بالرغم من سلبيتها منهجيا، فكلما ذكر مسألة إلا وانساق في اقتباس ما قاله العديد من المؤلفين عنها أوما سمعه من روايات حولها، فقد نهل المكناسي من العديد المصادر، وحرص على ألا يخرج عن نهجه[3]، كماأنه استخدم اللغة العامية باستعماله لبعض الألفاظ العامية المغربية في بعض الأوقات[4].

---

(1) ينظر: التمقروتي، النفحة المسكية، ص9، 10.

(2) المكناسي، الإحراز، ص29.

(3) المصدر نفسه، ص36، 37.

(4) المصدر نفسه، ص36، 37.

وكذلك رحلة الحضيكي مكتوبة بأسلوب سهل سلس يلجأ إلى السجع في بعض الأحيان، وهو في كل كتاباته يوجه الخطاب لقارئ الرحلة بعدّة صيغ مثل "أخي"، "اعلم"، "إياك"، وغيرها من الألفاظ[1].

كما تميزت رحلة ابن زاكور بأسلوب رفيع ولغة راقية، فنثره كان فنّيا يمتاز بالسجع المواتي من غير تكلف، وتفننه في المطالعة وعدم تقيده بالنماذج الرسمية أوالمحفوظات التي صار بسببها كثير من الكتاب ليس لهم أسلوب خاص بهم، جعله ذا أسلوب متفرد يخصه.

والخلاصة فإن لغة السرد تختلف من رحالة إلى آخر من حيث الأسلوب حسب مستوى كل رحالة، فأحيانا تكون اللغة راقية والأسلوب منمق مليء بالتصنع والتكلف، وأحيانا تكون اللغة سهلة بسيطة، والأسلوب مليء بالاستطرادات والتكرار.

المطلب الثاني: صياغة الأسلوب الأدبي والعلمي في الرحلات المغاربية

هذا المطلب قسّم إلى فرعين: الأول يخص الأسلوب الأدبي، والثاني يخص الأسلوب العلمي.

الفرع الأول: الأسلوب الأدبي

تتجلّى أدبية الرحلة في عدّة مواضيع، وذلك من خلال تلك الروائع الأدبية والأساليب الفنيّة التي تقدم فيها موادّها لترتفع إلى علم الأدب وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني، فنص الرحلة يحفل بكثير من المحسنات البلاغية، وجمال اللفظ وحسن التعبير وارتقاء الوصف وبلوغه حدّا كبيرا من الدّقة، علاوة على ما يستعين به أحيانا من أسلوب قصصي رائع، بالإضافة إلى لجوء الرحالة في الكثير من الأحيان إلى الاستشهاد بأبيات شعرية تبرز أدبياتهم، سواء كانت من نظم الرحالة نفسه، وهو ما يثبت قدرته الشعرية والنثرية معا، وأحيانا أخرى يستعين بأبيات غيره مما يؤكد سعة اطلاعه ودقّة معلوماته[2].

[1] ينظر: نواب، كتب الرحلات في المغرب، ص87.

[2] ينظر: محمود حسني، أدب الرحلات، ص8. وفتيحة وزوبيدة، أدب الرحلة في الجزائر، ص63- 66.

كما يلجأ الرحالون غالبا إلى الأسلوب العلمي في تدوين رحلاتهم، فهو بذلك يعكس لنا ما وصلوا إليه من علم غزير، وسعة فهم مع حرصهم على تدوين ملاحظاتهم أولا بأول، ومن لم يتسن له ذلك قام بتدوين رحلته عقب عودته، والتزامه جانب الدقة وقوة الملاحظة في كلّ صغيرة وكبيرة، وأهم ميزة لهؤلاء الرحالة تميّزهم بالدقة في تدوين الملاحظات واختيار الأسلوب الممتع وذكر التفاصيل المهمة جدّا[1]، وقد كان للأسلوبين الأدبي والعلمي حضور في أغلب الرحلات المغاربية.

إذ يظهر الأسلوب الأدبي عند أغلب الرحالة الجزائريين، سواء تعلق الأمر بتمكنهم من اللغة العربية وأدبياتها المختلفة من صور بيانية، ومحسنات بديعية _كما سبقت الإشارة_ أو توظيفهم للشعر بمختلف أغراضه، أو لجوئهم إلى أسلوب القصة، وغيرها.

ومن الأساليب الأدبية التي استخدموها على سبيل المثال لا الحصر نجد: الشعر ،فأغلب الرحلات الجزائرية مليئة بالأبيات الشعرية، التي قد تكون لبعض الشعراء أومن نظم المؤلف نفسه في مختلف الأغراض، من المدح خاصة المديح النبوي، والرثاء، والوصف، والإخوانيات، وطلب الإجازة.

فغرض المدح نجده في مدح السلاطين والعلماء وغيره، وقد وظّفه ابن هطال في رحلة الباي محمد الكبير، لمعرفته بمكانة الشعر في ذلك العصر وما له من تأثير وإقناع للمتلقي المعاصر له على وجه التحديد، وقد جاء شعره في تلك الرحلة في خدمة شخصية الباي، وصبّ في خانة إرضاء هذه الشخصية ومدحها[2]، وكذلك الوثيلاني قال قصيدة طويلة تحوي (79 بيتا) في الشيخ الموهوب، أما ابن عمار فكان أغلب شعره في المديح النبوي، وقد كان يورد الكثير من القصائد خاصة في المولديات سواء لغيره من العلماء أو من تأليفه هو.

أما غرض الرثاء فقد تعرض له بعض الرحالة في رثاء شيوخهم كما فعل ابن حمادوش والمعسكري، وكذلك أبو حفص عمر الأكبر.

(1) ينظر: عواطف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، ص77.

(2) ينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص263.

أما الوصف خاصة وصف الطبيعة فكان عند ابن عمار وقد سبق الحديث عنه فلا داعي للتكرار.

وأما شعر الإخوانيات فنجده بكثرة عند المقري الذي امتلأت رحلته بقصائده وقصائد إخوانه من العلماء من مختلف البلدان الإسلامية.

ويبقى الغرض الآخر وهو طلب الإجازة والحديث الموجود في رحلة المعسكري وعمر الأكبر.

كما يظهر الأسلوب الأدبي في الرحلات المغربية بكل وضوح من خلال النثر والشعر، فابن زاكور كان أديبا من كبار الأدباء في عصره، فنجد حديثه في الرحلة عبارة عن شعر منثور يشتمل على تشبيهات واستعارات وخيال جميل ونظام أصيل مما لا يكون إلا في الشعر، كيف لا وابن زاكور أدبي من كبار أدباء "المغرب" كما قال عنه صاحب النبوغ المغربي: **"ابن زاكور الفاسي الأديب المتفنن الرحالة شيخ الأدباء في عصره صاحب اليراع المرهف والفكر المثقف المحرر الذي برز على أقرانه وفاق أهل زمانه بكثرة اطلاعه وشدة اضطلاعه بالفنون الأدبية والعلوم العربية، فكان كاتبا بليغا وشاعرا مبدعا ومؤلفا مجودا من أكبر مؤلفي الآداب من المغاربة" ولذلك كان منهجه أدبيا، فكانت رحلته نثرا فنيا بليغا، كما قال عنه صاحب الأنيس المطرب: "وحيد البلاغة وفريد الصياغة الذي أرسخ في أرض الفصاحة أقدامه..، فتصرف في الإنشاء، وعطف إنشائه على الإخبار وإخباره على الإنشاء..."**[1].

وباعتبار المكناسي كاتبا سلطانيا وتأليف رحلته بناء على أوامر السلطان "محمد"، وجريا على عادة كتّاب المخزن، فقد بدل قصارى جهده لصياغة كتابه في أسلوب أدبي رفيع يعكس مدى تمكنه من ناصية اللغة العربية وأسرارها، فكتب رحلته به بأسلوب لا يختلف كثيرا عن أساليب الرحلات المغربية، فهو يبدي أحيانا كثيرة عناية واضحة بأسلوبه الأدبي إلى حد التكلف، بحيث يلتزم الزخرفة والصنعة، بالإكثار من السجع والجناس ومراعاة التوازن بين الجمل، في تأثر واضح بالمدرسة البديعية التي سادت لدى كثير من الرحالة المغاربة، ومما له دلالته في هذا الباب أن هذا النوع من الأسلوب المتأنق هو ما

---

[1] كنون، النبوغ المغربي، 313/1، نقلا عن مخطوط لمحمد بن الطيب الحسني الإدريسي.

استهل به رحلته بقوله: "**الحمد لله العليم الخبير العلي الكبير المتفرد بالخلق والتدبير المتكفل بأرزاق عباده بما اقتدت حكمة التقدير..**"[1]، وقد سار على نفس الأسلوب في الصفحات الأولى[2].

كما أن رحلة الدرعي ليست نصا تاريخيا فحسب بل هي نص أدبي أيضا، يسمها أسلوب أدبي رصين وعبارات عذبة مسبوكة بحذق، وهي مصدر لنصوص نثرية وشعرية يمكن أن يكون بعضها الشاهد الوحيد عليها لانطماس أثرها واندثار أصولها، حيث أن المتن الشعري بها يفوق 1400 بيتا، فيها من النوادر الشيء الكثير[3].

كما لم تخل رحلة الحضيكي من النفس الأدبي الرفيع لاسيما عندما تشعر نفسه بالاغتراب، أو يغمر خاطره الشوق إلى المعاهد والديار، وبذلك تكتسي رحلته قيمة كبيرة تؤهلها لتكون مصدرا تاريخيا وجغرافيا وأدبيا مهما[4].

الفرع الثاني: الأسلوب العلمي

رغم غلبة الأسلوب الأدبي في الرحلات المغاربية إلا أنّ بعضها لا يخلو من الأسلوب العلمي.

إذ يظهر الأسلوب العلمي في الرحلات الجزائرية جليا في رحلة المعسكري، الذي اتبع منهجا علميا دقيقا في تقسيم أبوابها تهتم بالدرجة الأولى بالموضوعات العلمية، فكان محل عنايته ما يقابله من علماء وشيوخ وما يحفظه من علم أو رواية عن هؤلاء العلماء، وقد اعتبر الكثير من الباحثين رحلة أبي راس أنها رحلة علمية بامتياز، لأن الجانب العلمي طفا عليها بجميع مظاهره إلى الحد الذي كاد أن يخرجها من دائرة فن الرحلة لولا حضور بنية السفر الدالة على الحركة والانتقال داخل الإطار المكاني المعبر عنه بأسماء المدن والأقطار، والأكيد أن البعد العلمي سيكون مسيطرا على مختلف محطات الرحلة[5].

---

[1] المكناسي، الإحراز، ص47.

[2] المصدر نفسه، ص31.

[3] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص37.

[4] الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص7.

[5] ينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص317.

وكذلك رحلة ابن حمادوش اتسمت بالأسلوب العلمي، من خلال تتبعه للمبادئ الأساسية في البحث العلمي، والتي تعتمد على الملاحظة والتجربة، واهتمامه العلمي وشدّة ملاحظته لما حوله من الطبيعة والناس، فكان في رحلته يسجل الملاحظات العلمية ويؤلف الرسائل ويناقش المسائل التي لم تكن تشغل عقول جيله من المتعلمين، فهو كان يشتغل بالعلوم كالطب والفلك والحساب والهندسة وغيرها، ويجانب خطّ علماء عصره الذي ميزه الاعتماد على النقل وحده[1].

أما الأسلوب العلمي في الرحلات المغربية عموما فيظهر جليا في رحلة الوزان التي كانت مزاياها العلمية كبيرة، حيث استفاد الوزان من عمله الإداري وصلته ببلاط "الوطّاسيين" و"السعديين" في تحديد عباراته، فأتى بإحصاءات مدققة عن المدن والقرى، وبالتقسيمات السياسية في مختلف الجهات، كما أن تقسيمه للأقاليم الإفريقية بيّن فيها المسافات الفاصلة بالأميال، لا بالدرجات الفلكية المعقدة التي كانت شائعة في عصره، يظاف إلى ذلك نزاهته وحياده التام في كل ما كتب غير متأثر بعاطفة قرابة أو دين أو وطن[2]، كما يظهر جليا في الرحلات المغربية الأخرى ذات الطابع العلمي التي اهتم فيها الرحالة بذكر العلماء والشيوخ وما يحفظونه من علم أو رواية عن هؤلاء العلماء وعلى رأسها رحلة ابن زاكور ورحلة الحضيكي، بالإضافة إلى اعتماد بعض الرحالة على الملاحظة والتجربة بالدرجة الأولى.

ورحلة المكناسي تتخذ موقعا وسطا بين مصادر التاريخ العثماني، فهو عربي مسلم غير خاضع للحكم التركي، له غيرة على إبراز مظاهر القوة والمنعة في هذه الدولة الإسلامية باعتبارها مكسبا للإسلام والمسلمين، وفي ذات الوقت لم يتردد في ذكر مناحي الضعف والجوانب السلبية في شتى مجالات الحياة كما عاينها، مما يجعل رحلته مصدرا مهما للتاريخ العثماني من الداخل نظرا للوشائج العميقة التي ربطت "المغرب" ونخبته بهذه الدولة[3]، ممّا يزد رحلته الصبغة العلمية والمصداقية الرفيعة.

---

(1) ينظر: مقدم، الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش، ص28، 30.

(2) الوزان، وصف إفريقيا، 18/1.

(3) ينظر: المكناسي، الإحراز، ص14، 15. من كلام المحقق.

وللإشارة فإن أسلوب الكتابة عند الرحالة المغاربة كان مختلفا، من حيث النزاهة والحياد، وفي المقابل الافتخار بالذات والانتماء واحتقار الآخر، مما جعل الآراء متضاربة في الكثير من الأحيان بالرغم من تقارب زمن أغلب الرحلات المدروسة،
فابن هطال في كثير من الأحيان بدا متحفظا، ويبدو أن وضعه السياسي داخل السلطة فرض عليه أن ينظر لما حوله بمنظار هذه السلطة، فرؤيته لما حوله لا تتجاوز رؤية الشخصية المركزية (الباي محمد الكبير) التي أصبحت بالنسبة إليه هي المرآة التي تعكس له ما يجري أمامه من أحداث[1]، مما جعل رحلته بعيدة عن الشفافية والنزاهة، وابن حمادوش كان يغلب على أسلوبه الافتخار بنسبه ومعارفه وشرفه على معاصريه[2]، مثله مثل المعسكري الذي كان يفتخر بمكانته العلمية ويتباهى بذلك أمام أقرانه من العلماء ويبين تفوقه عليهم، ومن رحالة المغرب من كان ينظر إلى غيره نظرة متعالية خاصة عند ذكر المكانة العلمية لبعض مدن "الجزائر" كالعياشي، في حين نجد ابن موطنه ابن زاكور يجيد بالمكانة العلمية للجزائر وعلمائها الذين رحل إليهم من أجل الأخذ عنهم.
وعلى العموم نلاحظ غلبة الأسلوب الأدبي على نظيره العلمي في مختلف الرحلات المغاربية، وذلك راجع إلى لغة العصر بالدرجة الأولى، والتي يغلب عليها اللجوء إلى التعبير الأدبي المليء بالسجع والمحسنات البديعية، والتنميق الأدبي وغيرها من الظواهر الأدبية، وبالمقابل العزوف عن الأسلوب العلمي الذي لم يظهر إلا نادرا في مختلف الكتابات في ذلك العصر.

والخلاصة فالرحالة المغاربة يتميزون بميزات خاصة في تدوين رحلاتهم، فكل يكمل ما نقص من سلفه ويضيف إلى فن الرحلة لبنات جديدة أعطته صفته وميزته الخاصة، كما أنه لا يوجد اختلاف كبير في الرحلات المغربية على نظيرتها الجزائرية سواء في الوصف أوالسرد أو النقل، أو حتى منهج تدوين الرحلة، ذلك أنّ أغلب الرحالة كانوا تلاميذ المدارس نفسها تقريبا في مختلف البلدان المغاربية، سواء بـ"المغرب الأقصى" خاصة بفاس "محل العلم والإيناس" كما قال عنها المعسكري، أوفي "الجزائر" خاصة

[1] حسيني، الرحلة الجزائرية، ص255.
[2] ينظر: سعد الله، أبحاث وآراء، 1/ 232.

"العاصمة" و"تلمسان" و"قسنطينة"، أو بـ"تونس" في "جامع الزيتونة"، وغيرها من مراكز الإشعاع العلمي آنذاك، فهؤلاء الرحالة أغلبهم أبناء بيئة علمية واحدة، ومع ذلك توجد بعض الاختلافات بينهم نظرا لاختلاف وجهات النظر، أو لاختلاف الأوضاع السياسية في بلدانهم، أو لاختلاف مكانتهم في المجتمع، بالإضافة إلى التفاوت بينهم من الناحية العلمية والثقافية وما إلى ذلك، فهناك من يمتلك حسا جغرافيا فيتميز منهجه الوصفي بكثرة الأوصاف الجغرافية ودقتها كالوزان، وهناك من يكون صوفيا بدرجة كبيرة فيغلب على منهجه سرد تراجم الأولياء وكراماتهم كما في رحلة الورثلاني والحضيكي والدرعي، وهناك من تتضخم عنده الأنا فيصبح من المفتخرين بنفسه وبمكانته العلمية فيغلب على سرده الترجمة لسيرته الشخصية كما حدث مع المعسكري، وهناك من يكثر النقل من رحلات سابقيه إلى درجة نقله لقرابة العشرين صفحة متوالية من رحلة غيره، فيصبح النقل دين رحلته كما في رحلة التمقروتي وغيره، وهناك من يغلب على أسلوبه استعمال اللهجة العامية كما في رحلة ابن حمادوش وابن هطال، وهناك من تمتلء رحلته بالأسلوب الأدبي الرفيع وتتزين نصوص رحلته بالأبيات الشعرية ، والسجع وغيرها من الألفاظ الرنانة كما في رحلة ابن عمار والمقري وابن زاكور، وهناك من تمتلئ رحلته بنقل العجيب والغريب لإمتاع القارئ وجلب انتباهه كما في رحلة العياشي، في حين تتميز بعض الرحالات بسلاسة اللغة وبساطة الأسلوب.

الفصل الرابع:

دوافع وامتدادات الرحلات المغاربية

المبحث الأول: دو افع خاصة بالرحلات المغاربية ودواعي التأليف فيها

المبحث الثاني: امتدادات الرحلات المغاربية

الفصل الرابع: دوافع وامتدادات الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

اهتم هذا الفصل بالحديث عن دوافع الرحلات المغاربية ودواعي تدوينها وامتداداتها المعرفية لذلك قسّم إلى مبحثين: المبحث الأول تحدّث عن دوافع الرحلات المغاربية ودواعي تدوينها، والمبحث الثاني تحدّث عن امتداداتها المعرفية.

المبحث الأول: دوافع خاصة بالرحلات المغاربية ودواعي التأليف فيها

قسّم هذا المبحث بدوره إلى مطلبين: الأول في دوافع الرحلات المغاربية، و الثاني في دواعي تدوينها.

المطلب الأول: دوافع الرحلات المغاربية

قسم هذا المطلب حسب الدوافع الغالبة على الرحلات المغاربية المدروسة إلى ثلاثة فروع: الفرع الأول في الدوافع الدينية والثاني في الدوافع العلمية، والثالث في الدوافع السياسية.

الفرع الأول: الدوافع الدينية

يعد الدافع الديني في الرحلات المغاربية في مختلف العصور أهم عامل يدفع الرحالة المغاربة إلى شد رحالهم نحو المشرق الإسلامي بهدف أداء فريضة الحج، وزيارة قبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى زيارة الأماكن المقدسة الأخرى كالقدس الشريف.

فقد شكلت الرحلة بالنسبة لمسلمي الغرب الإسلامي، منذ فجر الدعوة الإسلامية وإشراق شمسها على ربوع هذا الجانب من العالم الإسلامي هاجسا دائم الحضور، ومطلبا قويّ الإلحاح ورغبة دفينة في النفوس سرعان ما تعبّر عن ذاتها وتتفتق مستندة إلى الواجب الّديني ممثلا في أحد أركان الدين الإسلامي، ومتكئة على تقاليد راسخة في شدّ الرحال نحو الآفاق بحثا عمّا تجود به من زاد ديني أو دنيوي[1]، وبذلك تكون رحلة المغاربة في هذا المجال بدافع ديني بحت تحت ما يسمى بـ"الرحلة الحجّية" أو"الحجازية"؛ فهي على هذا الأساس "تلك الرحلة التي يتجّه من خلالها صاحبها إلى البقاع المقدسة بنيّة أداء الركن الخامس في الإسلام، تلك البقاع التي تعلقت بها قلوب المغاربة على غرار كل

---

(1) العياشي، الرحلة العياشية، 11/1.

مسلم، الذي يبقى طوال حياته ينتظر متشوقا متى يصبح مشمولا بقوله تعالى:﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]، ولـذلك لـم يرحـل أهل المغرب الإسلامي إلى بلاد الحجاز إلا حبا في الله وشوقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

لذا نجد أغلب الرحالة المغاربة اللذين رحلوا إلى "الحجاز" بهدف الحجّ وزيارة قبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كانت رحلاتهم مليئة بعبارات الشوق وأشعار الحنين إلى تلك الديار، كما سيأتي توضيحه لاحقا.

ومن الرحلات الجزائرية التي كان دافعها الأول والأساسي دينيا بحتا، هي رحلتا كل من ابن عمار والورثلاني، وتدخل هاتان الرحلتان ضمن الرحلات الحجيّة، فهما على غرار المغاربة عموما ولوعين بشدّ الرحال إلى أرض "الحجاز" من أجل أداء فريضة الحج، وزيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم، لذلك نجدهما قد حجّا أكثر من مرة، وإذا طال عليهم الأمد بلا حج أو عمرة يزداد شوقهما للزيارة أكثر.

فهذا ابن عمار يقول: **"لما دعتني الأشواق النافقة الأسواق إلى مشاهد الآثار والأخذ بالراحة بالثأر... لبيت داعيها وأعطيت كريمة النفس ساعيها... ولما انبرى هذا العزم وانبرم، والتظى لاعج الشوق وانضرم، وباح الوجد بالسر المكتوم...، شرعت إذ ذاك في المقصود"**[3]، فالمقصود عنده هو الرحلة إلى "الحجاز" لأداء فريضة الحج، كما أنّه كثيرا ما يتحدث في رحلته "نحلة اللبيب" عن الحجّ والعمرة،ومن ذلك حديثه عن حكم الحجّ والعمرة التي أورد فيها الآيات والأحاديث الخاصة بها، كما أنه اعتبر زيارة قبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من أعظم القربات، وأنشد أشعار الشوق والحنين إلى زيارته صلى الله عليه وسلم.

أما الورثلاني فنجده أيضا كثير الحديث عن الحجّ، إذ كان مع العلماء والأعيان الذين كانوا ينظمون سير الركب، فذكر استعداده للحجّ، وانطلاقه من بلدته مصطحبا معه عائلته

[1] سورة آل عمران، الآية(97).

[2] ينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص82.

[3] ابن عمار، نحلة اللبيب، ص3.

على رأس قافلة كبيرة متجها نحو "قصر الطير" التي التقى فيها بوجوه جاءت من مختلف أنحاء القطر الجزائري (من معسكر، غريس، المدية، البليدة، الجزائر، زواوة، بجاية، المسيلة، بسكرة، قسنطينة، وغيرها من مدن الجزائر المختلفة) [1]، وقد أشار في رحلته، عن شوقه للديار المقدسة، علما أنه قد حجّ عدّة مرات، كما أشار إلى ذلك في رحلته، فقد حجّ سنة 1153هـ/ 1740م، وحجّ سنة1179هـ/ 1766م، وهذه الأخيرة قرّر فيها أن يسجل مجرياتها في كتابه "نزهة الأنظار" ، وقد كان شوقه إلى الحجّ والزيارة باديا عليه، لذلك بدأ كلامه في رحلته بألفاظ الشوق والحنين، فقال بعد الاستهلال: **"وبعد: فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والرباع والقفار والديار.."**[2].

وبالإضافة إلى رحلتي ابن عمار والورثلاني التي كانت بدافع ديني بحت، وهو دافع الحج وزيارة قبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، نجد هذا الدافع أيضا في بعض الرحلات الجزائرية الأخرى خاصة ذات الطابع العلمي، وعلى رأسها رحلتي كل من المعسكري والمقري، فهذا الأخير كانت رحلته متعددة الدوافع، والغالب عليها هو ازدواجية الدافع الديني والعلمي، كما لا تخلو من الدافع السياسي، كما سيأتي توضيحه لاحقا.

ومن الرحلات المغربيةالتي كان دافعها الأول والأساسي هو أداء فريضة الحج، نجد الرحلات الحجازية، وهي رحلات كل من: الحضيكي، والفاسي، والدرعي، بالإضافة إلى الرحلات السفارية والعلمية، التي كان هدفها الثاني بعد إكمال مهمتها هو زيارة البقاع المقدسة وحج بيت الله الحرام، كرحلة الزياني، والمكناسي والتمقروتي.

والرحلات المغربية ذات الطابع الديني هي الأخرى كسابقتها الجزائرية، كان يغلب على أصحابها الشوق والحنين إلى البقاع المقدسة، فكانت عبارات الشوق والحنين تملأ رحلاتهم، إذ يقول الدرعي: **"تتابعت زفراتي وأنيني، وكثر اشتياقي وحنيني إلى تكحيل إنسان العينين بمشاهدة مشاهد الحرمين.."**[3].

---

(1) ينظر: فيلالي، رحلة الورثلاني، ص85.

(2) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 34/1.

(3) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص82.

كما يقول ابن الطيب الفاسي: **"نحمده جلّ اسمه على أن سهل علينا الطريق في هذه السنة وجمع كفافي الحجاز بي الرخاء المفرط.."**[(1)].

لذلك تجد الرحالة المغاربة يحجون أكثر من مرة لأنهم لا يطيقون فراق تلك البقاع المقدسة على غرار أغلب المسلمين، فقد حج على سبيل المثال الدرعي أربع مرات: الأولى سنة 1076هـ، والثانية سنة 1096هـ، والثالثة سنة 1109هـ، والرابعة سنة 1121هـ، وفي هذه الحجة ألف رحلته المعنية بالدراسة[(2)].

وإذا كانت الرحلات المغربية السابقة الذكر هدفها الأول الحج وزيارة البقاع المقدسة، فإن هناك رحلات كان هدفها مزدوجا، فكانت من أجل الحج والزيارة، بالإضافة إلى طلب العلم، كرحلة العياشي، التي **"دارت عجلتها باتجاه الديني في تساوق تام مع العلمي"**[(3)].

والدليل على أن دافع تلك الرحلات المغاربية الحجية هو ديني بالدرجة الأولى، هو أن أصحابها يظهرون ذلك في عنوان رحلاتهم المؤلفة، كرحلة ابن عمار الجزائري المعنونة بـ: "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"، وبعض الرحلات المغربية كرحلة الحضيكي المعنونة بـ: "الرحلة الحجازية"، ورحلة المكناسي: "إحراز المعلى والرقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب"، ورحلة ابن الطيب المعنونة بـ: "رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة"، ومع أن أغلب هذه الرحلات ذات طابع ديني إلا أنها تقترن بدوافع أخرى ثانوية كالدافع العلمي في رحلة الحضيكي وابن الطيب الفاسي من خلال اهتمامهما بلقاء العلماء، أو بدافع سياسي كما في رحلة المكناسي الذي كان هدفه أن يكمل مسيره إلى مركز الخلافة العثمانية كسفير مغربي، ومثله الزياني.

الفرع الثاني: الدوافع العلمية

كانت الرحلة في طلب العلم من التقاليد عند علماء المسلمين، فبعد أن ينهل الطالب من علماء بلدته والبلدان المحيطة يبدأ في الاستعداد للرحلة إلى الحواضر العلمية الكبرى، والغرض منها هو تحصيل علو الإسناد ولقاء الحفاظ والمذاكرة معهم[(4)].

---

(1) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص17.

(2) ينظر: الدرعي، الرحلة الناصرية، ص27.

(3) ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 13/1.

(4) ينظر: صادوق الحاج، أسباب الرحلات المغاربية، ص437.

وإذا نظرنا إلى الرحلات المغاربية خاصة الحجازية منها وجدنا أن الرحلة عندهم لم تكن خاصة بالحج وحده؛ أي أنه لم يكن المقصد الوحيد من الرحلة –كما سبقت الإشارة– رغم أنه الهدف في النهاية، وذلك أنهم كانوا يجعلون من برنامجهم التوقف في المدن الرئيسية في المشرق كـ"القاهرة" و"دمشق" و"القدس"، ومنهم من عرّج على "بغداد"، كما أن بعضهم قد زار عواصم إسلامية أخرى كـ"إسطمبول" و"دلهي" و"أصفهان" وغيرها، وكل ذلك من أجل طلب العلم، فكان المغاربة بذلك حريصين في رحلاتهم الحجية على ملاقاة العلماء وحضور الدروس والمحاضرات ومناقشة المسائل العلمية والدينية، إما لإظهار تفوقهم وإما لإظهار تواضعهم والتتلمذ على كبار العلماء، وكثير منهم كانوا يعودون بإجازات علمية وأسانيد في الحديث والتصوف وغيرها من العلوم، كما كان هؤلاء الرحالة مهتمين بوصف المراكز العلمية كالمدارس والمساجد، وفي هذا النطاق تأتي روايات الرحالة المغاربة عن علماء عصرهم شيوخا وأقرانا[1].

وبذلك أصبحت الرحلة لملاقاة الشيوخ أشبه بالشرط الذي لا يقوم العلم إلا به حرصا منهم على الإسناد العالي، والرحلة العلمية تتعدد غاياتها أيضا فهناك الرحلة في طلب الحديث والرحلة لمعرفة الأقاليم الجغرافية، والرحلة التاريخية، والرحلة الصوفية، إذ كل العلوم يرحل إلى مصادرها[2]، وبذلك كان طلب العلم أهم مقصد للعديد من العلماء المغاربة خاصة وأن الحركة العلمية والثقافية عرفت نوعا من الجمود واقتصرت على التقليد والأخذ بما ترك السلف، ولعل الجفاف الفكري الذي غلب على العهد العثماني من جانب آخر، هو الذي دفع الكثير من العلماء المغاربة، خاصة الجزائريين منهم إلى التنقل والاتصال بعلماء وأدباء الأقطار الأخرى، كما أن الإنسان المغربي يحس أن الفضاء الذي يعيش فيه لم يكن كافيا لإرضاء كل رغباته، لذلك فإن الواجب يقتضي عليه السعي لرؤية عالم المشرق، الذي كان مصدر سعادته، وبذلك كانالعلماء المغاربةعموما يرون أن شخصياتهم

(1) سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ص152.

(2) ينظر: زردومي، فن الرحلة، ص19، 20.

لا تكتمل إلا برحيلهم إلى المشرق، لأنها رحلة تكتسي الصبغة القدسية[1]، كما أنهم كانوا يفتخرون دائما بأنهم رحلوا من أجل طلب العلم، فقد كان شيوخهم يحثون الطلاب على طلب المعالي والرحلة والاغتراب، وهم يستشهدون بقول الشاعر: "سافر تجد عوضا عمن تفارقه"، وهو قول يتردد في حجرات الدراسة ومجالس الأدب والتصوف ويرويه الصغير عن الكبير[2] وإذا نظرنا إلى أغلب الرحلات المغاربية المدروسة نجد أن تلك الدوافع العلمية قد تجسدت في مختلف هذه الرحلات كما سنرى.

لذلك كانت الرغبة الشخصية في الترحال والسفر لطلب العلم والمعرفة من أقوى الدوافع للجزائريين على زيارة البلاد التي تحقق هدفهم بغض النظر عن الصعوبات التي يمكن أن تصادفهم، خاصة الرحلة إلى بلاد "الحجاز"التي كانت تعدّ تقليدا لدى الجزائريين توارثوه على مدى أكثر من ألف سنة، فالرحلة بذلك تنطلق من إحدى مدن "الجزائر" وتمر عبر "جامع الزيتونة" فـ"الأزهر" وصولا إلى "الحجاز"[3]، وهناك من الرحلات تستمر إلى بلاد "العراق" و"الشام" وغيرها من الحواضر الإسلامية الأخرى.

ومن بين الرحلات الجزائرية التي كان دافعها الأول طلب العلم نجد: رحلة المعسكري التي تعتبر رحلة علمية بامتياز، فقد كانت رحلته ترجمة عن حياته العلمية من البداية إلى النهاية، يتخلله ترجمته لأهم العلماء في عصره سواء في "الجزائر" أو خارجها مغربا ومشرقا، كما لم يغفل ما جرى بينه وبين علماء الأمصار الذين التقى بهم، من مجالسات ومحاورات ومناظرات علمية.

وكذلك كان دافع رحلة عمر الأكبر الأساسي والوحيد طلب العلم في بلاد "المغرب الأقصى، وذلك بعد شغور بلده الجزائر من العلم والعلماء حسب رأيه، وكذلك كان هدف ابن إدريس التنلاني الداخلية من بلدته تنلان بمنطقة توات بصحراء "الجزائر" والمتجهة نحو "الجزائر العاصمة" أيضا طلب العلم.

---

[1] ينظر: الحمزة بوقادوم، الحراك الفكري لعلماء المغرب خلال القرن 16م الشيخ أبي عبد الله محمد الخروبي الطرابلسي نموذجا، مذكرة مقمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة_ الجزائر، 2014م، ص62، 64.

[2] ينظر: سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ص158.

[3] ينظر: صادوق الحاج، أسباب الرحلات المغاربية، ص439، 440 .

كما توجد رحلات جزائرية أخرى كان الدافع العلمي بها مقرونا بدوافع أخرى كالحج والتجارة، فعن النموذج الأول الذي كان الدافع العلمي مقرونا بدافع أداء فريضة الحج نجد الرحلات الحجازية كرحلة ابن عمار والورثلاني، فبالرغم من أن رحلتيهما كانتا حجية إلا أنهما اغتناماالفرصة للقاء العلماء في كل بلد يقصدونه أو يمرون به، ومن بين الرحلات الجزائرية التي كان هدفها طلب العلم مع التجارة نجد رحلة ابن حمادوش، الذي كانت التجارة مهنته التي يعول بها أهله، فرحلته إلى "المغرب الأقصى" على وجه الخصوص كانت تجارية وعلمية، إذ اغتنم فرصة وجوده بـ"المغرب" للقاء العلماء وحضور مجالسهم والمحاورة والمناظرة معهم، فكثيرا ما كان يمضي وقته في سبيل طلب العلم، حتى أنه عاد إلى "الجزائر" بخسارة تجارته، كما جاء ذلك في رحلته، وكان نتيجة خسارته تلك أن تركته زوجته.

كما كان الدافع العلمي في أغلب الرحلات المغربية كثيرا ما قترن بالدافع الديني خاصة في الرحلات الحجازية، فكان الكثير من طلبة العلم المغاربة من خريجي مدارسهم المحلية يطمحون لاستكمال دراستهم بالمعاهد العلمية الكبرى بحواضر الشرق الإسلامي خاصة منطقة "الحجاز"، لذلك كان أكثر من يقدُم للحج أوالعمرة من المغاربة يقيم فترة للمجاورة في الحرمين للتزود ببعض العلوم الشرعية ومجالسة أهل العلم الذين قد لا يتيسر لقاؤهم في غير الحجاز[1]، ومن تلك الرحلات نجد: رحلة العياشي، وابن الطيب الفاسي ورحلة الحضيكي، كما أن هذا الدافع العلمي جاء مقرونا أيضا بالدافع السياسي، وذلك يخص الرحلات السفارية، كرحلة الزياني والتمقروتي، حيث اغتنم هؤلاء السفراء فرصة رحلتهم للقاء العلماء والأخذ عنهم وتبادل المعارف والإجازات بينهم في مختلف البلدان التي حطوا بها الرحال.

وقلّ ما نجد في الرحلات ما كان هدفه الأول والأخير طلب العلم ماعدا رحلة ابن زاكور، فهي الرحلة المغربية الوحيدة التي كان هدفها الرئيس والوحيد طلب العلم، وذلك يظهر جليا في عنوان هذه الرحلة الموسوم بـ: "نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان"، فهي رحلة علمية بامتياز لا نقاش في ذلك، ولا دافع آخر لها

[1] ينظر: صادوق الحاج، أسباب الرحلات المغاربية، ص438.

غير الدافع العلمي، فابن زاكور خصص هذه الرحلة للحديث عن علماء الجزائر الذين الذين رحل إليهم للأخذ عنهم والاستجازة على أيديهم، كما أنه لم يتوانى في مدحهم والإشادة بتفوقم في مختلف العلوم، خاصة علوم العصر، هذا بالإضافة إلى ذكره لطلبه العلم في بلاده "المغرب" وخاصة في مدينة "تطوان".

الفرع الثالث: الدوافع السياسية

إضافة إلى دافع الحج وطلب العلم كانت هناك رحلات مغاربية ذات دافع سياسي، والذي تجليه في غالب الأحيان الرحلات السفارية بالنسبة للرحلات المغربية على وجه الخصوص، أما الدافع السياسي في الرحلات الجزائرية فكانت تمثله الرحلات الجهادية كما يطلق عليها، أي رحلات بدافع الحرب، بالإضافة إلى الرحلة نتيجة الأوضاع السياسية في البلد في تلك الفترة.

سبقت الإشارة إلى أن الدافع السياسي في الرحلة الجزائرية كان غالبا نتيجة الظروف السياسية التي عاشتها الجزائر في تلك الفترة، فبالرغم من أن مجيئ الأتراك إلى الجزائر لم يكن احتلالا، بل كان بطلب من الجزائريين أنفسهم استنجادا منهم بالإخوة بربروس، لذلك كانت الحياة السياسية في بداية العهد التركي بالجزائر تعرف نوعا من التوافق بين الجزائريين والعثمانيين، لكن ذلك لم يدم طويلا، فقد اهتزت الثقة في نفوس الجزائريين تجاه الأتراك بعد إحساسهم بالإهانة والظلم، وهم يرون الأتراك الغرباء في أعلى هرم السلطة وأسمى الوظائف في الدولة، وأهل البلد يعيشون حياة أقرب لحياة العبيد من جراء معاملة الأتراك لهم على أنهم أصحاب الفضل عليهم، وبذلك طال الجزائريين التهميش في مختلف المجالات: سياسيا وعسكريا واقتصاديا، وحتى اجتماعيا..، فكان ذلك سببا أرغم الكثير من الجزائريين على الارتحال خاصة العلماء منهم[1]، وبالرغم من أن الوضع في "المغرب الأقصى" كان مختلفا عما هو الحال في الجزائر؛ أي أنه كان مستقلا عن حكم العثمانيين إلا أنه تعرض لأوضاع سياسية متدهورة دفعت بالكثير من العلماء بالهجرة، خاصة من أبناء الجزائر المقيمين هناك، ومن هؤلاء الرحالة الذين دفعتهم الأوضاع السياسية للرحيل نجد المقري الذي كان مستقرا بـ"المغرب" حتى نال منزلة علمية كبيرة عند أهلها كما أن

(1) ينظر: هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر، ص10– 12.

السلاطين كانوا يستشيرونه في الكثير من الأمور، لكنه بعد تدهور الأوضاع خاصة بعد وفاة السلطان "المنصور الذهبي" وتزعزع أمن "المغرب" ودبت الفتنة بين أهله، فبسبب تلك التطورات السياسية الخطيرة التي عرفها هذا البلد قرّر المقري الرحيل خاصة بعد اتهامهبالميل إلى بعض الجهات فاضطر إلى مغادرة "المغرب" الذي أصبح أمنه منعدما وأوضاعه متدهورة تاركا وراءه أهله وكتبه، بعد أن قضى فيه أربعة عشر عاما[1]، وبذلك كان دافع رحلة المقري من المغرب إلى المشرق اضطراريا نتيجة أوضاع سياسية بحتة، وللإشارة فإن دافع رحلته من "الجزائر" إلى "المغرب" كان علميا.

كما تدخل تحت الدوافع السياسية دافع الحرب والجهاد، وهي ما يطلق عليها: الرحلات الجهادية، وهذا النوع من الرحلات هو ما يدخل تحت مايسمى أيضا بالرحلات الرسمية وتمثلها في الرحلات الجزائرية: رحلة الباي محمد الكبير نحو الجنوب الجزائري، التي كان هدفها الرئيس إخضاع المناطق الصحراوية والقبائل المتناثرة في الصحراء للحكم العثماني، وقد جاء هذا الدافع واضحا في مقدمة هذه الرحلة والتي قام بتحريرها كاتب "الباي" ابن هطال حيث يقول بهذا الصدد: "**اعلم أنّه لمّا اتفق نظر سيدنا المذكور أطال الله بقاءه وأيامه، وجعل النصر دائما خلفه وأمامه في جهة القبلة، وهي بلدان كثيرة وأعراب راحلة ومقيمة غزيرة، إلا أنها لم تنلها يد السلطنة، ولم يكن منها لملك مصلحة ولا منفعة معينة، كأنّها أمة أبقت من أهلها، أو حرّة نشزت من بعلها، فشمّر لها عن ساعد الجدّ، عازما على ردّ ما بها من النفار والصدّ، فجمع جموعه وقوّاده، ونشر أعلامه..**"[2]. فالهدف الرئيس من رحلة الباي هذه كان أساسا إخضاع تلك المناطق بكل ما يملك من قوة لأجل تحقيق الغرض المقصود، ويمكن تسميتها أيضا بالرحلة التقريرية حسب عيسى بخيتي.

---

[1] عبد القادر شرشار، "كتاب رحلة المقري"، ص73.

[2] ابن هطال، رحلة الباي، ص35، 36.

وتدخل تحت الدافع السياسي أيضا رحلة الأغواطي التي كانت ذات هدف استكشافي تجسسي، فالرحلة قامت استجابة لرغبة خاصة من شخصية سياسية تتمثل في شخص"ويليام هودسون" مساعد القنصل الأمريكي في الجزائر آنذاك "ويليام شيلر"[(1)].

وإذا كانت الرحلات الجزائرية المعنية بالدراسة قد ارتبطت بواقعها السياسي في ظل حكم الأتراك، فإن الواقع السياسي الذي كانت فيه الرحلات المغربية مختلف تماما عن واقع سابقتها الجزائرية، فقد كان المغرب الأقصى مستقلا عن أي حكم خارجي، ولم يخضع لحكم العثمانيين الذين حكموا الجزائر حوالي ثلاثة قرون من الزمن، بل كان المغرب الأقصى تحت ظل الإمارات المحلية المتوالية، فكانت أغلب الرحلات المدروسة تحت ظل"السعديين" و"العلويين"، أما السعديون فقد تفردوا بحكم المغرب من أقصاه إلى أقصاه بعد قضائهم على آخر ملوك بني وطاس، وكان ذلك عام 950هـ على يد "أبي العباس أحمد الأعرج بن الشريف أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله"[(2)]، وأمّا العلويون فحكموا المغرب بعدما اندثرت الدولة السعدية وتقلص ظلها من المغرب إثر اشتداد النزاع ونشوب الحرب بين أولاد "المنصور الذهبي"(آخر ملوك السعديين) على العرش، حيث اقتسموا حكم المغرب في بداية الأمر مع شيخ الزاوية الدلائية "محمد الحاج الدلائي" زمن "المولى محمد بن الشريف" وهو رأس الملوك العلويين، لكن سرعان ما قضوا على الدلائيين وتفردوا بحكم المغرب على يد ثاني ملوك العلويين "مولاي رشيد أخو الملك الأول"، وكان ذلك عام 1079هـ[(3)]، وقد كان أغلب السلاطين من السعديين والعلويين حريصين أشدّ الحرص على توطيد العلاقات بين "المغرب" ومختلف الدول سواء الأوروبية أو العربية والإسلامية وخاصة مع العثمانيين، فكانوا يبرمون معاهدات تعاون مع الدولة العثمانية كما أنهم يرسلون الهدايا مع سفرائهم، ومن بين هؤلاء السفراء الرحالة.

إذ يعتبر الرحالون المغاربة بصفة عامة رسل حضارة وسلام، وجاء السفراء ليدعموا هذه المبادئ بجهودهم وسعيهم، الأمر الذي يشهد على دورهم الفعال ومكانة بلادهم في

---

(1) ينظر: عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري –سياق النص وخطاب الأنساق–، أطروحة دكتوراه علوم في الأدب الجزائري الحديث، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان_ الجزائر، 2015م، ص42.

(2) ينظر: كنون، النبوغ المغربي، ص234، 235.

(3) المرجع نفسه، ص269.

السياسة الدولية منذ أقدم العصور، وقد كان هناك تبادل السفراء بين المغرب وعدّة دول، فكان هذا التبادل السفاري مبنيا على علاقات تحكمها اعتبارات مختلفة تراعي فيها مصالح الجانبين[1]، وفي ذلك الإطار تحركت البعثات السفارية المغربية نحو المشرق وأوروبا، فكانت تركيا نائبة عن دول المشرق وصاحبة التفاوض باسمهم، فقصدها السفراء المغاربة ودخلوا في مفاوضات معها، وأما الأمور المتعلقة بالحجاج أو الجوانب العلمية فكانت تعهد غالبا إلى شيوخ الركب أو أحد المبعوثين الخاصين لدى الداي أو الباي أو الباشا أو شريف "الحجاز" ، وعلى أساس هذه المجاورة حرص سلاطين المغرب وخاصة السلطان أحمد المنصور على دعم موقفه الدولي، فكان سفراؤه من النخبة المتعلمة أوالتي جمعت بين السيف والقلم[2].

ويتضح هذا الدافع السياسي بوضوح عند الحسن الوزان، فأغلب رحلاته داخل "المغرب" وخارجه عبارة عن مهام سياسية كلّف بها من طرف ولاة الأمور بـ"المغرب"، فتارة يكون سفير سلام بين الإمارات المغربية المتناحرة على السلطة، وتارة تكون رحلته جهادية مع أحد الأمراءضد إمارة مغربية أخرى، وتارة يكون سفيرا إلى اسطنبول من طرف السلطان "محمد الوطاسي" ملك "فاس" إلى السلطان العثماني سليم الأول سنة عام 1517م[3] وقد سبق الحديث عن هذه الرحلات سابقا.

ومن الرحلات المغربية التي كان دافعها الأول سياسي أيضا، نجد رحلة كل من التمقروتي والمكناسي، وكذلك الزياني، وهؤلاء كانوا سفراء المغرب للدولة العثمانية، فكان المكناسي سفير السلطان العلوي "محمد بن عبد الله"، والتمقروتي سفير السلطان السعدي "أحمد المنصور الذهبي" إلى السلطان العثماني "مراد"، أما الزياني فكان سفير السلطان العلوي"المولى سليمان" إلى الأستانة بـ"اسطنبول".

وبالرغم من أن دافع هؤلاء الرحالة الأول كان سياسيا باعتبارهم سفراء للدولة العثمانية على وجه الخصوص، إلا أنهم اغتنموا فرصة سفرهم تلك لأداء مناسك الحج وطلب العلم، وغيرها من الأغراض الأخرى.

---

(1) ماكامان، الرحلات المغربية، ص344.

(2) المرجع نفسه، ص345.

(3) ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، 1/8-10.

وعموما فدوافع الرحلة المغاربية في العهد العثماني كثيرة ومتنوعة بكثرة الرحالة واختلاف طبائعهم وتنوع أهدافهم وتباين ثقافتهم، فلكل رحالة دوافع خاصة به حفزته على القيام بالرحلة، لكن أغلب الرحلات المدروسة لا تكاد تخرج عن ثلاثة دوافع رئيسية وهي: الدوافع الدينية، والعلمية، والسياسية، كما توجد عدة دوافع أخرى ثانوية قد تكون مصاحبة للدوافع الرئيسية، كالضرورة والتجارة..، وغيرها من الدوافع الذاتية الأخرى، كما قد تجتمع عدة دوافع في رحلة واحدة لتصبح رحلة عامة، لكن يميزها غرض أساسي في الغالب.

المطلب الثاني: دواعي تدوين الرحلات المغاربية

إنّ الرحلة هي نقلة في المكان والزمان، وسفر داخلي في فكر صاحبها ومعارفه وموقفه من الحياة والوجود ونظرته إلى الناس والمجتمع، وقد ارتحل الناس ولا زالوا يرتحلون، غير أن قلة منهم أقبلوا على تدوين الأحداث التي صادفتهم ووصف الأقطار التي مروا بها، وقد فعلوا ذلك لشعورهم أنهم اطّلعوا على ما لم يطّلع عليه غيرهم فرغبوا في تخليده حتى يعرفه من لم يرحل إلى تلك الأماكن[1]، ومن هؤلاء نجد الرحالة المغاربة، الذين كانت غايتهم تدوين ما شاهدوه أو رووه أو نقلوه من النصوص واطّلاع المعاصرين لهم على نتائج رحلتهم وعلى مدى علمهم بالأمور وبالناس وغزارة إنتاجهم، وكانوا من خلال ذلك يريدون التفوق على بعضهم البعض فكانوا بذلك، وكأنما يحثّون أهلهم ومعاصريهم على أن يفعلوا مثلهم، وأن يجربوا تجربتهم، وكأنهم يتحدّون بعضهم البعض، لأن إنجاز ما أنجزوه لم يكن أمرا سهلا، ولعلهم كانوا يرغبونهم في زيارة قبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وبيت الله الحرام أيضا فيما يتعلق بالرحلات الحجازية[2]، وبذلك كان بعد الشّقة وطول الطريق إلى الحج عند المغاربة وازعا لتدوين ما يمر به الحاج طيلة شهور السفر انتهاء بذكر المناسك، فكان معظمهم يريد أن يقرأه الناس ولو بعد أجيال ليعرفوا تجربته في الحياة، فكانوا يرغبون في تسجيل كل التفاصيل، وإذا لم يستطيعوا أن يعيشوا التجربة بأنفسهم نقلوها ممن سبقهم في الرحلة، فكان ذلك هو الطابع العام للرحلة المغاربية[3]، ونظرا لهذا الهم المعرفي لجل الرحالة المغاربة وحرصهم على

(1) ينظر: صادوق الحاج، أسباب الرحلات المغاربية، ص432.

(2) سعد الله، بحوث في التاريخ الإسلامي، ص153.

(3) ينظر: الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص5. وسعد الله، المرجع السابق، ص153.

الاستفادة والإفادة بنقل الأفكار والمعارف التي كانوا يحصلون عليها في أسفارهم، لم يفت أحدهم التنويه بالهدف الأساسي في تدوين رحلته والتصنيف في هذا الباب[1]، وهذا ما سيعرفه لنا هذا الطلب في فرعين: الأول في الحديث عن تدوين الرحلة من أجل الفائدة العلمية، والفرع الثاني في الحديث عن تدوين الرحلة تلبية لطلب الآخرين.

الفرع الأول: تدوين الرحلة من أجل الفائدة العلمية

سبقت الإشارة إلى أنّ الملاحظ على أغلب الرحالة المغاربة كانوا يذكرون سبب تدوينهم للرحلة ومجرياتها في مقدمة رحلتهم.

فكانت دوافع تدوينهم للرحلة مرتبطة أساسا بأمرين اثنيين أولها: الإفادة العلمية بما فيها: "ذكر مجالس العلم التي تمكن صاحب الرحلة من حضورها والتعريف بكبار المشايخ الذين أخذ عنهم العلم أو جالسهم أو حصل منهم على الإجازة، مما أثمر فنّا جديدا عند المغاربة بات يعرف بفن الفهارس أو الأثبات أو المشيخات، وهو فنّ امتزج بعدد من الرحلات"[2]، وكذلك تعيين مناسك الحج والعمرة، والتعريف بالبلدان ومطاعن المياه والأسواق وتبيين مواقع الخطر والمشقة حتى لا يقع فيها الآخرون من منجزي الرحلات خاصة الحجاج منهم، وكذلك ذكر أخبار الأمم وعاداتها وقيمها وطقوسها الدينية، بالإضافة إلى التأريخ للأحداث التاريخية المتنوعة وتقديم معلومات موجزة أومفصلة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلدان المجتازة أوالمقصودة بالزيارة، أما الأمر الثاني الذي كان سببا لقيام الرحالة المغاربة بتدوين رحلاتهم فهو: تلبية طلب الآخرين، إذ يلبي الرحالة طلب الآخرين من حكام وأصدقاء أو أقرباء بتدوين الرحلة.

فعن الدافع الأول لتدوين الرحلة عند الرحالة الجزائريين، وهو الإفادة العلمية بجميع تمظهراتها، نجده في الرحلات الحجازية والعلمية وهي رحلات كل من ابن عمار، والمقري، والورثلاني، المعسكري، وابن حمادوش، وابن إدريس التنلاني، وكذلك أبو حفص عمر الأكبر التنلاني.

---

(1) ينظر: صادوق الحاج، أسباب الرحلات المغاربية، ص443.

(2) ينظر: الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص6.

فابن عمار مثلا لم نجده يصرح في بداية رحلته عن سبب تدوينه لها إلى أنّ داعي الإفادة جلي تماما في رحلته، خاصة وأن رحلته حجازية، وعلى غرار الرحلات الحجازية الأخرى فإنّ سبب تأليفها الأول يعود إلى رغبة الرحالة في "تسجيل مراحل السفر إلى الحجاز والحديث عن معالم الحجّ وتأدية مناسكه"[1].

أمّا الورثلاني فكان يهدف إلى غايات عدّة بكتابته للرحلة، حيث كان يريد ملء الفراغ الذي كان يسود البلاد من حيث انعدام المؤلفات – تقريبا–، خاصة في التاريخ والتراجم، كما أنّه أراد أن يكون تأليفه هذا نبراسا للقراء خاصة أبناء وطنه الذين يرى أنهم يجهلون كليا ما استطاع هو الاطّلاع عليه أثناء رحلاته، كما كان يهدف إلى وضع تراجم لحياة عدد من العلماء والأولياء وذكر أوصافهم وسلوكهم ليقتدي بهم القراء، بالإضافة إلى أنّه كان يريد تحديد معالم طريق الحج مبينا الأماكن السهلة والوعرة من حيث المياه والمؤونة والأمن ليتبصّر الحجاج من بعده[2]، وهو يلخص أسباب تدوين رحلته في بدايتها بعد الاستهلال فيقول: "**وبعد: فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار والرباع والقفار والديار والمعاطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار والعلماء الفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان من الفقهاء والمحدثين والمفسرين الأخيار والأشياخ العارفين والإخوان والمحبين المحبوبين من المجاذيب المقربين والأبرار من المشرق إلى المغرب سما أهل الصحو والمحو، إذ ليس لهم مع غير الله قرار، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي**"[3].

أما المعسكري فكان الداعي الأول لتدوين رحلته هو الترجمة لحياته العلمية ولعلماء عصره من المشرق والمغرب بالإضافة إلى ذكر رحلاته وما جرى فيها من لقاء العلماء والإفادة والاستفادة منهم، حيث يذكر في بداية رحلته بعد حديثه عن فضل العلم: "**وإني قد عزمت على تأليف عظيم الجدوى بليغ الفحوى، يحتوي على أبواب وأسئلة وفتوى**"[4].

---

[1] ينظر: شقرون، نحلة اللبيب، ص33.

[2] ينظر: فيلالي، رحلة الورثلاني، ص50، 51.

[3] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 34/1.

[4] المعسكري، فتح الإله، ص15.

كما اختلفت دواعي تدوين الرحلات المغربية كسابقتها، لكنها لم تكد تخرج عن أمرين رئيسيين هي الأخرى، إما من أجل العلم فائدة وإفادة، وإما تلبية لطلب الآخرين.

فالدّاعي الأول وهو المرتبط بالعلم، والذي تجد فيه الرحالة يصرح في بداية رحلته أنه إنما يقوم بتدوين رحلته من أجل الإفادة العلمية، سواء بما تحويه من علوم، أو تعريف بالأماكن والعلماء وما جرى معهم من المجالسة والإجازة والمناظرة، وغيرها من الأمور العلمية، ويدخل في هذا الإطار من الرحلات أغلب الرحلات المغربية خاصة الحجازية منها والعلمية وحتى السفارية، حيث يذكر العياشي هدفه من كتابة رحلته بقوله: "**وقصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فيها معا فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها، سيما إن كان صاحب تلوين، وأما صاحب التمكين فلكل شيئ عنده موقع ونفع لا يوجد في غيره، والله المسؤول أن يلهمنا رشدنا ويخلص لوجهه فيما نأتي ونذر قصدنا، فهو حسبنا ونعم الوكيل وبالإجابة لدعاء سائله كفيل**"[(1)]،فلهذا السبب أراد أن يكتب رحلته لتكون موسوعة علمية ضخمة، أصبحت نموذجا للرحالة بعده.

كما يذكر الحضيكي هو الآخر أن الهدف من تدوين رحلته هو الترجمة للعلماء الذين لقيهم في رحلته تبركا وترحما بهم، حيث قال: "**فالمراد ذكر جماعة ممن لقيناهم من العلماء في الحضر والسفر، رجاء من الله تعالى عظيم البركة، وشمول الرحمة عند ذكرهم، وانخراطا في سلكهم، لوفور محبتي لهم ولعظيم شوقي لذكرهم..**"[(2)].

كذلك نجد ابن زاكور قد قام بتدوين رحلته لأجل التعريف بالعلماء الذين أخذ عنهم، خاصة علماء الجزائر، وما يدل على ذلك عنوان رحلته الموسوم بـ: "**نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان**".

أما التمقروتي فرغم أن رحلته كانت سفارية ذات دافع سياسي بالأساس، إلا أن داعي تدوينه لها كان من أجل الإفادة العلمية بالدرجة الأولى خاصة فيما يخص ذكر الأوراد والأدعية للتحصين من الهلاك في الأخطار كركوب البحر، حيث يصرح في بداية رحلته

---

(1) العياشي، الرحلة العياشية، 1/ 13.

(2) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص57.

عن داعي تأليفه للرحلة بقوله: **"وبعد فإني أذكر في هذا الكتاب ما رأيته واستفدته في سفرتي التي توجهت فيها إلى بلاد الترك، وأثبت فيها ما شهدته من عجائب ركوب الفلك وما يدعو إليه الحال من الأدعية والأوراد التي لنا في هذه الأخطار وفي غيرها من الهلاك ولكل من يتحصن بها أمنع الحصون.."**[1]، وقد عاش التمقروتي أهوال البحر ونجا من الغرق بأعجوبة، لذلك كان اهتمامه بتدوين رحلته من أجل التأكيد على الأخذ بتلك الأدعية والأوراد.

الفرع الثاني: تدوين الرحلة تلبية لطلب الآخرين

والداعي الثاني الأساسي لتدوين الرحلات المغاربية هو تلبية طلب الآخرين.

ففي الرحلات الجزائرية يظهر هذا الداعي في رحلتي كل من ابن هطال، وابن الدين الأغواطي، فقد دوّن ابن هطال رحلته بطلب من الباي محمد الكبير باعتباره كان كاتب الباي الخاص، لكن ابن هطال لم يذكر أنّه دون رحلته لهذا السبب بل أوعز ذلك لرغبته هو، لتقديم خدمة للباي محمد الكبير وتخليد اسمه في التاريخ حيث يقول: **"إن التاريخ من أجل العلوم قدرا وأكملها محاسنا وفخرا، إذ بع عرفت قدماء الأمم وبه حفظت مكارم أخلاقهم والشيم..، أردت أن أذكر منه نبذة، أخدم بها قامع المبغضين ومدوخ المارقين.."**[2].

أمّا الأغواطي فقد قام بتدوين رحلته بطلب من مساعد القنصل الأمريكي بالجزائر آنذاك وهو "ويليام هودسون"، وما يؤكد ذلك أن الأخير يذكر ذلك في مدخل ترجمته لهذه الرحلة: **"لقد أعددت ترجمة لرحلة قصيرة في شمال إفريقية قام بها الحاج ابن الدين الأغواطي، وهذه الرحلة كتبها صاحبها بطلب مني، وقد دفعت له الثمن"**[3]، وعلى ما يبدو فإن هذه الرحلة هي فريدة من نوعها بين جميع الرحلات المدروسة، إذ قام الرحالة بتدوينها لا رغبة منه بل بطلب من أجانب لا من نفس الوطن ولا من نفس الملة، كما أنّه قبض ثمنا مقابل تدوينها، بالإضافة إلى أن "هودسون" كان يهدف من وراء كتابتها إلى معرفة امتداد

---

[1] التمقروتي، النفحة المسكية، ص20.

[2] ابن هطال، رحلة الباي، ص34.

[3] الأغواطي، الرحلة، ص85.

البربرية في شمال "إفريقيا"، حيث يصرح بذلك بقوله: "**إن هدفي الأساسي في الحصول على هذا المخطوط هو التأكيد على امتداد رقعة اللغة البربرية..**"[(1)].

أما عن سبب تدوين رحلتي كل من المقري وابن حمادوش فغير معروف نظرا لكون بدايتهما غير متوفرة، فرحلة المقري مبتورة الصفحات الأولى على حسب ما ذكره محققها الدكتور "محمد بن معمّر"، إذ لم تتوفر لديه غير نسخة واحدة، وعلى الرغم من ذلك فمن المؤكد أن الغرض من تدوين المقري لرحلته لا يبتعد عن الفائدة العلمية للقراء، حيث احتوت على معلومات هامة تتعلق بحياة المقري الشخصية سواء في "تلمسان" أو"المغرب" أو"مصر" أو"الحجاز" و"الشام"، كما أنها تعالج الحياة الثقافية والأدبية لعصره، وتقدم أخبارا عن بلاد "المغرب" و"الحجاز" و"اليمن"، وغيرها من الفوائد العلمية[(2)].

فرحلة ابن حمادوش مفقودة الجزء الأول، وإنّ"**فاتحتها جاءت مقتضبة، فليس فيها الديباجة المعهودة في التآليف القديمة، وليس فيها بيان الغرض من التأليف والدافع إليه..، ونحو ذلك مما جرت عليه عادة المؤلفين**"[(3)]، وإن لم يتوفر لنا تصريح ابن حمادوش عن دافع تدوينه لها إلا أننا نستنتج ذلك من خلال محتوى هذه الرحلة فمن المؤكد أنّه دونها من أجل الفائدة العلمية بشتى أنواعها، بدءا بالترجمة لحياتهولعلماء وأعيان عصره جزائريين وغيرهم خاصة المغاربة منهم، بالإضافة إلى ذكر الأخبار التاريخية المختلفة عن العالم الإسلامي قديما وحديثا، والتأريخ لبعض الأحداث المعاصرة للرحالة خاصة في "المغرب الأقصى"، بالإضافة إلى ذكر الأوضاع الاجتماعية من عادات وتقاليد خاصة في "الجزائر" و"المغرب".

وكذلك بالنسبة إلى أبو حفص عمر الأكبر، فهو الآخر لم يصرح بالدافع الذي جعله يدون رحلته، فقط اكتفى بذكر دافع رحلته من بلده "توات" إلى "المغرب الأقصى" من أجل طلب العلم، ورغم ذلك فمن المؤكد أنّه قام بتدوين رحلته من أجل إفادة القراء عن أوضاع العلم والعلماء في "المغرب"، وخاصة مدينة "فاس" التي ذهب إليها للقراءة والإقراء.

---

(1) الأغواطي، الرحلة، ص85.

(2) المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص9.

(3) ابن حماوش، لسان المقال، ص9.

ونفس الأمر بالنسبة لابن إدريس التتلاني الذي لم يذكر سبب تدوينه لرحلته، إلا أن قيمتها وأهميتها العلمية حققت إفادة عظيمة، فهي تؤرخ لحملة اللورد الإنجليزي "إكسموت" على الجزائر العاصمة سنة 1816م، حيث قدم الرحالة معلومات دقيقة جدّا لا تختلف عمّا أورده المؤرخون الغربيون لهذه الحملة.

وأما الدّاعي الثاني في الرحلات المغربيةوهو تلبية طلب الآخرين أيضا، فنجد الرحالة المغربي يصرح أنّه قام بتدوين رحلته استجابة لطلب من أحدهم سواء ولاة أمره أوأصدقائه وغيرهم، ويمثل هذا الاتجاه على وجه الخصوص الرحلات المغربية السفارية، فالمكناسي ذكر أنّه امتثالا للأمر السلطاني له بتدوين مشاهداته خلال سفره في البدو والحضر، حرص على ألا يرسم شيئا إلا حرره، فهو يستهل رحلته بالتأكيد على أن السلطان "محمد بن عبد الله" لمّا عيّنه سفيرا لدى السلطان العثماني أمره بتدوين مشاهداته[1] إذ يقول: "**أمرني أدام الله اعتناءه وخلد في الدهر بالجميل ثناءه أننا إذا تقضينا من القسطنطينية غرض الرسالة مع تحصيل رؤية بدر تلك الهالة، نستعد للسرى إلى أم القرى لنتقضى مناسك الحج ووظائف العج والثج، ونفرق هديته على أهل الحرمين الشريفين التي أصبحنا وبثوابها أتحفنا، وعهد إلينا أدام الله سعادته وحرس مجادته، أن نرسم له ما تتفق رؤيته في هذا السفر في البدو والحضر، فحاولت أن لا أرسم شيئا إلا حررته، ولا آتي بشيء إلا وضحته امتثالا لأمره الذي طبق الآفاق وتتميما لاعتنائه الذي أراق وخلد في بطون الأوراق**"[2]، وفي ذات السياق ذكر الزيانيأنّه إضافة إلى دافع الإفادة العلمية دوّن رحلته تلبية لرغبة سلطانه سليمان حيث قال:"**وجعلتها قربة لهذا الجناب الأعظم والسلطان العادل الأفخم الذي هو في أنواع العلوم المقدم، وعند ملوك الإسلام مسموع الكلمة محترم، عالم الملوك وملك العلماء، الإمام المكرم المولى سليمان**"[3].

أما ابن الطيب الفاسي فدوّن رحلته استجابة منه لطلب أحد أصدقائه الذين رافقوه في رحلته الحجّية بالإضافة إلى هدف إفادة الحجّاج من بعده، فقد ذكر أنّه شرع في تأليف كتابه أثناء الرحلة لكنها سرقت منه، ثمّ أعاد تأليفها بـ"مصر" بطلب من أحد أصدقائه في

---

[1] المكناسي، الإحراز، ص25، 26.

[2] المصدر نفسه، ص25.

[3] الزياني، الترجمانة، ص2.

تلك الرحلة فيقول: "**فاستولت على ذلك كله يد الضياع وسرقها سارق مع ما كان لدينا من كتب ومتاع، لكن حصل لنا أسف شديد على تلك الرحلة التي ليس لها في صنعها قديد..، وحيث ألفينا عصا التيسار واستقرت بنا من الحجاز في مصر الديار طلب منا بعض من يجب علينا إسعافه ومرافقته، وكيف تصح مخالفته، وقد ثبثت خلته ومرافقته أن نسجم القريحة الجامدة ونسترجع الفكرة الخامدة لعلها أن نتلافى بعد ما تلاشى من تلك الرحلة البديعة..، فاعتذرت فأبى أن يقبل الاعتذار، ثم أجبته..، مستعينا بقوة من له القوة..، ورأيت أن أقدم مقدمات جامعة لنجعلها تذكرة لكل حاج..**"[1].

وأما عن سبب تدوين رحلة الوزان فلم يُذكر في رحلته، فإمّا أن يكون قد ألفه بطلب من أحد السلاطين الذي كان يعمل في بلاطهم من "الوطاسيين"أو"السعديين"، خاصة أنه قام بعدّة رحلات سفارية لهم، وإمّا أن يكون قد ألفه رغبة منه في إفادة القراء بالمعلومات الغزيرة خاصة الجغرافية منها، التي أوردها عن مجريات رحلاته في مختلف البلدان التي زارها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الداعي المشترك بين هؤلاء الرحالة عموما هو: "**رغبة المشاركة في أدب الرحلات، على منوال ما دونه السابقون**"[2]، لذلك تجد أغلبهم يصرحون أنّهم يدونون رحلتهم تأسيّا بمن سبقهم من الرحالة، كالورثلاني الذي كان تدوين رحلته اقتداء بشيخه الدرعي صاحب الرحلة الناصرية، وكذلك المعسكري دون رحلته تأسيّا بـ"**رحلة الجهابذة النحارير والأساتيذ الجماهير، كرحلة ابن رشيد السبتي، والخطيب ابن مرزوق، ورحلة العياشي**"[3]وغيرهم.

والخلاصة فإن هدف الرحالين المغاربة كان خدمة الحقيقة بالدرجة الأولى وتنوير مواطنيهم، لذلك تجدهم قد كتبوا رحلاتهم بحرص شديد على النقل ودقة متناهية في الوصف وأمانة مخلصة للرواية[4]، فتركوا مؤلفات بديعة تحوي فوائد عظيمة كانت عبارة

---

(1) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص19، 20.

(2) أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص36.

(3) المعسكري، فتح الإله، ص91.

(4) سعد الله، بحوث في التاريخ الإسلامي، ص158.

عن موسوعات علمية للأجيال اللاحقة، سواء كان تدوينهم برغبة منهم، أوبطلب من الآخرين.

المبحث الثاني: امتدادات الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

قُسم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب: الأول تحدث عن الامتداد الحضاري للرحلات المغاربية، والثاني عن القيمة المعرفية للرحلات المغاربية، أما الثالث فعن الامتداد المعرفي لهذه الرحلات.

المطلب الأول: الامتداد الحضاريللرحلات المغاربية

يشمل الامتداد الحضاري عدّة أمور منها: التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق الإسلاميين ، وتخريج مجموعة من التلاميذ في مختلف البلدان الإسلامية التي زارها الرحالة المغاربة، بالإضافة إلى تنقل الكتب والإجازات بين المشرق والمغرب، وهذه الأمور تم الحديث عنها في هذا المطلب موزعة على فرعين رئيسين.

الفرع الأول: التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق الإسلاميين

كان للرحلات المغاربية إلى المشرق دورا فعالا في تنشيط الحركة الثقافية بين المغاربة وحدوث تفاعل ثقافي واسع بين المغرب والمشرق كما سيأتي توضيحه:

أولا: التفاعل الثقافي بين المغاربة وأرض الحجاز

لقد احتوت منطقة الحجاز في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي على أعداد هائلة من العلماء الذين لم يكونوا من أبناء "الحجاز" وحدها، وهؤلاء أدّوا عملا بارزا في رواج الحركة العلمية فيها، وهذا ما ظهر جليّا من خلال ما سجّله الرحالة المغاربة من أسمائهم وتراجمهم التي زادت في تلك الفترة، كما لوحظ أنّ هؤلاء العلماء المغاربة منهم من كان يفد سنويا إلى "الحجاز"، ومنهم من كان يفد بعد سنوات، وهكذا نجد منطقة "الحجاز" خاصة "المدينة" و"مكة" قد تهيأ لهما ما لم يتهيأ لغيرهما من المدن الإسلامية من توافد العلماء الذين ذاع صيتهم وشهرتهم العلمية عليهما، فكانوا يعقدون حلقات الدرس في المسجدين"المكي" و"المدني" اللذين كان نظام التعليم فيهما يسير وفق نظم وقوانين محددة، من حيث تخصيص أيام معينة للدراسة وأخرى للإجازات، كما حدّدت العلوم التي تدرس والأماكن التي تعقد فيها الحلقات، إذ كان لكل عالم وشيخ زاوية أو ركن خاص به

وخزانة لمكتبته العلمية الموقوفة على طلبته، فيدرسهم ويعطيهم الإجازات[1]، فكانت رحلاتهم إلى المشرق سببا في تنشيط الحركة الفكرية في مختلف الفترات، إذ شكلت المجاورة بالحرمين الشريفين من طرف الفقهاء والعلماء والأدباء والمتصوفة الذين شدّوا الرحال إلى البقاع المقدسة من مختلف بقاع العالم الإسلامي في مختلف القرون ظاهرة متميزة أغنت الحركة الفكرية والأدبية بـ"الحجاز" الذي أصبح بمثابة جامعة مفتوحة تستقطب الأساتذة الزائرين وتحتضن الطلبة المقيمين والوافدين على السواء، وساعد على قوة هذه الظاهرة وحيويتها انتشار المدارس والأربطة والأوقاف وتحبيس المكتبات والعناية بالطلبة والمدرسين[2]، وبذلك أثيرت الناحية العلمية بـ"الحجاز"على وجه الخصوص بفضل هذا التبادل العلمي القائم على الالتقاء بكبار العلماء للأخذ والرواية عنهم، والحصول على إجازاتهم العلمية في المراكز التي وصلوا إليها والتي تعد ينابيع فياضة بالعلم والمعرفة، وبهذا أصبح الرحالة رسل علم ومعرفة وحلقة وصل وتبادل فكري وعلمي بين المشرق والمغرب، أتاح لأهل المغرب النهل من علوم المشرق على أيدي هؤلاء الرحالة الذين قاموا بتدريس تلك العلوم التي أخذوها لمواطنيهم إلى جانب ذكرهم للمدارس وأماكنها والعلماء المدرسين بها[3].

فكان الرحالة المغاربة من هؤلاء العلماء الذين شدوا الرحال باتجاه الحرمين الشريفين وجاوروا بها، والبلدان المشرقية الأخرى كـ"العراق"و"الشام"، وحرصوا على لقاء العلماء والأدباء من مختلف البلاد الإسلامية، وتفاعلوا معهم إجازة واستجازة سواء المغاربة منهم أو المشارقة، ومن بينهم العياشي، والزياني، والورثلاني والمقري والمعسكري.

ثانيا: الدورالثقافي للرحلات المغاربية على المستويين المغاربي والمشرقي

سبقت الإشارة إلى اتخاذ العلماء المغاربة من الرحلة إلى المشرق فرصة للاحتكاك بالعلماء المسلمين الوافدين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي إلى "الحجاز" بالأخص، أين يحدث تبادل ثقافي وتلاقح علمي فيما بينهم، فكانوا يتوقفون بالعواصم الفكرية لأخذ

---

[1] صادوق الحاج، أسباب الرحلات المغاربية، ص430.

[2] ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 1/ 26.

[3] ينظر: نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، ص83.

العلم وإعطائه، كـ"الزيتونة"، و"طرابلس"، و"الإسكندرية"، و"القاهرة"، و"دمشق"، و"بغداد"، و"مكة"(1).

ومن أشهر الرحلات الجزائرية في العهد العثماني، وبالخصوص في القرن 12هـ/ 18م التي كان لها أثرا كبيرا في تنشيط حركة التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب هي: الرحلات الحجازية التي قادت أصحابها إلى بلاد "الحجاز" من أجل الحجّ وزيارة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، والتي انطلقت من "الجزائر" إلى "بغداد"، مرورا بـ"تونس" و"طرابلس" و"مصر" و"الجزيرة العربية" و"سورية" و"القدس" وغيرها من الأقطار.

فابن عمار قد حجّ لأول مرة سنة 1166هـ، وقد جاور بالحرمين حوالي اثني عشرة سنة، وتنقل بين "الجزائر" والمشرق عدّة مرات، ومن خلال تنقلاته هذه قد درس على يده الكثير من العلماء سواء في بلاد المغرب أو في المشرق، وقد ذكر أبو راس أنّه درس عليه في "الجزائر العاصمة" عند زارته لها، كما أجاز العديد من التلاميذ أيضا، أمثال "محمد خليل المرادي" الذي أجازه سنة 1205هـ، في مكان يرجح أن يكون "مكة"، وعدم معرفتنا هو فقدان أجزاء رحلته، وقد ذكر الورثلاني أنه كان رفيقه في "مصر" سنة 1166هـ(2).

كما حجّ الورثلاني مرتين أوثلاثة: الأولى كانت سنة 1153هـ، والثانية سنة 1166هـ والثالثة سنة 1179هـ، وفي طريقه مرّ على عدّة مناطق جزائرية، كـ"قصر الطير"، و"سيدي خالد"، و"بسكرة" و"سيدي عقبة"، ثمّ دخل "تونس" من "توزر" و"قابس"، ثم تابع سيره على الساحل "الليبي" متوقفا بـ"طرابلس" و"برقة"، ثم" وصل "مصر" ومنها توجّه إلى "الجزيرة العربية"، وقد مكّنته رحلته هذه من معرفة عدّة أمور تخص الطريق التي وصفها بالتفصيل وتحدث عن فقدان الأمن فيها، وكذلك التعرف على أهل البلدان التي مرّوا بها وعلمائها وعاداتها كـ"مصر" التي تعرف بها عن عادات المصريين مع المغاربة، كما أنّه عرف ساحل "البحرالأحمر" والمدن التي تحاذيه وعادات القبائل هناك مع ركب الحجيج "المغربي" و"المصري"، كما عرف مختلف العيون والآبار، بالإضافة إلى معرفته أحوال بلاد "الحجاز" السياسية والزراعية..، بالإضافة إلى معرفته لأحوال "مكة" أيّام موسم الحجّ

(1) ينظر: بوقادوم، الحراك الفكري لعلماء المغرب، ص64.

(2) ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 391/2، 392.

والمدينة وحياتها، كما أتيحت له الفرصة للقاء العلماء بهما[1]، حيث قام بتسجيل كل هذه الأمور في رحلته لإفادة الحجاج من بعده، والباحثين في مجال تاريخ العالم الإسلامي في القرن 18م، وبالخصوص أحوال "الجزيرة العربية"، ولعلّ أبرز ما استفاده الورثلاني من سفره بعد الحجّ هو زيارته لقبور الأولياء الصالحين والتبرك بهم سواء في "الجزائر" أوفي البلدان المشرقية التي زارها باعتباره من المتصوفين الكبار، فقد توجه بقلبه وروحه لزيارة قبر "عبد الرحمن الأخضري"، وقبر "سيدي خالد"، وغيرهم من الأولياء الصالحين في "الجزائر"، وقد كتب بعض مذكراته عند قبور بعضهم تبركا بهم، وأثناء زيارته لقبر الرسول صلى الله عليه وسلم بـ"المدينة المنورة" أصيب بالحمّى فاعتبر ذلك هدية من الرسول الأكرم إليه[2].

كما كان أبو راس من الذين أكثروا الترحال في بلاده وخارجها، فبالإضافة إلى تجوله في وطنه "الجزائر"، تجوّل أيضا في "المغرب الأقصى" عدّة مرات،فقد توجّه للدراسة في "المغرب" وهو يافع مابين 1175 و 1180هـ، كما حجّ مرتين: الأولى سنة 1204هـ، والثاني سنة 1226هـ، وأثناء ذلك تجوّل في "تونس" و"مصر" و"الحرمين" وبلاد "الشام"، وكان في كل ذلك يجادل العلماء ويسجّل الحوادث ويروي العلوم ويطّلع على الكتب، وكان اهتمامه بالتاريخ والأنساب وحافظته القوية يساعدانه على التقاط ما قد يفوت الآخرين عن الأماكن التي زارها[3].

وكذلك كان للرحلات المغربية وخاصة الرحلات الحجازية أثر بالغ من الناحية الثقافية سواء عل المستوى المغاربي خاصة بين "الجزائر" و"المغرب"، أو على المستوى المشرقي وبالخصوص "الحجاز".

فعلى المستوى المغاربي، كان ركب الحجاج "المغربي" يمثل مدينة منظمة على رأسها أمير يقود الركب، وبجانبه مجموعة من الفقهاء والعلماء والقضاة والتجّار وغيرهم، ويتحرك في مجال جغرافي شاسع ينتج عنه نسج شبكة علاقات اجتماعية، ذلك أنّ الركب لا يتحرك في يوم واحد أو يومين بل يطول سفره فيستغرق بضعة شهور، هذا ما يدفع

(1) ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 395/2، 396.

(2) المرجع نفسه، 397/2.

(3) المرجع نفسه، 392/2، 393.

بالرحالة الحجّاج إلى أن يقضوا في محطات الطريق فترات من التنقل لزيارة الأصدقاء والزوايا والأضرحة وللتجارة أيضا، وهكذا يعيش رحالة المغرب منذ دخولهم "الجزائر" بين ظهراني إخوانهم وتحت رعايتهم في جوّ إسلامي صرف، كل ما فيه من عادات وتقاليد وأعراف ومفاهيم تنبثق من روح الثقافة والدين والواحد معززا بوحدة المذهب المالكي[1].

وقد أسهب الرحالة في ذكر هذه العلاقات الاجتماعية والثقافية التي كانت قائمة بينهم وبين إخوانهم الجزائريين على طول طريقهم داخل الأراضي الجزائرية، منها ماذكره الدرعي عندر نزولهم بالأغواط وخروج أهلها صغارا وكبارا لاستقبالهم فرحين مسرورين، ومنهم من أصحابه وأصحاب والده[2].

كما ساهم العياشي في الحركة الفكرية التي عرفها عصره في العلوم والآداب، فسجلت رحلته العلاقات الفكرية والاجتماعية بين المغرب والمشرق[3]، فرحلة سفره انطلقت من "سجلماسة" لتصل إلى القاهرة مرورا بـ"الجزائر" و"تونس" و"طرابلس"، قبل أن تأخذ وجهتها المحددة وهدفها المقدس "مكة المكرمة" و"المدينة المنورة"، وامتدّت هذه الرحلة إلى "القدس الشريف" للقاء الرجال والاحتكاك بالأفكار، والتمسح بالمقامات والمزارات، فقد حلّ العياشي ضمن ما حلّ به من مدن وقرى بكل من:"غزّة" و"الرملة" و"بيت المقدس" و"الخليل"، والتقى خلال هذه الرحلة بكثير من الرجال ووقف على عدد من الكتب والأفكار وجابه عددا من التيارات العقائدية والصوفية، وقد لازم "المدينة المنورة" لمدة سبعة أشهر درس خلالها فنونا من العلم وألوانا من المعرفة وجالس أثناءها عددا من الرجال، واحتك بجملة من الأفكار والمعتقدات، وأجاز واستجاز، وتلقى وأخذ، وأفاد واستفاد وقيّد وألف[4].

وعموما يرجع اهتمام المغاربة بالرحلة نحو المشرق الإسلامي إلى أسباب جغرافية ونفسية ودينية، إذ تفصلهم مسافات بعيدة عن مراكز الحضارة وعواصم العلم رغم ما عندهم وما شيّدوه منها، وكان الفراغ الذي تقدمه إفريقيا في الجنوب والعداوة التي تناصبهم بها أوروبا في الشمال تدفعهم إلى الاتجاه نحو الشرق للخروج من العزلة والاشتراك في النشاط

---

(1) ينظر: عمارة، التفاعل الثقافي بين الجزائر والمغرب، ص80.

(2) ينظر: الدرعي، الرحلة الناصرية، ص132.

(3) العياشي، الرحلة العياشية، 30/1.

(4) المصدر نفسه، 31/1.

الحضاري الإسلامي أخذا وعطاء، وبذلك كان للعامل الجغرافي الذي جعل بلاد المغرب الإسلامي في أقصى نقطة من خارطة العالم العربي الإسلامي، دافعا قويا لأهله للتواصل مع عواصم الثقافة العربية والإسلامية في المشرق، وفي مقدمتها "المدينة المنورة" التي شكلت مكانا أثيرا للمجاورة والتزام حلقات العلماء ومجالس الفقهاء ونوادي الأدباء، ومن جهة أخرى فإن المغاربة كانوا يحسون ربما بأنهم تلقوا الإسلام واللغة العربية من الشرق وأن إسلامهم لا يتعمق وأنّ لسانهم لا ينطلق إلا إذا زاروا المشرق وخالطوا علماءه واطلعوا على تراثه عن كثب، فهم من الشعوب الإسلامية الأكثر تمسكا بحرفية ونصوص الإسلام، وقد زادهم المذهب المالكي الذي يتمذهبون به تمسكا بالأصول والنصوص وحرصا على أخذ العلوم الدينية من منابعها[1].

وبذلك كان لرحلاتهم أثرا بالغا في تنشيط التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب الإسلاميين.

الفرع الثاني: الدور الثقافي للرحالة المغاربة في المغرب والمشرق

هذا المطلب ركز حديثه على الأثر الثقافي الذي خلفته رحلات المغاربة، من حيث التلاميذ في المغرب والمشرق، والكتب المتنقلة بين المغرب والمشرق.

أولا: تلاميذ الرحالة المغاربة في المغرب والمشرق

من الآثار الثقافية للرحلات المغاربية خاصة التي كانت في العهد العثماني، أن الرحالة المغاربة في تنقلاتهم قاموا بتكوين علماء كبار جمعوا بين العلم والعمل[2] في البلدان التي سافروا إليها خاصة بلاد المشرق، كما تحوّل الرحالة المغاربة العائدون من الحج في كثير من الأحيان إلى مصدر للعلم يأخذ عنهم الآخرون، وتشد إليهم الرحال للسماع عنهم واستجازتهم – سواء من بلدهم أو من بلدان أخرى– ولا غرابة أمام هذه الهالة التي أعطيت للرحلة في بلاد المغرب الإسلامي أن تشرع الرحلات أبواب الشهرة والمجد في وجه الرحالة الذين كان منهم العلماء والمتصوفة والزهاد والعباد والأدباء والشعراء والأطباء

---

[1] ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 11/1. من كلام المحقق. وسعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ص142، 143.

[2] ينظر: الناجي لمين، رحلات علماء المغربين الأقصى والأوسط الملكية وآثارها العلمة من خلال القرنن السابع والثامن الهجرين، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة_ مصر، ط1، 2016م، ص43.

والسفراء، وغيرهم[1]، فقد كان للرحالة المغاربة مجموعة من التلاميذ سواء في البلدان التي زاروها أو في بلادهم.

فعن تلاميذ الرحالة الجزائريين، تحدث الرحالة أنفسهم، فالورثلاني لمّا أصبح من علماء منطقته(بني ورثلان) البارزين، ومن الذين يدين لهم الناس بالطاعة الروحية والاحترام أصبح من المدرسين في بجاية وخارجها، فتخرج على يديه عدد كبير من التلاميذ الذين تولوا بدورهم وظائف دينية وعلمية سامية[2]، وقد ذكر الورثلاني في رحلته مجموعة من التلاميذ الذين أخذوا عنه العلوم في مختلف المناطق الجزائرية، وبعض البلدان الإسلامية التي زارها أثناء رحلته إلى الحج، ومن تلاميذه الذين ذكرهم في رحلته: محمد بن الفقيه محقق في الكلام الذي أخذ عنه الصغرى بحاشية المحقق المراكشي، والفقيه يحي بن حمزة، ومحمد السكلاوي الجزائري الذي قرأ عليه كبرى الشيخ السنوسي بالشيخ اليوسي، و أبو القاسم فقيه الوادي وقاضيها، وغيرهم [3]، وقد ذكر أنه كان يذهب كل عام إلى مدينة الوادي ويصوم فيها رمضان للرباط وتعليم الطلبة[4].

كما أشار ابن حمادوش في بعض المواقف من رحلته أنّه درّس بعض الطلبة سواء في "الجزائر" أوفي "المغرب الأقصى"، فمن تلاميذه بـ"الجزائر": قاضي قسنطينة "محمد الحفني" الذي قدم إلى مدينة "الجزائر" زائرا فدرس على ابن حمادوش كتاب "الحبّاك عن الإسطرلاب"[5]،كما ذكر أيضا من تلاميذه الذين أخذوا عنه بـ"المغرب الأقصى""عبد الله بن جنان" الذي أخذ عنه "روضة الأزهار" بـ"تطوان"[6]، وقد أصبح هذا التلميذ فيما بعد عالما من علماء "فاس الكبار" وإمام الشرفاء بها، وله حاشية على مختصر خليل[7].

كما قد تخرج على يد المعسكري كثيرا من فطاحل العلماء، لكنه لم يتحدث عنهم جميعا في رحلته وذلك راجع لكثرتهم، فقد كان الجامع الذي يدرس فيه المعسكري يعج بالطلبة

---

[1] العياشي، الرحلة العياشة، 12/1.

[2] ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 2/ 394.

[3] ينظر: الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 61/1، 64، 65، 160.

[4] المصدر نفسه، 66/1.

[5] ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص119

[6] ينظر: المصدر نفسه، ص103.

[7] ينظر: بكاري، منهج الكتابة التاريخية، ص234.

حتى أنه يضيق بهم، في حين أنّه أشار إلى بعضهم في بعض المواقف من رحلته، ومنهم: الشيخ "السنوسي بن السنوسي" الذي قرأ عليه الفقه ولجلالته وعلو منصبه أفرده عن الطلبة في القراءة لكثرتهم، ونظرا لكثرة طلبة المعسكري فقد صاروا علماء ساهموا في إثراء الحركة الثقافية في الجزائر في زمنهم[1]، كما أنه ذكر تلميذه الشيخ "مصطفى بن عبد الله بن دحو" وهو في نظره من أنجب من كل من حثوا في طلب العلم وألّحوا كما أنّه ألف كتابا في فتح وهران ومؤلفات أخرى، فهو من كبار العلماء العاملين والجهابذة النحارير على حسب قوله[2].

كما كان للمقري مجموعة من التلاميذ في مختلف البلدان الإسلامية التي زارها بدءا من "المغرب الأقصى" إلى البلدان المشرقية، ففي طريقه إلى المشرق كان ينشر علمه ويجيز العلماء، من بينهم عالم تونسي أجازه أثناء مروره بـ"تونس" فهو يخبرنا في نصوص رحلته أنه أثناء إقامته بمدينة "سوسة" كتب إليه الشيخ "أبو عبد الله محمد تاج العارفين بن أبي بكر العثماني التونسي" إمام وخطيب جامع الزيتونةيطلب منه الإجازة، فأجابه المقري مجيزا له في قصيدة فاقت الأربعين بيتا، والمقري على وشك أن يركب البحر مواصلا رحلته صوب مصر [3].

وعن تلاميذ رحالي المغرب؛فقد تتلمذ على يد العياشي كثيرون من أبناء وطنه نبغ منهم ابنه "حمزة"، و"محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي"، و"أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي" صاحب الرحلة الناصرية، و"الحريشي الفاسي" وغيرهم[4]، كما تصدّى العياشي للتدريس في "المدينة المنورة" أثناء مجاورته بها لمدة سبعة أشهر، وأجاز كثيرا من العلماء الذين أجازوه بدورهم[5].

كما أنّ ابن زاكور الذي كان متفوقا على أقرانه في تدريس الكثير من العلوم والفنون بارعا في تلقينها وحل مقفلاتها وتيسير فهمها، بمنهج الأستاذ الخبير والعالم المتمكن والأديب

(1) بكاري، منهج الكتابة التاريخية، ص256.

(2) المعسكري، فتح الإله، ص72.

(3) المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص11.

(4) نواب، كتب الرحلات في المغرب، ص59.

(5) العياشي، الرحلة العياشية، 1/ 30.

المتذوق وهذا ما جعله محببا إلى قلوب طلابه والآخذين عنه، ومن بين الذين أخذوا عنه: الشيخ "محمد بن عبد السلام البناني"(ت 1163هـ/ 1749م)، و"أبو عبد الله محمد بن الطيب العلمي الحسني"(ت 1170هـ/ 1756م)[1]وغيرهما كثير سواء في "المغرب" أو "الجزائر".
وباعتبار الدرعي شيخ الزاوية الناصرية بـ"تمجروت"؛ فقد تحمّل مسؤولية خلافة الزاوية سالكا نهج أبيه في الحرص على المثابرة على التعليم واستقطاب العلماء، الذين حرص على إجازتهم من مختلف البلدان التي زارها، فقال في ذلك: **"فقد أجزت بها من أراد العمل بها من المؤمنين رجاء الثواب وحسن المآب"**[2]، ومن بين العلماء اللذين تبادل معهم الإجازة: "الشيخ الملا إبراهيم الكوراني"[3].
وكذلك الحضيكي تتلمذ على يده جمع غفير من العلماء ممّن لقيم أثناء رحلته، ومن بينهم: "الربيع سليمان بن يوسف الناصري"(ت1230هـ)، و"الحسن بن محمد التملي" (ت1240هـ)، و"أحمد بن عبد الله الصنهاجي" وغيرهم[4].
وعموما فأغلب الرحالة المغاربة كانوا علماء يتركون وراءهم أثرا علميا واضحا، خاصة التلاميذ، أينما حلّوا وارتحلوا.

ثانيا: انتقال المؤلفات وتبادل الإجازات والأسانيد

لقد كانمن أوفى عمليات التفاعل الثقافي التي ساهمت في تنشيطها رحلات المغاربة تناقل المؤلفات بين العلماء سواء بالشروح أو التحشية أو الإعارة أو النسخ، إذ تفيد روايات معظم الرحالة بأنهم كانوا يقصدون الخزائن الموجودة بالبلدان التي زاروها للاستفادة من الدرر الموجودة بها والنسخ عليها، وحملها معهم إلى بلدانهم[5]، كما أنّ "المغرب" كانت ترسل كتبا علمية لـ"الحجاز" برسم الوقف على طلبة العلم، علاوة على ما يحمله الركب

---

[1] ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص19، 21.
[2] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص25.
[3] ينظر: المصدر نفسه، ص29.
[4] الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص28، 29.
[5] ينظر: عمارة، التفاعل الثقافي بين الجزائر والمغرب، ص115. وصادوق الحاج، أسباب الرحلات المغاربية، ص444.

المغربي من كتب علمية ترافق المشايخ والعلماء، وقد يترك بعضها ويستبدل غيرها بها عند الحاجة[1].

فقد اغتنم المغاربة فرص رحلاتهم إلى الحجاز خاصة، لارتياد مكتباتها ومدارسها قصد الاطلاع على المصنفات التي لم يقفوا عليها بدولهم، ونسخ وشراء الكتب، إذ تفيد روايات بعض الرحالة حرصهم على ارتياد هذه المؤسسات العلمية وطلب الكتب في الأسواق[2].

ففي الرحلات الجزائرية على سبيل المثال نجد رحلة المقري حافلة بالعديد من النصوص الدّالة على اهتمام الأدباء بمؤلفاته وعلى أهمية استعارة الكتب ونسخها لما تمثله من رصيد ثقافي هام، والمقري نفسه استغل فترة وجوده بفاس فاستعار العديد من المؤلفات واطلع عليها، ومثال ذلك ما ورد في رحلته: **"وكتبت لسيدي علي الشامي بفاس المحروسة أستعير منه شرح البردة لابن مرزوق أو للأليري وشرح التوزيري للشقراطسية***"[3].

وفي الرحلات المغربية نجد في رحلة العياشي العديد من الإشارات على أنّه كان حريصا على مطالعة الكتب ونسخها بالمدن التي يحل بها وزيارة المكتبات العامة والخاصة، فكان أول ما يسأل عنه عند دخوله أي بلد الخزائن والمكتباتفقد تحدث عن استعارته لكتب من الفقيه محمد بن عبد الكريم الفكون أثناء عودته من الحج، وذلك في نص حديثه: **"ووجدت عنده عدة من مؤلفات والده، وبعضها بيده رضي الله عنه فأعارها لي مدة إقامته هناك"**[4]، كما تحدث عن عدّة مكتبات منها مكتبة الشيخ محمد بن اسماعيل الكوراري التي خلفها بالمدنة المنورة، وقال فيها: **"خلف كتبا..، وقد رأت بعضها بالمدينة المنورة.."**[5]

---

(1) ينظر: نواب، كتب الرحلات في المغرب، ص31.

(2) ينظر: صادوق الحاج، أسباب الرحلات المغاربية، ص444.

(3) المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص97.

*الشقراطسية: القصيدة الشقراطسية في مدح المصطفى خير البرية، لأبي محمد عبد الله بن يحي التوزري المعروف بـ: الشقراطسي نسبة إلى قلعة قديمة بالقرب من القفصة في تونس تسمى شقراطس.

(4) العياشي، الرحلة العياشية، 514/2.

(5) المصدر نفسه، 107/1.

وأغلب الرحالة المغاربة فعلوا نفس الشيء في بلاد "الحجاز" وغيرها من البلاد، إذ رجعوا محملين بنوادر المؤلفات، فانتقلت بذلك أعداد هامة من المخطوطات العربية من المشرق إلى الخزانات العامة والخاصة بالمغرب[1].

ومما ساعد أيضا على تنقل المؤلفات بين العلماء هو الحصول على الإجازات والأسانيد العالية، ونقل ذلك إلى المراكز العلمية بالدول المغاربية[2]، والرحلات المغاربية مليئة بالحديث عن الإجزات والأسانيد التي تحصل عليها الرحالة من كبار العلماء في عصرهم، أو التي أجازوا بها لتلاميذهم، وسيأتي الحديث عن الإجازات في الباب الثاني، لذلك لاداعي للشرح.

وعموما فقد كانت رحلات المغاربة إلى المشرق سببا في تنشيط الحركة الفكرية في مختلف الفترات في مختلف ربوع العالم الإسلامي، وبقدر ما أعطت وتلاقحت بقدر ما أخذت واستفادت ليعود الرحالة إلى بلدانهم محمّلين بأغلى زاد وأشرف بضاعة مما ساعد على انتقال الكتب والمؤلفات، وتبادل الرسائل والإجازات العلمية من المراكز التي وصلوا إليها والتي تعد ينابيع فياضة بالعلم والمعرفة، وبهذا أصبح الرحالة رسل علم ومعرفة وحلقة وصل وتبادل فكري وعلمي بين المشرق والمغرب، أتاح لأهل المغرب النهل من علوم المشرق على أيدي هؤلاء الرحالة الذين قاموا بتدريس تلك العلوم التي أخذوها لمواطنيهم.

المطلب الثاني: القيمة المعرفية لكتب الرحلات المغاربية

للرحلة عموما قيم متعددة لما تحتويه على كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، مما يدونه الرحالة تدوين المعاين من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة والناس وبالحياة خلال رحلته[3].

لذلك أردت توضيح قيمة الرحلات من خلال فرعين رئيسيين، الفرع الأول في أهمية الرحلات من الناحية العلمية والأدبية، والفرع الثاني في أهم الجوانب العلمية في الرحلات المغاربية.

---

(1) صادوق الحاج، أسباب الرحلات المغاربية، ص444.

(2) المرجع نفسه، ص444.

(3) ينظر: بكاري، منهج الكتابة التاريخية، ص189.

الفرع الأول: أهمية الرحلات المغاربية من الناحية العلمية والأدبية

قدّم الرحالة المغاربة على مرّ العصور خدمات جليلة في دراسة أحوال البلاد العربية والإسلامية من مختلف نواحيها، نظرا لكثرة دوافعهم في القيام بمثل هذه الرحلات وعلى رأسها: الدافع الديني المتعلق بأداء فريضة الحج وزيارة المدينة المنورة، والدافع العلمي المتعلق بطلب العلم من منابعه الأصلية "مكة المكرمة" و"المدينة المنورة"، والمراكز الأخرى في العالم الإسلامي كـ"بغداد" و"دمشق" و"القاهرة" وغيرها، لذلك تفوقوا في فن الرحلة ووضعوا فيه مؤلفات بديعة[1] ذات أهمية كبيرة من الناحية العلمية والأدبية.

فالرحلة حوت مادة غنية ومثيرة للدهشة، إذ ليس هناك شك في أنّها قدّمت إسهامات بالغة الأهمية في الجغرافيا والتاريخ، والاقتصاد والأخبار والسير والاجتماع، وغيرها من العلوم، كما أنّها ذات علاقة مباشرة بالأدب، لأنّ الأسلوب الذي استخدم في صياغتها ارتفع إلى عالم الأدب، إذ ما ميّز الرحلات هو أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق، بالإضافة إلى الكثير من النصوص الأدبية شعرا كانت أم نثرا، الأمر الذي جعل الرحلات ذات أهمية أدبيّة خاصة[2].

وفي إطار الأهمية البالغة للرحلات عموما، تتجلى قيمة الرحلات المغاربية في العهد العثماني، سواء من الناحية العلمية أو الأدبية، وذلك باعتبارها مصادر أساسية من مصادر التاريخ لاحتوائها على معلومات ذات قدر كبير من الأهمية، فهي من أوفى المصادر وأوثقها وأشملها فيما يتعلق بالنواحي التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والأنثروبولوجية والثقافية، وإلى جانب ذلك فقد اتسمت منهجية الرحالة بتسجيل ارتساماتهم عن مشاهداتهم المختلفة بأساليب أدبية رفيعة اتسع أفقها إلى عالم الأدب الغني بموضوعاته، تكمن فيه المتعة والفائدة والخيال الفني الرفيع[3].

---

(1) ينظر: بكاري، منهج الكتابة التاريخية، ص195. ونواب، الرحلة المغربية والأندلسية، ص59. وثلاث رحلات مغربية، ص11.

(2) ينظر: نواب، كتب الرحلات في المغرب، ص18.

(3) محمود حسني، أدب الرحلة عند العرب، ص10. وينظر: نواب، المرجع السابق، ص195.

أولا: أهمية الرحلات الجزائرية

فعن الرحلات الجزائرية تعتبر رحلة الورثلاني موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر للهجرة (18م)، فهي من المراجع التي لا غنى عنها في هذا المجال[1]، إذ اعتنت بتسجيل الأخبار الجغرافية والتاريخية للبلدان العربية، وما يدل على ذلك عنوانها: "**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**"، الذي بدا الورثلاني من خلاله واعيا بمشكلة نقص التأليف في التاريخ وقلّة الاهتمام به في بلده "الجزائر"، فرأى أنّه علم جليل بالغ الأهمية وعظيم الفائدة، وتكمن فائدة الأخبار التاريخية عنده أنها: "**موعظة للمعتبرين وتذكرة للموقنين وتبصرة للمتفكرين**" لذلك ألف رحلته التي تولي التاريخ عناية كبيرة[2].

كما تحتوي رحلة المقري على معلومات هامة تتعلق بحياة المقري الشخصية في "تلمسان" و"المغرب الأقصى" و"مصر" و"الشام" و"الحجاز"، وتعالج الحياة الثقافية والأدبية في عصر المؤلف، كما تتضمن معلومات تاريخية عن بلاد "المغرب" وأرض "الحجاز" و"اليمن"، وبعض القضايا الفقهية والعقدية[3] وغيرها.

وتعتبر رحلة ابن عمار التي قادته من "الجزائر" إلى البقاع المقدسة من أهم الرحلات في الفترة العثمانية، ذلك أنّها تعد وثيقة تاريخية هامة في دراسة الحركة الأدبية والفكرية والثقافية إبان عصره، التي أورد فيها أشعارا عديدة وموشحات تصف الشوق إلى البقاع المقدسة، كما ذكر بعض عادات أهل "الجزائر" وتقاليدهم، كما أدّى مهمة سامية للأجيال القادمة فأسهم بقسط كبير في نقل كثير من الحقائق والصور الجميلة والمشاهد المميزة لـ"الجزائر"، وطبيعة المعيشة فيها، فرحلته ذات قيمة كبيرة بالنسبة للمؤرخ لما تقدمه له من حقائق وافية حول الحركة الثقافية والأدبية لـ"الجزائر" في العهد العثماني، كما أنّ للرحلة شأن كبير في الاستطرادات المهمة التي أضافت فصولا تاريخية جديدة يندر الحصول

(1) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 398/2.

(2) ينظر: أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص68، 69.

(3) المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص9.

عليها فيما يخص فنّ المولديات، ومظاهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف خلال الحكم الزياني ب"الجزائر"[1].

وكذلك رحلة المعسكري ذات قيمة علمية كبيرة، فهي كما يقول عنها محققها "محمد بن عبد الكريم الجزائري": "**تعدّ في مقدمة كتب السير المرضية والتراجم الشخصية التي تمتاز بالصراحة والتدقيق، زيادة على ما تحويه من العلوم المفيدة والشجاعة الأدبية الفريدة**"[2]، التي يقول عنها صاحبها أبو راس أنّها: "**تأليف عظيم الجدوى بليغ الفحوى، يحتوي على أبواب وأسئلة وفتوى..**"[3]، وهي كما يقول عنها "سعد الله"أيضا في إصداره للكتاب: "**تقدم حياة أبي راس نفسه، إذ تحدث فيها الرحالة عن أهله وبيئته وشيوخه وعلومه وأسفاره ومن لقيهم من علماء المغرب والمشرق، وما سئل عنه من المسائل العلمية وإجاباته على ذلك، ومؤلفاته في مختلف فروع المعرفة الشائعة في وقته**"[4].

ولا تقل رحلة ابن حمادوش أهمية عن سابقاتها من الناحية العلمية والتاريخية، إذ تعتبر مصدرا هاما في تاريخ "الجزائر" و"المغرب" في الفترة الحديثة، خاصة فيما يتعلق بـ"المغرب الأقصى" في ذلك العهد لأهمية النصوص التي أوردها فيها ومشاهداته عيانا ما حدث من ثورات وتقاليد ونشاط العلماء، وبالإضافة إلى أخبار "المغرب" توجد أيضا أخبار هامة عن "الجزائر" و"تونس"[5].

ورحلة الأغواطي هي الأخرى على غاية من الأهمية تاريخيا وجغرافيا، حيث جمع فيها بين الأخبار والوصف الجغرافي عن الصحراء الجزائرية وقراها وواحاتها وعاداتها، فذكر الكثير من المناطق كـ"الأغواط" و"عين ماضي" و"ميتليلي" و"تيميمون" وغيرها من مناطق الصحراء الجزائرية، وبين الحديث عن جزء من "الجزيرة العربية" و"جربة" و"قابس"، وشنقيط وغيرها[6].

---

(1) شقرون، نحلة اللبيب، ص5.

(2) المعسكري، فتح الإله، ص12.

(3) المصدر نفسه، ص15.

(4) المصدر نفسه، ص7.

(5) ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 385/2.

(6) المرجع نفسه، 2/ 386.

ورحلة الباي محمد الكبير لابن هطال أيضا تتضمن هي الأخرى أخبارا جغرافية واجتماعية وسياسية وعسكرية وأدبية لا يستغني عنها أي دارس للجزائر خلال الفترة العثمانية[1]، إذ بيّن فيها مؤلفها قيمة علم التاريخ الذي رآه "**من أجلّ العلوم قدرا وأكملها محاسنا وفخرا، فهو أحد ما يطلق عليه علم العربية، كان أحق ما تنفق فيه الذخائر السنية، وتصرف إليه المهج الزكية، إذ به عرفت قدماء الأمم وبه حفظت مكارم أخلاقهم والشيم، فاشتغلت به علماء كلّ قطر وصنفت فيه أدباء كل عصر، حتى ملئت منه الخزائن وكثرت فيه الرسائل والدواوين..**"[2] لذلك أراد أن يذكر من التاريخ نبذة يخدم بها سيده الباي محمد الكبير ابن عثمان.

أما عن رحلة ابن إدريس التنلاني فتعتبر وثيقة محلية هامّة أرّخت لحملة اللورد الإنجليزي "إكسموت" على " الجزائر العاصمة" سنة 1816م، والتي انتشر خبرها حتى خارج القطر "الجزائري"، كما أنّها تحتوي على وصف المؤلف لرحلته من "توات" إلى "الجزائر" مختلف المدن التي مرّ بها ويذكر من لقيه في طريقه[3] خاصة العلماء منهم.

أما عن أهمية رحلة أبي حفص عمر الأكبر التنلاني إلى "فاس"، فتكمن في قيمتها العلمية والتاريخية الكبيرة، خاصّة فيما يتعلق بالحياة العلمية في "المغرب الأقصى"، إذ يذكر المؤلف مشايخه الذين قرأ عليهم بمدينة "فاس" التي سافر إليها من أجل طلب العلم بعد شغوره بلده من العلماء حسبه، وكل ذلك كان بأسلوب أدبي جيّد[4].

ثانيا: أهمية الرحلات المغربية

يثبت الواقع أنّ رحالة المغرب كان حرصهم شديد على تدوين دقائق رحلاتهم ومجرياتها وتسجيل يومياتهم وملاحظاتهم التي لا تخلو في الغالب من إشارات دالة ببلاغة على جوانب من الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية للبلد موضوع الزيارة[5]، لذلك فرحلاتهم لا تقل أهمية عن رحلات الجزائريين من الناحية العلمية والأدبية.

---

(1) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 385/2.

(2) ابن هطال، رحلة الباي، ص34، 35.

(3) ينظر: ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص227، 228.

(4) ينظر: عمر الأكبر التنلاني، الرحلة إلى فاس، ص152.

(5) حسيني، الرحلة الجزائرية، ص61.

إذ تعتبر رحلة العياشي موسوعة علمية تستمد قيمتها الحقيقية من مضمونها الغنيّ الدّسم الذي جعل صدرها يتسع لاحتضان عدد من النصوص والأشعار والتراجم والأخبار[1]، فهي كما قال عنها محققها: "**ديوان علم وأدب، وسجل تاريخ وتصوف، وكتاب أخبار وآثار، ويكفي أنها قد انفردت دون سواها من الكتب والرحلات وأمهات المصادر بإيراد جملة من النصوص والرسائل والإجازات والنقول وخطب الكتب التي لا نكاد نقف لها على أثر في غيرها من المظان، كما أنها تترجم لعدد من الأعلام الذين لا نكاد نحس منهم أحد أو نسمع لهم ركزا في غير هذه الرحلة، التي تحتاج لوحدها إلى حلقة من حلقات الدرس والبحث لكشف النقاب عن عدد من المواقف والرجال والطرق والزوايا، والكتب، والأشعار، والخزائن والمكتبات، والوقائع والأحداث والمعارك والجولات، والبيوع والمعاملات والإجازات والتوقيعات، التي لاشك أن الوقوف عندها سيعطي فكرة عامة وشاملة وموضوعية عن خصائص القرن الحادي عشر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية**"[2]، ولهذا السبب نجد أغلب الرحالة المغاربة الذين جاءوا بعد العياشي أو حتى الذين عاصروه قد أخذوا عن رحلته، وجعلوا منها أحد المصادر الأساسية في رحلاتهم، ومنهم الدرعي والزياني والورثلاني وآخرون.

وكذلك كتاب الوزان الجغرافي الذي صنّف عند المغاربة ضمن كتب الرحلات، فهو يكتسب قيمته العلمية الكبيرة خاصة في مجال الجغرافيا من مؤلفه: "الأسد الإفريقي" الذي كان آخر الجغرافيين العرب المشهورين في بلاد إفريقيا الشمالية في القرن السادس عشر للميلاد، إذ يعالج هذا الكتاب الكلام عن "إفريقيا" بصورة عامة، عن السكان من البدو والرحل، كما يصف عدّة مناطق ومدن إفريقية وصفا جغرافيا دقيقا، كنواحي "مراكش" ومدنها وجبالها، وكذلك مدينة "فاس" بالإضافة إلى "بجاية" و"تلمسان" و"تونس" و"طرابلس"، و"السودان" و"مصر"، بالإضافة إلى وصفه لمختلف الأنهار والحيوانات والطيور والأسماك والمعادن والنباتات الموجودة بـ"إفريقيا"، وبذلك تكون رحلته هاته رحلة جغرافية بامتياز عرفت قيمتها العلمية من الأوربيين قبل العرب، حيث اعتبره أغلب

---

[1] العياشي، الرحلة العياشية، 13/1.

[2] المصدر نفسه، 13/1.

الباحثين والعارفين بالجغرافيا التاريخية الغربيين أنه: **"كنز من الذهب لولا وجوده لخفيت عليهم أشياء كثيرة"**[1].

أما رحلة الزياني فقد عرّفها بنفسه في بدايتها فقال عنها: **"هذه الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم برا وبحرا، لم تقتصر على ما في الرشاطي في الأمصار، ولا على ماجمعه ابن عبد المنعم في الروض المعطار، وزادت على ما جلبه ابن الجوزي من أخبار البحار والقفار، وعلى ما في خريدة العجائب من الجزر والعيون والآبار والأنهار، وعلى ما في عجائب المقدور من نفائس الحكم والأسرار، وأبرزت ما أغفلوه ولم يكن به شعور وإنذار.."**[2]، فهي بذلك ذات أهمية بالغة من الناحية العلمية، إذ حوت على معلومات لم توجد في كثير من الكتب الأخرى.

كما تعتبر رحلة الحضيكي من الرحلات الحجازية العلمية التي جمع فيها الرحالة بين طلب العلم وأداء فريضة الحج، فرسم بذلك ملامحا من حياته العلمية معرفا بشيوخه الذين مرّ على مجالسهم في طريقه إلى "الحجاز"، وما تلقاه عنهم من فوائد وإجازات، كما أغنى رحلته بإفاداته التاريخية والجغرافية، فتحدث عن التركيبة السكانية لعدد من البلدان ذاكرا قبائلها وعشائرها وعاداتها الاجتماعية، واصفا الكثير من المواضع والبقاع والمزارات التي شاهدها وصفا دقيقا، كما لم تخل رحلته من نفس أدبي رفيع لا سيما عندما تشعر نفسه بالاغتراب، أو يغمر خاطره الشوق إلى المعاهد والديار، وبذلك تكتسي رحلته قيمة كبيرة تؤهلها لتكون مصدرا تاريخيا وجغرافيا وأدبيا مهما[3].

كما أنّ رحلة الدرعي ذات قيمة علمية كبيرة، خاصة من الناحية الأدبية والجغرافية، فهي ليست نصا تاريخيا فحسب بل هي نص أدبي أيضا، يسمها أسلوب أدبي رصين وعبارات عذبة مسبوكة بحدق، وهي مصدر لنصوص نثرية وشعرية، فيها من النوادر الشيئ الكثير، ثم إنّها تعدّ إثراء لمعاجم البقاع والأمكنة، إذ فيها من أسماء البقاع والقرى المندثرة ما لايوجد في كتب التراجم والجغرافيا[4].

---

[1] ينظر: كراتسكوفسكي، تاريخ الأدب العربي، 453/1، 454.

[2] الزياني، الترجمانة، ص2.

[3] الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص7.

[4] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص37.

وتكمن أهمية رحلة ابن زاكور العلمية في أنّها تعدّ من أهم المصادر التي غطّت فترة من أزهى عصور الدولة العثمانية في "الجزائر"، كما تنتمي أدبيا إلى مايسمى بفهرسة الرحلة، حيث سجّل ابن زاكور ما رآه أثناء الرحلة، وثبت فيها أسماء الشيوخ الذين لقيهم، وما استفاد في مجالسهم من علوم ومرويات، ونصوص وإجازات، مع وصف جغرافي وتاريخي للمناطق التي يمر بها(1).

ورحلة المكناسي هي الأخرى زاخرة بمعطيات عن أوضاع عاصمة الإمبراطورية العثمانية وإيالاتها العربية، تنمّ عن دقّة الملاحظة لدى السفير المغربي وانتباهه إلى مختلف الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والجغرافية، وإلى جانب المادة الجغرافية والتاريخية التي تتضمنها الرحلة، فإنّ من مميزاتها إيراد بعض النصوص في شتّى الحقول الأدبية والصوفية وغيرها(2)، ومما يضفي على رحلته مزيدا من القيمة العلمية ما أبداه المكناسي من شغف للعلم والمعرفة، فلم يكن يتردد في السؤال والاستفسار ممّا مكّنه من الحصول على معلومات من أصولها ضمنها كتابه، فزاده ذلك غنى وتنوعا وطرافة(3).

أما عن رحلة التمقروتي فهي الأخرى لا تخلو من معطيات واقعية قيّمة، إذ لم يكن الغرض منها وصف تحركات المؤلف بقدر ما كان هدفها وضع مصنف أدبي قبل كل شيئ، لذلك نجدها حافلة بعدد من القصائد له يتعلق بعضها بموضوع الرحلة والبعض الآخر يمدح فيه شخصيات مختلفة، بالإضافة إلى حديثه عن سير العلماء والصلحاء وزياراته لقبور الأولياء طول طريقه، كما أنه يصف المواضع الجغرافية بنقله عن السابقين، كما لا تخلو رحلته من أخبار هامة عن الحالة العلمية والاقتصادية والاجتماعية لـ"اسطنبول" عاصمة الخلافة العثمانية، وإيالاتها المختلفة(4).

وكذلك رحلة ابن الطيب الفاسي ذات قيمة علمية وأدبية كبيرة هي الأخرى، حيث تحدّث فيها عن أهمية الحجّ وزيارة البيت الحرام وأهمية زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم،

(1) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص28، 29.

(2) المكناسي، الإحراز، ص12.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص14، 15.

(4) كراتسكوفسكي، تاريخ الأدب العربي، 1/459- 461.

وعن الأسفار وفوائدها وعما يقع على المسافر من التزامات وأعباء، كما أنّ رحلته لا تعتمد على ملاحظاته الشخصية فحسب، بل تعتمد أيضا على دراسة دقيقة للأدب، كما يظهر من خلالها دقة المؤلف الكبرى في المعلومات التي يوردها من محيط الطبوغرافيا عن جميع المواضع التي تتصل بطريق رحلته[1]، فهو يقول عنها: "**وكنا جمعنا في طريقنا نبدة تحتوي على ما سلكناه من المراحل، ونعد ما نزلنا من المنازل، وتشتمل على ذكر من لاقيناه، أو تكلمنا معه في نازلة من النوازل، وفي ضمن ذلك أبيات كان يقتضيها الحال، وقصائد شرفنا بها ملك المحال، وفوائد مهمة يعتني بها ذو الهمة..**"[2]، وبذلك كان هدف ابن الطيب من تصنيف رحلته هته ثلاثة أشياء هي: أن يبين منازل الطريق، وأن يشير إلى جميع الشخصيات الهامة التي جاذبها أطراف الحديث حول أي موضوع، وأن يسوق شواهد شعرية تتعلق بالرحلة[3].

وعموما فإن الرحلات المغاربية تعتبر من المصادر المهمة في مختلف العلوم، سواء الجغرافية أو التاريخية أو الأدبية وغيرها.

الفرع الثاني: أهم الجوانب العلمية في الرحلات المغاربية

سبق الذكر أن التنوع في الرحلات المغاربية يبرز بصفة عامة بمنحاها التاريخي والجغرافي والإثنوغرافي في قوالب يتآزر فيها الجانب التعليمي بالإمتاع الأدبي[4]، وإذا أردنا التفصيل أكثر في القيمة العلمية للرحلات المغاربية يجرنا الحديث إلى ذكر أهم هذه الجوانب والظواهر العلمية في هذه الرحلات منها: الجوانب التاريخية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية، والصوفية وغيرها.

أولا: الجوانب التاريخية

قدمت أغلب الرحلات المغاربية جملة من الأخبار في جوانب علمية ومعرفية مختلفة.

ففي الرحلات الجزائرية اهتمّ ابن حمادوش على سبيل المثال بذكر أهم الأحداث التاريخية التي عاصرها وكان شاهد عيان على حدوثها، فقدجاء في رحلته أنّه عاصر عهد

---

[1] كراتسكوفسكي، تاريخ الأدب العربي، 2/ 767.

[2] الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص19.

[3] كراتسكوفسكي، المرجع السابق، 767/2.

[4] ينظر: ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص9.

الباشوات في "الجزائر" الذين استبدّوا بالحكم عن السلطان العثماني، كما ذكر استعادة الجزائريين لمدينة "وهران" من يد "الإسبان"واحتلالها من جديد، كما ذكر بعض الثورات الداخلية مثل ثورة زواوة على يد قائد "سباو"، وذكر توقيع الصلح بين "الجزائر" و"الدانمارك"، كما ذكر أخبارا هامّة عن "المغرب الأقصى" كان شاهدا عليها كثورة "أحمد الريفي" حاكم "تطوان" على السلطان المغربي "مولاي عبد الله"، وغيرها من الأخبار التاريخية(1).

ويظهر الجانب التاريخي في الرحلات المغربية على سبيل المثال في رحلة ابن زاكور الذي اهتم بذكر أخبار كثيرة عن أحوال "الجزائر" خاصّة الحالة العلمية بها، وأهم علمائها، كما اهتم بذكر بعض الأحداث التاريخية المهمة التي عاصرها بـ"الجزائر" كالغارة الفرنسية على "الجزائر" التي كانت بقيادة الأميرال "دوكين" يوم 28 أوت 1682م(2).

والأخبار التاريخية كثيرة جدا في الرحلات المغاربية لا يسعنا المجال لذكرها جميعا.

ثانيا: الجوانب الاجتماعية والاقتصادية

إذ لا تكد تخلو مختلف الرحلات المغاربية من الحديث عن الجانبين الاجتماعي والاقتصادي لمختلف المجتمعات التي زاروها.

فمن بين الرحلات الجزائرية التي اهتمت بإبراز الجانبين الاجتماعي والاقتصادي للمجتمعات نجد على رأسها رحلةابن حمادوش، التي يمكن للباحث الاجتماعي أن يجد فيها مادّة ثريّة في المجال الاجتماعي، فقد ذكر مجموعة من عادات أهل "الجزائر" كالأدعية والصلوات المعهودة أثناء ختم صحيح البخاري، وعاداتهم ليلة القدر وليلة المولد النبوي، كما عقد مقارنة بين عادات المولد النبوي في كل من "الجزائر" و"المغرب"، إضافة إلى ذكره لعقود الزواج التي يعرف من خلالها مقدار الصدّاق ونوع العملات السائدة وقتئذ، وإمكانيات كل طبقة اجتماعية، بالإضافة إلى معرفة الحياة المنزلية للمرأة من الألبسة والجواهر والخدم وغيرها، وكل هذه الجوانب من الحياة الاجتماعية تعتبر مفقودة في بقية المظّان الخاصة بتاريخ "الجزائر" في تلك الفترة، وبالإضافة إلى الجانب

---

(1) ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 223/2، 224.

(2) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص29، 30.

الاجتماعي اهتم ابن حمادوش أيضا بذكر بعض الأمور الاقتصادية، كحديثه عن معاناته في البحث عن موارد الرزق سواء في "الجزائر" أوفي "المغرب"، وكثرة تعرضه للأسعار في أسواق البلدين[1].

كما اهتمت الرحلات المغربية هي الأخرى بالجانب الاجتماعي والاقتصادي للمجتمعات التي زارها الرحالة.

فعلى سبيل المثال تطرق الحضيكي في رحلته إلى بعض الجوانب الاجتماعية فنجده يورد بعض الارتسامات الاجتماعية التي تخص بعض الظواهر والعادات والتقاليد التي شاهدها خلال مراحل هذه الرحلة، كخروج نساء "عين ماضي" إلى الأسواق والاختلاط بالرجال للتجارة، كما تطرق أيضا إلى بعض الملامح الاقتصادية التي أثارت انتباهه، كقضية العملات، والسلع المروجة القابلة للتبادل في مختلف البلدان[2].

ثالثا: الجوانب الصوفية

كما يغلب الجانب الصوفي بكثرة في الرحلات المغاربية، نظرا لسيطرة ظاهرة التصوف على مختلف مجالات الحياة في تلك الفترة.

ويظهر الجانب الصوفي في الرحلات الجزائرية جليا في رحلة الورثلاني، فهو قد سيطر على منهجه في الرحلة، إذ كان يكثر الحديث عن التصوف والمتصوفة، كما خصّص قسما كبيرا من رحلته لأخبارهم في "الجزائر" وغيرها من البلدان، ويتجلّى تصوفه في إكثاره من الحديث عن بعض الغيبيات والكرامات والخوارق المنسوبة إلى الأولياء والمتصوفين[3]، وبالإضافة إلى الورثلاني نجد المعسكري أيضا يتحدث عن الأولياء وأصحاب الطرق الصوفية في الكثير من المواضع.

وفي المقابل يبرز الجانب الصوفي في معظم الرحلات المغربية، وخاصة العياشي الذي اهتم بالوقوف عند مختلف الطرق الصوفية المنتشرة في أرجاء خارطة العالم الإسلامي، فعرّف بتعاليم بعض هذه الطرق وقدّم أدبيّاتها، وسجّل بعض المحاورات التي دارت بينه وبين أصحابها وأتباعها، كما أنّه حرص على زيارة الأضرحة والتبرك بالمقامات والوقوف

---

(1) ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 224/2. وأبحاث وآراء، 234/1.

(2) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص40، 41.

(3) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 396/2- 398.

عند الزوايا والرباطات، وأورد أخبار المتصوفة والزهاد والعبّاد مع ذكر كراماتهم ومأثوراتهم والتأكيد على مكانتهم الروحية والاجتماعية، فهو متصوف سني عميق الإيمان، صاحب حس نقدي لبعض الطرق الضالة، فقد كان التصوف عنده محكوم بقاعدة أخلاقية كبرى تستمد أسسها من الكتاب والسنة وما أثر عن السلف الصالح[1].

كما تعتبر رحلة الدرعي نصا تأسيسيا للتصوف، فكاتبها العالم المتصوف شيخ الزاوية التي أضحت في عهده مؤسسة اجتماعية تؤدي دورا في تطوير مجاله الجغرافي، فرحلته هذه من الخطوط التوجيهية للزاوية ومريديها الشيء الكثير، حيث يحتجن متنها أفكار الشيخ الإصلاحية، ومواقفه الصريحة في مختلف القضايا[2].

رابعا: تراجم الأعلام

لا تكاد تخلو رحلة من رحلات المغاربة عموما من ذكر الأعلام، سواء العلماء منهم أو الحكام وذوي المكانة في المجتمعات التي زاروها.

فمن بين أهم الرحالة الجزائريين الذين اهتموا بالترجمة للأعلام وخاصة العلماء منهم فالمعسكري على سبيل المثال، رحلته عبارة عن ترجمة وافية لأبي راس بالدرجة الأولى، فمنها نعرف أشياء كثيرة عن نفسه وأحوال عصره، وتراجم عدد من العلماء المعاصرين له سواء كانوا أساتذة له أو زملاء، فهو كان مهتما بالحديث عن العلماء الذين كانوا يجادلونه ويجادلهم ويجيزونه ويجيزهم أكثر من اهتمامه بالمعاهد والديار [3]، وكذلك في رحلة المقري نجد أسماء الكثير من الأعلام سواء من زملائه العلماء في "الجزائر" وغيرها من البلدان التي زارها وعاش فيها، أو من أسماء الحكام والأمراء خاصة حكام "الجزيرة العربية" في عصره.

كما اهتمت الرحلات المغربية أيضا بالترجمة لمختلف الأعلام، كالعلماء والصلحاء والحكام،إذ تعدّ رحلة العياشي مثلا بمثابة كتاب لتراجم أعلام القرن الحادي عشر للهجرة، إذ لم يبق ممّن انتسب لهذا القرن من فقيه عالم أو متصوف عارف أو أديب شاعر، سواء بالغرب الإسلامي أو بالمشرق، إلّا وحرص العياشي على الالتقاء به ومقابلته والأخذ عنه

---

[1] ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 24/1، 25.

[2] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص38.

[3] ينظر: سعد الله، أبحاث وآراء، 95/2، 186.

والتعريف به، أو اكتفى بالإشارة إليه حين حالت عوارض زمانية أو مكانية دون لقائه، فقد كان حريصا على ترجمة عدد من الأعلام الذين التقاهم في مساره الرحلي وجالسهم، والذين استجازهم وأخذ عنهم[1]، وقد خصّص عناوين في رحلته لهذا الغرض منها: " **ذكر من لقيته بالمدينة من المشايخ الأعلام والأصحاب..**"[2]، كما أنّ ابن زاكور ترجم للكثير من علماء "الجزائر" أمثال "أبي حفص عمر بن محمد المانجلاتي الجزائري"، وأ"بي عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري"، و"أبي عبد الله محمد بن سعيد بن إبراهيم بن حمودة الجزائري"، و"أبي عبد الله ابن خليفة"..، وبذلك أصبحت رحلته مصدرا لمن أتى بعده من المؤلفين في الأعلام، كالحفناوي وعادل نويهض وغيرهم[3].

وبذلك تعد هذه الرحلات موسوعات معرفية هامة، جمع فيها مؤلفوها بين علوم شتى من: تاريخ وجغرافيا، وأدب وفقه وحديث وتصوف..إلخ مما يدل على غزارة فكر الرحالة المغاربة، واتساع مداركهم وقدرتهم على الجمع بين مختلف هذه الفنون المعرفية.

المطلب الثالث: الامتداد المعرفي للرحلات المغاربية

تحدث هذا المطلب عن الامتداد المعرفي لكتب الرحلة المغاربية، الذي قسمّ إلى فرعين: الأول في الحديث عن الرحلات المغاربية في اهتمامات السابقين من العرب والغرب، والفرع الثاني في الحديث عن الرحلات المغاربية في الكتابات العربية المعاصرة.

الفرع الأول: الرحلات المغاربية في اهتمامات السابقين العرب والغرب

نظرا للأهمية الكبيرة للرحلات المغاربية أضحت محل اهتمام العلماء المسلمن والغربيين.

أولا: الرحلات المغاربية في اهتمامات العلماء العرب

لقد شاعت الرحلات المغاربية حتى أصبحت لا غنى عنها في العصر الحاضر لفهم التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في "إفريقيا" و"آسيا"، إذ تكمن أهميتها في

---

(1) ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 27/1، 29.

(2) المصدر نفسه، 471/1.

(3) ينظر: ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص29.

تعرضها بالوصف الدقيق لمظاهر الحضارة الإسلامية في العواصم والمدن بالمشرق، ووصفها لممالك إفريقيا، كان الناس لا يعرفون عنها شيئا حتى أهلها أنفسهم[1]

لذلك أصبحت هاته الرحلات محل اهتمام المؤرخين والأدباء والجغرافيين، وغيرهم من العلماء سواء المعاصرين لتلك الرحلات كأخذ أصحاب الرحلات عن بعضهم البعض، فالعياشي مثلا كان المثال الذي احتذى به الرحالة الذين أتوا بعده خلال القرنيين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، فرحلته كانت النموذج الذي سار عليه الرحالة سواء في الأسلوب أو في طريقة الصياغة، أو في تركيب الرحلة[2]، أمثال الدرعي والوثلاني، والمعسكري والفاسي وغيرهم.

والرحلة الناصرية للدرعي أيضا اعتمد عليها الورثلاني في رحلته بصفة كبيرة، وقد صرح بذلك كما سبق الذكر[3].

كما اعتمد المعسكري أيضا على رحلتي العياشي والدرعي، وقد صرح هو الآخر بذلك كما سبق[4].

كما اهتم المؤرخون والأدباء المغاربة والمشارقة الذين جاءوا بعد الفترة العثمانية عن تلك الرحلات، فأخذوا يتدارسونها بالتحقيق والنقل منها.

فرحلة الدرعي على سبيل المثال قام "علي فهمي خشيم" بـ"طرابلس" بنشر الجزء الخاص بـ"ليبيا" من الرحلة تحت عنوان: "الحاجية"[5].

وقد اهتم بعض العلماء المغاربة برحلة ابن حماوش، خاصة جيل النصف الثاني من القرن (19م) والنصف الأول من القرن (20م)، خاصّة بما كتب ابن حمادوش عن ولاة "الجزائر"، وعادات وتقاليد المجتمع الجزائري، مثل الشيخ المفتي "أحمد العمالي"، و"عبد الحي الكتاني" في "فهرس الفاهارس"، ثم توالت الاهتمامات به خصوصا من جانب السيد "محمد داود" صاحب "تاريخ تطوان" لأن ابن حماوش أورد أخبارا هامة عن "تطوان" في

---

(1) ينظر: سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ص149.

(2) ينظر: نواب، كتب الرحلات في المغرب، ص24.

(3) ينظر: الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 36/1.

(4) ينظر: المعسكري، فتح الإله، ص91.

(5) ينظر: الدرعي، الرحلة الناصرية، ص38.

رحلته، وبذلك أصبح ابن حمادوش معروفا عند علماء المسلمين بمساهمته في تسجيل الآثار الاجتماعية والدينية والطب الشعبي، كما أخذ اللاحقون عن هؤلاء السابقين، كـ"أبي القاسم الحفناوي" في "تعريف الخلف برجال السلف"، وغيره(1).

كما اهتم مجموعة من الباحثين المعاصرين العرب برحلة المكناسي "الإحراز" منهم "ابن زيدان" الذي لخصّ مراحل سفر المكناسي من "اسطنبول" إلى "الحجاز" و"فلسطين" وعودته إلى "المغرب" عبر "تونس والجزائر"، وكذلك الأستاذ "محمد الفاسي"، الذي أشار إلى اكتشافة لرحلات المكناسي الثلاث فبادر إلى جمعها وتحقيقها، كما اهتمت بها بعض الدراسات المعاصرة كدراسات "عبد الهادي التازي" و"محمد بن عبود"، والعمل البيبليوغرافي لـ"المنوني" الذي ورد في وصف المخطوطات المحفوظة في الخزانات العامة بـ"المغرب"، ومنها الرحلات وعلى رأسها مخطوطات المكناسي ورحلاته(2).

وقد زادت اهتمامات الباحثين العرب والمسلمين بالرحلات المغاربية باعتبارها من أهم المصادر التاريخية وأوثقها في الآونة الأخيرة، خاصة في الدراسات الأكادمة كما سيأتي في عنصر لاحق.

ثانيا: الرحلات المغاربية في اهتمامات علماء الغرب

كما أنّ الغربيين أيضا اهتمّوا بترجمة بعض الرحلات المغاربية إلى لغاتهم اللاتينية، كرحلة التمقروتي التي ترجمها الكونت الفرنسي "هنري دو كاسترو" إلى اللغة الفرنسية سنة1929م(3)، ورحلة الوزان التي ترجمت إلى عدّة لغات منها ترجمة "فلوريان" لها إلى اللغة اللاتينية سنة 1556م، وإلى اللغة الهولندية سنة 1665م، وإلى الإنجليزية سنة 1600، كما ترجمت إلى الألمانية سنة 1805م(4)، وكذلك رحلة الدرعي التي قام الفرنسي "بريجه" بترجمتها ترجمة مختصرة إلى اللغة الفرنسية(5).

---

(1) ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص11، 12. من كلام المحقق.

(2) ينظر: المكناسي، الإحراز، ص19- 21.

(3) ينظر:التمقروتي، النفحة المسكية، ص12.

(4) ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، 21/1.

(5) ينظر: الدرعي، الرحلة الناصرية، ص38.

وقد اهتمّ مساعد القنصل الأمريكي "وليام هودسون" بترجمة رحلة الأغواطي إلى اللغة الإنجليزية ونشرها، كما ترجمها "دافيزاك" إلى الفرنسية عن النص الإنجليزي ونشرها مع تعاليق وتصحيحات هامة(1).

كما اهتمّ علماء أوربيون بآثار ابن حمادوش ومنها رحلته "لسان المقال"، وعلى رأسهم "لوسيان ليكيرك" الذي درس حياة ابن حمادوش وعرض أفكاره وملاحظاته وعلّق عليها، خاصة فيما تعلق بالطبّ الشعبي، والسيد "جواخيم دي خوانزاليز" الإسباني، الذي ذكر ابن حمادوش من بين مصادره الأساسية في رسالته المعروفة باسم "مشاهير مسلمي مدينة الجزائر"، وقد أخذ عنه أسماء ولاة "الجزائر"، ويعتبر هذا الباحث أول من استفاد من رحلة ابن حمادوش بعد "العمالي"، وبذلك أصبح ابن حمادوش معروفا عند العلماء الأوربيين بمساهمته في مجال الطب العربي والأحداث التاريخية(2).

ولعلّ من أبرز العلماء الغرب الذين اهتمّوا بدراسة الرحلات المغاربية المستشرق الروسي "اغناطيوس بوليانوفتش كراتشكوفسكي" الذي لم يعد اسمه مجهولا في العالم العربي المعاصر، الذي تدور أبحاثه في مجالات ثلاث هي: الشعر العربي، وأدب النصارى العرب، وتاريخ الأدب العربي المعاصر، وكان من أضخم أعماله الاستشراقة كتابه الضخم: "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، وهو الجزء الرابع من "منتخبات أثار كراتشكوفسكي"، والذي قام بترجمته "صلاح عثمان هاشم"، واهتمام هذا المستشرق بدراسة الأدب الجغرافي العربي بدأ منذ الأيام الأولى لنشاطه العلمي سنة 1909م، وقد استغرق تدوينه الفترة بين 1938 و1945م(3)، ومن أشهر علماء العرب الجغرافيين الذين ذكرهم في كتابه وتحدث عن مؤلفاتهم في الرحلة التي أدرجها في الجغرافيا كل من: "الحسن الوزان" وكتابه "وصف إفريقيا"، و"العياشي" ورحلته "ماء الموائد"، و"التمقروتي" في "النفحة المسكية"، و"الدرعي" في "الرحلة الناصرية"، والفاسي في "الرحلة إلى مكة"،

---

(1) ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 386/2.

(2) ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص11، 12. من كلام المحقق.

(3) ينظر: كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب العربي، 1/1- 8.

و"الزياني" في "الترجمانة"، والورثلاني في "نزهة الأنظار"، و"المقري" في "الرحلة إلى المغرب والمشرق"، و"المعسكري" في "فتح الإله"[1].

إذا فالرحلات المغاربية لم تنل اهتمام العلماء العرب فقط، بل نالت اهتمام الغربيين أيضا، فانهالوا عليها بالترجمة والدراسة والتعليق والنّقل منها، خاصة في فترة ما قبل التوسع الاستعماري، فكانت هذه الرحلات من الأمور المساعدة لهم في معرفة البلدان الإسلامية التي كانت محطّ أنظار المستعمرين.

الفرع الثاني: الرحلات المغاربية في الكتابات العربية المعاصرة

اهتمّ هذا الفرعباهتمام الباحثين الجزائريين بدراسة الرحلات المغاربية في العهد العثماني، ومدى استفادتهم منها، وقد لاحظنا أنّ هذه الرحلات أصبحت محلّ دراسة الباحثين والمؤرخين والأدباء الجزائريين في العصر الحاضر خاصة في مجالي التاريخ والأدب، ومن تلك البحوث والدراسات التي تناولت رحلات المغاربة خلال الفترة العثمانية في بحوثهم الأكاديمية، والكتابات الأدبية والتاريخية، نجد نوعين: بحوث تناولت الرحلات كموضوع مستقل وأساسي، وأخرى تناولت هذه الرحلات ضمنيا داخل دراساتها التاريخية أو الأدبية، وسأركز على ذكر بعض هذه الدراسات التي قام بها مؤرخون وأدباء جزائريون، وكذلك باحثون في مختلف الجامعات الجزائرية.

أولا: الرحلات المغاربية في الكتابات الأدبية والتاريخية

بناء على بحثي واطّلاعي في موضوع الدراسة، تمكنت من الوصول إلى عدّة بحوث تناولت الرحلات المغاربية بالدراسة، منها كتابات أدبية وأخرى تاريخية كما سيأتي التوضيح:

أ_ الرحلات المغاربية في الكتابات الأدبية

من أبرز الدراسات الأدبية التي تناولت الرحلات المغاربية في الفترة العثمانية نجد:

أ_ الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري دراسة في النشأة والتطور والبنية، والكتاب من عمل الدكتورة "سميرة أنساعد"، أستاذة الأدب الجزائري بجامعة الشلف، والكتاب نشرته مؤسسة دار الهدى بعين مليلة بـ"الجزائر" سنة 2009م، تناول هذا الكتاب الرحلة الجزائرية

---

[1] ينظر: كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب العربي، 460/1، 731/2- 770.

إلى المشرق دراسة أدبية بالتفصيل، ومن بين ماجاء في الدراسة: أعلام الرحلة إلى المشرق خلال العهد العثماني، وعلى رأس هؤلاء الرحالة: أحمد المقري، والحسين الورثلاني، ومحمد أبو راس المعسكري، كما تناولت في أحد فصول الكتاب عن تحديد مسار الرحلة بما فيها وصف الطبيعة والمكان من طرف الرحالة[1].

ب_ الرحلات المغاربية فيالكتابات التاريخية

ومن أبرز الكتب التارخية التي ألفت في الرحلة المغاربية في العهد العثماني نجد نوعين: كتابات تستقل فيها الرحلات، وكتابات وجدت فيها الرحلات ضمن كتب تاريخية عامة.

من النوع الأول وجدت كتابين هما:

1_ الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني: للأستاذ الباحث والمؤرخ "مولاي بلحميسي"، وهو بحث جاد أشرف عليه المركز الوطني للدراسات التاريخية، ونشرته الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بـ"الجزائر" سنة 1979م، تناول الكتاب أربع رحلات مغربية مرت بـ"الجزائر" في العهد العثماني، واهتم أصحابها بوصف "الجزائر" في كتبهم، وهذه الرحلات هي: رحلة التمقروتي المسماة: "النفحة المسكية في السفارة التركية"، ورحلة العياشي: "ماء الموائد"، ورحلة ابن زاكور: "نشر أزاهير البستان"، وكذلك رحلة الزياني: "الترجمانة الكبرى"، ركز الباحث على ذكر الفوائد الإخبارية لهذه الرحلات بالنسبة لتاريخ الجزائر في القسم الأول من الكتاب الذي قسمه إلى قسمين[2]، كما نقل نصوص هذه الرحلات التي تخص "الجزائر" بأكملها في القسم الثاني من هذا الكتاب[3].

2_رحلة الورثلاني عرض ودراسة: وهو كتاب للباحث والمؤرخ "مختار بن الطاهر فيلالي"، والذي قامت بنشره "دار الشهاب" بمدينة "باتنة" بـ"الجزائر"، في طبعة خاصة، تناول الكتاب رحلة الورثلاني، ومن أهم العناوين البارزة في الكتاب: حياة الورثلاني داخل "الجزائر" وخارجها، رحلة الورثلاني "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، اهتمام الدارسين بالورثلاني ورحلته، والمادة التاريخية للرحلة، وغيرها من المواضيع الخاصة جميعها بالرحلة الورثلانية.

---

[1] ينظر: أنساعد، الرحلة إلى المشرق، ص61- 139.

[2] ينظر: بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص23.

[3] المرجع نفسه، ص45- 166.

أما الكتابات التاريخية من النوع الثاني، فنجد منها كتب شيخ المؤرخين الجزائريين "أبوالقاسم سعد الله"وهي:

3_ بحوث في التاريخ العربي الإسلامي: تحدث فيها عن أدب الرحلة عند المغاربة بصفة عامة، كما تحدث عن الرحالة المغربي أبي سالم العياشي، وعن رحلته المشرقية، ومن بين العناوين التي أختارها لرحلته: "ذكريات مغاربية عن اليمن"، و"مع الرحالة العياشي في القدس وجوارها"[(1)].

4_ تاريخ الجزائر الثقافي: تناول الرحلات في بعض أجزائه، منها الجزء الأول الذي ذكر فيه المؤرخ بعض الرحالة الجزائريين في العهد العثماني، في عنصر بعنوان هجرة العلماء، ومن هؤلاء العلماء الرحالة: أحمد المقري، وأحمد ابن عمار، والورثلاني والمعسكري كما ذكر أيضا الرحالة المغاربة الذين زارو الجزائر في الفترة العثمانية في عنصر سماه: العلماء المسلمون في الجزائر، ومن الرحالة المغاربة الذين ذكرهم: التمقروتي، والدرعي والعياشي، وابن زاكور[(2)]، أما الجزء الثاني فتناول في فصله الخامس الرحلات الجزائرية، فتحدث عن مساهمة الجزائريين في كتابة الرحلات خلال القرن الثاني عشر الهجري (18م)، كما ذكر أيضا من الرحالة: أبا راس المعسكري، وابن حمادوش، وتحدث عن رحلة الورثلاني وغيرهم[(3)]، أما بالنسبة للجزء السابع فتناول العديد من الرحلات الجزائرية بعد العهد العثماني.

5_ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر: ذكر في بعض جزئياته الرحالة الجزائري ابن حمادوش، كما تحدث أيضا عن رحلة أبي راس المعسكري "فتح الإله ومنته" في الجزء الأول، وكذلك في الجزء الثاني ذكره في عنصر سماه: مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي أبو راس[(4)].

---

(1) ينظر: سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ص356، 463.

(2) ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 426/1- 443.

(3) المرجع نفسه، 376/2، 393، 425. وللإشارة فإن هذه الصفحات مأخوذة من الطبعة الأولى التي نشرتها دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1998م.

(4) سعد الله، أبحاث وآراء، 170/1، 337، 2/ 83.

كما توجد أيضا بعض الكتابات التاريخية لبعض الباحثين والمؤرخين الجزائريين المعاصرين منها:

6_ بحوث تاريخية: للأستاذ الباحث في تاريخ الجزائر الحديث "عميراوي احميدة" وهو كتاب نشرته مؤسسة "دار الهدى" بـ"عين مليلة" بـ"الجزائر"، في طبعته الثانية سنة 2006م، تناول هذا الكتاب ضمنيا الرحلات التي يقوم بها العلماء والطلاب المغاربة وخاصة الجزائريين منهم إلى البلاد الإسلامية وعودتهم بالكنوز المعرفية والمعنوية والمادية التي تصبح مراجع لهم ولثقافتهم فيما بعد[1].

7_ تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16م إلى القرن 20م: للباحث والمؤرخ "يحيى بوعزيز"، ونشر هذا الكتاب من طرف "دار هومة" بـ"الجزائر" سنة 2001م، تحدث المؤرخ في عنصر ضمنيا عن رحلات المغاربة إلى "الحجاز"، وبيّن أثر تجاربهم واحتكاكهم بالطرق والمسالك المؤدية إلى "الحجاز" في زيادة معرفة الرحالين المغاربة بالمنابع ومميزاتها وتركها آثار في كتاباتهم المختلفة.

بالإضافة إلى هذه الكتب التاريخية التي تناولت الرحلات المغاربية في العهد العثماني، هناك كتب أخرى ذكرت أصحاب الرحلات الجزائرية، كأعلام من أعلام الجزائر، منها: كتاب "تاريخ الجزائر العام" لـ"عبد الرحمن الجيلالي" الذي تحدث عن الرحالة الجزائري أبي راس المعسكري في جزئه الرابع، وكذلك كتاب "أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة" لـ"يحيى بوعزيز" وغيرها.

ثالثا: الرحلات المغاربية في الدراسات الأكاديمية

وتشمل الدراسات الأكاديمية مختلف البحوث التاريخية والأدبية التي تناولت الرحلات المغاربية في العهد العثماني، وقد ركتز على البحوث التي أنجزت في الجامعات الجزائرية، سواء أطروحات الدكتوراه أو الماجيستير، والتي منها حسب اطلاعي:

---

[1] عميراوي احميدة، بحوث تاريخية، مؤسسة دار الهدى ، عين مليلة_ الجزائر، ط2، 2006م، ص32، 33.

أ_ دراسات أكاديمية تاريخية

وهي الأخرى تشمل نوعين من البحوث: نوع كانت فيه هذه الرحلات موضوع الدراسة، ونوع كانت الرحلات جزءا أو عنصرا داخل دراسة تاريخية عامة، ومن هذه البحوث وجدت التي تندرج تحت النوع الأول منها:

1_ النشاط التجاري بين الجزائر وتونس في القرن 12هـ/18م من خلال رحلات المغاربة:وهي رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، للباحث "سمير مشوشة" أشرف عليها الدكتور "أحمد صاري"، بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، ونوقشت سنة 2014م، هذاالموضوع عالج الجانب التجاري في العلاقات الجزائرية التونسية من خلال مصادر محلية هامة هي رحلات المغاربة خلال القرن 12هـ/ 18م، منها رحلة كل من: الورثلاني الجزائري، والدرعي والمكناسي المغربيين.

2_ ثقافة بلاد المغرب العربي من خلال رحلة كل من الورثلاني وابن حمادوش: وهي مذكرة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، من إنجاز الباحثة "مايسة حراش" تحت إشراف الدكتور "عميراوي احميدة"، بجامعة الأمير القادر بقسنطينة، والتي نوقشت سنة 2014م، تناولت الدراسة الحالة الثقافية لبلاد "المغرب" في القرن الثامن عشر للميلاد، من المدن والمراكز العلمية والثقافية بها سواء في "الجزائر" أو"تونس" أو في "المغرب"، بالإضافة إلى دوافع الرحلة والتواصل بين هذه البلدان، وذلك من خلال رحلتي ابن حمادوش والورثلاني.

3_ مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر من خلال بعض الرحالة العرب والأوروبيين، دراسة مقارنة: وهي رسالة ماجيستير في التاريخ، من إعداد الباحث "بلعمري فاتح" تحت إشراف الأستاذ الدكتور "أحمد صاري"، بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، نوقشت سنة 2009م، ومن الرحلات العربية المغربية التي تناولتها الدراسة هي رحلات كل من: ابن حمادوش والمعسكري الجزائريين، ورحلة الزياني المغربي.

أما التي تندرج تحت النوع الثاني منها:

4_ منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (1519-1830م): وهي عبارة عن أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، أنجزها الباحث "عبد

القادر بكاري" وأشرف عليها الأستاذ الدكتور "دحّو فغرور" بجامعة وهران، ونوقشت سنة 2016م، تناولت الدراسة في الفصل الثالث منها مناهج الكتابة التاريخية عند مؤرخي الجزائر في كتب الرحلات، وتناولت رحلات كل من: الورثلاني، وابن حمادوش، والمعسكري والمقري.

5_ التفاعل الثقافي بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال القرن (11هـ/ 17م):وهي رسالة ماجيستر في التاريخ الحديث والمعاصر من إعداد الباحث "البشير عمارة" تحت إشراف الأستاذة "جميلة معاشي" من جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، والتي نوقشت سنة 2014م، تناولت الدراسة الرحلات المغاربية في بعض عناصرها، فذكرت: رحلة أهل العلم والدين الجزائريين إلى "المغرب"، ورحلة أهل العلم والدين المغاربة إلى "الجزائر"، ومنه تحدثت الدراسة على الرحلة الحجية للمغاربة التي تشق طريقها من "الجزائر"، وبينت كيف أن الطريق هذا الطريق ليس مسلكا يعبره الحجاج فقط بل هو حلقة مهمة في قناة الحج، وذلك بالنظر للمحطات التي يتوقف بها الركب بغية التواصل ومجالسة الشيوخ ولقاء الأصحاب والإفادة والاستفادة، ومن بين الرحالة المغاربة المذكورين في هذه الدراسة بشيئ من التفصيل نجد: الرحالة المغربي أبو سالم العياشي، حيث فصلت الدراسة رحلته البرية التي مرت على "توات" و"ورقلة" و"تقرت" في الذهاب، ثم العودة على "بسكرة" و"أولاد جلال" و"الأغواط" و"بوسمغون"[1].

6_ الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر المغربية وأثرها الحضاري في العهد العثماني خلال القرنيين 17_ 18م:وهي رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، من إعداد الباحث "رشيد حفيان"تحت إشراف الأستاذ "خليفة حماش" من جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، ونوقشت سنة 2014م، تحدثت الدراسة بشكل مختصر عن رحلات العلماء المغاربة إلى "الحجاز"، إذ كانت قوافل الحجاج المغاربة سوقا متنقلة تنصب في كل استراحة تحط بها[2].

---

(1) عمارة، التفاعل الثقافي بين الجزائر والمغرب، ص66، 69، 76،77.

(2) رشيد حفيان، الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر المغربية وأثرها الحضاري في العهد العثماني خلال القرنيين 17_ 18م، رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة_ الجزائر، 2014م، ص102.

7_ قضايا التاريخ العثماني عند الباحثين الجزائريين منذ 1962م: وهي رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث، من إعداد الباحث "بلقاسم عياشي" تحت إشراف الأستاذ "صالح فركوس" من جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، والتي نوقشت سنة 2007م، تحدث فيها الباحث عن المصادر العربية لكتابة تاريخ "الجزائر" الخاص بالفترة العثمانية، فمن بين هذه المصادر كتب الرحالة العرب، ومنهم رحالة جزائريين مثل: ابن عمار وابن حمادوش، ومن "المغرب" أمثال: التمقروتي، وابن زاكور الفاسي[1].

8_ التواصل الثقافي بين الجزائر والمغرب خلال (1549- 1664م): وهي مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ من إنجاز الباحث"الصالح بن سالم" تحت إشراف الأستاذ "إسماعيل سامعي" بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، والتي نوقشت سنة 2014م، تناولت هذه الدراسة الرحلات المغاربية كطريقة من طرق التواصل الثقافي الذي كان بين "الجزائر" و"المغرب الأقصى" في القرن الأول من العهد العثماني في الجزائر.

9_ هجرة علماء تلمسان إلى فاس ودورها الثقافي بين الجزائر والمغرب خلال القرن 10هـ/ 16م: وهي عبارة عن رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، من إنجاز الباحث مسعود بقادي وإشراف الأستاذ عبد المجيد قدور بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، والتي نوقشت سنة 2014م، ومن بين علماء تلمسان المهاجرين إلى المغرب الرحالة المقري.

ومن المؤكد وجود عدة دراسات أخرى تخص قضايا تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية، وكانت بعض الرحلات المغاربية مصدرا من مصادر البحث، لكن لم نصادفها أثناء البحث، نكتفي بما ذكر على سبيل المثال والتوضيح.

ب_ دراسات أكاديمية أدبية

ومن البحوث الأكاديمية الأدبية التي تناولت رحلة المغاربة في العهد العثماني نجد:

---

[1] بلقاسم عياشي، قضايا التاريخ العثماني عند الباحثين الجزائريين منذ 1962م، رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة_ الجزائر، 2007م، ص20.

1_ الرحلة الجزائرية في العهد العثماني_ بناؤها الفني أنواعها وخصائصها: وهي أطروحة دكتوراه علوم في الأدب العربي، من إعداد الباحث "الطاهر حسيني" تحت إشراف الأستاذ الدكتور العيد جلولي جامعة قاصدي مرباح بورقلة، والتي نوقشت سنة 2014م، تناول الباحث أهم الرحلات الجزائرية في العهد العثماني ووزعها حسب أغراضها، فذكر رحلة الورثلاني كنموذج للرحلات الحجية، ورحلتي الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي والقمرية ضمن الرحلات الرسمية والجهادية، ورحلة المعسكري نموذج للرحلات العلمية[1].

2_ فن الرحلة في الأدب المغربي القديم: وهي أطروحة دكتوراه دولة في الأدب القديم، أعدها الباحث "إسماعيل زردومي" تحت إشراف الأستاذ الدكتور "عبد الله العشي" بجامعة الحاج لخضر بباتنة، وتمت مناقشتها سنة 2005م، تناول الباحث مجموعة من الرحلات المغاربية جزائرية ومغربية منها رحلات كل من: العياشي والورثلاني في ما يخص العهد العثماني.

3_ أدب الرحلة الجزائري الحديث " سياق النص وخطاب الأنساق": وهي أطروحة دكتوراه علوم في الأدب الجزائري الحديث، من إعداد الباحث "عيسى بخيتي" تحت إشراف الأستاذ الدكتور "محمد مرتاض"، والتي نوقشت سنة 2015م بجامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان، تناولت الدراسة أغلب الرحلات الجزائرية في العهد العثماني، وهي رحلات كل من: ابن عمار والمقري والورثلاني، وابن حمادوش والمعسكري، بالإضافة إلى رحلتي ابن هطال والأغواطي.

4_ الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني: وهي أطروحة دكتوراه في الآداب واللغة العربية، من إعداد الباحثة "فاطمة دخية" تحت إشراف الأستاذ الدكتور "تبرماسين عبد الرحمن" بجامعة محمد خيضر ببسكرة والتي نوقشت سنة 2015م بكلية الآداب واللغات، اعتمدت الدراسة في طياتها على بعض الرحلات الجزائرية خاصة في الحديث

[1] ينظر: حسيني، الرحلة الجزائرية، ص159، 242، 277، 312.

عن الشعر الجزائري من خلال عناصر بناء القصيدة، أين تحدثت عن الوصف في الشعر في القصائد الواردة في رحلة ابن عمار[1].

5_ الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش الجزائري: وهي مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماجيستير في اللغة العربية وآدابها ضمن مشروع: الأدب الرحلي المغاربي، من إعداد الباحثة "فاطمة مقدم" تحت إشراف الأستاذ الدكتور "سكران عبد القادر" بجامعة وهران– السانية (كلية الآداب واللغات والفنون)، والتي نوقشت سنة 2011م، تحدثت فيها الباحثة عن أهم ملامح السرد في رحلة ابن حمادوش من طريقة الحكي إلى الوصف والحوار ولغة السارد بين الفصحى والعامية، وغيرها من الخصائص السردية الأخرى.

ج_ دراسات في تحقيق المخطوطات

وبالإضافة إلى البحوث الأكاديمية التاريخية والأدبية وجدت دراسة أخرى تخص الرحلات في مجال تحقيق المخطوطات بعنوان:

نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار أبي العباس سيدي أحمد _دراسة وتحقيق:وهي عبارة عن أطروحة دكتوراه في تحقيق المخطوطات، من إنجاز الباحث "عبد الجليل شقرون"، أشرف عليها الأستاذ الدكتور "شعيب مقنونيف" من جامعة أبي بكر القادري بتلمسان، والتي نوقشت سنة 2017م، ذكر الباحث في تمهيده قبل دخوله في تحقيق رحلة ابن عمار مجموعة من الرحلات الجزائرية خلال الفترة العثمانية، كرحلة الورثلاني، والمعسكري وابن الدين الأغواطي، بالإضافة إلى دراسته لرحلة ابن عمار التي خصها بالتحقيق.

ثالثا: الرحلات المغاربية في الملتقيات والمجلات العلمية

بالإضافة إلى الدراسات السابقة توجد بعض الدراسات الأخرى، في شكل مقالات علمية وملتقيات وغيرها منها:

أ_ الملتقيات والأيام الدراسية

1_ يوم دراسي بعنوان: الرحلة خلال العهد العثماني _الكتابة التاريخية عند مؤرخي العهد العثماني بالجزائر خلال القرنيين 17و 18م دراسة في بعض النماذج، من تنظيم

[1] ينظر: دخية، الحركة الأدبية في الجزائر، ص259، 263.

قسم البحث: سوسيوأنتروبولوجيا التاريخ والذاكرة، مع مشاركة مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، والذي انعقد بتاريخ 11 فيفري عام 2016م، قدم هذا اليوم الدراسي مجموعة كبيرة من البحوث الجادة والقيمة في الرحلة المغاربية التي تخص الجزائر في العهد العثماني، ومن بين العناوين الموجودة:

_ التعريف برحلة الورثلاني، من إعداد الأستاذ غازي الشمري من قسم التاريخ وعلم الآثار بجامعة وهران_1.

_ أهمية رحلتي الوزان والتمقروتي في كتابة تاريخ الجزائر، من إنجاز الأستاذ آيت حبوش حميد، من قسم التاريخ وعلم الآثار بجامعة وهران_1.

_ صورة المغرب الأوسط في العهد العثماني من خلال الرحلة الحجازية للحضيكي، لعبد الحق شرف من قسم التاريخ بجامعة تيارت.

_ مقاربة اثنوغرافية في رحلة الأغواطي، من إعداد جعفر بايوش من قسم الأدب العربي بجامعة مستغانم.

_ التعريف برحلة ابن زاكور الفاسي المسماة "نشر أزهار البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان"، من إعداد بوسلاح فايزة، من قسم الأدب العربي بجامعة مستغانم.

_ الرحلات الجزائرية بين جغرافية المكان والتواصل المعرفي، رحلة أبو راس الناصر المعسكري أنموذجا، من إنجاز حمدادو بن عمر من قسم التاريخ بجامعة وهران.

_ حركة التأليف بالجزائر خلال العهد العثماني كتب الرحلات أنموذجا، من إعداد بوشريط أمحمد، من قسم التاريخ بجامعة معسكر، وغيرها من المداخلات التي تصب جميعها في مجال الرحلة المغاربية في العهد العثماني.

2_ ملتقى وطني بعنوان:"الرحلة الدينية والعلمية ودورها في التواصل الحضاري في العصر الوسيط والحديث"، الذي نظمته جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة بالجزائر في 28 نوفمبر سنة 2019م، وكانت أهم محاور الملتقى:

_ الرحلات الدينية بين المغرب والمشرق ودورها الحضاري.

_ نماذج من الرحلات العلمية بين المغرب والمشرق.

_ الرحلات العلمية والدينية وآثارها الحضارية.

وكل هذه المحاور لها علاقة بالرحلات المغاربية خاصة التي تخص العصر الحديث.

3_ الملتقى الدولي التاريخي الثاني حول: "الرحلة والرحالة في ربوع أولاد نايل، من تنظيم كلية العلوم الاجتماعية والإنسانة بجامعة الشيخ زيان عاشور(الجلفة) في 18و19 نوفمبر 2019م.

من محاور الملتقى التي تناولت الرحلات المغاربية:

_ جغرافيا بلاد أولاد نايل باعتبارها ملتقى وممرا استراتيجيا لشتى القوافل والجيوش والحملات.

_ ربوع أولاد نايل من خلال كتابات العلماء والمؤرخين المسلمين.

_ قصور وبوادي أولاد نايل في أدب الرحلة الحجازية للحجاج المغاربة.

ومن خلال هذه الملتقيات رغم قلتها يتبين لنا بعض الالتفاتات من طرف بعض الجامعات الوطنية للرحلات المغاربية نظرا لأهمتها البالغة في حفظ التراث الوطني بين طياتها.

ب_ المقالات المنشورة في المجلات العلمية المحكمة

إذ نشرت بعض المقالات العلمية الخاصة بموضوع الرحلات المغاربية في العهد العثماني، في بعض المجلات الوطنية الجزائرية منها:

1_ الأضرحة والمزارات في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات المغربية: وهو مقال من إعداد الأستاذين: "بوسليم صالح" من جامعة غرداية، و"بن قايد عمر" من جامعة قاصدي مرباح بورقلة، والذي نشر في مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة قاصدي مرباح بورقلة في عددها 21، سنة 2015م، أبرزت المداخلة الدور الفاعل الذي اضطلع به الرحالة المغاربة في بلورة تفاعلات الزيارات للأضرحة وقبور الأولياء والصلحاء في الجزائر، في إطار ركبهم الحجازي السنوي، ومن بين الرحلات المغربية المذكورة في الدراسة رحلة كل من: العياشي، والحضيكي، والدرعي والتمقروتي، وآخرون.

2_ مدينة وهران من خلال كتابات الجغرافيين والرحالة والمؤرخين: وهو مقال من إنجاز الأستاذ "علي بوتشيشة" أستاذ محاضر بمعهد الآثار بجامعة أبو القاسم سعد

الله(الجزائر2)، نشر هذا المقال بمجلة "الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية"، في عددها19، في جانفي 2018م، من بين مواضيع هذا المقال: وهران في رحلتي: الوزان، والتمقروتي[1].

3_ أسباب الرحلات المغاربية إلى الحجاز إبان القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي: وهو مقال من إنجاز الأستاذ "صادوق الحاج" جامعة أبو القاسم سعد الله (الجزائر2)، نشر هذا المقال بمجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية بجامعة حمة لخضر بالوادي في عددها العاشر في جانفي 2017م.

4_ ابن حمادوش الجزائري وأبو راس الناصري يؤرخان للعلاقات التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن18م: وهو مقال من إعداد "سمير مشوشة" من جامعة عباس لغرور بخنشلة، نشر هذا المقال بـ "مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية بجامعة حمة لخضر بالوادي، في عددها الثاني عشر، في مارس 2017م.

وللإشارة، فقد نشرت بعض المقالات أيضا تخص بلدان المغرب العربي وشمال إفريقيا من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني على غرار الجزائر كتونس وليبيا، وكذلك السودان في بعض المجلات العربية منها:

5_ تونس في بعض رحلات المغاربة، وهو مقال أنجزه الباحث "كريم عبد الكريم" ونشرته مجلة التاريخ العربية في عددها الرابع، بالإمارات العربية المتحدة، سنة 1997م.

6_ ليبيا في مخطوطات الرحالينالمغاربة خلال القرنين 17_ 18م، وهو عبارة عن مقال من إنجاز "كريم عبد الكريم" نشر بمجلة التاريخ العربي بالإمارات العربية المتحدّة، العدد8، سنة 1998م.

7_ قوافل الحج ومسالكها بين غرب الصحراء والسودان مع المغرب والمشرق خلال العهد العثماني، وهو مقال أنجز من طرف الباحث "ولد السالم حماة الله"، ونشرته المجلة التاريخية المغاربية بتونس في عددها 116، سنة 2004م.

---

[1] ينظر: علي بوتشيشة "مدينة وهران من خلال كتابات الجغرافيين والرحالة والمؤرخين"، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف_ الجزائر، ع19، 2018م، ص211.

إذا فقد اهتم بعض الباحثين والمؤرخين بالرحلات المغاربية خاصة في الفترات القريبة من عهدها وكان الغربيون أكثر اهتماما بها أكثر من العرب، لكن في اهتمامات الدراسات الأكاديمية العربية زادت في السنوات الأخيرة باعتبار الرحلات المغاربية مصادر هامة من تاريخ الشعوب العربية والإسلامية، بالإضافة إلى دراسة مختلف الظواهر الأدبية الموجودة في الرحلة، ورغم كل هذه المحاولات تبقى الكثير من الرحلات المغاربية، خاصة الجزائرية منها في حكم المفقود وهناك من تنتظر نفض الغبار عليها والبحث عنها في رفوف المكتبات الخاصة، وإخراجها إلى النور للاستفادة منها.

وعمومافدوافع الرحلة المغاربية لا تكاد تخرج عن ثلاثة دوافع رئيسية وهي: الدوافع الدينية، والعلمية، والسياسية، كما أن هدف الرحالين المغاربة لتدوين رحلاتهم كان إما رغبة منهم، أو بطلب من الآخرين. وتعتبر هذه الرحلات موسوعات معرفية هامة، جمع فيها مؤلفوها بين علوم شتى من: تاريخ وجغرافيا، وأدب وفقه وحديث وتصوف، وقد كانت رحلات المغاربة إلى المشرق سببا في تنشيط الحركة الفكرية في مختلف الفترات في مختلف ربوع العالم الإسلامي، وأصبح الرحالة بذلك رسل علم ومعرفة وحلقة وصل وتبادل فكري وعلمي بين المشرق والمغرب، وقد أصبحت تلك الرحلات فيما بعد محل اهتمام الباحثين والمؤرخين فيما بعد خاصة الغربين كما زادت اهتمامات الدراسات الأكاديمية العربية الحديثة باعتبار الرحلات مصادر هامة من تاريخ الشعوب العربية والإسلامية، لكن تلك المحاولات تبقى غير كافية لاستوفاء الرحلات المغاربية حقها من الدراسة.

خلاصة الباب:

عرفت الجزائر في العهد العثماني عدّة رحلات سواء جزائرية أو مغربية، اختلفت أغراضها التي حدّدت وجهاتها؛ فكانت الدينية مقصدها بلاد الحجاز، والعلمية متبادلة بين الجزائر والمغرب وإلى المشرق، أما السياسية فلم تتعدى الجزائرية منها حدود التراب الجزائري والمغربية كانت وجهتها الأساسية الأستانة عاصة العثمانيين باسطمبول، وبتعدد دوافعها كانت دواعي تدوينها من طرف الرحالة أيضا متعددة ومختلفة لكنها لم تكد تخرج عن هدف أساس هو: خدمة الحقيقة بالدرجة الأولى وتنوير مواطنيهم بما جادت قرائحهم بمؤلفات بديعة تحوي فوائد عظيمة كانت عبارة عن موسوعات علمية للأجيال اللاحقة، سواء كان تدوينهم برغبة منهم أوبطلب من الآخرين، وقد اتبع الرحالة المغاربة في تدوين رحلاتهم بمناهج ذات ميزات خاصة، فهي لم تستغن عن منهجي الوصف والسرد في نصوصها باعتبار المنهجين من مقومات الكتابة التاريخية؛ فكانت لغة السرد ممتزجة بالوصف في أغلب الأحيان، وكان الوصف خاصّا بمظاهر الطبيعة وكذلك المدن والعمران، ويتعدى ذلك إلى وصف الحالات النفسية والأشخاص، كما أن السرد استخدم أساسا في نقل الأخبار المختلفة عن الأوضاع السائدة والتي كان الرحالة شاهد عيان عليها أو سمعها، كما أنها اتبعت منهجا خاصا في تعاملها مع المصادر المختلفة تميز بكثرة النقول من المصادر المكتوبة السابقة وكثرة الاقتباسات، كما تميزت بالاعتماد على المشاهدة والمعاينة من خلال التجارب الشخصية لأغلب الرحالة، إضافة إلى لجوء الرحالة إلى منهجي المقارنة والنقد بين المصادر في بعض الأحيان، أما ترتيبها فكان بين ثلاثة عناصر مهمّة: الزمان والمكان والموضوع، فإذا كان الزمن هو محرك الرحلة، وإذا كان المكان محور دوران تلك الرحلة فإن الموضوع هو مادة الرحلة الخام، فلا يمكن لأي رحلة أن تستغني عن أحد هذه العناصر، فمن الرحالة من اعتمد الترتيب الزمني بالدرجة الأولى دون إغفال المكان والموضوع، ومنهم من اعتمد الترتيب المكاني دون التخلي عن الزمن والموضوع، ومنهم من اعتمد الترتيب الموضوعي دون استغنائهم عن المكان والزمان،أما عن اللغة والأسلوب فقد امتلأت أغلب الرحلات المغاربية بالأسلوب الأدبي الرفيع وتزينت نصوصها بالأبيات الشعرية، والسجع وغيرها من الألفاظ الرنانة والأخبار العجيبة والغريبةكما تميزت بعضها بسلاسة اللغة وبساطة الأسلوب في حين غلب على أسلوب

بعضها استعمال اللهجة العامية وكثرة الاستطرادات والإطناب، ومهما يكن فقد تميّز الرحالة المغاربة بميزات خاصة في تدوين رحلاتهم، فكل يكمل ما نقص من سلفه ويضيف إلى فن الرحلة لبنات جديدة أعطته صفته وميزته الخاصة، وبتلك الرحلات أصبح الرحالة المغاربة رسل علم ومعرفة وحلقة وصل وتبادل فكري وعلمي على المستوى المغاربية والمشرقي، أتاح لأهل المغرب النهل من علوم المشرق على أيدي هؤلاء الرحالة الذين قاموا بتدريس تلك العلوم التي أخذوها لمواطنيهم،كما ساهموا في تنشيط الحركة الفكرية في مختلف الفترات في مختلف ربوع العالم الإسلامي، وأصبحت رحلاتهم مصادر هامة من تاريخ الشعوب العربية والإسلامية، لكل الباحثين والعلماء في مختلف المجالات العلمية جعلت منها موسوعات معرفية هامة جمع فيها مؤلفوها بين علوم شتى من: تاريخ وجغرافيا، وأدب وفقه وحديث وتصوف..إلخ، مما يدل على غزارة فكر الرحالة المغاربة، واتساع مداركهم وقدرتهم على الجمع بين مختلف هذه الفنون المعرفية.

الباب الثاني:

دراسة مضامينية الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

الفصل الأول: أوصاف ومشاهد جغرافية وأخبار تاريخية للجزائر في الرحلات المغاربية

الفصل الثاني: الأوضاع السياسية والعسكرية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

الفصل الثالث: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

الفصل الرابع: الأوضاع الثقافية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

الباب الثاني: دراسة مضامينية الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني

اختصّ هذا الباب بالحديث عن مضمون الرحلات المغاربية –الجزائرية والمغربية– التي اهتمت بذكر الأوضاع العامة لـ"الجزائر"، وذلك في أربعة فصول؛ تحدّث الفصل الأول عن الأوصاف العامة والمشاهد الجغرافية والأخبار التاريخية الخاصة بـ"الجزائر"، أما الفصل الثاني فاختّص بذكر الأوضاع السياسية، والفصل الثالث في ذكر الأوضاع الاجتماعية، وتضمّن الفصل الرابع الأوضاع الثقافية، وكلها من خلال الرحلات المغاربية في العهد العثماني كما هو معلوم.

الفصل الأول:

أوصاف ومشاهد جغرافية وأخبار تاريخية عن الجزائر في الرحلات المغاربية

المبحث الأول: أوصاف عامة لمدن وقرى جزائرية في الرحلات المغاربية

المبحث الثاني: مشاهد جغرافية في الجزائر في الرحلات المغاربية

المبحث الثالث: أخبار تاريخية عن الجزائر في الرحلات المغاربية

الفصل الأول: أوصاف ومشاهد جغرافية وأخبار تاريخية عن الجزائر في الرحلات المغاربية

حوى هذا الفصل ثلاثة مباحث: الأول في الحديث عن الأوصاف العامة لمدن وقرى جزائرية، والثاني في المشاهد الجغرافية للجزائر، والمبحث الثالث في الأخبار التاريخية.

المبحث الأول: أوصاف عامة لمدن وقرى جزائرية في الرحلات المغاربية

سبق التعريج على منهج الوصف في الرحلات المغاربية، وقد أفضى هذا المنهج على الرحلات جملة من الأوصاف مختلفة بشقّيها الحسي والمعنوي، وعلى شاكلتي النمطين النثري والشعري، وقد نالت "الجزائر" حظّا معتبرا من هذا الوصف، وذلك من خلال وصف الرحالة لمدنها وقراها وصحاريها وما حوته من مناظر ومنشآت وغيرها، وهذا ما سيطلعه علينا هذا المبحث في مطلبيه: الأول في أوصاف المدن والقرى الشمالية للجزائر، والثاني في أوصاف المدن والقرى الصحراوية الجزائرية.

المطلب الأول: أوصاف المدن والقرى الشمالية للجزائر

أغلب وصف الرحالة المغاربة لمختلف المدن والقرى الجزائرية سواء الشمالية أوالصحراوية قد اندرج تحت شقين: الوصف الحسي للمشاهد، والوصف المعنوي الذي خلفته تأثيرا المشاهد في نفسياتهم. وعلى هذا السبيل جاء هذا المطلب في فرعين.

الفرع الأول: أوصاف حسيّة للمدن والقرى الشمالية للجزائر

سبقت الإشارة إلى أنّ الرحلات المغاربية اهتمت بوصف المدن والقرى الجزائرية وصفا حسيا ماديا، ركزّ فيه الرحالة على تسجيل ما رأوه وشاهدوه مباشرة عيانا، وهذا ما سنطلع عليه فيما يأتي:

أولا: أوصاف حسيّة للمدن الشمالية للجزائر

كانت مختلف المدن الجزائرية الشمالية سواء الساحلية منها أو الداخلية ذات جمال باهر مزدانة بالبساتين والمزارع، ومحاطة بالأسوار والحصون والقلاع، وبناؤها منتظم يحوي منازل فاخرة وقصور زاهية، وأسواق منتظمة ودكاكين مصفوفة، وهذه الأوصاف تثبتها نصوص الرحلات المغاربية، سواء الجزائرية أو المغربية.

إذ ترد النصوص الكثيرة في الرحلات الجزائرية التي تصف المدن الشمالية للجزائر وصفا عامّا يشمل كل المظاهر الطبيعية والبشرية للمدينة، ومن خلال هذا الوصف يتبيّن لنا مدى تأثر وإعجاب الرحالة بتلك المدينة، ما يدل على عظمتها ومكانتها، فالورثلاني مثلا نجده يصف عدّة مدن مرّ بها كـ"قسنطينة" التي قال عنها: **"مدينة في وطننا وقاعدة من قواعد بلادنا..، وهي مدينة قوية ليست كبيرة جدا ولا صغيرة أيضا، وعليها سور كبير وفيها أبواب ثلاث..، وفيها أسواق كثيرة، ودكاكين طيبة، ومساجد للجمعة..، وهذه المدينة مبنية على كهف وجرف عظيم يكاد من سقط منه أن يهلك..، وفيها قصبة عظيمة وعسكر من الترك..، ومددها قوي وظلمها كثير..، كثير فيها اللحم والسمن والقمح والتين..، قليلة الفواكه كثيرة المزارع، محصنة تحتها واد كبير وماؤه عذب.."**[1]، كما يصف مدينة "زمورة" أيضا بقوله: **"وزمورة كثير المياه، وأرضها ذات زرع وضرع بلا اشتباه، طعامها جيد، وسوقها عامر مفيد، وفيها برج للنوبة من الترك..، ورزقها رغد وخيرها مدد، قليلة الأشجار، كثيرة الأسفار.."**[2]، فمن خلال وصف الورثلاني للمدينتين يظهر مدى جمالهما الطبيعي الظاهري من خلال البساتين والمزارع المحاطة بهما، وفي نفس الوقت تظهر قوة "قسنطينة"كقاعدة مهمّة من قواعد العثمانيين في "الجزائر" بالإضافة إلى بنائها الرهيب، كما أنّ المدينتين عامرتان كثيرتا المرافق العامّة كالدكاكين والأسواق والمساجد، ذواتا رزق وخير كثير، يرتكز بهما عساكر الترك، وهما محصنتان بالأبراج والأسوار.

كما أنّ الأوصاف الحسية لمختلف المدن الشمالية لـ"الجزائر" قد استوفت حقّها في الرحلات المغربية، وهذا ما أبانت عليه رحلة المكناسي في وصفها لعدّة مدن جزائرية كـ"تلمسان" و"قسنطينة"، فقد كشف وصفه لـ"تلمسان" عن كبرها وشهرتها، وكثرة مياهها وبساتينها وأجنّتها والزيتون والمستغلات[3]، أمّا عن مدينة قسنطينة فوصف كيفية تشييدها وشكل عمرانها، ومميزات أحيائها وشوارعها وأسواقها، فهي مؤسسة على ربوة متوسطة، يسقفون أسطحة بيوتها بالقرمود، ولعله من أجل الثلج، وشدة البرد، وعليها وارد كثير،

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 253/3.

(2) ينظر: المصدر نفسه، 190/1، 191.

(3) المكناسي، الإحراز، ص331.

وعمارة زائدة فلا يكاد الإنسان أن يمشي في داخلها إلا بمشقة من كثرة الازدحام، ويعمر السوق خارج بابها في سائر الأيام، بها رخاء كبير والأشياء موجودة إلا أنها إلى البادية أقرب[1]، كما وصف "البيبان" أيضا بالصعوبة والمنعة فقال: **"ما رأيت أصعب ولا أمنع منها فهي بيبان حقيقية لأن الطريق تمر بين جبال في وسط نهر، وربما تدنو الجبال بعضها من بعض حتى لا يبقى إلا مجرى الوادي في أضيق ما يكون كأنّه الباب، ولو جعلت له دفّة لسدّته..، ومن أجل ذلك سمي هذا المكان البيبان.."**[2]، فمن خلال وصف المكناسي لهذه المدن نخلص إلى عدّة مميزات لها، إذ تميزت المدن الساحلية كـ"تلمسان" بالمزارع والبساتين والعمارة وكثرة الازدحام، مع كثرة الأنشطة البشرية وتنوعها إضافة إلى كثرة الأسواق واكتضاضها بالنسبة للمدن الداخلية كـ"قسنطينة"، مع صعوبة المسالك والطرق بسبب التضاريس الوعرة في بعضها كـ"البيبان".

وكذلك الوزان قدّم هو الآخر مادّة ثرية في وصف الكثير من المدن الشمالية كـ"الجزائر"، و"بجاية"، فمدينة "الجزائر" زمن الوزان المعاصر لبدايات دخول الأتراك كانت كبيرة جدا، وأسوارها رائعة ومتينة جدا مبنية بالحجر الضخم، فيها دور جميلة وأسواق منسقة، لكل حرفة مكان خاص بها، وفيها تتعدد الفنادق والحمّامات، ومن هذه المشاهد الملحوظة جامع ممتاز في غاية الكبر على شاطئ البحر، أمامه ساحة جميلة جدا، ويحيط بهاعدد من البساتين والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه، ويمر قربها من الجهة الشرقية نهر نصبت عليه طاحونات، وفي الضواحي سهول جميلة جدا لا سيما سهل المتيجة[3]، أما "بجاية"فهيمدينة عتيقة بناها الروم، في منحدر جبل شاهق على ساحل "البحر المتوسط" تحيط بها أسوار عالية متينة، ودور جميلة، وفيها جوامع، ومدارس، وحمّامات وفنادق ومارستانات، وكلّها صروح مشيدة حسنة البناء، وأسواقها جميلة منسقة أحسن تنسيق، إلا أنّ المدينة لها عقبات[4]، فالملاحظ من خلال وصف الوزان للمدينتين أنّهما تعبران على جمالهما الطبيعي، وإتقان بنائهما المعماري، وذلك كان قبل مجيئ الأتراك، حيث كانت

---

(1) المكناسي، الإحراز، ص329.

(2) المصدر نفسه، ص329.

(3) الوزان، وصف إفريقيا، 37/2.

(4) المصدر نفسه، 50/2.

مختلف المدن الجزائرية محاطة ببساتين ومزارع، وأنهار وعيون جارية، بالإضافة إلى وجود مختلف المنشآت العمرانية المنسقة والمتقنة البناء، من بيوت وفنادق ومساجد ومدارس، ودكاكين، بالإضافة إلى الأسواق النشطة والمليئة بمختلف السلع المحلية والخارجية.

ويلي بعد هذا وصف التمقروتي لعدّة مدن جزائرية خاصة الساحلية منها، باعتبار رحلته كانت بحرية، منها مدينة "هنين" وباعتبار التمقروتي كثير النقل من رحلات سابقيه فكان وصفه لها على لسان الرحالة "خالد البلوي" الذي قال: **"هنين بلدة نظيرة لا كبيرة ولا صغيرة، جميلة المنظر متوسطة بين الصغر والكبر موضوعة أسفل جبلين بين بحرر، يخفضها ارتفاع قلعة ودار صنعة وأسواق موفورة ومساجد معمورة.."**[1]، فجمال هذه المدينة فرضه موقعها الطبيعي الجذّاب إذ أحيطت بالجبال والأشجار، وزادها البحر بهاء، كما أنّها عامرة بالأسواق والمساجد ومحصنة بقلعة.

ومن خلال وصف الرحلات المغاربية لمختلف المدن الشمالية لـ"الجزائر" نلاحظ الاهتمام الكبير من أغلب رحالة المغرب بكثرة الوصف ودقة الملاحظة وذكر تفاصيل مهمّة عن حالة المدن الموصوفة، في حين ابتعاد بعض الرحالة الجزائريين عن هذا، كالمعسكري الذي نادرا ما يصف لنا جمال مدينة أو قرية، وعلى شاكلته أبو حفص التتلاني الذي ينعدم عنده وصف المدن الجزائرية وقراها، أما الذي وجدناه يكثر الوصف مع مراعاة الدقة وذكر التفاصيل الورثلاني الذي كان تماثل منهجه الوصفي مع منهج الرحلات المغربية، ويعود ذلك بالأساس لتأثره الشديد برحلتي الدرعي والعياشي، فكثيرا من الأوصاف نقلها عنهما مع اعتماده على حسه الجغرافي هو الآخر، كما لا ننفي وجود بعض أوصاف المدن والقرى الجزائرية في بعض الرحلات الجزائرية الأخرى لكنها قليلة مقارنة مع المغربية، والتي غالبا ما تكون عبارة عن أوصاف معنوية كما سنرى في عنصر لاحق.

ثانيا: أوصاف القرى الجزائرية الشمالية

لم تقتصر الرحلات المغاربية على وصف المدن فقط بل تعدّت ذلك إلى وصف القرى والأرياف المنتشرة في مختلف المناطق في الجزائر إلا أنّها وردت بصورة قليلة جدا مقارنة

---

(1) التمقروتي، النفحة المسكية، ص138.

بالمدن، ومن القرى الشمالية التي نالت حضّها في وصف الرحالة الجزائريين كالورثلاني مثلا، قريتي"الجمعة" و"ورجة" التابعتان لـ"بجاية"، فوصفتا بالعظمة وتوفرهما على البساتين والعيون[1].

أما بالنسبة للرحلات المغربية فقد كان نصيب القرى والأرياف في شمال "الجزائر" من الوصف شبه غائب كرحلة المكناسي، والتمقروتي، وكذلك الزياني، وابن زاكور، ماعدا الوزان فإنه كان كثيرا ما يصف بعض القبائل الموجودة بشمال "الجزائر" خاصة المتواجدة بالجبال.

وبالمقابل نجد أوصاف القرى الصحراوية في رحلات مغربية أخرى التي اتخذت من الصحراء الجزائرية طريقا لها، كرحلة العياشي، والدرعي، والحضيكي، وابن الطيب الفاسي كما سنرى لاحقا.

الفرع الثاني: أوصاف معنوية للمدن الشمالية للجزائر

كان لجمال المدن الجزائرية وبهاء المناظر الطبيعية المحيطة بها أثر بالغ في نفسية الرحالة، ما جعلهم يتغنون بها سواء في أبيات شعرية أو في نثر مسجوع ملؤه التعبيرات المجازية والأوجه البلاغية.

فقد اشتملت أغلب الرحلات الجزائرية على عدّة أوصاف معنوية لمختلف المدن الشمالية، فعلى سبيل المثال تُطلعنا رحلة ابن عمار على بعض أوصاف مدينة "الجزائر" إثر نزهته بها مع صديقه المفتي "ابن علي" يقول: **"وتنزهنا مرة ببساتين محروسة بلدنا الجزائر التي هي ريحانة القاطن وسلوانة الزائر...، وقطفنا زهرات الأنس أيما قطف.."**[2]، وقد أردف بعدها وصف صديقه "ابن علي" لنزهتهما التي وردت في قصيدة كان من أبياتها:

والروض قابلنا بوجه مشرق   والزهر حيانا شـــذا ريعانه

وكان صوت البحر صب هائم   غلب البكاء عليه في أحيانه

بعثت بواعث حزنه ريح الصبا   فتراه لا ينفك عن أشجانه[3]

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 62/1، 63.

(2) ابن عمار، نحلة اللبيب، ص40.

(3) المصدر نفسه، ص41.

فمن خلال وصفهما لتلك النزهة يتبين لنا جمال المنظر الطبيعي للبساتين بمدينة "الجزائر" وروعتها الساحرة، المليئة بالأزهار الفواحة بالعطور، والنسيم العليل المنبعث من بحرها الهائم، مما يبعث الفرح والسرور في نفس الزائر لها.

وعلى وجه الوصف المعنوي يقدم لنا الورثلاني وصفا فاحصا دقيقا لمدينة "قسنطينة" في قوله: **"هي بلدة طيبة يستحليها الناظر ويستحسنها المقيم والمسافر، فليست كثيرة الصفاء، ولا بعيدة الجفاء، ولا قوية الوفاء، عامتها بين اعتقاد وانتقاد، وخاصتها بين رغبة وغبطة، وحسد وعناد، لا يتم الفضل فيها ولا ينقص الحال ولا الكمال عند أهل الفضل منها فالسب فيها كثير والقبح واللعنة جار في أسواقها لا يسكن اضطرامها.."**[(1)]، أما ابن إدريس التتلاني فقد أغدق في وصفه على مدينة "البليدة" لحسنها وجمالها، فكان من فيض لسانه عند دخوله إليها أن أنزلها منزلة عروس الإقليم"[(2)]، في حين نجد أن أبا راس المعسكري الذي أوتي لسانا لذقا عجيبا في الإتيان بالسجع المنمّق العجيب التركيب قد أتى على ذكر مدينة "تلمسان" مدحا لها وتفخيما إياها في قوله: **"تلمسان وما أدراك بتلمسان، فبقعة الظل الأبرد ونسيجه المنوال المفرد، وكناش الغيد الخرد، وكرسي الإمارة، وبحر العمارة، ومهوى هوى الغيث الهتون، وخروب التين والزيتون، حيث خندق الجنة تدنو لأهل النار مجانية، وتشرق بشاطئ الأنهار إشراق الأزهار زهر مبانية.."**[(3)]، فوصف المعسكري هنا يفوق كل الأوصاف، باعتباره يستعمل الألفاظ المنمقة بكثرة كما أنه يتصنع في صياغة الأسلوب المليء بالسجع، وبالرغم من ذلك فهو ينبئ بالمكانة التي تحتلها "تلمسان" بين المدن، إذ تزهو بالمباني الفاخرة، كما أنها مركز مهم لدى الحكام، بالإضافة إلى منظرها الطبيعي الخلاب بما حوته من البساتين والبحر وغير ذلك من المشاهد.

وعلى غرار الرحلات الجزائرية اهتمت الرحلات المغربية أيضا بذكر الكثير من الأوصاف المعنوية للمدن الجزائرية الشمالية، فابن زاكور الذي أعجب بمدينة "الجزائر" راح يصفها بـ **"ذات الجمال الباهر التي غصّ ببهجتها كل عدو كافر فلذلك يتربصون بها الدوائر،**

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 358/3.

(2) ابن إدريس التتلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص243.

(3) المعسكري، فتح الإله، ص108.

أبرأني من غليلي ووجدي ما عاينته من روائها العسجدي وبحرها اللازوردي، إذ هي كما قيل:

بلد أعارته الحمامة طوقها   وكساه حلّة ريشه الطّاووس

ما شئت من حدائق كالنمارق، وقصور نوع المحاسن عليها مقصور.."[1]

فهذا الوصف يبرز لنا مدى جمال مدينة "الجزائر" بما فيها من بحر وحدائق وقصور حتى صار يشبهها بالحمامة الجميلة المتزينة بريش الطاووس ذي الألوان الزاهية البديعة التي ترسل في النفس الراحة والفرح والسرور ما يشفي الغليل ويبري العليل ويؤنس الضليل.

وينقل لنا أيضا التمقروتي عدّة أوصاف لمدن جزائرية من مصادر سابقيه، منها الوصف المعنوي لمدينة "بجاية" في بيتين لأحد الشعراء يقول فيها:

بجاية كلها عقاب   المشي في أرضها عقاب

يخفق في طرفها فؤاد   كخرنق صاده عقاب[2]

فمن خلال البيتين نستشف مدى صعوبة العيش في "بجاية" خاصة من الناحية الطبيعية ومشقة المشي فيها والسير عليها، وذلك لوجود الجبال والمرتفعات بكثرة، ويوافقه في هذا الوصف الوزان الذي أكدّ أن بها "عقبات" كما سبق الحديث عنها.

وعلى وجه تناقل الأوصاف فإن التمقروتي يعرض وصف مدينتي "بجاية" و"عنابة" ومدن أخرى مستندا على وصف الرحالة الأندلسي "أبي البقاء خالد البلوي" ففي بجاية يقول: **"بلدة قدرها خطير وذكرها في كلّ زمان يطير وخطّابها من الملوك كثير ومحلها من النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح وسلت عليها من بيض سفاح، يمتد أمامها بسيط أخضر مدى البصر قد أجرى الله فيه مذائب الماء تسقيه، وتضرب في نواحيه، كأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد، محفوفة بالزمرد والعسجد، والبساتين ملتفة الأشجار يانعة الثمار والنهر الأعظم ينساب بين يديها قد انعطف عليها انعطاف السوار، والحدائق تنتظم بحافتيه، وتفيء ظلالها الوارفة عليه، فهي النضيرة الدوح**

---

[1] ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص40.

[2] التمقروتي، النفحة المسكية، ص44.

العطرة الريحان، والروح العذبة الأنهار، الجنية الأزهار، الطيبة الهواء، المشرقة الأضواء، التي أجمعت عليها الأمراء، وسلم لها اللواء، وشيد فيها البناء...، وانتظم فيها من الوادي والبحر، قلادتان على ذلك النحر.."[1]، وينقل عنه أيضا وصفه لمدينة "عنابة" فيقول: **"بونة مدينة مكينة وقلعة حصينة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبيه والنظير في القلاع تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع، قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة، سامية الأرجاء، واسعة الفناء، موضوعة على نسبة حسنة في الاعتدال والاستواء، والمدينة العجيبة كالعروس في ناديها، قد رفلت في درع واديها، وامتنعت بحسامها المسلول من غير الأيام وعواديها، فاتخذت به من المطالب معتصما، وتحلّت في سواره معصما، فلكلّ مقسط نظرة ما اشتهت الأنفس من نعيم ونضرة، نهر هتان يحفه بستان، ومرأى لخواطر الأدباء فتان.."**[2].

من جملة هذه الأوصاف التي أقرتها نصوص الرحلات والتي مزجت بين القدرة على الحسية والمعنوية لدى الرحالة المغاربة فقد أبرزت صورة واقعية مميزة كانت تزخر بها مدن "الجزائر" الشمالية وجمالها وتأثر الرحالة بها وانجذابه لسحرها الطبيعي، وفنّها المعماري، باستثناء بعض الصعوبات التي تتخلل بعض المناظق ووعورتها كـ"بجاية" و"قسنطينة".

المطلب الثاني: أوصاف المدن والقرى الصحراوية

هذا المطلب قسم إلى فرعين هو الآخر؛ تحدّث الفرع الأول عن الأوصاف الحسية للمدن والقرى الصحراوية للجزائر، والفرع الثاني تحدث عن الأوصاف المعنوية للمدن والقرى الصحراوية.

الفرع الأول: أوصاف حسية للمدن والقرى الصحراوية

مثلما جاءت أوصاف حسية للمدن والقرى الشمالة للجزائر، كانت هناك أوصاف حسية ومعنوية للمناطق الصحراوية أيضا في الرحلات المغاربية.

---

[1] التمقروتي، النفحة المسكية، ص45.

[2] المصدر نفسه، ص52.

أولا: أوصاف حسية للمدن الصحراوية

كان الوصف الحسي لمدن الصحراء الجزائرية حاضرا بقوة في أغلب الرحلات الجزائرية،فابن هطال أورد وصف مدينة "الأغواط" على لسان سيده الباي "محمد الكبير" أثناء حصارهم لها فقال: "**إنّ هذه المدينة قد أحيطت بها البساتين والأبراج، وبساتينها كلها مدورة بالسور، فحيطانها متراكمة، وأسوارها متحالفة متكاثرة..**"[1]، وقد وصف أيضا موضع "الخير" فقال: "**وهذا "الخير من الأماكن التي لها بال في أرض الإسلام، من كونه ذا مياه كثيرة وأرض واسعة، وجبال مرتفعة ومدن بهيجة متقاربة، إلا أن بعضها عامر بأهله كقصر العجالة وقصر الرحامنة، وتادمامة، وأكثرها قد خرب وبقي أثر البناء دالا على بانيه..**"[2]، كما أتى الأغواطي على وصف "الأغواط" بالبلدة الكبيرة المحاطة بسور وحولها التحصينات، ولها أربعة أبواب وأربعة مساجد، ويقسمها وادي أمزي الجاري وسطها إلى شطرين، وتوجد شرقيها آثار بلدة قديمة كان أمراؤها مسيحيين، يرى على آثارمشاهدهاالكثير من النقوش، وفي الجهة الشمالية منها جبل صخري ضخم، وقد أعطى أيضا جملة من الأوصاف لبعض المدن الصحراوية منها "عين ماضي" التي تقع غربي "تجمعوت" وهي محاطة بأسوار تشبه أسوار "طرابلس"، ولها بابان عظيمان[3]، كما وصف"ورقلة" بالبلدة الكبيرة جدا ولها سور يحيط بها فيه عدة أبواب، كما أنها تعج بأشجار النخيل، ولها منابع مائية كثيرة وفي نفس الوقت هي عبارة عن سبخة من الملح، أما عن "غرداية" فهي تضم ألفين وأربعمائة مسكن، بما في ذلك المساجد كما أن لها سور وسوق كبير، ومنارتان، وبوابتان في السور[4]،أما الورثلاني في وصفه مدينة "بسكرة" يقدم نص الدرعي مطولا كما هو، وأصل هذا الوصف أخذه الدرعي أساسا عن العياشي، ومضمونه أن بسكرة: " **بلدة كثيرة المياه بين وخلال البيوت، فكل باب عنده ساقية من ماء تجري من ماء حلو كالعسل، ونخلها عظيم وغلتها كثيرة...، وكذا الفواكه خصوصا الزيتون فإنه كثير جدا، وهذه المدينة كانت قاهرة عظيمة البنيان، والجامع الأعظم يدل**

---

(1) ابن هطال، رحلة الباي، ص54.

(2) المصدر نفسه، ص75.

(3) ينظر: الأغواطي، الرحلة، ص87، 88.

(4) المصدر نفسه، ص90، 92.

على ذلك فإنه لا نظير له، وصومعته ما أحسنها وما أوسعها..، غير أنها قد خربت..، وسبب ذلك فتنة بينهم، فأدخلوا الترك فأهلكوها..، وفيها برجان للترك عامران أحدهما في البلد والآخر خارجها.." [1]، كما وصفها وصفا مختصرا من غير نقل فقال: "**فيها من البساتين المنتجة، والأشجار الطيبة والأحوال المزخرفة، والأبنية المشرفة العالية الشامخة المتلطفة..**"[2].

وفي المقابل نجد أنّ الأوصاف الحسية للمدن الصحراوية امتازت بالكثرة في أغلب الرحلات المغربية، منها ما قدّمه الوزان في وصف بلاد "الزاب" بأنّها: "**منطقة واسعة تجمع مدن كثيرة مجاورة للصحراء تشتهر بالأنهار والعيون، من مدنها: بسكرة، طولقة، المسيلة، ومقرة..**"[3]، كما أورد الزياني أوصافا لأغلب المدن الصحراوية كـ"ورقلة" و"بسكرة"،فقال عنهما: "**وعلى سمت الجزائر بأرض الصحراء مدينة ورقلة مدينة أزلية لها سبعة أبواب ولها سور حصين ومحيط به خندق ممتلئ بالماء خلف سورها..، وبالقرب منها في غربيها مدينة بسكرة من حساب عمالة الجزائر وهي من أحسن المدن لكثرة مرافقها وخصبها وتوسطها بين التل والصحراء..**"[4]، أما العياشي فوصف مدينة "ورقلة" بأنّ: "**لها سبعة أبواب وهي في وسط خط من النخل، محيط بها خندق مملوء ماء من كل جهاتها، ولها سور لا يصل إليه أحد إلا من الأبواب..**"[5]، كما وصف "وادي سوف" بأنّها "**خط من النخل مستعرض في وسط الرمل قد غلب على أكثره وفيه بلاد عديدة وماؤها طيب وغزير قريب من وجه الأرض..، وتمرهم من أطيب ثمار تلك البلاد، وسكناهم في زرائب من جريد النخل**"[6]، إضافة إلى وصف الدرعي لمدينة "**بسكرة**" فقد وصفها بـ: "**بسكرة النخل**"[7]، كما نقل عن العياشي قوله: "**هذه المدينة من أعجب المدن وأجمعها لمنافع كثيرة، مع توافر أسباب العمران فيها، قد جمعت بين التل والصحراء**

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 200/1.

(2) المصدر نفسه، 243/1، 246.

(3) الوزان، وصف إفريقيا، 2/ 138.

(4) الزياني، الترجمانة، ص149.

(5) العياشي، الرحلة العياشية، 115/1.

(6) المصدر نفسه، 123/1.

(7) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص139.

ذات نخيل كثير وزرع كثيف وزيتون ناعم وكتان جيد وماء جاري في نواحيها وأرحاء متعددة تطحن بالماء ومزارع حناء إلى غير ذلك من الفواكه والخضر والبقول وكثرة اللحم والسمن في أسواقها"[1]، كما وصف "الأغواط" بأنها: "**بلدة واسعة، ذات الأراضي الواسعة بها محاريث كثيرة، وفواكه متنوعة، غير أنها كثيرة الرياح والرمال..**"[2].

فمن خلال هذه الأوصاف يظهر لنا مدى غنى المدن الصحراوية بمختلف الموارد الاقتصادية مثلها مثل المناطق الشمالية، فهي الأخرى لا تخلو من المزارع والبساتين رغم جفاف أرضها، وهو ما يدل على اعتناء أهلها بسقي الأراضي نظرا لغنا الصحراء بالمياه الجوفية.

ثانيا: أوصاف حسية للقرى الصحراوية

لم تستثن الرحلات المغاربية القرى الصحراوية التي فيها من الأوصاف الشيئ الكثير، ومن بين القرى التي ورد وصفها في الرحلات الجزائرية قرية "المنيعة" التي وصفها الأغواطي في قوله: "**تقع هذه القرية وسط الرمال وليس لها ماء باستثناء ما يجلب من الآبار.., وليس لهذه القرية سور..**"[3]، أما قرية "الخنقة" القريبة من "بسكرة" فعدّها الورثلاني: " **مباركة طيبة ذات نخل وأشجار في وسط واد بين جبلين، وقد قيل أنها تشبه مكة في وضعها وفي البركة.., لها فضل عظيم سيما إظهار العلم فيها..**"[4]، كما وصف قرية "سيدي عقبة"بقوله: "**هذه القرية كثيرة النخل والمزارع، وهي على ماء جار حلو عذب بارد في الصيف، ومع ذلك فهي أرض حارة في الصحراء غير أن ماءها يأتي من الجبال..**"[5].

ولم يقتصر وصف القرى الصحراوية على الرحلات الجزائرية، بل تعدّى ذلك إلى الرحلات المغربية، فمن أوصاف القرى الصحراوية فيها:ما أورده العياشي عن قرى "بني عباس"التي كانت:"**عبارة عن ثلاث قرى متصلة فيها نخل كثير وفاكهة وبساتين وساقية**

---

(1) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص139، نقلا عن العياشي، الرحلة العياشية، 540/2.

(2) الدرعي، المصدر السابق، ص132، 133.

(3) الأغواطي، الرحلة، ص91.

(4) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 252/1.

(5) المصدر نفسه، 243/1، 246.

من الماء العذب، وقرب بني عباس توجد قرية بشير، وهي ذات نخيل وأكثر قرى الوادي تمرا.."[1]، أمّا قرى "توات" التي منها قرية "تسابت" ففيها من التمر أنواع كثيرة، ومن قرى "الدغامشة" قرية "أولاد محمود"، وقرى "أوكيرت"، من بلاد "تجورارن"، وهي قرى كثيرة ذات نخيل جم[2]، وأمّا قرية "القليعة" فوصفها بأنها **"قرية حصينة على حجر صلد في سفح جبل منقطع عنه، وبها آبار كثيرة طيبة الماء ونخيله ليس بكثير"**[3] كما وصف قرية "والا" بأنّها: **"ليس فيها إلا نخلات معدودة يبس أكثرها، وبقيت جدرات تسقي عليها الرياح، وحجرات من جريد النخل، وعرش من الجريد مرفوعة من الأرض مقدار القامة يبس فيها تمر ذلك النخل.."**[4]، كما ذكر الدرعي أيضا عدّة قرى في الصحراء، ومنها قرية "دمت" التي وصفها بقوله: **"قرية على سفح الجبل بها واد يسيل ماء ذات أشجار وأنواع من الفواكه.."**[5]، وقرية "أولاد جلال": **"أكبر قرى الزاب، وهي قرية جامعة، فيها مدرسة للطلبة المهاجرين.."**[6]، وقرية "عمورة": **"على جبل بها فواكه متعددة.."**[7]، ووصف الحضيكي قرية "النخيلة" الموجودة قرب "عين ماضي" بأنها: **"قرية صغيرة فيها مسجد معظم ومحترم.."**[8]، و"سيدي عقبة": **"قرية كبيرة ذات مياه وأشجار.."**[9]، أما قرية "بخموت" القريبة من "عين ماضي" فوصفها ابن الطيب قائلا: **"قرية حافلة مازالت في جلابيب السعة والرفاهية رافلة اشتملت على بساتين وجنان وحدائق أحدقت السرور بكل جنان.."**[10]، و"دمت": **"قرية على سفح جبال عن يمين الذاهب مشرقا في أصل جبالها واد عظيم كثير الأشجار والفواكه والمياه كبير النفع، لما شملته مسارحها من الأنعام**

---

(1) ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 87/1، 88.
(2) المصدر نفسه، 80/1، 81. وتيكورارين تقع في الجزء الشمالي الشرقي من توات.
(3) المصدر نفسه، 111/1.
(4) المصدر نفسه، 107/1.
(5) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص133.
(6) المصدر نفسه، ص138، نقلا عن العياشي، المصدر السابق، 545/2.
(7) الدرعي، المصدر السابق، ص715.
(8) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص83.
(9) المصدر نفسه، ص35.
(10) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص90.

والشـياه.."[1]، ومن هذه الأوصـاف نستطيع القول أن الـرحلات المغربيـة كانـت مهتمـة بوصف القرى الصحراوية أكثر من سابقتها الجزائرية باهتمامها بتفاصيل أكثر عن تلك القرى.

مما سبق نخلص إلىأنّ أوصاف المدن والقرى في الرحلات المغاربية سواء الجزائرية والمغربية لم تفرق عن بعضها كثيرا إلا بعض التفاوت في ورود الأوصاف وقلتها أو غيابها أحيانا وحضورها بقوة أحيانا أخرى، كما نلاحظ اعتماد بعض الرحالة في أوصافه للمدن والقرى على النقل المباشر عن سابقيه، وقد يكون نص الوصف متداول في أكثر من رحلتين.

الفرع الثاني: أوصاف معنوية للمدن والقرى الصحراوية

وردت أوصاف معنوية لبعض المدن والقرى الصحراوية في بعض الرحلات المغاربية لكنها قليلة إذا ما قورنت بالأوصاف الحسية.

ففي الرحلات الجزائرية، وصف ابن هطال مدينة "الأغواط" بشؤمها وقبح أرضها فقال: "**فماؤها حميم وغبارها عميم، فلا توافق كل ذي طبع سليم، فمهما هب ريح ولو نسيم الصبا، إلا وارتفع منها غبار عظيم، وأظلمت منه الأرض، وامتلأ منه الجو طولا وعرضا، ومع ذلك أنه لا نبات فيها تعيش به الدواب ولا شجر بساحتها يكون منه الاحتطاب، وهذا يوجب الانتقال منها والابتعاد عنها..**"[2]،ورغم غلبة الجانب المعنوي على هذا الوصف إلا أنّه تتخلله أوصاف حسية، كما نجد الوصف المعنوي بجانب الوصف الحسي عند الورثلاني عندماوصف قرية "سيدي عقبة" في قوله: "**وقد تشرفت هذه القرية على سائر القرى من الزاب وعلى مدينة بسكرة بهذا الصحابي العظيم افتخاره، والسني أنواره، والعلي أسراره، وهم في عيش هني، وأمد سني...، هذه القرية ليس لها نظير، فهي أحسن ما وجد في البلاد...، وحسنها في المعنى أكثر بالسيد عقبة، وإن كان ليس بصحابي، وإنما سمي صحابيا، لكونه ولد في زمان النبي صلى الله عليه وسلم...، وإنما هو تابعي، لأن من رأى الصحابة تابعي..**"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص93، 94.

[2] ابن هطال، رحلة الباي، ص63.

[3] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 246/1، 250، 251.

وفي الرحلات المغربية وردت بعض الأوصاف المعنوية لمدن صحراوية أيضا، مثل ماجاء في رحلة ابن الطيب الفاسي الذي كان يغلب على وصفه التعبير الأدبي المليء بالسجع، فيحكي عن مدينة "عين ماضي" مادحا ماءها: "**فأصبحنا بعين ماضي..، فأنخنا فيها الرحال..، وأخذنا نتنعم في مائها العذب الفرات، عمّ ماؤها جميع تلك الأرجاء بالانتفاع، وشمل القاع واليفاع..**"[1]، أما "الأغواط" فوصفها بـ: "**البلدة المحمودة الأنجاد الممدوحة الأغواط..، ونزلنا قبالة نخيلهم الباسقة، وقصورهم المتناسقة..**"[2]، كما وصف جمال أرض خصبة مقابلة لمنطقة "سيدي عقبة" قرب "بسكرة" وصفا معنويا رائعا في نصّ حديثه: "**ولمّا تجاوزنا الوادي الذي قبالة سيدي عقبة..، ارتحلنا..، فظللنا سائرين في أرض أخصاب معشبة الأخضاب، مياه غدرانها سائحة وطيور أغصانها صائحة، ونسمات أزهارها فائحة، وجداول أنهارها غدية ورائحة، وجميع نباتاتها وأشجارها حازت أذكى رائحة..**"[3].

ذكرت أوصاف المدن والقرى الجزائرية الشمالية والصحراوية حسيا ومعنويا استخدم فيها الرحالة قدراتهم الحسية والمعنوية وأذواقهم الأدبية ما ينبئ بمدى تأثير جمال المدن والقرى على نفسيات الرحالة، ثم إنّ توافق جملة الأوصاف تدلّ على مصداقيةوواقعية هذه الأوصاف وحالة المستوى التي كانت عليها المدن والقرى الجزائرية.

---

(1) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص89.

(2) المصدر نفسه، ص90، 91.

(3) المصدر نفسه، ص101.

المبحث الثاني: مشاهد جغرافية في الجزائر من خلال الرحلات المغاربية

اهتمت الرحلات المغاربية كثيرا بوصف المشاهد الجغرافية، وهذا ما جعلها تشتمل على مادة وفيرة ترسم صورة عن جغرافية الجزائر آنذاك، وعلى هذه المعطيات من المشاهد فإنّ هذا المبحث تناولها في ثلاثة مطالب: الأول في التضاريس، والثاني في المناخ، في حين تناول المطلب الثالث الغطاء النباتي.

المطلب الأول: التضاريس

تختلف بنية تضاريس الجزائر بين الجزء الشمالي والجزء الجنوبي، فيغلب على تضاريس الجزء الشمالي السهول والجبال والهضاب، كما توجد منها أيضافي الجزء الجنوبي الصحراوي، الذي يتميز بالتربة الرملية يتخللها الحماد، والسباخ، والعروق في بعض المناطق، كما يتوفر كلا من الشمال والجنوب على المسطحات المائية من البحار والأنهار والوديان..، وقد ورد الحديث عن مختلف هذه التضاريس في الرحلات المغاربية، وهو ما تحدّث عنه هذا المطلب من خلال توزيع محتواه على ثلاثة فروع: الفرع الأول خص المسطحات المائية، والثاني المرتفعات، أما الثالث فتحدث عن السهول.

الفرع الأول: المسطحات المائية

من بين المسطحات المائية الموجودة بالجزائر حسب ما جاء في الرحلات المغاربية نجد: البحار والأنهار والأودية.. وغيرها.

أولا: البحار

إذ ورد ذكر مشاهد البحر في بعض الرحلات المغاربية بنسب متفاوتة بين الرحلات الجزائرة والمغربية.

ففي الرحلات الجزائريةذكره ابن إدريس التنلاني عندما تحدث عن دخوله أرض "متيجة" التي منها: "**يسمع هدير البحر وتلاطم أمواجه**"[1]، كما ذكر ذكر بحر "الجزائر" العاصمة عند حديثه عن نزول سفن الإنجليز "**قرب الجزائر في البحر**"[2]، وعند حديث الورثلاني عن مداخيل الجزائر عرّج عن ذكر البحر بقوله: "**مادة البحر في الجزائر أوسع من مادة**

[1] ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص243.

[2] المصدر نفسه، ص244.

البر.."[1]،أما ابن حمادوش فعن خصائص مياه البحر التي ذكرها أثناء حديثه عن ميزان الماء المصنوع من الزجاج قال: **"وماء البحر هو أخف الأمياه..، وماء المطر وبعض الآثار..، أثقل من ماء البحر بسبعة أدراج.."**[2].

وقد ذكر البحر أيضا في الرحلات المغربية التي كانتعلى متن السفينة أو برا، فابن زاكور يصف بحر مدينة "الجزائر" باللازوردي[3]، كما يذكره أيضا المكناسي حينما تحدث عنها وعن تحصيناتها البرية والبحرية، وكرّر ذكره أثناء حديثه عن ضريح "عبد الرحمن الأخضري"الموجود على ساحل البحر[4]، والوزان أيضا ذكر البحر في العديد من المواضع عند وصفه لمدن "الجزائر" الساحلية، فمثلا مدينة "أرشكول"* يحيط بها البحر من كل جانب ما عدا الجنوب، و مدينة "المرسى الكبير" أسسها ملوك "تلمسان" على ساحل البحر المتوسط[5]، أما التمقروتي فذكر بحر مدينة "بجاية"عندما تحدث عنها، وقد نقل وصفها عن "البلوي" كما سبقت الإشارة في نصه: **"وانتظم فيها من الوادي والبحر، قلادتان على ذلك النحر.."**[6].

وذكر البحر في مختلف الرحلات المغاربية كان ممزوجا بين ما هو وصف وما هو عارض في سياق الكلام.

ثانيا: الأنهار

وردت بعض الإشارات تخص الأنهار في "الجزائر" في بعض الرحلات المغاربية.

فمن الإشارات القليلة في الرحلات الجزائرية، ذكر الورثلاني نهر "بريكة" الذي شبّهه بـ"نهر النيل" فقال: **"وفيها نهر جار مثل النيل.."**[7]، وجاء في رحلة الأغواطي ذكر "جبل عمور" الذي ينبع منه نهر كبير مشهور وهو "نهر الخير"[8].

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 355/3.

(2) ابن حمادوش، لسان المقال، 219.

(3) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص40.

(4) المكناسي، الإحراز، 330/2، 331.

*أرشكول: هذه المدينة خربت وبنيت على إثرها تلمسان.ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، 17/2.

(5) المصدر نفسه، 16/2، 31.

(6) التمقروتي، النفحة المسكية، ص45.

(7) الورثلاني، المصدر االسابق، 198/1.

(8) الأغواطي، الرحلة، ص89.

أما في الرحلات المغربية فذكر الأنهار نال حظّه الأوفر منها، حيث ورد ذكر نهر "عنابة" في رحلة التمقروتي الذي أورد وصف "البلوي" لها في أبيات شعرية يقول في مطلعها:

نهر يسيل كما يذوب نضار وتذوب في أيدي السقاة عقار[1]

وكذلك ورد ذكر النهر الموجود في منطقة "البيبان" التي يقع في وسطها نهرعند المكناسي[2]، كما ذكر الوزان عدّة أنهار منهانهر "سوفغمار" الذي يمر بـ"قسنطينة"[3]، ونهر يمر قرب مدينة "الجزائر" من الجهة الشرقية، ونهر يمر قرب "نقاوس" ينبت على ضفافه شجر التين والجوز[4]، أما ابن الطيب الفاسي فقد أشار إلى جمال الأنهار وعذوبة مائها في منطقة قرب "سيدي عقبة"[5].

ومن خلال ما جاء في الرحلات المغاربية يتضح لنا كثرة الأنهار بـ"الجزائر" في ذلك الوقت، والتي لا أثر لها في وقتنا الحاضر كـ"نهر بريكة" التي تعاني الجفاف.

ثالثا: الأودية

لم تستثن الرحلات المغاربية ذكر الأودية رغم صغر حجمها مقارنة بالبحر والنهر.

فالرحلات الجزائرية تذكر العديد من الأودية منها: "الوادي الكبير" الذي بُنيت فوقه مدينة "قسنطينة" من قديم الزمانالذي ذكره الورثلاني[6]، كما ذكر أيضا الواديالقريب من "الزرائب" قرب بسكرة[7]، وذكر الأغواطي "وادي ميزاب"[8]، ويذكرأيضا ابن هطال "وادي الشلف" الذي تصب فيه ثلاثة عيون عندما تحدث عن منطقة "الخير" التي نزل بها أثناء رحلته، وذكر أيضا واد بين جبلين وماءه المالح في منطقة "الرداد"، أماابن إدريس التنلاني

---

(1) التمقروتي، النفحة المسكية، ص52.

(2) المكناسي، الإحراز، ص329.

(3) الوزان، وصف إفريقيا، 55/2.

(4) المصدر نفسه، ص37، 53.

(5) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص101.

(6) ينظر: الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 3/ 253.

(7) المصدر نفسه، 234/1.

(8) الأغواطي، المصدر السابق، ص90.

فذكر الوادي الذي ينزل من منطقة "أم الضلوع" قرب "الأغواط"، بالإضافة إلى "وادي سبقاق" القريب من "عين وزاحة"[1]، وغيرها من الأودية الكثيرة.

كما ذكرت الرحلات المغربيةالأودية بكثرة، فذكر العياشي أودية الصحراء كـ: "وادي الساورة"، و"وادي إيمكيدن" بطريق "ورقلة"، و"وادي جير الكبير" الذي تجتمع إليه السهول من المسافات البعيدة[2]، و"وادي مساعد" بالقرب من "الأغواط"، وهو واد كله ماء وأرضه رخوة[3]، ويذكر كذلك الحضيكي بعض أودية الصحراء كـ: "واد تاخمالت" ذو المياه والأشجار الذي يوجد به عود الآراك بكثرة، و"وادي الشبور الكبير" الجار بالماء صيفا وشتاء فهو يقطع جبلا فيه جبل من الملح[4]، وذكر هذا الوادي أيضا ابن الطيب الفاسي بصورة أخرى من الجفاف وكثرة النباتات والأشجار في جوانبه، وغلبت عليه معادن الملح[5]، كما ذكر "وادي كشطان" الذي ينحدر من جبل المصامدة، و"وادي الحميدات"، و"وادي الحوت" القريب من "الأغواط"[6]، بالإضافة إلى ذكر أودية أخرى في مختلف الرحلات، ذكرت أشهرها.

ومن الملاحظ مما ذكر عن الأودية أن منها الجار بالماء ومنها من لا ماء فيها، وقد يكون منها الغني بالماء العذب الذي يجري طيلة العام ويعتريه بعد ذلك الركود والجفاف ويغلب عليه أحجار الملح وذلك مما لا حظنا في حال "واد الشبور" بين الحضيكي وابن الطيب الفاسي.

وبالإضافة إلى البحار والأنهار والأودية توجد أيضا الخنادق والكثير من المسطحات المائية الأخرى والتي تصغر سابقتها حجما، كالأغادير والسواقي، والعيون وغيرها، التي ورد ذكرها في الرحلات المغاربية.

---

(1) ابن هطال رحلة الباي، ص41، 64، 76.

(2) ينظر: العياشي، الرحلة العياشية،76/1، 78، 107.

(3) المصدر نفسه، 547/2.

(4) ينظر: الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص23، 84.

(5) ينظر: الفاسي، الرحلة إلى مكة ، ص89.

(6) المصدر نفسه، ص93، 103.

فذكر الأغواطي الخندق المحيط بأسوار مدينة "تقرت" في نص حديثه: **"هذه البلدة (تقرت) هي عاصمة المنطقة ولها نفوذ على أربع وعشرين قرية، وهي تحتوي على أربعمائة منزل ومحاطة بأسوار ولها أبواب وهذه الأسوار محاطة بدورها بخندق يمكن مقارنته ببحر من الماء وهذا يتصل بعيون ماء تصب جميعها فيه وعلى هذا الخندق ثلاثة جسور.."**[(1)]. وذكر ابن هطال أن "واد الدهان" غدرانه متسعة جدا، كما ذكر أن منطقة "الحواجب" قرب "تاجمعوت" بها عيون كثيرة وماؤها عذب سائغ للشاربين، وتحته مزارع تسقى منه، و ذكر العيون التي فيمنطقة "الخير" وصفاء مائها وقوة تدفقه وسعة الأرض التي تسقى منه، وذكر أيضا أن منطقة "البيضاء" في جبال "عمور" ذات الآبار الكثيرة السهلة التناول[(2)].

وذكر الرحلات المغاربية للكثير من الأنهار والوديان والسواقي والخنادق والعيون التي مروا بها، يدل على أن الرحالة لا يترك شيئا ملفتا إلا وقد جرّ قلمه في ذكره ووصفه كيف لا وأغلب الرحلات المغاربية كانت حجازية، والحديث فيها عن معاطن المياه كان أمرا ضروريا.

الفرع الثاني: المرتفعات

تتميز "الجزائر" بغناها بمختلف المرتفعات من جبال وهضاب وربى وتلال، وهو ما تترجمه نصوص الرحلات المغاربية كما يأتي:

أولا: الجبال

جاء ذكر بعض الجبال الموجودة بـ"الجزائر" في أغلب الرحلات المغاربية جزائرية ومغربية.

ففي بعض الرحلات الجزائرية، ذكر الأغواطي أنّ ناحية من "الأغواط" كثيرة الجبال، وفي الجهة الشمالية منها جبل صخري ضخم، وعلى الجهة الغربية من "تجمعوت" جبل عال جدا يسمى "جبل عمور" وهناك جبل من الملح بالقرب منه أيضا، كما توجد قرب "متليلي" منطقة "اللفحات" بها جبلان كبيران من الصخور [(3)]، كما ذكر ابن هطال أنّ

---

(1) الأغواطي، الرحلة، ص100.

(2) ابن هطال، رحلة الباي، ص37، 41، 51، 90.

(3) ينظر: الأغواطي، المصدر السابق، ص88، 89.

هناك مكانا يسمى "خنيق الملح" قرب "عين سيدي سليمان" وهذا الجبل كله من الملح إلا أنّ أكثره يظهر في رأي العين أخضر، وذكر أيضا جبل "الخير"وشدّة ارتفاعه، وجبل "راشد" مرتفع أيضا، وجبل الأخضر قرب منطقة "الدبداب"، والجبل المتصل بـ"الأغواط"، وجبل فوق "عين ماضي"الذي كان ماؤه يغذي المدينة(1).

كما ورد ذكر الكثير من الجبال في الرحلات المغربية، خاصة في رحلة الوزان الذي خصّص لها عنوانا سمّاه: "جبال مملكة تلمسان"، ومن الجبال التي ذكرها جبل "مغراوة" الموجود بالقرب من "مستغانم"، وجبل "ونشريس" الذي توجد به كمية كبيرة من معدن التوتيا(الزنك)، كما ذكر وجود عدد لا يحصى من الجبال في شرق سهل مدينة "الجزائر" وجنوبه، وكذلك ذكر جبالا أخرى في شرق "الجزائر"، فمثلا ذكر أن مدينة "بجاية" مبنية في منحدر جبل شاهق، ومدينة "القل" مبنية عند قدم جبل شاهق، وكذلك "قسنطينة" بنيت على جبل شاهق، ومدينة "تبسة" يجاورها جبل كبير(2)، كما ذكرت رحلات أخرى بعض الجبال سواء في الشمال أو في الصحراء، فالعياشي مثلا ذكر أنّ قرية "القليعة" في أعماق الصحراء الجزائرية توجد على حجر صلد في سفح جبل(3)، وبلاد "الزاب" بالقرب من "أولاد جلال" يوجد بها ما يسمى بـ"الخرزة"، وهي: **"في الجبل تسمى خرزة البطم...، وفي الجبل خرزات متعددة، والخرزة في لغتهم اسم لكل فرجة في الجبل يخرج منها طريق.."**(4)، وذكر ابن الطيب العديد من الجبال مثل جبل "المصامدة" الذي ينزل منه "وادي كشطان"، وجبال قرية "دمت" في أصلها واد عظيم(5).

فالجبال في الرحلات الجزائرية جاء ذكرها بطريقة عفوية غير مقصودة. أمّا في الرحلات المغربية وبالضبط في رحلة الوزان جاءت بطريقة منهجية، أي أن الوزان خصص لها جزءا مهمّا من كتابه.

---

(1) ينظر: ابن هطال، رحلة الباي، ص39- 68.

(2) ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، 2/44-64.

(3) ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 1/ 111.

(4) المصدر نفسه، 2/545.

(5) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص93، 103.

ثانيا: الهضاب والربى والتلال

إضافة إلى الجبال وردت بعض الإشارات إلى المرتفعات الأقل من الجبال كالتلال والهضاب والربى في بعض الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية جاء ذكر الهضاب في رحلة الأغواطي من خلال حديثه عن وجه الأرض في "متليلي" التي هي عبارة عن هضاب مغطاة بصخور حادة تقطع كالسكاكين، كما تقع هضاب وادي "مزاب شرقي متليلي"[(1)].

وفي الرحلات المغربية ذكر التمقروتي هضاب مدينة "الجزائر" التي نقل وصفها عن البلوي بقوله:"**مدينة أقسمت بعلو هضابها ألا يفوز مبسم الثريا بشرف رضابها..**"[(2)]، وذكر الربى ابن الطيب الفاسي وجود ربوتان تسمى "البوقيات" "وهما ربوتان عظيمتان كأنهما شبهتا التوأم الذي يولد مع أخيه في بطن واحد لشدة تقاربهما وتماثلهما"[(3)]، وهاتين الربوتين في الطريق إلى "سيدي خالد" من جهة الغرب.

أما عن التلال فلم تهتم الرحلات المغاربية بذكرها إلا نادرا جدّا،ومن بين الإشارات التي وردت بشأنها ذكر العياشي لأحد التلال الموجودة بأرض قرب "القليعة": "**في طريق بأسفل واديها وفيها تل في بسيط من الأرض**"[(4)].

تمثل جملة النصوص التي أوردها الرحالة المغاربة في وصفهم الهضاب والربى والجبال والتلال قطعة تكمل اللوحة الجغرافية التي كانت تمثل واقع الجزائر في تلك الفترة.

الفرع الثالث: السهول

السهول في الجزائر على نوعين كما هو معروف، سهول في المناطق الشمالية الساحلية والداخلية، وسهول في الصحراء كما جاء في الرحلات المغاربية.

أولا: السهول الشمالية

من أشهر السهول في الجهة الشمالية للجزائر التي ورد ذكرها في الرحلات المغاربية نجد على رأسها سهول "متيجة".

---

(1) ينظر: الأغواطي، الرحلة، ص90.

(2) التمقروتي، النفحة المسكية، ص130.

(3) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص94.

(4) العياشي، الرحلة العياشية، 112/1.

فقد وردت الإشارة إليها عند ابن إدريس التتلاني في رحلته إلى "الجزائر العاصمة"، فذكر خروجه من "البليدة" ودخوله أرض "متيجة" التي هي عبارة عن سهول ممتدة في مسافات كبيرة[1].

وفي الرحلات المغربية ذكر الوزان أضا سهل "متيجة"الذي يعد أشهر السهول في "الجزائر"، ويبلغ طوله حوالي خمسة وأربعين ميلا وعرضه ستة وثلاثين ميلا، كما ذكر العديد من السهول المتواجدة في المناطق الشمالية للجزائر منها: الجهة المجاورة لـ"تلمسان"فكلها سهل مع بعض المفازات، كما ذكر أيضا السهول المحيطة بمدينة "نقاوس"[2]، وغيرها من السهول الشاسعة المنتشرة في مختلف مناطق "الجزائر".

ثانيا: السهول الصحراوية

توجد السهول أيضا في الصحراء الجزائرية كتضاريس خاصة بهذا الجزء الجنوبي، إذ تتميز الصحراء بأراضيها الواسعة، فتتنوع فيها التضاريس بين سهول رملية، وحصوية، والسباخ، وكلها ذكرت في الرحلات المغاربية.

فمن طرف الرحلات الجزائرية ذكر الأغواطي أرض "ورقلة" ووصفها أنّها عبارة عن سبخة من الملح، أما جنوبها فكله رمال لا نهاية لها، وأشار أيضا إلى وجود سبخة بـ"تقرت"[3].

كما ورد الحديث عن هذه السهول الصحراوية في مختلف الرحلات المغربية التي شقت طريقها وسط الصحراء، فالوزان يذكر السهول الصحراوية في سياق حديثه عن صحراء "أنكاد" التابعة لمملكة "تلمسان" في ذلك العهد فقال: **"تبتدئ مملكة تلمسان غربا في سهل قفر وعر يابس لا ماء فيه ولا شجر.."**[4]، كما أورد العياشي السهول الرملية، فذكر كثرة الرمال ببلاد "أوكرت"، أما قرية "والا" فعرفت بكثرة الرمال، ويقول في "ورقلة":**"يحار النظر في كثرة رملها وصعوبتها"**[5]، أما "الأغواط" فاشتهرت أيضا بالسهول الرملية الواسعة، فقد

---

[1] ابن إدريس التتلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص243.

[2] الوزان، وصف إفريقيا، 10/2، 37، 53.

[3] الأغواطي، الرحلة، ص92، 101.

[4] الوزان، المصر السابق، 11/2.

[5] ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 80/1، 107.

ذكر ابن الطيب كما نقله عن أرباب الرحل أنها: "**بلدة واسعة ذات أراضين واسعة..، غير أنها كثيرة الرياح والرمال، حتى قيل أن الرياح ذهبت بقرية من قراها بأهلها وطمست عليها الرمال ولم يبق لها أثر..**"[1]، ومن مميزات السهول الصحراوية وجود الحماد، والسباخ، فقد ذكر العياشي الحماد الموجود في عدة مناطق في صحراء "الجزائر" أيضا منها: "الحماد الكبير" الذي تتخلله طريق "صابر" وتنزل على "مزعمو"، والحماد الذي بين "توات" و"وادي الساورة"، كما ذكر "الحماد الكبير" القريب من "ورقلة"، ففي وصفه لها ذكر أنها:"**أرض جرداء حرشاء لا علم فيها..، أرض كأنها المحشر ومحل المنشر، إلا أنها ليست بيضاء ولا نقية بل سوداء شقية لا تسمع فيها إلا همسا، ولا يسلك الدليل فيها إلا حدسا..، أرض مزقت من حروشتها النعال، وآلمت أخفاف الإبل وحوافر البغال، أرض صفصف قاع، هي فيما رأينا شر البقاع..**"[2]، والحماد يسمى أيضا المفازة، وقد تحدث ابن الطيب عن المفازة الحجارية ووصف صعوبتها وقساوتها فقال: "**قال جماعة من أرباب الرحل قد أجمع الحجاج وصح عندهم أنه لا يسلكها ركب إلا ويضع فيها أرمى أو غيره، وجرى على ألسنتهم لابد أن تأخذ هذه المفازة شابها..، وقد مات لنا فيها رجل من الركب..**"[3]، في حين ذكر الدرعي مفازة "وادي سيدي خالد" وهي: "**مفازة عظيمة في أرض وعرة حرشة معطشة مخوفة تيهاء، وصح عند الحجيج أنها لا يسلكها ركب إلا ويضيع**"[4]

فمن خلال نصوص الرحالة يتضح تنوع التضاريس بالجزائر من سهول وجبال وهضاب وتلال، كما أن الرحالة لم تفتهم ملاحظة هذه التضاريس المختلفة فقاموا بتسجيل خصائصها وبعض التفاصيل عنها، خاصة عند رحالة المغرب، الذين كانوا مهتمين أكثر بوصفها وتحديد مكانها وبعض مقاساتها لتكون معلومات وافية لغيرهم من الرحالة خاصة الحجاج منهم.

---

(1) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص90.

(2) ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 78/1، 113، 114.

(3) الفاسي، المصدر السابق، ص94.

(4) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص135.

المطلب الثاني: المناخ

هذا المطلب ركّز حديثه عن أهم المظاهر المناخية التي ورد ذكرها في الرحلات المغاربية، وكان ذلك في ثلاثة فروع: الفرع الأول في الفصول الأربعة، والفرع الثاني في الأحوال الجوية، أما الفرع الثالث ففي خصائص التربة.

الفرع الأول: الفصول الأربعة

لم يرد الحديث عن الفصول الأربعة وما يتعلق بها من مظاهر مناخية مفصلا أوموضوعا دقيقا مستقلا في حدّ ذاته عند الرحالة المغاربة وإنما وردت إشارات تخص الفصول مقرونة بمظاهر كل فصل من فصول السنة.

ففي الرحلات الجزائرية مثلا ارتبط فصل الربيع بالأزهار والورود كما ورد ذلك في رحلة ابن عمار، وارتباط فصل الشتاء بنزول الأمطار والثلوج كما ورد ذلك في رحلة الورثلاني ورحلة محمد الكبير، أما رحلة الأغواطي فارتبط ذكر الفصول بزمن الحرث والزراعة في بعض المناطق الصحراوية.

فعن فصل الربيع في رحلة ابن عمارفقد جاءعبارة عن قصائد تغنّى بها ابن عمار وصديقه المفتي "ابن علي" في وصفهما لجمال الربيع في مدينة "الجزائر" وهما يتجولان بين رياضها، حيث يقول "ابن علي" في قصيدته:

هذا وقد بسط الربيع بساطه والمسك ينفج من نوافج بانه
ومن الشقائق روضة مطلولة من كل ساق راق في ميلانه(1)

وفي نفس القصيدة يعبر عن سعادته بالربيع فيقول:

بعثت أرائجه السلو لخاطـــري فتخلص المحزون من أحزانـه
أم روضـــة غناء راق رواؤها خلع الربيع بـــها حلى ألوانـــه
وبدا لذق الطير فوق غصونه شدو يثار الوجد من ألحانــــه
وجرى بهاتيك الجداول ماؤها فبدا انسياب الرقط من جريانه
وتفتقت أكمامها عـــن زهرها فتعطر المضمار من ريعانـه(2)

(1) ابن عمار، نحلة اللبيب، ص43.

(2) المصدر نفسه، ص45.

وعن فصل الصيف والخريف وردت إشارات في رحلتي الورثلاني وابن إدريس التنلاني، فالورثلاني ذكر الصيف والخريف في سياق حديثه عن بادية "قصر الطير" القريبة من "زمورة"، فهي دائمة الخضرة على حدّ تعبيره حتى في فصلي الصيف والخريف[1]، وأشارإلى الصيف أيضا عندما ذكر أن الماء بـ"بسكرة"يجريحتى في الصيف[2]، أما ابن إدريس التنلاني فأشار إلى الخريف عندما تحدث عن واقعة الحملة الإنجليزية على "الجزائر "[3].

كماأشار الأغواطي أيضا إلى فصلي الخريف والربيع دون ذكرهما في سياق حديثه عن زمن الحرث في تقرت في قوله: "**وزمن الحراثة في ناحية تقرت هو شهر أكتوبر وشهر مايو..**"[4]، كما أشار أيضا إلى فصل الشتاء دون ذكره أيضا في سياق حديثه عن زمن التجارة بين "توات" و"السودان" في قوله: "**تبدأ القوافل من السودان رحلتها في بداية السنة فقط، ففي هذا الفصل يجتمع التجار في عدد كبير بهدف السفر مع بعض..**"[5]، ومن المؤكد أنه يقصد بداية السنة شهر "جانفي"، وهو في فصل الشتاء، لأن الأغواطي يتبع في رحلته الحساب الميلادي لا الهجري، ونجد ورود الإشارة إلى فصل الشتاء عند الباي محمد الكبير في رحلته إلى الصحراء الجزائرية، حيث ذكر ابن هطال أن الباي خرج في شهر ربيع الأول عام 1199هـ، ولم يذكر في أي فصل، وهو الموافق لشهر جانفي عام 1785م[6]، وهو فصل الشتاء، ومما يدل على ذلك ذكره لنزول الأمطار والثلوج وشدّة البرد في بعض المناطق الصحراوية خاصة الجبلية منها في هذا الفصل، كما سنوضح في العنصر القادم الخاص بأحوال الجوّ.

وكذلك في الرحلات المغربية لم يرد الحديث عن الفصول مباشرة ، لكن وردت هناك بعض الإشارات الخفيفة عن بعض الفصول في بعض الرحلات، فعن فصل الشتاء ذكر

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 195/1.

(2) المصدر نفسه، 246/1.

(3) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص246.

(4) الأغواطي، الرحلة، ص101.

(5) المصدر نفسه، ص95.

(6) ينظر: ابن هطال، رحلة الباي، ص35، 36.

الوزان في سياق حديثه عن مدينة "عنابة" وتجفيف ثمار العناب وادخاره ليؤكل في فصل الشتاء[1]، وذكر الزياني رحلته من "الجزائر" إلى "قسنطينة" الذي كان في فصل الشتاء[2].

أما عن فصل الربيع فذكره ابن الطيب الفاسي في سياق حديثه عن منطقة قريبة من "سيدي عقبة" التي أعجب بجمال طبيعتها الخلابة خاصة وهي في فصل الربيع فتلك **"أرض معشبة الأخصاب، مياه غدرانها سائحة، وطيور أغصانها صائحة ونسمات أزهارها فائحة، وجداول أنهارها غدية ورائحة، وجميع نباتاتها وأشجارها حازت أذكى رائحة.."**[3]، وأنشد يمدح الربيع في قصيدة من أبياتها:

ورد الربيـــــع مرحبا بـورده وبنور بهجته ونور وروده

وبحسن منظره وطيب نسيمه وأنيق مبسمه ووشى بروده

فصل إذا افتخر الزمان فإنه إنسان مقلته وبيت قصيده[4]

وأما عن فصل الصيف فورد الحديث عنه في رحلتي كل من الدرعي والحضيكي، فالدرعي لم يذكر اسم الفصل صراحة، وإنما ذكر شهرا من شهوره وهو "أوت" أو كما يسمونه"غشت"، حين تقلبت الأحوال الجوية في طريق عودتهم من الحج وهم قرب "بسكرة" فهبّت رياح عواصف ونزلت الأمطار في ذلك الشهر[5]، أي أنّه في عزّ فصل الصيف، كما وردت الإشارة إلى فصل الصيف أيضا في رحلة الحضيكي الذي تحدث عن جريان "واد الأشبور" حتى في فصل الصيف[6].

والملفت للانتباه في ذكر الرحلات المغاربية للفصول أنّ فصل الربيع هو الذي نال حظه الأوفر من الوصف، وما ذلك إلا لبهجة المناظر وزينة الطبيعة والاخضرار الذي تروق له نفس الرحالة وتنجذب إليه، فهذا التأثير لجمال الطبيعة هو الذي حرك قلم الرحالة ليخط تعبيرا عن هذا التأثر.

---

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 61/2.

(2) الزياني، الترجمانة، ص151.

(3) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص101.

(4) المصدر نفسه، ص101.

(5) ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 709/2، 711.

(6) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص84.

الفرع الثاني: الأحوال الجوية

أعنـي بـالأحوال الجويـة كـل الظـواهر الطبيعيـة المتعلقـة بـالجو كنـزول الأمطـار والثلـوج، وهبـوب الريـاح، وكـذلك درجـات الحـرارة، مـن بـرد وحـر، وغيرهـا مـن المظـاهر المناخية، التي ورد الحديث عنها أو الإشارة إليها في مختلف الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية ذُكر ما يتعلق بمظاهر فصل الشتاء من نزول الأمطار والثلوج والبـرد والريـاح الشديدة، التـي تحدث عنها ابـن هطـال حين أقـام البـاي فـي مكـان يسمى "القطيفـة"، وذلـك **"لكثـرة نـزول الأمطـار وشـدّة الوحـل"**[1]، وهـو فـي طريقـه إلـى أعمـاق الصحراء، فلما نزل مكانا اسمه "الخير" نزل الكثير من الثلج، كما أصابهم الثلج أيضا وهم في طريق العودة من الرحلة في قرب "عين وزاحة" حتى غطّى السهل والجبل، ونزل أيضا وهم قرب منطقة "الحليات" في طريقهم إلى "معسكر" إذ قوي نزول الثلج واشتدّ البرد وتحرك الريح[2]، وعن سقوط الأمطار والثلوج أيضا تحدث الورثلاني، فأثناء حديثه عن "بني يعلي" وبلدة "زمورة"ذكر أنّه يكثر فيها الثلج ويكثر معه الزيتون بها[3].

ومما يتعلـق بـدرجات الحـرارة والبـرودة، فقد ورد الحـديث عـن ذلـك فـي بعـض الـرحلات الجزائرية، ومن ذلك ما أورده ابن هطال عن البرد الشديد في جبال "الخير" التي أقاموا بها والتي نزل بها الثلج بكثرة، فذلك الجبل شديد البرد حتى شبهه بجبال "التل" وأكدّ أنه أشدّ بردا منها في بعض الأوقات[4]، أما عن حرّ الجوّ فقد تحدث الورثلاني عن ارتفاع درجة الحرارة في "بسكرة" حين وصفها بأنها أرض حارة في الصحراء[5]، وعلى هذا المنوال ذكر الأغـواطي ارتفـاع درجـة الحـرارة فـي "منـاطق خاليـة بالصـحراء بـين "عمـيش" و"غـدامس" فقال: **"ولا يعـيش فـي هـذه الأرض لا الـذئب ولا النمـر ولا الأسـد، وذلـك راجـع إلـى شـدة الحرارة والعطش وليس فيها من الحيوانات سوى النعام وبقر الوحش"**[6].

---

[1] ابن هطال، رحلة الباي، ص43.

[2] المصدر نفسه، ص43، 76، 89.

[3] ينظر: الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 191/1.

[4] ابن هطال، المصدر السابق، ص43، 44.

[5] ينظر: الورثلاني، المصدر السابق، 251/1.

[6] الأغواطي، الرحلة، ص97.

وأما في ما يتعلق بالرياح والعواصف فهي الأخرى وردت بعض الإشارات إليها، ومن ذلك ما ذكره ابن هطال عن هبوب الرياح والزوابع الرملية في "الأغواط" حينما قال: **"فماؤها حميم وغبارها عميم...، فمهما هب ريح ولو نسيم الصبا، إلا وارتفع منها غبار عظيم، وأظلمت منه الأرض، وامتلأ منه الجو طولا وعرضا.."**[1] ، كما ذكر اشتداد الرياح الباردة عليهم وهم في منطقة "الحليات" في طريق العودة إلى "معسكر" فقال: **"وتحرك الريح بعد سكونه وعربد.."**[2].

كما أن الرحلات المغربية لم تغفل الإشارة إلى بعض أحوال الجوّ في "الجزائر" في مختلف المناطق والأوقات، ومن تلك الخصائص درجات الحرارة سواء البرد أو الحرّ، ونزول الأمطار والثلوج، بالإضافة إلى هبوب الرياح والعواصف الشديدة في الصحراء، وقد ذكرت بعض الإشارات منها فقط.

فعن الأمطار والثلوج والبَرد ذكر العياشي نزولهاوذلك في طريق عودتهم بقرب "الأغواط" فقال: **"أرعدت السماء وأبرقت وأرخت غزاليها بماء غزير وبرد منع الناس من المسير.."**[3]، كما نزل المطر عليهم أيضا في طريقهم إلى الحج وهم في "تقرت" وساعدهم ذلك كثيرا في اجتياز الرمال إلى "وادي سوف"[4]، أما الدرعي فذكر نزول الأمطار عليهم مع حبات البرد، أثناء طريق العودة من الحج قرب منطقة "سيدي عقبة" فقال: **"أرعدت وأبرقت وأمطرت مطرا شديدا... وعادت المطر ونزل معه البرد.."**[5]، في حين ذكر التمقروتي الثلوج عند حديثه عن مدينة "عنابة" فنقل عن "ابن عبد ربه" قوله: **"ويطل على بونة جبل كثير الثلج.."**[6]، كما تحدث المكناسي عن نزول الثلوج في "قسنطينة"، حين ذكر بأنّ أهلها يسقفون أسطحة بيوتهم بالقرميد من أجل الثلج[7].

---

[1] ابن هطال، رحلة الباي، ص63.

[2] المصدر نفسه، ص89.

[3] العياشي، الرحلة العياشية، 546/2.

[4] المصدر نفسه، 122/1، 123.

[5] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص709.

[6] التمقروتي، النفحة المسكية، ص38.

[7] المكناسي، الإحراز، ص329.

أما عن انخفاض درجات الحرارة، فمن الطبيعي أن يكون ذلك في فصل الشتاء، وأثناء نزول الأمطار والثلوج، فقد ذكر ذلك المكناسي حينما وصف "قسنطينة" بشدة البرودة بسبب الثلج[(1)]، وكذلك تكون البرودة شديدة في مرتفعات الجبال، وذلك ما تحدث عنه الوزان، فذكر البرد الشديد في بعض الجبال منها جبل "مطغرة"[(2)]، أما الحرارة فتشتد كلما اتجهت جنوب الجزائر خاصة في الصحراء القاحلة حيث لا ماء ولا نبات في بعض المناطق منها.

أما عن هبوب الرياح والعواصف فقد ورد في بعض الرحلات أنّ "الأغواط" مشهورة بالرياح، وقد ورد ذلك في نص ابن الطيب الفاسي أنها كثيرة الرياح والعواصف، وقيل أنّ الرياح ذهبت بقرية من قراها[(3)]، وتأكيدا لهذا الواقع نجد الدرعي قد وصف "الأغواط" بشساعة أراضيها وكثرة الرياح المصحوبة بالرمال، وقد تلقى خبر ذهاب الرياح بقرية كاملة فلم يبق لها أثر[(4)]، كما ذكر العياشي أنّهم صادفوا في الصحراء الجزائرية عند خروجهم من بلادهم **"ريحا باردا كأنّه من نفس جهنّم وارد"**[(5)]، وذكر أيضا عواصف الرمال التي لحقت بهم في عدة مناطق من صحراء "الجزائر" منها ريح عاصف لم يروا مثلها في طريقهم إلى "القليعة"، والريّاح الباردة التي صادفتهم في طريق بين "ورقلة" و"تقرت" حيث بلغت قوة الرياح وتطاير الرمال لدرجة أصبح الرجل لا يكاد يرى من بجنبه، وقد ذكر العياشي أنّ ذلك اليوم إحدى الأيام البُهم، أي التي لا ضوء فيها[(6)]، وزيادة على خطورتها أضاف ابن الطيب في "سيدي عقبة" أيضا وصفا لها إذ قال: **"أصابنا عاصف من الأرواح كاد أن يذهب الأجسام، يزهق بالأرواح وملأ الوجوه والعيون غبارا.."**[(7)].

---

(1) المكناسي، الإحراز، ص329.

(2) الوزان، وصف إفريقيا، 43/2.

(3) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص90.

(4) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص132، 133.

(5) العياشي، الرحلة العياشية، 76/1.

(6) ينظر: المصدر نفسه، 111/1، 119.

(7) الفاسي، المصدر السابق، ص95.

ومن خلال ما ورد في الرحلات المغربية فإن الصحراء الجزائرية تتميز بكثرة الرياح وشدّة العواصف في مختلف الأوقات.

الفرع الثالث: خصائص التربة

أعني بخصائص التربة نوعيتها واختلافها بين المناطق الشمالية والجنوبية، أي خصوبتها وجفافها، ولونها.. وغيرها من الخصائص.

وقد وردت بعض الإشارات إلى نوعية التربة في بعض الرحلات الجزائرية، منها ما ذكره الورثلاني في حديثه عن الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة، فعند حديثه عن بادية "قصر الطير" أشار إلى خصوبة تربة هذا المكان لذلك هو دائم الخضرة في كل الفصول[1]، ومن أنواع التربة أيضا هناك التربة الرملية الصحراوية، ففي الصحراء مناطق رملية ليس بها حجارة ولا نبات، وقد تحدث الأغواطي عن الأراضي بين "ورقلة" و"غدامس" فقال: **"وجميع هذه النواحي عبارة عن مساحات شاسعة من الرمال ولا وجود فيها لحجر أو هضبة ماعدا كثبان الرمال"**[2]، ويضيف في وصف الرمال بين "**عميش**" و"**غدامس**" أيضا: **"والأرض الواقعة بينهما عبارة عن خلاء كامل..، وليس فيها قرية ولا ماء، ولا تختلف عن بعضها لا بهضاب ولا بصخور، ولا يرى المشاهد فيها سوى كثبان الرمال بلا نهاية.."**[3]، وتخلو الحياة على ظهر هذه الأراضي الرملية الشديدة الجفاف.

وتتنوع التربة في الأراضي الجزائرية أيضا حسب الرحلات المغربية بين التربة الخصبة الصالحة للزراعة، والتربة الجبلية غير الصالحة للزراعة، وكذلك التربة الرملية الجافة، وقد وردت إشارات إلى هذه الأنواع من التربة في رحلة الوزان الذي تحدث عن مختلفها، فعن التربة الخصبة الصالحة للزراعة ذكر تربة جبل "ونشريس" الجيدة، وتربة "قسنطينة" أيضا الجيدة الخصبة[4]، أما عن التربة الجبلية غير الصالحة للزراعة فذكر تربة "بجاية" فهي غير خصبة ولا تستطيع أن تنتج حبوبا، وكذلك حال تربة تبسة على حدّ تعبيره، أما عن التربة الجافة خاصة الرملية فأشار إليها في سياق حديثه عن جفاف معظم أقاليم مملكة

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 195/1.

(2) الأغواطي، الرحلة، ص96.

(3) المصدر نفسه، ص97.

(4) الوزان، وصف إفريقيا، 9/2، 11، 45، 50، 56، 64.

تلمسان لاسيما الجزء الجنوبي منها، حيث ذكر أنها تبتدئ غربا في سهل قفر وعر ويابس، وذلك دليل على جفاف التربة فيه، كما ذكر العياشي جفاف تربة "الحماد الكبير" الذي وصف أرضه بالجرداء الحرشاء السوداء الشقية(1).

أعطت الرحلات المغاربية صورة عن المناخ بالجزائر وإن ارتفع مستوى المعطيات في بعض الرحلات وانخفض في أخرى، إلا أنها معلومات جدّ مهمة كانت هي الأخرى عاملا مؤثرا في نفسية الرحالة منها ما أبهجت نفسه ومنها ما نغصت عليه جوّ رحلته.

المطلب الثالث: الغطاء النباتي

هذا المطلب يعرفنا على مدى اهتمام الرحلات المغاربية بذكر الغطاء النباتي في الجزائر، من خلال توزيع مادته على فرعين: الفرع الأول تحدث عن الغطاء النباتي في الشمال الجزائري، والفرع الثاني في الغطاء النباتي في الجنوب الجزائري.

الفرع الأول: الغطاء النباتي في الشمال الجزائري

ورد الحديث عن الغطاء النباتي في المناطق الشمالية من الجزائر في مختلف الرحلات المغاربية.

ويظهر ذلك عند أغلب الرحالة الجزائريين في إطار حديثهم عن البساتين والمزارع والحدائق –كما سيأتي الحديث عنها في عنصر لاحق– وأمّا ما يخص الغابات والأشجار الكثيرة، فقد تحدّث أبو راس عن وجود غابات كثيفة بالقرب من نهر "هونت" الذي يوجد بقربه مشهد جده "الولي الصالح سيدي عبد العظيم"، كما ذكر وجود أشجار العرعار أثناء حديثه عن بناء أحد أجداده لمصلى تحت شجرة عرعار في بلده "معسكر"(2)، كما ذكر الورثلاني كثرة الأشجار في بلده "بجاية" فهي كثيرة الشجر إلا اللّيم والنّخل فليس فيها حسب قوله(3).

وإضافة إلى كثافة الغابات وكثرة الأشجار والمزارع والبساتين في المناطق الشمالية بالجزائر، توجد أيضا أنواع مختلفة من الأعشاب البرية تحدّث عنها ابن حمادوش الذي كان عشّابا ماهرا وطبيبا، فكان ذا علم بالأعشاب وخصائصها لصناعة الأدوية، ومما

---

(1) العياشي، الرحلة العياشية، 113/1.

(2) ينظر: المعسكري، فتح الإله، ص27.

(3) ينظر: الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 191/1.

ذكر أنّه خرج ذات يوم مع بعض الإخوان إلى جبل "بومعزة" تحت "بوزريعة" لقطع عشبة "الأفثمون" لاستعمالها في الصيدلة[1]، كما ذكر خروجه أيضا مع العشّاب المشهور في مدينة "الجزائر" السيد "محمد كحنجل" للبحث عن الأعشاب[2]، وهو ما يدل على كثرة الأعشاب في غابات مدينة "الجزائر" وجبالها، وكذلك الشأن بالنسبة لأغلب المدن الشمالية الأخرى ساحلية وداخلية.

أما عن الغطاء النباتي في المناطق الشمالية للجزائر حسب الرحلات المغربية، فوردت إشارات كثيرة تخص ذلك، سواء الغابات أو البساتين والحدائق أو المزارع والأعشاب والنباتات البريّة، فعن الغابات تحدّث الوزان الذي ذكر وجود الغابات في بعض الجبال الشمالية لـ"الجزائر"، مثل جبل "بني يزناسن" القريب من "تلمسان" الذي تكسوه غابات كثيرة، وكذلك جبال "بجاية" كلها مكسوة بغابات كثيفة، كما تكثر الأشجار المثمرة في بعض الجبال مثل جبل "مليانة" الذي تكسوه أشجار "الجوز" لدرجة أنّه لا يشترى ولا يقتطف لكثرته، كما تكثر أشجار الخروب في جبال "تلمسان" خاصة جبل "يزناسن" السابق، وجبل "مطغرة"، وكذلك جبل "ولهاصة"[3]، وإضافة إلى ذلك توجد البساتين والحدائق، التي ذكرها الوزان أيضا ومنها مدينة "الجزائر" التي تحيط بها البساتين والأراضي المغروسة بمختلف أشجار الفواكه، كما توجد في مدينة "قسنطينة" في السهل على طول النهر بساتين في غاية الجمال، وكذلك مدينة "بجاية" يحيط بها عدد لا يحصى من الحدائق العامرة بالأشجار، ومدينة "نقاوس" أيضا تكثر فيها الحدائق إذ توجد بكل دار حديقة مليئة بمختلف الأزهار و الكروم المعروشات، كما تكثر في هذه المدينة أيضا أشجار الجوز والتين مثلما تكثر في "جيجل" و"تبسة"[4]، كما ذكر ابن زاكور أيضا

---

(1) ابن حمادوش، لسان المقال، ص120.

(2) المصدر نفسه، ص164.

(3) ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، 2/35، 43، 44، 51.

(4) ينظر: المصدر نفسه، 2/37، 50، 52، 53، 57، 63.

وجود الحدائق في مدينة "الجزائر" ففي وصفه للمدينة ذكر وجود: **"حدائق كالنمارق"**[1]، وذكر المكناسي أيضا أن مدينة "تلمسان": **"كثيرة البساتين والأجنة والزيتون.."**[2].

الظّاهر من نصوص الرحلات أن المناطق الشمالية للجزائر تتميّز بغطاء نباتي كثيف ومتنوع سواء طبيعي كالغابات والأعشاب البرية، أو تدخلت فيه يد الإنسان فكانت البساتين والمزارع والحدائق.

الفرع الثاني: الغطاء النباتي في الجنوب الجزائري

أما بالنسبة للغطاء النباتي في الصحراء الجزائرية فيختلف عن المناطق الشمالية من حيث الكثافة ونوعية الأشجار والنباتات كما سنرى من خلال النصوص الرحلية.

إذ تكثر بالصحراء أشجار النخيل، لذلك كثر الحديث عن الواحات في مختلف الرحلات الجزائرية التي شقت طريقها في الصحراء كالورثلاني وابن هطال والأغواطي، فذكر الورثلاني أنّ **"بسكرة" نخلها عظيم.."**[3]، وذكر الأغواطي أن النّخيل ينمو في "متليلي"، كما ذكر أن "ورقلة" تعج بأشجار النخيل، وأنّ بلدة "تماسن" بـ"وادي ريغ" كثيرة النخيل أيضا، وغير النّخيل ذكر الأغواطي وجود شجر البطم في منطقة بـ"وادي ميزاب" بين "الأغواط" و"متليلي" تسمى "رأس الشعب"، كما ذكر نبات "الحلفاء" الذي ينمو في "المنيعة" والمناطق القريبة منها كمنطقتي "الثماد"، و"السعداني"، بالإضافة إلى ذكره لوجود شجرة "الدفلى"، وأشار أيضا إلى وجود نبات "الحناء" جنوب "تيميمون"[4]، أمّا ابن إدريس التنلاني فتحدث عن جبل الصحاري الذي فيه منازل "بني ميزاب"، وعن أشجاره وطولها[5]، كما تحوي الصحراء بعض الأعشاب البرية، ومن ذلك ما ذكر ابن هطال عن وجود **"موضع متوسط بين عين ماضي وتاجموت... يقال له أمسناج، وهو موضع منبسط ذو مياه وعشب.."**[6]، كما توجد هناك مناطق يكاد ينعدم فيها الغطاء النباتي في

---

[1] ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص40.

[2] المكناسي، الإحراز، ص331.

[3] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 199/1.

[4] ينظر: الأغواطي، الرحلة، ص89، 90، 91، 92، 99، 120.

[5] ينظر: ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص242.

[6] ابن هطال، رحلة الباي، ص65.

الصحراء الجزائرية، والتي أشار إليها الأغواطي وهي موجودة بأعماق الصحراء الجزائرية تنعدم فيها الحياة البرية إذ لا نبات فيها ولا حيوان ولا حتى الصخور بل هي عبارة عن مساحات شاسعة من الرمال فحسب[1].

كما ورد الحديث بكثرة عن الغطاء النباتي في الصحراء الجزائرية في أغلب الرحلات المغربية، خاصّة عند الرحالة الذين شقوا طريقهم في الصحراء الجزائرية، إذ اهتموا بذكر أنواع الأشجار والأعشاب ومختلف النباتات فيها، فمن الأشجار الموجودة في الصحراء من خلال هذه الرحلات: النخيل الذي تشتهر به الصحراء لوجوده بكثرة، فقد ذكر الدرعي أن مدينة "بسكرة" ذات نخيل كثير[2]، وذكر العياشي كثرة النخيل ببلاد "أوكورت" التابعة لـ"تجورارن"، وكثرته كذلك ببلدة "تماسن" بـ "وادي ريغ"، ووفرته بـ "ورقلة" الذي شبهه بالسحابة والطفاء، وأما "وادي سوف" فهي خط من النخيل مستعرض في وسط الرمل[3]، كما ذكر الحضيكي كثرة النخيل والأشجار في بعض المناطق الصحراوية للجزائر منها: بلدة "القنادسة" القريبة من "بشار" من جهة "المغرب" ذات النخيل والأشجار، وكذلك "بوسمغون" ذات الأشجار، و"الأغواط" ذات النخيل الكثير، و"وادي سيدي خالد" ذو نخيل كثيرة، و بسكرة فيها نخيل جمكذلك [4]، وبالإضافة إلى أشجار النخيل توجد أيضا أشجار أخرى مثمرة، إذ يظهر اهتمام أهل الصحراء بغرس البساتين بمختلف أنواع أشجار الفواكه من: الخوخ والعنب والتين وغيرها من الفواكه، وقد ذكر الدرعي إكرام أهل الصحراء للحجاج فمن بين ما يقدم لهم في كل مدينة صحراوية أنواع الفواكه خاصة الخوخ والعنب والتين، فيوجد بـ"فجيج" العنب والخوخ والرمان، كما يوجد بـ"بوسمغون" العنب أيضا، وبـ"الأغواط" يوجد التين والخوخ، و بقرية "دمت" الكثير من الأشجار وأنواع الفواكه[5]، وفي ذات السياق ذكر الحضيكي أن "عين ماضي": "**فيها أجنة تين وعنب..**"[6]، بالإضافة

---

[1] ينظر: الأغواطي، الرحلة، ص96، 97.

[2] ينظر: الدرعي، الرحلة الناصرية، ص139.

[3] ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 81/1، 114، 120، 123.

[4] ينظر: الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص83، 85.

[5] ينظر: الدرعي، المصدر السابق، ص125، 128، 132، 133، 729.

[6] الحضيكي، المصدر السابق، ص84.

إلى وجود أشجار أخرى غير مثمرة وهي برية مثل شجرة البطم التي ذكرها الدرعي والموجودة "**على غدير قرب المفازة**"[1] قرب "أولاد جلال"، وشجرة "الدمران" التي ذكرها العياشي والموجودة قرب "توات" بموضع يقال له "الدميرينة"[2]، كما توجد أيضا بعض النباتات البرية مثل "الدرياس"، وهذا الأخير موجود بمنطقة "تجموت" (تجموعت)، وهو نبات تأكله الإبل وهو ضار بها، وقد ورد ذكره في رحلة كل من العياشي، والدرعي الذي ذكر أنه موجود بـ"تجموت" و"وادي الأشبور"[3]، كما ذكر ابن الطيب الفاسي كثرة أجناس النبات والأشجار على جوانب "وادي الأشبور"[4]، وبالمقابل هناك مناطق يقل فيها الغطاء النباتي مثل قرية "والا" في الطريق إلى "ورقلة" التي ذكر العياشي أنها ليس فيها إلا نخلات معدودة قد يبس أكثرها، وكذلك قرية "القليعة" التي بها نخيل ليس بكثير، إضافة إلى أرض الحماد الخالية من النبات إلا المراير[5]، وهناك مناطق أيضا ينعدم فيها الغطاء النباتي نهائيا، مثل صحراء أنكاد التابعة لـ"تلمسان"التي ذكرها الوزان ووصفها بأنها: "**سهل قفر وعر يابس لا ماء فيه ولا شجر..**"[6]، وكذلك أرض الحماد التي وصفها العياشي بأنها: "**جرداء حرشاء...، كأنها المحشر...، سوداء شقية..، لم تضع الإبل رؤوسها إلى الأرض كأنها سائرة ليوم العرض..، أرض صفصف قاع..**"[7].

من خلال مختلف النصوص الرحلية يظهر امتلاك الجزائر لغطاء نباتي كثيف في الشمال، وتنوع الأشجار بها وحتى الأعشاب البرية سواء في الشمال أو في الجنوب.

---

(1) ينظر: الدرعي، الرحلة الناصرية ص713. والدمران: اسم شجرة تأكلها الإبل كثيرا وسميت ذلك المحل لوجودها فيه. ينظر: الدرعي المصدر السابق، ص713.

(2) ينظر: العياشي، الرحلة العياشية ، 78/1.

(3) المصدر نفسه، 132/1. وينظر: الدرعي، المصدر السابق، ص717، 719.

(4) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص89.

(5) العياشي، المصدر السابق، 107/1، 111، 113. والمراير: جمع مرة، شجرة أو بقلة من أمرار البقول. ينظر: العاشي، المصدر السابق، 113/1.

(6) الوزان، وصف إفريقيا، 11/2.

(7) العياشي، المصدر السابق، 114/1.

والخلاصة فإنّ الرحلات المغاربية على اختلاف مشاربها وقدرات أصحابها على الإبداع والتعبير من قليل أو كثير قدّمت لنا معطيات وصفية تبرز لنا صورة الجزائر الجغرافية على أوقات مختلفة على مدار السنة وعلى شتى المناطق الشمالية والصحراوية. ولا تكاد يكون هناك تباين بين ما قدمه الرحالة في هذا الجانب وذلك يعود لطبيعته، إذ لا تؤثر في إعطاء الأوصاف للطبيعة المشاهدة خلفيات سابقة أو اختلاف مشارب التي توجه نظرة الرحالة وتنفرد أو تشذ عن باقيها من الرحلات.

المبحث الثالث: أخبار تاريخية عن الجزائر في الرحلات المغاربية

قسّم هذا المبحث إلى مطلبين: تحدث فيه المطلب الأول عن أخبار الجزائر في العصور القديمة والوسيطة، أما المطلب الثاني فعن أخبار الجزائر في العصور الحديثة.

المطلب الأول: أخبار تاريخية عن الجزائر في العصور القديمة والوسيطة

قسم هذا ال مطلب بدوره إلى فرعين: الفرع الأول في الحديث عن أخبار تاريخية عن الجزائر في العصور القديمة، والثاني في الحديث عن الأخبار الخاصة بالعصور الوسيطة.

الفرع الأول: أخبار تاريخية عن الجزائر في العصور القديمة

وردت بعض الأخبار عن القبائل الجزائرية القديمة وبعض أخبار الجزائر زمن الرومان والوندالفي بعض الرحلات الجزائرية رغم قلة النصوص في ذلك.

أولا: أخبار القبائل الجزائرية القديمة

وجدت هناك بعض الإشارات في بعض الرحلات المغاربية تخص تاريخ بعض القبائل القديمة كبني يفرن وصنهاجة وزناتة وغيرها.

ففي الرحلات الجزائرية هناك إشارات طفيفة جدّا لحقب تاريخية قديمة خاصّة بالقبائل التي قامت بتأسيس بعض المدن الرئيسية بـ"الجزائر" كـ"تلمسان"، وذلك في رحلة أبي راس المعسكري الذ تحدّث عن تاريخ مدينة "تلمسان" فذكر أنّ أول من اختطها "بنو يفرن" قبل الإسلام [1].

وكذلك في الرحلات المغربية وردت إشارات أكثر من سابقتها إلى بعض القبائل القديمة التي كانت تحكم في "الجزائر" كقبائل "زناتة" و"صنهاجة"، و"عبد الوادي" وفيها شيء من التفصيل أكثر، فقد تحدث الوزان عن مملكة "تلمسان" التي كانت تسمى "قيصرية" في عهد الرومان ثم عادت إلى ملوكها الأقدمين "بنو عبد الوادي"، الذين احتفظوا بها ثلاثمائة سنة إلى أن انتزعها منهم الأمير "يغميراسن بن زيان" وورثها عنه أحفاده، كما نوّه إلى أنّ التاريخ لم يذكر مؤسسها الأول، وكل ما ذكر أنها توسعت أيام بني "عبد الوادي"[2]، أما

(1) ينظر: المعسكري، فتح الإله، ص108.

(2) الوزان، وصف إفريقيا، 7/2، 17.

الزياني فأضاف إلى أخبار مدينة "تلمسان" أنها: "**قاعدة من قواعد المغرب الأوسط قديمة أزلية البناء أسست قبل الإسلام بكثير من الأعوام أسسها بنو يفرن إحدى قبائل زناتة..، ويسمونها أجدير..**"[1]، وعن مدينة "الجزائر" أنها: "**كانت قرى لبني مزغنة من صنهاجة أسسها بلكين بن زيد الصنهاجي عام واحد وستين وثلاثمائة**"[2].

فالملاحظ من هذا شحّ المادة التاريخية في الرحلات المغاربية التي توضح لنا صورة "الجزائر" في قدم العصور، خاصة الرحلات الجزائرية التي لم تولي اهتماما بهذا الجانب، فكانت الرحلات المغربية أكثر اهتماما ولو بصفة ضئيلة.

ثانيا: أخبار الجزائر في عهد الرومان والوندال

لم أكد أجد أخبارا عن "الجزائر" زمن الاحتلالين الروماني والوندالي سوى ما وجد في بعض الرحلات المغربية، في رحلة الوزان الذي كان كلما مرّ على مدينة من مدن "الجزائر" سواء ساحلية أو داخلية إلا وذكر جزءا من تاريخها، فمثلا ذكر من المدن التي شيّدها الرومان: مدينة "شرشال"، ومدينة "مليانة" التي وأطلقوا عليها اسم "ماكنانة"، ومدينة "بجاية" التي بنوها في منحدر جبل شاهق على ساحل البحر المتوسط[3]، وذكر عهد الوندال في سياق حديثه عن عادة الوشم الموروثة عن القوط (الوندال)عن سكان مدينة "بريشك" القريبة من "مستغانم"، ونص حديثه في ذلك: "**اعتاد كل واحد منهم أن يرسم بالوشم صليبا أسودا على خديه ويديه..، يقول المؤرخون الأفارقة إن عددا لا يحصى من البلدان والشواطئ والجبال كانت خاضعة للقوط، وإن كثيرا من المغاربة تنصروا، وقد أمر ملوك القوط ألا يجبى أي خراج من المتنصرين، فكانوا كلهم إبان أداء الخراج يدعون أنهم مسيحيون..**"[4].

لم تتوفر الرحلات المغاربية على مادة وفيرة تغطي حاجة الباحث لمعرفة الجزائر قديما سوى إشارات نادرة عن ذلك في رحلة الوزان.

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص145.

(2) المصدر نفسه، ص149.

(3) الوزان، وصف إفريقيا، 34/2، 50.

(4) المصدر نفسه، 33/2.

الفرع الثاني: أخبار تاريخية عن الجزائر في العصور الوسطى

هذا المطلب حوى أخبار المغرب زمن الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب في فرعه الأول، وأخبار المغرب الأوسط زمن الدويلات المغربية المتعاقبة في فرعه الثاني.

أولا: أخبار الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب

وردت مجموعة أخبار عن فتح إفريقية في بعض الرحلات المغاربية، فمن جانب الرحلات الجزائرية أورد الورثلانينصوصا مطولة أخذها عن الدرعي الذي اقتبسها هو الآخرمن رحلة العياشي، وكان ذلك إثر زيارة الورثلاني لضريح "سيدي عقبة" ومسجده بالقرية التي سميت باسمه قرية "سيدي عقبة"، وقد اكتفيتهنا بإيراد الأخبار الخاصةبفتح الجزائر –على سبيل الاختصار–

أ_ أخبار عقبة بن نافع وفتح إفريقية

ابتدأ الورثلاني حديثه عن الفاتح "عقبة بن نافع الفهري" بالتعريف بشخصيته إذ هو كما قال: عقبة بن نافع الفهري التابعي القرشي، ولد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك عدّه بعضهم من الصحابة، ثم ذكر زمن توليته، إذ ولاه معاوية بن أبي سفيان على إفريقية، ووجهه إليها في عشرة آلاف من المسلمين فافتتحها،وذكر تأسيسهلمدينة القيروان، ثم عزله من طرف معاوية عام (51هـ/671م)، وتعيين أبا المهاجر دينار مكانه، وبعد وفاة معاوية خلفه ابنه يزيد سنة (61هـ/680م)، فولّى هذا الأخير –عقبة– على إفريقية مرة ثانية، فسار لفتح ثغورها ومدنها، ففتح من أرض الجزائر: مدينة "باغية" قرب جبل أوراس، ومدينة "أذنة" من مدن "الزاب"، ثم اتجه غربا وفتح "تاهرت"، وأكمل فتحه إلى "طنجة" و"فاس"، وغيرها إلى أن وصل المحيط[1]، وفي طريق عودته إلى "القيروان" قتل على يد الزعيم الأمازيغي"كسيلة" الذي سيأتي خبره.

ب_ أخبار الزعيم كسيلة مع الفاتحين

كان" كسيلة" ممن أسلم على يد "أبي المهاجر"، ولما كان "عقبة" في طريق عودته إلى "القيروان" أرسلت الروم "كسيلة"وأمكنته الفرصة فانتهزها، فلما كان "عقبة" يريد إفريقية زحف إليه "كسيلة"، وكان أكثر المسلمين بـ"القيروان" مع "زهير بن قيس"، فوافاه بمقربة من

---

(1) ينظر: الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 1/213– 217.

"تهودة" فنزل وركع ركعتين وأطلق "أبا المهاجر"–وكان سجينا عنده– وطلب منهاللحاق بالمسلمين والقيام بأمرهم، وأراد هو اغتنام الشهادة، فرفض "أبو المهاجر" اللحاق وأراداغتنام الشهادة معه،فقاتلوا قتالا شديدا حتى بلغ منهم الجهد وكثرت فيهم الجراح، وتكاثر عليهم العدو، وقتل "عقبة" و"أبو المهاجر"، ومن معهما من المسلمين، ولم يفلت منهم أحد، وأسر "محمد بن أوس الأنصاري"، و"يزيد بن خلف القيسي" ونفر معهما، ففداهم صاحب "قفصة" وبعث بهم إلى "زهير بن قيس" ومن معه من المسلمين بـ"القيروان"، وبعد مقتل "عقبة" ومن معه اتّجه "كسيلة" إلى "القيروان" فاستولى عليها سنة (64هـ/684م)، بعد انسحاب "زهير بن قيس" ومن معه لقلة عددهم وعدم طاقتهم لقتال "كسيلة" وجيشه العظيم المشكل من الروم والأمازغ، وبقي زهير بـ "برقة" مرابطا إلى أن توفي "يزيد بن معاوية" في السنة نفسها، وبعد أن تولى "عبد الملك بن مروان" الخلافة بـ"الشام"، ولّى على "إفريقية""زهير بن قيس البلوي" مرة أخرى، وأمدّه بجيش عظيم وأموال، فانهزم "كسيلة" على يد "زهير" ورجع إلى "القيروان"، ولكنه لم يبق بها واتجه إلى المشرق وتركها فأخذها الروم إلى أن بعث لهم "عبد الملك""حسان بن النعمان الغساني" الذي كان بـ"مصر"[(1)]، وسيأتي خبره مع الكاهنة.

ج_ أخبار الملكة الكاهنة والفاتح حسان بن النعمان

لمّا انتهى خبرعودة "زهير بن قيس" إلى المشرق وتركه "إفريقية" إلى "عبد الملك بن مروان"، عظم عليه الأمر، وكتب إلى "حسان بن النعمان الغساني" الذي كان بـ"مصر"، وأمره بالتّوجه إلى "إفريقية"، فقدم الأخير إليها في عسكر لم يدخل إلها قطّ مثله، وذلك سنة (79هـ/ 698م)، فغزا "قرطاجنة" وفتحها، ثم توجه إلى "القيروان" وسأل الناس عن أعظم ملك في "إفريقية"، فقالوا له: ليس بإفريقية أعظم من امرأة بجبل "أوراس" يقال لها "الكاهنة"، والبربر والنصارى لها مطيعون ومنها خائفون، فتوجه لقتالها، فانهزم في أول أمره وأسرت من أصحابه الكثير منهم "خالد بن يزيد العبسي"، فبقي حسان بـ"برقة" خمسة أعوام، حتى بعث له "عبد الملك" جيشا عظيما ومالا وسلاحا، وأمره أن يتجه نحو "الكاهنة" لقتالها، وكانت قد ملكت "إفريقية" خمسة سنين منذ انصرف "حسان" عنها،

(1) ينظر: الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 219/1– 224.

فوجهت قومها لتدمير الحصون وتخريب المدن، ضنّا منها أن العرب يطمعون في الذهب والفضة والشجر، فخرج بعض أهل "إفريقية" يستغيثون بـ"حسان" من صنيع "الكاهنة"، فسار إليها، فلما أيقنت بهزيمتها، أرسلت ابنيها مع "خالد" الذي اتخذته أخا لهما إلى "حسان" وأبت الاستسلام إلى أن قتلت وقطع رأسها[1]، وتفصيل هذه القصة موجود في رحلة الورثلاني[2].

إضافة إلى ماجاء في رحلة الورثلاني من أخبار الفاتحين لبلاد المغرب، وردت أخبارهمأيضا في بعض الرحلات المغربية كرحلتي العياشي والدرعي، ومما ذكره العياشي أن:" **سيدي عقبة المنسوب إليه البلد فهو عقبة بن عامر التابعي، وهو الذي افتتح بلاد إفريقية، وبنى مدينة القيروان..، وذكر ابن خلدون خبر قتاله مع الكاهنة بجبل أوراس..**"[3]، أما الدرعي فذكر فتح أبا المهاجر لبلاد البربر ومن ذلك: "**ولما كانت سنة إحدى وخمسين، عزل معاوية عقبة بن نافع عن إفريقية، وولى مسلمة بن مخلد مصر وإفريقية، فنزل مسلمة مصر، واستعمل على إفريقية مولى له يسمى: دينارا، ويكنى: أبا المهاجر، فلما انتهى إلى إفريقية، كره أن ينزل بلدا اختطه عقبة، فمضى خلفه بميلين، فاختط هناك مدينة وبناها وسماها البربر بتكيروان، فأخذ الناس بعمارتها وإخلاء**

---

[1] ينظر: الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 1/ 225.

[2] ينظر: المصدر نفسه، 1/ 230- 232. وتفصيل القصة: لما سمعت بقدوم حسانرحلت من جبل أوراس تريده في خلق عظيم، فلما كان الليل دعت ابنيها وأخبرتهما أنها مقتولة، وكأنها تنظر إلى رأسها يركض به فرسان إلى ناحية المشرق، وكأنها ترى رأسها بين يدي ملك العرب الذي بعث بهذا الرجل، فقال لها خالد: فإذا كان هكذا فارحلي بنا وخلي لهم عن البلاد وأشار عليها أولادها بمثل ذلك فقالت: كيف أفرّ وأنا ملكة، والملوك لا تفرّ، وأورث قومي عارا..، فقالا لها ابناها وخالد: فما نحن صانعون؟ فقالت: أمّا أنت ياخالد، فستدرك ملكا عظيما عند الملك الأعظم، وأما أولادي فسيدركون سلطانا عند هذا الرجل ويعقد لهم على البربر، فكان الأمر كما قالت ورأت الكاهنة حيث: "أمرتهم أن يركبوا ويستأمنوا إليه، فركبوا وتوجهوا إلى حسان، فأعلمه خالد بقولها، وأنها مقتولة، وبوصول ولديها، فأمر بحفظهما، وأمر خالدا على أعنة الخيل..، والتحمت الحرب واشتد القتال..، ثم انهزمت الكاهنة وتبعها حسان حتى قتلها وقطع رأسها..، ثمّ إن البربر استأمنوا إلى حسان فلم يقبل إلا أن يعطوا من قبائلهم اثني عشر ألفا يكونون مع العرب مجاهدين، فأجابوا وأسلموا على يديه، فعقد لكل واحد من ولدي الكاهنة على ستة آلاف وأخرجهم مع العرب يجاهدون في سبيل الله بإفريقية ويقتلون الكفرة من البربر والنصارى، وانصرف حسان إلى القيروان، وذلك في سنة (84هـ/703م)..، وأقام بإفريقية لا ينازعه بشر إلى أن عزل عنها ووليها موسى بن نصير.

[3] العياشي، الرحلة العياشية، 539/2.

القيـروان.."[1]، وأخبـار الفـتح فـي رحلتـي العياشـي والـدرعي طويلـة جدا لا يسـع المجـال لذكرها جميعا، لذلك تم اختيار هذين النصين على سبيل المثال فقط.

أما الزياني فنجده في سياق حديثه عن خبر مدينة "تلمسان"يذكر ما يلي: "**ولم نقف لها على خبر أقدم من خبر ابن الرفيق، قال لما توغل أبو المهاجر الأنصاري في أرض المغرب، بلغ إلى تلمسان ونزل بساحتها على عيون سميت به، فيقال لها عيون أبي المهاجر..**"[2]، وذكر أيضـا خبر الفاتح "عقبة" مع "الكاهنـة" و"كسيلة" فـي نص حديثه: "**وهـو الـذي فـتح المغـرب...، ورجـع بالغنـائم علـى طريـق الصـحراء، ولمـا بلـغ الـزاب اعترضته طوائف البربر برأي الكاهنـة دهيا بنت ثابت القراويـة صاحبة جبل أوراس...، فاعترضوهم على وادي الزاب...، وقتلوا أميرهم عقبة هذا، وأبا المهاجر الأنصاري، وكثيرا من أشراف العرب...، وقام بأمر البربر كسيلة الأوروبي..**"[3].

الملاحظ علـى أخبـار الفـتح الإسـلامي لـبلاد المغـرب فـي الـرحلات المغاربيـة كـان ذا حظّ وافر مقارنة بالأخبار التاريخية الأخرى، خاصة في بعض الرحلات المغربية، أما الجزائرية فلم تولي اهتماما كبيرا بهذه ماعدا الورثلاني أو بعض الإشارات التي لم تكد تبين في رحلات أخرى كرحلة المعسكري.

ثانيا: أخبار المغرب الأوسط زمنالدويلات المغربية المتعاقبة

وقصـــدت بالـــدويلات المغربيـــة المتعاقبـــة: الأدارســـة والفـــاطميين، والمـــرابطين والموحدين.

لم يرد مايستحق الذكر ما يخص أخبار المغرب الأوسط زمن الدويلات المغربية المتعاقبة فـي الـرحلات الجزائريـة، وفـي المقابـل وردت بعـض الأخبـار عـن تلـك الفتـرة فـي بعـض الرحلات المغربية وبالأخص رحلة الزياني، إذ أورد أخبارا هامة عن المغرب الأوسط زمن حكـم الأدارسـة فـي المغـرب وكـذلك حكـم الشـيعة الفـاطميين، فممـا ورد عـن خبـر مدينـة "تلمسـان"التي حكمهـا الأدارسـة ذكـر وصـول"إدريس بـن عبـد الله" إلـى حكـم المغـرب عـام سبعين ومائـة(170هـ) بعد واقعة "أبي جعفر المنصور"، ونهوضـه إلـى "المغرب الأوسط"

[1] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص147.

[2] الزياني، الترجمانة، ص145.

[3] المصدر نفسه، ص149.

عام أربع وسبعين ومائة(174هـ)، فتلقاه "محمد بن خزر بن صولات" أمير "زناتة" و"تلمسان"، فدخل في طاعته، وحمل عليها قومه "مغراوة"، و"بنو يفرن"، بعد أن غلب عليها أمراؤها من "بني يفرن" ومكنه منها فدخلها، كما ذكر خبر"تلمسان" زمن الشيعة فلما انقرضت دولة الأدارسة، وقام "موسى بن أبي العافية المكناسي" بدعوة الشيعة نهض إليها - تلمسان- عام تسعة عشر وثلاثمائة، وغلب عليها أميرها..، إلى أن غلب الشيعة على "المغرب الأوسط"، فأخرجوا أعقاب "محمد بن سليمان" من تلك النواحي كلها وانحازوا إلى الريف، وفي أعوام أربعين وثلاثمائة غلب "يعلى بن محمد اليفرني" على "المغرب الأوسط" وتمسك بدعوة الأموية، فعقد له "الناصر" الأموي على "تلمسان" و"المغرب الأوسط"[1].

كما أورد الزياني بعض الأخبار عن تداول الدويلات المتعاقبة الملك على بلاد "المغرب الأوسط" من المرابطين والموحدين إلى الزيانيين وبني مرين، ففي حديثه عن تلمسان زمن المرابطين ذكر عقد "عبد الملك بن المظفر بن المنصور بن أبي عامر" لـ"المعز بن زيري" إلى "المغرب" كله الذي أنزل ولده "يعلى بن المعز" بـ"تلمسان"، فتوارثها بنوه من بعده إلى أن جاء "يوسف بن تاشفين"فتغلب على ملك "المغرب" ونزل "تلمسان" وملكها وملك معها "وهران" و"أرشكول" و"تاهرت" و"تنس" و"الجزائر"، ثم بنى "تلمسان" الجديدة في موضع محلته، وسماها "تاجرارت"*وبنى مسجدها، كما ذكر ما حدث في عام 581هـ حينأخذ ملوك الموحدين لـ"بني عبد الوادي" نواحي "تلمسان" واختصوهم بالولاء دون سائر "زناتة" وأنزلوهم بها لما قدر لهم من الملك بـ"تلمسان" و"المغرب الأوسط"[2]، وفي هذا إشارة إلى بداية انقسام الموحدين.

وماعدا ما أورده الزياني فلم نحصل على أخبار وافية لهذه الفترة في مختلف الرحلات المغاربية إلا بعض الإشارات الطفيفة في رحلة الوزان.

---

(1) ينظر: الزياني، الترجمانة، ص145- 146.

*ذكر الزياني أنّ تاجرارت تعني في لغة الأمازيغ"المحلة".

(2) المصدر نفسه، ص146- 147.

المطلب الثاني: أخبار تاريخية عن الجزائر في العصور الحديثة

هذا المطلب عني بالحديث عن أخبار "المغرب الأوسط" زمن دويلات ما بعد الموحدين في الفرع الأول، وأخبار "المغرب الأوسط" زمن الغزو الإسباني في الفرع الثاني، وأخبار "المغرب الأوسط "غداة دخول العثمانيين في الفرع الثالث.

الفرع الأول: أخبار المغرب الأوسط زمن دويلات ما بعد الموحدين

وقصدت بالدويلات المغربية ما بعد الموحدين: الحفصية والزيانية، والمرينية، والتي جاءت بعض الأخبار عنها في بعض الرحلات المغاربية.

إن كان غياب الأخبار التاريخية لبعض الحقب والأزمنة الخاصة بـ"المغرب الأوسط" قد خيّم على أغلب الرحلات الجزائرية، فإن الحديث عن إحدى الدويلات المغربية كان حاضرا بقوة في بعض الرحلات الجزائرية، وهي الدولة الزيانية التي جاء خبرها في رحلة ابن عمار الذي تحدث عن الأوضاع التي كانت سائدة بـ"المغرب الأوسط" زمن الزيّانيين خاصّة الأوضاع السياسية والاجتماعية وحتى الثقافية، فعن الأوضاع السياسية تحدث عن وفاة السلطان الزياني "أبي حمو موسى الثاني" وتولية ابنه "أبو تاشفين"، الذي كان في أواخر جمادي الأولى سنة أربع وسبعين وسبعمائة (774هـ)، واتسعت رقعة الزيانيين في عهده[1]، ومن الأخبار الاجتماعية للدولة الزيانية التي ذكرها ابن عمار في رحلته الاحتفال بليلة القدر في القصر الزياني بـ"تلمسان" زمن السلطان "أبو حمو موسى"، إذ كان هذا السلطان يقيم ليلة المولد النبوي صلى الله عليه وسلم بمشورة من أهل "تلمسان"، ويدعو الناس خاصة وعامة لحضور حفله الكبير في قصره المزين بمختلف أنواع الزينة، منالنمارق المصفوفة، والزرابي المبثوثة، والبسط الموشاة، والوسائد المغشاة بالذهب ، والشموعوالموائد المملوءة بمختلف أنواع الأطعمة والمباخر وغيرها، وبالإضافة إلى كل ذلك تطرب أسماع الحاضرين بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومكفرات ترغب في الإقلاع عن الآثام، وغيرها من مراسم الاحتفال[2].

---

(1) ينظر، ابن عمار، نحلة اللبيب، ص431- 466.

(2) المصدر نفسه، ص303.

وعن الأخبار الثقافية في العصر الزياني، ذكر ابن عمار أخبارا تخص الحالة العلمية بـ"تلمسان" في عهد السلطان السابق، حيث قدّم ترجمة وافية للعلامة "الشريف الإدريسي التلمساني" فقال: **"وفي دولته كان الإمام المتقن البحر الحبر شريف العلماء وعالم الشرفاء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن محمد بن القاسم بن حمو من سبط إدريس بن إدريس، فكان له محبا ومعظما وبه حفيا، وكان وحيد عصره دينا وعلما نقلا وعقلا.."**[(1)]

كما أورد الورثلاني أخبارا عن الحالة العلمية في مدينة "بجاية"زمن الحفصيين أينأشادبفضلهاالمشهور وعلم أهلها المذكور، ثم دعّم قولهما ذكره "الشريف التلمساني" عند دخوله إليها في القرن (8هـ/13م) حين وجد العلم ينبع من صدور رجالها كالماء الذي ينبع من حيطانها، وذكر أن بجاية في ذلك الوقت كان فيها خمسمائة صبية يحفظن "المدونة"، وأما اللاتي يحفظن "ابن الحاجب" فلا يحصى عددهن[(2)].

أما في الرحلات المغربية فجاءت بعض الأخبار عن الدويلات المغربية الثلاث المتنازعة على الملك ببلاد "المغرب"، فقد ذكر الوزان بعض أخبار هذا الصراع الذي كان قائما بين "بني عبد الوادي" و"بني مرين" عن ملك "تلمسان"في قوله: **"توسعت أيام بني عبد الواد..، لكن تلمسان تضررت كثيرا من جراء الحصار المضروب عليها من طرف أبي يعقوب يوسف ثاني ملوك بني مرين الذي بنى مدينة أخرى شرق مدينة تلمسان.."**[(3)]، كما أخبر الزياني عن هذا الانقسام والصراع الذي كان قائما بين "بني مرين" و"الزيانيين" على "تلمسان"، وممّا ذكر أنه بسبب ولاء الموحدين لبني عبد الواد بـ"تلمسان": **"نافسهم بنو مرين ودخلوا المغرب وعاثوا فيه نكاية للموحدين...، واستمروا على ذلك إلى أن ولي السعيد أبو عزة زاكدار بن زيان على تلمسان...، ولما مات.. ولى أمر تلمسان أخاه يغميراسن بن زيان...، استقل يغميراسن بملك تلمسان عام ستة وأربعين وستمائة، واستقل أبو زكرياء يحي بن أبي حفص بملك إفريقية، وتوزعت دولة الموحدين، واستمر الحرب بين بني مرين وبني عبد الواد على تلمسان إلى أن ملكها أبو الحسن المريني**

---

(1) ابن عمار، نحلة اللبيب، ص421.

(2) ينظر، الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 87/1.

(3) الوزان، وصف إفريقيا، 17/2.

أعواما، ثم ردها إليهم أبو عنان..، واستمر الحال على ذلك إلى أن انقرض ملك بني مرينوبني عبد الواد وملكها الترك من يد عبد الله الزياني.."[1].

كما ذكر التمقروتي أخبارا عن"بجاية" زمن "الحفصيين" وذلك نقلا عن "خالد البلوي" الذي دخلها زمن أميرها "أبو زكرياء يحي بن أبي بكر الحفصي" الذي استضافه عنده[2].

أعطت الرحلات المغاربية لمحة تاريخية عن الدويلات المغربية التي جاءت بعد انقسام الدولة الموحدية ولو بصفة مختصرة.

الفرع الثاني: أخبار المغرب الأوسط زمن الغزو الإسباني

وردت عدّة أخبار عن الغزو الإسباني لسواحل "المغرب الأوسط" في بعض الرحلات المغاربية،

ففي الرحلات الجزائرية وردت إشارات طفيفة عن ذلك الغزو في رحلة المعسكري الذي أشار إلى غزو "وهران" عندما تحدث عن فتحها دون تفصيل.

أما الرحلات المغربية فكانت أكثر اهتماما بذكر بعض الأخبار عن الغزو الإسباني لسواحل "المغرب الأوسط"، فأشار الزياني إلى استيلاء "الإسبان" على "وهران"أثناء حديثه عن تاريخها: "**وهذه وهران من بناء الروم قبل الإسلام، ثم فتحت في الإسلام واستولى عليها بنو يفرن ثم الأدارسة بعدهم ثم الشيعة ثم زناتة ثم صنهاجة ثم لمتونة ثم الموحدون ثم بنو عبد الواد، ثم بنو مرين، ثم الاصبنيول.."**[3]، وذكر الوزان هذا الاستيلاء على سواحل "الجزائر" خاصة "وهران" و"المرسى الكبير"، ففي سياق حديثه عن مملكة "تلمسان" ذكر أنّ هذه المملكة تمتلك ميناءان مشهوران الأول ميناء "وهران"، والثاني ميناء "المرسى الكبير" غير أنّ هذين الميناءين سقطا في يدي الملك الكاثوليكي "فرناندو"، أما عن تاريخ الاستيلاء على "وهران" فقد ذكر أنّه عام 916هـ، والاستيلاء على "المرسى الكبير"فكان قبل سقوط "وهران" بأشهر، كما ذكر أيضا حصار "الإسبان"على مدينة "الجزائر" حينما أرسل الملك الكاثوليكي السابق أسطولا عظيما لحصار "الجزائر"، واضطرار أهلها إلى إيفاد سفارة إلى "إسبانيا" تطلب هدنة عشر سنوات

---

[1] ينظر: الزياني، الترجمانة، ص146– 147.

[2] ينظر: التمقروتي، النفحة المسكية، ص223، 224.

[3] الزياني، المصدر السابق، ص141.

مقابل بعض الخراج، فقبل الملك بالهدنة وعاشوا في السلم بضعة أشهر حتى جاء "بربروس"[1].

أخبار الغزو الاسباني لسواحل "المغرب الأوسط" لم تنل حظها بما يكفي في الرحلات المغاربية خاصة الجزائرية التي لم تعر الموضوع اهتماما يذكر.

الفرع الثالث: أخبار المغرب الأوسط غداة دخول العثمانيين

لم تكن أغلب الرحلات المغاربية كثيرة الاهتمام بنقل أخبار دخول العثمانيين إلى الجزائر، ما عدا بعض الرحالة الذين تحدثوا عن بدايات استيلائهم على أغلب المدن الساحلية التي كانت بيد "الإسبان"، بالإضافة إلى ذكر أشهر من حكم الجزائر منهم.

فمن طرف الرحلات الجزائرية ذكر ابن حمادوش أول من حكم "الجزائر" من البايلربايات أوالباشلار القادمين من "إسلام بول" من الخليفة العثماني على حدّ قوله[2]، وهو هنا يشير إلى البايلربايات الذين كانوا يعينون من طرف السلطان العثماني نفسه، وهم من رياس البحر، ثم يذكر أول البايلربايت وهم الإخوة "بربروس" فيقول: **"وأول باشا قدم إلينا: اسحاق باشا عام 915 خمسة عشر وتسعمائة، وبعده عروج باشه عام 916 ستة عشر وتسعمائة، ثم بعده خير الدين باشا عام 922..، ثم أتى بعده حسن باشا عام 941هـ** [3]، ثم يكمل كلامه في ذكر قائمة طويلة من أسماء البايلارbايات والبشوات والأغوات حتى يصل إلى الحاكم في زمنه.

كما أشار المعسكري إلى استيلاء الأتراك على "تلمسان" وأخذها من "بني عبد الوادي" سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (923هـ)[4].

أما من طرف الرحلات المغربية فتحدث الوزان بالتفصيل عن البدايات الأولى لدخول العثمانيين إلى "الجزائر"إذ كان شاهد عيان على ذلك، بل حتى أنه كان مع "عروج"في قصر "بجاية" فمن بين ما ذكر عن تلك البدايات استنجاد أهل "الجزائر" بالإخوة "بربروس" من الاسبان بعد عقد الهدنة مع ملك إسبانيا مقابل دفعهم للخراج، وقد"**عاشوا في السلم**

(1) ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، 2/9، 31، 38.

(2) ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص228.

(3) المصدر نفسه، ص228.

(4) ينظر: المعسكري، فتح الإله، ص107.

بضعة أشهر، ثم جاء بربروس فحاصر بجاية، وإحدى القلعتين اللتين بناهما الاسبان... لكنه لم يصل إلى نتيجة لأن القبائل الجبلية التي هبت لنصرته ذهبت بدون استئذانه لزرع الحقول وتبعها أيضا عدد كبير من الجنود الأتراك، فاضطر بربروس إلى الفرار... ثم التجأ مع أربعين من خواصه إلى قصر جيجل... ومكث به فترة من الزمان هلك خلالها الملك الكاثوليكي، وأراد أهل الجزائر أن يفسخوا الهدنة، ويتخلصوا من الخراج... فأرسلوا إلى بربروس ليكون قائدا لهم نظرا لقيمته العسكرية العظيمة...، وكان الخلاف قائما بين بربروس وأحد المتسلطين على إمارة الجزائر... واسمه سليم التومي... فقتله، ونودي به ملكا فضرب السكة وأذعن له جميع السكان بالطاعة وأرسلوا إليه الخراج.."[1]، يقول الوزان في شأن حضوره ومشاهدته هذه الأحداث: **"حضرت جل هذه الأحداث، إذ كنت على سفر من فاس إلى تونس...، خرجت من الجزائر قاصدا بجاية فوجدت بربروس محاصرا قلعتها، ومكثت عنده لأشاهد نهاية هذه المعركة إلى أن هرب والتجأ إلى جيجل، فانصرفت بدوري قاصدا قسنطينة في طريقي إلى تونس، وقيل لي أن بربروس قتل في ذلك الوقت بتلمسان، وبويع أحد أخويه المسمى خير الدين أميرا على الجزائر وما زال يحكمها إلى الآن (924هـ/ 1518م).."**[2].

كما تحدث الزياني كذلك عن تاريخ "وهران"يذكر دخول العثمانيين إليها، وذلك بعد احتلالها من طرف الاسبان حيث قال: **"ثم فتحها الترك أيام السلطان سليمان العثماني ولا زالت بأيديهم"**[3]، كما ذكر أيضا دخول العثمانيين"تلمسانا" فقال: **"وملكها الترك من يد عبد الله الزياني، آخرهم عام اثنين وخمسين وتسعمائة، دخلها حسن بن خير الدين باشا، قدم لها من الجزائر، ولازالت في ملك الترك إلى وقتنا هذا، وهو عام سبعة وعشرين ومائتين وألف"**[4].

---

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 38/2، 39.

(2) المصدر نفسه، 39/2.

(3) الزياني، الترجمانة، ص141.

(4) المصدر نفسه، ص148.

فالأخبار التاريخية عن مختلف المراحل التي مرت بها الجزائر واردة في بعض الرحلات المغاربية دون الأخرى فمنهم من يهتم بذكر تلك الأخبار ومنهم من يشير إلى ذلك ومنهم من يتجاهل تماما تلك الأخبار كما رأينا.

والخلاصة فإن الرحلات المغاربية كانت مليئة بالأوصاف لمختلف المناطق الجزائرية سواء الشمالية منها أو الجنوبية، وتنوعت هذه الأوصاف من حسية ومعنوية حسب تأثيرها في نفسية كل رحالة، فوجدناهم اتجهوا في وصفها بكل قدراتهم الإبداعية من لغة راقية، وأسلوب بديع وفن أدبي رفيع، كما نالت المشاهد الجغرافية حظّها الأوفر من تلك الأوصاف، فلم يترك الرحالة مظهرا من مظاهر الطبيعة إلى وصفوه فأتوا على ذكر العام والخاص منها، فمن البحر، إلى النهر إلى الوادي ومن السهل إلى الجبل، ومن التل إلى الهضبة، وكان منها أيضا التربة والرمل، ومن مظاهر المناخ من فصول وأحوال الجوّ وتقلباته على فصوله، إلى الحديث عن الغطاء النباتي من ذكر الأشجار المثمرة إلى الحدائق المزهرة، والأعشاب، فكل ذلك ينمّ عن الحسّ الجغرافي القوي الحاضر في الرحلات المغاربية. وبالإضافة إلى كل ذلك لم يغفل بعض الرحالة الأخبار التاريخية الخاصة بمختلف الأزمنة التي مرت بها الجزائر، منذ أن كانت تحكمها القبائل ك"مغراوة" و"صنهاجة"، مرورا بالاحتلال "الروماني" إلى "الفتح الإسلامي" امتدادا لحكم "الدويلات المغربية" المتعاقبة عليها وصولا إلى دخول "العثمانيين".

الفصل الثاني:

الأوضاع السياسية والعسكرية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

المبحث الأول: الأوضاع السياسية الداخلية للجزائر من خلال الرحلات المغاربية

المبحث الثاني: الأوضاع السياسية الخارجية للجزائر من خلال الرحلات المغاربية

المبحث الثالث: الأوضاع العسكرية للجزائر من خلال الرحلات المغاربية

الفصل الثاني: الأوضاع السياسية والعسكرية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

قسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث اقتضاء لمادته العلمية: المبحث الأول عني بالحديث عن الأوضاع السياسية الداخلية للجزائر، أما المبحث الثاني فعن الأوضاع السياسية الخارجية للجزائر، في حين اختص المبحث الثالث بالحديث عن الحالة العسكرية للجزائر.

المبحث الأول: الأوضاع السياسية الداخلية للجزائر من خلال الرحلات المغاربية

فرضت طبيعة المادة العلمية لهذا المبحث أن يقسم بدوره إلى ثلاثة مطالب: المطلب الأول تحدث عن الأوضاع السياسية للمناطق الشمالية للجزائر، والمطلب الثاني تحدث عن الأوضاع السياسية للمناطق الجنوبية للجزائر، أما المطلب الثالث فاختص بالحديث عن الفتن والصراعات الداخلية بالجزائر.

المطلب الأول: الأوضاع السياسية في المناطق الشمالية للجزائر

لم تركز الرحلات المغاربية على ذكر تفاصيل الأمور المتعلقة بالأوضاع السياسية في المناطق الشمالية للجزائر، وإنما وردت منهم إشارات دون تفاصيل، عندذكرهم المراحل التاريخية للوجود العثماني، فذكروا بعض الأجهزة الإدارية، وبعض الشخصيات السياسية التابعة لها، والتي تحدث عنها هذا المطلب في الفرعين المواليين: الفرع الأول في أنظمة الحكم، والفرع الثاني في التنظيمات والأجهزة الإدارية.

الفرع الأول: أنظمة الحكم

لم يكن الرحالة الجزائريون كثيري الاهتمام بالسياسة والحديث عنها، وبالرغم من ذلك وردت الإشارة إلى مراحل الحكم وأنظمته في "الجزائر" في عدة مواضع من رحلاتهم، فذكر ابن حمادوش مرحلة البايلربايات، وذلك في سياق حديثه عن الباشوات الذين حكموا "الجزائر" منذ البداية، فذكر أنّ الحكم في أول أمره كان بيد: **"الباشلار القادمين من اسلام بول من الخليفة العثماني"**[1]، وذكر أن أول باشا قدم إلى "الجزائر" هو "إسحاق باشا" عام 915هـ، ثم أتى بعده أخوه "عروج باشا" سنة 916هـ، ثم بعدهما جاء أخوهما "خير

---

[1] ابن حمادوش، لسان المقال، ص228.

الدين باشا" سنة 922هـ[1]، وهو الذي نُصّب حاكما على "الجزائر" رسميا، كما ذكر حكّام "الجزائر" في مختلف المراحل من الباشاوات، والآغوات، والدايات، حيث قدم قائمة بأسماء باشوات "الجزائر" وزمن توليتهم فذكر: **"أن أول من انفرد بالملك والرياسة في الجزائر عبد الله بلك باشي عام (1064) أربعة وستين وألف، ثم تبعه في ذلك كال محمود بلك باشي عام (1065) خمسة وستين وألف، ثم بعده خليل بلك باشي..."**[2]، ثم يكمل سرد أسماء الباشوات إلى أن يصل إلى ذكر "شعبان خوجة" الذي تولى عام **(1101هـ)** واحد ومئة وألف، ومن خلال حديثه عن باشوات "الجزائر" فهو بذلك يشير إلى مختلف مراحل الحكم العثماني في "الجزائر"، و مما يشير إلى المرحلة الأخيرة هو ذكره للفظ "الدولاتي"، الذي يعني به "الداي"، حين ذكر أن: "**القبطان الحاج محمد تريكي**" هو أول من سمي "**دولاتلي**"، وقد تولى الحكم بعد "الحاج علي آغا" عام 1075هـ[3]،وقد استولى على الحكم بعد أن كان في يد الآغوات، كما ذكر أيضا الباشا "إبراهيم دولالتي"، الذي كان معاصرا له، فذكر مرضه وتعيينه لخليفتهفي نص حديثه: **" كان من قدر الله المقدور وأمره المقدر المزبور أن كان قبل هذا اليوم بأيام مرض باشا البلد إبراهيم دولالتلي وباشا كان خزناجي عبدي باشا إلى هذا اليوم جمع رأيه ليلة فلما طلع الفجر واجتمع إليه أرباب مشورته عقد الأمر من حينه لإبراهيم كان عنده خزناجي وأجلسه على كرسي الملك وبايعه أهل الحل والعقد في أول الساعة الأولى ساعة عطارد..."**[4].

أما الإشارة إلى المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني فوردت أيضافي رحلة ابن إدريس التتلانيالذي تحدث عن "الباشا عمر" داي الجزائر في سياق حديثه عن الحملة الإنجليزية على "الجزائر" مادحا شجاعته وبسالته ذلك اليوم في نص قوله: **"هذا الباشا فيه من الشجاعة والنجدة أكثر ما يصف الواصف، ولو أن أحدا يموت قبل أجله المقدر له ما**

---

[1] ابن حمادوش، لسان المقال، ص228.

[2] المصدر نفسه، ص225- 227.

[3] المصدر نفسه، ص226. والقبطان الحاج محمد تريكي داي: من البحارة، وهو الذي استولى على الحكم بعد أن كان في يد الأغوات، وبعد أن ظل في الحكم مدّة فر من الجزائر إلى شرشال، ومنها ركب باخرة إلى اسطانبول، وهناك تولى قبطانية الأسطول العثماني، وهو الذي استولى على جزيرة "شيو"، التي توفي ودفن بها. ينظر: ابن حمادوش، المصدر السابق، من تهميش ص226.

[4] المصدر نفسه، ص225.

عاش ذلك اليوم، ولا بقي له عظم ولا شيء من ثوبه استقبل بصدره ووجهه الكور الذي ينزل مثل البرد، وهو ينادي ويصيح: "يا عباد الله الجنة مفتوحة لكم أبوابها، الجهاد يا أمة محمد، الجهاد يا أمة محمد"، وهو في ذلك مثل الجمل الفحل..، فجزاه الله خيرا على موقفه ذلك"[1].

وإذا كانت الرحلات الجزائرية قد أشارت إلى بعض الأمور السياسية فإن الرحلات المغربية لم تركز على ذكر الأمور السياسية إلا نادرا، فكان اهتمامها أقل من الرحلات الجزائرية إلا في بعض الأحيان، وهذا ما سيتضح من ذكرها الحديث عن المرحلة الأولى من الحكم العثماني في "الجزائر" في رحلة الوزان الذي تحدث بشيء من التفصيل عن بدايات دخول الأتراك إلى "الجزائر" منذ استنجاد أهلها بالإخوة "بربروس"، وذلك في نص حديثه: "**وأراد أهل الجزائر أن يفسخوا الهدنة(التي عقدوها مع اسبانيا)، ويتخلصوا من الخراج..، فأرسلوا إلى بربروس ليكون قائدا لهم نظرا لقيمته العسكرية العظيمة..، ونودي به ملكا فضرب السكة وأذعن له جميع السكان بالطاعة وأرسلوا إليه الخراج..،وقيل لي أن بربروس (عروج) قتل في ذلك الوقت بتلمسان، وبويع أحد أخويه المسمى خير الدين أميرا على الجزائر وما زال يحكمها إلى الآن"**[2].

وعن المرحلة الأخيرة –مرحلة الدايات– تحدث الزياني عن الداي الذي كان يطلق عليه اسم الدولالتي في ذلك الوقت، وذلك في حديثه عن باي "قسنطينة""حسن باشا" فقال: "**وهذا الباي حسن باشا..، لما دخلت تلمسان..، كان قبل ولايته منفيا بتلمسان عند واليها الباي محمد بن عثمان، حيث شكاه باي قسنطينة لدولالتي الجزائر..، فبقي بتلمسان إلى أن قتل أهل قسنطينة صالح باي، فولاه دولالتي الجزائر بقسنطينة.."**[3]، كما ذكر أيضا داي "الجزائر""حسن باشا" الذي كان معجبا به ومدحه في عدّة مواقف، ومن فضائله أن:"**شمل عدله الرعايا سهلا وجبلا وشاعت مكارمه أفرادا وجملا.."**[4].

---

[1] ابن حمادوش، لسان المقال، ص255، 256.

[2] الوزان، وصف إفريقيا، 39/2/2، ويقصد عام 924هـ/ 1518م.

[3] الزياني، الترجمانة، ص125.

[4] المصدر نفسه، ص375، 376.

ورغم وجود هذه الإشارات إلا أنّها تبقى قليلة لتوضيح المراحل المختلفة للوجود العثماني بالجزائر.

الفرع الثاني: التنظيمات والأجهزة الإدارية

كانت الأوضاع السائدة في الإدارة الجزائرية آنذاك ترتكز على تقسيم يتلخص في الأقاليم الإدارية الأربع، وكانت كل وحدة منها تعرف بالبايلك، والمتمثلة في: **دار السلطان** بالعاصمة وضواحيها، **بايلك التيطري** بـ"متيجة" وما جاورها، **بايلك الشرق** بالمدن الساحلية كـ"جيجل" و"القل" و"عنابة" إمتدادا إلى "قسنطينة"، **وبايلك الغرب** مقره الأول "مازونة" ثم "معسكر" ثم "وهران"، وقد ورد ذكر بعض التنظيمات والأجهزة الإدارية في بعض الرحلات الجزائرية، كالبايلك، ورجال الحكم والإدارة، وكذلك أعمال بعض الولاة.

ومن بين الإشارات الصريحة إلى البايلك في الرحلات الجزائرية ماجاء في رحلة ابن إدريس التنلاني الذي ذكر "**بايلك التيطري**"في حديثه عن خروجه من "بني ميزاب" قاصدا "التيطري": "**أول عمالة صاحب الجزائر**"[1]،كما أشار ابن هطّال إلى "بايلك التيطري" أيضاعند ذكر أهل مدينة"زنينة" الصحراوية: "**الذين جاءهم باي التيطري من قبل فقتلوا من رجاله وطردوه رفضوا الانضمام تحت حكمه**"[2].

كما ورد ذكر بعض رجالات الحكم ورؤساء الإدارة أيضا بعبارات صريحة وواضحة، كالبايات وبعض معاونيهم من الخواجات والكتاب..، فالمعسكري يذكر الباي "مصطفى" الذي بنى مدينة "وهران" في قوله: "**وقد بناها الملك الأصفى والخليل الأوفى والمحب الأضفى السيد الباي مصطفى..**"[3]، وذكر أيضا "محمد بن عثمان" باي "وهران"الذيوصفه بـ: "**السادل على الرعية الأمن والأمان**"[4]، وذكره في موضعا آخر مادحا إياه في قوله: "**وكنت مرة قصدت وهران وافدا على حضرة من ناب في مدحه لسان الحال عن لسان المقال ذي المقام الذي أطلعت أزهاره غمائم جوده، واقتضى اختياره بركة جوده، الملك الأصيل الذي كرم منه الإجمال والتفصيل، الرفيع الشأن السيد محمد باي ابن**

---

(1) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص241.

(2) ينظر: ابن هطال، رحلة الباي، ص48.

(3) المعسكري، فتح الإله، ص75.

(4) المصدر نفسه، ص75.

عثمان.."[1]، وذكر ابن هطال الباي "محمد بن عثمان" الملقب بـ"الكبير" من بداية رحلته إلى آخرها باعتبار رحلته كلها تدور حول شخصيته.

وبالإضافة إلى البايات ورد ذكر بعض معاونيهم كالخواجات، فذكر ابن حمادوش "**خوجة الملح**" في سياق حديثه عن تهربه من دفع المكس على سلعته، عندما جاءه خوجة الملح ليأخذ منه المكس عن دكانه زمن علج "باشا إبراهيم" ، ونص حديثه في ذلك : "**إلى يوم الإثنين فتحت دكاني وكنسته وجلست فيه بعد صلاة ظهر الجامع الكبير وكان لي تلميذ ابن عمتي يصطحب مع خوجة الملح وكان إذ ذاك علج الباشا إبراهيم، فطلبت منه أن يطلب من صاحبه إجازة سلعتي فنزل إليه وجلس عنده حتى وجهتها له هنا فأدخلها مخزنه وبعثها مع أحد خدامه فلم يمسكها صاحب الباب فسلمت من المكس، ودفعت كراء المركب ثلاث سلطانية ذهبا**"[2].

أما عن الولاة وأمر تعيينهم وبعض أعمالهم، فذكر الورثلاني ولاة "قسنطينة" في قوله: "**مع تداول أولي الأمر على قسنطينة، وعادتهم إذا جاء وال جديد غيّر أهل الدولة الأولى وردّ ما يصلح به من الولاية الأولى إلى أصحابه..**"[3].

والرحلات المغربية بدورها لم تذكر الأجهزة الإدارية بالتفصيل كنظيرتها الجزائرية، وعلى كل فقد وردت بعض الإشارات الخفيفة إلى بعض الأجهزة الإدارية بأفرادها، كنظام البايلكات الذي يترأسه الباي، إذ تحدث المكناسي عن "بايلك الشرق" وحاكمه في سياق حديثه عن مدينتي "قسنطينة" و"البيبان"، ففي "قسنطينة" يوجد خليفة حاكم الجزائر ويسمى باي الشرق، وأهل "البيبان" إيباء لا ينقادون إلى الباي، حيث يرصدون ما يبعثه باي "قسنطينة" من الخراج إلى مركز الإمارة بـ"الجزائر" ويقطعون عليه الطريق[4]، كما ذكر الزياني عدّة بايات، منها ماجاء في نص حديثه عند انتقاله في سفره من "تلمسان" إلى "قسنطينة" إذ قال: "**وتوجهنا من الجزائر لقسنطينة وكان فصل الشتاء وكنت قدمت وقت إقامتي بالجزائر مكتوبا لصاحب لنا من تلمسان من أصحاب باي قسنطينة ليكتري لنا**

---

(1) المعسكري، فتح الإله، ص100.

(2) ابن حمادوش، لسان المقال، ص114.

(3) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 233/1.

(4) المكناسي، الإحراز، ص330.

منزلا نستقر به...، فبلغنا قسنطينة..، فسألتهم عن التلمساني الذي كلفته بكراء المنزل فأخبروني أنه في بيته وأنه سقط عن فرسه يوم خروج الباي للحركة..، وهذا الباي حسن باشا..، كان قبل ولايته منفيا بتلمسان عند واليها الباي محمد بن عثمان حيث شكاه باي قسنطينة لدولالتي الجزائر..، فبقي بتلمسان إلى أن قتل أهل قسنطينة صالح باي.."[(1)]، وصالح باي (باي قسنطينة) هذا ذكره أيضا في سياق حديثه عن الخوجة "علي كرغلي" الذي كان كاتبا لدى باي "قسنطينة" "صالح باي"، وذكر أيضا حاشية الباشا في سياق حديثه عن زيارته لمدينة "الجزائر" حين حضر معه بعض أصدقائه من أهل دولة الباشا كاتبه وحاجبه وصهره، وأشار أيضا إلى بعض الأجهزة الإدارية الأخرى، كالديوان الذي كان أهم تنظيم إداري، فذكر ديوان الوزارة، ونظام القضاء في سياق ذمّه لقاضي المواريث الذي لقيه بجامع "تلمسان" ووصفه بالتكبر والجهل كما سنورد في عنصر لاحق[(2)].

رغم وجود بعض الإشارات إلى بعض مراحل الحكم العثماني بـ"الجزائر" في بعض الرحلات المغاربية التي عاصرها الرحالة، أو بعض الشخصيات السياسية الفاعلة آنذاك، إلا أن الغالب على هذه الرحلات أنها كانت شحيحة نوعا ما في هذا الجانب، إذ لم تعرض لنا تفاصيل مهة عن الجهاز الإداري أومخططا واضحا يرسم لنا نظام الحكم العثماني في الجزائر.

المطلب الثاني: الأوضاع السياسية في المناطق الجنوبية للجزائر

لم يكن ذكر تقسيمات المناطق الصحراوية حسب خضوعها لسلطة الأتراك في مختلف الرحلات المغاربية صريحا ومقصودا، إنّما ورد ضمنا في وصف هذه الرحلات لمختلف تلك المناطق، التي تحدث عنها هذا المطلب في الفروع الثلاثة الموالية: الفرع الأول في الحديث عن المناطق المستقلة عن حكم العثمانيين، والفرع الثاني في الحديث عن المناطق الخاضعة لحكم العثمانيين، والفرع الثالث في الحديث عن المناطق المستقلة عن أي حكم.

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص151، 152.

(2) المصدر نفسه، ص140، 142، 154.

الفرع الأول: مناطق مستقلة عن حكم العثمانيين

وردت بعض الإشارات الدالة على وجود مناطق مستقلة في حكمها عن الحكومة العثمانية في الجزائر في بعض الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية ذكر الأغواطي أنّ "عين ماضي" لها حاكم يسمى "ولد التجيني"، ولـ"ورقلة" أيضا سلطان يحكمها وهي مقسمة إلى ثلاثة عروش هم: "بنو واقين"، و"بنو إبراهيم"، و"بنو سيسين"، وبجنوب "تيميمون" تقع قرية "أولف" التي تعتبر البلدة الرئيسية في واحة "توات" ولها نفوذ على جميع المنطقة، والسلطان فيها له جنود تضرب بين أيديهم الطبول وله سلطة توقيع العقوبة والسجن، كما أن لـ"تقرت" حاكم تضرب الطبول أمامه ويملك سلطة إصدار حكم الإعدام وفي استطاعته إحراق المنازل والاستيلاء على أملاك الأفراد[1]، وفيما أورده الأغواطي إشارة إلى أنّ هذه المناطق كانت مستقلة استقلالا تاما عن حكم الأتراك، وإدارتها محلية تتم عن طريق حكم أمراء وشيوخ محليين.

كما ذكر ابن إدريس التنلاني أن أهل "غرداية" المزابيين تحت طاعة صاحب الجزائر في التسمية، لكنهم مستقلون في حكمهم، ملتزمون بنظام "العزابة"* لا طاعة لهم لأي جهة خارجية عن الإباضية، وفي نفس السياق أشار إلى أن إقليم "توات" في طاعة المولى سليمان ملك "المغرب" عندما قال: **"مولانا سليمان"**[2].

ومن خلال بعض الرحلات المغربية التي اتّخذت من الصحراء الجزائرية طريقا لها يظهر أن بعض المناطق في الصحراء كانت مستقلة لا تخضع للحكم العثماني،فكانت تحت تصرف أمراء محليين، فمن خلال رحلة العياشي كان بـ"وادي الساورة" أمير يحارب اللصوص، وكانت "القليعة" في طاعة سلطان ورقلة، وبـ"ورقلة" أمير يحكمها يدعى "علاهم"، و"مقوسة"" في طاعة "وادي ريغ" وأهلها كانوا في حرب مع أمير ورقلة، و"تماسين" أميرها ابن عم أمراء "تقرت" وهو كالمستقل في بلده، كما أنّ أمراء "تقرت" وهم

---

(1) ينظر: الأغواطي، الرحلة، ص89، 92، 93، 100.

*العزّابة: عبارة عن مجلس يسير شؤون الإباضية، أسس قواعده العلامة أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت 440هـ)، وهو نظام اجتماعي مبني على مراعاة الدين والمحافظة عليه، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الجهلة والأغرار. ينظر: ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص240. من كلام المحقق.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص240، 241.

أولاد الشيخ "أحمد بن جلاب" وأسلافهم من بني مرين من أعدل الأمراء[1]، كما ذكر أيضا المناطق الصحراوية التي كانت خاضعة لسلطان "المغرب" وهي المناطق الممتدة من "توات" إلى بلاد "أوكورت" حين ذكر أنّ أول عمالات "توات" هي قرية "تسابت"في سياق حديثه عن العملة المتداولة فيها قال: **"دخلنا إلى أول عمالة توات وهي قرى تسابت..، وعدد المثقال عندهم أربع وعشرون موزونة، ويقولون للمثقال الأربعيني مثقال شريفي، نسبة للأمير الشريف صاحب سجلماسة، وكل هذه البلاد في طاعته.."**[2]، كما ذكر أيضا أن بلاد "أوكرت": **"هي آخر البلاد التي هي تحت طاعة الشريف صاحب سجلماسة.."**[3]، أما الحضيكي فذكر بلاد "فقيق" (فجيج) في الصحراء الجزائرية التي كانت: **"من عمالة المغرب"**[4]، في حين ذكر الدرعي أن نفس هذه البلاد (فجيج)، كان لها قائد يدعى "عبد الله الشاوي"[5].

كانت الرحلات الجزائرية قد أشارت إلى حكم المناطق المستقلة عن الأتراك من قبل أمراء محليين، أما الرحلات المغربية فقد أضافتإلى ذلك خضوع بعض المناطق الصحراوية الجزائرية لحكم المغرب.

الفرع الثاني: مناطق خاضعة لحكم الأتراك

تعدّ المناطق الواقعة تحت الحكم العثمانيمتحالفة معها، أو أرغمت على الخضوع بالقوة في فترات مختلفة، وقد جاء الحديث عن ذلك في بعض الرحلات المغاربية.

ومن تلك المناطق الصحراوية التي أخضعت للحكم العثماني حسبما ورد في الرحلات الجزائرية: مدينة "بسكرة" التي ذكر الورثلاني: **"أن الأتراك استولوا عليها إستلاء عظيما.."**[6]، ومدينة "الأغواط" التي أخضعها الباي محمد الكبير بالقوة كما ذكر ابن هطال في قوله: **"وكذلك فعل أهل الأغواط الذين استقبلوه حاملين صحيح البخاري طالبين**

---

(1) ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 115/1، 119، 122.

(2) المصدر نفسه، 80/1.

(3) المصدر نفسه، 107/1.

(4) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص83.

(5) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص730.

(6) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 241/1.

الأمان على أنفسهم وأهليهم وهم مذعنون بالطاعة"[1]، إذ وقعت معارك طاحنة بين الجيش التركي وأهالي "الأغواط"، وبعد حصاره للمدينة تمكن من إخضاع أهلها بالقوة وفرض الضرائب عليهم[2] على غرار الكثير من المدن والقبائل الصحراوية الأخرى، ويذكر ابن هطال أيضا مدينة "عين ماضي" التي أخضعها الباي محمد الكبير هي الأخرى بالقوة في رحلته التي كان دافعها الأساس إخضاع القبائل الصحراوية لحكمه، فأخضع عدة مدن وقبائل قوة وقهرا وتحالفت مع دفع الضرائب مقابل الأمان، فكان أهل "عين ماضي" الذين أقبلوا عليه يخدمونه ويلزمون أنفسهم بدفع الضرائب له من دراهم وصياغة وثياب وخيل، وغيرها من الممتلكات، وقد سبق الحديث عن هذه المدينة التي كانت مستقلة عن حكم الأتراك ويحكمها أمراء محليين[3].

وكذلك جاء في الرحلات المغربية، أن معظم المناطق الصحراوية لم تكن تابعة لحكم الأتراك، لكن الحكام الأتراك استطاعوا إخضاع بعضها بالقوة، مثل مدينة "بسكرة" التي تحدث العياشي عن وضعها المزري وتضررها لتحالف العرب والأتراك عليها إلى أن استولى عليها الترك في الأخير، فكان مما قاله: **"أنها ابتليت بتحالف الترك عليها وعساكر الأعراب، يستولي عليها هؤلاء تارة وأولئك تارة، إلى أن بنى الترك عليها حصنا حصينا على رأس الماء الذي يأتي إليها، فتملكوا البلاد.."**[4]، وقد أشار إلى هذا الوضع في "بسكرة" الزياني أيضا حين تحدث عن المدن الصحراوية فأشار إلى أنها: **"من حساب عمالة الجزائر...، وأهلها تحت قهر الأتراك ومذلة العرب.."**[5].

يتضح مما أشارت إليه الرحلات المغاربية أن الحكم العثماني لم يكن يستصيغه بعض المدن الصحراوية وأهلها، ومما قبل الدخول تحت وطأته فمن وجه الخضوع للقوة وطلب للأمن مقابل دفع الضرائب.

---

(1) ينظر: ابن هطال، رحلة الباي، ص50، 51.

(2) المصدر نفسه، ص53- 63.

(3) المصدر نفسه، ص50، 51.

(4) العياشي، الرحلة العياشية، 540/2.

(5) الزياني، الترجمانة، ص149.

الفرع الثالث: مناطق غير خاضعة لأي حكم

لم تخضع بعض المناطق الصحراوية لأي حكم، وحتى بعد محاولات الأتراك إخضاعها بالقوة وهو ما تثبته بعض نصوص الرحلات المغاربية.

ورد ذكر بعضها في بعض الرحلات الجزائرية، فمنها منطقة "وادي سوف" التي ذكر الأغواطي أن سكانها: **"لا يخضعون إلى حاكم، وهم دائما ينظمون الفرق ويسلبون العرب من أملاكهم ويصلون بغزواتهم إلى أرض الطوارق، فهم يتمتعون باستقلال كامل، ولم يطيعوا أبدا أي سلطان.."**[1]، وذكر أيضا أن سكان "جبل عمور" كذلك لا يحكمهم أي سلطان، وكذلك "تجمعوت" التي تقع شمال "الأغواط" سكانها ينقسمون إلى فريقين وليس لهم رئيس أو حاكم، وهم يتحاربون بينهم مثل أهل "الأغواط"، وكذلك غرداية ليست تحت نفود أي سلطان"[2].

وإضافة إلى هذه المدن والمناطق التي ذكرها الأغواطي، يوجد أيضا الأعراب الفارين الذين تحدث عنهم ابن هطال حين أشار إلى أن هناك مدنا في الصحراء الجزائرية من: **"الأعراب الذين لا حكم عليهم لأحد كمدينة "زنينة" فأهلها أصحاب قوة وعدة وعزة وقد جاءهم باي التيطري من قبل فقتلوا من رجاله وطردوه رفضوا الانضمام تحت حكمه"**[3]، كما ذكر عدّة قبائل تركت أماكنها هروبا من الباي (محمد الكبير)، ورفضت الخضوع له ولسلطانه منها سكان "خنيق الملح"، الذين فروا هاربين بأنفسهم، وأهل مدينتي "الخضراء" و"تاويلة" اللتان بهما البساتين والزروع الكثيرة وقد نهبها جنود الباي بعد فرار أهلها وتفرقهم في رؤوس الجبال وبطون الأودية عند سماعهم بقدومه"[4]، كما أشار الأغواطي أيضا إلى "الطوارق" المتفرقين في الصحراء ولا يخضعون لأية حكومة[5].

وجاء في الرحلات المغربية أيضا حالة عدم انقياد بعض المناطق الجزائرية إلى أي سلطة كانت محلية أو عثمانية، فبالإضافة إلى ماذكره المكناسي من أن أهل "البيبان" التي مرّ

---

[1] الأغواطي، الرحلة، ص96.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص88، 89، 91.

[3] ينظر: ابن هطال، رحلة الباي، ص48.

[4] المصدر نفسه، ص39، 40، 41.

[5] ينظر: الأغواطي، المصدر السابق، ص95.

بها أثناء رحلته "**إباء لا ينقادون إلى الباي، أي الحاكم**"[1]، كذلك توجد مناطق في الصحراء لا حكم لها لأي أحد فهم أحرار مثل الأعراب المتنقلين، وبعض الأعراب الذين غالبا ما يغيرون على المدن، أو على ركب الحجاج والمسافرين، وقد ورد ذكرهم بكثرة في أغلب الرحلات المغربية، منها ما ذكر الحضيكي عن الرجال المسلحين الذين خرجوا إليهم بالقرب من "سيدي خالد"[2]، وذكر الدرعي بعض الأعراب من "زريبة الوادي" الذين يشنون الغارات على سعي المسلمين، وكذلك أعراب من "أولاد جلال" الذين غالبا ما يسرقون الركب[3]، وذكر العياشي من هؤلاء الأعراب الذين يغيرون على الغرباء عرب "أولاد بن بوعكاز" قرب "بسكرة" الذين كثيرا ما يغيرون على إبل الركب، وكذلك ذكر الأعراب الذين كانوا يغيرون على مدينة "بسكرة" في بعض الأحيان[4].

وما نستنتجه من النصوص الرحلية الجزائرية والمغربية السابقة عن الأحوال السياسية في الصحراء الجزائرية أن أغلب المدن الصحراوية لم تكن خاضعة للحكم العثماني، وإنما كانت مستقلة عنه ولكل مدينة حاكم أو سلطان خاص بها أو أنها خاضعة لسلطان المنطقة المجاورة لها أو لشيخ البلدة أم أنها لا تخضع لأي سلطة مثل الطوارق، والتي خضعت للأتراك إنما خضعت بالقوة والقهر من الأتراك.

المطلب الثالث: الفتن والصراعات الداخلية في الجزائر

عرفت الجزائر في عهد الأتراك عدة فتن وثورات داخلية أخلّت باستقرار البلاد في مختلف مراحلها، ففي عهد الباشوات حدثت اضطرابات داخلية كبيرة منها احتدام الصراع بين القوتين العسكريتين البرية والبحرية، وتمرد بايلك قسنطينة، وثورة الكراغلة، ولم يعد الباشوات يسيطرون على الوضع[5]، حتى تدخل الإنكشارية واستغلوا ضعف الباشوات ليعيّنوا مكانهم حاكما منهم على البلاد باسم "**الأغا**"، وبذلك بدأ عهد الآغاوات الذي لم يدم طويلا، فشهدت الجزائر في عهدهم أيضا اضطرابات داخلية وتعرضت إلى عدة غارات

---

(1) المكناسي، الإحراز، ص329.

(2) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص85.

(3) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص709، 714.

(4) العياشي، الرحلة العياشية، 539/2، 540.

(5) ينظر: أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519– 1830م، رسالة مقدمة لنليل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2006م، ص26.

أوروبية، فاستاءت طائفة الرياس من وضع البلاد، فاغتيل آخر الآغوات وعيّن مكانه أحد الرياس حاكما على الجزائر باسم "**الداي**"، وفي المرحلة الثانية من عهد الدايات (1805_1830م) التي كانت بمثابة نهاية الحكم العثماني في الجزائر، عرفت الجزائر خلالها انتفاضات داخلية وتدهور الحياة السياسية والعسكرية ما أثّر سلبا على الأوضاع العامة، و ما زاد الأوضاع سوءا حملات الدول الأوروبية والولايات المتحدةالأمريكية على الجزائر[1]، وهوما أحاول توضيحه في هذا المطلب الذي قسم إلى ثلاثة فروع: الفرع الأول في الحديث عن القتال بين المسلمين، والفرع الثاني في الحديث عن الثورات الداخلية ضد العثمانيين، والفرع الثالث في الحديث عن القتال بين الحكام الأتراك، وكل ذلك من خلال الرحلات المغاربية.

الفرع الأول: القتال بين المسلمين

وردت بعض الإشارات عن وجود فتن داخلية كثيرة أثناء حكم العثمانيين بالجزائر، من بينها احتدام الصراع بين سكان الجزائر المسلمين المحليين.

فأشارت بعض الرحلات الجزائرية إلى بعض الفتن والصراعات الداخلية، منها ماتحدث عنه الورثلاني فيما يخص الأوضاع السياسية التي آلت إليها البلاد في زمنه خاصة انتشار الفتن والصراعات بين المسلمين، والذي أرجع ذلك إلى ضعف نفوذ السلطة الحاكمة على السكان واعتصام هؤلاء بالجبال، فذكر أنّ القتال بين المسلمين كان كثيرا، والفتنة بينهم قلّ أن ترتفع، والهرج بينهم قوي، وحكم السلطان غير نافذ فيهم، إذ لا يقدر عليهم، وإن كانوا قريبا من الجزائر لكونهم تحصنوا بالجبال[2]، كما أشار ابن إدريس التنلاني إلى الحروب والفتن التي كانت غالبا ما تحدث بين المدن والقبائل الصحراوية، كالحرب بين أهل "متليلي" وأهل "مزاب" التي صادفته في طريقه، وذكر أنّ أهل "الشعابنة" في "متليلي" يعتقدون أن قتال أهل "مزاب" مثّل جهاد الكفار، وقتالهم بسبب اعتزالهم وخروجهم عن مذاهب أهل السنة[3].

---

(1) شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته، ص29.

(2) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 45/1، 46.

(3) ينظر: ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص236، 237.

كما وردت بعض الإشارات في الرحلات المغربية إلى بعض الفتن والصراعات الداخلية التي كانت تحدث بين العشائر والقبائل في بعض المدن الجزائريةخاصة الصحراوية منها، فذكر العياشي فتنة حدثت في "ورقلة" بين أميرها وأهلها، وخلاصتها أن طائفة منها (وهم العصبة) اتهمهم الأمير بالقيام عليه فاتفق مع رعيته على قتلهم كلهم، فأمر بسد أبواب المدينة، وقام إليهم بالسيف بغتة، فقتل منهم مقتلة عظيمة نحوا من المائتين ولم يسلم منهم إلا من تسلق جدار السور، فأورث ذلك شحناء بينه وبين أخواله أولاد الشيخ "أحمد بن جلاب"[1]، و ذكر أيضا الحروب القائمة بين بعض القبائل الصحراوية كـ "عرب توات" وخصومهم من "بني سعيد" فقال في سياق حديثه عن وادي "إيمكيدن" ببلاد "أوكورت": "**وماءه عذب غزير..، إلا أننا وجدنا غالب المناهل قد دفنها أولاد محمد عرب توات خائفين من عدوهم، من بني سعيد أن يغيروا عليهم، فطمسوا ما في طريقهم من الماء لأجل ذلك..**"[2]، كما ذكر أيضا إغارة "أولاد صولة"على "النصف"[3] (وهو نصف الطريق بين الزاب وسيدي عقبة)، وذكر الدرعي أيضا الحرب الأهلية في "الأغواط" و"**ما حلّ بينهم من الفتن فسفكت الدماء ونهبت الأموال لنائرة بينهم، فأدخل بعضهم على بعض عرب أولاد يعقوب فقتلوهم، ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من ديارهم..**"[4]، وذكر أيضا أن "أهل بوسمغون" كانوا في خلاف بينهم، وهم "أولاد سيدي سليمان"، و"أولاد موسى" و"أولاد نقي"، وقد أصلح ركب الحجاج المغاربة بينهم، وكان من قوله: "**وجدنا أهل بوسمغون ملوا من الخلاف والنزاع فيما بينهم ورغبوا في الإصلاح..، فطلبوا من الركب الإصلاح بينهم، فتم الصلح بينهم..**"[5].

أحدثت مثل هذه الفتن حروبا أهلية دامية أثارت الفرقة وأذهبت الوحدة، وعمقت الشقة، وأفسدت بين بني البلد الواحد، وأشاعت الخوف وأذهبت الأمن.

---

(1) العياشي، الرحلة العياشية، 115/1.
(2) المصدر نفسه، 107/1.
(3) المصدر نفسه، 538/2.
(4) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص718.
(5) المصدر نفسه، ص725، 726.

الفرع الثاني: الثورات الداخلية ضد الأتراك

من الفتن الداخلية التي ورد الحديث عنها في الرحلات المغاربية نجد بعض الثورات الداخلية ضد العثمانيين، والتي جاء ذكر بعضها.

ففي الرحلات الجزائرية ورد الحديث عن وقوع عدة ثورات داخلية ضد الأتراك، مثل ثورة"درقاوة" التي قادها"محمد بن عبد الله الدرقاوي" المدعو "ابن الأحرش" والتي كانت سنة(1219هـ/ 1804م) بالشرق الجزائري ضد نظام حكم عثمان باي "حاكم بايلك الشرق"[(1)]، والتي حدثت زمن أبي راس فذكرها على هامش حديثه عن عودته من "المغرب"حينما قال: **"ثم عمتنا فتنة درقاوة وأنا لم أكن فيها"**[(2)]، وألف كتابا في هذا الشأن سماه: **"درء الشقاوة في حروب الترك ودرقاوة".**

كما حدثت "ثورة زواوة" سنة 1158هـ، ورد ذكرها في رحلة ابن حمادوش[(3)]، وهي ثورة

(1) ينظر: طلوع سعد السعود، 299/1، 300. وينظر: صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1974م، ص29. وتفصيل هذه الفتنة: عندما أصبح عثمان بن محمد بايا على قسنطينة قام عليه رجل من درقاوة ثائرا يقال له السيد أحمد بن الأحرش فتى مغربي مالكي مذهبا درقاوي طريقة درعي نسبا جاء لتلك القبائل وادعى أنه المهدي المنتظر وكان صاحب شعوذة وحيل، فرأت الناس منه العجائب وأظهر لهم الأمور الغرائب، فعقدوا له البيعة، وجندوا معه وأمره كله كذبا، فحرك بهم على قسنطينة وحاصروها يوما كاملا، وكان الباي عثمان خارجا عنها لبعض شئونه فلما سمع أتاه عاجلا، واشتد القتال وحمي الوطيس، فهزم الباي هزيمة شنيعة وولى الأدبار، فوجد المعقل على غير ما تركه، فقتل الباي هنالك ولم ينج من جيشه إلا القليل، ودرقاوة هم عامة ينتحلون العبادات ويتلبسون على الناس ببعض الخيالات، يجتمعون في الطرق== والأسواق والفنادق ومراح الدواوير والمقابر والمواسم والزوايا حلقا حلقا ويذكرون لا إله إلا الله جهرا مناوبة، ثم يذكرون الاسم المفرد بالأصوات المتجاوبة ثم يقومون للشطح والرقص بعد الأكل الكثير إلى أن يغمرهم العرق والتشرير، ويركبون على القصب والكلخ..، ويعلقون القرون وقلائد الببوش، ويتسابقون على تلك الحالة ويعتقدون أنهم على أكمل الحالة ويلبسون الثياب المرقعة ويرومون المسائل الموقعة، ويظهرون الزهد في الدنيا إظهارا كليا..، ويعظمون طريقتهم وجامعها، ويطالعون كتب التصوف فيأخذون الألفاظ الدالة على ذم الدنيا ومدح الآخرة، ويكرهون الأولياء والعلماء ويقدحون في أمواتهم، وينتسبون إلى رجل مغربي من بني زروال بوادي أبي بريح من فرقة يقال لها درقاوة يقال له الشيخ مولاي محمد العربي بن أحمد وينسبون إليه السر والنقاوة.

(2) المعسكري، فتح الإله، ص24.

(3) ابن حمادوش، لسان المقال، ص161.

قبائل من زواوة على القائد "محمد قائد ساباو الذباح"[1]، وذكر الأغواطي أيضا أن أحد الأمراء بالصحراء الجزائرية قاد حملة عسكرية ضد باي وهران ورجع منها منهزما، وهي حملة "محمد التجيني" بن الشيخ "أحمد التجاني مؤسس الطريقة التجانية" أمير "عين ماضي" على وهران سنة 1242هـ، وقد عاصر الأغواطي هذه الحملة فذكر: **"أن لحاكمها الذي يسمى ولد التيجيني حوالي مائة عبد وخزنة مليئة بالنقود ومنذ سنتين فقط (أي سنة 1243هـ) جمع أخوه جيشا بهدف الزحف على وهران والاستيلاء على خزنتها، وقد انضم جميع عبر الناحية المحيطة إلى لوائه وزحفوا بالطبول والمزامير، وأعطيت لهم الخيول والخيام، وقد سقطت مدينة معسكر في أيديهم وتقدموا نحو وهران غير أن باي وهران وزع الدراهم على عرب الحملة بهدف هزيمة هذا الجيش، وقد نجح الباي فجعلهم بذلك يسحبون تأييدهم لولد التجيني الذي قتل فيما بعد إثر هجوم قام به الباي ضد جيشه"**[2].

كما كانت هناك بعض الإشارات في الرحلات المغربية إلى رفض سكان الجزائر لحكم الأتراك، فعبروا عن ذلك الرفض بثورات، أو بمناورات ضد الحكام والعاملين معهم، فقد ذكر المكناسي أن سكان "البيبان" الإباء كانوا رافضين لحكم باي "قسنطينة" ومن تم كانوا يقطعون الطريق على مبعوثيه إلى"الجزائر" بأسلحتهم ويسلبون منهم الخراج[3]، ولكن في بعض الأحيان لا يقدر الأهالي القيام بثروات رغم رفضهم لحكم الأتراك، وذلك لغلبة الترك عليهم بالقوة، مثل أهل بسكرة، فقد ذكر العياشي أن الأهالي بها لم يقدروا على الخروج على الأتراك لتمكنهم من الماء الذي به حياة البلد وأهله[4].

---

(1) هو محمد الفراير الملقب بالذباح ولد في البليدة ودرس في زاوية تيزي راشد صاهر أسرة بني القاضي، تولى خليفة على سيباو التي كانت تتبع باي التيطري، ثم أصبح باي التيطري 1794_ 1797م، وقتل بجبل بني راتن بزواوة. ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص163.

(2) الأغواطي، الرحلة، ص89.

(3) ينظر: المكناسي، الإحراز، ص329، 330.

(4) ينظر: العياشي الرحلة العياشية، 540/2.

الفرع الثالث: القتال بين الحكام العثمانيين

ورد الحديث في الرحلات المغاربية ذكر القتال بين الحكام العثمانيين من أجل السلطة ولو في إشارات طفيفة غير مقصودة.

فعن الرحلات الجزائرية نجد ما أورده الورثلاني الذي ذكر ذلك في إشارة عابرة تخص حديثا دار بينه وبين خزناجي الداي "محمد بن بكر"، فذكر أن هذا الخزناجي قُتل هو والداي، وتولى بعده الداي "علي بوصبع" (1754، 1766م)، ونص ذلك: "**وقد سمعت من الفاضل الكامل علي الخزناجي صاحب الرحمة والدولة الشاملة ذي اللطف واللين وعدم الظلم المبين دولة محمد باشا الذي قتله غرناؤوط ليتولوا أمره فلم يرجعوا أصلا فقتلوا كما قتلوا فتولاها علي أبو الإصبع بعد موت السلطان والخزناجي**"(1).

وفي الرحلات المغربية ذكر الزياني قتال بايات "قسنطينة" بينهم من أجل الحكم، إذ يقول: "**وهذا الباي حسن باشا.. كان قبل ولايته منفيا بتلمسان عند واليها الباي محمد بن عثمان حيث شكاه باي قسنطينة لدولالتي الجزائر.. فبقي بتلمسان إلى أن قتل أهل قسنطينة صالح باي..**"(2).

ورغم قلة الإشارات في الرحلات المغاربية إلى الثورات الداخلية ضد الحكومة العثمانية إلا أنها تؤكد على عدم ارتياح الأهالي الجزائريين لحكم العثمانيين عليهم، والذي كان يغلبهم بالقهر والقوة.

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 354/3.

(2) الزياني، الترجمانة، ص151، 152.

وخلاصة الأحوال السياسية الداخلية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية، نلاحظ عدم اهتمام هذه الرحلات بتفاصيل الأحوال السياسية، وإن كان ذلك فضمن وصف المناطق أو ذكر الشخصيات، ففيما يخص مراحل الحكم العثماني نجد تركيز الرحلات الجزائرية على الإشارة إلى بعض المراحل حسب تاريخ الباشوات كما فعل ابن حمادوش، في حين ركزت الرحلات المغربية على ذكر بدايات دخول الأتراك في رحلة الوزان، وانصب اهتمام الرحلات المغاربية عموما بالإشارة إلى الحالة السياسية في المناطق الصحراوية التي بها ثلاثة أقسام: المستقلة، والخاضعة، والتي لاحكم لأحد عليها، أما عن الفتن والصراعات الداخلية فنجد الرحلات الجزائرية أكثر ذكرا لها من الرحلات المغربية، فقد ذكرت فتنة "**درقاوة**" وثورة "**زواوة**"، في حين ذكرت بعض الفتن بين القبائل والإمارات المحلية في الرحلات المغربية، وأما عن الأنظمة والأجهزة الإدارية فورد ذكرها عرضا في بعض الرحلات الجزائرية وكذلك المغربية، إذ ذكر بعض البايلكات والبايات وبعض الحكام الأجهزة كالقضاء والديوان والوزارة.

المبحث الثاني: الأوضاع السياسية الخارجية للجزائر من خلال الرحلات المغاربية

تحدث هذا المبحث عن العلاقات العامة للجزائر مع مختلف الدول المجاورة من خلال الرحلات المغاربية، سواء علاقات الجزائر مع الدولة العثمانية، أوعلاقاتها مع بعض دول المغرب، بالإضافة إلى علاقاتها مع الدول الأوروبية، وذلك في مطلبين رئيسين، الأول في الحديث عن علاقات الجزائر مع الدول الإسلامية، والمطلب الثاني في علاقات الجزائر مع الدول الأوروبية.

المطلب لأول: علاقات الجزائر مع الدول الإسلامية

هذا المطلب ركّز حديثه عن علاقات "الجزائر" مع الدول الإسلامية ذات الاحتكاك السياسي معها التي وردت إليها الإشارات في الرحلات المغاربية، والتي تقتصر على ثلاثة دول هي: الدولة العثمانية في "اسطنبول"، وجارتيها "تونس" و"المغرب الأقصى"، وبذلك قسم هذا المطلب بدوره إلى فرعين رئيسيين، الأول تحدث عن العلاقات الجزائرية العثمانية، والثاني تحدث عن علاقات الجزائر بجارتيها السابقتين.

الفرع الأول: العلاقات الجزائرية العثمانية

لم يرد الحديث كثيرا عن العلاقات الجزائرية العثمانية في مختلف الرحلات المغاربية سواء الجزائرية أو المغربية، وإنما وردت بعض الإشارات القليلة، والتي نحن بصدد الحديث عنها وإيرادها.

تدخل العلاقات بين "الجزائر" والعثمانيين في مجال الوضع الدولي للإيالة ، والذي كان متجاوبا مع سياسة الأتراك العامة اتجاه البلدان التي دخلت تحت حكمهم والتي تتصف بعدم التدخل في الحياة الخاصة لهذه الأقطار الخاضعة مما يجعل الحكم ظاهريا أكثر منه حقيقيا..، فالجزائر كانت تقع في أقصى "الدولة العثمانية" التي كانت تزداد ضعفا مع مرور الزمن، وأمام هذا الوضع أصبحت "الجزائر" شبه جمهورية عسكرية لا يربطها بالدولة العثمانية سوى رباط ديني ووازع أدبي بينما حكّامها أصبحوا يعتبرون أنفسهم حلفاء للباب العالي[1] في اتخاذهم القرارات بأنفسهم دون الرجوع إلى الباب العالي.

---

[1] ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792- 1830م)، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012م، ص21- 23.

وما يترجم هذا الوضع السياسي في إيالة "الجزائر" من خلال الرحلات الجزائرية ما ذكره ابن حمادوش من مواقف سياسية منها قضية: "**رفض استقبال سفير عثماني في الجزائر**"(1)، وهذا دليل على استقلالية الجزائر وحريتها الكاملة في ممارسة سيادتها واتخاذ قراراتها بنفسها في المرحلة الأخيرة من العهد العثماني، وفي المقابل أشار إلى علاقة التعاون بين "الجزائر" والدولة العثمانية في سياق حديثه عن إرسال المساعدات العسكرية من السلطان العثماني إلى بعض القادة في الجيش الإنكشاري بالجزائر، مثل ما حدث مع القائد الذي أرسل إلى السلطان العثماني يطلب منه المساعدة فلبى طلبه.

أما عن نوعية العلاقات بين الجزائر والدولة العثمانية في الرحلات المغربية فنجدها قد نحت منحى آخر، إذ ركّز التمقروتي على وصفها بالحسنة، ومن بين ما ذكر إرسال الهدايا من طرف رياس الجزائر وحكامها إلى السلطان العثماني وحاشيته، وقد تحدث عن ذلك في سياق حديثه عن السفن التي جاء على متنها من "اسطمبول" إلى "الجزائر"، والتي رجعت من "الجزائر" إلى "اسطمبول" محملة بالهدايا، وذلك ورد في قوله: "**ولقد سافرت السفينتان اللتان جئنا فيهما راجعتين من الجزائر إلى اصطنبول بأموال كثيرة وجباية البلاد وهدايا بأمثالها للسلطان والوزير والقبطان وغيرهم، وأموال التجار وذخائر الجند وغير ذلك، وسافر فيهما كثير المسلمين وقاضي البلد...، ونصارى الهدية..**"(2)، كما أشار إلى حسن العلاقات من خلال ذكره للتجارة القائمة بين العثمانيين و"الجزائر"، حين تحدث عن مدينة بونة فقال: "**ومنها ترفع السفن اليوم السمن الكثير إلى القسطنطنية**"(3). وفي ظاهر كلام التمقروتي أن العلاقات الجزائرية العثمانية كانت جيدة عكس ما ذكره ابن حمادوش، لأن التمقروتي كانت رحلته في بدايات العهد العثماني في "الجزائر" عندما كانت الجزائر تابعة للدولة العثمانية، أما ابن حمادوش فعاصر أواخر العهد العثماني حين استقلت "الجزائر" عن حكم الأتراك وأصبحت السيادة عليها شكليا فقط.

(1) ابن حمادوش، لسان المقال، ص120.

(2) التمقروتي، النفحة المسكية، ص130 ، وينظر: بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص61.

(3) التمقروتي، المصدر السابق، ص38.

الفرع الثاني: العلاقات الجزائرية مع دول المغرب

على غرار العلاقات الجزائرية العثمانية، لم يرد الحديث كثيرا عن العلاقات الجزائرية مع دول المغرب خاصة "تونس" و"المغرب" في الرحلات المغاربية عموما، فلا نجد إلا إشارات عابرة.

إذ لم نحصل على مايستحق الذكر بخصوص العلاقات السياسية بين الجزائر ودول المغرب "تونس" و"المغرب الأقصى في الرحلات الجزائرية، إلا ما ذكره ابن حمادوش في رحلته عن لقاء حاكم "تونس" وحاكم "تطوان" بـ"الجزائر" حين اجتمعوا بالجزائر وصلوا معا بمسجدها الكبير، وقد استغرب ابن حمادوش لاجتماعهم، **"إذ كان ذلك سابقا على أن يجتمع حاكم تونس وحاكم تطوان على الجزائر"**[1] على حد تعبيره، وفي كلامه هذا إشارة إلى توتر العلاقات بين هذه البلدان الثلاثة منذ القدم خاصة فيما يتعلق بالمشاكل الحدودية، والنزاعات بين الدويلات السابقة(الحفصية والزيانية والمرينية).

وإن قلّت الإشارة إلى العلاقات بين الجزائر ودول المغرب في الرحلات الجزائرية، فإن الرحلات المغربية كذلك لم تتحدث عن هذه العلاقات بكثرة، وإنما ركزت على ذكر العلاقات بين "المغرب" و"الجزائر" ، فوردت بعض المنثورات حول العلاقات بين البلدين والتي غالبا ما كانت نوعا ما حسنة يعتريها بعض التوتر بسبب الصراع على الحدود، بدليل حرية التنقل بين هذه البلدان خاصة أركاب الحجاج، واستقبال كبار الدولة والعلماء التونسيين والمغاربةبحفاوة، وكرم ضيافة كبيرين من طرف سكان "الجزائر" سواء المسؤلين الأتراك، أو الأهالي الجزائريين العامة والخاصة، وقد وردت هاته العلاقات الحسنة في مختلف الرحلات المغربية، فيذكر الزياني وهو الوزير المغربي ضيافة باشوات وبايات "الجزائر" وإكرام ضيافتهم له، لدرجة أنه قرر الإقامة بـ"تلمسان"، ومما ذكر في هذا الشأن استقبال باي "قسنطينة" "حسن باشا" له فقال: **"وأقمت بقسنطينة خمسة عشر يوما، وقدم الباي من حركته، فساعة دخوله للبلد قدم علي أحد الطلبة... وخبرني أن الباي بلغه خبر قدومك، وكتب لخليفته أن يكرمك ويحسن نزلك.."**[2].

---

[1] ابن حمادوش، لسان المقال، ص134.

[2] الزياني، الترجمانة، ص155.

ولكن في بعض الأحيان كانت تحدث هناك إغارات وحروب بين "الجزائر" وجيرانها خاصة "المغرب الأقصى"، ومن ذلك ما ذكر العياشي شن غارات من عرب "المغرب" على عرب منطقة "الكراكدة" بصحراء "الجزائر"، إذ ذكر ذلك في نصه: **"طائفة من من عرب مولاي محمد رحمه الله أغارت على العرب الذين بأحواز الكراكدة.."**[(1)]، وفي ذات السياق أيضا ذكر الدرعي إغارة سلطان"المغرب" في زمنه عل أهل "عين ماضي"فقال: **"سلط الله عليهم مولاي عبد الملك، مزق أعراضهم، وكسر عليهم الهيبة، وأخذ خزائن الأعراب وسط ديارهم..، ولم يترك لهم شيئا.."**[(2)].

ومن خلال هذه الإشارات يظهر أن العلاقات رغم ظاهرها الحسن إلا أنها متوترة على الدوام سواء العلاقات الجزائرية مع المغرب الأقصى.

المطلب الثاني: علاقات الجزائر مع الدول الأوروبية

إن كانت الرحلات المغاربية لم تذكر علاقات الجزائر مع الدولة العثمانية أو مع دول المغرب إلا نادرا، فإنها ذكرت العلاقات الجزائرية الأوروبية بصورة أكبر من السابقتين.

إذ كانت الدول الأوربية ناقمة على تدخل الإخوة "بربروس" وتتحسر على الفرصة التي ضاعت على "أوروبا" والعالم الصليبي بانتصار "الجزائر" عليهم وطرد "الإسبان" من سواحل "إفريقيا" الشمالية، لذلك كانت الدول الأوروبية تشن غارات متوالية على سواحل "الجزائر" والتي كانت تعود عليهم بالوبال وفقدان سفنهم ودفع ضرائب مرهقة للدولة الجزائرية[(3)]، إلى أن سقطت قوتها أمام فرنسا سنة 1830م، في حين كان يتخلل هذه الغارات والحروب بعض معاهدات الصلح والمهادنة بين الجزائر والدول الأوروبية، وهو ما سنعرفه في هذا المطلب الذي قسم إلى فرعين هو الآخر: الفرع الأول يخص الحرب بين الجزائر ودول أوروبا، والفرع الثاني يخص عقود الصلح والمهانة بين الجزائر والدول الأوروبية.

[(1)] العياشي، الرحلة العياشية، 548/2.

[(2)] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص130.

[(3)] ينظر: ابن إدريس التتلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص213، 215.

الفرع الأول: الحرب بين الجزائر ودول أوروبا

وردت عدّة إشارات تخص العلاقات المتوترة بين الجزائر ودول أوروبا والتي تنتهي غالبا بالحروب الطاحنة بين الطرفين في بعض الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية التي ذكرت الإغارات الأوروبية على سواحل الجزائر ذكر ابن إدريس التنلاني حملة الإنجليز على "الجزائر" في سياق وصفه للأحداث التي شاهدها في طريقه (من تنلان إلى الجزائر)، وما شاهده في العاصمة ومنها حملة الإنجليز على "الجزائر" سنة 1816م، فذكر نزول سفن الإنجليز بها ومما ذكر: "**فلما كان يوم الأحد من شهر تاريخه عند العصر نزلت سفن عدو الله "بدر لنكليز" قرب الجزائر في البحر وهي أربعون سفينة، وكل سفينة فيها مائة مدفع كبير، كل مدفع عمارته قنطار بارود ونزلوا بعيدا عن المدينة بحيث لا تصلهم الرمية من الجزائر...، وفي ضحى صبيحة الثلاثاء بدلوا جميع أعلام سفنهم وجعلوها سوداء، وهي أعلام الحرب...، ودخل (قائد الإنجليز) بسفنه لداخل مرسى الجزائر...، فلما استقر النصراني بوسط المرسى كان أول ما بدأ به...رمى ساقية الماء بثلاثة مدافع...، ثم والى على المدينة بالبارود وذلك بعد صلاة الظهر وقبل العصر، وبعد استقراره بالمرسى وتمكنه أحرق جميع سفن الجزائر...، وحرقه للسفن هو أعظم نكاية...فلما كان نصف الليل نادى النصراني بالبيات إلى الصباح..**"(1)، وكان لهذه الحرب نتائج وخيمة على مدينة "الجزائر" وسكانها، فقد ذكر التنلاني الخراب الذي نتج عنها إذ: "**لا تقع عين من فيها إلا على الخراب..**"(2)، وأعظم الخراب كان في الدور والمنازل والأسوار، وبرج الفنار وكذلك الجامع الكبير، وأما عن الخسائر البشرية فقد ذكر أنه: "**مات من المسلمين ثلاث مائة وإحدى وأربعين رجلا، وسبعة وأربعون رجلا أكلهم البارود والكور، شاهدت في الجامع الكبير يوم التاسع بعد القتال رأس رجل وكتف آخر، وكرش آخر بمصارينه، كانوا ينقلون خراب الجامع فكل ساعة يجدون مفصلا من رجل...**"(3)، كما ذكر هدم روضة "عبد الرحمن الثعالبي"، وقبة

(1) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص244– 248.

(2) المصدر نفسه، ص248.

(3) المصدر نفسه، ص248، 249.

مسجده[1]، كما أشار المعسكري إلى معركة طاحنة بين النصارى والمسلمين في وهران في سياق حديثه عن شيخه "السنوسي بن السنوسي" الذي استشهد في هذه المعركة التي لم يكن لها مثيل أبدا فأخبر عنه أنّه: **"قتل مجاهدا في معركة عظيمة بين المسلمين ونصارى وهران فكان بينهم حرب لم تنسج الأزمان على منوالها ولا أتت الأيام الحبالى بمثل أجنة أهوالها من قاسها بـ "حرب الفجار" أفك وفجر، ومن شبهها بـ "حرب داحس والغبراء" فما عرف الخبر ومن نظرها بيوم جبلة فهو ذويلة، أو عادلها بـ "بطن عاقل" فهو غير عاقل، أو احتج بـ "يوم ذي قار" فهو في المعرفة ذو افتقار، أو ناضل بـ "يوم الكديد" فسهمه غير سديد، إنما كان مقاما غير معتاد، ومرعى لنفوس لم يف بوصفه لسان مرتاد، وزلزال جبال أوتاد، أعلم فيه البطل الباسل، وتورد الأبيض الفاتر وتأود الأسمر العاسل، ودوم الجمد المتكاسل، وانبعث من حدب الحنية إلى هدف الرمية الناشر الناسل، ورويت طرسلات السهام المراسل، ثم أفضى أمر الرماح إلى التشاجر والارتباك، ونشبت الأسنة في الدروع نشب السماك في الشباك، ثم اختلط المرعى بالهمل، وعزل الرديني عن العمل، وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا بعد أن شقت غدر السوابغ خلجانا، واتحدت جداول الدروع فصارت بحرا، فلا ترى إلا نحرا يلازم نحرا، وعناق وداع وموقف ذي انصداع، وإجابة مناد إلى فراق الأبد داع، ثم استخلص العزم صفوة اللباب، وكاد لسان النصر أن يقول أوصدوا عليهم الباب، فأصبحت طوائف الكفار حصائد مناجل الشفار، ورؤوسهم محطمة في غير مقام الاستغفار، وعلت الرايات على الأبراج والأسوار، ورفرفت على المدينة جناح البوار، لولا الانتهاء إلى الحد والمقدار.."**[2]، وفي سياق مدحه للباي "محمد بن عثمان" ذكر جهاد الباي ضد النصارى في وهران حيث قال فيه: **"أخلص الله جهاده، ويسر في قهر أعداء الدين مراده بأبسط العدل والأمان، قابض أكف العدوان، الجميل النوال، المتكفل بحفظ النفوس والأموال..، هازم أحزاب العاندين وجيوشها، هادم الكنائس والبيع "فهي خاوية على عروشها" الشهير الخطير الرفيع المجاهد المرابط.."**[3].

---

(1) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص253.

(2) المعسكري، فتح الإله، ص73، 74.

(3) المصدر نفسه، ص100.

ومن خلال نصوص ابن إدريس التنلاني والمعسكر يظهر أن العلاقات بين الجزائر والدول الأوروبية كانت متوترة في أغلب الأحيان تجسدها تلك الحملات العسكرية الأوروبية على المدن الساحلية الجزائرية كالجزائر ووهران.

كما ذكرت بعض الرحلات المغربية العلاقات الجزائرية الأوروبية المتميزة بالتوتر والحروب في غالب الأحيان، إذ كانت الدول الأوروبية تشن غارات وحروب متوالية على سواحل "الجزائر"، منها ما ذكره التمقروتي عن الصراع المرير بين "الجزائر" وأعدائها في البحر المتوسط، حيث ذكر تعرض سفن جزائرية للقرصنة الأوروبية[1]، كما ذكر أيضا أن "وهران"حينما كانت تحت وطأة الاسبان"[2]، كما نجد أن المكناسي أيضا يذكر كثرة الإغارات الأوروبية خاصة الإسبانية على السواحل الجزائرية، ففي حديثه عن مدينة "الجزائر" وتحصيناتها ذكر أن: "**هذه المدينة في غاية التحصين..، وبأسوارها الأبراج والمدافع لناحية البحر، لأن النصارى كثيرا ما يقصدونها بالمراكب الحربية والعساكر الكثيرة، وينزلون إلى البر..، ولاسيما جنس الإصبنيول، فقد تردد إليها بالحرب مرات..**"[3]، وقد ذكر معركة حامية شنها الإسبان على مدينة "الجزائر" في نصّ قوله: "**فقد أتاها في العشرة الأخيرة من المائة الثاني عشر مرتين بالمراكب العديدة والجيوش المديدة، ونزل إلى البر، وأنزل المدافع، وصعب أمره ومنع المسلمين من الوصول إليه بكثرة المدافع، فاجتمع المسلمون يفكرون فيما يأتون، فألهمهم الله تعالى لجمع الإبل الكثيرة، وتترسوا بها وساقوا أمامهم تجاه العدو وعساكر المسلمين خلفها، فخرجت مدافع النصارى وكورهم في الإبل، وحمل المسلمون على الكفار ونصر الله تعالى دينه وأمكن من الكفار وقتلوا تقتيلا..**"[4]، أما الرحالة ابن زاكور الذي كان شاهد عيانعلى إحدى الغارات الفرنسية على مدينة "الجزائر" التي كانت صيف 1094هـ/ 1682م بقيادة الأميرال الفرنسي "دوكين"، وقد ذكرها عند حديثه عن وفاة شيخه"أبو عبد الله بن خليفة" وقوله في ذلك:"**اغبرت لفقده تلك البلاد، ورميت على أثر ثكله بداهية نئاد،**

---

[1] التمقروتي، النفحة المسكية، ص129، 130.

[2] المصدر نفسه، ص29.

[3] المكناسي، الإحراز، ص331.

[4] المصدر نفسه، ص331.

وزحف إليها الهول بالضحّ والريح، وغادر أهلها بين قتيل وجريح..، وغصّ بسفائن النصارى بحرها، فزلزلوا قصورهم النواظر، بصواعق أمثال القناطر، ورجموا مصانعهم العادية بشهب هندوانية.."[1].

رغم قلة النصوص الواردة والإشارات إلى مثل هذه الحروب والإغارات إلا أن ما ذكر كان كافيا لبيان الأطماع الأوروبية تجاه "الجزائر".

الفرع الثاني: عقود الصلح والمهادنة بين الجزائر ودول أوروبا

ورغم ما تميزت به العلاقات الجزائرية الأوروبية بالتوتر والحروب كما سبق أن رأينا، إلا أن تلك الحروب كانت تتخللها فترات المهادنات ومعاهدات الصلح، كما جاء ذلك في بعض الرحلات المغاربية سواء الحديث عن قضية الأسر أو الصلح.

ففي الرحلات الجزائرية تحدث ابن حمادوش عن علاقة الجزائريين بالنصارى خصوصا في قضية النشاط البحري لرياس "الجزائر" حين وقعوا في قبضة النصارى ورفضوا فديتهم، ففي **"يوم الإثنين سادس الشهر المذكور (ربيع الثاني هـ/ماي م) جاء أوراق من بر النصارى (ربما يقصد الإسبان) وأنهم لا يريدون فداء المسلمين وخصوصا ابن الحاج موسى ونظرائه من الرأسا (الرياس) المشتهر أمرهم.."**[2].

أماعن معاهدات الصلح والمهادنة فذكر ابن حمادوش الصلح بين "الجزائر" و"الدانمارك" الذي كان عام 1159هـ، فـ:**"في يوم الجمعة وقع الصلح بين الجزائر والدانمارك من النصارى نوع من الفلامنك.."**[3]، أما ابن إدريس التتلاني فذكر نهاية حرب الإنجليز على "الجزائر" بالمهادنة وعقد الصلح بين داي "الجزائر" وقائد الحملة الإنجليزية فقال: **"وعلم صاحب الجزائر أنه لا طاقة له به ولا بحربه فطلب منه العافية.. على شروط"**[4]، ومن هذه الشروط: أن يرد صاحب "الجزائر" إلى الإنجليز كل أسير عنده، **"فوقع الصلح بينهم وانعقد قيل: خمس سنين، وقيل: خمسة أشهر.."**[5].

---

(1) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص30، 74.

(2) ابن حمادوش، لسان المقال، ص119.

(3) المصدر نفسه، ص257.

(4) ابن إدريس التتلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص249.

(5) المصدر نفسه، ص250.

كما جاء الحديث في بعض الرحلات المغربيةعن بعض المهادنات بين "الجزائر" والنصارى التي كانت تعقد في بعض الأحيان، فذكر الزياني طلب "الإسبان" للأمان مقابل تسليمهم "وهران" بعد خسارتهم في معركة تحرير "وهران" على يد الداي "حسن باشا" فأعطاهم ذلك، ومما ذكر في ذلك: **"ثم صرف همته لجهاد مدينة وهران، وإخلائها من عبدة الصليب أهل الضلال والخسران، ووجه لها عساكره...، وحاربوهم حرب المهاجرين والأنصار...، إلى أن صار البلد عليهم دكا...، فطلبوا الأمان لأنفسهم على أن يسلموا البلاد...، فأنعم لهم بذلك ووفى.."**[1]، كما توجد تفاصيل أخرى بهذا الخصوص لا يسع المجال لذكرها جميعا.

وفي الأخير يتضح من خلال الرحلات المغاربية أن العلاقات الخارجية لـ"الجزائر" كانت متباينة ومضطربة، فأحيانا تكون العلاقات حسنة سواء بين "الجزائر" و"الدولة العثمانية"، وأحيانا متوترة حيث تمارس "الجزائر" سيادتها بحرية واستقلال عن "الدولة العثمانية"، أما عن العلاقات الجزائرية بدول المغرب فكادت ألا تذكر في الرحلات الجزائرية سوى إشارات طفيفة، وفي المقابل ركزت الرحلات المغربية على ذكر علاقات "الجزائر" مع "المغرب الأقصى" والتي تميزت بالحسنة أحيانا وبالتوتر والحروب أحيانا أخرى، أما فيما يخص العلاقات بين "الجزائر" و"أوروبا" فنالت نصيب الأسد في الرحلات المغاربية عموما، إذ ركزت الرحلات الجزائرية وكذا المغربية على ذكر بعض الإغارات والهجمات الأوروبية على "الجزائر"، كما ذكرت بعض معاهدات الصلح والمهادنات بين "الجزائر" وبعض دول "أوروبا" أيضا.

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص376.

المبحث الثالث: الأوضاع العسكرية للجزائر من خلال الرحلات المغاربية

أما عن الأوضاع العسكرية للدولة الجزائرية في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية، فتظهر من خلال ثلاث نقاط رئيسة هي: القوة البحرية، والقوة البرية، بالإضافة إلى الأمور الحربية الأخرى، ولذلك قسم هذا المبحث إلى مطلبين: المطلب الأول خصّ القوتين البحرية والبرية، والمطلب الثاني تحدث عن الاستعدادات الحربية.

المطلب الأول: القوة البحرية الجزائرية

هذا المطلب قسم بدوره إلى فرعين: الأول في الحديث عن الأسطول، والثاني في الحديث عن الرياس والغنائم البحرية.

الفرع الأول: الأسطول البحري الجزائري

اكتسبت "الجزائر" قوتها العالمية وهيبتها الدولية من قوة أسطولها البحري، وذكاء رياسها الذين كانوا يشكّلون الرعب في حوض البحر المتوسط، كما كانت مداخيلها غالبا ما تكون من غنائم هؤلاء البحارة، وكل هذه الأمور ورد الحديث عنها أو الإشارة إليها في الرحلات المغاربية.

ومن تلك الإشارات التي وردت في بعض الرحلات الجزائرية نجد بعض الإشارات الصريحة بخصوص الأسطول الجزائري الذي تحدث عنه ابن إدريس التنلاني في رحلته حينما تحدث عن إحراق الإنجليز لسفن "الجزائر" في المرسى فمما ذكر أنه: **"وبعد استقراره بالمرسى وتمكنه أحرق جميع سفن الجزائر، وهي أربعة عشر سفينة كبار جدا، فثلاثة عشر: أحرقها لم يبق لها أثر، والرابعة عشر بقي شيء منها"**[(1)]، فكان لإحراق السفن آثارا وخيمة وخسارة فادحة ما بعدها خسارة، إذ يكمل التنلاني قوله عن ذلك:

---

(1) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص248.

"**وحرقه للسفن وهو أعظم نكاية، لم يبق فوقها نكاية**"[1]، ويفهم من كلامه أن "الجزائر" كانت تمتلك أسطولا بحريا كبيرا.

كما ورد الحديث عن الأسطول العثماني في بعض الرحلات المغربية،فقد تحدث التمقروتي عن قوة الأسطول البحري العثماني بـ"الجزائر"، وعن كثرة السفن بها، وأشاد بشجاعة رياسها وتفوقهم العسكري على أتراك "القسطنطنية"، فمما ذكر أن"**مرساها عامر بالسفن..**"[2]، أما الزياني فتحدث أيضا عن السفن في "الجزائر" وقد ذهب لمشاهدتها بعينه مباشرة بعد أن سمع عنها وعن قوة الأسطول الجزائري الذي ذاع صيته في ذلك الحين، فذكر أنه ذهب إلى المسجد فصلى الجمعة وانحدر إلى المرسى لرؤية المراكب وآلتها وتحقيق خبرها بالمشاهدة[3]، كما ذكرها حين عودته وهو يصف "**الداي حسن باشا**" ويمدح أعماله التي كان من بينها اكثاره" **من الجواري المنشآت في البحر كالأعلام..**"[4].

من خلال كلام هؤلاء الرحالة نلاحظ اهتمام الحكام العثمانيين بالأسطول البحري كقوة حربية كبيرة يعول عليها في رد العدوان وحماية البلاد.

الفرع الثاني: الرياس والغنائم البحرية

من المعروف أن رياس البحر في بداية الحكم العثماني بـ"الجزائر" كانوا يتحكمون في زمام السياسة والحكم فيها، فمنذ دخول الأتراك إلى "الجزائر"، بدأ تعيين حكامها من قبطان البحرية، وكان أولهم رسميا "خير الدين بربروس"، بعد أخويه "إسحاق" و"عروج" الذين كانا قائدين للبحرية قبله.

ولأن مختلف الرحلات الجزائرية لم تكن معاصرة لزمن الرياس في الجزائر لذا لم نجد لهم ذكرا في هذه الرحلات، سوى في رحلة ابن حمادوش الذي تحدث عن تولي بعض الرياس للحكم في "الجزائر" وقد أطلق عليهم لقب: "القبطان"، ومن الرياس الذين ذكرهم نجد في مقدمتهم: "الإخوة بربروس"، الذين ذكرهم في سياق حديثه عن الباشوات الذين حكموا "الجزائر" من البداية كما سبقت الإشارة، وذلك في المرحلة الأولى من الحكم، حين ذكر

---

[1] ابن إدريس التتلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص248.

[2] التمقروتي، النفحة المسكية، ص129. وينظر: بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص57.

[3] الزياني، الترجمانة، ص151.

[4] المصدر نفسه، ص376.

أنّ الحكم في أول أمره كان بيد: **"الباشلار القادمين من اسلام بول من الخليفة العثماني"**[1]، وذكر أيضا أن أول باشا قدمإلينا هو "إسحاق" وجاء بعده أخوه "عروج باشا"، وبعدهما أخوهما "خير الدين باشا"[2]، و"خير الدين" الذي عين حاكما رسميا على "الجزائر"، وهؤلاء "الإخوة بربروس" هم من قباطنة البحر، أو كما يطلق عليهم اسم الرياس، ومنهم أيضا "القبطان الحاج محمد تريكي داي" وهو أول من سمي "دولاتلي"، وقد تولى الحكم بعد الحاج "علي آغا" عام 1075هـ[3]، وقوله قبطان يعني أنه من رياس البحر، ومنهم أيضا "الحاج حسين موزمورط"، وهو الذي تولى الحكم بعد "بابا حسن"، وذلك عام 1094هـ، وقد أشار ابن حمادوش إلى أن الحاج حسين "موزمورط" كان أيضا من رياس البحر"[4]، ونجده قد أورد أيضا قائمة طويلة بأسماء الرياس الذين حكموا الجزائر، نورد منهم على سبيل الذكر والإيجاز: "صالح باشا" ابن "خير الدين" الذي تولى عام 959هـ، و"حسن باشا" ابن خير الدين الذي تولى عام 964هـ، و"حسن باشا" بن القبطان الذي تولى عام 985هـ، و"قبطان باشا" الذي تولى عام 989هـ[5]؛ فكل هؤلاء من رياس البحرية العثمانية في "الجزائر".

كما ورد الحديث عن الغنائم البحرية في رحلة الورثلاني، الذي أشار إلى أنّ مداخيل الجزائر من غنائم البحر كانت كثيرة جدا، وذلك في نص حديثه أنّ: **"مادة البحر في الجزائر أوسع من مادة البر.."**[6]، ففي كلامه هذا إشارة واضحة إلى النشاط البحري لرياس "الجزائر" الذين استطاعواتوفيرغنائم باهضة تعتبر المادة الأولية لملء خزينة الدولة.

وقد ورد الحديث عن رياس البحر أيضا في بعض الرحلات المغربية منها رحلة التمقروتي كما سبقت الإشارة إلى إشادته بشجاعة رياس "الجزائر"، ومن قوله في ذلك: **"ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر يقهرون النصارى**

---

[1] ابن حمادوش، لسان المقال، ص228.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص228.

[3] المصدر نفسه، ص226. والدولاتلي: هو تركيب من الداي والدولة أي: الحاكم غير المعين من قبل السلطان العثماني. ينظر: المصدر نفسه، ص226. من كلام المحقق.

[4] المصدر نفسه، ص226.

[5] المصدر نفسه، ص228، 229.

[6] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 355/3.

في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسطنطنية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبا في قلوب العدو.."[1]، وذكرهم الوزان أيضا في سياق حديثه عن بدايات دخول الأتراك إلى "الجزائر" جرّاء استنجاد أهلها بالإخوة "بربروس"، وهم رياس "الجزائر"، فذكر "عروج بربروس"ومحاولته استرجاع "بجاية" من يد النصارى(الاسبان) ، كما ذكره في موضع آخر حين تحدث عن الهدنة بين أهل "الجزائر" وملك "إسبانيا"حين أراد أهل "الجزائر" أن يفسخوا الهدنة فأرسلوا إلى "بربروس" ليكون قائدا لهم، كما ذكره عند حديثه عن حصار "بربروس" لقلعة "بجاية"[2]، ويقصد ببربروس التركي في هذه المواضع "عروج"، كما ذكر "خير الدين" أيضا أثناء حديثه عن سماعه بخبر وفاة "عروج"وهو في طريق رحيله إلى "تونس"، فقال: **"وقيل لي أن بربروس قتل في ذلك الوقت بتلمسان وبويع أحد إخوته المسمى خير الدين أميرا على الجزائر.."**[3]،وقد ذُكر "الرايس رأناوط مامي" في رحلة التمقروتي الذي ذكره أثناء حديثه عن نشاط القرصنة البحرية بين المسلمين والنصارى في البحر المتوسط، فبعد تعرض السفينتان الجزائريتان المتجهتان إلى "اسطمبول" إلى القرصنة من طرف النصارى أنقذهما هذا الرايس، قال التمقروتي عن ذلك: **"ثم بعد أيام ورد الرايس رأناوط مامي، وكان غائبا في حارا في مراسي بلاد النصارى بثماني سفن وأخذ ثمانية عشر نصرانيا من نصارى السفينين.."**[4].

ومن خلال كلام الرحالين يظهر أن رياس "الجزائر" كانوا في نشاط دائم في البحر المتوسط مع شهرتهم بالشجاعة والقوة.

إذا تتعلق القوة البحرية العثمانية في الجزائر بالأسطول البحري بالأساس، بما فيه النشاط البحري والرياس، والغنائم البحرية التي يجنونها، وهذا ما أثبتته بعض النصوص الرحلية المغاربية بالرغم من قلة ماجاء في ذلك من إشارات.

---

(1) التمقروتي، النفحة المسكية، ص129.

(2) الوزان، وصف إفريقيا، 39/2، 51.

(3) المصدر نفسه، 39/2.

(4) ينظر: بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص61. وهذا الرايس أرناؤط مامي قبطان بحري كان قبل ذلك من خدم قارا علي، إلى أن عين على رأس الإيالة ما بين 1583- 1586م.

المطلب الثاني: القوة البرية الجزائرية

تتمثل القوة البرية في "الجزائر"في الجيش الإنكشاري بالأساس، إضافة إلى بعض الجيوش غير النظامية، وقد وردت بعض الإشارات إلى هاته القوة في بعض الرحلات المغاربية، ولو ضمنيا دون التصريح بها كقوة أو كجيش منظم، وذلك ما نحاول معرفته من خلال فرعين: الأول تحدث عن فرق الجيش، والثاني عن الرتب العسكرية، وعناصر الجيش.

الفرع الأول: فرق الجيش

لم تهتم الرحلات المغاربية كثيرا بذكر فرق الجيش العثماني سواء النظامي أو غير النظامي، إلا بعض الإشارات الطفيفة لبعض الفرق، كفرقة "**الصبايحية**"*.

وهذه الفرقة العسكرية وردت أكثر من مرة في رحلة ابن حمادوش، فذكرها في حديثه عن ثورة قبائل زواوة التي كانت ضد "قائد سباو" التابعة لبايلك "التيطري"، حين استنجد هذا الأخير بالداي "إبراهيم باشا" الذي: "**أمده بآغة الصبايحية معه حانبة نحو المائتي يلداش، فلم يأت اجتماع الشمس والقمر الآتي حتى هلكت دشور القبائل..**"[(1)]، كما ذكر آغة الصبايحية "عبدي باشا" الذي تولى حكم الجزائر وهو قائد الجيش، وذلك عندما تحدث ابن حمادوش عن باشوات الجزائر، فذكر ذلك في موضعين: الأول عندما ذكر أن هذا الباشا جاء بعد "محمد خزناجي أوزن علي" فقال: "**ثم عبدي باشا آغة الصبايحية عام 1136..**"[(2)]، وفي الموضع الثاني ذكره أيضا موضحا أنه ثاني من جمع بين الباشا والدولاتلي بعد "أوزن علي الدولاتلي"[(3)]، وفي غير رحلة ابن حمادوش لم نجد أي إشارة إلى هذه الفرقة العسكرية المهمة في الجيش الإنكشاري العثماني بـ"الجزائر".

الفرع الثاني: الرتب العسكرية

كذلك لم تلتفت الرحلات المغاربية للحديث عن الرتب العسكرية في الجيش العثماني بالجزائر، اللهم إلا بعض الإشارات النادرة جدا، كذكر رتبة "**اليباشي**"*.

---

*الصبايحية: فرقة عسكرية خاصة في الجيش الإنكشاري قائدها يطلق عليه لقب "آغا".

(1) ابن حمادوش، لسان المقال، ص163.

(2) المصدر نفسه، ص227.

(3) المصدر نفسه، ص232.

*اليباشي: رتبة عسكرية في الجيش العسكري العثماني تطلق على فئة من الضباط.

وهذه الرتبة الأخيرة ورد ذكرها في رحلة الباي محمد الكبير لابن هطال،عند حديثه عن المكاتيب التي جاءت من باشا الجزائر إلى الباي تخص هؤلاء الضباط[1]، فقد كان البايات يبعثون آخر كل شهر قدرا معينا من المال إلى باشا "الجزائر"، فيدفعه إلى أصحاب هذه الرتبة، فسمي هذا القدر بمال البباشي[2].

وبالرغم من قلة الحديث عن الجيش العسكري بتنظيماته في الرحلات المغاربية، إلا أن بعض هذه الرحلات قد تحدثت عن الجند والعسكر الأتراك في بعض المواضع، ولو بصفة نادرة ومختصرة.

إذ وردت الإشارة إلى "**اليولداش***في الرحلات الجزائرية وبالأخص في رحلة ابن حمادوش الذي ذكر هذه الرتبة إثر حديثه عن فرقة الصبايحية التي أمدها الداي إبراهيم باشا بنحو المائتي يلداش لمحاربة قائد سباو بالتيطري كما سبق الذكر [3]، كما ذكر الورثلاني الجنود العثمانيين ووصفهم بالكثرة مع سطوة الباي العظيمة في حديثه عن "قسنطينة"[4]، أما ابن هطال فنجده يصف حالهم بالشراسة والهمجية في الكثير من المواضع، منها ما ذكره في حديثه عن حصارهم لـ"الأغواط" وتهديم أسوارها وقتل أهلها فمن قوله:"**انهمل العسكر كالسيل وتراكم كقطع الليل، واتبع كل واحد رايته وقصد كل مقاتل جهته التي عينت له، وارتفع النهار وكثر الغبار، وحمل كل واحد على ما يليه، فلم يكن غير ساعة حتى بلغوا إليهم(يقصد سكان الأغواط)، وخالطوهم في جناتهم، فجعلوا كلما مروا ببستان إلا وهدّوه هدّا...، ولما رأت أهل المدينة أن العذاب قد أحيط بهم...، تزحزحوا...، ثم انكشفوا وركب ظهورهم العسكر، يقتلونهم كيف شاءوا..**"[5]، وفي كلامه هذا إشارة إلى قوة بأس العساكر الأتراك وشدّتهم وقسوتهم.

---

(1) ابن هطال، رحلة الباي، ص37.

(2) المصدر نفسه، ص37.

*اليولداش: وهم الجنود العاديين من المشاة في الجيش العثماني.

(3) ابن حمادوش، لسان المقال، ص163.

(4) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 253/3.

(5) ابن هطال، رحلة الباي، ص57.

وقد وردت أيضا الإشارة إلى بعض الجيوش المحلية في بعض المناطق الصحراوية الجزائرية التي لم تخضع لحكم الأتراك، كجيش أمير "عين ماضي" "محمد التجيني بن الشيخ أحمد التجاني" الذي أخبر الأغواطي أن أخاه قاد حملة وزحف إلى "وهران" سنة 1242هـ قصد الاستيلاء خزنتها وفي طريقهم أعطوا الخيول والخيام، واستولوا على "معسكر"، وتقدموا نحو "وهران" غير أن باي "وهران" وزع الدراهم على عرب الحملة بهدف هزيمة هذا الجيش[1].

أما في الرحلات المغربية فلم يرد الحديث عن الجيش البري بصفة خاصة أو صريحة، ولم ترد تفاصيل خاصة برتب الجيش وفرقه كما في الرحلات الجزائرية، وإنما اكتفى بعض الرحالة إلى ذكر بعض إشارات فقط، انحصرت في كلمتي: الجند والعسكر، إذ ورد الحديث عن الجنود الأتراك في رحلة التمقروتي، فبالإضافة إلى حديثه عن الأسطول البحري وشجاعة الرياس تحدث أيضا عن كثرة الجند في مدينة "الجزائر"[2]، كما ذكر الوزان الجنود الأتراك الذين أتوا مع "عروج بربروس"، وتركوه وذهبوا لزراعة الحقول مع سكان القبائل الجبلية بـ"بجاية" فاضطر "بربروس" إلى الفرار[3].

كما أشار الزياني إلى فرق العسكر التركي،وورد ذلك أثناء حديثه عن فتح "حسن باشا"لمدينة "وهران"، ومن دون تسمية للعسكر سوى أنهم كانوا رجالا وركبانا، ومن بالقبائل عجما وعربانا[4]، ومن خلال كلام الزياني هنا يظهر أن العساكر مقسمين إلى فرقتين، فرقة المشاة، وفرقة الفرسان، وهم الركبان، كما يظهر أن الجيش مدعم بعساكر متطوعين من القبائل الأعجمية والعربية.

وفي رحلات أخرى لا نجد تفصيلا للجيش ومكوناته وأقسامه، سوى الاكتفاء بذكر كلمة عساكر الترك كما جاء ذلك عند المكناسي عند وصفه لمعركة بين الإسبان والأتراك[5].

---

(1) الأغواطي، الرحلة، ص89.

(2) التمقروتي، النفحة المسكية، ص129. وينظر: بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص57.

(3) الوزان، وصف إفريقيا، 39/2.

(4) الزياني، الترجمانة، ص376.

(5) التمقروتي، المصدر السابق، ص40، 41.

وحسب اطلاعي على باقي الرحلات المغاربية الأخرى، لم تلفت انتباهي أي إشارات أوأي ذكر للقوتين البحرية والبرية، وهذا يعني أن الرحلات المغاربية لم تصب اهتماها لذكر الحالة العسكرية بالأساس وماذكر لم يكن مقصودا بالأساس، وإنما هو عبارات مارة صادفها الحديث عن الأحداث والوقائع التي شاهدها الرحالة.

المطلب الثالث: الاستعدادات الحربية للجزائر

وأعني بالاستعدادات الحربية الأمور العسكرية من مختلف المعدات، التي تشمل التحصينات كالأسوار والقلاع والأبراج..، والأسلحة الثقيلة والخفيفة، والتي كانت في "الجزائر" خلال تلك الفترة، سواء وجدت مع الأتراك أو قبل مجيئهم، وقد ورد ذكرها والإشارة إليها في الرحلات المغاربية، وهو ما تحدث عنه هذا الفرع في عنصرين خاصين بالاستعدادات الحربية هي: التحصينات والأسلحة.

الفرع الأول: التحصينات الحربية

ورد الحديث بكثرة عن مختلف تحصينات المدن الجزائرية في بعض الرحلات المغاربية، سواء تحصينات المدن الساحلية، أو الداخلية أو المدن الصحراوية.

ففي بعض الرحلات الجزائرية ورد الحديث عن تحصينات المدن الساحلية منه ما أشار الورثلاني إليه أنّ الأتراك حصّنوا المدن الساحلية بالحصون والأسوار والأبراج والثغوركثغر "بجاية" و"جيجل"، و"القل" و"بونة"[1]، أما ابن إدريس التنلاني فتحدث عن تحصينات مدينة "الجزائر" باعتبار رحلته كانت إليها، ومن بين تحصيناتها ذكر برج" الفنار" المشهور الذكر في البلدان المجاورة، و"سور المرسى" الذي عدّ من أهم المراسي الذي تفتخر به "الجزائر" على سائر مراسي الإسلام[2]. وعلى هذا يتضح لنا أن الحصون والأبراج والأسوار من أهم التحصينات التي أعتمدت لحفظ المدن الساحلية.

كما ورد الحديث عن تحصينات المدن الساحلية في الرحلات المغربية، فذكر التمقروتي الأسوار المحيطة بمدينة "هنين" الموجودة بالقرب من "تلمسان" والتي دمرها النصارى في وقته حيث قال فيها: **"وهي بلدة مسورة، وهي اليوم خربة لم يبق فيها إلا سورها**

---

[1] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 1/ 76، و 3/ 354، 355.

[2] ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص251.

ومسجدها.." ، كما ذكر الحصون والأبراج والأسوار أيضا في المدن الثلاثة التي مر عليها ابتداء بـ"وهران" ثم "تلمسان"و"مستغانم" فذكر أن مدينة وهران : "**مدينة حصينة..**" و"تلمسان": "**في جون كبير داخل في البحر ما بان لنا منه إلا الأبراج..**"، وعن "مستغانم" أورد قول ابن عبد ربه فيها: "**هي مدينة مسورة بمقربة من البحر على مصب وادي الشلف في البحر..**"، وذكر تحصينات مدن ساحلية أخرى كحصن "دلس" المنيع، بالإضافة إلى ذكره مرسى "بجاية" الحصين وقلعتها الصغيرة المسماة بالؤلؤة[1]، وذكر أيضا مرسى مدينة "بونة" الحصين وارتفاع قلعتها وحصنه[2]، كما ذكر المكناسي أيضا تحصينات مدينة "الجزائر" في حديثه عنها حيث قال: "**هذه المدينة في غاية التحصين والمنعة من البر والبحر، فلها سوران والحفير(ربما يقصد خندق)، ومن دون الحفير سور آخر، وبأسوارها الأبراج والمدافع لناحية البحر..**"[3]، أما الزياني فذكر تحصينات مدينة "وهران" وقصبتها وأبراجها، ومدينة "الجزائر" [4] التي زارها زمن الداي "حسن باشا"[5]، وقد ذكر الوزان أيضا عدة تحصينات لمختلف المدن الساحلية أيضا لا يسعنا المجال لذكر جميعها، كان منها أسوار وأبراج مدينة "هنين"[6]، وأسوار مدينة الجزائر [7]، وكذلك الأسوار العالية المتينة المحيطة بـ"بجاية"[8]، وغيرها من التحصينات في المدن الأخرى.

أما عن تحصينات المدن الداخلية، فذكرت أيضا في الرحلات الجزائرية والتي منها الأسوار التي ذكرها الورثلاني أيضا عند ذكره سور قسنطينة الكبير، وقصبتها العظيمة[9]،

---

(1) التمقروتي، النفحة المسكية، ص40- 44.

(2) المصدر نفسه، ص52.

(3) المكناسي، الإحراز، ص331.

(4) الزياني، الترجمانة، ص140.

(5) المصدر نفسه، ص376.

(6) الوزان، وصف إفريقيا، 16/2.

(7) المصدر نفسه، 37/2.

(8) المصدر نفسه، 50/2.

(9) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 352/3، 353.

كما ذكر أنّ لـ"زمورة": **"برج للنوبة من الترك** [1].

وفي الرحلات المغربية ذكر الوزان أسوار بعض المدن الداخلية، منها أسوار مدينة "قسنطينة" القوية، ومدينة سطيف المحاطة بأسوار مبنية بحجر جميل ضخم مكعب، وكذلك مدينة أسوار مدينة "مسيلة" المحيطة بها، بالإضافة إلى مدينة "نقاوس" التي أحيطتبأسوار متينة عتيقة[2].

وبالتالي تكون تحصينات المدن الداخلية أيضا عبارة عن أسوار وأبراج.

وأما عن تحصينات المدن الصحراوية فقد ذكرت هي الأخرى في الرحلات الجزائرية، فنجد الأغواطي قد تكفل بالإشارة إلى أغلب التحصينات بها، حيث ذكر الكثير من المدن الصحراوية المحاطة بالأسوار والحصون، منها "الأغواط" المحاطة بسور وحولها تحصينات، وعين ماضي المحاطة بأسوار تشبه أسوار طرابلس، و"غرداية" لها سور، و"ورقلة"ا لبلدة الكبيرة التي يحيط بها سور فيه عدة أبواب، وبلدة "أولف" محاطة بأسوار مبنية بالطين، و"تقرت" أيضا محاطة بأسوار ذات أبواب ويحيط بأسوارها خندق، وعلى هذا الخندق ثلاثة جسور[3]، وبالإضافة إلى ماذكره الأغواطي نجد ابن هطّال أيضا تحدث عن تحصينات "الأغواط"، فذكر أنّ هذه المدينة قد أحيطت بها الأبراج، فحيطانها متراكمة وأسوارها متحالفة متكاثرة، فهي مشتبكة[4]، وكذلك "بسكرة" التي ذكر الورثلاني تحصيناتها بقوله: **"فيها برجان للترك عامران أحدهما في البلد والآخر خارجها.."**[5].

كما تحدثت عن بعض تصحينات المدن الصحراوية، خاصة رحلتا كل من الزياني والعياشي، منها أسوار "تقرت" و"بسكرة" و"ورقلة" و"الأغواط" في كثير من المواضع[6]، كما ذكر الحضيكي أن لـ"عين ماضي": **"سور ممنوع.."**[7]، أي أنه سور منيع.

---

[1] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 190/1.

[2] الوزان، وصف إفريقيا، 50/2-53.

[3] الأغواطي، الرحلة، ص87- 100.

[4] ابن هطال، رحلة الباي، ص55.

[5] الورثلاني، المصدر السابق، 200/1.

[6] الزياني، الترجمانة، ص149. والعياشي، الرحلة العياشية، 115/1.

[7] الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص84.

ومن خلال ما ذكر في الرحلات نجد أن تحصينات المدن الصحراوية كسابقاتها من المدن الساحلية والداخلية، تتمثل في الأسوار والأبراج، وربما تزيد عنها بالخنادق في بعض المدن.

الفرع الثاني: الأسلحة الحربية

ورد الحديث عن الأسلحة المستعملة في الحروب في الدفاع أو الهجوم، في بعض الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية ذكرت الأسلحة القوية والمتطورة في ذلك الوقت، والتي غالبا ما تكون في يد العسكر التركي، ومنها الأسلحة التقليدية البسيطة التي يستخدمها الأهالي من السكان للدفاع عن أنفسهم أو في الإغارات، فعن الأسلحة الثقيلة الخاصة بالجيش التركي والتي تتكون من المدافع والرصاص، والقنابل، أشار إليها ابن هطّال في رحلة محمد الكبير، الذي ذكر أنّ العسكر التركي في حصاره لمدينة "الأغواط" قد رماها بالرصاص والمدافع[1]، كما وصف ابن إدريس التتلاني دفاع "الجزائر" ضد الحملة الإنجليزية فذكر أن معظم قتال "الجزائر" كانبالمدافع"**المركبة على سور المرسى، وعلى برج الفنار، وعلى ساحل البحر من ناحية عين الرباط**"[2]، أما ابن حمادوش فذكر سلاح "**البونبة**" (القنبلة)، في سياق حديثه عن طريقة صنعها، حين أخبر أنه قد تعلم ذلك عن شيخه عبد الرحمن الفاسي"[3]، أما عن الأسلحة الخفيفة وهي أسلحة الشعب في الغالب، والمتمثلة في البنادق والسيوف والرماح، وهي قد تكون للإغارات مثلما يفعل قطاع الطرق أو الجيوش غير النظامية، وقد تكون للدفاع عن النفس مثلما يفعل الحجاج والتجار وغيرهم، وقد ورد الحديث عن هذه الأسلحة في بعض الرحلات الجزائرية، ومن ذلك ما أورده الأغواطي عن أهل الصحراء أنّ منهم رجال مسلحون في غير جيوش نظامية، وقد قدّر عدد المسلحين في بعض المناطق الصحراوية،فكان عدد المسلحين في جبل "عمور" بحوالي ستة آلاف شخص، وعدد مسلحي "عين ماضي" حوالي ثلاثمائة رجل، أما مسلحو "الأغواط" فحوالي ألف، أمّا عن نوعية الأسلحة عندهم، فذكر أن سلاح أهل "**المنيعة**"من السيوف والبنادق

(1) ابن هطال، رحلة الباي، ص54.

(2) ابن إدريس التتلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص254.

(3) ابن حمادوش، لسان المقال، ص255.

والرماح، وسكان "متليلي" مسلحون بالبنادق والسيوف[1]، كما أنه تحدث عن طريقة صنع البارود الذي يستخدم في البنادق فذكر أنّ: "**جميع سكان هذه الصحاري يعرفون في صناعة البارود وطريقتهم في ذلك؛ يجمع التراب من الأرض أو من الملاط في القرى المهدمة وهذا التراب الذي كان في الأصل من مادة مالحة يوضع في ماعون ويصب عليه الماء بنفس الطريقة التي يعالج بها الرماد عند صناعة الصابون ثم يغلى الماء إلى أن يصبح خائرا ثم يؤخذ رطل منه ويخلط مع أربعة أرطال من الكبريت أو أربعة أرطال من الفحم المستخرج من شجرة الدفلى، وهذه العناصر المختلفة تخلط جميعا في غضون أربع ساعات** فتصير بارودا.."[2]، أما الورثلاني فذكر البنادق التي يستعملها قطّاع الطرق الهاربون في الصحراء لقطع الطريق على التجار أوالحجاج، كما ذكر أيضا أن هذه البنادق تباع وتشترى، فأهل "الزرائب" خرجوا إليهم متسوقين بالبنادق والحياك والغنم[3]، وكذلك ذكر المعسكري السيوف والرماح والسهام والدروع المستعملة في معركة "وهران" بين المسلمين والنصارى[4]، وقد سبق ذكرها في العلاقات الجزائرية الأوروبية.

وعلى قدر اهتمام الرحلات الجزائرية بذكر المعدات الحربية في الجزائر في العهد العثماني، كاناهتمام الرحلات المغربية بذلك، فقد ذكرت هذه الاستعدادات، سواء فيما يخص تحصينات المدن الجزائرية، أو الأسلحة المستعملة.

إذ تتنوع الأسلحة الحربية في "الجزائر" في ذلك العهد حسب الرحلات المغربية بين أسلحة ثقيلة وهي كثيرا ما يمتلكها الحكام الأتراك، وأسلحة خفيفة الخاصة بالجنود والعساكر سواء الأتراك أو المحاربين من الأهالي الجزائريين، خاصة الفئة التيتمارس الحرابة وقطع الطريق.

فعن الأسلحة الثقيلة التي ورد ذكرها في الرحلات المغربية: سلاح المدفعية والمهراز الذي تحدث عنه الزياني في عدة مواضع منها ما ذكره في حديثه عن انجازات "حسن باشا" الذي: "**حصّن ثغور المسلمين بالصقائل والأبراج وعمرها بالمدافع والمهارز على طبقات**

---

(1) ينظر: الأغواطي، الرحلة، ص90، 91.

(2) المصدر نفسه، ص91، 92.

(3) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 234/1.

(4) المعسكري، فتح الإله، ص74.

تحاكي الأدراج، وملأ خزائن الثغور بالبارود والكور والبحب والسلاح.."[1]، وذكر المكناسي مدينة "الجزائر"التي "**بأسوارها الأبراج والمدافع لناحية البحر، لأن النصارى كثيرا ما يقصدونها بالمراكب الحربية والعساكر**"[2]، أما عن الأسلحة الخفيفة التي تشمل البنادق والسيوف والرماح وغيرها، فذكر منها الزياني السيوف التي كانت بحوزة "حسن باشا"باي "قسنطينة" الموجودة بمقصورته معلقة بجدرانها، والتي يستعملها العساكر الأتراك في حروبهم البرّية والتي عبر عنها الزياني أيضا في حديثه عن فتح وهران وطرد الإسبان بقوله: "**كل ما يصلح للطعن والضرب**"[3]، ومن المؤكد أن منها السيوف والخناجر والسكاكين وغيرها، وهذه الأسلحة الخفيفة نفسها ذكرها في موضع آخر، وذلك في سياق مدحه لـ"حسن باشا" وقد سبق ذكره والذي: "**ملأ الثغور بالسلاح من المكاحل والسيوف والأسنة والرماح.."**[4]، كما ورد ذكر الأسلحة الخفيفة في بعض الرحلات دون توضيح نوعها، ولكن الواضح أنها بنادق وسيوف، خاصة تلك التي يحملها قطاع الطرق في الصحراء وغيرها، فقد ذكر الحضيكي خروج رجال مسلحين إليهم قرب "سيدي خالد" ولم يوضح ما نوع الأسلحة التي يحملونها[5]، ومن المحتمل أن الفرسان قطّاع للطريق يحملون معهم البنادق والسيوف وغيرها، كما ذكر العياشي سلاح البندقية الذي من عادات سكان "بوسمغون" يوم العيد الخروج به إلى مصلاهم، ويضعون أحجارا فيه يتخذونها غرضا للرمي بالبنادق، ولعل هذا من قبيل المرح[6].

من خلال ماجاء في الرحلات المغاربية فيما يخص الحالة العسكرية للجزائر في العهد العثماني، نلاحظ تشابها كبيرا فيما ورد من أخبار عن مختلف الأمور العسكرية سواء في الرحلات الجزائرية أوالمغربية، مع اختلاف طفيف في تركيز بعض الرحلات على بعض التفاصيل دون الأخرى.

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص376.

(2) المكناسي، الإحراز، ص331.

(3) الزياني، المصدر السابق، ص376.

(4) المصدر نفسه، ص376.

(5) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص85.

(6) العياشي، الرحلة العياشية، 549/2.

وخلاصة ماجاء في الرحلات المغاربية فيما يخص الحالة السياسية لـ"الجزائر" من خلال الرحلات المغاربية، نجد هناك توافقا كبيرا بين ما ورد في الرحلات الجزائرية والرحلات المغربية في بعض الأمور السياسية، كالإشارة إلى بعض مراحل الحكم العثماني في الجزائر خاصة المرحلة الأولى التي وردت الإشارة إليها في رحلة ابن حمادوش الجزائري، ورحلة الوزان المغربي، كما توافقت أيضا في ذكر الحالة السياسية للصحراء الجزائرية، والتي كانت مقسمة حسب الرحلات المغاربية إلى ثلاث مناطق مناطق خاضعة للحكم العثماني، ومناطق مستقلة عن حكم الأتراك تابعة لحكم أمراء محليين، ومناطق لم تخضع لأي حكم، في حين هناك تفاوت بينهما في ذكر بعض التفاصيل في بعض الرحلات دون الأخرى، كتركيز الرحلات الجزائرية فيما يخص القوة البرية على ذكر بعض الفرق العسكرية كفرقة الصباحية، وعساكر اليولداش، فيما اكتفت الرحلات المغربية بالإشارة إلى ذلك بالجند والعسكر، كما ذكرت الأسلحة سواء الثقيلة أو الخفيفة في بعض الرحلات.

الفصل الثالث:

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

المبحث الأول: خصائص المجتمع الجزائري في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

المبحث الثاني: الحالة الاقتصادية للمجتمع الجزائري في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

المبحث الثالث: أزمات المجتمع الجزائري في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

الفصل الثالث: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

قسم هذا الفصل بدوره إلى ثلاثة مباحث: المبحث الأول تحدث عن خصائص المجتمع الجزائري، والمبحث الثاني فعن الحالة الاقتصادية للمجتمع الجزائري، وأما المبحث الثالث فتناول أزمات المجتمع الجزائري، وكل ذلك في العهد العثمانيمن خلال الرحلات المغاربية.

المبحث الأول: خصائص المجتمع الجزائري في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

حوى هذا المبحث ثلاثة مطالب: تناول المطلب الأول بنية المجتمع الجزائري ومقوماته، والثاني عادات وتقاليد المجتمع الجزائري، أما الثالث فخص الأسرة في المجتمع الجزائري.

المطلب الأول: بنية المجتمع الجزائري ومقوماته

لم يهتم أصحاب الرحلات المغاربية عموما بذكر تقسيمات المجتمع الجزائري أوالحديث عن فئاته ومكوناته بصفة صريحة، بل وردت عدّة إشارات تخص هذا الشأن في نصوصهم الرحلية دون قصد منهم، وإنما تعرف ضمن أخبارهم المختلفة، ومن خلال تلك النصوص الرحلية تمكنت من معرفة عدّة أمور تخص البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري في تلك الفترة، اخترت الحديث عنها في فرعين رئيسين: تحدث الفرع الأول عن مكونات المجتمع الجزائري، والفرع الثاني عن فئاته.

الفرع الأول: مكونات المجتمع الجزائري

تتعلق مكونات المجتمع بسكان الجزائر من حيث توزيعهم على المدن والأرياف، وقد وردت بعض الإشارات إلى هؤلاء السكان في بعض الرحلات المغاربية.

إذ كانت غالبية سكان "الجزائر" يقطنون الأرياف، و يطلق عليهم اسم "البدو" وينقسمون بدورهم إلى طبقتين متمايزتين من السكان: سكان السهول وهم العرب الحقيقيون، وأصلهم من الشرق وينحدرون من قبائل عربية مختلفة، وينقسمون أيضا إلى قسمين: أهل الصحراء الرملية، وأهل التل ساكني الجبال الصغيرة القليلة الارتفاع، أما سكان الجبال

ففي الأماكن الوعرة المنحدرة فهم البربر الحقيقيون أو القبائل[1]، بالإضافة إلى سكان المدن:وهم قاطنو المدن الكبرى كـ"الجزائر"، و"قسنطينة"، و"المدية" وغيرها، ويطلق عليهم اسم "الحضر"، وهم ينحدرون من أصول عربية وأمازيغية، ومن الأندلسيين، والأتراك، والكراغلة، والمسيحيين أحرار وأسرى، بالإضافة إلى اليهود[2].

ومن خلال تقصي الرحلات الجزائرية لم أعثر على ما يستحق الذكر بخصوص السكان من حيث توزيعهم على الأرياف والمدن إلا بعض الإشارات النادرة، منها ما جاءفي رحلة الأغواطي عن الكثافة السكانية في بعض المدن الصحراوية كـ"غرداية" التي ذكر أنها: **"تضم ألفين وأربعمائة مسكن.."**[3]، وكذلك "وادي سوف" كثيرة السكان فيها: **"عدد وافر من الدشور يمكن أن توفر عشرين ألف رجل.."**[4].

وفي المقابل كانت الرحلات المغربية أكثر إشارة وتفصيلا في الموضوع، إذ ورد الحديث عن سكان "الجزائر" في مختلف الرحلات المغربية سواء سكان المدن والأرياف، أو سكان الجبال والسهول والصحراء؛ فعن سكان الأرياف–وعموما هم البدو الذين يقطنون الصحاري، ومختلف سكان المداشر والقبائل المنتشرة في الجبال والسهول وغيرها– فقد ورد ذكرهم في رحلة الوزان الذي تحدث عن العديد من هذه الأصناف القريبة من العيش الريفي، فذكر المداشر في حديثه عن جبل "بني يزناسن" الذي: **"يضم مداشر عديدة يسكنها قوم ذوو بأس شديد.."**[5]، وذكر القبائل حين تحدث عن جبل "ولهاصة"، والقرى التي تقطن جبال مدينة "الجزائر" أيضا، كما أشار الوزان في ذات السياق إلى "الجبليين" في سياق حديثه عن عادة الوشم حيث قال: **"ويحتفظ بهذه العادة جميع الجبليين بالجزائر العاصمة وبجاية.."**[6]، وقد ذكر العياشي أيضا البدو الرحل الذين التقوا بهم بالقرب من

---

(1) ينظر: حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تر وتح وتق: محمد العربي الزبيري، منشوراتANEP، د.م، د.ط، 2005م، ص13، 15.

(2) ينظر: مؤيد محمود حمد المشهداني وسلوان رشيد رمضان، "أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518-1830م، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تقرت_ الجزائر، ع16، 2013م، م5، ص426.

(3) الأغواطي، الرحلة، ص90.

(4) المصدر نفسه، ص96.

(5) الوزان، وصف إفريقيا، 2/43- 46.

(6) المصدر نفسه، 2/33.

"سيدي عقبة" وهم من الأشراف فقال عنهم: **"ولقينا في ذلك اليوم نزلة الأشراف..، وهم قوم من الأشراف صح نسبهم واشتهر بين الحاضر والباد من أهل تلك النواحي..، يرحلون وينزلون في البادية.."**[1]، وعن البادية والقبائل أيضا ذكر أن خارج مدينة "عنابة": **"تحرث البادية..، وتسكنها قبيلة عربية تدعى مرداس.."**[2]، ووردت بعض الإشارات أيضا إلى قلة عدد السكان في الأرياف والبوادي، فمما ذكر العياشي عن قرية "والا" في الطريق إلى "ورقلة" حيث لم يجد في هذه القرية: **"إلا رجلا واحدا ومعه نساء من قرابته يعولهن.."**[3]، كما ذكر أيضا أن قرية "الماية" قرب وادي "الأشبور" **"ليس فيها إلا رجلان أو ثلاثة في غاية ما يكون من الضعف والجوع.."**[4]. وأما عنسكان المدنالذين غالبا ما يطلق عليهم اسم "الحضريين"، فقد وردبعض الكلامبخصوصهمأيضا، فذكر الوزان أن مدينة "القل"مدينة متحضرة، ومن المؤكد أن سكانها مدنيين متحضرين، فأهلها كما ذكر ظرفاء، وكذلك أهل "قسنطينة" وأهل مدينة "دلس"، كما أحصى سكان بعض المدن وذكر بعض ميزاتهم، فذكر أن كثافة سكان "عنابة"، ووفرة سكان مدينة "العباد"، وصفة الرخاء التي أضفاها على السكان الأندلسيين لمدينة "شرشال"، وسكان مدينة "نقاوس" الذين وصفهم بالأغنياء على عكس أهل "مسيلة" الفقراء[5].

كما توجد بعض لإشارات الطفيفة الخاصة بميزات السكان كلون البشرة، ففي رحلة الأغواطي الذي تحدث كثيرا عن سكان الصحراء الجزائرية، ذكر عن سكان "ورقلة" أنهم: **"يسمّون الرواغة ولونهم أسود.."**[6]، وأما سكان "تيميمون" فيختلف لون بشرتهمفهناك **"البيضاء والحمراء والسوداء.."**[7]، كما أن "الطوارق" **"لهم بشرة شديدة البياض.."**[8].

---

[1] العياشي، الرحلة العياشية، 539/2.

[2] الوزان، وصف إفريقيا، 62/2.

[3] العياشي، المصدر السابق، 107/1.

[4] المصدر نفسه، 547/2.

[5] الوزان، المصدر السابق، 32/2-61.

[6] الأغواطي، الرحلة، ص92.

[7] المصدر نفسه، ص93.

[8] المصدر نفسه، ص98.

أما بقية الإشارات الموجودة والتي تخص السكان فيمكن إدراجها في العنصر الفئات في الفرع الموالي.

الفرع الثاني: فئات المجتمع الجزائري

يمكن تقسيم سكان الجزائر إلى فئتين رئيستين حسب الأجناس تدخل تحت كل فئة عدّة فئات، وذلك في عنصرين، الأول في السكان الأصليين، والثاني في الدخلاء.

أولا: السكان الأصليين

من المعروف أن السكان الأصليين للجزائر هم الأمازيغ، والعرب، وقد ورد ذكرهم في أغلب الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية نجد أن أصحاب هذه الرحلات أساسا من السكان الأصليين للجزائر ومنهم من ذكر نسبه في الرحلة والذي يبين أصله عربي كان أو أمازيغي، فمثلا ابن حمادوش من العرب الأشراف، والورثلاني هو من الأمازيغ (القبائل).

فعن "الأمازيغ"، يُجمع أغلب المؤرخين أنّهم السكان الأصليون والأوائل لشمال "إفريقيا" عامة، وقد ورد ذكرهم في بعض الرحلات الجزائرية، منها ما ذكره الأغواطي عن سكان الصحراء أن منهم من البرابرة ويتكلمون البربرية ومن بينهم: سكان "متليلي"، و "وادي ميزاب"، و"القورارة"[(1)]. وهؤلاء "برابرة" الصحراء بتعبيره، أما "برابرة" الجبال والسهول في الجهة الشمالية، فذكر الورثلاني منهم أهل "بجاية" و"زمورة"، بالرغم من عدم تصريحه بلفظ "الأمازيغ" أو "البربر"، لكن يظهر من أسمائهم البربرية، فمثلا عند حديثه عن الفتنة التي وقعت في جبال "بجاية" ذكر أن: "**متولي أمرهم سلطان مجانة...، محمد بن أحمد القندوز المقراني..**"[(2)].

كما لم ترد لفظة "الأمازيغ" أو "البربر" صراحة في الرحلات المغربية، وإنّما وجدت إشارات طفيفة إلى سكان شمال "إفريقيا"، وذلك في رحلة الوزان الذي أطلق على سكان شمال "إفريقيا" اسم "الأفارقة"، وذلك في نص حديثه عن مدينة "أرشكول" القديمة القريبة من "تلمسان" وهي: "**مدينة كبيرة بناها الأفارقة على صخرة يحيط بها البحر من كل**

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 196/1.

(2) المصدر نفسه، 46/1.

جانب ماعدا الجنوب.."[1]. والأغلب أنه يقصد بـ"الأفارقة" "الأمازيغ" بناء على إجماع المؤرخين على أن السكان الأصليين لشمال "إفريقيا" هم الأمازيغ.

أما الفئة الثانية فهي: فئة العرب، وهم الأصل الثاني لسكان الجزائر بعد "الأمازيغ"، وقد ورد الحديث عنهم أيضا في بعض الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية يذكر الورثلاني هذه الفئة كثيرا، فمن بين ماذكر أرض "الحضنة" التيبها "أولاد دراج" وهم طائفة من العرب وبلدهم الصحراء[2]، وفي المقابل ذكر ابن إدريس التنلاني عرب "النوايل" ووصفهم بالكرم والطيبة[3]، وعن العرب "الأشراف" تحدث ابن حمادوش عندما ردّ على مفتي الحنفية الذي تكبر عليه فرد عليه بقصيدة يفتخر فيها بنسبه العربي الشريف من أبياتها:

خرجت ذليلا لا أعود لمثلها	**وهل يجمع السيفان ويحك في غمد**
فإني من اللائين فوق الثرى ترى	**وأنفسنا في العرش تابعة المجد**
بنا جدنا في العاليات قصورنا	**فلا نرتدي الأدنى كبارا وفي المهد**
فلا يدرك المجد المؤثل غيرنا	**وإن أدرك الدنيا وحازها في الأيد**
بنو هاشم خير القبائل منهم	**إمام الهدى جد الحسينيين المهد**
حذاري حذاري إنا رحمة الورى	**وغصة للقالين في الحشر واللحد**
تأبيت عنا إذ علوت بقربنا	**جزاء سنمار جازيت مع الطرد**
كأنك لم تتلق المودة في القربى	**وأي وداد في الصغار لذي رشد**[4]

كما ورد الحديث عن العرب بكثرة في بعض الرحلات المغربية، فالوزان تحدث عن بعض القبائل العربية، كقبيلة "مرداس" التي تسكن البادية خارج مدينة "عنابة" وتشتغل بالفلاحة[5]، كما ذكر العياشي بعض الأشراف من العرب الذين ينتهي نسبهم الشريف إلى النبي صلى الله عليه وسلم، مثل الأشراف البدو الرحل الذين لقيهم قرب "بسكرة" وذكر

---

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 16/2.

(2) الورثلاني، الرحلة الورثلانية،196/1.

(3) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص242.

(4) ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص257.

(5) الوزان، المصدر السابق، 62/2.

أنهم: "**من الأشراف صح نسبهم واشتهر بين الحاضر والباد..**"[(1)]، كما ذكر أيضا العرب قطاع الطرق في كثير من المواضع، ومما ذكر عند نزولهم بالمكان المسمى "الدوسية" قرب "أولاد جلال" تحقق لهم أمر العرب المعترضين للركب قاصدين أخذه معهم[(2)]، والحديث عن العرب خاصة قطاع الطرق كثير، لا يسع المجال لذكر جميع المواضع.

ورغم وجود هذه الإشارات لفئتي العرب والأمازيغ في الرحلات المغاربية، إلا أنها لم تكن تفصل في أصل هذه الفئات، عدا فئة العرب التي أفردها ابن حمادوش بالتفصيل وكذلك العياشي.

ثانيا: السكان الدخلاء

والسكان الدخلاء الذين جاءوا إلى "الجزائر" ولم يكونوا من السكان الأصليين أو الذين أنتجتهم العلاقات بين الفئات المختلفة هم: الأتراك والكراغلة، والأندلسيين، والنصارى واليهود، والعبيد، وقد وردت بعض الإشارات إلى هذه الفئات في بعض الرحلات المغاربية.

فعن فئة الأتراك وهي الفئة المسيطرة على زمام كل الأمور تقريبا، فقد تحدث عنها الورثلاني في بعض الأحيان ومن بين ماذكر عند وصفه لمدينة "قسنطينة" أن : "**فيها عسكر من الترك بقدر رجالها..**"[(3)]، وفي كلامه دليل على أنّ هذه الفئة موجودة بكثرة بالمدينة، كما ذكرها الزياني وأطلق عليها اسم "**الطبقة العليا**"، حين تحدث عن قاضي المواريث الذي التقى به في المسجد الجامع بـ"تلمسان" الذي غرّه حسن حاله من البشاشة والثياب الفاخرة فكان يحسبه من جهابدة الأعلام وممن له الصدارة بين شيوخ الإسلام لكنه صدم بتكبره وتجبره مع جهله[(4)].

أما الفئة الثانية وهي فئة الكراغلة*، فلم تلتفت مختلف الرحلات الجزائرية لذكرها، وفي المقابل ورد الحديث عن هذه الفئة في رحلة الزياني، الذي تحدث عن كاتب باي

---

(1) العياشي، الرحلة العياشية، 539/2.

(2) المصدر نفسه، 544/2.

(3) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 253/3.

(4) الزياني، الترجمانة، ص141، 142.

*الكراغلة: وهم الذين جاءوا عن طريق التزاوج بين الأتراك والجزائريات.

"قسنطينة" الذي لقيه هناك فمما ذكر عنه: **"الكاتب الأديب الخوجة الكبير السيد محمد بن علي كرغلي..، كان كاتبا لدى باي قسنطينة صالح باي، ولما تولى بعده الباي حسن نكب هذا الكاتب وأخذ منه أموالا عريضة.."**[1]، فمن لقبه "كرغلي" يظهر أنّه إنما لقب بذلك نسبة إلى أصله، وما يدل على ذلك منصبه.

أما عن فئة الأندلسيين فهم الذين وفدوا إلى "الجزائر" في عهد "خير الدين"، وبعد استقرارهم كان لهم دور فعال في تطوير الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، باتجاههم إلى ممارسة مختلف الصناعات كصناعة البارود والخزف، وغيرها من الأنشطة الصناعية[2]، وقد وردت الإشارة إلى هذه الفئة في رحلة ابن حمادوش في ذكره لبعض عقود الزواج ومنها عقد زواج لبعض الأندلسيين[3].

كما ورد ذكرهم في رحلة الوزان الذي أطلق عليهم اسم "الغرناطيين"، وذلك في حديثه عن مدينة "شرشال" التي: **"هُجرت أثناء الحروب القائمة بين ملوك تلمسان وملوك تونس، وبقيت خالية من السكان زهاء ثلاثمائة سنة حتى سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين، فقصدها الغرناطيون إذ ذاك وأعادوا بناء عدد مهم من دورها.."**[4].

كما أن فئة اليهود كانت عنصرا اجتماعيا فعالا في المجتمع الجزائري، وقد زاد عددهم في "الجزائر" بسبب الهجرات من "الأندلس" و"جزر البليار" الإسبانية بالإضافة إلى تقربهم من الحكام وعملهم المربح،فقد ارتفع شأنهم الاقتصادي من خلال بيع وشراء الغنائم البحرية والسمسرة والوساطة التجارية التي كانوا يمارسونها[5]، وقد جاء الحديث عن فئة اليهود في بعض الرحلات الجزائرية، منها ما ذكره الأغواطي عن يهود "تقرت" فهم: **"جماعة من الناس في تقرت يسمون المجاهرية وهم يقطنون حيا خاصا في البلدة والذين كانوا في القديم يهودا ولكنهم اعتنقوا الإسلام فرارا من الموت الذي هددهم به السكان، لكن مازالوا في ذلك الوقت يتميزون بالملامح الخاصة باليهود، ومنازلهم بقيت**

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص154.

(2) مؤيد محمود، أوضاع الجزائر، ص426.

(3) ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص246.

(4) الوزان، وصف إفريقيا، 34/2.

(5) ينظر: مؤيد محمود، المرجع السابق، ص427.

مثل منازل اليهود تنبعث منها رائحة كريهة، كما أنهم لا يتزاوجون مع العرب كما أنه من النادر أن يتزوج عربي بامرأة مجاهرية، ولهم مساجد خاصة بهم في حيهم كما أنهم يصلون في المواقيت المحددة ماعدا يوم الجمعة فهم لا يعتبرونه يوم عطلة، كما أنهم يملكون ثروة هائلة، وأما نساؤهم فتظهرن في الأسواق وهن محجبات ويتحدثن بالعبرية بينهن عندما يرغبن في إخفاء موضوع الحديث"[1]، كما ورد ذكرهم في رحلة ابن حمادوش، عندما تحدث عن تسبب يهودي في فرار أحد البايات وهو "المسراتي"[2]، وكذلك ورد ذكرهم في رحلة ابن إدريس التتلاني في سياق حديثه عن تحذير اليهود لباشا "الجزائر" من خطر الانجليز[3].

أما عن فئة النصارى فغالبيتهم كانوا أسرى في تلك الفترة، وقد ورد ذكرهم في رحلة ابن إدريس التتلاني، عندما تحدث عن الحملة الإنجليزية على الجزائر سنة 1815م، والتي كان من شروط الصلح فيها بين القائد الإنجليزي وباشا "الجزائر" إطلاق سراح الأسرى المسيحيين الذين كانوا في "الجزائر"[4].

أما في الرحلات المغربية فلم نجد من الرحالة من تطرق للحديث عن هاتين الفئتين (اليهود والنصارى).

وأخيرا فئة العبيد وهم الفئة المسحوقة التي تشمل نسبة كبيرة من الشعب الجزائري، وأغلبهم من السودان(أصحاب البشرة السوداء) الذين يحصل عليهم التجار الطوارق بالمقايضة بدل البضائع، كما كانت الفئات الحاكمة تمتلك العبيد كنوع من التباهي بالثراء[5]، وقد تحدث الأغواطي عن تجارة العبيد بين الطوارق والسودانين، في سياق حديثه عن التجارة في الصحراء، فذكر أن: **"أهم ما يستورد من السودان العبيد..، وأن بعض السكان من وادي سوف جعلوا من هذه التجارة حرفة بحيث يذهبون إلى السودان مع التجار من غدامس وذلك بهدف جلب العبيد..، وغدامس فيها عدد كبير من العبيد**

---

(1) الأغواطي، الرحلة، ص100.

(2) ابن حمادوش، لسان المقال، ص252.

(3) ابن إدريس التتلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص255.

(4) المصدر نفسه، ص249.

(5) مؤيد محمود، أوضاع الجزائر، ص427.

وثمن العبد الواحد فيها حوالي ثلاثين دورو، وكذلك ثمن الأمة"[1]، كما ذكر هذه الفئة أيضا ابن حمادوش في حديثه عن عقود الزواج التي كان يشمل الصداق فيها الأمة كخادمة للعروس، ومن بين ما ذكر في سياق عقد أخته يدخل في صداقها: **"أمة واحدة من رقيق السودان"**[2].

كما ورد ذكر هذه الفئة في الرحلات المغربية أيضا خاصة عند الوزان الذي ذكر لفظ "**الرقيق**" في سياق حديثه عن التجارة في "قسنطينة"، وأحصى منتوجاتها المختلفة من الأقمشة الصوفية والحرير والزيت وغيرها فذكر أن: **"كل هذه البضائع تستبدل بالتمر والرقيق.."**[3]، كما ذكر الدرعي أن أهل "فجيج" من العبيد[4]

إذا هناك توافق وتكامل فيما ورد في الرحلات المغاربية فيما يخص فئات المجتمع، فقد أشارت أغلب هذه الرحلات إلى جميع فئات المجتمع الجزائري سواء فئات السكان الأصليين من الأمازيغ والعرب أو الدخلاء من الأتراك والأندلسيين والنصارى واليهود وحتى العبيد.

الفرع الثالث: بعض مقومات المجتمع الجزائري

لم تهتم الرحلات المغاربية عموما بالحديث عن مقومات المجتمع الجزائري في العهد العثماني، ما عدا بعض النصوص التي تخص اللغة، والدين والأخلاق.

أولا: لغة المجتمع الجزائري

من المؤكد أن تنوع جماعات السكان واختلافهم سيؤدي حتما إلى تنوع اللغة واختلافها من جماعة إلى أخرى، فالسكان الأصليين للجزائر هم "أمازيغ" و"عرب" وبالتالي فتباعا ستكون اللغة الأمازيغية والعربية لغة السكان الأصليين، أماالدخلاء فلغتهم حسب أجناسهم، فهناك التركية لغة الأتراك، وهناك العبرية لغة اليهود وهناك اللاتينية لغة المسيحيين الوافدين أو الأسرى..، وغيرها من اللغات، وقد ورد الحديث عن اللغة العربية والأمازيغية في رحلة الأغواطي، فذكر أن لغة سكان "الأغواط"وجبل "عمور"هي العربية،

---

(1) ينظر: الأغواطي، الرحلة، ص95- 98.

(2) ابن حمادوش، لسان المقال، ص244.

(3) الوزان، وصف إفريقيا، 56/2.

(4) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص125.

أمـا لغـة سـكان "متليلـي" فهـي العربيـة والبربريـة، وأمـا سـكان "وادي ميـزاب"" فيتكلمـون البربريـة..، وكـذلك سـكان "القـورارة لغـتهم البربريـة، و سـكان "المنيعـة" يتكلمـون العربيـة بالإضـافة إلـى سكان "وادي سوف"، أما جماعة "المجاهرية" فـي "تقرت" فيتكلمون العبرية فيما بينهم لأن أصلهم يهود اعتنقوا الإسلام عنوة وخوفا من القتل[1].

أما في الرحلات المغربية، فوجدت هنـاك بعض الإشارات إلـى اللغـة البربريـة والتركيـة، مثل ما ذكر العياشـي في سياق حديثه عن الخرزة في لغة أهل الصـحاري الجزائريـة، إذ قال: **"والخـرزة فـي لغتهم اسم لكل فرجـة فـي الجبل يخـرج منها طريـق.."**[2]، كما ذكر التمقروتـي اللغـة التركيـة عنـدما ذكـر سـفينة أحـد ريـاس الجزائـر الأتـراك، وهـو **"أرنــط مـم"***حيث قال: **"الـرايس قبطـان الجزائـر يقـال لـه "أرنـط مـم"، أرنـط قبيلـة مـن رعيـة بلـد التـرك، و"مـم" هـو محمد بلسـانهم، وكـذلك كانـت لغـتهم يقـدمون المضـاف إليـه ويـؤخرون المضاف، وكذلك والله أعلم لغات العجم كلها خالفوا العربية في ذلك"**[3].

كمـا ذكـر الـوزان لغـة المدن الإفريقيـة علـى شـاطـيء البحـر المتوسـط إلـى جبـال الأطلـس: **"يتكلم الناس على العموم بلغة عربية فصيحة.."**[4].

ورغم قلة النصوص الرحلية التي تتناول اللغة إلا أنها جاءت موضحة ومفصلة خاصة في الرحلات المغربية التي كانت تشرح معاني الكلمات البربرية والتركية باللغة العربية.

ثانيا: أخلاق المجتمع الجزائري

لم تغفل الرحلات المغاربية وصف أخلاق المجتمع الجزائري، حسنة كانت أو سيئة، فمن الأخلاق الحسنة الجود والكرم وتعظيم العلماءالتي اتصف "عرب النوايل"، وقد ذكرهم ابن إدريس التنلانـي مثنيا عليهم بـ:**"نعم العرب هم...، مـا رأيت ولا سمعت من يعظم العلمـاء وحمالــة القـرآن مـثلهم...، رأيـت فـيهم مـن البـرور والرحمـة والحنانـة مـا لـم أراه.."**[5]،

---

(1) ينظر: الأغواطي، الرحلة، ص87، 100.

(2) العياشي، الرحلة العياشية، 545/2.

*أرنط مم: وهو يقصد الرايس أرنؤوط كما جاء في رحلة ابن حمادوش.

(3) التمقروتي، النفحة المسكية، ص27.

(4) الوزان، وصف إفريقيا، 40/1.

(5) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص242.

وبالجود والكرم والفضل وصف الورثلاني أهل "طولقة"[1]، ومن الأخلاق السيئة كانت السرقة والتعدي والنميمة والتحاسد والتباغض التي ذكرها الورثلاني في سياق حديثه عن مدينة "بريكة" وخاصة قرية "أمدكال" أنها: " **قرية طيبة وأهلها فيهم الصلاح..، وأمّا أكثرهم فقد فسقوا فيها بالسرقة والتعدي والمشي بالنميمة بين أكابرها..، وقد صار البغض العظيم بينهم..، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل من صلة الرحم**"[2].

كما ورد في الرحلات المغربية كذلك الحديث عن أخلاق حسنة وسيئة سادت المجتمع الجزائري في ذلك العهد، ومن الأخلاق الحسنة التي كان يتميز بها معظم سكان "الجزائر" الكرم، فقد تحدث العياشي عن كرم أهل الصحراء في عدة مواضع منها ما ذكره عن "**سيدي محمد بن عبد الكريم التواتي**" أحد طلبة "تقرت"قد أجزل في ضيافتهم[3]، وقد أسهب الدرعي أيضا في ذكر إكرام أهل الصحراء الجزائرية للركب، وسيأتي الحديث عن إكرام الضيف في عنصر لاحق، كما ذكر الوزان أن أهل مدينة "القل" ظرفاء كرماء، وكذلك القبائل الساكنة بجبال "الجزائر" واسعة الكرم، وأن سكان مدينة "دلس" ذوو بشاشة ومرح[4]، أما عن الأخلاق السيئة التي ورد ذكرها في هذه الرحلات؛ فهي التعدي على أملاك الآخرين، وقد كثر الحديث عن قطع الطريق عن الحجاج أو التجار من طرف بعض الأعراب في الصحراء وسلبهم أموالهم، أوإغارات بعض القبائل على بعضها لنفس الغرض، فذكر ابن الطيب عادة بعض أهل "الأغواط" في السرقة والنهب فمما قال: "**وبات الحجاج آخذين الحذر هناك لما يعتادون فيها (الأغواط) من النهب والسرقة وغير ذلك..**"[5]، ومما ذكر العياشي أن في طريقه إلى الحج مع ركب الحجاج أثناء خروجهم من القليعة في أرض وعرة حرشة وبقرب ماء "زيرارة" حصلت لهم روعة (رهبة) لخبر أن من ورائهم قوم من العرب يريدون الإغارة عليهم فاستعدوا للحرب.."[6]، ومن بعض

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 202/1.

(2) المصدر نفسه، 198/1، 199.

(3) المصدر نفسه، 120/1.

(4) ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، 54/2، 46، 42.

(5) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص91.

(6) ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، ص112.

الأخلاق والصفات القبيحة أيضا ذكر الوزان أن: "**أهل عنابة شرسون متكبرون..**"[1]، وكذلك أهل "قسنطينة" "**متكبرون مغفلون..**"[2]، و"**أهل تبسة بخلاء غلاظ شداد، لا يحبون رؤية غريب**"[3].

وخلاصة القول نلاحظ توافقا كبيرا بين ما ورد في الرحلات الجزائرية وما ورد في الرحلات المغربية في ما يخص بنية المجتمع الجزائري ومقوماته، مع اختلاف في بعض الأمور فقط، كتركيز كلا الطرفين، على قضية فئات المجتمع، وفي ذكر صريح للغة المجتمع الجزائري وتباين الأخلاق بين الحسنة والسيئة، وغيرها من الاتفاقات والاختلافات في عّدة أمور أخرى.

المطلب الثاني: عادات وتقاليد المجتمع الجزائري

لكل مجتمع مجموعة عادات وتقاليد خاصةتميزه عن غيره من المجتمعات، وتمثل جزءا من ثقافته التي تركبت عبر حقب تاريخية وعبر أجيال مرّت، وقد رسمت صورة لجملة من العادات والتقاليد للمجتمع الجزائري في العهد العثماني، ورد الحديث عن بعضها في الرحلات المغاربية، تحدث عنها هذا المطلب من خلال تقسيمه إلى ثلاثة فروع رئيسة: الأول يخص عادات المجتمع الجزائري في الاحتفالات، والفرع في تقاليد المجتمع "الجزائر" في الألبسة والأطعمة والأشربة.

الفرع الأول: عادات المجتمع الجزائري في الاحتفالات

من أهم عادات المجتمع الجزائري التي ورد الحديث عنها في الرحلات المغاربية نجد على رأسها الاحتفلات.

فقد تحدثت بعض الرحلات الجزائرية عن بعض عادات المجتمع الجزائري في العهد العثماني في الاحتفالات في مختلف الأعياد والمناسبات الدينية وغيرها، كالاحتفال بالمولد النبوي وليلة القدر وعيد الفطر، والاحتفال بختم البخاري وبعودة الحجاج وغيرها.

فعن الاحتفال "**بالمولد النبوي الشريف**" صلى الله عليه وسلم، تحدث ابن عمار الذي ذكر مجموعة من عادات المجتمع الجزائري في هذه المناسبة منها: تنظيم القصائد من

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 62/2.

(2) المصدر نفسه، 56/2.

(3) المصدر نفسه، 64/2.

المديحيات والموشحات وتلحينها بالموسيقى في المحافل وغيرها،إذ قال في ذلك: "**وقد جرت عادة أهل بلادنا الجزائر حرسها الله من الفتن وحاطها من الدوائر أنه إذا دخل شهر ربيع الأول انبرى من أدبائها وشعرائها من إليه الإشارة وعليه المعول إلى نظم القصائد المديحات والموشحات النبويات ويلحنونها على طريق الموسيقى بالألحان المعجبة ويقرءونها بالأصوات المطربة ويصدعون بها في المحافل العظيمة والمجامع المحفوفة بالفضلاء والرؤساء والنظيمة من المساجد والمكاتب والمزارات وهم في أكمل زينة وأجمل زيّ وأحسن شارات تعظيما لهذا الموسم الذي شرف به الإسلام واحتفالا بمولده عليه الصلاة والسلام**"[1].

كما ذكر ابن حمادوش في رحلته الكثير من عادات وتقاليد المجتمع الجزائري في الاحتفالات منها: عادة أهل الجزائر "**ليلة القدر**" التي ذكرها في نص رحلته: "**وعادة متولي الجامع الكبير يفرغ قنطارا أو أكثر شمعا يفرقه على ثلاثين شمعة خضر ما بين الثلاثة أرطال إلى الأربعة في كل واحدة، ويأتون بهم إلى دار المفتي أو الوكيل أيهم يحب الظهور فإذا صلى العصر أخرج ذلك المؤذنون أو غيرهم في أيديهم ويطوفوا بهم البلاد وأقله إلى دار الإمارة ويرجعون من طريق أخرى...، وأحد الموقتين ينشد...، ويرفعون أصواتهم بالصلاة والسلام على النبي حتى إذا دخلوا المسجد...، أشعلوهم مع ما يكثرون من قناديل القوارير ويحيون الليل كله إلى الفجر فإذا قرب الفجر أوتروا وقرؤوا ما تيسر من الفواتح.**."[2]، وذكر أيضا عادة أهل الجزائر بالصلاة على النبي بعد ختم البخاري، ومما ذكر في هذا الشأن: ""**فلما التقينا بعد صلاة ظهر هذا اليوم لنلقف بخاري الدراية بعد الصلاة فقرأ المملي باب الوضوء قبل الغسل إلخ، ثم تبع الشيخ شرح ذلك، وصلينا على النبي الصلاة المعهودة في الجزائر عقب البخاري وهي: اللهم صل أفضل صلاة على أشرف مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم عدد معلوماتك ومداد كلماتك كلما ذكرك وذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون، ورش الخدم ماء الورد الناس...، وهي عندنا ليلة القدر لأنها ليلة سبع وعشرين**"[3]، ومن عادات

---

[1] ابن عمار، نحلة اللبيب، ص15، 16.

[2] ابن حمادوش، لسان المقال، ص126.

[3] المصدر نفسه، ص125.

أهل الجزائر أيضا في الاحتفالات، الاحتفال بعودة الحجاج تحت دوي البارود، وقد تحدث عن هذه العادة الورثلاني عند عودته من الحج، حين استقبله الناس مع ركب الحجاج بضرب البارود فقال: "**إلى أن وصلنا إلى زمورة، فلما سمعوا بنا لقينا من بها من العامة والخاصة فرحين مسرورين ببنادقهم وغير ذلك من أنواع الفرح..، ففرحوا وسروا وأظهروا ذلك بضرب البارود..**"(1).

وعلى غرار الرحلات الجزائرية التي تحدثت عن بعض العادات الجزائرية وتقاليدها في الاحتفالات، كذلك ورد ذكر بعض العادات في مختلف المناسبات في بعض الرحلات المغربية، فذكر العياشي عادة أهل "بوسمغون" في احتفالهم بعيد الفطر تحت دوي البارود وذلك في بيوت الله فقال: "**وكان من عادتهم أنهم يخرجون إلى المصلى بسلاحهم..، ويبنون في المصلى أحجارا يتخذونها غرضا للرمي بالبنادق، فلا يذكر الله إلا أناس قليلون، وغالب الناس مشتغلون بالرمي حتى في حال الصلاة والخطبة..**"(2).

وبالرغم من قلة الحديث والإشارات إلى أهم عادات المجتمع في الاحتفالات، إلا أن ما ورد في ذلك كان كافيا لمعرفة أهم الاحتفالات الدينية التي يحتفل بها المجتمع الجزائري، وعلى رأسها عيد الفطر وليلة القدر والمولد النبوي الشريف على صاحبه ألف صلاة وسلام.

الفرع الثاني: عادات المجتمع الجزائري في الألبسة والأطعمة والأشربة

ومن العادات التي ذكرت في الرحلات المغاربية أيضا بجانب الاحتفلات نجد عادات المجتمع الجزائري في الألبسة والأطعمة والأشربة.

أولا: عادات المجتمع الجزائري في الألبسة

إذ توجد هناك عدة إشارات في الرحلات الجزائرية تخص الألبسة في الجزائر، ونوعية الأقمشة المستعملة، فمما ذكره ابن حمادوش من الأقمشة، قماش "**الملف**" و"**القشينية**" الذي كان يبيعها(3)، كما ذكر من الألبسة النسوية:"**القفطان**"، و"**قناطير الصوف**" الذي ورد ذكرها كثيرا في حديثه عن عقود الزواج، فمن صداق إحدى العرائس "**قفطانان اثنان**

(1) ينظر: الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 3/374– 384.

(2) العياشي، الرحلة العياشية، 2/549.

(3) ابن حمادوش، لسان المقال، ص118.

أحدهما موبر، والآخر أطلس...، وأربعة قناطير صوف.."[1]، وقد ذكر المعسكري من الألبسة أيضا"**البرنوس**"، و"**الشاشية**"[2]، وذكر الورثلاني أن سكان زمورة "**يلبسون ثيابا حسنة رفيهة من الصوف والكتان**"[3]، كما تحدث الأغواطي أيضا عن عادات أهل الصحراء في الألبسة فذكر أنّ "**أهل الأغواط يرتدون الملابس الصوفية..، وسكان ورقلة لباسهم من الصوف والقطن..، كما أن سكان تيميمون يلبسون الثياب الصوفية والقطنية أيضا..، أما سكان القورارة الواقعة قرب تيميمون فيلبسون الساي الأسود وملابس الصوف..، أما الطوارق(التوارق) فيرتدون الساي القطني الأسود وسراويلهم تشبه سراويل المسيحيين، ويتلثمون بلثام من القطن**"[4]، كما ذكر ابن هطال أيضا من ألبسة أهل الصحراء "**البرنوس**" و"**الحايك**"[5].

أما عن ما جاء في الرحلات المغربيةفيما يخص ألبسة المجتمع الجزائري، فذكر الزياني من ألبسة البايات "**الأكراك**"*، والتي ذكرها في نص حديثه عن باي "قسنطينة" الذي: "**دخل فلبس عليه كركا من السمور، وخرج وعاد لموضعه وقال: لم لا تعتنون بهذه الأكراك فإنها نافعة في زمن البرد، فقلت نحن أهل المغرب أهل بادية لا يعرفون هذا وأشباهه، وبعد أن تأتي هذه الأكراك في هدايا الملوك من المشرق ومن الإصطنبول للسلطان يعطيها لرؤساء البحر وقواد الطبجية...**"[6]، كما ذُكر في الرحلات من لباس السكان الأصليين "**الصوف**" و "**الكتان**" و"**الحرير**"، فعند العياشي أنّ لباس أهل "ورقلة" الصوف والكتان[7]، ومن الملابس التي تجلب من السودان ملابس "**الملف**" و"**الحرير**"[8]، وذكر الوزان أيضا من الألبسة المحلية في "قسنطينة" المصنوعة من الصوف و"**فيها عدد كبير**

---

[1] ابن حمادوش، لسان المقال، ص239.

[2] المعسكري، فتح الإله، ص21.

[3] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 376/3.

[4] الأغواطي، الرحلة، ص87- 98.

[5] ابن هطال، رحلة الباي، ص66.

*الأكراك: وهي ألبسة شتوية تأتي من المشرق هدايا للملوك والأمراء كما جاء في رحلة الزياني.

[6] الزياني، الترجمانة، ص157، 158.

[7] العياشي، الرحلة العياشية، 118/1.

[8] المصدر نفسه، 80/1.

من التجار الذين يتعاطون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا.."[1]، وأن تجار "قسنطينة" يبيعون الحرير في المناطق الداخلية لـ"الجزائر"، وسكان "شرشال الأندلسيون" كانوا يشتغلون بصناعة الحرير[2]، كما ذكر بعض عادات النساء الأعراب في بعض الصحاري الجزائرية، ومن بينها عادتهن في اللباس والحلي فهن: "**يرتدين لباسا حسنا حسب عادة البلاد، وهو قميص أسود واسع الأكمام يجعلن فوقه خمارا أسود أو أزرق يلتحفن به ويجعلن هدبه على أكتافهن من أمام ومن خلف، حيث يمسك بمشبك فضي مصنوع بطريقة فنية، ويضعن أقراضا عديدة من الفضة كذلك في آذانهن، وخواتم في أصابعهن، وأساور في أيديهن، وخلاخل في أرجلهن على عادة الأفارقة**"[3]، كما ذكر أيضا أنّهن يضعن اللثام على وجوههن أمام الغريب[4]، كما أشار الدرعي إلى أنّ أهل "**فجيج**" يبيعون البرانس للحجاج[5].

إذا تختلف عادات الجزائريين في الألبسة بين فئات المجتمع وطبقاته، كما تختلف بين سكان المدن والأرياف والبوادي الصحراوية.

ثانيا: عادات المجتمع الجزائري في الأطعمة

أما عن الأطعمة في الرحلات المغاربية، فورد الحديث عن بعضها في الرحلات الجزائرية منها أطعمة أهل الصحراء التي ذكرها الأغواطي والتي تتنوع بين "اللحوم" و"التمور" و"الحليب"، فسكان "وادي سوف" يعيشون على "التمر" و"حليب الإبل"، والطوارق طعامهم من "اللحم" و"الحليب" فقط، وليس لهم حبوب إطلاقا...، وهم لا يأكلون أو يشربون بحضور الناس[6].

كما وردت الإشارة إلى أهم الأطعمة المشهورة عند سكان "الجزائر" في الرحلات المغربية، ومن بينها الموجودة لدى سكان المناطق الشمالية لـ"الجزائر" خاصة: "الكسكس" و"الأرز" و"السمن" و"الخليع" و"التمر" و"الزبيب" و"التين" و"البصل" كما في رحلة الزياني،

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 56/2.

(2) المصدر نفسه، 34/2، 56.

(3) المصدر نفسه، 64/2.

(4) المصدر نفسه، 65/2.

(5) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص125.

(6) الأغواطي، الرحلة، ص96- 98.

الذي ذكر أن باي قسنطينة وهبه هذه الأطعمة وهو في طريقه إلى "تونس"[1]، أما عند الوزان فورد عنده أن سكان الجبال في مختلف مدن الجزائر الشمالية، غالبا ما يتغذون على "الشعير" ومختلف "الثمار"، فمثلا سكان جبل "مطغرة"فقراء لأنه لا ينبت في جبلهم حب غير الشعير، والخروب الذي يعتبر الغذاء الرئيسي لسكان جبل "بني يزناسن"، وسكان بجاية غالبا ما يتغذون على الثمار لتوفرها عندهم[2]، أما بالنسبة لسكان الصحراء فجل طعامهم "التمر" و"اللبن" و"الحليب"، ومختلف "الفواكه" الأخرى، وقد ذكر الدرعي الكثير من الأطعمة والفواكه التي كانت تقدم إلى الركب من طرف سكان الصحراء الجزائرية، فأهل "بشار" والقرى القريبة منها ضيفوا الركب بـ"البسر" و"الكسكس" و"اللحم"، وأهل "فجيج" ضيفوه بـ"البسر" و"العنب" و"الخوخ"[3]، وأهل "عين الصفراء" أتوهم بـ"السمن" و"الزرع" و"الدقيق"[4]، وذكر العياشي أيضا أن سكان "وادي سوف" جلّ معيشتهم من "الصيد" و"التمر"[5]، وكذلك أهل "توات" جلّ عيشهم "التمر"[6]، ومن صيد "السمك" أيضا يتغذّى أهل المدن الساحلية كسكان مدينة "دلس"إذ ذكر الوزان أن سكانها: **"تعودوا جميعا على اصطياد السمك.."**[7]، وكذلك ذكر الدرعي نقلا عن العياشي وجود "الخضر" و"البقول" في "بسكرة" كما يكثر "اللحم" و"السمن" في أسواقها[8].

إذا تتنوع الأطعمة عند الجزائريين بين اللحوم والألبان، والخضر والفواكه، والملاحظ عليها أنها من إنتاج محلي في غالب الأحيان.

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص159.

(2) الوزان، وصف إفريقيا، 43/2، 50.

(3) المصدر نفسه، 125/2.

(4) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص124-127.

(5) العياشي، الرحلة العياشية، 123/1.

(6) المصدر نفسه، 79/1.

(7) الوزان، المصدر السابق، 42/2.

(8) الدرعي، المصدر السابق، ص139.

ثالثا: عادات المجتمع الجزائري في الأشربة

وأما عن الأشربة التي كانت شائعة في "الجزائر" آنذاك، وجاء الحديث عنها في بعض الرحلات المغاربية، فتوجد هناك أشربة فاخرة تصنع محليا، منها شرابين ورد ذكرهما في الرحلات الجزائرية، وهما: "المصطكي"، و"اللاقمي".

فالمصطكي مشروب مشهور تحدّث عنه ابن حمادوش الذي كان يصنعه موضحا طريقته وفي هذا يقول: "**صنعت شراب المصطكي وهو من أفخر الأشربة أخذته عن الشيخ سيدي الحاج عبد الوهاب أدراق، أخذه عن أشياخه، عن الشيخ سيدي محمد السنوسي في شرح حديث "المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة" المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الشراب يقوم في منافعه مقام الخمر، وصفته أوقية مصطكي تطبخ في خمسة أرطال ماء حتى يبقى أقل من النصف، ثم يصفى ويلقى عليه مثله عسل منزوع الرغوة ويطبخ حتى يكون في قوام الأشربة ويحفظ، فتلقى أوقية منه في رطل من ماء ويشرب وهو نافع جدا...**"[(1)]، وكما أشار ابن حمادوش فهذا الشراب يستعمل للاستشفاء، كما أنّه يقوم مقام الخمر.

أما في المدن الصحراوية فيذكر الأغواطي أن هناك "مشروب يسمى:"**اللاقمي**" وهو شائع بين سكان "تقرت""**يستخرجونه من فروع النخيل، وذلك بقطعها والضغط عليها فيخرج من ذلك شراب يميل إلى اللون الأحمر وهو حلو "كالشاربات"، ويباع هذا الشراب في الأسواق بمكاييل**"[(2)]، فالواضح من كلام الأغواطي أن هذا الشراب كان مشهورا جدا بين أهالي الصحراء الجزائرية وخاصة أهل "تقرت".

كما جاء الحديث عن القهوة أيضا، فشربها كان مشهورا ومنتشرا وقد ذكر ذلك المعسكري مع إيراده اختلاف العلماء في جوازها وحرمتها[(3)].

وأما في الرحلات المغربية فلم تعنى كثيرا بالحديث عن الأشربة المشهورة في "الجزائر" آنذاك، ماعدا بعض الإشارات إلى القهوة والخمر وبعض السوائل التي تستخدم مع الأطعمة.

---

(1) ابن حمادوش، لسان المقال، ص121.

(2) الأغواطي، الرحلة، ص101.

(3) المعسكري، فتح الإله، ص159، 160.

فذكر منها الزياني زيت الزيتون والخل والعسل[1]، وذكر الوزان أن سكان جبل "بني سعيد" القريب من "تنس" يملكون كمية وافرة من العسل[2]. وبالإضافة إلى ذلك توجد القهوة والخمر خاصة عند طبقة الحكام والأمراء وحاشيتهم، فقد تحدث الزياني عن شرب القهوة والخمر في أوساط الأمراء والبايات وغيرهم من الطبقة العليا، وذلك أثناء زيارته لـ"قسنطينة" وتحذيره من الخدمة مع الأمراء، فذكر أن الباي طلب منه الإقامة عنده واستضافه، وشرب عنده القهوة، كما أنه اشتمّ منه رائحة الخمر [3].

من خلال ماجاء في الرحلات المغاربية فيما يخص الأشربة نكتشف أن هناك أشربة مشهورة كانت تصنع محليا، كما نلاحظ رواج شرب القهوة، والجدل القائم حول جوازها وحرمتها بين فقهاء العصر، كما نلاحظ أيضا أن الطبقة الحاكمة لا تفارق شرب الخمر.

وعموما فإن الرحلات المغاربية اهتمت ولو بصفة قليلة بذكر بعض العادات والتقاليد التي كان يتميز بها المجتمع الجزائري، فيما يتعلق بالاحتفالات خاصة في الأعياد الدينية كالمولد النبوي الشريف وليلة القدر، وكذلك عادات المجتمع في الألبسة والأطعمة وبعض الأشربة الخاصة.

المطلب الثالث: الأسرة في المجتمع الجزائري

تعتبر الأسرة النواة الأولى للمجتمع، لذلك فالحديث عنها من أولويات الحديث عن أي مجتمع، لذلك تناول هذا المطلب بعض الأمور الخاصة بالأسرة الجزائرية في العهد العثماني حسبما جاء في الرحلات المغاربية، وذلك في ثلاثة فروع: الأول تحدث عن المرأة في المجتمع، والثاني عن رابطة الزواج في المجتمع الجزائري، أما الفرع الثالث فتحدث عن المشاكل الأسرية.

الفرع الأول: المرأة في المجتمع الجزائري

باعتبار المرأة عنصرا فاعلا في المجتمع الجزائري على غرار أغلب المجتمعات، فقد أولت الرحلات المغاربية الحديث عنها أهمية معتبرة، من خلال إعطائنا صورة المرأة في المجتمع الجزائري، والمستوى التي كانت عليه.

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص159.

(2) الوزان، وصف إفريقيا، 45/2.

(3) الزياني، المصدر السابق، ص156.

فمن خلال الرحلات الجزائرية اختلفت أوضاع المرأة في ذلك العهد من منطقة إلى أخرى، فالورثلاني يورد جانبين مختلفين عن المرأة الجزائرية؛ جانب إيجابي يخص صلاحها كالمرأة البجاوية وذلك حينما ذكر أن والدة أبيه كانت: "**من الصالحات شريفة..، وكانت تقسم الليل أثلاثا: ثلث للصلاة، وثلث للنوم، وثلث للذكر**"[1]، كما تحدث عن جانب سلبي في حديثه عن تبرج النساء في "زمورة" ففي سياق وصفه للمدينة ذكر أن في أزقتها: "**النساء الطيبات المتبرجات كأنهن في ليلة الزفاف بهن، في الأزقة والعيون مكشوفات العورات باديات المستحسن منهن كالصدر والثدي وتحت الإبط والساق والفخذ، ومع ذلك إنّهن أجمل خلق الله من رآهن من العباد من أهل اللهو واللعب افتتن بهن..**"[2]، والأغواطي هو الآخر أورد في رحلته عدة أخبار عن أوضاع المرأة الصحراوية، فنجد من ذكره النساء الصحراويات اللواتي منهن لا يخرجن من بيوتهن كنساء "الأغواط"[3]، ومنهن اللواتي يخرجن للسقي وجلب الماء، أوإلى السوق، ومنهن المتحجبات وغير المتحجبات، ومما ذكر في ذلك أن :"**نساء عين ماضي تظهر في الشوارع**"[4]، و"**النساء في "المنيعة" كالبدويات يخرجن للسقي في الآبار ويجلبن الماء في القرب**"[5]، أمّا النساء في "واد سوف" "**فيخرجن إلى السوق غير محجبات كما يظهرن في البساتين ويشتهرن بالخنا كثيرا**"[6]، كما أن "**النساء من المجاهرية بتقرت يخرجن إلى الأسواق محجبات**"[7]، كما وردت الإشارة إلى وجود بعض النسوة العاهرات في رحلة ابن حمادوش الذي تحدث عن توبة إحداهن أثناء عقده لقرانها فقال: "**وذكرت أنها كانت بها ما كانت على أفعال ذميمة مصرة على السفاح والعهارة، وإنها تائبة لله تعالى من ذلك توبة**

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 158/1.

(2) المصدر نفسه، 377/3.

(3) الأغواطي، الرحلة، ص87.

(4) المصدر نفسه، ص89.

(5) المصدر نفسه، ص91.

(6) المصدر نفسه، ص97. و"الخنا" حسب محقق الرحلة: هو لقاء الشبان والشابات للتعارف والتفاهم على الزواج وهذا اللقاء يتم على مرأى الناس.

(7) المصدر نفسه، ص100.

صادقة.."[1]، فمن خلال نصوص الرحالة تتباين وضعية المرأة الجزائرية حسب المناطق، فهناك الصالحات القانتات، وهناك العاهرات الفاسدات، كما أن هناك المتحجبات المحتشمات في مقابل المتبرجات الكاسيات العاريات في الشوارع، ومنهن الماكثات في البيوت في مقابل الخرجات من البيوت إلى الأسواق وجلب الماء.

أما الرحلات المغربية فقد جمعت بين المدح والذم للمرأة الجزائرية، فذُكر جمالهن وحسنهن في بعض المدن الجزائرية مع بعض أشغالهن وأعمالهن، بالإضافة إلى ذكر بعض عاداتهن واعتقاداتهن السلبية، فعن جمال المرأة الجزائرية تحدث الوزان عن جمال النساء في مدينة "تقاوس" فوصفن في قوله: "**والنساء جميلات بيض البشرة سود الشعر اللامع، لأنهن يترددن على الحمام ويعتنين بأنفسهن..**"[2]، كما تحدث ابن الطيب عن جمال نساء "عين ماضي" وتغنى به متغزلا بقوله: "**أما نساؤها فإنهن من أزهر النساء سناء، وأزهارها وأبهرها سنا وأبهاها، عيون فواتر أمضى في القلوب من السيوف البواتر، وقدود زواهر أزهى في العيون من الغصن الزاهر..، فلذلك صبا القلب لذكر ذلك فقال:**

عين ماض بها عيون مواض فاعلات فعل السيوف المواضي
والتفات الغزال لما غزالي صائلا صولة الأسود المواضي
وقدود تزهو إذا قدت القلب ازدهاء الأغصان بين الرياض[3]

وفي ذات السياق ذكر الحضيكي أن نساء "عين ماضي": "**يرعن بالحسن والجمال..، فإنهن يفتن من رمقهن**"[4]، فمن خلال ما ذكره كل من الحضيكي والفاسي نجد تميز المرأة الجزائرية بالجمال الباهر في بعض المناطق الجزائرية فهن يفتن من شاهدهن حتى الحجاج.

---

(1) ابن حمادوش، لسان المقال، ص251.

(2) الوزان، وصف إفريقيا، 53/2.

(3) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص90.

(4) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص84.

أما عن أشغالهن وأعمالهن، فذكر الوزان أن نساء "قسنطينة" يغسلن الثياب في النهر، كما أنهن يذهبن إلى الحمام[1]، أما الدرعي فعن نساء "عين ماضي" أنهن: "**يغسلن الصوف وسط الساقية الجارية بماء بارد..**"[2]، وذكر أيضا تسوقهن وتجارتهن واصفا أن"**نساؤهم الشابات تبيع وتشتري مع الحجيج..**"[3]، وفي هذا ذكر الحضيكي أنهن: "**يخرجن للتسوق مع الحاج في منزله، ولا يبيع ويشتري في تلك البلاد غالبا إلا النساء..**"[4].

أما عن بعض عاداتهن، فقد تحدث الوزان عن طبيعة عيش أعراب الصحاري المجاورة لمملكتي "تلمسان" و"تونس" (قبيل سيطرة العثمانيين على كافة المناطق الجزائرية، لأن رحلته كانت معاصرة لبدايات دخول الأتراك الجزائر)، فذكر بعض عادات النساء عندهم، ومن بين ما ذكر من عادتهن في اللباس والحلي أنهن" **يرتدين لباسا حسنا حسب عادة البلاد، وهو قميص أسود واسع الأكمام يجعلن فوقه خمارا أسود أو أزرق يلتحفن به ويجعلن هدبه على أكتافهن من أمام ومن خلف، حيث يمسك بمشبك فضي مصنوع بطريقة فنية، ويضعن أقراضا عديدة من الفضة كذلك في آذانهن، وخواتم في أصابعهن، وأساور في أيديهن، وخلاخل في أرجلهن على عادة الأفارقة**"[5]، كما ذكر أيضا حياءهن وتسترهن أمام الغريب، وتزينهن لأزواجهن حيث " **تضع هؤلاء النساء أمام وجوههن ثوبا صغيرا مثقوبا أمام العيون، فإذا رأين رجلا ليس من أهلهن احتجبن فورا بهذا اللثام، وأمسكن عن الكلام فإذا انفردن بأزواجهن وذويهن رفعن اللثام...، ومن عادة هؤلاء النساء أنهن قبل الزفاف إلى أزواجهن، يخضّبن بالحناء وجوههن وصدورهن وأذرعهن وأيديهن إلى رؤوس الأصابع، لأن ذلك مستحسن عندهن..**"[6]، والعجيب في هذا تخضيب الصدر والأذرع ولم نتطلع على الغاية من هذا الفعل.

---

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 59/2.

(2) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص131.

(3) المصدر نفسه، ص131.

(4) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص84.

(5) الوزان، المصدر السابق، 64/2.

(6) المصدر نفسه، 65/2.

وأما عن اعتقادات النساء وعاداتهن السيئة، فذكر الوزان اعتقادات نساء "قسنطينة" السخيفة فكان منها اعتقادهن أن السلاحف شياطين تؤذي النساء في الحمام فيقدمن لها القرابين، حيث ذكر ذلك في نصه: "**يوجد حمام مكون من عين ماء ساخن..، ويعيش فيها عدد كبير من السلاحف تعتقد النساء أنها شياطين، وإذا اتفق أن أصيبت إحدى النساء بالحمى أو غيرها تقول إن سبب ذلك يرجع إلى السلاحف، وللتخلص من الداء تذبح حينا دجاجة بيضاء تضعها في إناء بريشها الكامل ثم تربط حول الإناء شمعات وتحمله إلى العين حيث تتركه، وكم من الظرفاء تبعوا امرأة وهي تتوجه إلى العين..، وأخذوا الإناء بعد انصرافها ثم طبخوا الدجاجة وأكلوها..**"[1]، ومن اعتقادات نساء "عين ماضي" أن الاغتسال بالماء يسقط حمل الحوامل ويذهب بالعذرة، وقد ذكر ذلك كل من الدرعي والحضيكي وابن الطيب الفاسي، حيث قال الدرعي: "**نساؤهم لا يغتسلن من جنابة ولا من حيض، ولا من نفاس، ولما كلمهم الركب ولاموهم عن ذلك استعذروا وقالوا بأن ذلك يضربهن في أرحامهن..**"[2]، وقال الحضيكي: "**فنساؤهن... لايغتسلن من الحيض ولا من الجنابة مخافة من الماء..**"[3]، أمّا ابن الطيب الفاسي فذكر: "**غير أنا أخبرنا أنهن لا يستعملن الماء في الاغتسال لأنه يضر بأبدانهن..، وقد ورد علينا سائل بيّن موجب ذلك وأوضح عذره قائلا أن ذلك الماء يسقط حمل الحوامل، ويذهب من الأبكار بالعذرة..**"[4]، ومن العادات السيئة أيضا عند النساء بالإضافة إلى هاته الاعتقادات: تبرجهن، وتقصيرهن في العبادات، بالإضافة إلى تغلبهن على أزواجهن، فوصف الحضيكي نساء "عين ماضي" أنهن "**متبرجات بزينتهن، لا حياء معهن ولا دين...، وحكي أنهن لا يصلين أصلا، ولا يغتسلن من الحيض ولا من الجنابة مخافة من الماء..**"[5]، وفي سياق هذا الحال أضاف الدرعي أن"**نساؤهم سارحات كالبهائم كدأب**

---

[1] الوزان، وصف إفريقيا، 59/2.

[2] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص131.

[3] الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص84.

[4] الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص90.

[5] الحضيكي، المصدر السابق، ص84.

نساء هذه النواحي، لا يبالون بالحجاب.."[1] وكذلك نساء "تقاوس" يخرجن متبرجات إلى الحمام كما ذكر الوزان من قبل[2].

لقد نالت المرأة حظها الوافر من نصوص الرحلات المغاربية، إذ نجد الكثير من الرحالة أوقفهم موضوع المرأة الجزائرية فراحوا يصفونها تارة، ويذكرون وضعيتها في المجتمع، كما ركزت بعض الرحالات على ذكر عاداتها سلبية كانت أم إيجابية.

الفرع الثاني: رابطة الزواج في المجتمع الجزائري

إذا كان الحديث عن المرأة وفيرا في الرحلات المغاربية، فإن الحديث عن رابطة الزواج لم يكن متوفرا بالقدر الكافي، إلا ما ورد في رحلة ابن حمادوش في حديثه عن الزفاف وما يتعلق به من عقود الزواج والصداق وغيرها، مثل حديثه عن زواج حفيد "الباشا إبراهيم" قبل وفاته"[3]، كما أورد الكثير من عقود الزواج سواء التي وثقها شخصيا أو غيره، كعقد زواج الباشا السابق، وعقود زواج بعض الأندلسيين، كما ذكر عقد زواجه الأول، وكذلك عقد زواج أخته آسيا[4]، ومن بعض صيغ الزواج المذكورة: عقد نكاح أبكم أصم والذي ما نصه: "**هذا ما أصدق به فلان الأصم الأبكم زوجه فلانة بنت فلان، وتقول أنكحها إياه أخوها شقيقها فلان، أو والدها فلان، بإذنها ورضاها، وتفويضها، ثيب مالكة أمرها، خلو من الزوج والعدة، شهد على إشهاد الناكح فلان الأصم الأبكم على نفسه من أشهده عليه بالإشارة منه المفهوم بها مراده المعلوم فيها اختياره، وأشهدته المنكحة فلانة وأبوها فلان المذكوران بما فيه عنهما وعرفهما بحال صحة وجواز أمر، وذلك في تاريخ كذا**"[5]، ومن خلال تلك العقود نستخلص أمور الصداق، الذي يختلف من زوجة لأخرى حسب المستوى الاجتماعي، فمن بين ماذكر ابن حمادوش صداق أخته: "**المقدر مابين نقد محضر وحال منظر وكالي مؤخر أربعمائة دينار جزائرية خمسينية العدد من سكة التاريخ، وقفطان واحد قذيفة، وفردان اثنان، وقنطران اثنان**

---

[1] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص131.

[2] الوزان، وصف إفريقيا، 53/2.

[3] المصدر نفسه ، 237/2.

[4] المصدر نفسه، 236/2– 246.

[5] ابن حمادوش، لسان المقال، 250، 251.

صوفا، وأوقية واحدة جوهرا، وأمة واحدة من رقيق السودان.."[1]، كما ذكر صداق لبنت أحد الأئمة، وهي "رقية" بنت "الشيخ الإمام محمد المقري" المشترط على زوجها "عبد الرحمن ابن أحمد الشريف المرتضى"، وقدر هذا الصداق "**بين نقد محضر وحال منظر، وكال مؤخر ألف دينار واحد ومائتا دينار ثنتان، كلها جزائرية خمسينية العدد من سكة التاريخ، وقفطانان اثنان أحدهما موبر، والآخر أطلس، وأربع أوراق جوهرا، وأربعة أفراد ستيني، وأمتان اثنان من رقيق السودان، وأربعة قناطير صوف..**"[2].

رغم ندرة الحديث عن أمور الزواج في الرحلات المغاربية فإن ابن حمادوش اهتم بذكر بعض التفاصيل الخاصة به، خاصة أمر العقود والصداق.

الفرع الثالث: المشاكل الأسرية في المجتمع الجزائري

توجد في الرحلات المغاربية إشارات طفيفة إلى بعض المشاكل الأسرية التي كانت تحدث في المجتمع الجزائري منها غضب الزوجة وهجرها لبيت زوجها، بالإضافة إلى النشوز والطلاق.

ففي الرحلات الجزائرية وردت الإشارة إلى غضب الزوجة وخروجها إلى بيت أهلها، هذا ما ذكره ابن حمادوش عن أمر غضب زوجته وذهابها إلى بيت أخيها وطلبها الفراق، فعن ذلك مخبرا "**فحين أتيت للغداء نصف النهار فوجدت الأهل في قلق ففي يوم الجمعة خرجوا كلهم وأيقنوا أني بعد خروجهم أتعب مع الزوجة كثيرا لأنها لا تستطيع السكنى وحدها فبقيت في هول عظيم من الزوجة وأنا لا أترك الكتب، إلى يوم الأربعاء ثالث ربيع الأول غضبت لدار أخيها وأرادت الفراق، وكان بيني وبينها ولدان سيدي حسن وسيدي حسين أصلحهما الله صغارا لم يبلغوا..، ولم أرها فرحت بقدومي لأنها أيقنت أن أكثر المال ضاع لي فلم يبق لها غرض في...**"[3]، ولا توجد تفاصيل عن أمور المشاكل الزوجية في غير رحلة ابن حمادوش.

ومن المشاكل الأسرية والزوجية التي ذكرت في الرحلات المغربية، بسبب تغلب النساء على أزواجهن النشوز، والطلاق، حيث وصف الحضيكي من قبل حال النساء في "عين

---

[1] ابن حمادوش، لسان المقال، ص244.

[2] المصدر نفسه، ص259.

[3] المصدر نفسه، ص115.

ماضي" في سياق حديثه عن عاداتهن السيئة وتغبلهن على أزواجهن[1]، وذلك ما يسبب خللا في العلاقات الزوجية داخل الأسرة، وأما عن نشوز المرأة عن زوجها وحدوث الطلاق، فورد ذكر ذلك في رحلة العياشي، في سياق حديثه عن عادة أهل "توات" في التعامل مع نشوز المرأة لكسر شدتها، حيث ذكر أن: "**من نشزت امرأته وطلقها يأتي إلى شهود يسترعيهم ويقول: اشهدوا أني ما طلقت امرأتي إلا كي أكسر من سورتها وشدتها، فمتى أرادت التزوج استظهر بذلك الرسم فلا يتزوجها أحد حتى ترجع إليه**"[2].

ولا توجد إشارات أخرى تخص الموضوع تستحق الذكر حسب اطلاعي على الرحلات المغاربية الأخرى، إلا ما قد سلف.

---

[1] الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص84.

[2] العياشي، الرحلة العياشية، 84/1.

المبحث الثاني: الحالة الاقتصادية للمجتمع الجزائري في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

تدخل الحالة الاقتصادية للمجتمع ضمن الأحوال الاجتماعية العامة، وهو متناوله هذا المبحث في مطلبين: المطلب الأول تحدث عن الثروات الاقتصادية للمجتمع الجزائري، والمطلب الثاني خصّ الأنشطة الاقتصادية للمجتمع الجزائري.

المطلب الأول: الثروات الاقتصادية للمجتمع الجزائري

اهتمت الرحلات المغاربية بذكر بعض الثروات الطبيعية الموجودة في "الجزائر" في تلك الفترة، وعلى رأسها المياه والثروة الحيوانية والنباتية، بالإضافة إلى الثروة المعدنية، وعلى هذا الأساس قسم هذا المطلب إلى ثلاثة فروع: الأول خص الثروة المائية، والثاني خص الثروة الحيوانية والنباتية، فيما تحدث الفرع الثالث عن الثروة المعدنية.

الفرع الأول: الثروة المائية

تعدّ المياه من أهم المصادر الطبيعية التي تمتلكها "الجزائر"، وقد وردت الإشارة إلى تنوع مصادر المياه من عيون وآبار وأودية وأنهار، وخنادق وغيرها في أغلب الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية ذكر أبو راس عدّة أنهار منها نهر "هونت"[(1)]، وذكر الورثلاني مصادر المياه المختلفة منها الأنهار والأودية، فذكر أن مدينة "بريكة""**فيها نهر جار مثل النيل**"[(2)]، كما ذكر أن "قسنطينة""**تحتها واد كبير وماءه عذب منه يشربون ويستسقون ويغسلون ويغتسلون، وعليه بنيت المدينة من قديم الزمان**"[(3)]، ومصادر المياه المختلفة هذه توجد في الصحراء كذلك، فنجد ابن هطال قد تحدث عن الأنهار فذكر نهر "الشلف" الذي تصب فيه ثلاثة عيون موجودة بمدينة "الخير" الصحراوية[(4)]، وعن الأودية تحدث الأغواطي، فذكر أن: "**الأغواط يوجد بها وادي أمزي وهو يقسمها إلى شطرين وهو**

---

(1) المعسكري، فتح الإله، ص28.

(2) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 1/ 198.

(3) المصدر نفسه، 1/ 253.

(4) ابن هطال، رحلة الباي، ص41.

يجري وسطها"[1]، أما عن الآبار فذكر أن "**المياه الجوفية في الصحراء تستخرج عن طريق حفر الآبار أو تستخرج بالطواحين كما في ميتليلي...، وكذلك في غرداية والمنيعة الماء يستخرج من الآبار...، أما عن ورقلة فذكر أنها تحوي منابع مائية كثيرة حيث يحفر البئر على عمق مائة وسبعين ذراعا حيث يصل إلى البحر الحلو فيمتلئ البئر في الحال ويصبح جدولا جاريا..**"[2]، كما ذكر وجود آبار كثيرة في الطريق بين "المنيعة" و"توات"، منها "بئر "النهل" وبئر "اللفعاية" وبئر "الزرق"و"التارقي"، وبـ"دمام""، أما عن الخنادق فذكر الأغواطي أيضا الخندق المحيط بأسوار مدينة "تقرت"[3].

كما ورد ذكر أغلب مصادر المياه في الرحلات المغربية وذلك يعود لطبيعة الطريق الصحراوي الذي تسلكه قصد الحجّ، فمن الطبيعي أن يزيد اهتمامها بذكر مصادر المياه، إذ يحتاج الركب للشرب والغسل وسقي الرواحل وغيرها من الأمور، ومن مصادر المياه التي ورد ذكرها في الرحلات المغربية: الآبار والأودية والأنهار والخنادق، بالإضافة إلى العيون والسواقي...، حيث ذكر العياشي أن من غرائب بلدة "ورقلة" استخراج عيون الماء الغزير بحفر الآبار، فهم يحفرون بئرا نحوا من خمسين قامة ثم يصلون إلى حجر مصفح على وجه الأرض فينقرونه فإذا نقبوه فاض منه الماء فيضانا قويا ويطلع بسرعة إلى فم البئر ويصير عينا[4]، وتستعمل مياه الآبار في سقي الأراضي الزراعية والبساتين، وذكر أيضا الفقاقير التي تستعمل لسقي المزارع، والفقاقير كما شرحها: "**هي آبار متعددة بفقر من جنب كل واحد إلى الآخر فيزيد ماؤه وينمو مع زيادة ماء غيره عليه، ولا يزال كذلك حتى يخرج على وجه الأرض فتسقى به الأجنة والمزارع..**"[5]، ونجد ذكر الخنادق عند الزياني الذي ذكر منها الخندق الذي يحيط بمدينة "ورقلة" الذي يستعمل في شتى الاحتياجات من الشرب والغسل والسقي[6]، وأشار الوزان أيضا إلى النهر الذي يمر قرب مدينة "الجزائر" من الجهة الشرقية والذي نصبت عليه الطاحونات، ويلبي حاجة السكان

---

(1) الأغواطي، الرحلة، ص87.

(2) المصدر نفسه، ص90، 100.

(3) المصدر نفسه، ص92، 93.

(4) العياشي، الرحلة العياشية، 118/1.

(5) المصدر نفسه، 82/1.

(6) الزياني، الترجمانة، ص149.

من الشرب والأغراض أخرى، كما ذكر أيضا النهر الذي يمر قرب "نقاوس" ينبت على ضفافه شجر التين والجوز [1].

والحديث عن مختلف مصادر المياه في الرحلات المغاربية كثيرة سبق ذكر مختلفها في عنصر المشاهد الجغرافية فيما يخص المسطحات المائية لذلك ركزت على الثروة المائية المستغلة اقتصاديا.

الفرع الثاني: الثروة الحيوانية والنباتية

اهتم سكان الجزائر بتربية مختلف أنواع الحيوانات الأليفة منها: الخيول والبغال والغنم والماعز والبقر وغيرها، وقد ورد الحديث عن مختلف هذه الحيوانات في أغلب الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية ذكر الورثلاني وجود الماعز بـ"بجاية" إثر ذكره لزيت الزيتون كما سبق ذلك[2]، ونجد ذكر الحيوانات الموجودة في الصحراء عند الأغواطي كثيرا، فكان سكان المناطق الصحراوية يعتمدون عليها في مختلف نشاطاتهم، سواء في الحرب أو في الفلاحة أو في التجارة أوفي التغذي على لحومها -ومنها التي يصطادونها- ومن ألبانها فمثلا "**أهل جبل عمور يربون الإبل وبعضهم يربي المعز والغنم..، وسكان ميتليلي وأهل المنيعةيركبون الجمال..، كما أن سكان تيميمون يربون الأغنام وهي مثل غنم السودان مغطاة بشعر أسود يشبه شعر الماعز ولها أذناب طويلة، كما توجد فيها الخيول بكثرة..**"[3].

كما ورد الحديث عن مختلف الحيوانات الأليفة في الرحلات المغربية، وعلى رأسها الأغنام والماعز، والخيل والبغال، والإبل، والدجاج..، فالزياني تحدث عن وجود "الخيل" و"البغال" و"الإبل" و"الغنم" و"البقر" عند كاتب الباي بـ"قسنطينة"[4]، كما نجد أن المكناسي أشار إلى كثرة البغال في ذات المدينة[5]، وأضاف الدرعي ذكر "الدجاج" في الصحراء عند

---

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 37/2، 53.

(2) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 1/ 50.

(3) الأغواطي، الرحلة، ص89- 93.

(4) الزياني، الترجمانة، ص154.

(5) المكناسي، الإحراز، ص329.

أهل قرية "عمورة"[1]، وذكر الوزان أيضا أن سكان جبال "بني بوسعيد" يملكون كمية وافرة من "الماعز" وسكان جبال "الجزائر" يملكون كمية عظيمة من "الماشية" و"الخيل"، وسكان البادية في "عنابة" يملكون عددا كبيرا من "البقر" و"الثيران" و"الغنم"[2]، بالإضافة إلى هذه الفئات من الأنعام أشار العياشي إلى تربية "الإبل"، و"الكلاب" بـ"وادي سوف"[3].

أما عن مختلف الحيوانات البرية فقد ورد ذكر بعضها أيضا في بعض الرحلات، منها المتوحش الضار كـ"الأسود" و"القرود"، و"العقارب"..، ومنها حيوانات برية للصيد كـ"الأرانب" و"الغزلان"، و"النعام" ومختلف الطيور.

وقد وردت الإشارة إلى بعض هذه الحيوانات االبرية الموجودة في "الجزائر" سواء المتوحشة منها أو الطيور المختلفة، في بعض الرحلات الجزائرية كرحلة المعسكري التي ذكرت كثرة الأسود الموجودة بموضع غابة كبيرة غربي نهر "هونت"[4]، ومن ذلك ما أورده الأغواطي في حال المناطق الصحراوية الخالية والواقعة بين "عميش" و"غدامس" (الليبية) لا يستطيع أي حيوان العيش فيها غير "النعام" و"البقر الوحشي"، وذلك لشدة الحرارة والعطش"[5]، كما ورد ذكر بعض الطيور في رحلة الباي محمد الكبير الذي كان مولعا باصطيادها وتربيتها، أو التي تهدى له، خاصة "العوارم" وهي صنف من الصقور التي كان يفضلها[6].

كما أشارت بعض الرحلات المغربية إلى وجود هذه الحيوانات، فقد أشار الوزان إلى وجود الكثير من الحيوانات في صحراء "أنكاد" التابعة لمملكة "تلمسان" التي كان يعيش فيها عدد كبير من "الغزلان" و"الوعول" و"النعام"، وكذلك "السباع" التي تفترس المواشي وحتى الإنسان، كما أن جبال "بجاية" المكسوة بغابات كثيفة تنتشر فيها "القرود" و"الفهود"

---

(1) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص134.

(2) الوزان، وصف إفريقيا، 45/2، 46، 62.

(3) العياشي، الرحلة العياشية، 123/1.

(4) المعسكري، فتح الإله، ص28.

(5) الأغواطي، الرحلة، ص97.

(6) ابن هطال، رحلة الباي، ص67.

بكثرة[1]، وبالإضافة إلى هذه الحيوانات البرية التي ذكرت في الرحلات المغربية، توجد في "الجزائر" أيضا ثروة "سمكية" هائلة باعتبار أن "الجزائر" تمتلك شريطا ساحليا واسعا، وقد وردت الإشارة إلى هذه الثروة "السمكية" في الرحلات المغربية، وسيأتي الحديث عن ذلك في عنصر نشاط الصيد.

أما عن الثروة النباتية فقد سبق الحديث عنهالذا لاداعي للتفصيل في ذلك تجنبا للتكرار، فقد ورد ذلك من قبل عند ذكر الغطاء النباتي، إذ لاحظنا تنوع الغطاء النباتي في "الجزائر"، من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، خاصة الثروة الغابية الكبيرة التي تتمتع بها مختلف المناطق الشمالية، أوالأشجار المتنوعة المتواجدة في مختلف المناطق الداخلية، أوحتى أنواع النباتات المتواجدة في الصحراء، والتي تتغذى عليها الإبل والمواشي، وتستغل هذه الثروة النباتية غالبا في المجال الاقتصادي خاصة في الرعي والصناعة ، وحتى في الطب الشعبي للتداوي.

الفرع الثالث: الثروة المعدنية

إضافة إلى الحديث عن الثروات الطبيعية المختلفة التي تزخر بها "الجزائر" من المياه والنبات والحيوان، توجد أيضا ثروات معدنية لم تغفل الرحلات المغاربية الحديث عنها، ولو بصفة ضئيلة مقارنة بسابقاتها من الثروات.

فقد وردت بعض الإشارات إلى وجود بعض الثروات المعدنية في الرحلات الجزائرية كـ"الذهب" و"الفضة"، والتي جاءت أغلبها في سياق الحديث عن زينة النساء من المجوهرات ذهبا وفضة ونحاسا، وكذلك في الحديث عن العملات المسكوكة من الذهب والفضة، ومن ذلك ما جاء في رحلة ابن حمادوش فيما يخص حديثه عن الصداق في عدّة مواضع منها صداق أحد الأندلسيين لامرأة، واشتمل "**مائة مثقال واحدة من الفضة الخالصة..**"[2]، كما ذكر صداقه هو على زوجته فاطمة الذي كان فيه: "**أوقيتين اثنتان جوهرا..**"[3]، ومن المؤكد أن الجوهر يكون من الأحجار النفيسة، كما وردت الإشارة إلى ذلك في رحلة محمد الكبير لابن هطال الذي ذكر أساور الفضة التي تتزين بهن النسوة في

[1] الوزان، وصف إفريقيا، 11/2، 51.

[2] ابن حمادوش، لسان المقال، ص246.

[3] المصدر نفسه، ص241.

"عين ماضي"[1]، كما توجد عدّة إشارات أخرى إلى مختلف العملات المعدنية المسكوكة في "الجزائر" من:الذهبية والفضية والنحاسية وغيرها وسيأتي الحديث عنها لاحقا. كما توجد إشارة عابرة في رحلة الأغواطي إلى وجود معدن الحديد وذلك في سياق حديثه عن تجارة "القورارة" مع "السودان"، فقال: "**تصدر توات والقورارة الحرير والحديد والزجاج..**"[2]، وبما أن هذه المناطق تصدّر الحديد، فهذا دليل على أن هذا المعدن متوفر في أرضها، كماأشار كذلك أيضا إلى وجود الشب الأحمر في منطقة "تيميمون"[3]، كما وردت الإشارة في بعض الرحلات الجزائرية إلى وجود مادّة "الملح" بكثرة في بعض مناطق الصحراء، منها ما ذكره ابن هطال وجود جبل كله ملح في منطقة قريبة من "جبال عمور"، وتسمى بـ"خنيق الملح"[4] وغيرها.

كما وردت بعض الإشارات إلى وجود بعض الثروات المعدنية في الرحلات المغربية رغم قلتها، خاصة فيما يتعلق بالعملات، فحسب هذه الرحلات كانت توجد بـ"الجزائر" عملات ذهبية وأخرى فضية، وكذلك عملات نحاسية، وبالإضافة إلى الذهب والفضة والنحاس، نجد إشارة إلى وجود معدن "الزنك"، الذي جاء ذكره في رحلة الوزان حين تحدث عن وجوده في أحد الجبال الجزائرية وهو جبل "ونشريس" الذي قال عنه: "**هذا الجبل شاهق... وفي قمته الشديدة الوعورة كمية كبيرة من معدن التوتيا***.."[5]، كما جاء الحديث عن وجود الملح بكثرة في الرحلات المغربية الحجازية بالخصوص، ومنها ما أشار إليه الدرعي من وجود جبل من الملح ومنه يقطع صخر جليل[6].

فمن خلال ما جاء في الرحلات المغاربية من نصوص ولو بأشكال مختصرة أو إشارات عابرة تخص الحديث عن مختلف الثروات، فذلك يدل على أن "الجزائر" كانت تزخر -ومازالت- بثروات طبيعية هائلة يمكن استغلالها في جميع الأنشطة الاقتصادية.

---

[1] ينظر: ابن هطال، رحلة الباي، ص69.

[2] ينظر: الأغواطي، الرحلة، ص88، 95- 98.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص93.

[4] ينظر: ابن هطال، المصدر السابق، ص39.

*معدن التوتيا: وهو الزنك كما ذكر محقق الرحلة.

[5] الوزان، وصف إفريقيا، 45/2.

[6] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص145.

المطلب الثاني: الأنشطة الاقتصادية للمجتمع الجزائري

نظرا لامتلاك "الجزائر" عدّة ثروات كما سبق الذكر، فمن الطبيعي أن تسهم هذه الثروات في إحياء نشاطات اقتصادية، سواء فلاحية أو صناعية أو تجارية، وهو ما سنعرفه من نصوص الرحلات المغاربية في هذا المطلب الذي قسم إلى ثلاثة فروع: الأول تحدث عن الأنشطة الفلاحية والثاني تحدث عن الأنشطة الصناعية، والثالث تحدث عن الأنشطة التجارية.

الفرع الأول: الأنشطة الفلاحية

تشمل الأنشطة الفلاحية عموما كل من: الزراعة، وتربية المواشي، بالإضافة إلى نشاط الصيد بريا كان أو بحريا، وقد ورد الحديث عن مختلف هذه الأنشطة الفلاحية في بعض الرحلات المغاربية.

فالزراعة كانت أهم قطاع يرتكز عليه اقتصاد "الجزائر"، خاصة في بداية التواجد العثماني، وذلك من خلال المحاصيل الزراعية التي كانت تجمع من القمح والشعير، ومختلف الثمار، ونظرا لشساعة الأراضي الزراعية وخصوبة تربتها في السهول و الجبال وحتى في الصحراء[1].

فأراضي المناطق الشمالية سواء السهلية منها أو الجبلية، كانت جلّها صالحة للزراعة، وما يترجم ذلك من خلال نصوص الرحلات الجزائرية حديثهم عن كثرة البساتين والمزارع وما تنتجه من مختلف الثمار والفواكه، والزروع، فذكرت كثرة البساتين، وقد تحدّث ابن عمار عن جمال "الجزائر" وهو يجول بين بساتينها فيصفها قائلا: **"وتنزهنا مرة ببعض بساتين محروسة بلدنا الجزائر التي هي ريحانة القاطن وسلوانة الزائر.."**[2]، وكذا أبو راس الذي يذكر غرس البساتين في سياق حديثه عن شيخه الذي زاره فوجده يغرس بستانا مع طلبته[3]، كما وردت الإشارة في رحلته أيضا إلى المنتوجات الزراعية المختلفة في "الجزائر" من قمح وشعير وزيت[4]، كما يذكر الورثلاني الكثير من القرى والمدن التي

---

[1] ينظر، مشوشة، النشاط التجاري بين الجزائر وتونس، ص21.

[2] ابن عمار، نحلة اللبيب، ص104.

[3] ينظر: المعسكري، فتح الإله، ص20.

[4] المصدر نفسه، ص24.

تشتمل على البساتين منها قريتي "الجمعة" و"ورجة"، القريبتين من "بجاية"، ويذكر أيضا كثرة الزروع في المناطق التي مر بها كـ"زمورة" التي تحوي مزارع كثيرة وهي كثيرة القمح، و"قسنطينة" التي ذكر أنك لا تجد أرضا طيبة ولا ربوة عظيمة للمال والحرث كمدينة مثلها فهي كثيرة المزارع وكثيرة القمح والتين[1]، كما ورد ذكر مختلف الثمار والفواكه التي تنتجها مختلف أنواع الأشجار الموجودة في مختلف المناطق الشمالية من "الجزائر"، فكثيرا ما يرد اسم مدينة "بونة" بمدينة "العناب" لكثرته بها ولذلك سميت عنابة، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في رحلة ابن حمادوش في سياق حديثه عن كتاب البوني في الألغاز فذكر مجيء تاجر "**من بلد العناب..**"[2]، وذكر الورثلاني أن "بجاية" بلد "الزيتون" في حديثه عن كرامات "الشيخ الولي الصالح سيدي يحي العيدلي البجائي" عندما بعث إليه "الشيخ سيدي التواتي" بعض طلبته ليرسل له زيت الزيتون[3]، وتوجد في "بجاية" أيضا بالإضافة إلى الزيتون مختلف الأشجار المثمرة، ومختلف الفواكه الطيبة، حيث يقول الورثلاني في هذا الصدد: "**وبلدنا كثيرة الشجر من زيتون وعنب وتين، كثيرة الفواكه إلا النخل والليم فليس فيها**"[4]، وما "بجاية" إلا نموذجا لمختلف المناطق الشمالية لـ"الجزائر" في كثرة الأشجار والفواكه وتنوعها.

أمّا عن أحوال الزراعة وما يتعلق بها من منتوجات وغيرها في الصحراء الجزائرية؛ فقد تحدّث ابن هطال كثيرا عن بساتين ومزارع ومنتوجات مختلف القبائل والمدن والقرى الصحراوية التي غزوها ونهبوا خيراتها، ومنها مدينة "الخضراء" و"تاويلة" وهما كما ذكر: "**مدينتان كل واحدة لها بساتين كثيرة..، ومزارع..، أما الخضراء فلم يجدوا فيها إلا ما قل من الزرع والتين، وأما تاويلة فقد وجد الناس فيها من القمح والشعير وغيرهما من الحبوب ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى..، وأصاب فيها بعض الناس بيتا مملوءا من الرمان..**"[5]، كما ذكر تخزين القمح والشعير في المطامير، وذلك ما كان يفعله أغلب

[1] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 1/62، 63، 173، 176، 354.

[2] ابن حمادوش، لسان المقال، ص130.

[3] الورثلاني، المصدر السابق، 1/ 50.

[4] المصدر نفسه، 1/ 191.

[5] ابن هطال، رحلة الباي، ص40، 41.

السكان، منهم سكان مدينة "زنينة" الصحراوية، الذين خرجوا منها عند سماعهم بقدوم الباي إليهم "**وقد وجد فيها من القمح والشعير مالا يحصى عدده إلا الله، فحملت منه الناس شيئا كثيرا،.. فتراهم يفتحون المطامير فإن وجدوه شعيرا حملوا منه..**"[1] ، أما الورثلاني فذكر أن مدينة "بسكرة": "**كثيرة النخل والمزارع**"[2]، وكذلك تحدث الأغواطي عن الأراضي الصالحة للزراعة وزمن حرث الأراضي ومختلف المنتوجات الفلاحية الصحراوية فذكر أنّ: "**أرض جبل عمور كانت صالحة للزراعة**"[3]، ما يعني أن أهل المنطقة يهتمون بالزراعة، وذكر أيضا أن "**زمن الحراثة في ناحية تقرت هو شهر أكتوبر وشهر مايو**"[4]، وهذا يعني أن الزراعة فيها تكون مرتين في السنة، مرة في فصل الخريف، وأخرى في فصل الربيع، أما عن المنتوجات فذكر أن "**أهل الأغواط ينتجون الفواكه بكثرة ومن بينها التمر والتين والعنب والسفرجل والرمان والإجاص...، أما المنيعة فتنتج التمر والحلفاء...، كما تعتبر تقرت بلدة الثروة والرخاء فهي تنتج التمر والتين والعنب والرمان والتفاح والمشماش والإجاص وغيرها من الفواكه**"[5]، كما "**توجد بلدة جنوب تيميمون تعرف بتوات الحناء، وهذه البلاد تنتج الحناء والتمر بكميات وفيرة**"[6].

ونفس الحال في الرحلات المغربية في إيرادها بعض الإشارات التي تخص الزراعة وما يتعلق بها، من الأنشطة المتعلقة بها كالحرث والغرس، بالإضافة إلى منتوجات هذه الأنشطة من زروع وثمار، وبقول وغيرها.

فعن الأراضي الصالحة للزراعة تحدث الوزان عن غنى "الجزائر" بالأراضي الزراعية والتي منها: السهول والتي ذكر الكثير منها، كالسهول الخصبة القريبة من السواحل على رأسها سهل "المتيجة" الذي ينبت فيه القمح الجيد بكثرة، وكذلك ذكر السهول الداخلية مثل الموجودة حول "تقاوس" فكلها تصلح لزراعة القمح، وكذلك الأراضي الزراعية التي تحيط بـ"قسنطينة " وكلها جيدة خصبة وإنتاجها وافر، وبالإضافة إلى السهول ذكر أيضا

---

(1) ابن هطال، رحلة الباي، ص49، 50.

(2) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 1/ 246.

(3) الأغواطي، الرحلة، ص89.

(4) المصدر نفسه، ص101.

(5) المصدر نفسه، ص87، 91، 99.

(6) المصدر نفسه، ص94.

الأراضي الجبلية التي تصلح للزراعة كأراضي "جيجل" الجبلية التي تصلح للشعير والكتان والقنب[1].

وأما عن الأنشطة الزراعية كالحرث والغرس، فلم يقتصر هذا النشاط على المناطق الشمالية الساحلية منها أو الداخلية فقط، وإنما يتعداها إلى الأراضي الصحراوية، وفي هذا السياق ذكر الدرعي حرث الأراضي في الصحراء، فالأغواط: "**ذات الأراضي الواسعة بها محاريث كثيرة..**"[2]، كما تحدث العياشي عن عملية الغرس، سواء غرس الأشجار أوحتى البقول وغيرها في الصحراء، فذكر اهتمام أهل "وادي سوف" بغرس النخيل وطريقتهم في ذلك أنهم: "**إذا أرادوا غرس النخل بحثوا في الأرض قليلا حتى يصلوا إلى الماء فيغرسونها بحيث تكون أصولها في الماء ثم يردون عليها الرمل فلا تحتاج إلى السقي أبدا، ويعالجونها بعد ذلك بأبعار الإبل وغيرها، وكذلك يفعلون بأنواع الخضر والبقول وسائر ما يغرسونه**"[3].

أما عن المنتوجات الزراعية فمختلفة ومتنوعة، فبالإضافة إلى مختلف الحبوب من القمح والشعير والبقول التي سبقت الإشارة إليها فيما يخص الأراضي والأنشطة الزراعية، تكثر الثمار إذ توجد بأراضي "الجزائر" الكثير من البساتين، فمما ذكر الوزان أنّ مختلف المدن الجزائرية توجد بها بساتين وحدائق مملوءة بأنواع الأشجار المثمرة، فمدينة "الجزائر" مثلا يحيط بها عدد كبير من البساتين المملوءة بأشجار الفواكه، كما تنتج مدينة "هنين" كميات وافرة من الثمار كـ"الكرز" و"المشمش" و"التفاح" و"الإجاص" و"الخوخ" و"التين" و"الزيتون"، أما مدينة "بجاية" فسكانها مغمورون بالثمار إذ تحاط بعدد لا يحصى من الحدائق العامرة بالأشجار المثمرة، كما تشتهر مدينة "بونة" باسم بلد العناب، وذلك لكثرة أشجار العناب بها[4]، كما ذكر التمقروتي أنّ مدينة "مستغانم" ذات بساتين وأراضي زراعية خصبة إذ يكثر في أرضها "القطن"، ومدينة "هنين" تكثر فيها أشجار "التين"[5]، كما ذكر الدرعي

---

[1] الوزان، وصف إفريقيا، 10/2، 37، 52، 53، 58.

[2] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص133.

[3] العياشي، الرحلة العياشية، 123/1.

[4] الوزان، المصدر السابق، 16/2، 37، 50، 61.

[5] التمقروتي، النفحة المسكية، ص41.

تنوع المنتوجات الزراعية بالصحراء، فمنها "الباذنجان" و"القرع" الذي وجده في "أم القرار" الغربية، وعن الفواكه والثمار المختلفة ذكر أن قرية "تجموعت" ذات جنات وبساتين وفواكه، كما ذكر مختلف الثمار والتي على رأسها "التمر" بالإضافة "العنب"، و"الخوخ"، و"التين"، و"الرمان"، و"البطيخ"..، وذكر أن عنب "أبي سمغون" لم ير مثله حلاوة وطولا[1]، والأغواط بها فواكه متنوعة كـ"التين" و"الخوخ"، وبـ"وادي الجدي" يوجد "البطيخ"، وفي "الشلالات" و"فجيج" وجد "الرمان"، وأما "بشار" فوجد بها "تمر أبي فقوس"[2]، والإشارات إلى هذه المنتوجات كثير جدا في هذه الرحلات لا يمكن ذكرها جميعا.

أما بالنسبة إلى تربية المواشي فقد سبق الحديث إلى أنّ أغلب سكان "الجزائر" يمارسون الرعي خاصة في المناطق الريفية والصحراوية.

ويبقى نشاط الصيدالذي كان من أهم الأنشطة السائدة في "الجزائر" سواء في الجزء الشمالي أوالجنوبي، وقد ورد الحديث عنه في بعض الرحلات المغاربية.

ففي الجزء الشمالي كان صيد الأسماك، ولم تكد الرحلات الجزائرية تتحدث عنه إلا في إشارة عابرة إلى هذا النشاط في رحلة ابن إدريس التنلاني حين تحدث عن هدم الإنجليز لضريح "عبد الرحمن الثعالبي"، فأشار لوجود هذا الأخير "**عند سوق الحوت**"[3] بالعاصمة، وهذا دليل على حيوية نشاط الصيد البحري بها، وأما الصيد البري فورد الحديث عنه في بعض هذه الرحلات، خاصة في المناطق الصحراوية، فأهل الصحراء يهتمون بالصيد وبالخصوص صيد النعام، فقد ذكر الأغواطي طريقة صيد النعام بالصحراء الجزائرية بالتفصيل في نص قوله: **"وذلك أن الصياد يركب فرسه ويأخذ معه الطعام الضروري كما يأخذ بعض الماء وهو يسير ببطء إلى منتصف النهار، وفي هذا الوقت يجتمع النعام في قطعان تبلغ المائة أو تزيد وبمجرد ما يلمح النعام الإنسان يطير هربا منه، ويطارده الصياد أربع ساعات أو أقل، وفي هذا الوقت يكون ركض النعام قد خفّ من شدة العطش والخوف، أما الصياد فيشرب الماء إذا عطش، وأخيرا ينجح الصياد في القبض على النعامة التي يكون العياء قد أدركها والتي جفت أحشاؤها**

---

[1] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص28، 127، 132.

[2] المصدر نفسه، ص133، 711، 724، 729، 731.

[3] ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص253.

من الحرارة، ويضربها الصياد ضربة على رأسها فتسقط على الأرض، ثم ينزل الصياد من على فرسه ويقطع أوداج النعامة، ويرافق الصياد رجل مهمته حمل مؤونته من الطعام والماء..، ثم يتعاون الصياد مع رفيقه على وضع النعامة على ظهر جمل ويعودان بها إلى بلادهما.."[1]، كما ذكر ابن هطال صيد الطيور في حديثه عن رحلة سيده الباي محمد الكبير الذي كانت هوايته الصيد فقال: "**.. وركب هو يتصيد كما كانت عادته،.. وخصوصا الحبارى التي هي أعظم مصيدة.."**[2].

كما وردت هناك نصوص عن الصيد البحري والبري في الرحلات المغربية، وذلك في رحلة كل من الوزان والعياشي، إذ تحدث الوزان عن الصيد البحري فذكر أن سكان مدينة "دلس": "**تعودوا جميعا اصطياد السمك، فيحصلون على كمية وافرة منه لا تباع ولا تشترى وإنما يهدونه لمن يرغب فيه.."**[3]، أما العياشي فأشار إلى الصيد البري عند أهل الصحراء منهم سكان "وادي سوف" الذين يقتنون الكلاب من أجل الصيد: "**فإن بلادهم ذات صيد كثير وجل معيشتهم منه ومن التمر.."**[4].

وبالإضافة إلى صيد الحيوانات لغداء الإنسان، ذكر الوزان صيد النمور في ناحية "قسنطينة"، كما ذكر صيد الأسود في منطقة بين "تونس" و"عنابة"[5].

ومن خلال نصوص الرحلات المغاربية الكثيرة تبين تنوع الأنشطة الفلاحية في الجزائر من الزراعة إلى تربية المواشي والصيد، وما زاد في تنمية هذه الأنشطة غنى الجزائر بمختلف الموارد الطبيعية المختلفة.

---

(1) الأغواطي، الرحلة، ص97.

(2) ابن هطال، رحلة الباي، ص66.

(3) الوزان، وصف إفريقيا، 42/2.

(4) العياشي، الرحلة العياشية، 123/1.

(5) الوزان، المصدر السابق، 266/2.

الفرع الثاني: الأنشطة الصناعية

لم يكن الاهتمام بالصناعة كثيرا مثل الزراعة، فهي كانت تشمل بعض المصنوعات التقليدية اليدوية، كالنسيج والجلود والنجارة والفخار والحدادة خاصة في بدايات العهد العثماني، بالإضافة إلى وجود بعض الورشات لصناعة الأسلحة والسفن المنتشرة في أغلب المدن الكبرى كـ:"الجزائر" و"قسنطينة" و"تلمسان"، وقد عرف قطاع الصناعة بعض التطور بعد هجرة الأندلسيين واندماجهم السريع في المجتمع الجزائري[1].

أدّى قلة اهتمام المجتمع الجزائري بالصناعة إلى شحّ نصوص الرحلات في ذكر ذلك إلا النادر، ومن بين الصناعات المتوفرة في "الجزائر" آنذاك من خلال بعض الرحلات الجزائرية نجد: بعض الصناعات "**الحرفية**"، والتي كان الأهالي الجزائريون يمارسونها والتي كانت تنحصر في الحرفاليدوية والصناعات التقليدية كـ"**الدباغة**" و"**الحرارة**"(أي نسج الحرير)، وقد وردت الإشارة إلى هاتين المهنتين في رحلة ابن حمادوش، إذ رجح سعد الله محقق رحلته أن عائلته كانت تمارس "**الدباغة**"[2] وأخته تزوجت لعائلة تمارس "**الحرارة**"، وذلك يستشف من حديثه عن عقد زواج أخته الذي حرره هو بنفسه فكتب: "**الحمد لله ، تزوج على بركة الله، وعونه..، المكرم الأجل الزكي الأفضل علي الحرار بن الحاج علي، أمين الحرارين كان، مخطوبته وكريمته البنت آسيا البكر في حجر والدها المكرم الأجل السيد الحاج محمد الدباغ..**"[3]، كما توجد أيضا إشارة إلى الصناعات "**النسيجية الصوفية**" في رحلة المعسكري كنسيج"**البرنوص**" و"**الشاشية**"، والتي وردت في نص قوله: "**وإني ليلة جمعة نائم وكأني في سوق، فليقيني رجل أزرق في عباءة وبرنوص وأحسب أن على رأسه شاشية دوم..**"[4]، ومن كلامه يظهر أن لبس البرنوص والشاشية عادة أهل البلد، وهي غالبا ما تكون صناعة محلية، وهذا ما تبينه نصوص الرحلات المغربية كما سيأتي.

---

[1] ينظر: مشوشة، النشاط التجاري بين الجزائر وتونس، ص22، 23.

[2] ابن حمادوش، لسان المقال، ص3.

[3] المصدر نفسه، ص243.

[4] المعسكري، فتح الإله، ص21.

كما توجد أيضا الصناعة "**الحربية**"، إذ كان صنع الأسلحة عند مختلف سكان "الجزائر" يتم بطريقة تقليدية، فقد ذكر ابن حمادوش طريقة صنع "**البونبة**" (القنبلة) حين أخبر أنه قد تعلم ذلك عن شيخه "عبد الرحمن الفاسي"، وذلك في نص حديثه: "**إلى يوم الإثنين آخر يوم منه خرجنا لباب الجزير(باب الجزيرة أحد أبواب الجزائر)، رمى العلج حسن بونبة واحدة ضحى ارتفاعها ثلاثة وأربعون وعمّر المهراز بأربعة أرطال بارود فانشق المهراز ولم يعد ولم يصب الغرض، وتعلمت عيانا ما كنت قيدت عن سيدي عبد الرحمن الفاسي**"[1]، كما ذكر الأغواطي طريقة صنع البارود في المدن الصحراوية فقال: "**جميع سكان هذه الصحاري يعرفون في صناعة البارود وطريقتهم في ذلك: يجمع التراب من الأرض أو من الملاط في القرى المهدمة وهذا التراب الذي كان في الأصل من مادة مالحة يوضع في ماعون ويصب عليه الماء بنفس الطريقة التي يعالج بها الرماد عند صناعة الصابون ثم يغلى الماء إلى أن يصبح خائرا ثم يؤخذ رطل منه ويخلط مع أربعة أرطال من الكبريت أو أربعة أرطال من الفحم المستخرج من شجرة الدفلى، وهذه العناصر المختلفة تخلط جميعا في غضون أربع ساعات فتصير بارودا..**"[2]، فمن خلال النصين تظهر لنا وجود نوعين من الأسلحة التي تصنع محليا: البونبة والبارود.

كما أشارت الرحلات المغربية أيضاإلى وجود بعض المصنوعات التقليدية اليدوية، وكذلك الصناعة الحربية، ومن الصناعات المتعلقة بالحرف اليدوية المتوفرة في بعض مناطق "الجزائر" حسب ما جاء في بعض الرحلات نجد:"**النسيج**" و"**الخزف**"، فقد ذكر الوزان أنّ مدينة "العباد"، و"مسيلة"، ومدينة "القل" و"قسنطينة"، ومدينة "ميلة"[3]، كل هذه المدن مليئة بالصناع، ولاشك أن هذه الصناعات يدوية، كما ذكر أيضا أن مدينة "الجزائر" بها "**أسواق منسقة كما يجب، لكل حرفة مكانها..**"[4]، ومن المؤكد أن هذه الصناعات كلها تتمثل في الحرف اليدوية المختلفة، فقد بيّن الوزان أن سكان "قسنطينة" يتاجرون بالأقمشة

---

(1) ابن حمادوش، لسان المقال، ص225.

(2) الأغواطي، الرحلة، ص91، 92.

(3) الوزان، وصف إفريقيا، 11/2، 25، 56، 60.

(4) المصدر نفسه، 37/2.

الصوفية المصنوعة محليا، وسكان "ميلة" يعملون في "نسج الصوف"، فيصنعون "أغطية الأسرة"، وسكان "شرشال" يشتغلون بصناعة "الحرير"[1]، كما ذكر العياشي "نسيج الثياب" في "بسكرة" في سياق حديثه عن زيارته للرجل الصالح "سيدي محمد" الذي وجده في داره ينسج الثياب بيده[2].

وإن كانت الإشارات إلى بعض الصناعات الحرفية قليلة في هذه الرحلات، فإن الحديث عن الصناعة الحربية لا تكاد توجد الإشارة إليها إلا نادرا في رحلتي الزياني والوزان، ففي رحلة الزياني توجد إشارة غير مقصودة عن صناعة السفن، وذلك في سياق حديثه عن مرسى "الجزائر" حين ذهب لمشاهدتها بعينه مباشرة، بعد أن سمع عنها وعن قوة الأسطول الجزائري الذي ذاع صيته في ذلك الحين[3]، وكذلك ما ورد في رحلة الوزان عن سكان مدينة "شرشال" الذين كانوا يشتغلون بصناعة "**السفن**"[4].

ورغم قلة الحديث عن الصناعة في الجزائر في مختلف الرحلات المغاربية، إلا أن الإشارات الطفيفة الموجودة عن بعضها تدل على وجود صناعات محلية كثيرة خاصة في مجال الحرف والصناعات اليدوية كالنسيج والدباغة والحرارة، بالإضافة إلى صناعة بعض الأمور الحربية كالبارود والسفن.

الفرع الثالث: الأنشطة التجارية

كانت التجارة في ذلك العهد متأثرة مباشرة بأوضاع القطاعين الفلاحي والصناعي، فكانت تقوم على أساس الأسواق المحلية أو الجهوية، كما كانت هناك إجراءات تجارية تنظم الأسواق كفرض بعض الرسوم على السلع والمحلات التجارية وتسمى المكوس[5]، وقد تحدثت بعض الرحلات المغربية عن بعض الأنشطة التجارية التي يمارسها سكان "الجزائر"، وبعض التنظيمات التي كانت تفرضها الحكومة العثمانية على التجار، بالإضافة إلى الحديث عن بعض الموارد التجارية المتوفرة آنذاك.

---

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 34/2، 56، 60.

(2) العياشي، الرحلة العياشية، 541/2.

(3) الزياني، الترجمانة، ص151.

(4) ينظر: الوزان، المصر السابق، 34/2.

(5) ينظر: مشوشة، النشاط التجاري بين الجزائر وتونس، ص23.

ومن الأمور المتعلقة بالتجارة التي وردت الإشارة إليها في مختلف الرحلات المغاربية نجد:الموارد التجارية(الصادرات والواردات)، والعملات، والأنظمة الضريبية.

أولا: الموادر التجارية

كانت المبادلات التجارية في "الجزائر" تتم مع دول المغرب والمشرق وأوروبا ودول إفريقيا جنوب الصحراء، بالإضافة إلى المبادلات الداخلية المتمثلة في الأسواق، فكانت أغلب صادراتها زراعية وصناعية، أما وارداتها فمختلفة[1]، فكانت الواردات الخارجية تأتي عن طريق الغنائم التي يحصل عليها البحارة عبر المعارك البحرية، والهدايا والحمولات والجزية التي كان يدفعها الأوروبيون، بالإضافة إلى المساعدات العثمانية، فضلا عن الموارد التي تحصل عليها الدولة عبر التجارة من خلال الموانئ الجزائرية عند تصدير المنتجات المحلية إلى خارج البلاد، وكذلك بيع العبيد وفداء الأسرى[2]، بالإضافة إلى النشاط التجاري بين "الجزائر" وجارتيها "تونس" و"المغرب" الذي كان قليلا مقرونا بالقوافل المختلفة، خاصة قوافل الحجاج،وكذا تأثير الخلافات الحدودية والصراعات العسكرية بين هاته الدول على الحركة التجارية[3]، أما التجارة مع دول جنوب الصحراء فكان يميزها تجارة العبيد خاصة مع السودان كما سنرى.

وقد ورد الحديث عن مختلف الأنشطة التجارية السابقة في بعض الرحلات الجزائرية، منها حديث الورثلاني عن غنائم البحارة فقال عن ذلك: "**مادة البحر في الجزائر أوسع من مادة البر**"[4]، وتوجد إشارة طفيفة إلى النشاط التجاري بين المغاربة الثلاث (الجزائر وتونس والمغرب) في الفترة العثمانية في رحلة ابن حمادوش، الذي تحدث عن تجارته بـ"**الشاشية التونسية**" حيث تعرض للمكس في مرسى "الجزائر" وهو في طريقه إلى "المغرب" للتجارة، وأخذ منه المكّاس خمسة وعشرون شاشية تونسية[5].

---

(1) ينظر: مشوشة، النشاط التجاري بين الجزائر وتونس، ص24.

(2) رشيدة شدري معمر، العلماء و السلطة العثمانة "فترة الدايات (1671- 1830م)"، ماجيستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2006م، ص423.

(3) مشوشة، المرجع السابق، ص139.

(4) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 355/1.

(5) ابن حمادوش، لسان المقال، ص32.

كما ورد الحديث عن الحركة التجارية بين مختلف مدن "الجزائر" والدول جنوب الصحراء خاصة "السودان"، إذ تحدث الأغواطي عن أحوال التجارة في المدن الصحراوية في الكثير من المواضعمنها: "**أن التجارة رائجة في الأغواط..، ونشطة في واحة توات خاصة مع أهل السودان، أما البضائع التي تستورد من السودان فهي العبيد وتراب الذهب وفي المقابل تصدر توات والقورارة الحرير والحديد والزجاج..، أما وادي سوف فمعظم تجارتها مع غدامس، ففيها يبيعون العبيد، وبعض السكان جعلوا من هذه التجارة حرفة بحيث يذهبون إلى السودان مع التجار من غدامس وذلك بهدف جلب العبيد "، حيث أن غدامس فيها عدد كبير من العبيد وثمن العبد الواحد فيها حوالي ثلاثين دورو، وكذلك ثمن الأمة**"[1]، أما بالنسبة لـ"**تيميمون**" "**فلها سوق يباع فيه العبيد وتراب الذهب بكميات كبيرة، ويباع تراب الذهب بوزن المثقال بالأوقية**"[2]، كما وجد الحديث عن الأسواق الداخلية في مختلف المدن الجزائرية والقوافل التجارية بينها، فذكر الورثلاني أن "قسنطينة" مثلا "**فيها أسوق كثيرة..، تأتيها القوافل من كل النواحي**"[3]، كما أشار ابن إدريس التنلاني إلى القوافل التجارية التي أصبحت تتعرض للسلب والنهب بعد أن قلّ الأمان بخراب مدينة "الجزائر" بعد الحملة الإنجليزية عليها فذكر: "**ولما وقع بالجزائر ما وقع..، و قلّ الأمان بها في جميع نواحيها، كل قافلة كانت في طريق من طرق الجزائر تتعرض إلى النهب والقتل..**"[4].

وكذلك جاء الحديث عن مختلف الموارد التجارية(الصادرات والواردات) في الرحلات المغربية، التي تبين كذلك أن تلك المبادلات التجارية في "الجزائر" كانت تتم مع أوروبا ودول المغرب والمشرق وإفريقيا جنوب الصحراء، فعن المبادلات مع أوروبا وطبيعة المنتوجات المتبادلة ذكر الوزان أن تجارة سكان مدينة "القل" رابحة لأنهم يجنون من جبالهم الشمع، كما يمتلكون كمية كبيرة من الجلود يبادلون بها البضائع التي يحملها أهل جنوة إلى مينائهم، وكذلك سكان مدينة "سكيكدة" يتاجرون كثيرا مع الجنيويين فيدفعون لهم

---

[1] ينظر: الأغواطي، الرحلة، ص88، 95- 98.

[2] المصدر نفسه، ص93.

[3] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 352/1، 353.

[4] ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، 254/2.

القمح مقابل منتوجات أوروبا كالأقمشة وغيرها[1]، أما المبادلات التجارية مع دول المشرق والمغرب فغالبا ما ذكرت مقرونة بنشاط الحجّاج، إذ كان سكان "الجزائر" غالبا ما يفتحون أسواقا تجارية مع ركب الحجاج المغربي المار ببلادهم، وقد وردت الكثير من الإشارات إلى هذا النوع من المبادلات التجارية في أغلب الرحلات المغربية، فمما ذكر الدرعي أن سكان قرية "عمورة" في صحراء الجزائر يتسوقون مع ركب الحجاج بالدجاج[2]، وذكر العياشي أن أهل "الأغواط" يبيعون للركب الزرع، وأهل قرية "المايه" يبيعون لهم الملح[3]، وذكر ابن الطيب الفاسي قيام سوق بين الركب وأهل الأغواط[4]، أما التجارة مع دول إفريقيا جنوب الصحراء فأشار إليها العياشي في سياق حديثه عن "توات"، فذكر أنها "**مجمع القوافل الآتية من تنبكت ومن بلاد إكيدز من أطراف السودان، ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تجلب من هناك شيء كثير، والسلع التي تجلب من الغرب مما هو خارج السودان نافقة في هذه البلاد، كالخيل وملابس الملف والحرير..**"[5].

وبالإضافة إلى المبادلات الخارجية كانت هناك مبادلات تجارية داخلية، فقد ذكر الوزان في هذا السياق أن التجار في "قسنطينة" يرسلون الزيت والحرير إلى نوميديا*، وسكان "عنابة" أيضا يبيعون قماش الكتان في مدن نوميديا[6].

ثانيا: العملات

أما عن العملات، فقد كانت "الجزائر" على عهد الأتراك تسك النقود بثلاثة أنواع: العملات الذهبية، وهي "السلطاني" و"نصفه" و"ربعه"، و"المحبوب" و"نصفه" و"ربعه"، بالإضافة العملات الفضية، "الدورو الجزائري"، و"ريّال بوجو"، و"ريّال درهم"، و"نصف ريّال درهم"

---

(1) ابن هطال، رحلة الباي، ص54، 55.

(2) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص715.

(3) العياشي، الرحلة العياشية، 2/ 546، 547.

(4) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص91.

(5) العياشي، المصدر السابق، 80/1.

*نوميديا: يقصد بها المناطق الداخلية للجزائر.

(6) الوزان، وصف إفريقيا، 56/2، 61.

و"ثمن بوجو"، و"الموزونة"[1]، وكذلك العملات النحاسية وهي: "الصائمة" و"ريّال بسيطة" و"بعض قطع أخرى أقل منها"[2]، وقد ورد الحديث عن العملات في مختلف الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية ذكر الأغواطي أن العملة المتداولة في "الأغواط" هي عملة "الجزائر" و"فاس"، كما أن العملة المتداولة في "القورارة" هي عملة "فاس"، وقد ذكر عدة عملات منها: "الريّال"، و"الدرهم"[3]، وذكر ابن حمادوش أيضا عدة عملات كـ"الموزونة"، و"السلطانية"(الذهبية)، و"الدينار الجزائري خمسيني العدد" [4]، وغيرها من العملات.

كما ورد الحديث عن بعض العملات في أغلب الرحلات المغربية، فذكر الزياني "المحبوب الذهبي"، و"الريّال"، وذلك في سياق حديثه عن الأموال العريضة التي أخذها باي "قسنطينة" من الكاتب الخوجة الكبير "علي كرغلي" والتي منها: "**مائة ألف محبوب ذهبا، وستين ألف ريّال..**"[5]، كما ذكر العياشي عدة عملات منها "**الريّال**" الذي ذكره عند حديثه عن قيمة الزرع في "الأغواط" وخوف الناس من الوباء حيث قال: "**مقدار مدين فاسيين بريّال قمحا..، وكانوا يدلون الزرع من فوق السور ويأخذون الريّال..**"[6]، كما ذكر أنّ أهل "ورقلة" يتعاملون بدراهم من "نحاس" أربعة وعشرون في ربع ريّال، وذكر صرف الذهب وغلائه في "تافلالت" ورخصه في "توات"[7]، ومما ذكر الدرعي أيضا عملة "المثقال" حين ذكر اكتراء رجل من "واد غير" إلى "أبي سمغون" بمثقال، ومن "أبي سمغون" إلى "الأغواط" اكتروا رجلا آخر بمثقالين[8]، والإشارات إلى العملات كثيرة في هذه الرحلات نكتفي بما ذكر تجنبا للإطالة والتكرار.

---

[1] ينظر: مشوشة، النشاط التجاري بين الجزائر وتونس، ص42. الريّال: عملة إسبانية، والموزونة: عملة نقدية فضية صغيرة الحجم وهي من العملات الحسابية تم سكها خلال القرن 12هـ/18م بالجزائر.

[2] معمر: العلماء والسلطة العثمانية، ص423، 424.

[3] الأغواطي، الرحلة، ص88، 94، 141، 158.

[4] ابن حمادوش، لسان المقال، ص113، 239.

[5] الزياني، الترجمانة، ص154.

[6] العياشي، الرحلة العياشية، 546/2.

[7] ينظر: المصدر نفسه، 80/1، 118.

[8] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص127، 129.

ثالثا: الأنظمة الضريبية وبعض المعاملات التجارية

اعتمدت "الجزائر" في تحصيل مواردها الداخلية على "الزكاة" التي تفرض على الماشية بالنسبة للمسلمين و"الضرائب" بالنسبة لغير المسلمين، كما كانت تفرض الضرائب على "غنائم البحارة"، وتفرض "رسوما" على الأموال "المتروكة بدون وريث" وعلى "الميناء" وأماكن "الترف واللهو"، بالإضافة إلى فرض بعض الرسوم على التجار وهي ما يسمى المكس[1]، وقد ورد الحديث عن الرسوم والضرائب المفروضة على مختلف المنتوجات في الجزائر في بعض الرحلات الجزائرية، منها ما أورده ابن حمادوش عن "المكس" في سياق حديثه عن تهربه منه وذلك في قوله: " **إلى يوم الإثنين فتحت دكاني وكنسته وجلست فيه بعد صلاة ظهر الجامع الكبير وكان لي تلميذ ابن عمتي يصطحب مع خوجة الملح وكان إذاك علج الباشا إبراهيم، فطلبت منه أن يطلب من صاحبه إجازة سلعتي فنزل إليه وجلس عنده حتى وجهتها له هنا فأدخلها مخزنه وبعثها مع أحد خدامه فلم يمسكها صاحب الباب فسلمت من المكس، ودفعت كراء المركب ثلاث سلطانية ذهبا**"[2]، ومن أنواع الضرائب أيضا ورد في رحلة محمد الكبير اسم "اللزمة" عند حديث ابن هطال عن فرض الضرائب على سكان "عين ماضي" من طرف الباي محمد الكبير فقال: "**فلما سمع كلامهم واستقصى خبرهم أدركته الحنانة والشفقة عليهم وجعل لهم لزمة..، ورجعوا فدخلوا مدينتهم مستبشرين... من تخفيف اللزمة عنهم والأمان... وبالغد أصبحت أهل عين ماضي يدفعون قطيعتهم من الخيل والخدام والدراهم..**"[3]، ومما ذكر أيضا عن الضرائب أنها تدفع آخر كل سنة، ومما يدفعونه: الدراهم والصياغة، والثياب والخيل..[4]، فأنواع الضرائب تختلف بين "النقد" و"الأملاك"، وغيرها.

كما وردت بعض الإشارات إلى الضرائب التي يدفعها سكان "الجزائر" للحكومة العثمانية في بعض الرحلات المغربية، منها ما تحدث عنه الوزان عن مدينة

---

(1) ينظر: مشوشة، النشاط التجاري بين الجزائر وتونس، ص23. وينظر: مؤيد محمود، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني، م422/5.

(2) ابن حمادوش، لسان المقال، ص114.

(3) ابن هطال، رحلة الباي، ص69، 70.

(4) المصدر نفسه، ص50، 51.

"بريشك"و"شرشال" اللتانكان سكانهما يدفعون خراجا أو إتاوة لـ"بربروس"[1]، كما أشار العياشي إلى دفع أهل "بسكرة" للخراج أيضا[2]، كما ورد الحديث عن بعض المعاملات التجارية كعملية الكراء (الاستئجار)، فهذا الزياني تحدث عن اكتراء المنازل، فعند دخوله "تلمسان" ذهب إلى القائد "مصطفى" فأنزله هذا الأخير داره، وأضافه ثلاثة أيام ثم اكترى له دارا[3]، كما اكترى بـ"قسنطينة" دارا أيضا حيث قال: **"وتوجهنا من الجزائر لقسنطينة وكان فصل الشتاء، وكنت قدمت وقت إقامتي بالجزائر مكتوبا لصاحب لنا من تلمسان من أصحاب باي قسنطينة يكتري لنا منزلا نستقر به إلى أن يخرج فصل الشتاء.."**[4]، كما تحدثت بعض الرحلات أيضا عن اكتراء "الدليل" في الصحراء، فهذا العياشي ذكر أن أمير الركب اكترى رجلا من "أولاد سيدي سليمان" عند خروجهم من "أبي سمغون"[5]، والدرعي ذكر ذلك في عدة مواضع منها أنهم اكتروا رجلا من "أبي سمغون" إلى "الأغواط"، وذلك بـ"مثقالين" كما سبقت الإشارة[6].

ومن خلال هذه الأنشطة الاقتصادية المختلفة التي كان يمارسها بعض أفراد المجتمع الجزائري وبعض أسره يتبين لنا المستوى المعيشي للأفراد والأسر الجزائرية في العهد العثماني، والتي جاءت بعض الإشارات إليها في بعض الرحلات المغربية أيضا.وبالرغم من أن هذه الرحلات لم تتحدث بصراحة عن المستوى المعيشي للأسر الجزائرية، إلا أنها أوردت إشارات كانت أكثر وضوحا في ما يخص الحالة المعيشية لبعض الأسر ومختلف أنشطتها في مختلف المناطق من الجزائر، فمنها أسر غنية يمارس أفرادها مختلف الأنشطة الفلاحية والصناعية والتجارية، وهناك أسر فقيرة تعيش على كسب قليل، وهناك أسر أشد فقرا يكاد أفرادها يموتون جوعا.

---

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 33/2، 34.

(2) العياشي، الرحلة العياشية، 540/2.

(3) الزياني، الترجمانة، ص141.

(4) المصدر نفسه، ص151.

(5) ينظر: العياشي، المصدر السابق، 549/2.

(6) ينظر: الدرعي، الرحلة الناصرية، ص129.

فعن الأغنياء وأنشطتهم المختلفة تحدث الوزان الذي عاصر بدايات دخول الأتراك إلى "الجزائر"، فذكر عدّة مدن جزائرية يعيش سكانها في غنى كبير ويمارسون مختلف الأنشطة التي توفر لهم العيش الرغيد والحياة الكريمة، مثل سكان مدينة "العباد" كثيرة الازدهار وافرة السكان والصناع، وسكان مدينة "شرشال الأندلسيين" عاشوا في رخاء دائم بعد إصلاحهم للمدينة وبنائها بعد الخراب الذي مسها قبل ذلك، وحين اشتغلوا بصناعة "الحرير" وصناعة "السفن"، وأما مدينة "مليانةفيكاد يكون سكانها كلهم صناعا نساجين أوخراطين..، ويشتغل كثير من السكان كذلك بالفلاحة[1]، وأما سكان مدينة "دلس" فهم: صباغون وفلاحون وصيادون، وأما سكان جبل بني ورنيد بالقرب من تلمسان فهم فحامون وحطابون وفلاحون، وأما سكان جبل "بني بوسعيد" بالقرب من "تنس" فيمارسون التجارة مع الأوربيين، وكذلك القبائل التي تسكن جبال الجزائر وافرة الغنى تملك أراضي جيدة للزراعة، وكمية عظيمة من الماشية والخيل، وكذلك سكان مدينة "القل" صناع وأصحاب تجارة، تجارتهم رابحة لأنهم يجنون من جبالهم الكثير من الشمع ويمتلكون كمية عظيمة من الجلود يبادلون بها البضائع التي يحملها أهل جنوة إلى مينائهم، وكذلك سكان مدينة "قسنطينة" صناع وتجار، كما أن السكان في "نقاوس" أغنياء ولباسهم لائق، وسكان "ميلة" يعملون في نسج الصوف الذي يصنع منه أغطية الأسرة [2].

وبالمقابل هناك من السكان من يعيشون في فقر كبير، فقد ذكر المكناسي أن أهل "تلمسان" بعد استيلاء الخراب عليها بسبب عمّال الجور والظلم، الذين استولوا على ما بأيدي المسلمين قلّت عندهم الأموال فقدأخبر: " **أنه رأى أهل البلد يشترون الأشياء من العطارين وغيرهم بالزرع من قلة الدراهم بأيدي الناس..**"[3]، وذكر الوزان أن سكان مدينة "مسيلة" بالرغم من أنهم صناع أو فلاحون إلا أنهم فقراء فهم يرتدون لباسا رديئا لفقرهم بسبب جيرانهم الأعراب الذين يسلبونهم مداخيلهم، وكذلك في مدينة "بجاية" يعيش السكان في فقر لأن الأراضي الزراعية غير خصبة لا تستطيع أن تنتج حبوبا[4].

---

(1) الوزان، وصف إفريقيا، 24/2، 34، 35.

(2) المصدر نفسه، 42/2– 60.

(3) المكناسي، الإحراز، ص331.

(4) الوزان، المصدر السابق، 50/2، 52.

وهناك أسر وصل بها الفقر لدرجة أنها لا تجد ما تأكله مثل بعض الأسر في "الصحراء"، فقد ذكر العياشي أن قرية "الماية" قرب وادي "الأشبور" بالصحراء الجزائرية: **"ليس فيها إلا رجلان أو ثلاثة في غاية ما يكون من الضعف والجوع..، ولم يجد الناس عندهم ما يشترون إلا الملح يبيعونه بالطعام.."**[1].

وبالإضافة إلى المهن الاقتصادية السابقة الذكر كانت هناك مهن أخرى رغم قلتها كالمهن العلمية والدينية، وعلى رأسها مهنة التدريسالتي أشار إليها المعسكري بوضوح حين تحدث عن تدريسه مختلف العلوم وهو متنقل بين أرجاء "الجزائر"، وكان الراتب الذي يتقاضاه مقابل تدريسه ضئيل جدا، لا يكاد يزيد عن "كبش" أو "زيت"، أو "قوت" يومه فقط، وذلك ما يفسر معاناته مع الفقر طيلة حياته، وهي الحالة التي عاشها الكثير من أفراد المجتمع الجزائري الذي أعياه الفقر والحرمان، ومنها أيضا المهن الدينيةكالإمامة" و"الخطابة"، و"الإفتاء" و"القراءة"، و"القضاء"..، والتي كان يمارسها بعض أفراد المجتمع الجزائري خاصة العلماء منهم، ولكن الرحلات لم تشر إلى الأجور الخاصة بهذه المناصب، والظاهر أنها مناصب ذات أجر مستحق بدليل أن مختلف هذه المناصب كانت تشترى بالمال والرشوة في بعض الأحيان مثل ما أشار الورثلاني إلى ذلك حين قال عن "بسكرة": **وقد سمعت أن القاضي والمفتي فيها لا يتولى إلا بإعطاء لهم، وإرتشاء لديهم، وكذا في غيرها من عمالة الجزائر.."**[2]، ومن المؤكد أن من يعتلي هذه المناصب سيكون له نصيب من مستوى معيشي رفيع.

---

[1] العياشي، الرحلة العياشية، 547/2.

[2] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 241/1.

وخلاصة الحالة الاقتصادية للمجتمع الجزائري حسب ما جاء في أغلب الرحلات المغاربية، نجد أن هذه الرحلات قد تطرقت للحديث عن مختلف النواحي الاقتصادية للمجتمع الجزائري، حيث لا يكاد يوجد اختلاف في ذكر تلك الأوضاع بين ما جاء في الرحلات الجزائرية أو ما جاء في الرحلات المغربية، إلا في بعض الأحيان،فنجد مثلا اهتمام الرحلات المغربية بذكر المستوى المعيشي للأفراد خاصة في رحلة الوزان، دون التفات الرحلات الجزائرية إلى ما كان إشارات غير مقصودة، وقد لاحظنا توافقا كبيرا بين أغلب الرحلات فيما ورد عن مختلف الموارد الطبيعية التي تتمتع بها الجزائر من ثروة مائية وحيوانية ونباتية كبيرة إضافة إلى الثروة المعدنية، كما أن أفراد المجتمع الجزائري يمارسون مختلف الأنشطة الاقتصادية من فلاحة وصناعة وتجارة.

المبحث الثالث: أزمات المجتمع الجزائري في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

تناول هذا المبحث مطلبين رئيسين: اختص الأول بالأزمات الأخلاقية، والثاني ببعض الأزمات البيئية والاقتصادية والصحية.

المطلب الأول: أزمات أخلاقية

اهتمت بعض الرحلات المغاربية بذكر بعض الأزمات الأخلاقية التي أصابت المجتمع الجزائري، منها انتشار الرشوة وتضييع الأموال الذي تحدث عنها الفرع الأول، وظلم الأتراك للأهالي في الفرع الثاني، وانتشار البدع والضلالات في الفرع الثالث.

الفرع الأول: إنتشار الرشوة وتضييع الأموال

تحدث الورثلاني في رحلته عن فساد الأخلاق الكبير الذي نخر جسد المجتمع الجزائري، بسبب فساد الحكام الأتراك الذين تداولوا حكم "الجزائر"، وهذا ما ساعد على انتشار الرشوة، وبيع المناصب حتى الدينية منها كالإفتاء والقضاء، بالإضافة إلى إسراف وتبذير المال العام من قبل الحكام الأتراك لتلبية شهواتهم، وتوجيهها كذلك في جانب واحد فانصبت معظم الخزينة في التحصينات العسكرية وتأمين كل مكان يخافونه، فعن الرشوة ذكر الورثلاني أن من تعسف الأتراك عند دخولهم "بسكرة" أنّهم: "**استولوا عليها استيلاء عظيما، وماكان من المدارس والأحباس التي لم توجد في الأمصار هي في أيديهم يأكلون منها وينتفعون بها أي انتفاع..، بل هي ليست لهم ولا أنهم من أهلها، بل لما تمردوا وطغوا وجعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما وعدوانا..**"[(1)]، وعن تبذير الأموال وتضييعها ذكر أن لـ"قسنطينة": "**باي سطوته عظيمة وعساكره كثيرة، تنفذ منها للجزائر أموال عظيمة من المغرم، ومددها قوي وظلمها كثير..**"[(2)]، وهذا دليل على إثقال كاهل السكان بدفع الغرامات وفي المقابل تصرف تلك الأموال في الشهوات من طرف حكامها، ويقول أيضا: "**وعلى تقدير وجود الأموال، فقد صرفها أهلها في شهوات أنفسهم، كالملابس والمآكل والمشارب، بل بنوا الحصون بها والأبراج والأسوار والثغور، وأقاموا**

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 241/1.

(2) المصدر نفسه، 253/3.

العساكر والنوبات في كل محل مخوف، كثغر بجاية وجيجل والقل وبونة، وغير ذلك مما يحتاج إليه الحفظ من العدو.."[1]

كما ذكر أيضا أن المناصب تباع وتشترى، خاصة المناصب الدينية فقال عن "بسكرة": "**وقد سمعت أن القاضي والمفتي فيها لا يتولى إلا بإعطاء لهم، وإرتشاء لديهم، وكذا في غيرها من عمالة الجزائر.."**[2]، وعلى هذا النحو ذهب الزياني في الرحلات المغربية،الذي تأسف على وضع "تلمسان" لمّا آلت إلى حكم الأتراك وصارت المناصب الدينية والعلمية تباع وتشترى لغير أهلها، فذكر ذلك في قصيدته الهجائية، التي ذمّ فيها قاضي المواريث المتكبر بالجامع الإدريسي بـ"تلمسان"،وممّا قال في هذا الشأن:

كانت تلمسان بالأعلام صـــائلة وبالجياد ولم تربط بها الحمر
أصابها المسخ إذ عادت تبـــاع بها مناصب العلم للأجلاف والخور
وكيف لا وجنود التـــرك حولكم تسوقكم بعصا الخسف ولا تذر
لكن إلى الله أشكو دفع غصـــتكم فهو المؤمل والمرجو ينتصر[3]

إذا هناك توافق بين ما أورده الورثلاني في طرف الرحلات الجزائرية وما أورده الزياني في طرف الرحلات المغربية فيما يخص قضية الارتشاء وشراء المناصب العلمية والدينية.

الفرع الثاني: ظلم الأتراك للأهالي

كثر ظلم الأتراك لسكان "الجزائر"، فكان الظلم معنويا وحسيا، ومن الظلم المعنوي ما ذكره ابن حمادوش عن تكبر وتطاول مفتي الحنفية "ابن علي" بالجامع الكبير بـ"الجزائر" عليه وعلى العامة من الجزائريين؛ فذكر ذلك في نص حديثه: "**و في يوم الأحد رابع وعشرين ربيع الثاني...، دخل علينا الرافل في ثوبه الزاهي بكبره وعجبه، الذي يعد الأشراف أرضا، وأن نعله يطأ صفحات خذوذهم فرضا، وأنه بلغ الغاية القصوى، وأباح في جانبنا العدوى، وأنه استبطن منا ملكة من ذوي الأقدار، فاستقذرها وعدها من الأقذار، ورغبة في الدنيا وليس له رغبة في دار القرار، مفتي الحنفية بالوقت ابن علي**

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 3/ 354، 355.

(2) المصدر نفسه، 241/1.

(3) الزياني، الترجمانة، ص144.

المستحق المقت، فغضب إن لم أمتثل بين يديه.."[1]، وقد أغاض هذا التكبر ابن حمادوش فجعله يذم هذا المفتي في قصيدة يفخر بنفسه كونه من "الأشراف" ولا يسع المقام لذكرها الآن وقد سبقت الإشارة إليها في عنصر "سكان الجزائر".

وفي ذات السياق تحدثت الرحلات المغربية، إذ يخبر الزياني في رحلته عن تكبر قاضي المواريث بجامع "تلمسان" كما أشرنا سابقا، فقد ذكر: "**ولما دخلت تلمسان..، فكنت أقصد المسجد الجامع..، أبحث عن الأعيان والأعلام، وأهل المحابر والأقلام..، وكان يمر بي رجل بهي المنظر..، يميل عني كبرا..، قاضي المواريث.**."[2]، وقد استنكر الزياني ذلك عليه وهجاه في قصيدة طويلة من أبياتها:

يا مـــن تكبر فــــوق ما يناسبه   وظنّ أن خدمته الشمس والقمر

إن غرك المنصب المخصب روضته   وبحسن بهجته علينـــا تفتخر

هـو عليك فما يغشـــاك طارقنا   ومـا إليك في قســـمة وطر[3]

إذا أجمعت الرحلات الجزائرية والمغربية على تكبر الأتراك وتعاليهم على عامّة الناس، وذلك فيما ورد في رحلتي كل من ابن حمادوش والزياني، وكلاهما استنكر ذلك التكبر وردّا عليه بقصيدة.

أما بالنسبة للظلم الحسي أو المادي فهو كثير، وخاصة إثقال كاهل السكان بالضرائب والمغارم، بالإضافة إلى القتل والسلب والنهب لمن لم يلتزم بدفع هذه الضرائب والغرامات القاسية والظالمة لأصحاب الأراضي، وقد أطلعنا ابن هطال في رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، أن مقصدها إخضاع القبائل والمدن الصحراوية لحكم الأتراك وفرض الضرائب على أهلها، وفيها يظهر تعسف وظلم الحكام الأتراك للأهالي الجزائريين الرافضين لحكمهم، أو الذين لا يدفعون الضرائب للحكومة التركية بـ"الجزائر"، ويظهر ذلك جليا في استعمال هذا الباي وغيره للقوة والسلب والنهب وكل أنواع التخريب والتهديم، من أجل إخضاع الأهالي، وهذه الرحلة مليئة بالدلائل على هذا الظلم والتعسف، ومن بين ما ذكر ابن هطال في هذا الصدد قتاله لأهل "الأغواط" بشتى أنواع الأسلحة

(1) ابن حمادوش، لسان المقال، ص256.

(2) الزياني، الترجمانة، ص142.

(3) المصدر نفسه، ص143.

المتاحة لديه، وهدم أسوارها وحيطانها، ومن ثم إخضاع أهلها بالقوة، وفرض الضرائب عليهم إكراها، وسنحاول اطلاع القارئ على بعض أحداث هذا القتال على وجه الاختصار،إذ ذكر ابن هطال أن هذه المدينة–الأغواط– بعظمتها وعظمة رجالها، وقد حاصرها الباي وصار يقذفها بالرصاص والمدافع من على الجبل المتصل بها، فلما وجد الباي أن المدينة محاطة بالبساتين والأبراج والأسوار أمر الخدام والموالي الذين لا سلاح لهم أن يحملوا بأيديهم الفيسان(الفؤوس) ويذهبوا مع العسكر لتهديم أسوار المدينة، فهدموا كل حائط يصلون إليه، ويجعلون فيه طريقا لعسكرهم ولم يقف حدّ فسادهم إلى الهدم فقط، فقد طالت أيديهم للنفوس ولم يتوانوا عن قتل أهل المدينة وأسرهم، أما عن نتائج الحرب فحصيلته كما ذكر أكثر عن ستين ويفوقمن الرجال ما بين قتيل وجريح من بينهم النساء، وأحد عشر أسيرا، فبعد أن كثر الهرج والقتل والفساد في المدينة ويئس الناس من المواجهة والاصطبار على المظالم، التجأوا إلى المفاوضة مع الباي ووافقوا على دفع الضريبة مقابل الأمان، فاتفقوا على دفع: مائة خادم وخمسة آلاف ريّال بوجة، ومائتين وخمسين بعيرا كلها مختارة من خيار كسب العرب، وأربعة أفراس من عتاق الخيل، ومائتي ثوب..، في كل عام[1]، وإن كانت "الأغواط" قد حاربت ولم تستسلم لأول وهلة، فإن بعض القبائل هرب أهلها وتركوها بما فيها للباي وجنوده، مثل ما حدث مع أهل "الدبداب" التي خرج أهلها منها لما سمعوا بقدوم الباي إليهم: **"ولم يأخذوا شيئا من أمتعتهم وقوتهم..، فانتهبت جميع ما فيها من القماش والغرائر والسمن.."**[2].

وقد أشارت بعض الرحلات المغربية أيضا إلى الظلم المادي، ومنها إثقال كاهل السكان بالضرائب،فقد تحدث الوزان عن مدينة "بريشك" التي عاش سكانها أحرارا من كل إتاوة أو خراج **"إلى أن جاء التركي بربروس فأثقل كاهلها بالإتاوات.."**[3]، وسكان **"شرشال"** أيضا لم يخضعوا إلا لبربروس، فكانوا يقدمون له خراجا سنويا[4]، كما ذكر العياشي الخراب الذي حل بـ"بسكرة" من جرّاء تملك الأتراك لها فقد: **"ضرّوا بأهلها وأجحفوا بهم في**

---

(1) ينظر: ابن هطال، رحلة الباي، ص53– 62.

(2) المصدر نفسه، ص49.

(3) الوزان، وصف إفريقيا، 33/2.

(4) المصدر نفسه، 34/2.

الخراج.."[1]، وعن إخضاع السكان بالقوة ذكر العياشي كذلك في سياق حديثه عن "بسكرة" أيضا أن الترك سيطروا عليها ولم يستطع أهلها الخروج عليهم لتمكنهم من الماء الذي به حياة البلد وأهله، والذي بنى الترك عليه حصنا حصينا، وبذلك تملكوا البلد[2]، وعن السلب ونهب أملاك الناس ذكر الزياني أخذ أحد بايات "قسنطينة" لجميع أملاك أحد خدامه (وهو من الكراغلة) بعد عزله من العمل معه فأخذ منه: "**أموالا عريضة لا تعد ولا تحصى...، ونهبت الدار بما فيها من الأثاث واللباس والفرش، وجميع ما في الغربان من خيل وبغال، وإبل وغنم وبقر، وما في المطمر من زرع..**"[3]، وذكر المكناسي أيضا خراب تلمسان وسوء حالها إذ زادها عمال الجور والظلم، فقد استولوا على ما بأيدي المسلمينلدرجة أصبح أهل البلد يشترون الأشياء بالزرع وغيرهمن قلة الدراهم، ومن قلة حياء حاكم البلدة وكثرة حرصه إذاية العامة[4].

إذا فالأتراك كانوا شديدي الظلم لأهالي "الجزائر" بشهادة الرحلات المغاربية التي كان أصحابها شهودا على تلك المظالم سواء جزائريين أهل البلد أو زوارا من المغرب.

الفرع الثالث: إنتشار البدع والضلالات

انتشرت في المجتمع الجزائري في العهد العثماني الكثير من البدع والضلالات والخرافات والعادات السيئة التي يستنكرها العقل السليم والخلق القويم.

فقد أشار الورثلاني في رحلته إلى الكثير من هذه الأمور مستقبحا إياها داعيا الله أن يزيلها عن المجتمع الجزائري المسلم، فعن أهل "زمورة" يقول أنهم: "**ضلّوا وأضلّوا، فلا يسمعون إن وعظتهم، ولا يرجعون إن ذكرتهم، وقد اشتدت القسوة على قلوبهم..، وقد ألفوا ذلك من آبائهم وأجدادهم قبح الله رأيهم، فإن أنكرت عليهم..، ربما عادوك ورموك بما لا يليق بك..**"[5]، ثم يواصل كلامه في وصف أهلها بالبدع الشنيعة، والأحوال الخسيسة، والرذائل المنهي عنها، وحبّهم الجمّ للمال، وتمسكهم بأحكام الطاغوت في

---

[1] العياشي، الرحلة العياشية، 540/2.

[2] ينظر: المصدر نفسه، 540/2.

[3] الزياني، الترجمانة، ص154.

[4] المكناسي، الإحراز، ص331.

[5] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 3/ 377.

أنكحتهم ومعاملاتهم، والعوائد المحدثة، كما ذكر عن"قسنطينة" تفشي العادات السيئة بين أهلها، ففيها قلة الصفاء والوفاء، واتصاف أهلها بالغبطة والحسد، وتفشي القبح والسب واللعنة وكثرتها في أسواقها[1]، وقد وصف أهلها بالنفاق والتكبر أيضا، لذلك يقلّ فيها الصلحاء وإن ظهروا فإنها سريعة بأخذهم إذ يقول: "**وهذه المدينة..، سريعة بأهل الصلاح، فمن ظهر فيها بالقبول والفضل إلا أسرعت بهلاكه فيقبض ساعتئذ، وهذا معلوم عند أهلها، إما لإساءة ظن أهلها فلا ينتفعون بمن ظهر فيهم، أو لأنها كثيرة الملذوذات..، و إنما يظهر أهل الخير واستمرارهم للنفع في محل ضيق المعيشة كثير المحن..، وحاصله أن كثرة المذاق يوجد للقلب النفاق..، لما كثر رزقها واتسع انفاقها عسر فيها الوصول إلى الله لقلة المساعد وكثرة المتكبر المعاند..**"[2]، فالورثلاني في ما أورده من نصوص يبدو مستاء جدّا لحال أهل البلد، كما أنه بدى قاسيا عليهم بعض الشيء حين دعى عليهم بـ"**قبحهم الله**".

وأما الرحلات المغربية فكان تركيزها على ذكر بعض مظاهر الأزمة الاجتماعية وعلى رأسها تفشي البدع والضلالات والخرافات والعادات السيئة، فمنها عادات غريبة ومنها اعتقادات باطلة.

فعن العادات الغريبة تحدث العياشي حين ذكر عادات أهل الصحراء الجزائرية لغرابتها، منها أن أهل "ورقلة"كانوا "**يرمون ثياب موتاهم خارج المدينة ولو كانت جديدة، ولا أحد يأخذها ولا تحرك من مكانها**"[3]، وأهل "بوسمغون" يحتفلون بعيد الفطر وسط دوي البارود حتى في المصلى كما سبقت الإشارة إذ: "**لا يذكر الله في المصلى إلا أناس قليلون، وغالب الناس مشتغلون بالرمي حتى في حال الصلاة والخطبة..**"[4]، وهذه من البدع والعادات السيئة القبيحة.

وعن الاعتقادات الباطلة تحدث الوزان الذي ذكر بعض الاعتقادات الباطلة والخرافات التي يؤمن بها سكان "قسنطينة"، منها اعتقادهم بأن قوس النصر الموجود بـ"قسنطينة" هو

---

[1] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 358/3، 377، 378.

[2] المصدر نفسه، 358/3.

[3] العياشي، الرحلة العياشية، 117/1.

[4] المصدر نفسه، 549/2.

قصر كان يسكنه الشياطين، فهو يصف العوام من الناس بالحماقة لظنهم بذلك، كما ذكر أيضا اعتقاد نسوة "قسنطينة" في السلاحف الموجودة بأحد الحمامات الساخنة أنها شياطين، تصيب النسوة بالأذى وللتخلص منه تقدم لهن القرابين، إذ تذبح دجاجة بيضاء وتوضع في إناء بريشها الكامل ثم تربط حول الإناء شمعات وتحمل إلى الحمام وتترك هناك[1]، ومن العادات أيضا اعتقاد الناس أن مئذنة جامع "سيدي عقبة""**في أعلاها عمود يزعم الحجاج أن من تمسك بذلك العمود وحكه وقال: أقسمت عليك أيتها المئذنة بحق سيدي عقبة إلا ما تحركت فتهتز..**"[2]، وهذا النص أخذه الدرعي عن العياشي الذي أنكر هذا الزعم وقال مبررا انكاره: "**وقد طلعت إليها ورأيت ذلك، وليس كما زعموا، وإنما هو من إتقان البناء وفرط طوله، فإذا صودم بقوة ظهر فيه شبه اهتزاز..**"[3]، وكلام العياشي هنا أقرب إلى الصواب من زعم الحجاج.

إذا يوجد هناك توافقا كبيرا بين ما ورد في الرحلات الجزائرية والمغربية في خصوص الحديث عن الأزمات الأخلاقية في المجتمع الجزائري أثناءالفترة العثمانية، فكان ما أورده الورثلاني فيما يخص انتشار الرشوة لشراء المناصب الدينية والعلمية موافق لما أخبر به الزياني، كما وافق هذا الأخير ابن حمادوش في قضية تكبر الأتراك وتعاليهم على الأهالي، كما رأينا بعض التوافق أيضا فيما أورده الورثلاني فيما يخص انتشار البدع والضلالات والأخلاق السيئة مع ما جاء عند الوزان، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على مدى مصداقية الرحلات المغاربية ونقلها للحقائق كما جرت في الواقع.

المطلب الثاني: أزمات بيئية واقتصادية وصحية

من الأزمات التي حلت بالمجتمع الجزائري في الفترة العثمانية حسبما ورد في بعض الرحلات المغاربية نجد منها البيئية والاقتصادية والصحية، وهو ما عالجه هذا المطلب الذي في ثلاثة فروع: اختص الفرع الأول بالحديث عن بعض الأزمات البيئية، والفرع الثاني في الحديث عن بعض المشاكل الاقتصادية ، أما الثالث فتحدث عن بعض المشاكل الصحية.

---

(1) ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، 59/2.

(2) العياشي، الرحلة العياشية، 539/2، وينظر: الدرعي، الرحلة الناصرية، ص157.

(3) العياشي، المصدر السابق، 539/2.

الفرع الأول: أزمات بيئية

أشارت بعض الرحلات المغاربية إلى ظهور بعض المشاكل البيئية في بعض مناطق الجزائر منها: التلوث، والقحط.

أولا: إنتشار التلوث والأوساخ

أصبح المجتمع في بعض المناطق لا يهتم بالنظافة سواء داخل البيوت أو خارجها، وبذلك انتشر التلوث وكثرت الأوساخ، ووجدت في ذلك إشارات في بعض الرحلات الجزائرية عن هذا الوضع، ومنه ما أورده الأغواطي عن فئة "المهاجرية" من يهود "تقرت" الذين لا ينظفون بيوتهم، لذلك **"تنبعث منها رائحة كريهة"**[(1)]، وبسبب انتشار التلوث والأوساخ ظهرت عدة حالات اجتماعية مزرية كانتشار القمل الذي كان منتشرا في المجتمع الجزائري بكثرة، إذ كان يعاني منه حتى العلماء والشيوخ والزهاد، فقد ذكر المعسكري أنّه كان يفلي القمل لشيخه منصور الضرير[(2)]، كما ذكر الورثلاني حالة بعض الأولياء والصلحاء بـ"قسنطينة" وهو"أبو القاسم الزواوي"الذي كان في أغلب أوقاته في حالة يرثى لها من الأوساخ والرائحة الكريهة يجتمع عليه الذباب من كثرة الأوساخ، ونتن الرائحة[(3)].

وعن حالة التلوث البيئي تحدث العياشي حين ذكر أنّ أهل "ورقلة":**"يرمون ثياب موتاهم أمام أسوار المدينة أكواما ولا ترفع من مكانها أبدا"**[(4)]، ومثل هذه الأفعال تتسبب في تلوث البيئة وتشويه منظرها، كما تحدث أيضا عن عدم اهتمام البعض بنظافة أبدانهم وملابسهم، ومنهم عامل سلطان "ورقلة" بـ"القليعة" الذي يمشي حافي الرجل عاري الرأس في ملاءة وسخة، ومع ذلك يتحاكم إليه أهل قريته ويذعنون لأمره[(5)].

---

(1) الأغواطي، الرحلة، ص100.

(2) المعسكري، فتح الإله، ص42.

(3) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 367/3.

(4) العياشي، الرحلة العياشية، 117/1.

(5) المصدر نفسه، 111/1.

ثانيا: حلول القحط

مرت "الجزائر" في العهد العثماني خاصة بدايات القرنيين (10، 11هـ/ 16، 17م) بفترات جفاف ومسّ من القحط، وعدة كوارث أخرى كاجتياح الجراد..، وقد أثرت هذه الكوارث كثيرا على الثروة الزراعية والحيوانية ما أدّى إلى نقصانها وارتفاع أسعارها خاصة الحبوب، فكانت لها تبعات أهمها انتشار المجاعات والأوبئة المختلفة[1]، وقد أشار المعسكري إلى انتشار القحط والجوع حينما ذكر كثرة البليات من الروع والخوف والجوع، وذلك في نص قوله: **"فاتصلت علينا صراصر النكبات والبليات من الخوف والجوع والروع الذي في الفؤاد مودوع"**[2].

وفي الرحلات المغربية أشار العياشي إلى سنوات القحط التي عاصرها أثناء رحلته، ما ذكره في سياق حديثه عن قبر الولي الصالح "سيدي كناو" الذي يقصده الناس من كل النواحي بالصدقات من الزرع والتمر واللحم..، لكن ذلك العام لم يجدوا شيئا من ذلك **"لأن السنة كانت سنة قحط وجوع"**[3].

والملاحظ أن الأزمات الطبيعية لم تكن حاضرة بقوة في مختلف الرحلات المغاربية، سواء الجزائرية أو المغربية، والتي ذكرناها كانت إشارات عابرة فقط.

الفرع الثاني: أزمات اقتصادية

من جراء سنوات القحط التي مرت على "الجزائر" في تلك الفترة كانت لها آثار وخيمة على المجتمع الجزائري من الناحية الاقتصادية، إذ خلفت ارتفاع الأسعار في الأسواق وانتشار المجاعات في بعض المناطق خاصة الصحراوية منها.

أولا: غلاء الأسعار

من النكبات الاقتصادية التي جاء ذكرها في بعض الرحلات المغربية غلاء الأسعار، الذي تحدث عنه العياشي في سياق حديثه عن بعض المناطق الصحراوية، كقرية "**الكراكد**" القريبة من "بوسمغون"، التي وجدوا حالها:" **في غاية ما يكون من الغلاء..**"[4]،

---

(1) ينظر: مشوشة، النشاط التجاري بين الجزائر وتونس، ص22.

(2) المعسكري، فتح الإله، ص24.

(3) ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 127/1.

(4) المصدر نفسه، 548/2.

والحال نفسه الذي وجدوه في "الأغواط" فكان:" **الغلاء كثيرا عندهم، مقدار مدين فاسيين بريّال قمحا..**"[1].

ثانيا: إنتشار المجاعات

تسببت الحال الأولى -غلاء الأسعار وصعوبة حصول لقمة العيش- إلى انتشار المجاعات في بعض المناطق، خاصة الصحراوية منها، وقد بلغ الجوع عند البعض لدرجة قصوى، وعن هذا الأمر تحدث العياشي واصفا قرية "الماية" القريبة من "الكراكد"، أهلها في غاية ما يكون من الضعف والجوع، وكان من لطف الله بهم أن الركب المار عليهم ماتت لهم ثلاثة من الإبل فانتفع أهل تلك القرية الضعاف الجياع بلحمها[2]، كما ذكر في سياق آخر الجوع عند قطاع الطرق، فقد أخبرهم أهل البلد بالقرب من "أولاد جلال" أن اعتراض قطاع الطرق للركب بسبب ما وصلوا إليه من الجوع"[3].

وفي غير رحلة العياشي لم توجد إشارة تذكر فيما يخص غلاء الأسعار وانتشار المجاعات.

الفرع الثالث: أزمات صحية

ومن الأزمات التي حلت بالمجتمع الجزائري في الفترة المدروسة، نجد أزمات ورد ذكرها في الرحلات المغاربية كان على رأسها انتشار وباء الطاعون.

أولا: الوضع الصحي في المجتمع الجزائري

ارتبط الوضع الصحي في "الجزائر" خلال الفترة العثمانية ارتباطا وثيقا بالتركيبة السكانية للمجتمع الذي ينقسم إلى قسمين سكان الأرياف وسكان المدن -كما سبق التوضيح- فسكان المدن متعددوا الأجناس كانوا يمارسون الطب الأوروبي، والطب التركي، أما سكان الريف وهم الأغلبية الساحقة (الأهالي)، كانت ممارستهم الطبية غير معقدة، تقليدية وبسيطة تقوم على التداوي بالأعشاب (الطب الشعبي)، وقد كان ابن حمادوش من أشهر

---

(1) العياشي، الرحلة العياشية، 546/2.

(2) ينظر: المصدر نفسه، 548/2.

(3) المصدر نفسه، 544/2.

الأطباء الجزائريين خبرة في التداوي بالأعشاب وغيرها من طرق الاستشفاء التقليدية[1]، فقد ذكر ذلك في رحلته عندما تحدث عن خروجه مع عشاب "الجزائر" آنذاك فقال: **"خرجت مع سيدي محمد كحنجل، وكان عشاب بلدنا لنتعلم منه العشب، فتعلمت ما تيسر مع ما كنت تعلمت من غيره، فالحمد لله على ذلك، فإن الأعشاب المقيدة في تأليفي كلها معروفة عندي، فاليوم والحمد لله أنا عشاب وصيدلاني وطبيب في بعض الأمراض"**[2]،ويعود تأخر الطبّ عندهم إلى عدم اهتمامهم بهذا العلم أساسا، وميلهم للعلوم الدينية بصورة كبيرة وابتعادهم عن العلوم العقلية عموما.

ثانيا: انتشار الأوبئة والأمراض

كان للأزمات السابقة الذكر، وخاصة الأزمات الطبيعية والمتعلقة بالمشاكل البيئية والكوارث الطبيعية الأثر البالغ في ظهور الأوبئة وانتشار الأمراض في أوساط المجتمع الجزائري، وكان من أبرزها وأخطرها على الإطلاق "وباء الطاعون"؛الذي حلّ بـ"الجزائر" في العهد العثماني عدة سنوات (1010هـ/ 1601م، 1026هـ/ 1617م، 1141هـ/ 1728م، 1162هـ/ 1749م، 1200هـ/ 1785م، 1207هـ/ 1793م)[3]، وأخطره الذي كان عام(1200هـ، 1587م)، وكاد يودي بجميع سكانها، فقد أتى على أكثر من عشرين ألف نسمة من سكانها[4]، وقد جاء خبر هذا الوباء في بعض الرحلات المغاربية. ففي الرحلات الجزائرية أشار إليه المعسكري عندما تحدث عن كثرة البليات والنكبات في الفترة التي عاد فيها من "المغرب" ومنها ما دهمهم من "**الطاعون الذي تهرب منه الواعون..**"[5]، وإليه أشار الورثلاني في حديثهعن مدينة "بسكرة"بقوله: "**هذه المدينة كانت قاهرة عظيمة البنيان...، غير أنها قد خربت...، وإن الناس قد خرجوا إلى البساتين فبنوا**

---

[1] ينظر: عثمان بوحجرة، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني 1519- 1830م (مقارنة اجتماعية)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أحمد بن بلة_ وهران1_ الجزائر، 2015م، ص20، 21.

[2] ابن حمادوش، لسان المقال، ص164.

[3] عبد الله بن محمد الشويهد، قانون أسواق مدينة الجزائر(1107_ 1117هـ/ 1695_ 1705م)، تح: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006م، ص141، 142.

[4] ينظر: سعيدوني، ورقات جزائرية، ص360.

[5] المعسكري، فتح الإله، ص24.

هناك..، فنزل عليهم الوباء فلم يبق فيها إلا حثالة من الناس.."[1]، وإلى هذا الحال أشار ابن حمادوش عند حديثه عن حرص باشوات "الجزائر" على حفظ الصحة والتصدي لانتشار الأمراض والأوبئة، وذلك في نص حديثه: "**قدم إلينا مركب من اسكندرية بالحجاج، وفيه الوباء فمنعهم الباشا الدخول حمية أن يقوم ممرض على مصح..**"[2]
وهذا الوباء جاء خبره في أغلب الرحلات المغربية التي عاصرت وقوعه؛ فذكره الزياني الذي أقام بـ"تلمسان" سنة ونصفا حيث خرج منها فرارا من الوباء الذي حلّ بها، ولما بلغ مدينة "الجزائر" وجد الوباء بها خفيفا فنزل خارجها[3]، وقد كانت أضرار هذا الوباء وخيمة جدا، إذ ترك المدن خرابا على حد تعبير الزياني، فما مروا به من "الجزائر" إلى "قسنطينة" من المدن كله خراب[4]، أما المكناسي الذي سمع عنه ووجده عند وصوله إلى "الجزائر" أثناء عودته إلى بلده، ذكر أنهم خيموا بظاهر "الجزائر" ولم يدخلوها لأنهم وجدوا فيها الوباء، ونصه أشبه بنص الزياني الذي يقول: "**ولما وصلنا إلى الجزائر خيمنا بظاهرها ولم ندخل إليها، وقد وجدنا فيها الوباء نعوذ بالله، وقد كان قبل وصولنا إليها قويا، فكان يموت كل يوم على ما حكي لنا نحو الثلاثمائة، وقد خف أمره لما كنا هنالك فكان يموت في اليوم نحو عشرة..، وقد وجدنا بهذه المدينة وأعمالها الطاعون ومات به خلق كثير ثم سافرنا منها فوصلنا تلمسان..**"[5]، وقد ذكره العياشي أيضا في سياق حديثه عن مدينة "بسكرة" حين عودته من الحج، فذكر ذلك في قوله: "**ونزلنا بسكرة..، وكان نزولنا خارج البلد من غريبة من أجل الوباء..**"[6]، ومن نتائج الوباء على "بسكرة" أنّه كان" **وباء مفرطا مات به في بسكرة على ماقيل أكثر من سبعين ألف نفس، وقد دخلنا المدينة عقبه، فوجدنا أكثر حوماتها خاليا، ومساجدها داثرة..**"[7]، وبسببه لم

---

[1] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 200/1.
[2] ابن حمادوش، لسان المقال، ص121.
[3] الزياني، الترجمانة، ص151.
[4] ابن حمادوش، المصدر السابق، ص163.
[5] ينظر: المكناسي، الإحراز، ص330.
[6] العياشي، الرحلة العياشية، 540/2.
[7] المصدر نفسه، 540/2.

يدخل الركب مدينة "سيدي عقبة" لزيارة قبره حيث قال: "**وقد عاقنا الوباء من دخوله هذه المرة وزرناه من خارج..**"[1].

إذا فقد اهتمت الرحلات المغربية بخبر هذا الوباء أكثر مما اهتمت بذكره الرحلات الجزائرية.

ثالثا: إنتشار بعض الأمراض الأخرى

بالإضافة إلى الطاعون والمجاعة ظهرت الأمراض والأوبئة التي جاء الحديث عن بعضها في الرحلات المغربية، كـ"**الحمى**" التي كان يعاني منها سكان "أم القوار القبلية"، إحدى القرى الصحراوية قرب "بوسمغون"، حيث ذكر الدرعي أن أهلها اشتكوا الحمّى التي أضرت بهم كثيرا، وطلبوا من الركب الدعاء لهم بالعافية منها[2].

وخلاصة أزمات المجتمع الجزائري التي ورد ذكرها في مختلف الرحلات المغاربية، أن المجتمع الجزائري في تلك الفترة قد تعرض لعدّة أزمات منها الأخلاقية، والطبيعية، والصحية، وحتى الاقتصادية، إذ نلاحظ نوعا من التكافؤ بين الرحلات الجزائرية والمغربية في ذكرهم لما جاء في هذا الخصوص، ولا توجد الاختلافات إلا نادرا فيما يخص الإضافات والتوضيحات.

---

[1] العياشي، الرحلة العياشية، 539/2.

[2] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص127.

الفصل الرابع:

الأوضاع الثقافية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

المبحث الأول: الحالة العلمية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

المبحث الثاني: الحالة الدينية والفنية في الجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

الفصل الرابع: الأوضاع الثقافية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

تضمّن هذا الفصل أوضاع الجزائر الثقافية في ثلاثة مباحث: تحدث المبحث الأول عن الحالة العلمية، والثاني عن الحالة الدينية، أما المبحث الثالث فتحدث عن الحالة الفنية، وكلها في الجزائر خلال الفترة العثمانية حسب الرحلات المغاربية.

المبحث الأول: الحالة العلمية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

حوى هذا المبحث ثلاثة مطالب: المطلب الأول في أوضاع التعليم والتدريس، والثاني في أوضاع العلماء في الجزائر، فيما تحدث المطلب الثالث عن النتاج العلمي في الجزائر.

المطلب الأول: أوضاع التعليم

اهتمت أغلب الرحلات المغاربية بالحديث عن أوضاع التعليم والتدريس في الجزائر، باعتبار أن أغلب الرحالة كانوا من العلماء والشيوخ.

الفرع الأول: المراكز العلمية

كانت مصادر التعليم في "الجزائر" في العهد العثماني تتمثل أساسا في"**المساجد**"، و"**الزوايا**"، و"**المدارس**"، و"**المكتبات**"، بالإضافة إلى"**الكتاتيب**" و"**النوادي المنزلية**"..، كما كانت تنتشر أغلب هذه المراكز في المدن الكبرى كـ"**قسنطينة**" و"**الجزائر**" و"**تلمسان**"، وكذلك في "**الصحراء**"، وحتى في "**القرى**"، وهذا ما تترجمه نصوص مختلف الرحلات المغاربية.

أولا: المساجد

كانت المساجد آنذاك حافلة بحلقات الدروس اليومية ومحطّة للفنون والعلوم التي كانت تدرس[1]، وقد ورد الحديث عن مختلف المساجد في أغلب الرحلات الجزائرية، فقد ذكر المعسكري "**الجامع الأعظم**"بـ"الجزائر" ووصفه بمحطّ أهل التنسك الذي بناه "أبو تاشفين"[2]، ويذكره ابن حمادوش في الكثير من المواضع في رحلته، خاصة عند حديثه

---

[1] محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م، ص59.

[2] المعسكري، فتح الإله، ص96.

عن سرد صحيح البخاري في هذا الجامع[1]، كما يذكره ابن إدريس التتلاني أيضا ويسميه **"الجامع الكبير للمالكية"**، الذي كان به شيخ القراء في ذلك الوقت "عبد السلام الجبلي المغربي"[2]، كما يذكر الورثلاني أيضا أن لـ"قسنطينة" خمسة "جوامع" للجمعة[3]، وكل هذه المساجد تلقى فيا الدروس ويلتقي فيها العلماء، والطلبة من كل مكان.

وكذلك الرحلات المغربية تحدثت عن وجود "المساجد" فذكر العديد منها باعتبارها مراكز تعليمية، كالجامع الكبير بـ"الجزائر" الذي ذكره التمقروتي[4]، و"المسجد الجامع" و"المسجد الإدريسي" بـ"تلمسان" اللذين ذكرهما الزياني، وذكر أيضا"المسجد العتيق" بـ"قسنطينة"، و"مسجد أبي مدين" بـ"العباد"، كما ذكر أيضا مسجد "كتشاوى" الذي عاصر بناءه من طرف داي "الجزائر" في ذلك الوقت "حسن باشا"[5]، وذكر العياشي أيضا من مساجد المدن الصحراوية كمسجد "سيدي عقبة"، ومسجد "ورقلة" الذي يسمى "جامع المالكية"[6]، وعن التعليم في المساجد ذكر العياشي أيضا أنه التقى برجل صالح من أهل الخير بـ"بسكرة" منفردا في مسجد له قرب داره: **"يجتمع إليه ناس من أصحابه يذكرهم ويعلمهم.."**[7]، كما ذكر الحضيكي أيضا مسجد مدينة "بسكرة" الذي وصفه بالكبير[8]، وهذا المسجد ذكره الدرعي أيضا ووصفه بالسعة وإتقان البناء[9].

ثانيا: الزوايا

أما عن الزوايا فكانت تحتل مكان الصدارة بين مراكز الثقافة في "الجزائر" خاصّة في المناطق الصحراوية، فكانت تنافس المساجد، فكان لكل مسجد من مساجد الأولياء والصلحاء زاوية تتبعه خاصة به، ومن بين الزوايا التي ورد ذكرها في الرحلات الجزائرية

---

(1) ابن حمادوش، لسان المقال، ص122، 123، 125، 257.

(2) ابن إدريس التتلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص251.

(3) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 3/ 353.

(4) التمقروتي، النفحة المسكية، ص139.

(5) الزياني، الترجمانة، ص141، 142، 153، 375.

(6) العياشي، الرحلة العياشية، 115/1، 539/2.

(7) المصدر نفسه، 540/2.

(8) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص85.

(9) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص139.

زاوية "تنلان" التي ذكرها ابن إدريس التنلاني، وهي في بلدته بالصحراء[1]، كما ورد الحديث عن الزوايا بعبارات غير صريحة في عدة مواضع من الرحلات الجزائرية في سياق الحديث عن أضرحة الأولياء، فكان لكل ولي صالح ضريحا في زاويته.

أما في الرحلات المغربية، فقد وردت عدّة إشارات للزوايا، منها ما أشار إليه الوزان في سياق حديثه عن مدينة "بجاية" التي يوجد بها: "**زوايا المتصوفة..**"[2]، كما ذكر العياشي ما اشتهر منها بالصحراء الجزائرية مثل زاوية "**سيدي أحمد بن موسى**" و"**سيدي عبد الله بن طمطم**"، وزاوية "**سيدي عبد الرحمن الأخضري**" بنواحي "بسكرة"[3]، كما ذكر الدرعي وجود زاوية في منطقة "**أولاد جابر حرز الله**" بأعماق الصحراء " **بإزائها بناء على هيئة المسجد يسميه الحجاج البرج..**"[4]، وذكر الزياني زاوية "سيدي عقبة" في سياق حديثه عن تاريخ مدينة "بسكرة"فقال: "**وفي شرقيها بمرحلة زاوية على مسجد الرجل الصالح التابعي عقبة بن عامر..**"[5]، وذكر أيضا زاوية "الأخضري" في ذات السياق فقال: "**وعلى مرحلة منه زاوية ضريح العلامة الصالح في زاويته المشهورة به، وهو سيدي عبد الرحمن الأخضري..**"[6]، كما ذكر ابن الطيب الفاسي زاوية "سيدي ناجي" المشهورة بين أعراب "جبل المصامدة" في منطقة قرب "بسكرة"[7].

ثالثا: المدارس

كما ذكرت المدارس في بعض الرحلات المغاربية،ومن ذلك ما ذكره الورثلاني عن عدم اهتمام الأتراك ببناء المدارس بـ"قسنطينة"[8]، كما ذكر استيلاء الأتراك على الأحباس والأوقاف التي كانت تدعمم المدارس بـ"بسكرة" وذلك ما سبب اندراس العلم وأهله[9]، وذكر

(1) ينظر: ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص237.
(2) الوزان، وصف إفريقيا، 50/2.
(3) العياشي، الرحلة العياشية، 542/2.
(4) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص716.
(5) الزياني، الترجمانة، ص149.
(6) المصدر نفسه، ص150.
(7) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص103.
(8) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 354/3.
(9) المصدر نفسه، 241/1.

ابن حمادوش بعض المدارس في زمنه والتي كان يدرس فيها الأولاد، منها "مكتب العمالي"، و"مكتب الشماعين" كما ذكر مدرسة "الجامع الكبير" التي نزل بها العالم المغربي "أحمد الورززي" سنة1159ه[1]، وذكر المعسكري وجود مدرسة لقراءة العلم تعود لأجداده في منطقة قرب نهر "ويزغت"[2]، كما ذكر المقري وجود مدرسة "أولاد الإمام" بـ"تلمسان"، والتي قام بزيارتها[3].

وأما عن ذكر المدارس في الرحلات المغربية، فقد ذكر العياشي وجود مدرسة للطلبة "المهاجرين" في منطقة "أولاد جلال" من قرى بلاد "الزاب"[4]، كما أشار إليها الدرعي أيضا وقال أنها مدرسة خاصة بالطلبة الغرباء[5].

رابعا: المكتبات

وتوجدأيضا المكتبات التي جاء الحديث عنها في بعض الرحلات.

ففي الرحلات الجزائرية ذكرها الأغواطي عندما تحدث عن أمير "عين ماضي"وأشار إلى أن أخاه (حاكم عين ماضي التيجيني) كان يمتلك مكتبة كبيرة[6]، أما ابن إدريس التنلاني فذكر أن للإباضية خزائن من كتب علمهم[7].

وأما في الرحلات المغربية؛ فذكر التمقروتي أن مدينة "الجزائر" كانت كثيرة الكتب ولا يضاهيها بلد في ذلك من بلدان "إفريقيا"، كما توجد فيها كتب الأندلس كثيرا[8]، كما ورد في رحلة العياشي أنه شاهد بـ"تكورارن" بأعماق الصحراء مكتبة غنية يملكها الشيخ "محمد بن إسماعيل" وكانت تبلغ حوالي ألفا وخمسمائة كتاب، وهي كتب نفيسة جدا اقتنى "ابن إسماعيل" أكثرها لما كان بمدينة "اسطمبول"، وذكر أن رجال العلم بالصحراء يحتفظون بالكتب أكثر مما يحتفظون بغيرها، فقد شاهد بها نسخا من "نوازل البرزولي" بخط الإمام

---

(1) ابن حمادوش، لسان المقال، ص121، 259، 263.

(2) المعسكري، فتح الإله، ص27.

(3) المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص140.

(4) العياشي، الرحلة العياشية، 545/2.

(5) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص136.

(6) الأغواطي، الرحلة، ص89.

(7) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص240.

(8) التمقروتي، النفحة المسكية، ص139.

"ابن مرزوق"، وإجازات لبعض القادرية عند أحدهم، وفي مكتبة أمام "ورقلة" وجد "موطأ الإمام مالك" و"صحيح البخاري" و"المختصر" و"الرسالة"، كما وجد في مكتبة أحد الأمراء كتاب "التوضيح" و"التتائي" و"الحواشي على الصغرى"[(1)]، كما ذكر الدرعي أنّه وجد مكتبة في منطقة "فجيج" في أعماق الصحراء، وهي خزانة سيدي "عبد الجبار" فيها إجازات، وفيها كتب غريبة قريبة من الاندثار[(2)].

خامسا: الأندية المنزلية

كما كانت هناك الأندية المنزلية رغم الإشارات القليلة إليها في الرحلات،إذ كانت منازل العلماء موئلا لإلقاء الدروس ولقاء العلماء، وقد أشار إلى ذلك ابن حمادوش عندما ذكر ذهابه إلى بيت العالم الأديب "ابن ميمون"، والتقى هناك العلماء منهم مفتي الحنفية ابن علي[(3)].

كما وردت الإشارة إلى ذلك في رحلة الزياني، حيث كان البايات في "الجزائر" يجعلون من بيوتهم وقصورهم نوادي علمية يلتقي فيها العلماء والأدباء.

سادسا: الدكاكين التجارية

إذ جعلت الكثير من الدكاكين والمحلات التجارية أماكنا تراجع فيها العلوم،وذلك ما نلمسه من كلام ابن حمادوش الذي كان تاجرا، فذكر أنه كان يقرأ "مختصر خليل" في دكانه وفي هذا يقول:"**ابتدأت ختمة في سيدي خليل تارة أقرأ الأول في الصبح والثاني بالعشي، وأعكس أخرى في دكاني مع خمولي وملازمة مكاني**"[(4)].

ومن خلال الرحلات المغاربية سواء الجزائرية أو المغربية فإن المراكز العلمية في "الجزائر" كانت متعددة، وعلى رأسها المساجد والزوايا، ولكن رغم كثرتها فهي لم تكن معاهد عليا أومؤسسات نظامية تابعة للحكومة.

(1) العياشي، الرحلة العياشية، 41/1، 108، 115. وينظر: بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص30.

(2) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص126.

(3) ابن حمادوش، لسان المقال، ص256.

(4) المصدر نفسه، ص263.

الفرع الثاني: وضعية التدريس في الجزائر

كان وضع التعليم والتدريس عموما في "الجزائر" في ذلك العهد متردیا نوعا ما رغم كثرته وانتشاره في كل مكان، وذلك ما تثبته أغلب الرحلات المغاربية في حديثها عن وضعية الطلبة والمدرسن، بالإضافة غلى أشهر الكتب التي كانت تدرس آنذاك.

أولا: وضع الطلبة والمدرسين

أشارت بعض الرحلات الجزائرية خاصة رحلة الورثلاني إلى تردّي الوضع التعليمي في "بسكرة" إذ لا يوجد بمسجدها لا قارئا ولا مدرسا، خاصة بعد دخول الأتراك إليها واستيلائهم عليها[1]، كما ذكر أن "قسنطينة": **"لا تخلو من العلم غير أنّ تدريسه فيها إنما يكون في بعض الأوقات كالشتاء وأول الربيع، وأما سائر الأوقات فلا.."**[2]، وذكر أيضا أن قرية "الخنقة" (في الصحراء) لها فضل عظيم في إظهار العلم، فأهلها مشتغلون بـ"النحو" و"الفقه" و"الحديث"، لكن في المقابل ينعدم لديهم "علم الكلام" و"المنطق" لاعتقادهم بحرمة الخوض فيه[3]، كما أبدى المعسكري تأسفه عن تدهور أوضاع "تلمسان" خاصة العلمية بعد استيلاء الأتراك عليها فمن بين ما ذكر في ذلك قوله:**"نظرا إلى ما كانت عليه في سالف الأزمان، وأما الآن فهي كأمس الدابر والميت المقابر، قد استولى على أكثرها الخراب، وناح على خاوي عروشها الغراب... تلمسان.. ذات الأفلاذ الوادعة، والدعوة الصادقة الصادعة... المعمرة بالقراءة والتكبير والتهليل، والعلم الدقيق الأثيل... فأصبحت خامدة الحس ضيقة النفس {كأن لم تكن بالأمس}.."**[4]، وقد اشتكى عمر الأكبر التنلاني التواتي خلو البلاد من العلماء فذكر أنّ: **"البلد شاغرة من العلماء"**، وذلك ما أدّى به إلى السفر إلى "المغرب" من أجل طلبه هناك[5].

---

(1) ينظر: الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 241/1.

(2) المصدر نفسه، 354/3.

(3) المصدر نفسه، 252/1.

(4) المعسكري، فتح الإله، ص108.

(5) ينظر: عمر الأكبر التنلاني، الرحلة إلى فاس، ص161.

كما تحدث ابن حمادوش عن وضع الطلبة في البوادي و المدن مقارنا بين الوضعين، فذكر أن طلبة البوادي علمهم أقل من دعوتهم، لأنهم لا يأخذون عن الشيوخ لذلك فهم متأخرون جدا عن طلبة الحواضر الذين يأخذون عن الشيوخ والإخوان[1].

كما أشارت بعض الرحلات المغربية إلى أوضاع الطلبة، منها ما أشار إليه التمقروتي إلى حال طلبة "الجزائر" من حبهم للدنيا والافتتان بمادياتها، وذلك في سياق حديثه عن مدينة "الجزائر" التي زارها أواخر القرن السادس عشر ميلادي، فقال: **"وطلبة العلم بها لا بأس بهم إلا أن حب الدنيا وإيثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيرا"**[2]، وفي ذات السياق ذكر الدرعي أنّه اكترى رجلا دليلا في الصحراء من أهل "فجيج" وهو طالب علم يحفظ القرآن، كما ذكر أنّ أهل "عين ماضي" كلهم طلبة علم يقرؤون "خليلا"، وفيهم مؤدب أطفال اسمه "سيدي عيسى بوعكاز"، وفي "الأغواط" أيضا يوجد مقرئ الأولاد وهو "سيدي عبد الكريم التواتي"، كما ذكر أيضا أن "أولاد سيدي طيفور بن عيسى" مساكين لا يطلبون إلا قراءة القرآن والدين[3]، وبالمقابل ذكر العياشي قلة العلم في "ورقلة" فقال: **"وما أظن أحدا منها يحسن بابا من أبواب أي علم.."**[4]، وهنا بدا حكم العياشي قاسيا نوعا ما، ينم عن نظرته الاستعلائية بعض الشيء، فلا يمكن لمدينة أن تخلو من العلماء في ذلك الوقت ولو النزر القليل.

كما جاء الحديث عن المدرسين أيضا في بعض الرحلات، إذ تحدث المعسكريعن وضع المدرسين الذين لم يكن لهم أجر محدد أو وضع منظم، فمما ذكر أنه لما كان يعلم أولاد الشيوخ يعطونه مقابل ذلك القمح والشعير والدراهم والسمن والزيت والكباش[5].

كما ورد ذكر بعض المدرسينفي أغلب الرحلات الجزائرية، فذكر المعسكري على سبيل المثال العديد من المدرسين ومن أشهرهم: "الشيخ مولاي علي بن سحنون" مدرس الفقه بـ"معسكر"، و"الشيخ العربي ابن نافلة" صاحب الأصول والفروع، و"الشيخ السيد الحاج"

---

(1) ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص143.

(2) التمقروتي، النفحة المسكية، ص139.

(3) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص129، 131، 721، 722.

(4) العياشي، الرحلة العياشية، 1 /118.

(5) المعسكري، فتح الإله، ص24.

ابن الأمير مفتي "الجزائر" وخطيبها والذي كان يدرّس "خليلا"[1]، وذكر المقري من بين المدرسين الشيخ "محمد بن علي أبهلول" بـ"تلمسان"، "سعيد قدورة"[2].

كما ورد ذكر أشهر المدرسين في الجزائر في بعض الرحلات المغربيةمنهم: "محمد بن سعيد قدورة الجزائري" الذي ذاع صيته في الأقطار، وقد ورد خبره بالتفصيل في رحلة ابن زاكور، هذا الأخير الذي أخذ عنه العلم لما زار الجزائر، ومما ذكر عنه في ذكره لأشياخه: "**ومنهم الإمام العلامة المفتي أبو عبد الله سيدي محمد بن الإمام الأكبر ذي الفضائل المشهورة أبي عثمان سيدي سعيد بن إبراهيم، عرف بقدورة..، شيخ الفقه والحديث..، فمحله من الجزائر محل السواد من الناظر..، فإليه يهرع عند اشتباه النوازل، ويفزع عند اشتداد الزلازل..، فلا يمتري في أنه يطاول أهل المشرق والمغرب، ويصير نظيره كعنقاء مغرب..، سمعت من إملائه في مجلسه الخطير جملة وافية من الجامع الصغير، وأبوابا من صحيح البخاري..**"[3].

من خلال ما ورد في الرحلات المغاربية فيما يخص وضعية التدريس في الجزائر نلاحظ هناك توافقا في الكثير من الأحيان خاصة فيما يتعلق بوضع الطلبة، مع وجود بعض التباين فيما يخص انعدام العلم في بعض المناطق من "الجزائر" في بعض الرحلات الجزائرية والمغربية.

ثانيا: أشهر الكتب التي تدرس في الجزائر

اهتمت بعض الرحلات المغاربية بالحديث عن الكتب التي كانت تدرس في مختلف العلوم خاصة علوم الشريعة، والسلوك، وبعض الكتب اللغوية والأدبية.

وقد جاء ما يترجم ذلك في بعض الرحلات الجزائرية، خاصة ماجاء في الباب الثاني من رحلة أبي راس والذي أسماه: "**في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي؛ شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة**"[4]، ومن خلال العنوان يمكننا اكتشاف العلوم التي تلقاها

---

(1) المعسكري، فتح الإله، ص42، 44، 92.

(2) المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص73، 140.

(3) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص69، 70.

(4) المعسكري، المصدر السابق، ص41.

المعسكري، والتي كانت تدرس في عصره، إذ كان أغلب المدرسين يعتمدون كتبا خاصة لتدريسها للطلبة.

ففي علوم القرآن حسب الرحلات الجزائرية، كان أشهرها: "منظومة ابن الجزري" في أحكام التجويد ، والتي ذكرها أبوراس في سياق حديثه عن شيوخه في القرآن الذين وصل عددهم إلى ثمانية[(1)]، و"الإتقان في علوم القرآن للسيوطي" في علوم القرآن، الذي ذكر ابن حمادوش أن ابن ميمون كان يسرده عليه[(2)].

وفي الرحلات المغربية ذكر ابن زاكور أن من الكتب التي تدرس في أحكام القرآن: "نظم ابن عاصم"[(3)].

وفي علم الحديث كان "صحيح البخاري" متداولا عند الجزائريين أكثر من غيره من كتب الحديث، وقد تحدث ابن حمادوش عن صحيح البخاري بالتفصيل، وطريقة سرده إلى ختمه بالجامع الكبير بـ"الجزائر"وذلك الكثير من المواضع من رحلته[(4)]، كما ذكر ابن هطال أن علماء "الأغواط" جاءوا إلى الباي عندما حاصرهم رافعين "صحيح البخاري" مستشفعين به[(5)]، وذلك لمكانته العظيمة عند الجزائريين، كما ذكر الورثلاني أنّ أهل "الخنقة" قرب "بسكرة" يهتمون بـ "مختصر البخاري لابن أبي جمرة"[(6)]، وذكر المعسكري أيضا أن بعض المدرسين بـ"الجزائر" وهو السيد الحاج محمد بن الشاهد كان يدرس "الموطأ"[(7)].

وفي الرحلات المغربية أشار ابن زاكور إلى تدريس "صحيح البخاري" في علم الحديث[(8)].

أما فيالفقه فكاد "مختصر خليل" يسيطر على مختلف الدراسات الفقهية المالكية في "الجزائر"، وقد ورد ذكره في مختلف الرحلات منها ماذكره المعسكري فيما يخص تدريسه

---

(1) ينظر: المعسكري، فتح الإله، ص24.

(2) ابن حمادوش، لسان المقال، ص216.

(3) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص47.

(4) ينظر: ابن حمادوش، المصدر السابق، ص122، 123، 125.

(5) ينظر: ابن هطال، رحلة الباي، ص51.

(6) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 252/1.

(7) المعسكري، المصدر السابق، ص96.

(8) ابن زاكور، المصدر السابق، ص47.

لـ"مصنف خليل"[1]، كما ذكره ابن حمادوش في سياق ذكره لمسألتان في "مختصر خليل" متعلقة بالربا[2]، كما ذكر عمر الأكبر التواتي أنه كان حال صغره مولعا بقراءة "الشيخ خليل"[3]، وأشار ابن حمادوش إلى تدريس "شرح جمع الجوامع في الأصول" بجامع "الجزائر" لـ"جلال الدين المحلي الشافعي المصري"[4]، وذكر ابن إدريس التنلاني أن الإباضية عندهم كتاب يسمى: "القسطاس" وهو الذي يتداولونه مثل "مختصر خليل" و"الرسالة" عند أهل السنة[5].

كما أشارت بعض الرحلات المغربية إلى كتب الفقه و الأصول التي تدرس في "الجزائر"، منها التي أشار إليها ابن زاكور منها: "مختصر خليل"، و"جمع الجوامع" في الأصول و"مختصر ابن الحاجب"[6]، وعن مختصر خليل أيضا ذكر الدرعي-كما سبقت الإشارة- أن أهل "عين ماضي" كلهم يقرءون "خليلا"[7].

وأما في "علم السلوك والعقائد"، فكان أشهرها "الحكم والتنوير لابن عطاء الله"، فقد ذكر المعسكري أن عددا من الأساتذة كانوا يدرسون التصوف في مجالسهم العلمية منهم "سعيد قدورة" الذي كان يدرس "الحكم والتنويرلابن عطاء الله"[8]، إضافة إلى "عقائد السنوسي" في "التوحيد" (علم الكلام) إذ كانت مؤلفاته (محمد بن يوسف السنوسي) هي المصدر المحلي لدراسة "علم الكلام" وتشتمل هذه المؤلفات: "العقيدة الصغرى" و"العقيدة الوسطى" و"العقيدة الكبرى"، وقد ارتكزت جهود المدرسين بالعقيدة الصغرى المسماة "أم البراهين"وهي "صغرى السنوسي"، وقد ذكر ابن حمادوش أنّه أخذ عقائد السنوسية وشروحها على خَلق كثير من المدرسين، منهم "الفيومي" و"سعيد قدورة"[9].

---

(1) ينظر: المعسكري، فتح الإله، ص20.

(2) ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص143.

(3) ينظر: عمر الأكبر التنلاني، الرحلة إلى فاس، ص161.

(4) ينظر: ابن حمادوش، المصدر السابق، ص156.

(5) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص240.

(6) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص47.

(7) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص130.

(8) المعسكري، المصدر السابق، ص73.

(9) ابن حمادوش، المصدر السابق، ص273، 274.

كما ذكر ابن زاكور أنّه درس في الجزائر "الحكم والتنوير لابن عطاء الله" في "التصوف"[1]، وذكر أيضا أن "عقائد السنوسي" أشهر ما كان يدرس في "علم الكلام"[2].
وأما في علم "المنطق" فكان أشهر كتاب يدرس "السلم المرونق للأخضري"، فقد كان هذا الكتاب مرجع علماء ومدرسي "الجزائر" في علم "المنطق"، فقد اشتغل عليه المدرسون بالشرح والتعليق والتدريس، ومنهم المعسكري الذي وضع عليه شرحا بعنوان: "القول المسلم في شرح السلم" وقال عنه: "**حذوت فيه حذو أهل المعقول الجهابيذ وأهل الميزان الأساتيذ**"[3].

وقد أشار ابن زاكور أيضا إلى أشهر الكتب في "المنطق" وهو: "مختصر الشيخ السنوسي"، و"الجمل للخونجي"، و"السلم المرونق للأخضري"[4]، وقد ذكره الزياني في سياق حديثه عن العلامة "الأخضري" الذي زار ضريحه بزاويته وأخبر بأنّه صاحب المنظومة في المنطق المسماة بـ"السلم المرونق"[5]، كما ذكره الدرعي في سياق حديثه عن مؤلفها فقال: "**وأشهر تآليفه المنظومة في المنطق المسماة السلم المرونق..**"[6].

أما فيما يخص "علوم اللغة"، ففي علم النحو كانت "ألفية ابن مالك" معروفة ومحفوظة عند الجزائريين من الكبير إلى الصغير، فقد ذكر عمر الأكبر التتلاني أنه كان في حال صغره مشتغلا بقراءة "ألفية بن مالك"[7]، كما ذكرها أبو راس حين تحدث عن تدريسه لها بعد أن سردها له بعض طلبته[8]، وفي "علم البيان" كانت تدرس "منظومة الأخضري" المسماة بـ"الجوهر المكنون"، وقد ورد ذكرها في رحلة المعسكري الذي استشهد بأبيات منها

(1) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص48.
(2) المصدر نفسه، ص47.
(3) المعسكري، فتح الإله، ص180.
(4) ابن زاكور، المصدر السابق، ص47.
(5) ينظر: الزياني، الترجمانة، ص150.
(6) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص135.
(7) عمر الأكبر التتلاني، الرحلة إلى فاس، ص161.
(8) المعسكري، المصدر السابق، ص24.

في رحلته[1]، كما ذكرها الورثلاني الذي نقل عن العياشي حديثه عن "بسكرة" وقبر "عبد الرحمن الأخضري"[2].

وفي الرحلات المغربية وردت الإشارة إلى الكتب التي كانت تدرس في علوم اللغة، إذ ذكر ابن زاكور من كتب علوم "اللغة" التي أخذها بـ"الجزائر": "الخزرجية" بشرحها لـ"الغرناطي" و"لامية ابن مالك" في الصرف، وفي البيان أشار إلى تدريس "تلخيص المفتاح"[3].

وأما في التاريخ فلم تهتم الرحلات الجزائرية كثيرا بذكر الكتب التي كانت تدرس فيه، فهو لم يكن من العلوم المرغوب فيها، ومع ذلك ذكر ابن حمادوش العديد من الكتب التي كان يقرأها لكنها لم تكن تدرس منها: "تاريخ الدول للملطي"، وفي المقابل ذكر الزياني في رحلته عدة مؤلفات تاريخية وجدها تدرس قرب "أبي مدين بالعباد" منها: تاريخ الإمام المؤرخ "أحمد بن يحيى البلاذري"، وتاريخ "سليمان بن اسحاق المطماطي"، وتاريخ "هاني بن يصدور القوصي"، وتاريخ "كهلان بن أبي لؤي الأوروبي في أنساب البربر وأيامهم في الجاهلية والإسلام"، وتاريخ "العقباني في دولة بني زيان"، وتاريخ "ابن مرزوق"، و"واسطة السلوك في سياسة الملوك" الذي ألفه "أبو حمو موسى الزياني" ملك "تلمسان" وغيرها[4].

كانت هذه أهم الكتب التي تدرس مع بعض الكتب الثانوية الأخرى التي لم يلتفت أغلب الرحالة إلى ذكرها.

الفرع الثالث: طرق التدريس في الجزائر

كان العلم في الجزائر يؤخذ بطريقتين: طريقة الإملاء، وطريقة الإجازة، وهذا ما أشارت إليه بعض الرحلات المغاربية المدروسة.

فقد صرح ابن حمادوش أن كل العلوم التي تلقاها كانت بالدرس إلا "الكيمياء" و"السيمياء" و"الموسيقى" فقد أخذها بالإجازة، وهذا يوضح طريقتي التدريس في ذلك العصر من إملاء وإجازة.

---

(1) المعسكري، فتح الإله، ص144.

(2) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 201/1.

(3) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص48.

(4) الزياني، الترجمانة، ص144.

أولا: طريقة الإملاء

ذكر ابن حمادوش طريقة الإملاء في سياق حديثه عن كيفية سرد "صحيح البخاري" في الجامع الكبير بـ"الجزائر"، ومما ذكر في هذا الشأن:"**في يوم السبت ثاني عشرة موافق ثامن شتنبر حضرت سرده صباحا، فقرأ مmليه سيدي محمد ابن سيدي الهادي فضائل الصحابة..، ومن الغد قرأ المملي المذكور منه إلى باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم..، وفي الغد غاب المملي المذكور وقرأ سيدي أحمد العمالي منه إلى غزوة الطائف..، وفي يوم السبت تاسع عشر الشهر المذكور موافق خامس عشر شتنبر قرأ سيدي أحمد العمالي وحده..، قدم المملي الفصيح سيدي محمد ابن سيدي الهادي فقرأ منه إلى سورة الجمعة، ومن الغد قرأ المملي المذكور وحده إلى نسيان القرآن..**"(1)، كما تحدث المعسكري عن إلقاء الدروس إملاء، ومن بين ما أشار إليه أنّه بلغ عدد الطلبة عنده أثناء إلقائه لدروس "الفقه" شفويا سبعمائة وثمانون طالبا (بمعسكر)، فكان يختم "المصنف" في العام ثماني مرات، ولما اتسعت حلقته جعل له كرسيا لإعانته على التدريس(2)، وذكر ابن حمادوش أيضا إلقاء دروس التفسير من عالم "المغرب" "الورززي" بجامع "الجزائر" حيث قال: "**وفي يوم الأربعاء..، كلف الطلبة الشيخ الورززي ليريهم كيف يبتدئ الناس التفسير، فاجتمعوا له ضحى بمسجد المدرسة، فأمر سيدي الحاج أحمد بن مسعود أن يملي عليه، فأملى: بسم الله الرحمان الرحيم..**"(3).

وفي الرحلات المغربية أيضا وردت الإشارة إلى التدريس عن طريقة الإملاء، حيث ذكر ابن زاكور في نص بعض الإجازات لبعض شيوخه وهو"عبد المؤمن" أنّه قال: "**أما صحيح البخاري فإني أرويه سماعا للكثير منه..**"(4).

ثانيا: طريقة الإجازة

فقد كان تلامذة العلم يلازمون شيوخهم لشهور أو لسنوات عدّة، مع انقياد تامّ لتلقي علوم الدين، ويجري احتفال كبير حين يكمل التلميذ الدراسة ويمنح الإجازة التي تمنحه حق

(1) ابن حمادوش، لسان المقال، ص122، 123.

(2) ينظر: المعسكري، فتح الإله، ص23- 26.

(3) المصدر نفسه، ص263.

(4) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص64.

التدريس[1]، ونص الإجازة يكاد يكون واحدا بحيث يبدأ الأستاذ المجيز بالحمد والصلاة والدعاء، ثم ينتقل إلى ذكر المحصل على الإجازة فيضيف ذكر مواهبه واجتهاده والمدة التي قضاها بجانبه والنتيجة في النهاية، وهي غزارة المعارف والإذن له بأن ينشرها وأن يروي عنه[2]، وهذا ما يوجد في الرحلات الجزائرية لكن دون تفصيل، حيث اهتم الرحالة بذكر إجازاتهم العلمية التي أخذوها عن علماء "الجزائر" أو التي منحوها لطلبتهم، وأسهبوا في ذكرها سواء التي أخذوها أوالتي منحوها، أمثال المعسكري، والورثلاني، وابن حمادوش والمقري، فمثلا ذكر المقري أنه أجاز أحد العلماء، وهو "ابن القاضي"[3].

وأمّا عن طريقة الإجازة العلمية في الرحلات المغربية،فتحدث عنها ابن زاكور في تكملة حديثه السابق عن صحيح البخاري فقال: **"فإني أرويه سماعا..، وإجازة لسائره عن جمع كثير.."**[4]، وقد اهتم أغلب الرحالة المغاربة بالحديث عن إجازاتهم العلمية التي أخذوها عن علماء "الجزائر" وأسهبوا في ذكرها، خاصة ابن زاكور الذي كانت جل أخبار رحلته الخاصة بـ"الجزائر" كلها حديث عن علمائها وإجازاتهم له منها: نص إجازته من طرف "الشيخ المانجلاتي"، وإجازته من طرف "الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري"، وكذلك ذكر نصوص إجازات لبعض العلماء لبعضهم، كإجازة "الشمبراملسي لمحمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري"[5]، كما أشار الدرعي إلى بعض الإجازات العلمية في سياق حديثه عن الخزانة التي وجدها في منطقة "فجيج" والتي بها إجازات لبعض العلماء[6]، والإشارات إلى الإجازات كثيرة وسيأتي الحديث عنها مع إعطاء نماذج عنها في عنصر لاحق.

(1) ينظر: مؤيد محمود ، أوضاع الجزائر خلال العهد العثماني، ص436، 437.
(2) بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص34.
(3) المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص77.
(4) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص64.
(5) المصدر نفسه، ص45، 55، 62.
(6) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص126.

إذا فالتدريس في "الجزائر" في العهد العثماني لم يكد يخرج عن طريقيتين رئيستين هما: الإملاء والإجازة، وذلك باتفاق الرحلات الجزائرية والمغربية التي تحدثت عن الموضوع أوأشارت إليه.

المطلب الثاني: أوضاع العلماء في الجزائر من خلال الرحلات المغاربية

وعلى غرار الحديث عن مختلف أوضاع التدريس والمدرسين في "الجزائر"، ورد الحديث أيضا عن العلماء في "الجزائر"وأوضاعهم المختلفة في بعض الرحلات المغاربية، وهو ما سنعرفه من خلال تقسيم هذا المطلب إلى ثلاثة فروع: الأول في أشهر العلماء في "الجزائر"، والثاني في مجالس العلماء، والفرع الثالث في هجرة العلماء.

الفرع الأول: أشهر العلماء في الجزائر

كانت "الجزائر" في العهد العثماني حافلة بالعلماء بالرغم من عدم اهتمام الحكومات العثمانية المتوالية بأمر العلم والعلماء عموما.

وقد اهتم أغلب الرحالة الجزائريين بذكر شيوخهم والعلماء الذين درسوا عليهم أو الذين التقوا بهم أثناء رحلاتهم، فكانت رحلاتهم مملوءة بذكر العلماء الأجلاء من مختلف مناطق "الجزائر"، فقد أورد المعسكري مجموعة كبيرة من علماء "الجزائر" من بينهم: "أحمد بن عمار"الذي وصفهبالعالم المشارك في أنواع العلوم الدارك، صاحب الرحلة الجمة الفوائد، حلوة الموائد، عذبة الموارد عالم "الجزائر" محطّ رحال المستفيد والزائر، و"محمد بن جدعون"، والسيد "علي الونيسي"، و"عبد القادر بن عبد الله المشرفي"، و"عبد الكريم محمد الفكون" عالم قسنطينة وكبيرها ومفتيها[1] وغيرهم، وذكر الورثلاني مجموعة من العلماء من بينهم الذين التقى بهم في رحلته داخل الصحراء من أفاضل "الزاب" ونجبائه كـ"الفقيه التتائي"، و"محمد الشريف" من "بني جلال"، والفقيه الأديب "سيدي عبد الباري"[2]، بالإضافة إلى بعض علماء قسنطينة كـ"الشيخ يحي اليعلاوي"، والشيخ "أحمد الزين" وهو نحوي لغوي فقيه، والمفتي قاضي الجماعة الشيخ "سيدي علي الشريف"، بالإضافة إلى الشيخ "بدر الدين ابن عبد الكريم الفكون"، وغيرهم كثير[3]، كما ذكر ابن حمادوش بعض علماء

---

(1) المعسكري، فتح الإله، ص91، 92، 98، 99.

(2) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 42/1، 43.

(3) المصدر نفسه، 363/3، 364.

الجزائر منهم: "ابن ميمون"، و"ابن عبد المؤمن"، و"سحنون الونشريسي"، و"أحمد الزروق البوني" وغيرهم[1]، وذكر المقري أيضا العديد من العلماء في الجزائر منهم:"سعيد قدورة"، و"محمد بن باديس القسنطيني"، والفقيه الأعمش وغيرهم[2]، والتقى ابن إدريس التنلاني بعلماء "مزاب" وجرت بينهم محاورات في عقائدهم الإباضية[3]، كما أشار ابن هطال إلى وجود علماء بـ"الأغواط" وقد أتو الباي رافعين البخاري مستشفعين به عنده[4].

كما اهتمتالرحلات المغربية بذكر بعض العلماء بـ"الجزائر" الذين درس عندهم الرحالة أو التقوا بهم أثناء رحلتهم، فكانت رحلاتهم مملوءة بذكر العلماء الأجلاء في مختلف مناطق الجزائر؛ فإبن زاكور ذكر نخبة من علماء "الجزائرالعاصمة" منهم: "أبي حفص عمر بن محمد المانجلاتي"، و"سعيد بن إبراهيم قدورة" السابق الذكر، و"محمد بن عبد المؤمن الحسني"، و"أبو عبد الله بن خليفة"[5] وغيرهم، كما ذكر الزياني في الترجمانة مجموعة من علماء "قسنطينة" أمثال العلامة الفقيه "أبي الحسن علي بن مسعود الونيسي"، والمفتي "أحمد بن المبارك العلمي"، وخطيب المسجد العتيق بقسنطينة "أبي البركات"، و"عمر الصائغي" و"أبو القاسم المحتالي"، وغيرهم[6]، وكذلك تحدث العياشي عن العلماء بالصحراء فذكر أن من طلبة "تقرت":"محمد بن عبد الكريم التواتي"، الذي قد شد طرفا من الفقه والنحو وله بعض الخبرة في علم العروض[7]، وذكر الدرعي أيضا مجموعة من فقهاء الصحراء فمن علماء "عين ماضي" ذكر: "أبو حفص"، و"محمد بن عيسى"، و"أحمد بن الدهصاء" وأبنائه، ومن فقهاء "الأغواط" ذكر: "محمد بن كسيمة"، و" أحمد بن إدريس"، و" محمد بن خليفة"، و" الحاج عبد الرحمن الفجيجي"[8].

(1) ابن حمادوش، لسان المقال، ص137، 138، 162، 238.

(2) ينظر: المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص73، 103، 212.

(3) ينظر: ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص239، 240.

(4) ينظر، ابن هطال، رحلة الباي، ص51.

(5) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص41، 48، 49، 71.

(6) الزياني، الترجمانة، ص153، 154.

(7) العياشي، الرحلة العياشية، 182/2.

(8) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص130، 132.

إضافة إلى الرحالة أنفسهم كأعلام ومشاهير في العلوم الشرعية، فإنهم أوردوا من جلّ العلماء ممن التقوا بهم وتأثروا بهم وشاركوهم العلوم أخذا وعطاء، ومحاورة، ونقاشا، ومناظرة، وتلقيا وإجازة، وذكرا لفضائلهم، ووصفا لأخلاقهم وشيمهم، وإبرازا لقدرهم ومكانتهم العلمية والروحية.

الفرع الثاني: مجالس العلماء في الجزائر

كانت المجالس العلمية تتواجد بكثرة في "الجزائر" في ذلك العهد على غرار مختلف البلدان الإسلامية، والتي كثيرا ما يلتقي بها العلماء خاصة في المساجد وتدور بينهم محادثات ومجادلات ومناظرات ومذاكرات علمية، سواء بين علماء "الجزائر" مع بعضهم، أو بين علماء "الجزائر" وعلماء زوار كعلماء "المغرب" و"تونس" و"مصر"...إلخ

وقد ورد الحديث عن المجالس العلمية وما يحدث فيها من مناظرات ومحاورات علمية بين العلماء في الكثير من الرحلات الجزائرية، خاصة رحلة المعسكري الذي خصّلهذه الأمور قسما من رحلته سماه "**في الأسئلة وما يتعلق بها**"، ومن بين ماجاء فيها أسئلة ومحاورات علمية تجري بينه وبين العلماء في "الجزائر"، ومن بين ماذكر أنه سئل بـ"قسنطينة" عن قول "الحسن بن زياد" لـ"أبي حنيفة": "**إني آكل الميتة، وأحب الفتنة، وأكره الحق، وأشهد بما لم أراه**" فأجاب أن: الميتة الجراد والسمك، والفتنة المال والولد، والحق الموت، والشهادة بما لم يره هو الله وحده، كما سئل يوما بمجلس علماء "الجزائر" بالجامع الأعظم المعتاد يوم الخميس(سنة 1214هـ) عن القهوة والدخان وعما يسف منه أويشم[1]، وسئل أيضا بمجلس العلماء بـ"الجزائر" عن لبس الحرير[2]، وقد أشار ابن حمادوش إلى بعض المناقشات والمحاورات العلمية التي كانت تدور بين العلماء في مجالسهم، ومنها مجالسه مع شيخه "ابن ميمون" في داره، حيث كانا يتداولان سرد الكتب التي درسوها وحفظوها على بعضهما، سواء في الأدب أوفي علوم القرآن والحديث[3].

كما ورد الحديث عن المجالس العلمية وما يحدث فيها من مناظرات ومحاورات علمية بين العلماء في الكثير من الرحلات المغربية، ومنها ما ذكر الزياني في قوله: "**ولما دخلت**

(1) ينظر: المعسكري، فتح الإله، ص159.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص91.

(3) ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص216.

مدينة تلمسان..، فكنت أقصد المسجد الجامع لعلي أجتمع برئيس..، وأبحث عن الأعيان والأعلام، وأهل المحابر والأقلام.."[1]، وكلامه هذا يدل على تفقد العلماء في المساجد قصد لقائهم، وذكر أيضا محاوراته مع جملة من العلماء في قوله:**"فلما أراد الله جلت قدرته، وتقدست أسماؤه وصفاته رجوعنا من الحرم الشريف، ودخولنا لثغر الجزائر الغني عن التعريف، وإقامتنا به..، كنت أجتمع مع أفراد من الأخيار، وجماعة من العلماء الأبرار، وأتفاوض معهم.."**[2]، وكان التفاوض بينهم في مختلف المواضيع، ومنها أوضاع البلد، وسيرة السلاطين، وقد ذكر العياشي بعض المناظرات العلمية، منها التي جرت بينه وبين أحد الإباضية في مسائل فقهية منها تعارض الأصل والغالب[3]، كما ذكر ابن الطيب الفاسي من المحاورات العلمية التي جرت بين علماء الركب المغربي وبعض فقهاء "الأغواط"، منهم السيد الفقيه "أبو زيد عبد الرحمن الفجيجي"، وابنه الفقيه السيد "إسماعيل"، إذ تناولوا معهم مسائل متنوعة من الفنون العلمية، وتناقشوا في سؤال فقهي يتضمن البحث عن رواية الاستتار في البول[4].

اتسمت أكثر مجالس الرحالة بالعلمية بصفتهم أهل دين وعلم، فكانت إما مناظرات أومحاورات، أو مناقشات، أو فتاوى في مسائل فقهية.

الفرع الثالث: هجرة العلماء من وإلى الجزائر

كان العلماء في "الجزائر" على غرار علماء البلدان الأخرى محبون للرحلة والترحال من أجل طلب العلوم في شتى بقاع العالم الإسلامي، فكانت هجرة العلماء رحلتان: الرحلة في طلب العلم الشرعي من منابعه الأصلية، والرحلة إلى بيت الله قصد الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم واغتنام فرصة الحج لطلب العلم أيضا في بلاد المشرق، وما يترجم هذه الظاهرة: رحلات هؤلاء العلماء أصحاب الرحلات أنفسهم، الذين كانوا يغتنمون رحلتهم إلى الحج لطلب العلم ولقاء علماء البلدان المارين بها وتحصيل الإجازات منهم في مختلف علوم العصر، وبهذا كانت رحلات علمية بامتياز، كرحلة المعسكري وعمر

---

[1] الزياني، الترجمانة، ص141.

[2] المصدر نفسه، ص375.

[3] العياشي، الرحلة العياشية، 117/1.

[4] الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص91.

الأكبر التنلاني، كما كانت رحلة ابن حمادوش إلى "المغرب" لنفس الغرض تقريبا إضافة إلى غرض التجارة، وكذلك كانت رحلة أبي راس إلى المشرق والمغرب من أجل الاستزادة في طلب العلم أساسا، حيث يقول المعسكريعند رحيله إلى "المغرب" مادحا مدينة "فاس": "**ورحلت إلى مدينة فاس محل العلم والإيناس...، وهي قبلة الإسلام والسلم والاستلام..، فهي أم القرى المغرب الوافرة**"[1]، ويقول عمر الأكبر: "**وتوجهت همّتي للسفر لسجلماسة، أو لمدينة فاس..، فثنيت عنان عزيمتي، وصرفت لذلك وجهتي..**"[2]، وإن كانت رحلة كل من الورثلاني والمقري من أجل الحج، فإنها لا تخلو من طلب العلم، وقد تحدث المعسكري أيضا عن رحيل العلماء من "الجزائر" مثل عالم "تلمسان""الشيخ أحمد بن الحاج المانوي" الذي سماه عالم المذاهب الأربعة، حين ذكر رحيله إلى "مصر" في طلب العلم الظاهر والباطن[3].

وإضافة إلى رحيل علماء "الجزائر" إلى بلدان أخرى، فقد كان علماء في "الجزائر" من مختلف البلدان كـ"المغرب" و"تونس" و"مصر"..، ومنهم العالم المغربي "الورززي" الذي ذكر ابن حمادوش أنّه كان بـ"الجزائر" يلقي دروس التفسير بمسجدها، وذكر أيضا العالم التونسي "محمد الشافعي" الذي كان بـ"الجزائر"[4]، كما ذكر ابن إدريس التنلاني وجود أحد علماء "المغرب" الذي يلقب بشيخ القراء بالجامع الكبير بـ"الجزائر" وهو الشيخ "عبد السلام الجبلي المغربي"[5]، وغيرهم كثير.

وما يترجم ظاهرة الهجرة عند العلماء سواء من "الجزائر" أو إليها، وصول رحلات هؤلاء العلماء المغاربة أصحاب الرحلات التي سجلت حياتهم العلمية وتجاربهم، فكانوا يغتنمون رحلتهم إلى الحج عن طريق "الجزائر" من أجل طلب العلم ولقاء علمائها وتحصيل الإجازات منهم، وبالإضافة إلى رحلة الحج كانت هناك رحلات مغربية علمية بامتياز

---

(1) المعسكري، فتح الإله، ص101.

(2) عمر الأكبر التنلاني، الرحلة إلى فاس، ص161.

(3) المعسكري، المصدر السابق، ص49.

(4) ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص134، 135، 263.

(5) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص251.

كرحلة ابن زاكور إلى "الجزائر" التي كانت من أجل حضور الدروس في مساجدها وتحصيل الإجازات من علمائها.

وقد وردت بعض الإشارات في بعض الرحلات المغربية إلى أن علماء أجلاء من بلدان أخرى يقيمون بـ"الجزائر" ويدرسون بها كما كان علماء الجزائر يهاجرون إلى مختلف البلدان الإسلامية ويقيمون بها، ويلقون الدروس في مساجدها، مثل الشيخ "الشريف محمد البليدي" (نسبة إلى البليدة)، الذي كان يلقي دروسا في "مختصر خليل" بالأزهر الشريف بـ"مصر"، حسب ما جاء في رحلة الحضيكي[1]، وذكر ابن زاكور أيضا أن شيخه بـ"الجزائر" وهو"عبد المؤمن الحسني" رحل إلى المشرق مرارا، والتقى بالعلماء وأخذ العلوم هناك[2]، كما ذكر الدرعي أن أحد طلبة "أبي سمغون" واسمه "محمد المختار" كان دائم الهجرة من أجل طلب العلم فقد: "**جال في البلدان، دخل تلمسان والجزائر...، وسكن بفاس خمسة أعوام، دخل مراكش وتردانت وتادلا**"[3].

ومن خلال ماجاء في الرحلات فيما يخص وضع العلماء بـ"الجزائر"، فإن نصوص أغلب الرحلات جزائرية كانت أو مغربية تدل على كثرة العلماء بها، وكثرة مجالسهم واشتغالهم بالتعليم والمناقشات والمناظرات بينهم، بالإضافة إلى كثرة ترحالهم وهجرانهم لبلدانهم من أجل العلم أخذا وعطاء.

المطلب الثالث: النتاج العلمي في الجزائر

إضافة إلى اهتمام الرحلات المغاربية بذكر أوضاع التعليم والعلماء في "الجزائر"، اهتمت بعض الرحلات أيضا بذكر النتاج العلمي فيها، وهو ما تناوله هذا المطلب الذي قسم إلى فرعين رئيسين: الفرع الأول في الحديث عن حركة التأليف والمؤلفين، والثاني في الحديث عن أهم العلوم المؤلف فيها.

الفرع الأول: حركة التأليف و المؤلفين في الجزائر

لم تغفل الرحلات المغاربية الحديث عن حركة التأليف في "الجزائر"، بما في ذلك أسماء بعض المؤلفين المشهورين في ذلك الوقت.

---

(1) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص183.

(2) ينظر: ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص50.

(3) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص129.

أولا: حركة التأليف

كانت حركة التأليف بـ"الجزائر"على العموم نشطة نوعا ما، وذلك في مختلف العلوم المتداولة خاصة الشرعية منها، لكن أغلبها كان عبارة عن شروح وحواشي وتقاييد وتعاليق على مؤلفات سابقة، فمثلاالمعسكري ذكر أن له قائمة طويلة من المؤلفات، وذكر أنه لا يسبقه في كثرة التأليف عدا السيوطي، كما كان لا يتحدث عن أحد العلماء إلا وصفه بأنّه صاحب التآليف العديدة والمفيدة، وكذلك ابن حمادوش ذكر العديد من المؤلفات خاصة تأليفه في العلوم العقلية كـ"الطب" و"الصيدلة"، بالإضافة إلى تأليفه في مختلف العلوم الشرعية كالفقه، وتأليفه في "علم البحر"، كما أشار المقري أيضا في رحلته إلى بعض تآليفه، وبالإضافة إلى ذكر الرحالة الجزائريين لمؤلفاتهم، فقد ذكروا العديد من مؤلفات العلماء المعاصرين لهم، مايعني أن حركة التأليف كانت نشطة، وسيأتي ذكر بعض المؤلفات لاحقا.

وحسب الرحلات المغربية كانت حركة التأليف نشطة لكن لم تكن بالقدر الكافي الذي يغطي جميع العلوم، إذ كانت منحصرة في العلوم الشرعية والصوفية، كما كانت عبارة عن حواشي وشروح على مؤلفات سابقة، وذلك يترجم التقليد والجمود وعدم التجديد في العلوم في ذلك الوقت، وهذا ما تثبته نصوص الرحلات المغربية، فقد ذكروا بعض الشروح في بعض العلوم الدينية كالفقه والمنطق..، كشرح "دلائل الخيرات للفجيجي" كما سيأتي[1]، وعدة شروح على "السلم المرونق للأخضري"[2]، وغيرها من الشروح.

ثانيا: أشهر المؤلفين في الجزائر

من أشهر المؤلفين في "الجزائر" في تلك الفترة، والذين ورد ذكرهم في بعض الرحلات نجد "عبد الكريم الفكون" عالم قسنطينة، و"ابن مريم"، و"أحمد البوني"، و"السعيد قدورة"، و"ابن ميمون"، و"محمد بن باديس القسنطيني"، وغيرهم، بالإضافة إلى الرحالة الجزائريين أنفسهم كـ"ابن حمادوش"، الذي كانت له تآليف في شتى علوم العصر، خاصة العلوم الشرعية كما زاد عن علماء عصره بتأليفه في العلوم العقلية، كالطب والحساب والفلك..، كما أن

---

(1) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص126.

(2) الزياني، الترجمانة، ص150.

"المعسكري" كان مؤلف العصر وحافظه، فيذكر أنه لم يسبقه في كثرة التأليف إلا السيوطي، ولا تقل شهرة "أحمد المقري" في التأليف فهو المشهور في التاريخ بمؤلفه الضخم "نفح الطيب" بالإضافة إلى تأليفه في الأدب والشعر..، وكذلك الورثلاني كان مؤلفا بارعا حيث ألف رحلته الهامة في التاريخ، بالإضافة إلى أحمد ابن عمار عالم الجزائر صاحب الرحلة المشهورة "نحلة اللبيب في الرحلة إلى الحبيب"، وكان بعضهم قد ألف كتبه في الجزائر وبعضهم ألفها وهو خارج الجزائر.

ومن أشهر المؤلفين الذين ورد ذكرهم في بعض الرحلات المغربية نجد "أحمد بن أبي بكر الشريف الفكوني الفجيجي" الذي ألف كتابين في الفقه، الأول تحت عنوان "شرح دلائل الخيرات"، والثاني "شرح تنبيه الأنام"[(1)]، وكذلك الشيخ "الشريف محمد البليدي" الذي له شرح كبير على مختصر خليل[(2)]، والفقيه "أحمد بن أبي بكر الشريف" من فجيج أيضا الذي له تأليف جمع فيه مناقب الخلفاء الأربعة[(3)].

اتسمت الجزائر كغيرها من بلدان المغرب الإسلامي بجملة من الأعلام المؤلفين، الذين اشتهرت كتبهم آنذاك كثرة وتنوعا، أشهرهم الرحالة أنفسهم أمثال المعسكري والمقري وابن عمار وابن حمادوش.

الفرع الثاني: أشهر العلوم المؤلف فيها

إنّ أغلب إنتاج الجزائر خلال العهد العثماني يكاد ينحصر في العلوم الشرعية والصوفية والمجالات الأدبية كما سبقت الإشارة –وسيؤجل الحديث عن الفنون الأدبية كفنون النثر والشعر إلى عنصر لاحق وأكتفي هنا بالحديث في علوم اللغة وهي علوم العصر التي كانت متداولة في ذلك الحين.

ولقد وردت عدّة نصوص وإشارات تخصّ العلوم المؤلف فيها في ذلك العصر في أغلب الرحلات الجزائرية، فعن التأليف في العلوم الشرعية بما فيها "علوم القرآن" و"الحديث" و"الفقه"، نجد أنّ التأليف في "علوم القرآن" كان نادرا جدا، وخاصة علم التفسير، ورغم قلة

(1) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص126.

(2) الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص183.

(3) العياشي، الرحلة العياشية، 550/2.

التأليف في هذا العلم، فقد ألف المعسكري في علوم القرآن كتابا بعنوان: "التيسير إلى علم التفسير"(1).

أما "علم الحديث" فيعتبر من أهم العلوم التي أنتج فيها الجزائريون في العهد العثماني، فقد اعتنوا به تدريسا وتأليفا ورواية وإجازة، فألفوا فيه التعاليق والشروح خاصة على "صحيح البخاري".

أما بالنسبة إلى "الإنتاج الفقهي" بما يشمله من "أصول" و"فرائض" و"فتاوى" فكان يرتكز على "الفقه المالكي" لأن معظم سكان "الجزائر" يتبعون هذاالمذهب، وكان أساس الانطلاق في التفكير الفقهي من "مختصر خليل" على الخصوص ثم "مختصر ابن الحاجب" و"الرسالة"(2)، وقد أشار المعسكري إلى أن علماء "الجزائر" وضعوا شروحا وتعاليقا على "مختصر خليل"، ومن بين ما ذكر:"ابن مرزوق الحفيد" الذي وضع شرحا على "المختصر"(3)، وذكر الورثلاني أن من علماء "الزاب" من ألّف على "المختصر" منها:"شرح المختصر للتتائي"، و"حاشية على المختصر" للشيخ "محمد الشريف" من "بني جلّال"(4)، كما ألّف ابن حمادوش كتابه "الدرر على المختصر"(5)، ومن الأمور الفقهية التي كانت موجودة ويكثر فيها التأليف: "النّوازل" و"الفرائض" و"الفتاوى"؛فذكر المعسكري بعض الفتاوى التي تتعلق بشرب القهوة والدخان، إذ شغلت قضية تناول الدخان بعض العلماء فأفتوا فيها ومن بين هؤلاء العلماء:"عبد الكريم الفكون القسنطيني" الذي ألف في هذا الصدد رسالته المسماة "محدد السنان في نحور إخوان الدخان"(6).

أما "علم التصوف" وما يتصل به من "علم الكلام" و"الأوراد" وغيرها؛ فقد كثرت العناية بدراسته والتأليف فيه، فذكر أبو راس أنّه ألف فيه: "الزهر الآكم في شرح الحكم"، أو "فتح الإله في التوصل إلى شرح حكم ابن عطاء الله"، كما ألّف أيضا "الحاوي لنبذ من التوحيد

(1) المعسكري، فتح الإله، ص179.
(2) ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 93/1.
(3) المعسكري، المصدر السابق، ص160.
(4) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 42/1.
(5) ابن حمادوش، لسان المقال، ص119.
(6) ينظر: المعسكري، المصدر السابق، ص161.

والتصوف والأولياء والفتاوي"، و"التشوف إلى علم التصوف"، و"كفاية المعتقد ونكاية المنتقد" على "شرح الكبرى للشيخ السنوسي"[1]، كما ذكر ابن حمادوش أنّه ألف في بعض "الأوراد الصوفية"، حيث أخذ دعوتي:"الفاتحة" و"اللطيف" وبعض أوراد أخرى وجمعها في تأليف[2].

أما عن "علم المنطق" فكان إنتاج الجزائريين فيه نادرا جدا، ورغم ذلك ظهرت فيه بعض المؤلفات، فقد اشتغل جلّ العلماء على "السلم المرونق للأخضري" بالشرح والتعليق، ومنهم أصحاب الرحلات أنفسهم، فذكر أبو راس أنّه ألّف في هذا الشأن: "القول المسلم في شرح السلم"[3]، وقد أشار الورثلاني إلى أهمية "علم الكلام" في إطار حديثه عن أهل بلدة "الخنقة"، الذين يعرفون بالعلم خاصّة:"النحو" و"الفقه" و"الحديث" لكنّه عاب عليهم عدم اهتمامهمبعلمي "الكلام" و"المنطق"(علم التوحيد)، ولما سألهم عن عدم اشتغالهم بهذا العلم أجابوه بأن الشمس لا تحتاج إلى دليل، كما أنّهم زعموا أن "ابن أبي جمرة" صاحب "مختصر البخاري" نهاهم عن الخوض فيه، وقد أجابهم الورثلاني بأنّ عدم الخوض في "علم التوحيد" لا يمكن شرعا، وهو من الحرمان[4].

وأمّا "علم التاريخ" فكانت العناية به ضعيفة نوعا ما في بداية العهد العثماني نظرا لسيطرة "التصوف"والاهتمام بطرقه على هذا العلم، ولم يعرف تطورا إلا في القرن الثاني عشر الهجري، حيث انكبّ العلماء على الإلمام بتراث الأولين والتأليف فيه، غير أن العمل في هذا العلم اقتصر على التواريخ المحلية والتراجم والرحلات[5]، ومن أبرز من كتب في التاريخ: الرحالة أحمد المقري الذي ألف "نفح الطيب"،و "أزهار الرياض"[6]، كما ألّف أبو راس عدة مؤلفات في التاريخ منها: "زهرة الشماريخ في علم التاريخ"، و"درء الشقاوة في حروب درقاوة"، و"غريب الأخبار عما كان بوهران والأندلس مع الكفار"[7]وغيرها، ومن

---

(1) المعسكري، فتح الإله، ص180.

(2) ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص266.

(3) المعسكري، المصدر السابق، ص180.

(4) ينظر: الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 252/1.

(5) دهبية بوشيبة، "العلم والعلماء في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة الحوار المتوسطي، ع 3،4، ص134.

(6) ينظر: المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص46. والمعسكري، المصدر السابق، ص160.

(7) المصدر نفسه، ص180، 181.

الحوادث الهامة في الجزائر التي ألف فيها العلماء: "فتح وهران" الذي حظي بعدة مؤلفات، فقد ذكر المعسكري أن "مصطفى بن عبد الله بن دحّو" ألّف في "فتح وهران" لكنه لم يذكر اسم الكتاب، كما ذكر أيضا أنّه ألف هو شخصيا كتابا بعنوان: "فتح وهران"[(1)].

وعن التأليف في "علوم اللغة" فقليل من العلماء الذين ألفوا في "علم اللغة" ومنهم أبو راس الذي ألف في اللغة كتابا أسماه: "ضياء القابوس على كتاب القاموس"، على عكس "النحو" الذي كثر الاهتمام به فقد خلّف الجزائريون فيه إنتاجا وافرا، وقد اشتهرت "زواوة" باعتبارها مدرسة هامة في علم "النحو"، وقد ألف أبو راس كعادته في "النحو" ما أسماه "النكت الوفية بشرح المكودي على الألفية"، و"عمدة الزهاد في إعراب كلا شيء وجئت بلا زاد"، و"نفي الخصاصة في إحصاء تراجم الخلاصة"، ووضع ابن حمادوش حاشية على "ألفية ابن مالك"، والتي أسماها "السانح في حواشي المتن والشارح على ألفية ابن مالك"[(2)].

وعن العلوم الطبيعية والتجريبية كـ"الطب" و"الفلك" و"الكيمياء" و"الرياضيات"..، فالتأليف فيها كاد ينعدم تماما لو لم نجد الحديث عنها في رحلة ابن حمادوش وذلك في سياق حديثه عن مؤلفاته وأعماله، فبالإضافة إلى اهتمامه بعلوم عصره من العلوم الشرعية واللغوية، له اهتمامات بالعلوم الطبيعية كـ"الصيدلة" و"الطب" و"الحساب" و"الفلك" وغيرها، فقد ألف في الطب كتابه "الجوهر المكنون في بحر القانون"[(3)]، وغيرها من الكتب ذكرناها في مؤلفاته، وما عدا مؤلفات ابن حمادوش في تلك العلوم لم أقف على أي مؤلفات أخرى في هذه الرحلات.

أما ما ورد في الرحلات المغربية فيما يخص أشهر العلوم المؤلف فيها في "الجزائر"، فقد نظم الزياني قصيدة أورد فيها أغلب تلك العلوم المشهورة في تلك الفترة، وذلك في سياق ذمّه لأحد قضاة المواريث بـ"تلمسان" وممّا قال فيها:

يا من تكبر فوق ما يناسبه ... وظنّ أنّ خدمته الشمس والقمر

ما أنت بالحكم الترضي حكومته ... ولا بمفت جليل يرشد البشر

---

(1) المعسكري، فتح الإله، ص72، 99.

(2) المصدر نفسه، ص180.

(3) ابن حمادوش، لسان المقال، ص160.

ولست أشهب في نشر العلوم ولا لديك نحو الخليل يجتني الثمر
ولا أحطت بمعقول العلوم ولا علم الكلام شربت ماءه النمر
ولا سموت إلى علم البديع ولا بسطت من هيئة مشكلها الوعر
ولا ركنت إلى علم البيان ولا تفسيرك البحر منه تخرج الدرر
ولا إليك انتهى القريض ولا علم العروض ولا هندست مستتر
ولا جمعت جذورا في الحساب ولا رصدت سير النجوم في الدجى سحر
ولا رتعت مروج الأدباء ولا عرفت في الدهر من مضى له خبر
ولا طفرت بعلم الكيمياء ولا سر الحروف لكي تستجلب البشر[1]

ومن هذه الأبيات تتضح أشهر العلوم المؤلف فيها في ذلك الزمن في مختلف البلدان الإسلامية من بينها "الجزائر"، ومن بين تلك العلوم حسب القصيدة: "علوم القرآن" كـ"التفسير"، و"علم التصوف" بما فيه "علم الكلام" و"التوحيد"، و"علم التاريخ"، و"علوم اللغة" من:"نحو" و"بيان" و"عروض"..، إضافة إلى بعض العلوم الطبيعية كـ"الطب"، و"الكيمياء" و"الحساب"، و"الفلك"، ورغم وجود كل هذه العلوم إلا أن التأليف فيها كان قليلا جدا عند علماء "الجزائر"، ما عدا بعض الشروح والتعاليق على بعض المؤلفات السابقة كما سبقت الإشارة.

وخلاصة الحالة العلمية في الجزائر من خلال الرحلات المغاربية، نجد اهتمام الرحلات الجزائرية وكذلك المغربية بالحديث عن أهم الأوضاع العلمية السائدة في الجزائر آنذاك، وبالأخص تركيزهم على ذكر العلماء، باعتبار أن أغلب الرحالة سواء الجزائريين أوالمغاربة علماء أجلاء يتوقون إلى لقاء العلماء في كل مكان يتواجدون فيه للأخذ عنهم وتبادل العلوم معهم والجلوس بين يديهم تلقيا للعلوم وطلبا للإجازة، في حين نلاحظ بعض التفاوت بين الرحلات الجزائرية والمغربية في ذكر بعض الأمور الأخرى خاصة فيما يتعلق بحركة التأليف أين يظهر لنا أن حركة التأليف نشطة ومزدهرة من خلال الرحلات الجزائرية، في حين يظهر العكس تماما في الرحلات المغربية؛ أي أن حركة التأليف في الجزائر كانت قليلة جدا لذلك لم يهتم الرحالة المغاربة بالحديث عنها إلا نادرا.

---

[1] الزياني، الترجمانة، ص143، 144.

المبحث الثاني: الحالة الدينية والفنية للجزائر في العهد العثماني من خلال الرحلات المغاربية

تضمّن هذا المبحث الحديث عن أهم الأوضاع الدينية والفنية في الجزائر في الفترة المدروسة، و ذلك في مطلبين: المطلب الأول خصّ الحالة الدينية، والمطلب الثاني تحدث عن الحالة الفنية، وذلك من خلال نصوص الرحلات المغاربية دائما.

المطلب الأول: الحالة الدينية

قسّم هذا المطلب حسب مادته العلمية إلى ثلاثة فروع: الأول في الحديث عن المذاهب الفقهية، والثاني في العبادات، والثالث في ظاهرة التصوف.

الفرع الأول: المذاهب الفقهية

كان معظم سكان "الجزائر"يتمذهبون بـ"مذهبالإمام مالك"، بالإضافة إلى "المذهب الحنفي" الذي دخل "الجزائر" منذ مجيء العثمانيين، إضافة إلى"المذهب الإباضي"، وقد ورد بعض الإشارات والنصوص عن هذه المذاهب الفقهية في بعض الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية وردت الإشارة إلى المذاهب السنّية الأربعة في رحلة المعسكري أثناء حديثه عن عالم تلمسان "الشيخ أحمد بن الحاج المانوي" الذي سماه "عالم المذاهب الأربعة"[1]، كما وردت الإشارة إلى "المذهب المالكي" في رحلة ابن إدريس التنلاني في عدّة مواضع حين تحدّث عن الخراب الكبير الذي لحق بـ"الجزائر" من جراء حملة "الإنجليز" عليها، ومن بين ماذكر: الجامع الكبير "للمالكية" الذي خُرّب حتى لم يبق إلا معالمه، كما ذكر أيضا من الذين التقى بهم بـ"الجزائر" القاضي المالكي، وذكر أيضا أنّ قرية "أمليكة" أحد قصور "غرداية" المزابية بريئة من الضلالة (الإباضية)، وأهلها يسمونهم المالكية[2]، كما صرح ابن حمادوش في بداية رحلته أنه مالكي المذهب حين عرف بنفسه قائلا: "**يقول عبد الرزاق بن محمد بن أحمد بن حمادوش الجزائري الدار والمنشأ، الأشعري عقيدة، المالكي مذهبا، الشريف نسبا**"[3]، فقد مذهب الإمام مالك في الفقه هو المذهب الأكثر شيوعا في الجزائر على غرار بلدان المغرب العربي الأخرى.

---

(1) ينظر: المعسكري، فتح الإله، ص49.

(2) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص240، 250، 251.

(3) ابن حمادوش، لسان المقال، ص29.

أما عن "المذهب الحنفي" فقد أشار إليه الورثلاني في سياق حديثه عن فضلاء "قسنطينة" وصلحائها، والذين كان من بينهم قاضي الحنفية "الشيخ عبد العزيز الرازي"[1].

كما ذكر عمر الأكبر التواتي سلسلة سنده في "الفقه المالكي" وهي طويلة، ومن نصه: "**سلسلتي في الفقه إلى الإمام مالك بن أنس...، أخذت الفقه عن الجماعة...، ومنهم العلامة المحقق الحافظ سيدي محمد القسمطيني..**"[2].

أما في الرحلات المغربية فلم يرد الحديث عن المذاهب الفقهية في "الجزائر" في الفترة العثمانية إلا نادرا، أين وردت بعض الإشارات الخفيفة إلى بعض المذاهب، ومن الإشارات الخاصة بمذاهب أهل السنة نجد: ما أورده التمقروتي في حديثه عن مدينة "الجزائر" التي كان فيها المسجد الجامع وإمامه "مالكي المذهب"، كما ذكر أن فيها ثلاث خطب أحدها للترك وإمامهم "حنفي المذهب"[3]، وذكر العياشي أيضا في رحلته التي شقت طريقها الصحراء الجزائرية أنّه يوجد بورقلة جامع المالكية الذي حضر فيه صلاة الجمعة[4]، أما الزياني فذكر "المذهب الحنفي" في سياق مدحه لـ"حسن باشا" داي "الجزائر" حين قال: "**وأجرى أحكامه على القانون الشرعي والمذهب الحنفي الموعي..**"[5]، كما ذكر الدرعي أنّ أهل "بسكرة" على مذهب أهل المدينة، وهو "المذهب المالكي"[6].

أما الحديث عن المذهب الإباضي فقد ورد أكثر من الحديث عن المذاهب الأخرى في بعض الرحلات الجزائرية وكذلك المغربية، وهو الخاص بأهل "مزاب" بالصحراء الجزائرية. فعن الرحلات الجزائرية وصف الأغواطي الميزابيين بأنّهم روافض ومعتزلة، حين ذكر أنّهم يختلفون في مسائل الدين عن العرب، ويرفضون تقديس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعارضون أهل السنة، ويتفقون في المذهب مع الوهابيين والفرس وسكان عمان ومسقط[7]، كما ذكر ابن إدريس التنلاني التواتي "مذهب الإباضية" عند "بني

---

[1] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 363/3.
[2] عمر الأكبر التنلاني، الرحلة إلى فاس، ص193.
[3] ينظر: التمقروتي، النفحة المسكية، ص129.
[4] العياشي، الرحلة العياشية، 46/1.
[5] الزياني، الترجمانة، ص376.
[6] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص144.
[7] ينظر: الأغواطي، الرحلة، ص90.

مزاب"ووصفهم بالضلالة والاعتزال، متمذهبين بالمذاهب الباطلة، ولا يعرفون شيئا من أصول المذاهب الأربعة ولا من فروعهم، ووضوؤهم مخالف لوضوء أهل السنة، وكذلك صلاتهم وأذانهم، وذكر بعض عقائدهممنها: أنهم لا يقيمون صلاة الجمعة لأنها لاتقام في مذهبهم إلا خلف إمام معصوم، وهم لا يجدون من يعتقدون بعصمته، وإمامهم الذي يعتقدونه ويتمذهبون به هو "أبو مصعب"[1].

كما وردت إشارة طفيفة إلى "المذهب الإباضي" في الرحلات المغربية، فقد أشار الزياني إلى وجود طائفة بـ"ورقلة" وصفهم بـ"الرافضة الإباضية"[2]، وذكرهم العياشي أيضا الذي صلّى معهم في مسجدهم (بورقلة) وكان يظنهم "مالكية" وإذا بهم "روافض إباضية" حسب قوله[3].

الملاحظ على الرحلات المغاربية عموما أنّها لم تهتم كثيرا بالحديث عن "المذاهب الفقهية" في "الجزائر" في تلك الفترة، بل اكتفت ببعض الإشارات إليها فقط، إلا فيما يخص "المذهب الإباضي" الذي جاء الحديث عنه مفصّلا نوعا ما في بعض الرحلات الجزائرية، وحديثها عن هذا المذهب يومئ إلى تملك النزعة التعصبية للمذاهب الأربعة، وهيمنة النظرة العدائية تجاه أصحاب "المذهب الإباضي" وما أكدّ ذلك ورود ألفاظ التضليل ولربما الشتم أحيانا، وتملك بعض النظرات التي تقصي هذا المذهب.

الفرع الثاني: العبادات

إن كانت الإشارات التي تخص المذاهب الفقهية في "الجزائر" قليلة في الرحلات المغاربية، فإن الحديث عن العبادات فيها كان رغم قلته هو الآخر أكثر من الأول.

إذ كان الجزائريون يقومون بأداء مختلف العبادات سواء المفروضة من: "صلاة" و"زكاة" و"صوم" و"حجّ"، أوالمستحبة منها: "قراءة القرآن"، و"قيام الليل" و"الصدقة" وغيرها، وهذا ما عرفتنا بهبعض الأخبار التي وردت في الرحلات المغاربية.

ولعل أكثر عبادة ورد الحديث عنها بكثرة في أغلب الرحلات "فريضة الحجّ"، إذ كانت "الجزائر" ممرّا للحجّاج ومنطلقا لهم، وخاصة حجّاج "المغرب".

---

[1] ينظر: ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص239، 240.

[2] المصدر نفسه، ص149.

[3] العياشي، الرحلة العياشية، 116/1.

فنجد الرحلات الجزائرية كرحلة الورثلاني وابن عمار والمقري، وغيرهم تحدثوا عن تفاصيل رحلاتهم الحجيّة، وقد أسهب الورثلاني في الحديث عن ذلك، إذ ابتدأ رحلته بالحديث عن الحجّ وتجهيزات الركب المتوجه إلى "الحجاز"، والذي يمرّ على مختلف المناطق الجزائرية من أجل انضمام الحجاج الراغبين في الذهاب لقضاء مناسك الحجّ الذي كان سنة (1179هـ/1766م)، ومن بين ماذكر التشاور في أمر السفر للحج بين الأعيان:"**اعلم أيها الأخ لما أراد الله المشي منا إلى الحج وقد سبق في علم الله أن يكون حجنا في عام تسعة وسبعين ومائة وألف (1179هـ/1766م)..، فلما كان ذات ليلة من الليالي إذ اجتمع سيدي أحمد مع أخينا أحمد بن حمود وسيدي مهنا..، فأخذوا في حديث الانتقال من الوطن فترقى بهم الكلام إلى التحدث على الحج سنة إذ..**"[1]، كما ذكر أيضا التأهب للسفر وإعلان ذلك في "الجزائر" مركز الإمارة التركية، فقال في هذا الشأن: "**أخذنا في التأهب إلى السفر والأخذ في أسبابه، واشتهر أمر سفرنا وبلغ أمره أطراف نواحي "عمالة الجزائر..، ثم وقع النداء في أسواق بلدنا فيمن عزم السفر..**"[2]، وغيرها من التحضيرات، كما تحدّث ابن عمار عن الحجّ والعمرة مركزا على ذكر الآيات والأحاديث الموجبة لأداء هذه الفريضة.

ولأنّ أغلب الرحلات المغربية المدروسة أيضا كانت رحلات حجية مقصدها بيت الله ومسجد الرسول الكريم، فإن الحديث عن الحج ومراكب الحجاج المارة بـ"الجزائر" قادمة من "المغرب" كان غالبا في هذه الرحلات، فنجد تلك الأخبار في رحلات كل من الزياني والعياشي والدرعي وابن الطيب الفاسي، إذ كان "ركب الحجاج المغربي" يمر على مناطق من "الجزائر" خاصّة الصحراوية منها، فينظم إليهم الحجّاج الجزائريون، ومن ذلك ما ذكر الدرعي في حديثه عن وصول الركب إلى "غريس" أنهم وجدوا رجلا من "الراشدية" مع ابنه قاصدين للحج ينتظرون "الركب المغربي" لينضمّوا إليه[3]، وذكر العياشي أيضا أنه لحق بهم جملة ممن يريد الحج من أهل "توات"، كما خرج معهم جملة من أهل بلاد "أوكرت" قاصدين الحج على طريق "وادي إمكيدن"، كما ذكر أن رجلا من الصالحين وهو "سيدي

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 38/1- 40.

(2) المصدر نفسه، 65/1.

(3) ينظر: الدرعي، الرحلة الناصرية، ص129.

أبو حفص" من "القليعة" كان مثابرا على أداء فريضة الحجّإذ أفنى عمره في التردد على الحرمين الشريفين، وربما رجع من الطريق قبل أن يصل، ولم يزل كذلك حتى توفي، وذكر كذلك أنه لحق بهم حجّاج من بلاد "تجوران"[(1)].

وإضافة إلى الحيث عن "فريضة الحجّ" وردت هناك بعض الإشارات إلى قيام الجزائريين بالفرائض الأخرى كـ"الصلاة" و"الصوم" و"الزكا"ة في بعض الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائريةذكر الأغواطي أن أهل "تيميمون" مسلمون صادقون يؤدّون "الصلاة" ويدفعون "الزكاة"، وسكان "توات" يصومون ويصلّون ويزكّون[(2)]، وذكر ابن إدريس التنلاني أنّ عرب "النوايل" هم أهل وضوء وصلاة وزكاة ورحمة[(3)].

كما وردت عدّة إشارات في بعض الرحلات المغربية تخصّ أداء الجزائريين لفريضة "الصلاة"، خاصة "صلاة الجماعة" في المساجد، فذكر العياشي أنّه التقى بـ"بسكرة" رجلا من أهل الخير "**منفردا في مسجد له بإزاء داره يلازم فيه الصلوات الخمس..**"[(4)]، كما ذكر أنّه صلّى مع أهل "ورقلة" يوم الجمعة في مسجد المالكية، كما صلّى أيضا مع جمع غفير من الإباضية في مسجدهم بـ"ورقلة" أيضا[(5)]، كما ذكر أيضا أداء صلاة العيد مع أهل "أبي سمعون"[(6)].

وبالإضافة إلى قيام الجزائريين بالعبادات المفروضة كانوا شديدي الحرص على أداء العبادات المستحبة وعلى رأسها: "قراءة القرآن" و "قيام الليل"، وذلك ما أثبته نصوص بعض الرحلات المغاربية.

فعن قراءة الجزائريين للقرآن ذكر الأغواطي أنّ أهل تيميمون مسلمون صادقون، فإضافة إلى تأديتهم الصلاة ودفعهم الزكاةفإنّهم يقرؤون "القرآن"، وكذلك سكان "توات"، إضافة إلى صومهم وصلاتهم وزكاتهم، فإنهم يقرؤون "القرآن" أيضا[(7)].

(1) العياشي، الرحلة العياشية، 107/1، 111.
(2) الأغواطي، الرحلة، ص93، 94.
(3) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص240.
(4) العياشي، المصدر السابق، 540/2.
(5) المصدر نفسه، 115/1، 116.
(6) المصدر نفسه، 549/2.
(7) الأغواطي، المصدر السابق، ص93، 94.

كما ذكر الزياني أنّه قد خُصّص في مسجد الباشا الجديد(كتشاوى) مكان لأصحاب "القراءات"[1]، وذكر الدرعي من الطلبة الذين يحفظون "القرآن" من أهل "الأغواط": "محمد المختار"[2].

أمّا عن قيام الليل والذكر عند الجزائريين فقد ذكر الورثلاني أن والدة أبيه وهي من الصالحات، كانت تقسم الليل أثلاثا، ثلث للصلاة وثلث للنوم وثلث للذكر[3]، وهي نموذج للصالحين من الجزائريين.

ولم تقتصر عبادات الجزائريين على أدائهم للفرائض والمستحبات، فقد التزموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أنهم يجتنبون المحرمات، وهذا ما ورد الحديث عنه أيضا في بعض الرحلات المغاربية.

فمن باب "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" كان إصلاح ذات البين عند الجزائريين أمرا معمولا به، فلمّا كانت الفتن الداخلية وعدم الأمن والاستقرار قد خيّم على مختلف المناطق في "الجزائر"، خاصّة الجبلية منها التي لم تدخل تحت حكم الأتراك في ذلك العهد، كان هناك مجموعة من الناس وخاصة العلماء منهم والصلاح يسعون لرفع الفساد والفتن بكل جهدهم من أجل الإصلاح بين السكان والقبائل المتناحرة فيما بينها، وعن محاولة الإصلاح هذه تحدث الورثلاني في رحلته باعتباره كان من المشاركين في هذه المبادرة الطيبة، وكان من أهل الخير الذين سافروا إلى تلك المناطق من أجل الإصلاح، إذ قامبذلك حين كان متنقلا مع ركب الحجاج في مختلف مناطق البلد، فذكر أنهم: انفصلوا عن ركب الحجاج من أجل زيارة بعض المسلمين المتحصنين بالجبال الرافضين لحكم الأتراك لقضاء حوائجهم والإصلاح بينهم إذ كثرت الفتنة واشتد القتال بينهم، ورأى بأن حالهم لن يصلح إلا بهمة الصالحين وأهل الخير[4].

أما عن اجتناب الجزائريين للمحرمات،فرغم ما ورد من قبل عن بعض الأخلاق السيئة الواردة في المجتمع الجزائري، كالسرقة وقطع الطريق، والرشوة لنيل المناصب وكسب

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص377.

(2) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص129.

(3) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 1/ 158.

(4) المصدر نفسه، 45/1، 46.

الوجاهة، فبالمقابل ورد الحديث عن بعض الأوصاف الدينية والخلقية الرفيعة التي تصطبغ بها بعض المناطق، منها المناطق الصحراوية، ومن ذلك ذكر الأغواطي في رحلته قيام أهل الصحراء بمختلف العبادات، فذكر أن "الميزابيين" مقتصدون جدا وهم لا يدخنون ولا يشربون الخمر[1]، كما أنهم لايسرقون، وذلك ماذكره عنهم ابن إدريس التنلاني عن الأمن والأمان والصدق والثقة، فلو كان للرجل ألف قنطار ذهبا وتركه في البلد – غرداية–، أو في أحد أزقّتها ما خاف عليه من السرقة أبدا، وإن سرق أحدهم يجتمع عليه أكابر البلد ويذبحونه أمام الملأ مهما كانت مكانته شريفا أو وضيعا[2]. وهذا ما يدل على سيادة القيم والأخلاق والصبغة الدينية في المجتمع الغرداوي.

وإضافة إلى قيام الجزائريين بالفرائض، والمستحبات اللازمة واجتنابهم للمحرمات، كانوا سباقين لفعل الخير، من الصدقة وإكرام الضيف وذلك أيضا ورد الحديث عنه في بعض الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية تحدث الورثلاني عن "الصدقة"، فجده كان من الذين يحبون التصدق وفعل الخير فقد كان يمتلك الزيتون، وأحد الشيوخ اسمه "حسن" ليس عنده، فجعل حظّا من الزيتون لهذا الشيخ، فكان يلتقطه ويعصره بنفسه ثم يعطيه للشيخ زيتا[3]، وعن إكرام الضيف تحدث ابن إدريس التنلاني عن كرم أهل غرداية، فذكر إقامته ببلدة "أمليكة" ثمانية أيام في عزّ ورفعة وأمان[4].

كما تحدثت الرحلات المغربية عن "فعل الخير" و"إكرام الضيف" عند الجزائريين، فذكر العياشي أن الرجل الصالح "أبو حفص" السابق الذكر كان: "**مثابرا عل فعل الخيرات..**"[5]، كما ذكر أيضا أن رجلا صالحا بزاوية بـ"قرى الدغامشة": "**من أهل الخير والدين يطعم الواردين عليه في بلاد كاد الطعام أن يكون فيه دواء..**"[6]، كما تحدثت

---

(1) الأغواطي، الرحلة، ص90.

(2) ينظر: ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص241.

(3) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 158/1.

(4) ابن إدريس التنلاني، المصدر السابق، ص241.

(5) العياشي، الرحلة العياشية، 111/1.

(6) المصدر نفسه، 80/1.

بعض الرحلات المغربية الأخرى أيضا عن اشتهار الجزائريين بإكرام الضيف خاصة أهل الصحراء، وقد كان إكرامهم للرحالة المغاربة خير شاهد على ذلك، فكانوا يستقبلون ركب الحجاج القادم من "المغرب" بالمبيت وإحضار ما لذّ وطاب من الأطعمة والأشربة، والفواكه، فمما ذكر ابن الطيب الفاسي أن أهل "الأغواط" أكرموهم: "**بأنواع التمر والخضر والفواكه..**"[1]، كما أسهب الدرعي أيضا في ذكر إكراميات أهل الصحراء للركب كما سبقت الإشارة في عنصر سابق، ومن بين ما ذكر أن أهل "خنق أم القرار الغربية" تلقوهم بالخوخ والباذنجان وشيء من القرع، وأهل "عين الصفراء" أتوهم بالعنب والسمن والزرع والدقيق والغنم[2]، وأهل الشلالات أضافوهم بالشياه والزرع والسمن[3]، ولم يقتصر الكرم على أهل الصحراء فقط بل تعداهم إلى أصحاب المناصب العليا كالباي، فقد ذكر الزياني إكرام "باي وهران محمد الكبير" له، حين أمر هذا الباي كاتبه أن يكتب كتابا للقائد "مصطفى" بـ"تلمسان" ليستوصي بالزياني خيرا وينزله بدار هناك ويكرمه، ولما بلغ الكتاب إلى القائد المذكور أنزله في غرفة في داره، وأضافه ثلاثة أيام ثم اكترى له دارا[4].

من خلال النصوص الرحلية السابقة التي تتحدث عن قيام الجزائريين بمختلف العبادات، تظهر عناية بعض الرحلات بالحديث عن فريضة الحجّ أكثر من تركيزها على العبادات الأخرى، وذلك فرضته طبيعة تلك الرحلات باعتبارها حجية، ورغم قلة النصوص الواردة في الحديث عن مختلف العبادات الأخرى سواء المفروضة منها أو المستحبة، إلا أنها كانت دليلا واضحا على تعظيم الجزائريين للدين الإسلامي من خلال قيامهم بأداء العبادات، واجتنابهم للمحرمات، وتنافسهم في فعل الخيرات.

الفرع الثالث: ظاهرة التصوف

بالإضافة إلى الحديث عن المذاهب الفقهية والعبادات في الرحلات المغاربية، اهتمت هذه الرحلات بالحديث عن ظاهرة التصوف، فكان حديثها مفصلا أكثر من

---

(1) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص92.

(2) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص127.

(3) المصدر نفسه، ص129.

(4) الزياني، الترجمانة، ص141.

العنصرين السابقين، وقبل الحديث عن التصوف في الرحلات الجزائرية، من الأجدر أن أتحدث عن التصوف عموما.

كانت حركة التصوف في "الجزائر" خلال العهد العثماني امتدادا لحركة التصوف التي كانت قبلها، إذ أن معظم كبار الصوفية ومؤسسي طرقها في التاريخ الإسلامي قد ظهروا قبل القرن (10هـ، 16م)، أي قبل قدوم العثمانيين إلى "الجزائر"، لكن الملفت للانتباه أن حالة التصوف في "الجزائر" في العهد العثماني كانت منتشرة بكثرة،إذ سيطرت على مختلف النواحي خاصة الحياة الثقافية، وقد شاع التصوف بين العلماء والفقهاء، والعامّة من الناس حتى أصبح أحياناعبارة عن دروشة، وقد تناول"**أبو القاسم سعد الله**" ظاهر التصوف وما فيها من إنحرافات، فلجأ إلى نصب شروط أساسية حتى يكون التصوف سليما ذا صبغة دينية منها: معرفة الكتاب والسنة معرفة دقيقة والعلم بهما، والجمع بين العلم والعمل، والسعي إلى معرفة الله حق المعرفة عن طريق التأمل والنظر والتفكير في مخلوقاته، بالإضافة إلى التقوى والورع، والتجرد عن هوى النفس وحب الدنيا، والابتعاد عن مغريات السياسة والسلطة، وعدم التعاون مع الظلمة والمتجبرين[1]، وقليل من المتصوفين الجزائريين في العهد العثماني من توفرت فيهم شروط التصوف الحقيقي، فأغلبهم كانوا متصوفة يدعون العلم والولاية لغرض من الأغراض، وقد ساعدتهم الظروف السياسية والاقتصادية للبلاد على الظهور واستغلال العامة، إذ اهتم بعضهم بعلوم الباطن فقط فانحرفوا عن جادة الطريق الحقيقي للتصوف، وتحولوا من العلم إلى الخرافة ومن الولاية إلى الشعوذة، وبذلك انتشرت المرابطية والسحر والتخلف العقلي والعلمي عند هذه الفئة من الناس[2].

وقد باتت مظاهر التصوف في "الجزائر" في الفترة العثمانية ظاهرة واضحة في أغلب الرحلات المغاربية المدروسة سواء تصوف الرحالة أنفسهم، أو حديثهم عن الظاهرة وكل ما يتعلق بها من أمور، منها الحديث عن الطرق الصوفية، وكبار المتصوفين والزهاد

---

(1) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 481/1، 482.

(2) ينظر: المرجع نفسه، 482/1.

والأولياء، وكذا الحديث عن زيارة الأضرحة والتبرك بها، وغيرها من الأمور الصوفية كما سنرى.

أولا: الطرق الصوفية

فعن الطرق الصوفية وردت الإشارة إلى ذلك في الرحلات الجزائرية فيما ذكره المعسكري الذي أشار إلى وجود الطريقة الناصرية التي ينتسب إليها التي أسّسها أجداده من قبل، وذلك في سياق حديثه عن المجالس السبعة التي تواترت عن أجداه في هذه الطريقة والتي تقام في مدرسة جدّه الذي قال عنه: "**وقد سمعت من تواتر الثقات أن لنا بها في الماضي سبعة مجالس وأول من أنشأ ذلك جدنا هذا، وهو القطب الظاهر..، شيخ الطريقة السيد الناصر..**"[1].

كما ذكر عمر الأكبر سنده في طريقته الصوفية في قوله: "**وأما سلسلتنا في الطريق وهي سلسلة الأنوار، فأقول: أخذنا طريقتنا هذه عن الشيخ الصالح العارف بالله تعالى سيدي محمد بن عبد الرحمن بن أبي زيان القندسي..، عن قطب المغرب: سيي محمد بن ناصر الدرعي..، عن أبي العباس سيدي أحمد زروق..، عن سيدي الحسن البصري عن مولانا علي بن أبي طالب، عن قطب الوجود..، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم..**"[2].

كما وردت بعض الإشارات إلى انتشار التصوف المنحرف والدروشة، وفي هذا السياق تحدثأبو راس عن أحد الأشياخ الذين استغلوا العامة من الناس من أجل تحصيل الأموال الطائلة، وهو الشيخ "محمد أبي طالب البلداوي" الذي: "**كان يدعي إشارات غيب، حيث كان يعمل أسواقا حافلة بإجابة ما يقول على زعمه كافة، ويعدهم بالدعاء في ذكره والفريضة والنافلة، فكل يدفع مالا للظفر بما أراد، حتى يجمع بذلك مالا وفيا..**"[3].

كماتحدث الورثلاني عن انتشار الدروشة عند المتصوفة والزهاد، في حديثه عن حالة بعض الأولياء والصلحاء بـ"قسنطينة"وهو"أبي القاسم الزواوي" الذي كان في أغلب أوقاته في حالة يرثى لها من الأوساخ والرائحة الكريهة بالإضافة إلى أنه لا يتحرك من مكانه

---

(1) المعسكري، فتح الإله، ص27.

(2) عمر الأكبر التتلاني، الرحلة إلى فاس، ص198، 201.

(3) المعسكري، المصدر السابق، ص46.

ويقتات على صدقات المحسنين وأهل الخير، ورغم ذلك فهو من الأولياء الصالحين، فقد قال عنه الورثلاني أنه: "**من الصالحين وحكايته مشهورة معلومة مع أهل الخير من رجال الغيب إليه.،. وكان هذا الجالس في الباب خارجا في الرحبة منبوذا مطروحا يجتمع عليه الذباب من كثرة الأوساخ، فمن رآه ربما تغير قلبه مما فيه من الأوساخ ونتن الرائحة، وهو لا يتحرك من موضعه، ينتظر ما يجري عليه من النفقة والصدقة من المحسنين من أهل الخير..**"[(1)].

ومن بين الإشارات إلى الطرق الصوفية وانتشار ظاهرة الدروشة والتصوف المنحرف في الرحلات المغربية: ما ذكره الزياني عن ظهور "الطريقة التيجينية" بـ"تلمسان" زمن باي الغرب "محمد ابن عثمان"، إذ ظهر رجل ينسب للطلب وكان يتعلق بأهل البدعة والبطالة الذين يدبرون الفضة ويدلونها، واشتهر أمره بـ"تلمسان" حتى سجنه الباي ونفاه منها، فذهب إلى "بوسمغون" بالصحراء، فاجتمع عليه أوباش من العامة الجهلة وصاروا أتباعا له، وبعدما عظم صيته وكثر فساده، وبلغ خبره لباي وهران كتب إلى أهل "بوسمغون" بأن يطردوه ففرّ إلى "المغرب"[(2)].

ثانيا: الأضرحة والمزارات

نتيجة لانتشار التصوف ظهرت هناك عدّة أضرحة ومزارات في "الجزائر"، وقد ورد ذكر قبور وأضرحة الأولياء الصالحين في أغلب الرحلات المغاربية.

ففي الرحلات الجزائرية ذكرت الكثير من القبور والأضرحة والمزارات من أشرها: "**قبر النبي سيدي خالد**"*، وقد جاء الحديث عن هذاالقبر في رحلة الورثلاني الذي ذكر أنّه زاره مع الجمّ الغفير والجمع الكثير الذي فيه من الأفاضل ما لا يحصى، وذلك في رحلته المتجهة إلى الحجّ مع ركب الحجاج ونص حديثه في هذا: "**كنا تواعدنا.. على السفر، وذلك عام مشينا لزيارة النبي سيدي خالد عليه السلام، وقد شهر غير واحد من المتأخرين رسالته بجبل الرس الملقب الآن "أوراس"، وكانت معجزته نارا، وكانت رسالته**

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 367/3.

(2) ينظر: الزياني، الترجمانة، 460، 461.

*سيدي خالد: تقع في جنوب غرب "بسكرة" تنتمي إلى واحات "**الزيبان**" يعود أصل تسميتها إلى "**خالد بن سنان العبسي**"، وهو نبي على حد قول الكثيرين.

قبل رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بمدة قريبة إلا أن رسالته صلى الله عليه وسلم نسخت جميع الرسائل والشرائع إلا ما بقي عن كونه لم ينسخ، والذي شهر رسالته صاحب التآليف المشهورة والتصانيف المذكورة المنتفع بها غربا وشرقا جوفا وقبلة..، سيدي عبد الرحمن الأخضري نفعنا الله ببركاته وأفاض علينا من بحر أنواره رضي الله عنه وإنا سمعنا أنه هو الذي أظهر قبره بعلم التربيع وهو مقام عظيم والوفود تأتيه من المشرق والمغرب للزيارة"[1]، وهذا الكلام أخذه الورثلاني عن الدرعي المغربي الذي اقتبسه هو الآخر عن العياشي، ومن أشهر الأضرحة المشهورة أيضا"ضريح عبد الرحمن الثعالبي" الذي ذكره ابن إدريس التنلاني في سياق حديثه عن خراب مدينة "الجزائر" جراء الحملة الإنجليزية عليها سنة 1818م، فمن آثار تلك الحملة أن تهدمت روضة ضريح الولي "عبد الرحمن الثعالبي"، وقد ذكر ذلك في نص قوله: **"وهدّم عدّو الله شيئا من قبة روضة العلامة الفقيه الإمام..، سيدي عبد الرحمن الثعالبي.."**[2]، ومن أشهر القبور أيضا "قبر أبي مدين الغوث" بمدينة "العباد" بـ"تلمسان"، وقد وردت قصته في رحلة الورثلاني، عندما تحدث عن زيارته لخلوته في بجاية، وذكر قصّة سفره نحو "المغرب" ووفاته بـ"العباد" وذلك في نص حديثه: **"زرت خلوة الشيخ سيدي أبي مدين الغوث، وقد زرت قبره في العباد في تلمسان أرض الجدار..، وأبو مدين كان في القرن (6هـ/ 11م) في بجاية حتى سعى به بعض الشياطين من الحساد إلى أمير مراكش، فبعث إليه، فلما سمع أهل بجاية عزّ أمره عليهم وأرادوا الخروج على طاعتهقال خليفة بجاية: لا تذهب فإني أخرج عن طاعته من أجلك، فقال أذهب والله، غير أن الناس لا يروني ولا أراهم، وذهب فلما قرب تلمسان، أشار بموته، فقال: احملوني على بغلة فالموضع الذي تبرك فيه فذلك قبري، فبركت في العباد، ودفن فيه، فصار رحمة لأهل تلمسان ومن زاره.."**[3]، كماجاء في رحلة المعسكري الحديث عن الكثير من القبور

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 41/1.

(2) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص253.

(3) الورثلاني، المصدر السابق، 73/1.

والمزارات، منها قبر "عبد القادر التوجاني" بجبل "التوميات" حيث ذكر أنّ: **"مشهده وأولاده من أبرك المزارات تتلمس عنده البركات وهو جدير بقبول الدعوات"**[1].

كما أشارت الرحلات المغربية إلى وجود الأضرحة والمزارات والتبرك بها، فذكر العياشي وجود المزارات بصحراء "الجزائر" منها مصلى "السيد الحاج أبي حفص" قرب "القليعة"، وذكر أن بـ"نفزاوة" زاوية يقال لها "جمنة" وبها قبر رجل من الصالحين يقال له "سيدي حامد الجمني"، كما ذكر أيضا زاوية "سيدي أحمد بن موسى"[2]، وذكر الزياني زاوية وضريح العلامة "سيدي عبد الرحمن الأخضري"، وتحدث أيضا عن "قبر نبي الله خالد بن سنان العبسي" المشهور بتلك البلاد وهو من المزارات العظام يقصده أهل "الواسطة" و"الزاب" و"إفريقية" من الحاضر والبادي وعليه مسجد عظيم ومدرسة[3]، كما أشار الحضيكي إلى بعض قبور الأولياء التي أصبحت من المزارات العظام منها: قبر "عبد الرحمن الأخضري"، الذي ذكره في سياق حديثه عن بلاد "الزاب" فذكر أن بها: **"قبر خلوة الشيخ العلامة سيدي عبد الرحمن الأخضري.."**[4]، وذكر ابن الطيب أيضا قبر"سيدي عقبة"[5]، كما تحدث المكناسي عن وجود ضريح الولي الصالح "سيدي أبي مدين الغوث بتلمسان"، وقبر الولي الصالح "سيدي محمد السنوسي"[6]، وذكر الدرعي مقام "سيدي عطاء الله" بـ"الهزة" قرب "الأغواط"[7]، وذكر التمقروتي عند دخوله "بجاية" قصة الولي الصالح "أبي مدين الغوث" وقبره بالعباد أيضا[8].

وعن زيارات الأولياء والتبرك بهم ذكر العياشي زيارته لقبر **"الولي الصالح المتبرك به حيا وميتا سيدي محمد بن صالح المعروف بـ"عريان الرأس" تلميذ الولي الصالح المشهور**

---

[1] المعسكري، فتح الإله، ص19.

[2] ينظر: العياشي، الرحلة العياشية، 78/1، 112، 126.

[3] الزياني، الترجمانة، ص150.

[4] الحضيكي، الرحلة الحجازية، ص85.

[5] الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص101.

[6] المكناسي، الإحراز، ص131.

[7] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص722.

[8] التمقروتي، النفحة المسكية، ص32.

سيدي أبي الروابن"[1]، وذلك عند دخوله إلى إقليم "توات"، وعن زيارة القبور أيضا ذكر الحضيكي في سياق حديثه عن منطقة "سيدي عقبة" قال: **"قبره هناك يزار في قرية كبيرة ذات مياه وأشجار.."**[2]، وذكر في ذات السياق أيضا أن بلاد فقيق **(فجيج)** بصحراء "الجزائر" فيها قباب شيوخ يزورونهم للبركة، كما ذكر أيضا قبر الولي الصالح "بوسمغون" الذي سميت تلك البلاد باسمه وهناك قبره يزار، كما يوجد في قرية "النخيلة" مسجد معظم ومحترم، يرتحل إلى زيارته الناس من بلاد بعيدة، كان مأوى الصالحين ومجمع الأولياء، وذكر أيضا قبر نبي الله "سيدي خالد بن سنان"، وذكر الدرعي أيضا وجود "قبر سيدي عقبة" بالبسيط الذي تحت جبل "أوراس" وهو مشهور يزار، وعليه مسجد عجيب[3].

مما سبق اتّضح لنا مقام الأولياء الصالحين ومكانتهم في قلوب العلماء، ممّا جعل قبورهم وأضرحتهم تحيا على إثر زيارتهم لها ذكر أسمائهم وكراماتهم، تبركا بهم والتماسا للخير منهم، وتوسلا بهم. لذلك وردت الكثير من ذكر الأضرحة والقبور والأسماء وذكر الزيارات لها في الرحلات.

ثالثا: كرامات وخوارق الأولياء

أما عن الكرامات فورد ذكرها في الكثير من الرحلات المغاربية لغلبة الطابع الصوفي على أسلوبهم وحياتهم بصفة عامة.

ومن بين الرحالة الذين اهتموا بهذا الجانب من ذكر للأولياء الصالحين و كراماتهم في الرحلات الجزائرية: المعسكري والورثلاني، فأورد الورثلاني الكثير من كرامات الأولياء وخوارقهم، حين كان يزور القبور أينما حلّ وارتحل ويصلي حولها ولا يكاد يسمع بصالح حقيقة أو خرافة إلا زاره وأخذ البركات منه[4]، ففي طريقه إلى الحجّ مع ركب الحجاج ذكر الكثير عن كرامات الأولياء منها حديثه عن كرامات الولي الكبير :"سيدي أحمد بن مزيان" الذي قال أنّ له كرامات مشهورة[5]، ومن الكرامات التي ذكرها كرامات للشيخ "العيدلي":

---

(1) العياشي، الرحلة العياشية، 79/1.

(2) الحضيكي، المصدر السابق، 83-85.

(3) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص157.

(4) ينظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1/ 478.

(5) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 63/1.

"أنـه لمـا بنـى مسجده المعلوم اختلفوا فـي القبلـة فلمـا اختلفوا فيهـا قـال الشيخ "سيدي يحيـى" لجبـل فـوق قريتـه انخفـض، فـانخفض فتبينـت لـه الكعبـة، ورآهـا كـل مـن كـان هناك.."[1]، ومن الكرامات التي أوردها المعسكري عن الأولياء حديثه عن مولده أنّه قال: **"ولما ولدت بالموضع المار حملتني أمي ووالدي إلى الشيخ الصالح الولي الذي كاد أن يكون كالجلي شيخ بعض شيوخي الشيخ علي بن موسى اللبوخي أحد صلحاء أرض اليعقوبية فبارك علي وأخبر بغيب خوارق وعادات تكون لي مودات...علم وعمل وصلاح وغنـى وحفظ وإصلاح وشيخ طلبة ولفيف ودرس وخطابة وقضاء وتصنيف فكان كما قال في إشارته الغيبية ومقالاته...الصيبة قال تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ قال العلماء: أو ولـي، قال أهل الطريقة مثل العارف بالله "ابن العباد" الذي فضله كالصباح باد وذلك مثل السلطان إذا بعث إلى وزيره ليطلعه على أمر، فلا بد أن يذهب مع الوزير بعض حشمه، فالسلطان هو الله والوزير رسوله وحشمـه الأوليـاء"**[2]، وكذلك ذكر كرامات أحد شيوخه في سياق حديثه عن نسبه فمن أجداده: **"ولـي الله "سيدي عبد العظيم عظيم" الكرامات وخوارق العادات في أهل الوبر والمدر والأمصار التي لا تنسخ بسالف الأعصار، وقد شاع وذاع ما يثلج الصدور وامتلأت منه الأسماع: أن من أتى عند ضريحه نهارا أو سحرا أو عشاء رزقه الله ما يتغذى أو يتعشى"**، وقد ذكر من بعض كرامات هذا الولي الصالح في قوله: **" فمن ذلك ما أخبرني به ثقة عن أبيه _ وكان من الصالحين_ أنه ابتدأ عند ضريحه دلائل الخيرات فلما انتهى إلى نصفه أراد الذهاب فنودي "أرنو" أي: فزد، فشرع في القراءة حتى كمله، وقد أظلم الليل، فبات ثمة فدخلت عليه أرنب عظيمة فأخذها وذبحها وأورى نارا وشواها"**، كما ذكر أيضا عن هذا الولي: **"ومن ذلك أن زائرين باتا عنده وهما في غاية الجوع فقالا: يا سيد الأولياء يا عشّاي أضيافه بلغ منا الجوع غايته، وناما فإذا هما بعيد وبيده إناء مملوءة طعاما وإناء ماء فأكلا حتى شبعا ورقدا ووضعا ما فضل**

---

[1] الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 49/1.

[2] المعسكري، فتح الإله، ص19.

عليهما عند رأسيهما، ولما أصبحا لم يجدا شيئا..."[1]، كما ذكر ابن إدريس التتلاني من كرامات أحد الصلحاء بمدينة "الجزائر" الذي استشهد أثناء حملة "الإنجليز" عليها، أنه لما وضعوه في قبره قهقه قهقهة كبيرة حتى فرّ من على القبر، فهنأه شيخ الجامع بالشهادة، فمدّ له إصبعه السبابة[2].

كما ورد الحديث عن الكرامات بكثرة في الرحلات المغربية لغلبة الطابع الصوفي أيضا على أسلوبهم وحياتهم بصفة عامة، فذكر العياشي لما نزل بقرى "**الدغامشة**" قرب زاوية "سيدي عبد الله ابن طمطم" أنّ: "**الأخبار تواترت عن هذا السيد، أنه من أهل الخير والصلاح تؤثر عنه كرامات كثيرة**"[3]، كما ذكر الدرعي قبة الولي الصالح "سيدي حسن الكوفي" الذي يزعم أهل تلك النواحيأنه طار من الكوفة وهو في مكان يسمى "الحقف" قرب "سيدي عقبة"، ومن كراماته أن أهل المنطقة شكوا إليه بأن واديهم لا يجري، فطلب منهم أن يجروه فيه فكان الوادي بعد ذلك يجري دائما[4].

اهتمت الرحلات المغاربية اهتماما كبيرا بظاهرة التصوف أكثر من اهتمامها بأي موضوع آخر، نظرا لسيطرة هذه الظاهرة على مختلف نواحي الحياة في "الجزائر" في تلك الفترة.

وخلاصة الحالة الدينية في "الجزائر" في الفترة العثمانية من خلال ما جاء في الرحلات المغاربية عموما بما فيها من أخبار عن المذاهب الفقهية والعبادات، وظاهرة التصوف، نجد أن كلا الطرفين لم يكثر الحديث عن المذاهب الفقهية، سوى ما لاحضناه في الرحلات الجزائرية من بعض التفصيلات فيما يخص "المذهب الإباضي" عند الميزابيين، في حين كان اقتصار الرحلات المغاربية عموما على بعض الإشارات إلى المذاهب الأخرى، ونفس الأمر بالنسبة للعبادات لم يركز كلا الطرفين على الحديث عن مختلف العبادات ما عدا بعض التفصيلات فيما يخص أداء فريضة الحج، باعتبار أن أغلب الرحلات كانت حجية، في حين نجد مختلف الرحلات المغاربية أسهبت في الحديث عن

---

[1] المعسكري، فتح الإله، ص27.

[2] ابن إدريس التتلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص251، 252.

[3] العياشي، الرحلة العياشية، 80/1.

[4] الدرعي، الرحلة الناصرية، ص159.

مظاهر التصوف، وذلك لغلبة الصبغة الصوفية على حياتهم في شتى المجالات، حتى على أسلوبهم وتفكيرهم وطريقة حياتهم.

المطلب الثاني: الحالة الفنية

حوى هذا المطلب الحديث عن الفنون التي ذكرت في طيات النصوص الرحلية، من الأدبية إلى العمرانية، وكذا الموسيقية، وذلك في ثلاثة فروع على التوالي.

الفرع الأول: الفنون الأدبية

لا تنفك الفنون الأدبية عن جانب العلوم النقلية والعقلية التي ألّف فيها العلماء الجزائريين ومنهم الرحالة، إذ كانوا يتميزون بإلمامة واسعة بالفنون المتممة، وهذا ما يشير إلى صبغة تكاملية بين العلوم والمعارف لديهم، وإن كان التكامل يفتقر إلى العلوم الطبيعية والتجريبية نوعا ما.

فمن أهم الفنون الأدبية التي كانت موجودة في "الجزائر" في تلك الفترة وورد ذكرها في الرحلات المغاربية نجد مختلف فنون النثر الأدبي من "المقامات" و"التقاريظ" و"الرسائل"، و"الألغاز" و"الخطب"وغيرها، إضافة إلى "الشعر" بمختلف أغراضه وأنماطهك"المديح"، و"الوصف"...إلخ

أولا: فنون النثر الأدبي

تشتمل فنون النثر علىالخطب والمقامات والرسائل الرسمية والإخوانية، والوصف والتقاريظ والتعازي وعقود الزواج والإيجازات، والشروح الأدبية، والخطب والقصص وغيرها.

وقد وردت الإشارة في الرحلات الجزائرية إلى أغلب هذه الفنون الأدبية منها:"الخطابة" و"المقامات"*، فقد اشتهرت المقامات كآلية تنسج في ركابها القصص والحكايات، وقد أسهم الجزائريون في هذا الميدان بكثرة، ومنهم الرحالة أنفسهم، فالمعسكري كان من الذين تقلدوا الخطابة وشرح المقامات، وكذلك ابن حمادوش اشتهر بتأليف المقامات وله ثلاث مقامات ذكرها في رحلته منها: "المقامة الحالية" التي وصف فيها حالته النفسية السيئة

*المقامة: هي فن كتابي سردي عبارة عن أحاديث خيالية أدبية بليغة تلقى في جماعة من الناس، وهي صيغ حليت بألوان البدع وزينت بزخارف السجع وعني أشد العناية بنسبها ومعادلاتها اللفظية وأبعادها ومقابلاتها الصوتية. ينظر: دخية، الحركة الأدبية، ص207. وشوقي ضيف، فنون الأدب العربي "الفن القصصي- المقامة، ار المعارف، مصر، ط3، د.ت، ص5.

جراء أوضاعه المادية الصعبة وهجران زوجته له والتي من نصها: "**وفي يوم الخميس السادس والعشرين ألفت المقامة الحالية: الحمد لله محول الأحوال ومرخي البال، ومقلب الأمور في الدهور، والصلاة والسلام على خير الأنام، المبشر بالفرج بعد الشدة، والمنذر بالعناء بعد اللذة، فقال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[1]وبعد:**

لما أن جرى القضاء المحتوم، والأمر الملزوم، بأن خف الريش، وأكل الجويش، ومضض العيش، فخلفني الجيش، وكثر الصرف، وقصر الطرف، وجفت الإخوان، وقلة الأخذان، وغلب الزمان، فارتفعت الأقران، وصعبت التجارة وسهلت الخسارة، قرنت بجارة غرة، عيشتها مرة..، لا يشبعها الجليل، ولا تعبأ بالقليل...تخزيك أو تحرجك، أو تحزنك..، بيد أنها تسر الناظرين وتصبي السامعين..، أشبهت في شهل العيون يوسف الكريم..، وفي القد الغصن القويم والسمهري المستقيم، وقد صدق عليها قول الشاعر:

أسيلات أبدان رقاق خصورها　　　وثيرات ما التأثت عليه المآزر... [2].

كما ذكر المعسكري شرحه لمقامات الحريري والتي أسماها: "الفتوحات الناصرية بمفتاح العلوم الحريرية"، وذكر مدحها من طرف شيخه "الحاج علي بن الأمين"، ومن ذلك قوله فيها: "**.. فقد تصفحنا الفتوحات الناصرية..، فتحلقت المقامات الحريرية أنوارا وملئت أسرارا وأحيت أفكارا فتجلت عربا أترابا أبكارا..**

أخت الغزالة إشراقا وملتفتا　　　لسحرها يسجد السحار والحبر

لولا محاسنها عليهم انبسطت　　　لم يتصدع في تلك المقامات لهم أثر.."[3].

وحسب الرحلات المغربية فإن فنّ الخطابة تميّز في العهد العثماني بالتقليد، خاصة عندما أصبحت الخطابة تقتصر على المناسبات الدينية يكرر فيها الخطيب معاني السابقين، وهذا ما أكدته رحلة العياشي، عندما تحدث عن خطبة الجمعة التي ألقاها إمام جامع المالكية بـ"ورقلة"، فقال: "**وصلينا بجامع يسمى جامع المالكية، وخطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحن والخطأ والتحريف، والتقديم والتأخير..، ودعا في خطبته للإمام المهدي ثم السلطان الأعظم، الخاقان الأفخم، محمد بن إبراهيم بن مراد، ثم سلطان بلده مولاي**

---

[1] سورة الشرح، الآية(5، 6).

[2] ابن حمادوش، لسان المقال، ص164، 165.

[3] المعسكري، فتح الإله، ص97.

علاهم، فلما فرغ من الصلاة بعثت بعض أصحابنا ليسأله عن المهدي المدعو له في الخطبة، أهو المنتظر..، فسأله عن ذلك فإذا هو لا يفقه شيئا من ذلك..، فعلمت أنه إنما وجد الخطبة مكتوبة في صحيفة عنده فحفظها كما وجدها.."[1]، كما أشار أيضا إلى خطبة الجمعة التي حضرها في "**توات**"التي: "**سرد الخطيب خطبة عظيمة وعظية حسنة..، لكنه أكثر فيها اللحن.."**[2].

كما اشتهرت أيضا الرسائل التي تنوعت بين الرسمية الإخوانية ورسائل التعزية، وقد وردت في بعض الرحلات الجزائريةمنها: ما ذكر المقري الذي أورد الكثير من الرسائل الإخوانية التي كانت تدور بينه وبين علماء عصره من البلدان العربية والإسلامية كـ"مصر" و"الشام" و"المغرب" و"الحجاز"[3]، ومنها مكاتبة من صاحب "مكة" السيد "محسن بن الحسين" للمقري، ومما جاء فيها: "**إن أشرف ما نظم في عقود الكاتبة، وألطف ما رسم في عهود المخاطبة..، ترقمه أقلام المحبة والاختصاص إلى أعلام المودة والإخلاص..، إلى حضرة الشيخ العلامة الإمام الحبر الفهامة..، ذو التآليف التي اشتهرت..، مولانا الشيخ أحمد شهاب الدين المقري أدام الله فوائده.."**[4]، وذكر المعسكري المراسلات بين العالمين الجزائريين أحمد المقري صاحب الرحلة، و"محمد بن عبد الكريم الفكون" عالم "قسنطينة"، ومن بين ماجاء في رسالة الفكون للمقري قوله: "**وقد اتصل بيدي جوابكم أطال الله في العلم بقاءكم، وأصلح عشيرتكم وأقرباءكم، فرأيت من البلاغة والعذوبة ما يذهل من العلماء فحولها.."**[5]، كما وردت بعض رسائل التعزية في رحلة المقري منها رسالة له من أحد الإخوان، واسمه "ابن مرشد" يعزيه فيها لوفاة ابنه[6]، كما ذكر ابن حمادوش رسالة تعزية له بوفاة ابنه أيضا من المفتي "ابن حسين"[7].

---

(1) العياشي، الرحلة العياشية، 114/1، 115.

(2) المصدر نفسه، 1/ 80.

(3) ينظر: المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص29- 45.

(4) المصدر نفسه، ص223.

(5) المعسكري، فتح الإله، ص98.

(6) المقري، المصدر السابق، ص224.

(7) ينظر: ابن حمادوش، لسان المقال، ص151.

وكثرت أيضا **التقاريظ والألغاز**، وقد ورد الحديث عن التقاريظ في بعض الرحلات الجزائرية، كرحلة ابن حمادوش الذي أورد بعض من تقاريظ بعض علماء "الجزائر" لكتبه التي ألفها منها: تقريظ العالم المغربي" الورززي" لكتابه "الدرر على المختصر"، وكذلك تقريظ العالم الجزائري "ابن عمار" على نفس الكتاب[1]، كما أورد "المقري" بعض التقاريظ منها تقريظه على كتاب "إتحاف الناسك للسيوطي"، وتقريظ أحد علماء "المغرب" لكتابه "أزهار الرياض"[2]، كما برع بعض المؤلفين الجزائريين في تأليف الألغاز ومن هؤلاء الذين كانت لهم اليد الطولى في هذا الفن وذكرهم ابن حمادوش: "البوني" الذي له كتاب في "الألغاز"، وكذلك "يحيى الشاوي"، ومن بين ما ذكر لغز لـ"الشيخ "أحمد الزروق البوني":

ألا أيها الغادي على ظهر أجودا ... يشق الفيافي فدفدا بعد فدفد
تحمل رعاك الله مني تحية ... تحيي بها أهل المجالس في غد
وقل لهم ما سبعة خلقوا معا ... وما سبعة في ثوب خز مورد
حواجبهم سبعون في وجه واحد ... وأعينهم تسعون في خلق هدهد
أبوهم له حرفان من اسم جعفر ... وحرفان من اسمي علي وأحمد[3]

كما احتوت رحلة المقري على بعض النماذج من ظاهرة التلغيز التي كانت تدور بينه وبين علماء عصره، ومن الذين لاغزوا المقري عالم "الجزائر" وفقيهها" سعيد قدورة" في لفظ "القوس"، ولفظة "الصنبر"، ولاغزه "إبراهيم السحوري" في كلمة "التيه"، وكان التلغيز نوعا من وسائل الترفيه والتسلية، والرياضة الأدبية يتعاطاه الفقهاء والشعراء والأدباء على السواء، وبعملون فيه الرأي والذكاء بنوع من التكلف [4]، وقد ذكر المقري أنه التقى بعالم "الجزائر" وفقيهها في عصره الشيخ "سعيد قدورة"، وفي هذا اللقاء لاغز "سعيد قدورة" المقري في لفظ "القوس" نثرا فأجابه، كما لاغزه في لفظ الصنبر بتسعة أبيات وأجابه المقري بأحد عشر بيتا في حل هذا اللغز [5].

---

[1] ابن حمادوش، لسان المقال، ص259.

[2] المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص47، 69.

[3] ابن حمادوش، المصدر السابق، ص130، 131.

[4] المقري، المصدر السابق، ص13.

[5] المصدر نفسه، ص11، 73.

كما ذكرت"الشروح الأدبية"* و"الإجازات"* في بعض الرحلات، فقد حفل الإنتاج الأدبي الجزائري بالنوعين[1]، ومن ذلك ما ذكر أبوراس أنه وضع عدة شروح أدبية منها: "نيل الأرب في شرح لامية العرب"، و"الوصيد في شرح سلوانية الصيد"، و"الدرة الأنيقة في شرح العقيقة"[2]، كما وضع ابن حمادوش شرحا على "منظومة ابن غرنوط" في "علم التكعيب" سماها: "الأديب في علم التكعيب"[3]، وغيرها من الشروح.

وقد سبق الحديث عن "الإجازات العلمية" بشكل موجز، وهنا يمكن التفصيل فيها أكثر نظرا لكثرة الحديث عنها في الرحلات المغاربية، فقد برع علماء "الجزائر" ومدرسوها في تأليف الإجازات العلمية لطلبتهم وحتى لعلماء زوار، إذ أسهب ابن زاكور في الحديث عن بعض الإجازات العلمية وذكر بعض نصوصها، ومن بين ما ذكر على سبيل المثال:

1_ إجازة العالم الجزائري "محمد بن سعيد بن إبراهيم قدورة" للرحالة المغربي "ابن زاكور" والتي كان نصها: "**الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، قد أجبت الفقيه النبيل الأصيل المفتي نفيس العلوم، ونفيس ذخائر المفهوم، بالغدو والأصيل المحصل لخصال الكمالات كل التحصيل، حائز قصبات السبق في ميادين البلاغة على الإجمال والتفصيل، العلامة النحرير السيد أبا عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد الفاسي المعروف بابن زاكور، كان الله لنا وله دنيا وأخرى، وأجزته إجازة مطلقة تامة عامة على شروطها المتعارفة عند العلماء القائلين بها في جميع مقروءاتي معقولا ومنقولا توحيدا ونحوا، فليحدث بذلك إن أحب عن أشياخي وأشياخهم إلى المؤلفين، نفعني الله وإياه بهم آمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله أجمعين، وكتب العبد الفقير إلى الله شاكره دائما على ما أسداه وأولاه، محمد بن سعيد بن**

*الشروح الأدبية: يقصد بها شرح الأعمال الصوفية والتاريخية والفقهية بوجه عام، وشرح الأعمال الأدبية بوجه خاص، فالشرح الأدبي يكون على قصيدة نظمها الشارح نفسه وقد يكون على قصيدة غيره.

*الإجازة العلمية: هي شهادة الاستماع، وتكون مؤرخة ويحتفظ بها المستمع أو المستجير ليستطيع أن يسلم للراغب نظيرتها في رواية كتاب معين عندما يصبح مقصودا بالأخذ والتلقي. ينظر: عبد الرحمن العراقي، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، المطبعة الجديدة، فاس، د.ط، 1935م، 94/2.

(1) بوشيبة، " العلم والعلماء"، ص119.

(2) المعسكري، فتح الإله، ص181.

(3) ابن حمادوش، لسان المقال، ص265.

إبراهيم بن حمودة الجزائري، وفقه الله لما يحبه ويرضاه، أوائل رجب سنة أربع وتسعين بعد الألف (1094هـ /1682م)"[1].

2_ إجازة الشيخ "الشبراملسي" لـ"محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري"

ونص الإجازة ذكرها ابن زاكور في رحلته: "**حمدا لمن أطلع في سماء الفضائل شموسا وأقمارا، ورفع لمن شاء من عباده عن وجوه عرائس المعاني أستارا، وصلاة وسلاما على سيدنا محمد الذي أبدى وأبدع أسرارا، وبلغ بحكمته أوطارا، وعلى آله وأصحابه الذين كساهم الله بالمعارف وقارا، وبعد: فإن العلم أشرف شيء يتحلى به الإنسان، وأعظم وصف يتكمل به الأعيان.. فعلم الحديث من بينها هو الحقيق بأن يشمر له ساق الجد والعناية.. هذا وإن ممن ضرب في العلم بنصيب وافر وحصل منه على القدر المفيد الظاهر الشيخ الفاضل الرُّحلة العلامة الفهامة الكامل طراز العصابة الهاشمية، فرع الشجرة الزكية، صاحب النفس القدسية السيد "محمد بن السيد محمد بن السيد عبد المؤمن الجزائري" وفقه الله وأصلحه وأحسن سعيه وأنجحه، فقد حضر إلي وقرأ علي ما تيسرت قراءته من صحيح الإمام البخاري قراءة أجاد فيها واستجاد وأفاد واستفاد ثم التمس مني أن أجيزه برواية ما رواه عني وبما قرأه وسمعه مني فاستخرت الذي ما خاب من استخاره، وأجزته برواية ذلك وبرواية جميع ما تحل لي روايته من صحيح الإمام البخاري،..**"[2].

بالإضافة إلى اشتهار"الوصف الأدبي" أيضا، الذي أحد ألوان النثر الأدبي، خاصة وصف الطبيعة والمنشآت العمرانية الذي يكثر في الرحلات، بالإضافة إلى الوصف المعنوي الذي يختص بالمشاعر الإنسانية، والرحلات غنية جدا بالوصف سواء المعنوي أو وصف الطبيعة والمنشآت العمرانية، وقد سبق ذكر الأوصاف الطبيعية والعمرانية، لاداعي لتكرار.

---

(1) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص71.

(2) المصدر نفسه، ص63.

كما اشتهرت أيضا "عقود الزواج"، والتي وردت بكثرة في رحلة ابن حمادوش سواء من إنشائه، أو من إنشاءغيره من العلماء والشيوخ، وقد ذكرنا ذلك في الحالة الاجتماعية. وتجنبا للتكرار وعلى سابق ذكره اكتفينا بالإشارة إليه فقط.

على ما سبق ذكره والتمثيل له بنصوص الرحالة، نقف على المستوى الأدبي الرفيع المتميز التي كانت "الجزائر" تزخر به، فكان علماؤها على مستوى رفيع من تملكهم العلوم والفنون الأدبية والإبداع فيها على اختلاف أنماطها وضروبها.

ثانيا: الشعر

كان الشعر في "الجزائر" في العهد العثماني مزدهرا، ومتعدد الأغراض من دينية وسياسية واجتماعية وغيرها وهذا ما تثبته نصوص الرحلات المغاربية.

وردت الإشارة إلى الشعر بأغراضه في مختلف الرحلات الجزائرية، خاصة الشعر الديني الذي كان غرضه الأساسي هو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى أشعار الشوق إلى زيارة "مكة" و"المدينة"، ومن ذلك ما ذكر المعسكري أن الشيخ "مصطفى بن عبد الله بن دحو" ألف قصائدا في "مدح الرسول صلى الله عليه وسلم"[1]، كما أورد ابن عمار عدة قصائد في "مدح الرسول صلى الله عليه وسلم"، منها قصائد للعلامة "المانجلاتي"ومن أبياتها:

محمد خير مرسل شمس الضحى البدر الأكمل هو المرام
ومدحه ديدني وهو حجي السني في كل عام
من طاب حيا وميتا وفاق أصلا ونعتا هو أمام
لولاه لم تك دنيا ولا ممات ولا محيا ذو الاعتصام[2].

كما أورد المقري عدة قصائد له في مختلف الأغراض، منها قصيدة طويلة له في المديح النبوي[3]، وقصيدة في مدح سلطان "مكة"[4]، وقصيدة في مدح "الجزائر" المحروسة من أبياتها:

---

[1] المعسكري، فتح الإله، ص72.

[2] ابن عمار، نحلة اللبيب، ص30. وينظر: شقرون، نحلة اللبيب، ص99.

[3] المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص56.

[4] المصدر نفسه، ص68.

جزائر الغرب لا تطرقك أحـــزان يا بهجة الدهر طابت منك أزمان
وزادك الله يا أرض الجهاد على فـكـــــم علا فيك إسلام وإيمـان
وصانك الله من كيد العدى وغدا للنصر والعز في مغناك إدمان[1].

و ذكر أبو راس أنه ألف في القصائد أيضامنها قصيدة "البشائر والأسعا دفي شرح بانت سعاد"[2]، كما أورد ابن هطال قصيدة طويلة في مدح سيده الباي "محمد الكبير" من أبياتها:

لقد أنجز الآمال وعدا من النصر كما أبرز الإقبال ما كان في القدر
وأهدى فؤاد الفتح عذراء بلدة مثقلة الأرداف في الحلل الخضر
تكلل بالشمس المنير جبينهـا كما أبهى معصم تسور بالبدر[3].

كما ورد الشعر في مختلف الرحلات بأغراض أخرى كالذمّ والافتخار، فابن حمادوش مثلا ألف عدة قصائد ذكرها في رحلته، منها قصيدة في "الحنين إلى الأهل"[4]، وقصيدة في ذم المفتي ابن علي الافتخار بنسبه الشريف التي من أبياتها:

بنو هاشم خيــر القبائل منـهم إمام الهدى جد الحسينيين المهد
حذاري حذاري إنـا رحمــة الورى وغصة للقالين في الحشر واللحد
تأبيت عنا إذ علــــوت بقربنا جزاء سنمار جازيت مع الطـــــرد
كأنك لم تتلق المودة في القربى وأي وداد في الصغار لذي رشد[5]

كما نظم الورثلاني شعرا في وداع الأهل والأحباب عند ذهابه إلى الحج، في قصيدة يقول في بعض أبياتها:

ما أصعب التوديع للأحباب وعنده بالحــزن واكتئاب
وكل نفس تزعج للافتراق لفقدان المألوف باختناق[6]

---

(1) المقري، الرحلة إلى المغرب والمشرق، ص74.
(2) المعسكري، فتح الإله، ص181.
(3) ابن هطال، رحلة الباي، ص78.
(4) ابن حمادوش، لسان المقال، ص108.
(5) ينظر: المصدر نفسه، ص257.
(6) ينظر: الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 1/ 186.

وألف ابن دحو قصيدة في مدح ابي راس من أبياتها:

ليت شعري هل أرى من نصير منصف لمجد الكرام الأفاضل

يطنب القول في امتداح فقيه لاح نوره في سماء الفواضل

أبا راس للعلماء أنت عماد أنت نجم الهدى شفاء العراقل[1]

والقصائد الشعرية موجودة بكثرة في الرحلات الجزائرية بمختلف أغراضها سواء لأصحاب الرحلات أو لمن ذكروا من الأعلام.

كما جاء الحديث عن الشعر بأغراضه في بعض الرحلات المغربية، فذكر ابن زاكور في رحلته قصيدة من القصائد الدينية، والتي تعود لشيخه "محمد بن عبد المؤمن"، وقد نسجت على شاكلة الرجزصنفت في العقائد والعبادات ومن أبياتها:

يقول راجي رحمة المهيمن محمد نجل ابن عبد المؤمن

الحمد لله وصلّى ربـــي على النبي وآله والصحـــب

وبعد فالقصد بهذا الرجز جمع المهم بكلام مــــوجز

من واجب الله والرسول ومن فروع لذوي التحصيل

الله موجود قديم بــاقي مخالف للخلق بالإطــلاق

وقائم بنفسه وواحـــد ذاتا وفعلا صفة يعتقــد[2]

كما أورد الزياني قصيدة في معنى حوادث الدهر لأحد فقهاء "قسنطينة" وهو "أبو القاسم المحتالي" من أبياتها:

أصاب صرف الزمان وجهه فبدت في خـــده نكتة تعلوه سوداء

كأنّه لم يكن في الحسن مكتسبـا ولا نأت منه بالتخريب أســواء

ولا جنى في ظلال العز طيب منى ولا سقته بكـأس العــزّ عـلياء

كذلك الدّهر في تصريفـــه دول رفع وخـفـــض وأدناء وأقصاء

فالدّهر ذو عبر فالحظه ذا بـصر تحرز فضائل من بالرشد قد باءوا[3]

---

(1) المعسكري، فتح الإله، ص73.

(2) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص58.

(3) الزياني، الترجمانة، ص153.

من خلال ما ورد في الرحلات المغاربية تبيّن ازدهار فن الشعر، وتعدد أغراضه التي لم تقتصر على الأغراض الدينية، بل تعدّت ذلك إلى أغراض أخرى كالسياسة.

والملاحظ على الفنون الأدبية عموما من خلال نصوص الرحلات المغاربية، توافر هذه الفنون بكثرةعلى ألوانها من"خطب" و"مقامات" و"تقاريظ" و"عقود" و"رسائل" و"شعر"، وغيرها، فكانت الرحلات المغاربية أوعية احتضنت هذه الفنون التي تكاد تنعدم في هذا العصر سواء الكتابات الأكاديمية منها أو الحرة.

الفرع الثاني: الفنون العمرانية

على الرغم من عدم اهتمام الرحلات المغاربية بالحديث عن فن العمران وذكر ذلك تصريحا، إلا أنّها تطرقت إلى ذكر ذلك ضمنيا فوردت شذرات وإشارات إلى هذا الفن، منها العمارة المدنية، والحربية.

أولا: العمارة المدنية

تميزت "الجزائر" في عهد الأتراك بفنّ معماري خاص يغلب عليه الطابع العثماني، والأندلسي خاصة في المدن الساحلية التي استقر بها الأتراك والأندلسيون، واندمجوا في المجتمع الجزائري، ولكن رغم ذلك بقي الطابع المحلي مسيطرا على أكثرية المناطق الأخرى خاصة الجبلية والصحراوية منها، التي كانت تتمايز بطابعها الخاص، وهذا ما عرفناه من خلال تتبعنا لأخبار الرحلات وحديثهم عن الطابع العمراني الذي كان سائدا في "الجزائر" آنذاك.

فعن العمارة المدنية ذكرت: "القصور" و"المنازل"، ففي بعض الرحلات الجزائرية جاء ما يتعلق بعمارة المدن الصحراوية، إذ تحدث ابن إدريس التنلاني عن قصور "بلاد مزاب" التي كانت عبارة عن خمسة قصور هي: "العطف"، و"بنر"، و"بني يسكن"، و"أمليكة"، و"غرداية"[1]، كما ذكر الأغواطي منازل أهل الصحراء وكيفية بنائها ومادة البناء كذلك، فبلدة "الأغواط" بنيت من الطين بالدرجة الأولى غير أن بعض المنازل مبنية بالحجر والملاط، كما أن منازل "تجمعوت" مبنية بالحجر والطين، وكذلك "أوالن" بين "المنيعة"

(1) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص237.

و"توات" مبنية بالطين، ومنازل "تيميمون" جميعا متراصة ومبنية بالطين أو الطوب، أما قرية "عميش" القريبة من "وادي سوف" فمنازلها مبنية بالطين والآجر[1].

كما ورد الحديثعن القصور وجمالها في بعض الرحلات المغربية سواء التي بنيت في العهد العثماني أو التي بنيت قبل تلك الفترة، فقد أعجب ابن زاكور بقصور مدينة "الجزائر"التي مدحها بقوله: "**وقصور نوع المحاسن عليها مقصور**"[2]، بالرغم من أنّه لم يذكر كيفية بنائها وما شابه ذلك، ونجد ابن الطيب الفاسي يمدح قصور مدينة "**الأغواط** " دون تفصيل أيضا فيقول: "**ونزلنا قبالة نخيلهم الباسقة وقصورهم المتناسقة..**"[3]، ففي كلامه هذا إشارة إلى إتقان بناء القصور والبراعة في تناسقها، كما تحدث الوزان الذي تزامنت زيارته لـ"الجزائر" مع بدايات دخول الأتراك عن البيوت والقلاع ومختلف البنايات، في بعض المدن الجزائرية، كـ"بجاية" و"قسنطينة" و"نقاوس" و"المسيلة"، بالرغم من أن تلك البيوت بنيت قبل مجيء الأتراك، إلا أنها حافظت على طابعها المعماري بعد دخولهم "الجزائر" وتوطنهم بها، فمدينة "بجاية"كانت دورها كلها جميلة منسقة أحسن تنسيق، وبيوت "قسنطينة"كانت متحضرة جدا ومليئة بالدور الجميلة، أما عن مدينة "نقاوس التي لا تشتمل الدور في مجملها إلا على طابق أرضي، لكن ذلك لا يمنع من كونها أنيقة بهيجة، لأن لكل واحدة منها حديقة مليئة بمختلف الأزهار..، ولكل الدور تقريبا سقاياتها الخاصة، كما ذكر أيضا الدور بمدينة "المسيلة" التي وصفها بالقبح ولم يفصل في كيفية بنائها[4]، وكذلك تحدث المكناسي عن كيفية بناء منازل مدينة "قسنطينة" فذكر أنهم: "**يسقفون أسطحة بيوتها بالقرمود، ولعله من أجل الثلج فهي شديدة البرد، وعليها وارد كثير، وعمارة زائدة، فلا يكاد الإنسان يمشي في داخلها إلا بمشقة من كثرة الازدحام..**"[5]، ويختلف بناء البيوت في الصحراء عن الساحل، فهم يبنون بيوتا من "جريد النخل"، كما

---

(1) الأغواطي، الرحلة، ص88، 92، 93، 96.
(2) ابن زاكور، نشر أزاهير البستان، ص40.
(3) الفاسي، الرحلة إلى مكة، ص91.
(4) الوزان، وصف إفريقيا، 2/50- 56.
(5) المكناسي، الإحراز، ص329، 330.

ذكر ذلك العياشي، فأهل "وادي سوف"يسكنون في زرائب من جريد النخل[1]، وكذلك سكان قرية "والا" بيوتهم عبارة عن: "**عرش من الجريد مرفوعة من الأرض مقدار القامة..**"[2].

كما اهتمت الرحلات المغاربية بذكر بعض الأمور الخاصة بـ"عمارة المساجد"، إذ ذكرت بعض الرحلات الجزائرية المساجد وكيفية بنائها، ومنها ما ذُكر في رحلة الورثلاني الذي أورد نص العياشي في حديثه عن إتقان بناء "مسجد عقبة بن نافع"، وخاصة مئذنته إذ يقول: "**وفي مسجده مئذنة كبيرة عظيمة متقنة البناء وفي أعلاها عمود..**"[3]، كما ذكر أيضا إتقان بناء بعض "**مساجد قسنطينة**"[4]، وأشار المعسكري إلى كيفية بناء "مصلى" تابع لعائلته، فذكر أن جدّه "**هو أول من ميز المصلى التي في بلادنا..، وحوزها بأحجار كبار..، وهي في حجر عرعارة طويلة غليظة مستقيمة من أدواح الشجر العظيمة..**"[5]، ويظهر من كلامه أن المادة الأساسية في البناء هي الحجارة ومن سيقان الأشجار.

كما جاء ذكر بناء المساجد في الرحلات المغربيةأيضا، منها ما ذكره الزياني عن طريقة ومادة بناء **مسجد "الباشا الجديد"آنذاك**، الذي عاصر **بناءه وهو "مسجد كاتشاوى"الذي أنفق على بنائه داي الجزائر حسن باشا أموالا كبيرة، ومما قال فيه الزياني:"رتّب فيه أهل الهندسة من كل صنعة، وأتقنوا بناءه سعة ورفعة، وجعل أسفل هذا المسجد دكاكين وقهاوي..، وجمع له كل أنواع المرمر والرخام من بلاد الأتراك والأروام من كل قائم مبسوط، ومربع ومخروط ومدرج ومشجر ومنقوش ومسطر..**"، كما وصف محرابه وزخرفته قائلا: "**ومحراب في وسطه قبة عظيمة مرتفعة في الفلك..، وجعل لهذه القبة سراجيب بأنواع البلور الذي لم ير في عصر من العصور..، ودار بهذه القبة قبب على شكل منمق، كأنهن جدول موفق، من ثنائي وثلاثي ورباعي وخماسي وسداسي وسباعي..، وفوق ذلك من الأسباغ كل لون غريب..، وكتبوا أسماء الله وآياته، وأنبيائه**

---

(1) العياشي، الرحلة العياشية، 123/1.

(2) المصدر نفسه، 107/1.

(3) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 232/1.

(4) المصدر نفسه، 353/3.

(5) المعسكري، فتح الإله، ص27.

وخلفائه تعظيما، بالذهب الأبريز الصيان..، وأدار بهذه القبة شدورانا من العود مموه بأنواع الأطلية الفائقة بالألوان، يصلي فيه الأمراء والأجناد وأعيان الديوان..، وأمامه كشك يجلس إليه المؤذنون وأهل الألحان والقراءات.."[1] كما وصف المنبر والجدران والإضاءة أيضا في قوله: **"وجعل لهذا المسجد منبرا من الرخام الشفاف، مؤلف من سبعة أصناف، من مرمر وجزع، وزبرجد، وودع، وفيروزج، وفاروز..، وكسا جدرانه بالزليج والفرفري والصيني، وفوقه الجبص الفائق المعدني، وجعل في كل جهة رواشن تسطع منها الأنوار مضيئات، وسلاسل مموهة للقنادل والثريات، وجعل تحت كل روشن ساعة على كرسي.."**[2]، أمّا العياشي فذكر عمارة المساجد بالصحراء والتي كانت موجودة حتى قبل الأتراك، ومنها مسجد الرافضة الإباضية- كما يسميهم- بورقلة الذي كان متقن الصنعة مجصص الأرض والحيطان على بابه أماكن وفي جوانبه معدة للوضوء وقضاء الحاجة ومكان لتسخين الماء[3]، فأعجب به غاية الإعجاب، كما تحدث عن صومعة "مسجد بلدة تماسن" الصحراوية، فذكر أن: **"في مسجدهم صومعة وثيقة البناء طويلة جدا فيها نحو من مائة درجة، على بابها اسم صانعها، وهو المعلم أحمد بن محمد الفاسي، وتاريخ بنائها سنة سبع عشر وثمانمائة"**[4]، كما تحدث أيضا عن "مسجد سيدي عقبة" الذي: **"فيه مئذنة كبيرة متقنة البناء، وفي أعلاها عمود..، هو من إتقان البناء وفرط طوله فإذا صودم بقوة ظهر فيه شبه اهتزاز.."**[5]، كما ذكر أيضا "مسجد الولي الصالح أبي الفضل" قرب "بسكرة" فمئذنته **"في غاية الإتقان والطول والسعة، تقدر الدابة على الصعود عليها بحملها، وأدراجها مائة وأربعة وعشرون درجة، والمسجد في غاية السعة.."**[6]، وذكر الدرعي أيضا مسجدا بـ"عين ماضي" موجود على

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص377.

(2) المصدر نفسه، ص377.

(3) العياشي، الرحلة العياشية، 116/1.

(4) المصدر نفسه، 119/1.

(5) المصدر نفسه، 539/2.

(6) المصدر نفسه، 540/2.

ربوة ومبني بالحجارة الكبيرة، ومفرش بقطائف جيدة وحصر، وله نور يعلوه، وبإزائه مطبخ طعام مبني على صورة بيت وصحائف وقدور..[1].

كانت المساجد من أهم ما اهتمت بذكره ووصفه بناء وعمرانا الرحلات الجزائرية والمغربية لما للمسجد أولوية بالغة لدى الرحالة، إذ يعد الموئل الأول للرحالة في طريقهم بغية أداء الصلاة، وللقاء إمامه، إحياء سنة التعارف به بأهل الفضل والعلم في تلك المنطقة. كما كان كذلك وعاء يشمل الكثير من الوظائف التي تفرقت وانفردت بها مؤسسات أخرى في زمننا هذا كالقضاء، والإصلاح، والفصل في المنازعات، والتعليم بشتى أنواعه.

ثانيا: العمارة الحربية

كانت المدن الجزائرية على عهد الأتراك وقبل مجيئهم محمية بالأسوار والحصون والأبراج سواء المدن الساحلية أو الداخلية والصحراوية، وقد سبق الحديث عن التحصينات في عنصر الحالة العسكرية لذااكتفيت بإشارات خفيفة دون تفصيل مع التركيز على كيفية البناء ومواده إن وجدت.

ورد الحديث عن تحصينات المدن الساحلية في أغلب الرحلات الجزائرية التي اتخذت البحر طريقا لها أو الداخلية التي زار أصحابها هذه المدن، وخاصة "الجزائر العاصمة"، فابن إدريس التنلاني الذي رحل إليها من بلدته "تنلان" تحدث عن تحصينات "الجزائر" الحربية منها "سور المرسى"، و"برج الفنار"، و"برج مولاي حسن باشا"[2]، وقد ذكر كيفية ترميم وبناء "سور المرسى" الذي تضرر بعد حملة الإنجليز على الجزائر سنة 1818م، فأول ما قام به الداي بعد ذهاب النصارى أنه اشتغل بإصلاح ما أفسدته النصارى، فكان يحمل الحطب الأخضر لطبخ الجير على خمسمائة جمل، وجميع القبائل التي حول "الجزائر" يحملون على براذينهم وبغالهم، ومن لا يملك بهيمة يحمل حزمة على رأسه، من الحجر والجير، وجلب لذلك سبعون معلما للبناء، وأربعة عشر مائة خديم، وقد بدأ بإصلاح المرسى ثم بعد ذلك إصلاح الدور والغرف والمنارة[3]، فقد كانت مادة البناء الأساسية في الأسوار "الحجارة" و"الجير"، و"الأعلام"من الأعمدة، كما ذكر الورثلاني أن

---

(1) الدرعي، الرحلة الناصرية، ص131.

(2) ابن إدريس التنلاني، الرحلة إلى الجزائر، ص254، 256.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص253.

مدينة "قسنطينة" مبنية عل كهف وجرف عظيم، وعليها سور كبير، وفيها ثلاث أبواب: "باب الوادي" و"باب الجابية" و"باب القنطرة"، كما يوجد فيها "قصبة عظيمة"، كما ذكر أيضا أن الأتراك بنوا الحصون والأبراج والأسوار في مختلف المدن الساحلية تحصنا من الأعداء كـ"بجاية" و"القل" وغيرهما[1]

أما بالنسبة للمدن الصحراوية نجد أن الرحالة الجزائري الأغواطي قد أسهب في الحديث عن المدن الصحراوية واصفا إياها بكل تفاصيلها، فذكر الكثير من المدن الصحراوية المحاطة بالأسوار والحصون منها: "الأغواط" المحاطة بسور وحولها تحصينات، و كذا"عين ماضي"المحاطة بأسوار تشبه أسوار طرابلس، وفي "وادي مزاب" ستة بلدان وقرى أكبرها "غرداية" التي لها سور، و"ورقلة" أيضا بلدة كبيرة جدا ولها سور يحيط بها فيه عدة أبواب، وبلدة "أولف" محاطة بأسوار مبنية بالطين، وكذلك "تقرت" التي تحتوي على حوالي أربعمائة منزل محاطة بأسوار ولها أبواب وهذه الأسوار محاطة بدورها بخندق، وعلى هذا الخندق ثلاثة جسور[2]، كما ذكر الورثلاني إلى أن الترك بنوا برجان بـ"بسكرة" أحدهما داخل المدينة والآخر خارجها[3]، كما أشار ابن هطال في رحلة الباي محمد الكبير إلى أن "الأغواط" مليئة بالحيطان حيث واجه عسكر الباي صعوبة في محاصرة أهل المدينة وحربهم بسبب كثرة الأسوار والحيطان بها، فكانوا كلما هدموا حائطا وجدوا أمامهم حائطا آخر، وقيل إنهم هدموا أكثر من خمسين حائطا[4].

وقد ورد الحديث عن مختلف تحصينات المدن الساحلية والداخلية وحتى الصحراوية في أغلب الرحلات المغربية، فذكر التمقروتي تحصينات المدن الساحلية: كمدينة "عنابة" و"بجاية" و"الجزائر"..، كما تحدث الزياني عن الأسوار في المدن الصحراوية فقد ذكر أن "ورقلة" لها سور حصين في قوله: **"وعلى سمت الجزائر بأرض الصحراء مدينة ورقلة مدينة أزلية لها سبعة أبواب ولها سور حصين ومحيط به خندق ممتلئ بالماء خلف**

---

[1] ينظر: الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 352/3، 353، 355.

[2] ينظر: الأغواطي، الرحلة، ص87- 100.

[3] الورثلاني، المصدر السابق، 200/1.

[4] ابن هطال، رحلة الباي، ص57.

سورها.."[1]، وكذلك ماذكره العياشي عن "ورقلة" أيضا التي لها سبعة أبواب، ولا يصل أحد إلى سورها إلا من ناحية الأبواب[2]، هذه الأسوار كانت موجودة قبل مجيء الأتراك إلى "الجزائر"، أما التي بناها الأتراك فلم يرد الحديث عنها بكثرة في هذه الرحلات، ماعدا بعد الإشارات المختصرة دون تفصيل في كيفية البناء، كالتي ذكره الزياني عن داي الجزائر في وقته "حسن باشا" الذي: "**حصّن ثغور المسلمين بالصقائل والأبراج..**"[3]، كما ذكر المكناسي أيضا تحصين مدينة "الجزائر" بالأسوار والأبراج والخندق دون تفصيل في كيفية البناء ومواده[4].

أما الوزان فقد تحدث بعض تفاصيل البناء فيما يخص "قلعة بجاية" التي وصفها بأنها: "**قلعة كبيرة متينة الجدران مزخرفة بالفسيفساء والجصّ المجزع والخشب المنقوش المزدان بألوان اللازود..**"[5].

كما ورد الحديث أيضا في بعض الرحلات المغربية عن بعض المرافق العامة كالأسواق والحمامات، والفنادق وغيرها، فقد ذكر الوزان وجود الكثير من المرافق في مدينة "بجاية"، فبالإضافة إلى وجود الدور الجميلة بها، وكذلك المساجد والمدارس والزوايا، يوجد بها الحمامات والفنادق، وكلها صروح مشيدة حسنة البناء، كما توجد بها أيضا الأسواق الجميلة المنسقة أحسن تنسيق حسب تعبيره[6]، وكل هذه البناءات وجدت قبل مجيء الأتراك كما سبقت الإشارة.

والملاحظ على فنون العمارة كما جاء في مختلف الرحلات المغاربية أن أغلب هذه الرحلات لم تهتم كثيرا بتفاصيل البناء والعمارة، وإنما كان حديثها عاما، إلا في بعض الأحيان وجدت بعض التفاصيل في بناء الأسوار والمساجد وغيرها، كما وردت بعض

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص149.

(2) العياشي، الرحلة العياشية، 115/1.

(3) الزياني، المصدر السابق، ص375.

(4) المكناسي، الإحراز، ص331.

(5) الوزان، وصف إفريقيا، 50/2.

(6) المصدر نفسه، 50/2.

الإشارات إلى بعض المرافق الأخرى كالفنادق والحمامات، لكنها لم تكن بالقدر الذي يوجب ذكرها.

الفرع الثالث: الفنون الموسيقية

على غرار ذكر الفنون الأدبية والمعمارية، اهتمت بعض الرحلات المغاربية سواء الجزائرية أو المغربية بالإشارة إلى بعض الفنون المتعلقة بالموسيقى كالألحان والأناشيد، وما يستخدم فيها من أدوات وآلات.

ففي الرحلات الجزائرية وردت إشارة إلى تدريس الموسيقى، وذلك فيما أورده ابن حمادوش من أخذه فن الموسيقى بالإجازة[1]، وهذا دليل على اهتمام بعض العلماء الجزائريين بفن الموسيقى.

كما أشار إلى ذلك ابن عمارعند حديثه عن عادة أهل "الجزائر" في الاحتفال بالمولد النبو الشريف، بالقصائد المديحات والموشحات النبويات ويلحنونها على طريق الموسيقى بالألحان المعجبة ويقرءونها بالأصوات المطربة ويصدعون بها في المحافل العظيمة[2].

كما ورد الحديث في الرحلات المغربية عن الفنون الموسيقية التي كانت موجودة في ذلك الوقت خاصة الغناء مع الآلات الموسيقية، والإنشاد، التي أشار إليها الزياني في قصيدته التي ذمّ فيها قاضي المواريث بـ"تلمسان"، ومن بين ما ذكر:

ولا ولعت بلحن المنشدين ولا تحسن في الموسيقى طبع ولا وتر[3]

كما أشار أيضا إلى عدّة أمور موسيقية كأصحاب الموسيقى، ففي البيت الشعري السابق للزياني إشارة إلى وجود طوابع موسيقية، كما أشار كذلك إلى بعض الآلات الموسيقية، وهي الأوتار،

ذكر أيضا الموسيقى في قصر "باي قسنطينة" حينما دعاه إلى العشاء في قصره، فلما دخل عليه في مقصورته وجد أصحاب الموسيقى جلوس أمامه وجلساؤه يمينا وشمالا فأجلسه بجنبه وأخبره أنه وجه له الدعوة في هذا الوقت ليتأنس بالسماع للموسيقى ويزيل

---

(1) ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 431/1.

(2) ينظر: ابن عمار، نحلة اللبيب، ص15.

(3) الزياني، الترجمانة، ص144.

بها الوحشة، وأمرهم باستعمال الموسيقى[1]، كما أشار أيضا إلى وجود أصحاب الألحان كما سبقت الإشارة في صدر البيت السابق: **"ولا ولعت بلحن المنشدين"**، وهذا دليل على اشتهار الإنشاد في تلك الفترة، ومن إشاراته إلى الألحان أيضا، ما ذكره في سياق وصفه للمسجد الجديد الذي أسسه "حسن باشا داي الجزائر" في ذلك الوقت، ومن بين ما ذكر عن المسجد أن يوجد به: **"كشك يجلس به المؤذنون وأهل الألحان.."**[2]، ومن المؤكد أن أهل الألحان هم المنشدون، الذين يقيمون حفلات إنشادية، فيلحنون مختلف المدائح النبوية والدينية داخل المسجد، خاصة في المناسبات الدينية كالأعياد، وليلة القدر والمولد النبوي الشريف، وغيرها من المناسبات.

لم يغيب نصيب فن الموسيقى من الذكر في الرحلات المغاربية ولو على وجه القلة، فقد كان موجودا حاضرا، يأخذ على وجه المتعة النفسية، والطرب، وقد يعد من متممات النفس وأذواقها، ولذا نجد الزياني أورده كصفة ذوقية افتقر إليها قاضي المواريث.

كما وردت بعض الإشارات إلى الحفلات الموسيقية والرقص سواء عن العامة أو عن المتصوفة، فمن الأمور المتعلقة بالموسيقى التي وردت الإشارة إليها في الرحلات الجزائرية، الألحان والأشعار وبعض الأدوات الموسيقية عند بعض المتصوفة، حيث كان منهم من يمزجون أورادهم وأذكارهم ببعض الألحان والأشعار، واستعمال آلات موسيقية كالدف، والمزامير، وهذا ما أشار إليه الورثلاني في رحلته حين ذكر حجّ جماعة من أهل زاويته مع والده من الذين كانوا يسمعون الدف على عادتهم، وقد أنكر الورثلاني هذا الأمر واعتبره بلاء فقال: **"وقد عمّت البلوى بانكباب أبناء الطوائف على السماع بالدفوف والمزامير وسائر الآلات والأشعار والألحان، واتخذوا ذلك صراطا مستقيما، واتبعوا فيه شيطانا رجيما، ونبذوا السنة وراء ظهورهم، وزالت هيئة الشريعة من صدورهم، وكان لهم ذلك ديدنا في سائر الأزمان فصاروا مسخرة للشيطان.."**[3]، وقد كان الاستماع للألحان والموسيقى كثيرا في "الجزائر" عند العامة والخاصة من الناس خاصة المنحرفين منهم، وذلك بشهادة الورثلاني أيضا الذي ذكر: **"مما يجب التنبه إليه اجتماع النساء**

---

(1) الزياني، الترجمانة، ص156.

(2) المصدر نفسه، ص377.

(3) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 365/1.

والرجال في بلدنا في الظاهر على الخير والصلاح، وفي الواقع اتخذوا ذلك إلا للتوصل للزنى ومقدماته، يشهد لذلك من رآه بالعيان لأنهم فساق، فلما تعذر عليهم الوصول إلى الشر من بابه اتخذوا سلما يرقون به وهو السماع ليتوصلوا لأغراضهم الفاسدة.."[1]، وذكر من المناطق في "الجزائر" التي تقام فيها مثل هذه الأمور: "عامر" و"بني دراج"، و"بني ورثلان"، و"بجاية" في آخر رمضان، ومسجد "البلوط" في "بني يعلي"، ومحل الأولياء في كل مكان، كـ"قبر أحمد الشريف"، و"يحي العيدلي"، و"عبد الرحمن الثعالبي" وغيرهم[2].

كما أشار ابن حمادوش إلى آلات الطرب والموسيقى في الأسواق، في سياق حديثه عن اهتمام الجزائرين بالاحتفال بالمولد النبوي، فهم يعظمون المولد بالذبائح، كما يستعملون الطبالين والغياطين، وآلات الطرب في السوق[3].

كما ورد ت بعض الإشارات إلى الأمور الخاصة بالموسيقى والرقص عند المتصوفة والعامة في بعض الرحلات المغربية، فأشار الزياني أيضا إلى الشطحات والرقصات التي يمارسها المتصوفة الدراويش جرّاء سماعهم للموسيقى، فهؤلاء يجتمعون صفوفا، ويذكرون وقوفا، ويتمايلون بأجسامهم ويدكون الأرض بأقدامهم، ويجتمعون على اللهو، ويرقصون ويأكلون الكسكس واللحم وهم فرحون، كل منهم ينشد من طريق ناديه وجمعه، يأكلون لهفا ويشربون سرفا، ومنهم أتباع "الطريقة التيجينية" التي ظهرت بـ"تلمسان" زمن الباي "محمد الكبير"[4]، أما الوزان فأشار إلى الرقص والعزف، فذكر الرقص في سياق حديثه عن مدينة "بجاية" التي كان سكانها: **"ميّالون إلى المرح والموسيقى والرقص"**[5]، وأشار إلى العزف في حديثه عن سكان مدينة "دلس" الذين "يحسنون تقريبا كلهم العزف على العود والقيتار.."[6].

---

(1) الورثلاني، الرحلة الورثلانية، 1/ 376.

(2) المصدر نفسه، 1/ 378.

(3) ابن حمادوش، لسان المقال، ص84.

(4) الزياني، الترجمانة، ص460، 461.

(5) الوزان، وصف إفريقيا، 51/2.

(6) المصدر نفسه، 42/2.

ومن المؤكد وجود فنون أخرى في تلك الفترة لم يلتفت إليها الرحالة المغاربة، فحديثهم عن الفنون السالفة الذكر لم يكن حديثا مفصلا فيه أو مخصوصا بالذكر، وإنما كانت إشارات طفيفة، وعابرة فقط.

ومن هنا تتجلى مواطن ورود الموسيقى سواء في بلاط الحكم، أو عند الطرق الصوفية، أو في الحفلات والأفراح والمناسبات.

إذا فالملاحظ على الحالة الثقافية في الجزائر من خلال الرحلات المغاربية أن أغلب الرحلات المغاربية سواء الجزائرية أو المغربية قد أسهبت في الحديث عن الحالة العلمية للجزائر في تلك الفترة، في حين نجد نفس الرحلات لم تكثر الحديث عن الحالتين الدينية والفنية إلا فيما يخص ظاهرة التصوف فإن الحديث عن مظاهره كان حاضرا بقوة.

خلاصة الباب:

يخلص مضمون هذا الباب إلى أن الرحلات المغاربية عموما قد اهتمت بذكر أهم الأوضاع العامة للجزائر في العهد العثماني، بالرغم من أنها لم تقصد الحديث عن ذلك بشكل منظم أومدروس، وإنما جاء حديثها ذلك ضمنيا من خلال وصف هذه الرحلات لما شاهده أصحابها وما عايشوه وعاصروه من أحداث ووقائع في الجزائر في تلك الفترة، سواء فيما يخص الأوضاع السياسية بما فيها مراحل الحكم العثماني في الجزائر، أوالأنظمة والأجهزة الإدارية، أو حتى الحالة العسكرية للجزائر، أو فيما يخص الأوضاع الاجتماعية بما تحويه من خصائص المجتمع، أو حالته الاقتصادية، أوحتى الأزمات التي واجهها، بالإضافة إلى الأوضاع الثقافية التي شهدت وضعا متميزا، إذ كانت الثقافة محصورة على الشريعة، فكان الاهتمام بأمور الدين أبرز ما ميز العلماء والأدباء، وغيرهم في ذلك العهد، بالإضافة إلى سيطرة ظاهرة التصوف على الحياة العلمية والدينية.

فتلك الرحلات كانت عبارة عن موسوعات شاملة لمختلف الأخبار والوقائع العامة التي كانت عليها "الجزائر" أثناء تواجد العثمانيين بها، فمختلف الرحلات سواء الجزائرية منها التي تعتبر محلية بامتياز، إذ لايعرف البلد أكثر من أهله كما يقال: **"أهل مكة أدرى بشعابها"**،أو المغربية التي زاحمت نظيرتها السابقة في محاولتها الإلمام بجميع نواحي الحياة في "الجزائر" في تلك الفترة، باعتبار الرحالة المغاربة كانوا زوارا لـ"الجزائر" سواء استقروا بها أو اتخذوها طريقا للعبور نحو المشرق الإسلامي سواء للحج أوطلبا للعلم أو للسفارة، أو حتى لهذه الأغراض مجتمعة في رحلة واحدة،فجلهذه الرحلات قدّمت لنا صورة متكاملة من الحياة العامة في "الجزائر": سياسيا واجتماعيا وثقافيا..، كما أن هذه الرحلات لم تغفل الأوصاف العامة لمختلف الأراضي الجزائرية ومختلف المشاهد الجغرافية والطبيعية بها، بالإضافة إلى إتحاف نصوصها بالأخبار التاريخية عن الأعصر المختلفة التي مرت بها "الجزائر" قديما وحديثا، إذ لم تكد نصوص هذه الرحلات تختلف كثيرا عن بعضها في ذكر تلك الوقائع والأخبار، هذا إن دلّ على شيء فإنّه يدل على مدى مصداقية هذه الرحلات وانطلاقها من الواقع المعاش، فالرحالة هم شاهوا عيان على الحدث، لذلك فكلامهم أصدق من أي وثيقة.

الخاتمة

الخاتمة:

عرفت الجزائر في العهد العثماني العديد من الرحلات التي اهتمت بتدوين الأحداث الهامة وتسجيل الملاحظات الدقيقة التي تخص الجزائر في تلك الفترة، ومن بين تلك الرحلات كانت في طليعتها رحلات جزائرية سواء كانت داخل الجزائر، أو اتجهت نحو المغرب الأقصى لغرض علمي في الغالب، أو كانت وجهتها نحو المشرق لغرض الحج، كما كانت هناك رحلات مغربية متعددة الاتجاهات والأغراض، وجلها كانت نحو المشرق إما للحج أو للسفارة، وقد كانت هذه الرحلات ذات أهمية بالغة باعتبارها مصدرا من مصادر تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية، ومن خلال دراستي لموضوع الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني، استطعت بحول الله وتوفيقه الوصول إلى نتائج هامة منها:

- أنّ الرحلة لم تقتصر على كونها حركة الإنسان من مكان إلى آخر لأهداف ودوافع معينة، وإنما تعدّت ذلك لتكون تجربة بشرية مليئة بالمعارف، حين أصبحت فنا قائما بذاته خاصة في مجال الأدب والجغرافيا والتاريخ، وقد كان للقطر المغاربي إسهاما كبيرا في مجال الرحلة والتأليف فيها كفن أدبي، فأنجب هذا القطر رحالة كبارا جابوا الأقطار والبلدان، فسجلوا ما عرفوه وشاهدوه من عجائب وغرائب البلدان في مؤلفات ضخمة تندرج تحت أدب الرحلات بأنواعها المختلفة، وأصبحت مؤلفاتهم لا غنى عنها للباحثين في مختلف المجالات حين أصبحت عبارة عن موسوعات معرفية هامة، جمع فيها مؤلفوها بين علوم شتى من: تاريخ وجغرافيا، وأدب وفقه وحديث وتصوف..إلخ مما يدل على غزارة فكر الرحالة المغاربة، واتساع مداركهم وقدرتهم على الجمع بين مختلف هذه الفنون المعرفية.

- من عمالقة الرحالة المغاربة في العصر الحديث الذين خلفوا مؤلفات مهمة في فن الرحلة نجد على رأسهم: الوزان في كتابه الجغرافي: "وصف إفريقيا"، والعياشي في رحلته: "ماء الموائد"، والزياني في رحلته "الترجمانة الكبرى"، بالإضافة إلى الورثلاني في رحلته "نزهة الأنظار"، وابن عمار في رحلة "نحلة اللبيب"، والطبيب الرحالة ابن حمادوش في "لسان المقال"، وغيرهم.

- الملاحظ على الرحلات المغاربية أنها ذات أغراض متعددة، فمنها الحجية ومنها العلمية ومنها السفارية، وقد تجتمع عدّة أغراض في رحلة واحدة فتصبح رحلة عامة شاملة، كما تتعدد دواعي تدوينها، التي تدور حول هدف واحد تمثل في خدمة الحقيقة بالدرجة الأولى لذلك تجدهم قد كتبوا رحلاتهم بحرص شديد على النقل ودقة متناهية في الوصف وأمانة مخلصة للرواية، فتركوا مؤلفات بديعة تحوي فوائد عظيمة كانت عبارة عن موسوعات علمية للأجيال اللاحقة، سواء كان تدوينهم برغبة منهم، أو بطلب من الآخرين.

- الملاحظ على منهج الرحلات المغاربية عموما، تميز الرحالة المغاربة بميزات خاصة في تدوين رحلاتهم، فكل يكمل ما نقص من سلفه ويضيف إلى فن الرحلة لبنات جديدة أعطته صفته وميزته عن باقي الرحالة المسلمين، إذ لا يوجد اختلاف كبير في الرحلات المغربية على نظيرتها الجزائرية سواء في الوصف أوالسرد أو النقل، أو حتى منهج تدوين الرحلة، ذلك أنّ أغلب الرحالة كانوا تلاميذ المدارس نفسها تقريبا في مختلف البلدان المغاربية، سواء بالمغرب الأقصى، خاصة بفاس، أو في الجزائر خاصة العاصمة وتلمسان وقسنطينة، أو في تونس في جامع الزيتونة، وغيرها من مراكز الإشعاع العلمي آنذاك، فهؤلاء الرحالة أغلبهم أبناء بيئة علمية واحدة، ووجود بعض الاختلافات يكمن في وجهات النظر، أو لاختلاف الأوضاع السياسية في بلدانهم، أو لاختلاف مكانتهم في المجتمع، بالإضافة إلى التفاوت بينهم من الناحية العلمية والثقافية، وما إلى ذلك.

- شاعت الرحلات المغاربية حتى أصبحت لا غنى عنها في العصر الحاضر لفهم التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إفريقيا وآسيا، إذ تكمن أهميتها في تعرضها بالوصف الدقيق لمظاهر الحضارة الإسلامية في العواصم والمدن بالمشرق، ووصفها لممالك إفريقيا، كان الناس لا يعرفون عنها شيئا حتى أهلها أنفسهم، لذلك أصبحت هاته الرحلات محل اهتمام المؤرخين والأدباء والجغرافيين، وغيرهم من العلماء سواء المعاصرين لتلك الرحلات كأخذ أصحاب الرحلات عن بعضهم البعض، أو اهتمام المؤرخين والأدباء المغاربة والمشارقة الذين جاءوا بعد الفترة العثمانية بتلك الرحلات، فأخذوا يتدارسونها بالتحقيق والنقل منها، كما أن الغربيين أيضا اهتموا بترجمة بعض

الرحلات المغاربية إلى لغاتهم اللاتينية، وأخذوا عنها الكثير من المعلومات ساعدتهم في معرفة البلاد الإسلامية، واستفادوا منها كثيرا في مجال حركتهم الاستعمارية فيما بعد.

– تكمن القيمة المعرفية للرحلات المغاربية أنها كانت زاخرة بالمعلومات والأخبار في شتى المجالات: الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية للبلدان المزارة، منها الجزائر، إذ كانت هذه الرحلات مليئة بالأوصاف لمختلف المناطق الجزائرية سواء الشمالية منها أو الجنوبية، وتنوعت هذه الأوصاف من حسية ومعنوية حسب تأثيرها في نفسية كل رحالة، فوجدناهم اتجهوا في وصفها بكل قدراتهم الإبداعية من لغة راقية، وأسلوب بديع وفن أدبي رفيع، فنالت المشاهد الجغرافية حظّها الأوفر من تلك الأوصاف، إذ لم يترك الرحالة مظهرا من مظاهر الطبيعة إلا وصفوه فأتوا على ذكر العام والخاص منها، فمن البحر، إلى النهر إلى الوادي ومن السهل إلى الجبل، ومن التل إلى الهضبة، وكان منها أيضا التربة والرمل، ومن مظاهر المناخ من فصول وأحوال الجوّ وتقلباته على فصوله، إلى الحديث عن الغطاء النباتي من ذكر الأشجار المثمرة إلى الحدائق المزهرة، والأعشاب، وكل ذلك ينمّ عن الحسّ الجغرافي القوي الحاضر لدى رحالتنا. وإضافة إلى كل ذلك لم يغفل بعض الرحالة الأخبار التاريخية الخاصة بمختلف الأزمنة التي مرت بها الجزائر منذ أن كانت تحكمها القبائل ك"مغراوة" و"صنهاجة"، مرورا بالاحتلال "الروماني" إلى "الفتح الإسلامي" امتدادا لحكم "الدويلات المغربية" المتعاقبة عليها وصولا إلى دخول "العثمانيين".

وفيما يخص الحالة السياسية للجزائر نجد هناك توافقا كبيرا بين ما ورد في الرحلات الجزائرية والرحلات المغربية في بعض الأمور السياسية، كالإشارة إلى بعض مراحل الحكم العثماني في الجزائر خاصة المرحلة الأولى التي وردت الإشارة إليها في رحلة ابن حمادوش الجزائري، ورحلة الوزان المغربي، كما توافقت أيضا في ذكر الحالة السياسية للصحراء الجزائرية، والتي كانت مقسمة حسب الرحلات المغاربية إلى ثلاث مناطق خاضعة للحكم العثماني، ومناطق مستقلة عن حكم الأتراك تابعة لحكم أمراء محليين، ومناطق لم تخضع لأي حكم.

ولم تغفل الرحلات المغاربية الحديث عن الجوانب الاجتماعية للجزائر في العهد العثماني

كخصائص المجتمع من حيث التركيبة السكانية والفئات والتي كانت عبارة عن أتراك وكراغلة والأهالي الأصليين بالإضافة إلى الدخلاء كالأندلسيين واليهود والمسحيين، وكذلك العبيد من السودان، كما تحدثت عن العادات والتقاليد والأخلاق، وبعض الأزمات التي تعرض لها المجتمع في تلك الفترة وعلى رأسها الأوبئة وانتشار البدع والضلالات، وتطرقت أيضا للحديث عن مختلف النواحي الاقتصادية في المجتمع الجزائري، حيث لا يكاد يوجد اختلاف في ذكر تلك الأوضاع بين ما جاء في الرحلات الجزائرية أو ما جاء في الرحلات المغربية، إلا في بعض الأحيان فنجد مثلا اهتمام الرحلات المغربية بذكر المستوى المعيشي للأفراد خاصة في رحلة الوزان، دون التفات الرحلات الجزائرية إلاما كان عبارة عن إشارات غير مقصودة.

ولعل الجانب الأهم في هذه الرحلات الذي استحوذ على المساحة الأكبر هو حديث تلك الرحلات عن الحالة الثقافية بما فيها الدينية، والعلمية والفنية،وقد أسهبت الكثير من هذه الرحلات في الحديث عن الحالة العلمية للجزائر في تلك الفترة، باعتبار الكثير منها رحلات علمية، كما أن البارز على أغلب هذه الرحلات هو ظاهرة التصوف فإن الحديث عن مظاهره كان حاضرا بقوة، باعتباره الصبغة الغالبة على الحياة العامة للناس في تلك الفترة، كما أن أغلب الرحالة هم من أهل التصوف وعلى رأسهم الورثلاني.

وعلى العموم فإن الرحلات المغاربية قد اهتمت بذكر أهم الأوضاع العامة للجزائر في العهد العثماني، بالرغم من أنها لم تقصد الحديث عن ذلك بشكل منظم أو مدروس، وإنما جاء حديثها ذلك ضمنيا من خلال وصف هذه الرحلات لما شاهده أصحابها وما عايشوه وعاصروه من أحداث ووقائع في الجزائر في تلك الفترة. لذلك فإنها ذات أهمية بالغة في ذكر أخبار أو إشارات عن المدن والمناطق الجزائرية المختلفة، سواء في الساحل أو التل أو الصحراء، باعتبار أنها سلكت طرقا مختلفة، كما أن أصحابها كانوا من الطبقة المثقفة أي أن أغلبهم كانوا علماء وفقهاء وأدباء ومتصوفين أيضا، لذلك فكل ما جاء في رحلاتهم فهو بعيد عن الخطأ قريب من الحقيقة أكثر يمكن للباحث في تاريخ الجزائر الحديث الاعتماد عليه بكل ثقة.

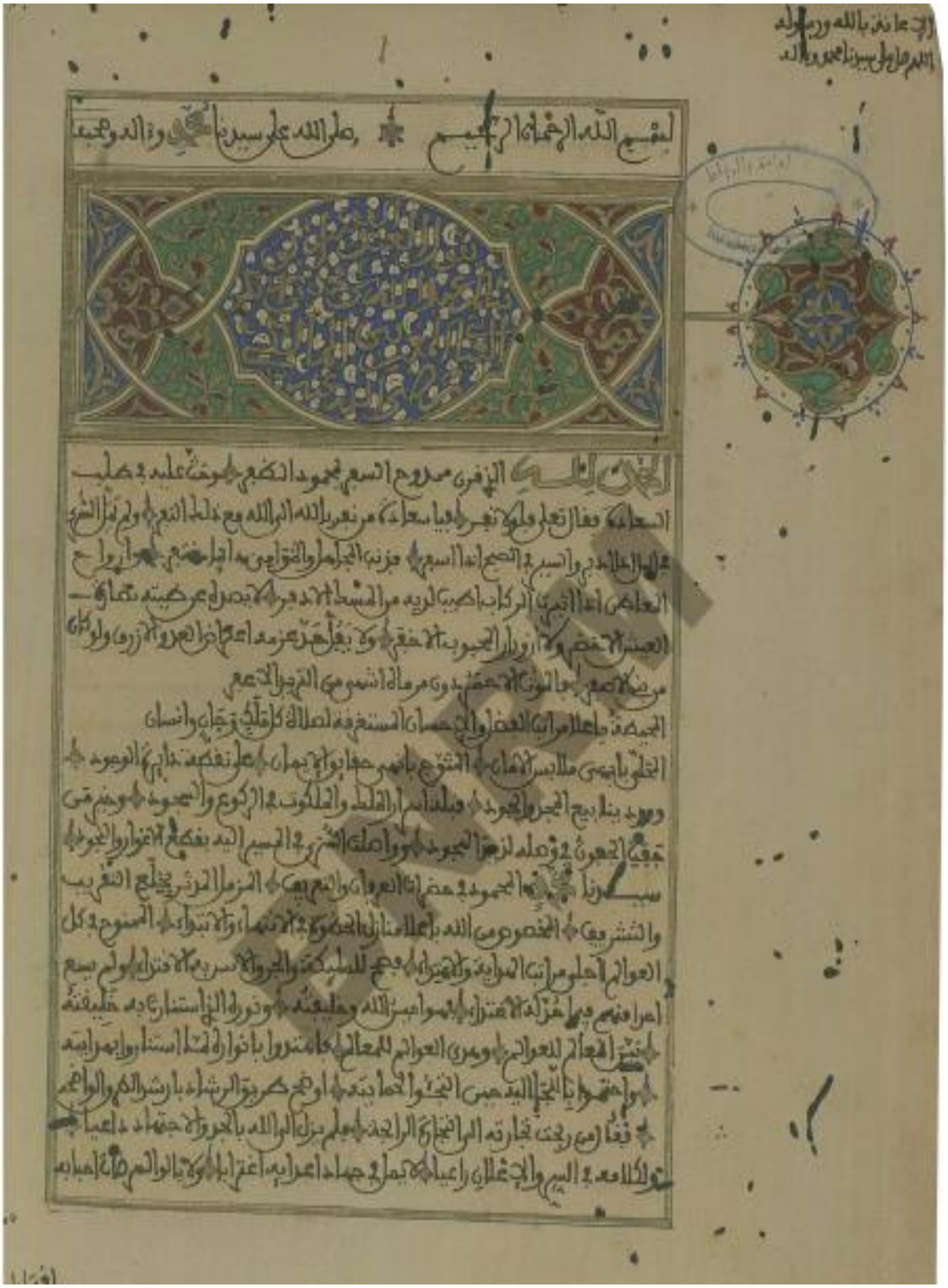
توصيات:

ككل الأعمال الأكاديمية المحدودة بحجم وزمن وتنظيم قانوني ومنهجي خاص، فإن عملي هذا يعتريه النقص، والكمال لله، فبعد إتمامي لهذه الدراسة تبيّن لي ما ينقصها من التوضيح والتفصيل والتحليل العميق الذي لم يسع المجال لتحقيقه نظرا لكثرة الرحلات المدروسة وضخامة نصوصها وتزاحم أفكارها وصعوبة لغتها، لذلك أرجو من الباحثين أن يُكمّلوا النّقص ويُضيفوا ما لم أتمكّن من إضافته في مجال دراسة الرحلات التي تعتبر مصدرا هاما من مصادر دراسة التاريخ عموما والإسلامي والجزائري على وجه الخصوص، وقد تكفي المقارنة بين رحلتين في معالجة جانب من الجوانب تجنبا للصعوبات المذكورة.

وفي الأخير أحمد الله الذي وفقني لإنجاز هذه الدّراسة وأرجو أن تعمّ فائدتها جميع الباحثين في تاريخ الجزائر الحديث، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله الكرام الطاهرين وأصحابه الأوفياء المخلصين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الملاحق

الملحق رقم 01: نماذج من رحلة العياشي


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

90

كما رأيناه الدولة لطيفة ومن قرأها معهما وظيفة الشيخ عند قبره وأخبرني بها عن سيدي
محمد بن علي وكان قد أسن وقارب المائة أو تجاوزها ومستند بعض أحمد على نفسه في
ومع ذلك لا يترك صلاة الجمعة بمسجد الشيخ ويحضر الوظيفة الآن ما تقوم فرادى
واحتزم عن ضريح الشيخ واحضر أصحابه وتلا مرثية سيدي امه وفيه يقول الشيخ رضي
الله عنه مراعيا ومعارضا ومرام الأولياء من يا أبو زعامه يا عنق حمامه ابشر
بالسلامة يوم القيامة وجنيت الله اعظم ابشارات على لسان احمد أهل الاشارات
ومن أخبرني بهذه الحكاية السيد أن الشقيرمان كان ما وأنا في قراءة الوظيفة
مرة أنشدها قوله: يا مولانا يا مجيبه من يدعوك ما يخيب :. اقض حاجتنا في
: يا ماضي لا يغيبه ما بين الخ بعد قوله يا عالم السر منا الخ وأخبرني أنه لم يكن من كلام
الشيخ وأنا زاده تلميذه الامام الخروبي فأمر بها أهل زاوية الشيخ فأمر اللجج
واشتكوا عليهم في الاعراب فأمرهم بزيادته وأدرجه في الوظيفة واستمر عليها أهل
الزاوية وكثير من الناس يظن أنه من كلام الشيخ رضي الله عنه والصحيح إن شاء الله ما ذكرناه
إذ لم تجد هذه الزيادة في النسخ الصحيحة المتصلة السند والرواية بالشيخ ولم يذكرها
الخروبي في كتابه كفاية المريد وأهل الطرق التي رأيتها هذه الزيادة كسيدي بوشيخ
والرتاسي إلى أحد رجال الإذنه قال أنا أحضر لهم نسخه بركات الحكاية بالاجازة
واجتهد في تصحيح من النسخ بعدة التصحيح رأيته فقط اخي نسخة من الوظيفة
رضي الله عنه أمر لطيفة ومن أخبرني سيدي أبو العباس المذكور أن جد الاكابير
أحمد الذي كان قرب الشيخ قال الشيخ في حياته لا نبني هنا زاوية ونحن هنا أو غابا
فقال له يا أحمد لا تهوع راجحة مسكنا إلا بعد ما نسوس تحت التراب ثم بعد موته
وكثرة الواردين والزائرين وانتشار صيته في مشارق الأرض ومغاربها بنى تلميذه زاوية
المذكور المسجد بإزاء قبره وسكن عنده بعد موته بعشر بن سنة وهو مدفون عن يمين
الأضرحة من وأمر شرح الرسالة للشيخ بخطه بيده رضي الله عنه ومن لطيفة
هناك أيضا اللاخ الله صاحبنا الفقيه سيدي علي بن عز الدين ومن أيضا كان من
أصحاب الشيخ وتيسر بهذا البلد امتلمس من الرجل في بعض فروع الفقه وكان قبل هذا
متوليا للقضاء بهذا البلد ثم عزل وقد أخفيته في الله تعالى وأعطاني ورقة بخط الشيخ
رضي الله عنه من شرح الرسالة واشترط علي أن أثنيه عنها يدعو على عرفات

100

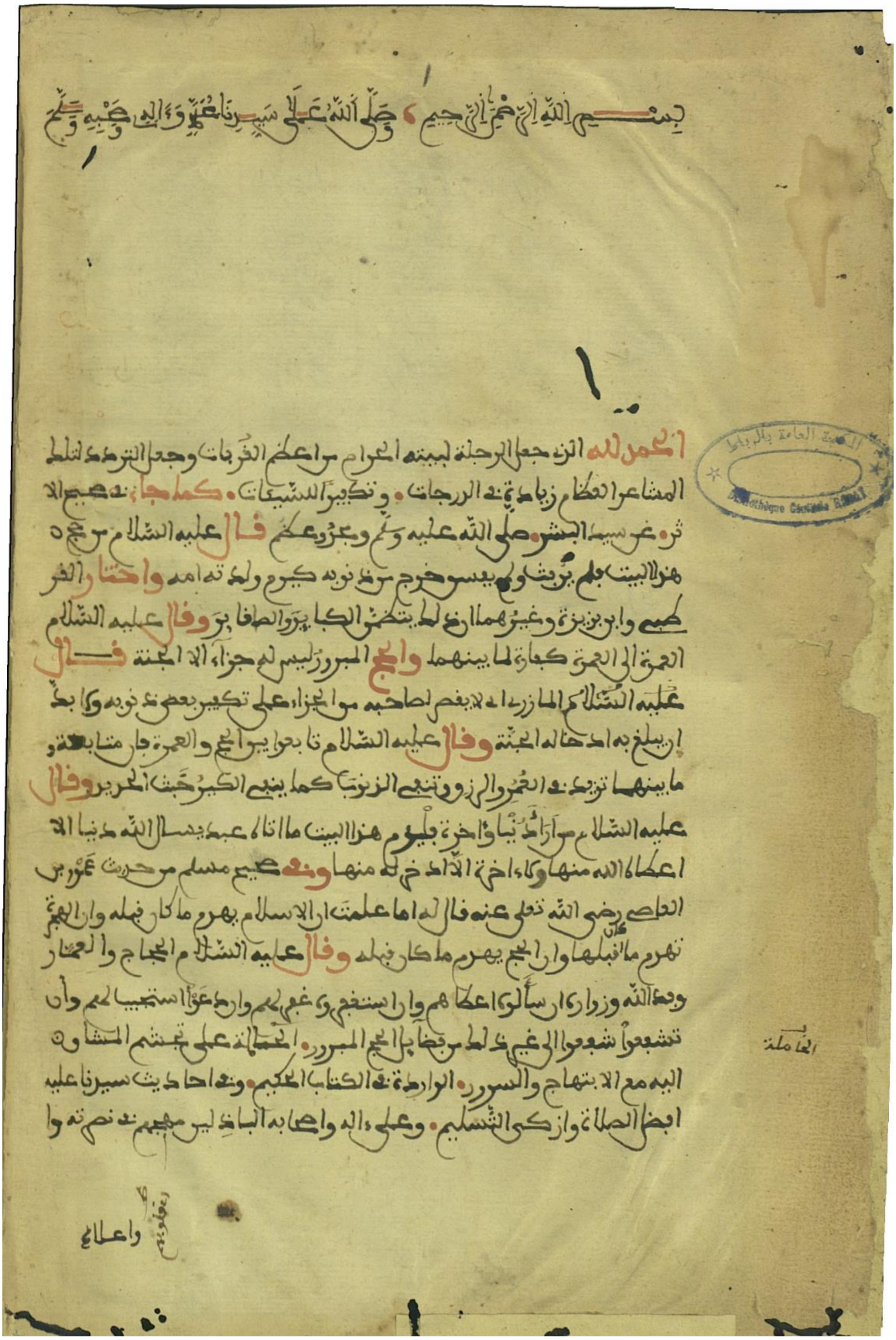
الحيوانات عجايب وكذلك الغنم لا يسوقونها انما يسير صاحبها امامها فلقد اوكثرنا ومن
تتبعه واذا امهل في السير امهلت واذا اسرع اسرعت واذا عرج عرجت وبالجملة هي كالكبش
الى السوق وهو يتبعه مثل الكلب المعلم ثم ارتحلنا من سلوك وتنكبنا طريق
الجبل لتوعرها وصعوبة خلو اهله وتلصصهم على الحجاج وسلكنا طريقا بين البحر والجبل بين
الجبال ومشينا مسافة سبعة ايام لا ماء فيها الا ما غادرته الامطار في قيعان
الارض ولكن بفضل الله ما فتح علينا مسافة يوم الا وجدنا من الماء يجري الكفاية ثم
طلعنا الى سفح الجبل وبتنا هناك ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا قرب لغرض عرض لبعض
امراء الركب فيه بعض الغرض وطلب اكثر الناس من الاقامة مرض ثم ارتحلنا والجبل
عن يسارنا ومررنا على ماء يقال له الحفا هنيئا عذب كبير واستغنينا عنه وبتنا بموضع يقال
له الجزوية وفيه ماء ثم ارتحلنا وجئنا الى وادي سمى الوادي قبل العصر ووجدنا فيه غديرا
كبيرا او بات الناس فيه سوق صغير وفي كل ذلك لم تزل العرب من سوق مع اعراب
الجبل يقومون فيه فتعم الركب ثم ارتحلنا منه ومررنا على مياه كثيرة وربيع
انف في اودية عظيمة من الجبال تأكل منه الابل دون الحاجة وسرنا يومنا الى الليل
وعند نزولنا جاءت قافلة من الاعراب تحمل تمرا كثيرا اقاموا به سوقا في بيوتهم بيعهم
وما جاؤوا لحاجة الناس اليه واخذ الحجاج منه كفايتهم لصوم رمضان ارخص سعر
وذلك فضل من الله ونعمة والله ذو فضل عظيم وتمر سوق من اعجب التمار لم ار مثله
نوعا وفيه الوان لم ار يشابه تمر الاشير لونا وطعما ومن الناس من اكله منه وانفق الا عادتهم
انهم لا يحملونه الا في قفاف من الجريد تسع كل واحدة قربا من نصف قنطار ويجعلون لها
معاليق تعلق بها على اقتاب الابل فيحمل الجمل منها عشرا او اكثر او اقل على حسب
صغرها وكبرها وقوة الابل وضعفها وتلك صنعة عجيبة فينبغي الحج على اله تكليفا
ولا يحتاج مشتريه الى غرائر للحملان ولعل اهل مغربنا يفعلون ذلك ثم ارتحلنا من هناك
وجئنا نخل الغفر الحنيف ووجدنا فيه مياها كثيرة في مناهل ووجدنا به جبانة
قتلى مغتس مبنية بالحجارة التي رصفها بناء متقنا وكل واحد طوله نحو من ثمانية
اذرع في مثلها وقد تقع عند الافواه للشعاب وجمعنا من الماء ما يكفي وكاد ان يتجر
واخذ الناس منه حاجتهم وتزودوا ومن الغفر من اعظم القصور الخالية التي بقيت
رسومها في تلك البلاد وفيه اثر مسجد ومادتها بافنية الى الان وليس فيه ماء حي

413

وقد صرحوا بأن القوة الفكرية المنطبعة [illegible] التركيب والتفصيل والاستنباط متحركة دائما لا تسكن
عن النوع ولا في الكيفية أصلا وأما على ما ذكر في بيان الحال زمن أن الانسان لا يزول العقل
والخيالة ممكن بأن يجعل في ذلك النوع وذلك القدر من مخصص هو القصد اليه ولا يتصور
ذلك الا بعد العلم به انتهى كلام القائل بالاستقلال وأما القائل بأن العبد لا يشاء الا أن يشاء الله
ولا قوة له في ذلك الا بإذن الله ولا يعلم شيئا من التفاصيل الا ما شاء الله فلا يلزم منه ذلك لأن المخصص
عنده لما جاء في ذلك النوع وذلك القدر هو مشيئة الحق سبحانه وهي تابعة لعلمه تعالى
وعلمه محيط بالتفاصيل والعبد يقصد الفعل على الوجه الذي أراد الله له ويمكنه منه
والعبد عالم به على هذا الوجه وهو كاف للقصد اليه التابع لمشيئة الله تعالى وإن لم يكن
كافيا في زعم الاستقلال ونحن لا نرى الا التأثير بإذن الله لا بالاستقلال فما شاء الله كان
وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وسلام على المرسلين
والحمد لله رب العالمين تم تسويده ليلة الاربعاء ٨ رجب سنة ١٠٧٣ انتهى

كمل النصف الاول من الرحلة العياشية
ويتلوه النصف الثاني ، ومنهم الشيخ ياسين

الملحق رقم 02: نماذج من رحلة الدرعي



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي جعل الرحلة لبيته الحرام من أعظم القربات وجعل التردد لتلك
المشاعر العظام زيادة في الدرجات وتكفيرا للسيئات كما جاء في صحيح الأ
ثر عن سيد البشر صلى الله عليه وسلم وعز وعظم قال عليه السلام من حج
هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه واختار القر
طبي وابن بزيزة وغيرهما أنه لا يكفر الكبائر والصغائر وقال عليه السلام
العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة قال
عليه السلام الحاج زائر الله لا يقصر لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه وإن بد
أن يبلغ به أن يدخله الجنة وقال عليه السلام تابعوا بين الحج والعمرة فإن متابعة
ما بينهما تزيد في العمر والرزق وتنفي الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد وقال
عليه السلام من أراد دنيا وآخرة فليؤم هذا البيت ما أتاه عبد يسأل الله دنيا إلا
أعطاه الله منها وكان آخرة إلا ادخر له منها وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن
العاص رضي الله تعالى عنه قال له أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة
تهدم ما قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله وقال عليه السلام الحجاج والعمار
وفد الله وزواره إن سألوه أعطاهم وإن استغفروه غفر لهم وإن دعوا استجيب لهم وأن
يشفعوا شفعوا إلى غير ذلك من فضائل الحج المبرور الحاملة على تجشم المشاق
إليه مع الابتهاج والسرور الواردة في الكتاب الحكيم وفي أحاديث سيدنا عليه
أفضل الصلاة وأزكى التسليم وعلى آله وأصحابه البائن ليس مثلهم في نصرته وا

واعلم

113

محمد الشريف التلمساني وهو اخذ عن من تقدم وعن الامام الحافظ ابي العباس
احمد بن قاسم المعروف بالقباب وهو اخذ عن قاضي الجماعة بفاس ابي عبد الله محمد
بن احمد بن عبد الملك الفشتالي صاحب الوثائق وهو اخذ عن ابي الحسن بن سليمان
القرطبي وهو اخذ عن ابي عمرو عبد الرحمن بن عبد الله بن سليمان القرطبي وهو
اخذ عن ابيه محمد وعبد الله بن سليمان وهو اخذ عن الامام الجليل ابي الوليد محمد
بن احمد بن محمد بن احمد بن رشد الحفيد مولف بداية المجتهد ونهاية المقتصد وغيره
وعن الحافظ المبرز ابي عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون مولف الانوار في الجمع بين
المنتقى والاستذكار وغيره فالاول وهو الحفيد اخذ عن ابيه وجده وعن
الامام النظار المجتهد المدبر البارع في تحقيق النظر ابي عبد الله محمد بن علي
التميمي المازري مولف شرح التلقين وغيره والثاني وهو ابن زرقون اخذ عن
القاضي ابي الفضل عياض جامع مشارق الانوار اللامعة فانتهت الطرق
الى اعلام الصنعة وشيوخ الفتيا وايمة الشورى الامام المازري وابي الوليد بن
رشد وابي الحاج وابي بكر الطرطوشي وابن العربي وابي محمد بن عتاب
والقاضي ابن عيسى التميمي اما الامام المازري فاخذ عن الامام المتفنن
راس الفتيا بافريقية ابي الحسن علي بن محمد اللخمي مولف التبصرة وعن الحافظ النظار
ابي محمد عبد الحميد بن محمد المعروف بابن الصائغ مكمل تعليقة التونسي وهما
اخذا عن الامام المرجوع اليه ابي اسحاق ابراهيم بن حسن التونسي مولف
التعليقة على المدونة والعلامة النظار ابي القاسم بن محرز القيرواني مولف التبصرة
وهما اخذا عن الامامين الكبيرين والعالمين الجليلين ابي بكر بن عبد الرحمن وابي
عمران الفاسي وهما اخذا عن شيخي المذهب ومن شد ازار المذهب وملئت
الدنيا من مسائل الانظار ابي محمد عبد الله ابن ابي زيد مولف الرسالة والنوادر والمختصر
وغيرها وابي الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي وزاد ابو بكر بن عبد الرحمن
عن ابي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الجوهري المصري وزاد ابو عمران
الفاسي عن ابي عبد الله محمد بن احمد المعروف بالوشا المصري ومدار اعني الي
شاو الجوهري اخذا عن راس المالكية في عصره ابي اسحاق محمد بن القاسم بن شعبان

بابن القرطي بقاف مضموم وراء ساكنة وطاء مهملة بعدها ياء النسبة المصري
مولف الزاهي ومختصر ما ليس في المختصر وهو اخذ عن الفقيه الكبير ابي بكر احمد بن
سهل بن عيسى بن صرفة الفقيه المصري المعروف بالزيات وهو اخذ عن رابع المحمدين
وكبير الفقهاء الذين صحبوا فقهاء اهل عصره بمصر ابي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد
الحكم وهو اخذ عن ابيه وعن ابن القاسم واشهب وابن وهب واما الشيخان
الذي سكاو الجبلان الشامخان ابو محمد بن ابي زيد وابو الحسن القابسي فاخذا عن الحافظ
ابي ميمونة دراس بن اسماعيل الفاسي وعن عالم افريقية القائم على مذهب مالك
ابي العباس عبد الله ابن احمد بن ابراهيم الابياني بكسر الهمزة والموحدة المشددة
المكسورة بعدهما مثناة تحتية وزاد ابن ابي زيد عن الحافظ المبرز الجليل القدر ابي
بكر محمد بن اللباد الفقيه والذي عليه مداره وعن العالم الثقة ابي العرب محمد بن احمد
بن تميم التميمي اما ابو ميمونة دراس فاخذ عن جماعة منهم الحافظ ابو الحسن
علي ابن عبد الله بن ابي مطر وهو اخذ عن فقيه المذهب ومفتي مسائله والمعول على
قوله في عصره ابي عبد الله محمد بن ابراهيم المواز مولف المختصر المعروف بالموازية وهو
اخذ عن محمد بن عبد الحكم وابن الماجشون واصبغ والحارث بن مسكين والاخيران
اخذا عن ابن القاسم واشهب وابن وهب واما الثلاثة ابو العباس الابياني وابو
بكر بن اللباد وابو العرب التميمي فاخذوا عن الامام الحافظ المجاب الدعوة ابي
زكرياء يحيى بن عمر الاندلسي الفقيه والذي مولف اختصار المستخرجة وعن الحافظ المفر
م ابي جعفر احمد بن سليمان المعروف بابن الصواف وعن العالم الورع احمد بن محمد الاشعري
المعروف بحمديس القطان وثلاثتهم اخذوا عن امام العلم والعمل ابي سعيد عبد السلام
سحنون ابن سعيد التنوخي الفقيه والذي مولف المدونة وتسمى ايضا المختلطة وهو
اخذ عن علي بن زياد التونسي وابن اشرس وابن غانم وابن القاسم واشهب
وابن وهب وعبد الله بن عبد الحكم وعبد الملك بن الماجشون واما زعيم فقهاء
وقته باقطار الاندلس والمغرب ابو الوليد محمد بن احمد بن رشد والحافظ المشاور
ابو عبد الله محمد بن احمد بن الحاج فاخذا عن جماعة منهم شيخ الشورى ابو
جعفر احمد بن محمد بن رزق القرطبي وعليه معولهما وعن شيخ الفقهاء القوال بالحق

ابي

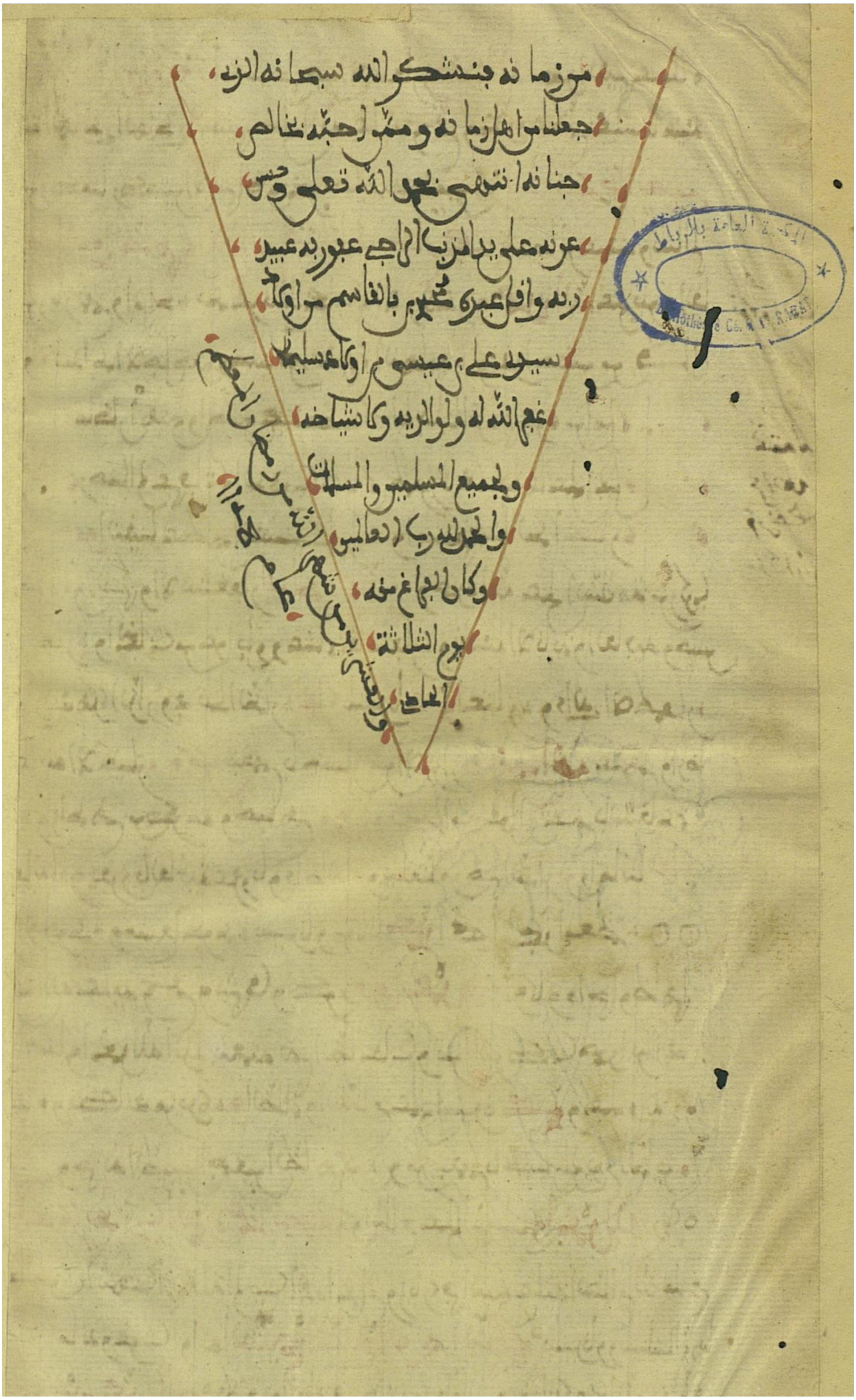
227

قد دخلنا المدينة يوم الخميس قبل الإسفار، وأممنا المسجد الكريم عمّره الله
بسنة الهادي الهاشمي صلى الله عليه وسلم ومجّد وعظّم، فجلسنا هنيئة
حتى ركعنا ركعتين الإشراق، وخرجنا منه إلى روضة سادتنا أهل البقيع
الأخيار والأولياء الأطهار، فجعلناها ختام حجنا تتميما لرغبتنا ونيلنا المرام
من زيارتهم والمراد، بعد عزمنا للإياب والأولاد، وحمدنا الله على بلوغ الغاية
والمنتهى والأجل حتى وصلنا من السفر النهاية، ولقد أحسن من قال:

ما كان أهنى وأحلى جدة حصلت ... لما جئنا الذي نرجوه من أمل
رحنا إلى عرفات والأنوار على ... ظهورنا حططناها على الجبل
واستفينا عطى الإستار ... واستغفرنا الغفار

واعترفنا من الشكر والاستغفار للملك الغفار، وحمدنا الله على السلامة من ركوب
الأخطار، والنجاة من غوائل وعثاء الأسفار، ونسأله الإنابة والعافية وحسن
القرار في هذه الدار وفي تلك الدار، بجاه سيدنا محمد المختار، وآله الأطهار
وصحابته الأخيار، ومن تبعهم بإحسان من الأبرار، رضي الله عنهم وأرضا
هم، وزادهم من كرمه وحباهم، وهو تعالى المسؤول أن يختم بالسعادة
آجالنا، ويغفر بالعافية عثرتنا وآمالنا، ويبلغنا من خير الدارين آمالنا بجاه
سر الوجود، ومنبع الجود، سيدنا ومولانا محمد المجتبى الممجد المعظم
صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم، والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا
وباطنا، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات، حمدا يوافي
نعمه ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله و
صحبه وحزبه الطيبين أجمعين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين
سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب
العالمين. انتهت الرحلة إلى بيت الله الحرام وزيارة النبي عليه السلام للإمام
قطب زمانه وغوث أوانه الشيخ الصالح الولي الناصح سيدنا ووسيلتنا إلى ربنا
سيدي أحمد بن محمد بن ناصر بخط من أملاه رحلته من إملائه فتقبلها منا الله بفضله
وسايله بالعلم من جنانه وكل يوم سعد فرحه وأوانه فالعلم هو أسعد من زمانه

[illegible]



من زمانه فنشكر الله سبحانه الذي
جعلنا من أهل زمانه ومن أحبته فالله
جنانه انتهى بحمد الله تعالى وحسن
عونه على يد المذنب الراجي عفو ربه عبيد
ربه وأقل عبيده محمد بن أبي القاسم من أولاد
سيدي علي بن عيسى من أولاد سليمان
غفر الله له ولوالديه ولمن شاهده
ولجميع المسلمين والمسلمات
والحمد لله رب العالمين
وكان الفراغ منه
يوم الثلاثاء
الحادي
وعشرين من ربيع الأول عام [illegible]

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث

قائمة المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث

قائمة المصادروالمراجع

_ القرآن الكريم

أولا: المصادر

أ/ كتب الرحلة

1_ الأغواطي ابن الدين ، رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين في شمال إفريقيا والسودان والدرعية، تر وتح: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط خ، 2011م.

2_ التجاني أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد ، رحلة التجاني، تق: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا_ تونس، د. ط، 1981م.

3_ التلمساني ابن هطال أحمد ، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح محمد بن عبد الكريم، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوضبي- المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2004م.

4_ التمقروتي علي بن محمد ، النفحة المسكية في السفارة التركية، تق وتح: عبد اللطيف الشادلي، المطبعة الملكية، الرباط، د.ط، 2002م.

5_ التمقروتي علي بن محمد ، النفحة المسكية في السفارة التركية (1585)، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2007م.

6_ التنلاني أبو حفص عمر الأكبر بن عبد القادر التواتي الجزائري، الرحلة إلى فاس، تح: مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط خ، 2011م.

7_ التنلاني عبد الرحمن بن إدريس التواتي الجزائري، رحلة إلى الجزائر العاصمة، تح: مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط خ، 2011م.

8_ الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي، الرحلة الحجازية، تع: عبد العالي المدبر، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث – الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، ط1، 2011م.

9_ ابن حمادوش عبد الرزاق الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تح: أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ط، د. ت.

10 _ الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر ، الرحلة الناصرية 1709- 1710م، تح: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي_ الإمارات العربية المتحدة- المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2011م.

11_ الزياني أبو القاسم، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا..، تح: عبد الكريم الفيلالي، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، ط 1991م.

12_ العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود ، رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم كردي، تق: شاكر الفحام، دار سعد الدين، دمشق، ط2، 2005م.

13_ ابن عمار أبو العباس أحمد ، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، د.ط، 1903م.

14_ العياشي أبو سالم ، تعداد المنازل الحجازية (رحلة العياشي الحجية الصغرى)، تح: عبد الله حمادي الإدريسي، دار الكتب العلمية، بيروت_ لبنان، ط1، 2013م.

15_ العياشي أبو سالم عبد الله بن محمد ، الرحلة العياشية 1661- 1663م، تح وتق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدّة، ط1، 2006م، ج1، 2.

16_ الفاسي ابن زاكور ، نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، مطبعة فونتانة، الجزائر، د.ط، 1902م.

17_ الفاسي محمد الطيب ابن محمد بن موسى الشرقي، رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة، تح: عارف أحمد عبد الغني، دار العراب- دار نور حوران، دمشق_ سوريا، د. ط، 2014م.

18_ المقري أبو العباس أحمد، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمّر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 2004م.

19_ المعسكري محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، تح وتع: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1982م.

20_ المكناسي محمد بن عبد الوهاب ، رحلة المكناسي "إحراز المعلّى والرقيب في حجّ بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب 1785"، تح وتق: محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي_ الإمارات العربية المتحدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003م.

21_ الورثلاني الحسين بن محمد السطيفي الجزائري، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تع: ابن مهنا القسنطيني، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط خ، 2011م، ج1، 2،.3

22_ الوزان الحسن بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت _ لبنان، ط2، 1983م، ج1، 2، 3.

ب/ كتب التاريخ

23_ بربروس خير الدين ، مذكرات خير الدين بربروس، تر: محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2010م.

24_ خوجة حمدان بن عثمان ، المرآة، تر وتح وتق: محمد العربي الزبيري، منشوراتANEP، د.م، د.ط، 2005م.

25_ المرازي الآغا عودة ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تح: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت_ لبنان، ط1، 1990م، ج1.

26_ المقري أحمد ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح يوسف محمد البقاعي، دار الفكر، لبنان، ط1، 1998م، م6، ج1.

27_ ابن ميمون محمد الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م.

ثانيا: المراجع

أ/ كتب الحديث

28_ الترمذي أبو عيسى ، الجامع الكبير – سنن الترمذي، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ط، 1998م، ج4.

29_ ابن حنبل أحمد ، المسند، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م، ج36.

ب/ التاريخ والتراجم وأدب الرحلة

30_ أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدّة، د.ط، د. ت.

31_ البكر خالد، الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، المملكة السعودية، 2003م.

32_ البكري أبو عبيد، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ط، د.ت.

33_ بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1979م.

34_ بوحوش عمارة، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م.

35_ بوعزيز يحي، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995م، ج2.

36_ بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون_ الجزائر، ط 1999م.

37_ التازي عبد الهادي، رحلة الرحلات، مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1426هـ، 2005م، ج1.
38_ الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، معلمة المغرب، مطابع سلا، المغرب، ، د.ط، د.ت، ج10.
39_ الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1965م، ج1، 2.
40_ حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت_ لبنان، ط2، 1983م.
41_ الحفناوي محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، د. ط، 1906م، ج2.
42_ خضر موسى محمد حمود، أدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم، دار الكتب العلمية، بيروت_ لبنان، ط1، 2011م.
43_ الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002 م، م 6، ج1.
44_ زيادة نقولا، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب المصري، بيروت_ لبنان، د.ط، 1987م.
45_ الزيدي مفيد، موسوعة التاريخ العربي المعاصر والحديث، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان_ الأردن، ط1، 2004م.
46_ سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر، الجزائر، ط خ، 2007م.
47_ سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م.
48_ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت_ لبنان، ط1، 1998م، ج1، 2.
49_ سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري حياته وآثاره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2005م.
50_ سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث- بداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1982م.
51_ سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792- 1830م)، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012م.
52_ سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية "دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني"، دار الغرب الإسلامي، بيروت_ لبنان، د.ط، 2000م.
53_ ابن سودة عبد السلام بن عبد القادر المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت_ لبنان، ط1، 1997م.

54_ ابن سودة، موسوعة أعلام المغرب، تح: محمد حجي وتوفيق المدني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م، ج4.

55_ السوسي محمد المختار، المعسول، د.م، ج3.

56_ سيدي عمر عبد العزيز، قطف الزهرات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1985م.

57_ الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس، ديوان الشافعي، بيت الحكمة، العلمة_ الجزائر، ط4، 2015م.

58_ الشامي صلاح الدين، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1999م.

59_ الشامي، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1999م.

60_ الشاهدي الحسن، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، الرباط، د.ط، 1990م،ج1، 2.

61_ شريط عبد الله ومحمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، مكتبة البعث، قسنطينة _الجزائر، ط1، 1996م.

62_ الشويهد عبد الله بن محمد، قانون أسواق مدينة الجزائر(1107_ 1117هـ/ 1695_ 1705م)، تح ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006م.

63_ الصلابي علي محمد، صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي، دار البدياق للنشر، دائرة المكتبة الوطنية، عمان 1998م.

64_ ضيف شوقي، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1956م.

65_ ضيف، عصر الدول والإمارات الجزائر_المغرب الأقصى _ موريطانيا _ السودان، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1995م.

66_ الطمار محمد، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1983م.

67_ العراقي عبد الرحمن، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، المطبعة الجديدة، فاس، د.ط، 1935م، ج2.

68_ عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2002م.

69_ عميراوي احميدة، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، د. ط، 2005م.

70_ عميراوي، بحوث تاريخية، مؤسسة دار الهدى ، عين مليلة – الجزائر، ط2، 2006م.

71_ العنتري صالح، مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1974م.

72_ غريب جورج، أدب الرحلة تاريخه وأعلامه، دار الثقافة، بيروت_ لبنان، ط2، 1972م.

73_ فهيم حسين محمد، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، 1989م.

74_ فيلالي مختار بن الطاهر، رحلة الورثلاني عرض ودراسة، دار الشهاب، باتنة_ الجزائر، د.ط، د.ت.

75_ قنديل فؤاد، أدب الرحلة في الأدب العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، د.ط، 2000م.

76_ الكتاني عبد الكبير بن هاشم، زهر الآس في بيوتات أهل فاس، تح: علي بن المنتصر الكتاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2002م، ج1.

77_ الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982م، ج1.

78_ الكحلاوي محمد، آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1994م.

79_ كراتشكوفسكي أغناطيوس يوليانوفتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، 1957م، م1،2.

80_ الكعاك عثمان، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت_ لبنان، ط1، 2003م.

81_ كنون عبد الله، مشاهير رجال المغرب، دار الكتاب المصري القاهرة – دار الكتاب اللبناني، بيروت، م1، 2، 3.

82_ كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط2، د.م، ج1.

83_ لمين الناجي، رحلات علماء المغربين الأقصى والأوسط الملكية وآثارها العلمة من خلال القرنن السابع والثامن الهجرين، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة_مصر، ط1، 2016م.

84_ ماكامان محمد، الرحلات المغربية في القرنين 11 و12هـ/ 17 و18م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2014م.

85_ المدني أحمد توفيق، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ط، 2001م.

86_ المراكشي عباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الجديدة، فاس، ط 1936م، ج2، وط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993م.

87_ المغيربي صالح، أدب الرحلة في الغرب الإسلامي من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، تر: محمود طرشونة، دار سيناترا، تونس، ط1، 2013م.

88_ ابن منصور عبد الوهاب، أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية – الرباط، د.ط، 1979م، ج2.

89_ الميلي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تق: محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، د. ت، ج1، 2.

90_ نايت بلقاسم مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، دار البعث، قسنطينة_ الجزائر، ط1، 1985م، ج1.

91_ الندوي أبو الحسن، السيرة النبوية، دار ابن كثير، دمشق، د.ط، 1989م.

92_ نصار حسين، أدب الرحلة، مكتبة لبنان– الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط1، 1991م.

93_ نواب عواطف بنت محمد يوسف، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين دراسة تحليلية نقدية مقارنة، دارة الملك عبد العزيز، 2008م.

94_ نوار عبد العزيز، تاريخ الشعوب الإسلامية "العصر الحديث"، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م.

95_ نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافي للتأليف والترجمة والنشر، بيروت_ لبنان، ط2، 1980م.

96_ هلايلي حنيفي ، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة _الجزائر، ط1، 2008م.

97_ ياغي إسماعيل أحمد ومحمود شاكر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر 987ه _ 1400ه/ 1492م _ 1980م، دار المريخ، الرياض– المملكة العربية السعودية، د.ط، 1995م، ج2.

د_ كتب اللغة والمعاجم والأدب

98_ أنساعد سميرة، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري "دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، عين مليلة_ الجزائر، د.ط، 2009م.

99_ البستاني بطرس، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت_لبنان، د.ط، د.ت، ج8.

100_ ابن جعفر قدامة، نقد الشعر، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، د.ط، القاهرة، 1963م.

101_ خمري حسين، فضاء المتخيل، منشورات دار الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002م.

102_ ضيف شوقي، فنون الأدب العربي "الفن القصصي- المقامة، دار المعارف، مصر، ط3، د.ت.

103_ ضيف، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشرق الدولية، مصر، ط4، 2004م.

104_ ابن فارس أحمد، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، م2.

105_ الفيروز آبادي بحر الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1979م، ج3.

106_ القاسم سيزا، بناء الرواية "دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مكتبة الأسرة، القاهرة، د.ط، 2004م.

107_ الكردي عبد الرحيم، السرد في الرواية المعاصرة الرجل الذي فقد ظله نموذجا، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1992م.

108_ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت، م3، ج18.

109_ وهبة مجدي وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م.

ثالثا: الأعمال الأكاديمية

أ/ الرسائل الجامعية

110_ بخيتي عيسى، أدب الرحلة الجزائري – سياق النص وخطاب الأنساق- أطروحة دكتوراه علوم في الأدب الجزائري الحديث، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2015م.

111_ برادع زبيدة وفتيحة عيساوي، أدب الرحلة في الجزائر، رحلة ابن حمادوش "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" أنموذجا، جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة، كلية الآداب واللغات، 2016م.

112_ بقادي مسعود، هجرة علماء تلمسان إلى فاس ودورها الثقافي بين الجزائر والمغرب خلال القرن 10هـ/ 16م، رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة_ الجزائر، 2014م.

113_ بكاري عبد القادر، منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (1519- 1830م) أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2016م.

114_ بوحجرة عثمان، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني 1519- 1830م (مقارنة اجتماعية)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أحمد بن بلة، وهران1، 2015م.

115_ بوقادوم الحمزة، الحراك الفكري لعلماء المغرب خلال القرن 16م الشيخ أبي عبد الله محمد الخروبي الطرابلسي نموذجا، مذكرة مقمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2014م.

116_ حراش مايسة، ثقافة بلاد المغرب العربي من خلال رحلة كل من الورثلاني وابن حمادوش، مذكرة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير القادر ، قسنطينة_ الجزائر، 2014م.

117_ حسيني الطاهر، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني "بناؤها الفني أنواعها وخصائصها"، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة_ الجزائر، 2014م.

118_ حفيان رشيد، الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر المغربية وأثرها الحضاري في العهد العثماني خلال القرنيين 17_ 18م، رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2014م.

119_ دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2015م.

120_ زردومي إسماعيل، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، أطروحة دكتوراه دولة في الأدب القديم، جامعة الحاج لخضر، باتنة_ الجزائر، 2005م.

121_ بن سالم الصالح، التواصل الثقافي بين الجزائر والمغرب خلال (1549- 1664م)، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة _ الجزائر، 2014م.

122_ شدري معمر رشيدة، العلماء و السلطة العثمانة "فترة الدايات (1671- 1830م)"، ماجيستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2006م.

123_ شقرون عبد الجليل، نحلة البيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار أبي العباس سيدي أحمد، دراسة وتحقيق، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في تحقيق المخطوطات، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان_ الجزائر، 2017م.

124_ شويتام أرزقي، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519- 1830م، رسالة مقدمة لنليل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2006م.

125_ العابد زكرياء، الجزائر في العهد العثماني من خلال رحلات أوربية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة_ الجزائر، 2007م.

126_ عمارة البشير، التفاعل الثقافي بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال القرن(11هـ، 17م)، رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة_ الجزائر، 2014م.

127_ عياشي بلقاسم، قضايا التاريخ العثماني عند الباحثين الجزائريين منذ 1962م، رسالة ماجيستير في التاريخ الحديث، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة_ الجزائر، 2007م.

128_ مشوشة سمير، النشاط التجاري بين الجزائر وتونس في القرن 12هـ/18م من خلال رحلات المغاربة، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة _ الجزائر، 2014م.

129_ مقدم فاطمة، الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش الجزائري، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في اللغة العربية وآدابها ضمن مشروع: الأدب الرحلي المغاربي، كلية الآداب واللغات والفنون اللسانية، جامعة وهران، 2011م.

130_ نواب عواطف، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنيين السابع والثامن الهجريين- دراسة تحليلية نقدية مقارنة، دراسة مقدمة لنيل درجة الماجيستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1991م.

ب/ المقالات

131_ بوتشيشة علي، مدينة وهران من خلال كتابات الجغرافيين والرحالة والمؤرخين، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف_ الجزائر، ع19، جانفي 2018م.

132_بوسليم صالح وبن قايد عمر، الأضرحة والمزارات في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات المغربية، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة_ الجزائر، ع 21، سنة 2015م.

133_ بوشيبة دهبية، مقال "العلم والعلماء في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة الحوار المتوسطي، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس_ الجزائر، ع3، 4، 2012م.

134_ حماة الله ولد السالم، قوافل الحج ومسالكها بين غرب الصحراء والسودان مع المغرب والمشرق خلال العهد العثماني، المجلة التاريخية المغاربية، تونس،ع 116، سنة 2004م.

135_ شرشار عبد القادر، كتاب رحلة المقري إلى المشرق والمغرب، الفضاء المغاربي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان_ الجزائر، ع1، ماي 2016م، م1.

136_ صادوق الحاج، "أسباب الرحلات المغاربية إلى الحجاز إبان القرن الثاني عشر الهجري –الثامن عشر الميلادي"، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشهيد حمة لخضر، الوادي_ الجزائر، ع 10، جانفي 2017م.
137_ كريم عبد الكريم، تونس في بعض رحلات المغاربة، مجلة التاريخ العربية، الإمارات العربية المتحدة، ع4، سنة 1997م.
138_ كريم عبد الكريم، ليبيا في مخطوطات الرحالين المغاربة خلال القرنين 17_ 18م، مجلة التاريخ العربي، الإمارات العربية المتحدّة، ع8، سنة 1998م.
139_مشوشة سمير، ابن حمادوش الجزائري وأبو راس الناصري يؤرخان للعلاقات التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن18م،جامعة عباس لغرور، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة حمة لخضر، الوادي_ الجزائر، ع12، مارس 2017م.
140_ المشهداني مؤيد محمود حمد وسلوان رشيد رمضان، "أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518– 1830م"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تقرت_ الجزائر، ع16، 2013م، م5.
141_ المنوني محمد، "رحلة ابن عثمان المكناسي إلى القدس الشريف ومناطق من فلسطين"، مجلة المناهل، الرباط_ المملكة المغربية، ع 39، 1990م.

ج/ الملتقيات

142_ يوم دراسي بعنوان: الرحلة خلال العهد العثماني _الكتابة التاريخية عند مؤرخي العهد العثماني بالجزائر خلال القرنيين 17و18م "دراسة في بعض النماذج"، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران1/CRASC_ الجزائر، فيفري 2016م.
143_ ملتقى وطني بعنوان: الرحلة الدينية والعلمية ودورها في التواصل الحضاري في العصر الوسيط والحديث، جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة_ الجزائر، 28 نوفمبر 2019م.
144_ الملتقى الدولي التاريخي الثاني حول: "الرحلة والرحالة في ربوع أولاد نايل"، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانة، جامعة الشيخ زيان عاشور، الجلفة_ الجزائر، 18– 19 نوفمبر 2019م.

فهرس الموضوعات

الملخص

تتمحور هذه الدراسة حول كيفية وصف الرحلات المغاربية لأوضاع الجزائر العامة، في العهد العثماني، طبيعيا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا، ومدى اتفاقها واختلافها، من خلال رصد الرحلات المغاربية داخليا وخارجيا، وبيان منهجها ومصادرها ومنهجية تدوينها، ودوافعها وامتداداتها.

وذلك من خلال الحديث عنماهية الرحلاتالمغاربية ومدى مساهمتها في فن الرحلة، ومحاولة التعرف على أهم الرحلات المغاربية إلى الجزائر في العهد العثماني سواء الجزائرية منها أو المغربية، وبيان منهج تدوينها، ودواعي تأليفها، وأهم دوافع إنجازها، وامتداداتها المعرفية.

بالإضافة إلى عرض مضمون الرحلات الخاص بالجزائر، من الأوصاف العامة والمشاهد الجغرافية، مع أخبارها التاريخية، إضافة إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية.

وبعد المقارنة بين الرحلات الجزائرية والمغربية لم يظهر هناك اختلاف كبير فيما أوردته من نصوص إلا في بعض الأحيان، باعتبار أن أصحاب الرحلات أبناء بيئة علمية مغاربية متشابهة، والاختلاف كان في البيئة السياسية التي تؤثر في دافع الرحلة ودواعي تدوينها أكثر من تأثيرها على المادة الرحلية وأسلوب تدوينها، كما كانت هذه الرحلات ذات مصداقية عالية في ذكرها للأخبار التي عايشها الرحالة وهو ما يثبته التطابق الكبير بين أغلب الرحلات الجزائرية والمغربية.

Abstract:

This study focuses on how Maghreb trips describe the general situations of Algeria in the Ottoman era, naturally, politically, socially and culturally, and the extent of their agreement and differences, by monitoring Maghreb trips internally and externally, and explaining their methodology, sources, their motives and extensions. Through talking about the nature of the Maghreb trips and the extent of their contribution to the art of the journey, and trying to identify the most important Maghreb trips to Algeria in the Ottoman era, whether Algerian or Moroccan, explaining the methods and reasons for their composition, the main motives for their achievement, and their extensions.

In addition to presenting the contents of the trips on Algeria, including general descriptions and geographical scenes, with its historical news, in addition to the political, social and cultural situations.

After the comparison between the Algerian and Moroccan trips, there was no significant difference in the texts they mentioned except in some cases, considering that the trip' authors are from a similar Maghrebian scientific environment, and the difference was in the political environment that affects the motives of the trips and the reasons for its recording more than its effects on the travel subject and the method of its recording. These trips were also highly credible in mentioning the news that the travelers experienced, which is evidenced by the great correspondence between most of the Algerian and Moroccan trips.